
أحمد فال الدين
دانشمند
رواية

أحمد فال الدين





المؤلّف: **أحمد فال الدين**

عنوان الكتاب: **دانشمند**

تصميم الغلاف: **عبد الفتّاح بوشندوقة**

تنضيد: **سعيد البقاعي**

ر.د.م.ك: **978-9938-979-50-3**

الطبعة الأولى: ديسمبر 2023



منشورات ميسكلياني

تونس: 13 شارع محمّد الخامس، المدينة الجديدة2، تونس

الهاتف: 561936632(971+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

الإمارات: مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرّة، الشارقة، الإمارات

الهاتف: 561936632(971+) أو 504731882(971+)

إهداء

إلى شيخ المُخْبِتِين المرابط الحاج بن فَحْفُو،
وليالي تبتُّلِه الطِّوال!

الميلاد الثاني

غزلتُ لهم غزْلًا دقيقًا فلم أجدْ
لغَزْليَ نسّاجًا.. فكسّرتُ مِغزلي!
الإمام الغزاليّ

أدْرَكَ ذُرْوةَ الجبل، فأزاح الجرابَ عن كَتِفه وتداعى جالِسًا مُرهَقًا، يضمّ أطرافَ مُرقَّعته الباليةِ لعلّها تطرد عنه الرياحَ النديّةَ الباردة. رأى نصفَ البدر مُطلًّا من وراء المدينة كعينٍ حولاء، وامتلأ سَمعُه بحفيف الشّجيْرات المتناثرة، وصياحِ الدّيكة المتأهّبة لليلةٍ جديدة. ثمّ أخذ يُنْصت لأصداء القافلة وهي تبتعدُ لتَسْبِقَه في دخول المدينة.

نظر إلى جِرابه الشّعِث من السُّرى، وعصاه الكالَّةِ من التّوكُّؤ، وقدَميْه الهزيلتَيْن الدَّاميتَيْن بين مشيٍ أو صلاةٍ منذ شهرين. أكان عليه أن يسافر كلّ هذا السّفر ليلتقي بنفسه؟ أكان لا بدّ من هذه الهجرةِ لينتَقِلَ من طرف قَلْبه إلى طرفه الآخر؟ أوَ يتّسعُ القلبُ اتّساعَ المفازات، أو يضيقُ كسَمِّ الخِياط، ويمتدُّ حتّى يحوي الأكوانَ المُتباعدة والعوالمَ المتناقضة؟

هبَّت رياحٌ، فانفتحَ طرفًا مُرقَّعته وهو على حافّة الجَبل يتأمّل المدينة الساكنة الساجية. بدا كطائرٍ خفيف الجرم حادِّ النظرات يهبط فجأةً قادمًا من كوكبٍ في أقاصي الكون. *ما الّذي ينتظرني في حنايا هذه البلدة؟ أيّ عيونٍ سترمقني هناك؟ وأيّ آذان قد تُصغي إليّ؟*

أخذتْه الرجفة فشعر بغضون روحه تترسّل بعد انقباضٍ، وبصدئها يسّاقط بعد طول ثبات. غشِيَه ذلك رغم أطرافِهِ المُرهقة وبَطنِهِ الخاوية وقَدمَيْه الدَّاميتَيْن. من أيّ ملكوتٍ ومن أيّ سماواتٍ غمرته السّعادةُ السّارية بين ضُلوعه الآن؟ سعادةٌ كأنفاس الرّبيع الأولى، وعناقِ الأمِّ بَعْدَ فِراقٍ، وغِبْطَةٌ تُداني غِبْطَةَ يثرب وهي ترَى إطلالَةَ ابنِ عبد المطلب طالعًا من ثَنِيّات الوداع! وهذا حُبورٌ لم يُجربّه في آلاف السّاعات الّتي سلَخَها من عُمره بين المنابِر والمحابِر، ولا طافَ بفؤاده وهو يَسْعى مُهروِلًا بين الصَّفا والمروة.

سَكَنَتْ أصواتُ القافِلَة المنداحةِ مع الجبل رُويدًا رُويدًا.. وخَمَدَ حفيفُ الشُّجَيْرات القريبة، واكتمَلَ بُزوغُ القَمر مِن ورَاء المدينة فاتَّضَحَتْ مَعَالِمُها. بناياتٌ شامخة، ومناراتٌ مُشرئِبَّةٌ إلى السّماء، وشوارعُ نصفُ منكشفةٍ تحتَ خُيوط البَدْر الخَجْلى.

حَلَّ جِرابَه وأخرجَ كِسرة خُبزٍ يابِسة. نَتَشَ منها ثَلاث نَتْشاتٍ، ثمّ تفرّس في أطراف الجبل فلَمْ يَرَ غيرَ الأشجار الصّامتة السّاكنة، والصُّخورِ المَلْساء اللاَّمعَةِ تحت أشِعَّة القمر، وخُفّاشٍ وحيدٍ يخفِقُ جناحاه مبتعدًا في الأفق. لَمْ يَرَ عَيْنًا من عُيون الخليفَة تَرمقُه، ولا رأى جاسوسًا من جواسيس السّلطان يَتبعُه، ولَا سَمِعَ لِسانًا يُناديه باسْمِه الحَقيقيّ منذ أسابيع. فتنفّس بعمقٍ وتسلّلت ابتسامةُ ظَفَرٍ إلى شَفتَيْه المُنْطَفِئَتَيْن.

غيَّرَ جلْستَه، ومدَّ رِجْلَيْه ثمّ رفعَ يدَهُ وَمَسَحَ لِحْيَتَه الّتي وَخَطَها الشّيْب. ثمانيةٌ وثلاثون عامًا طُوِيَتْ من العمر سُدًى! عقودٌ من الشّباب والعافية مرَّتْ مرَّ البرق! ألا يَعقِلُ الإنسانُ إلّا إذا شَارَفَ الأربعين؟ ألا يُفيقُ إلّا بَعْدَ فواتِ الأوان؟

وَتَذَكَّر ابنتيْه! عيونَهما الدَّائرة، وأجفانَهما المرتجفةَ وهما تَتَشبّثان بِجبّته مُتوسِّلتَيْن، وصورةَ أمّهما واقفةً في الدّهليز. ودَّعتْهُ والدّموع حائرةٌ في

مآقيها. فلمّا ابتعدَ، الْتَفَتَ إليها في نهاية الدّهليز مُلوّحًا، وسرعان ما غامت الرؤية والتبست عليه الأحاسيس، فلم يعد يعرف أكان الدمع ينسكب على وجْنَتَيْها أم على وجنتَيه، وهل كان نشيجُها يتوارى خلْفَ الباب أم يتجاوب في صدره.

خَفَقَ قلبُه طاردًا صورةَ البِنْتَيْن... فلعلَّه لا يَراهُما أبدًا. وبزغَتْ في ذهنِه صورةُ أمِّهِ! خطَرَ لَهُ أنّها تستيقظُ حيّةً في اللّحظات المفصليّة مِنْ عُمره دَوْمًا. كأنّ المرْءَ يظلُّ مشدودًا بخيطٍ خفيٍّ إلى الرَّحِم الّتي خَرَجَ منها وإن تناءت الدار وانفسحت الأيّام.

أمسك عصاهُ، ركزها أمامَه، واعتمد عليها بيديه، ثمّ أسند إليهما ذقنَه، وظلّ ينظر إلى المدينة الخاشعة تحت البدر البهيج. *عليك الدّخول قبل إغلاق باب السّور كي لا تبيتَ في العَراء. أمامَك طريقٌ طويل.. فأنْتَ إنَّما وُلدتَ الآن! وما أثْقَلَ أن يُولَدَ الإنسانُ مُتأخّرًا بَعْدَ عُمرٍ مديد! فكُلُّ ما مضى كان غزْلًا فاسدًا لا بدّ من نَقْضِه خيطًا فَخَيْطًا.*

وقَفَ ووَضَعَ الجِرابَ على مِنْكَبه وانْحَدَرَ محاذرًا الصُّخورَ والنُّتوءاتِ والحُفَرَ والألم. دخَلَ المدينةَ عِشاءً وهو يتلفّت. وقَفَ أمامَ الباب الأحمر ذي الأضلاع المقوَّسة مُنصتًا لأذانِ العِشَاء.

ثمّ تجاوزَ الحارسَ الواقفَ عند الباب بِقَلْبٍ مُضْطَرب. وخَطا خطواتِه الأولى في الزّقاق المبلّط الضيّق. فاختلَط صوتُ خَفْق نعلَيْه وَقَرْع عصاهُ بترجيع الأذان، وانتابه إحساسُ الفاتحين. فكم عامًا رابَط أمامَ قَلْبه ليَفْتَحَه؟ وأيّ أسوارٍ في الأرض أمْنَعُ من أسوارِ القلوب؟ كمْ سنَةً راوَد نفسَه ليُقنعَها بالسَّير إلى الكريم المُتَعَالي؟ قد يَحْفَظُ التَّاريخُ أسوارَ مدينةٍ استَعْصَت على الحِصَار عشرينَ عامًا. فهل يحمي حكايةَ رجلٍ ظَلَّ عشرين عامًا يُحاولُ فَتْحَ قلبِه للنّور؟

أفاق بغتةً على صوت الحارسِ الخَشن من ورائه:

- توقَّف! من أنْت؟ ومِنْ أيْنَ قَدمت؟

فانْتَفَضَ مُنزعجًا من صيغَة السُّؤال. ألَمْ يهربَ إلّا من الأسئلة؟ وهل رمى نفسَه على مجاهل الفيافي وسُفوح الجِبال إلاَّ طَلَبًا للنّسيان؟


اليتيم

1

الطابران، خراسان 456 هـ.

رمت الجرابَ عن كتفها بعد يومٍ شاقّ، وأطرقت تفكّر في حال ولدَيْها وهما يلعبان أمام الحجرة الطينيّة الضيّقة، ثمّ نظرت إلى أناملها المتعبةِ من الخياطة. *كيف سأعيل هذين الولدين إنْ كان ما قاله الرجل البارحة صحيحًا؟*

ظلّ قلبُها مشغولًا بمصيرهما، حتّى خطرَ لها أنّ الخشيةَ على محمّد، وليس على أحمد. فأحمد يعاركُ الأطفال، وينتزع منهم الألعابَ والطعام، ويستطيع مواجهة الحياة. أمّا محمّد فهادئٌ صامتٌ دومًا كأنّما جاء الحياةَ على كِبَر. *فهل تكفي نباهتُه لحمايته من أنياب الأقدار بعد نفاد ما تركه والده من مالٍ قليلٍ عند صديقه حامد؟ وهل أُخبرهما بما قاله حامد البارحة أم أرسلهما إليه كما طلب؟ ولِـمَ لا أرسلهما إليه، فلعلّه خبّأ لهما أمرًا لا يريد إخباري به؟*

أخرجت رأسَها من الباب:

- تعالَيَا!

اقترب محمّد رافعًا طرف جُبّته، ورمى أحمدُ عودًا كان بيده وركض مقبلًا. أجلسَتْهما أمامها مُداريةً توتّرها:

- اسمعَا. تذهبان الآن إلى صديق أبيكما حامد وتسمعان منه؛ فهو مريضٌ منذ شهر، وطلب البارحة رؤيتكما. وعندما تخرجان من عنده تعودان إليَّ وتخبرانني بما قال. لا تذهبا للّعب!

شعر محمّد بنبرةٍ غريبةٍ في صوت أمّه لم يعهدها من قبل، لكنّه أحسّ بجدّيّة الأمر. فرَنَا إليها بتطلّع، بيد أنّها قاطعته بحزم:

- انطلِقَا!

فانطلقا فورًا، وما إن تجاوزا الزقاقَ الثاني قربَ المسجد حتّى رأى محمّدٌ ذلك الطفلَ ابنَ النخّاس راكبًا بغلةً يقودها خادم. كان طفلًا مغرورًا مكتنزًا متورّدَ الوجنتَين. كلّما يراه محمّد يشعر بضيقٍ وتوتّرٍ وحَنَقٍ، فهو يسخر منه دومًا في الكتّاب، ووالده ما ينفكّ يستدرج أمّه إلى الكلام كلّما مرّتْ من أمام منزله.

تبادلا النظرات، وسرعان ما اختفى ذيلُ البغلة داخل مدخل المنزل الفسيح. وامتلأ أنف محمّد برائحةٍ غريبةٍ لا يشمّها إلّا أمام هذا البيت.

أمسك أنفَه بسبّابتَيْه، وأسرع خلفَ أخيه حتّى بَلَغَا بيتَ حامد في نهاية شارع جهار مغز. أدخلتهما زوجتُه إلى غرفته، فوجداه ممدّدًا. كان شيخًا قصيرًا أبيض كثَّ اللّحية. وقد خُيّل لمحمّد أنّه ازداد نحولًا وشحوبًا بعد آخر مرّةٍ رآه فيها بالمسجد. فشعر بضيقٍ وهو يرى الشيخَ يتنفّس تنفّسًا متتاليًا مرتفعًا، وامتلأ أنفه برائحة الأدوية السارية في أطراف الغرفة الضيّقة الواطئة السقف.

رفع الشيخ يده، فجاءت زوجتُه، وأقعدته، ووضعت وسادةً بين ظهره والجدار. وتكوّم محمّد وأخوه في ركن الغرفة يسترقان النظر إلى صديق والدهما حتّى تناهى إليهما صوتُه متقطّعًا:

- آآآ.... لا أدري... هل أخبرتكما أمُّكُما من قبل أنّ والدَكما ترك عندي مالًا لكما؟ كنت أعطيها من ذلك المال كلَّ شهر لتُعيلكما. فهي مسكينةٌ تخيط الملابس بدُرَيْهِماتٍ لا تسدّ حاجتكما.

وسكت وهو يرفع يدَه ليمسحَ ريقًا عن شفته السفلى، ثمّ تتالَى سعالُه. فشمَّ محمّد رائحةَ دواءٍ حَمَلَتْها أنفاس الشيخ، وانبعثتْ ذكرى غامضةٌ عن والدٍ لا يكاد يذكره إلّا مريضًا.

أجال حامد نظراته في السقف، ثمّ التفت إليهما وقد اتّسعتْ عيناه:

- لقد انتهت دريْهماتُ أبيكما، وأنا رجلٌ فقيرٌ لا أملك مالًا، وهذه حالي. ورأيت أفضلَ ما أفعل بكما أن تذهبا إلى مدرسة الطابران وتطلبا فيها العلم؛ فقد كانت أمنيّةُ أبيكما أن يراكما عالميْن. ثمّ إنّ المدرسة تتكفّل بنفقتكما وكسوتكما... هذا ما أراه، وقد حدّثتُ ناظرَ المدرسة بأمركما، وهو ينتظركما فاذهبَا إليه غدًا. فما أدري متى يأخذ الله أمانته؟

وتسارعت أنفاسُه وعلَا سُعالُه، فأزالتْ زوجتُه الوسادةَ وأضجعتْه برفق. أمّا الولدان فظَلّا ينظران إلى الشيخ الممدّد حائرين. هل عليهما الخروج الآن أم البقاء؟ ثمّ التفت محمّد إلى زوجة الشيخ، ففهم ما في عينيها، فقام وقبّل يدَه، وتبعه أخوه.

انشغل ذهن محمّد طوال الطريق بدخوله مدرسةَ الطابران. وهي بنايةٌ ضخمةٌ مليئةٌ بالأولاد، لم يسمع عنها غير العراك المستمرّ بين طلّابها. وتذكّر قصّة حميد، ابن جارته، إذ كاد يُقتل خنقًا في خصومةٍ داخل المدرسة لولا أنّ أخاه الأكبر أنقذه. *من سيدافع عنّي وعن أخي ولا راعي لنا إلّا أمّنا؟*

واستيقظ على تلك الرائحة الغريبة، فأسرع الخُطى. وما كاد يقترب من المنزل حتّى رأى أمّه تجلس على عتبة الغرفة منتظرةً عودتهما.

ركض أخوه فسبقه إليها، وهو يقول باسمًا:

- حامد يريدنا أن نذهب إلى مدرسة الطابران!

قالها بوجهٍ متهلّلٍ، إذ تصوّر المدرسةَ مكانًا بهيجًا للعيش مليئًا بالطلّاب واللّعب والقصص والأطعمة المختلفة. لكنّ الأمّ لم تلتفت كثيرًا إلى ما قال أحمد، بل حوّلت نظرها إلى ابنها الهادئ الصامت، فقد كانت تعرف دقّةَ وصفه واحتفاظه بالتفاصيل، وتُدرك قدرتَه على فهم ما لا يفهمه أقرانُه:

- تعالَ يا محمّد... ماذا قال حامد؟

جلس بهدوءٍ قرب ركبتيها وقال:

- الشيخ حامد مشرفٌ على الموت يا أمّي.

فعدّلت خمارَها على رأسها:

- وماذا قال لك؟

صرف بصرَه عنها، ونظر إلى عتبة الباب المتآكلة والحصير المهترئ وهو يسمع نهيقَ حمار السَّقّاء الآتي من الشارع:

- قال إنّ المال الذي تركه والدُنا نفَد.. واقترحَ أن نذهبَ إلى مدرسة الطابران لأنّها ستتكفّل بنفقتنا وكسوتنا.

تراجعت وأسندت رأسَها إلى الجدار. اقترب صوتُ السقّاء الأعور الذي حان موعدُ دفع أجرته. لقد نفدَ المال إذَن! هذا يعني أنّ ما تركه أبوهما كان قليلًا. *كنت أمنّي النفس ألّا ينفد قبل أن يكبرا ويستطيعا العمل.* وتذكّرتْ زوجَها الورع، وأمنيّاته برؤية طفلَيه فقيهَين يُشار إليهما. وها هما طفلان يتيمان بلا مال.

وسمعت صوت محمّد:

- أمّي لا تخافي... أنا وأخي رجلان ونستطيع القيام بكلّ شيء!

رفعت رأسَها عن الجدار، ثمّ أخذت تتأمّل وجهَه الأبيضَ الجميل وعينَيه السوداوين العميقتَين، مداريةً دمعَها.. وفكّرت في قدرته على قراءة مشاعرها، رغم أنّه لم يكمل عامَه التاسع، فهزّها إحساسُه بها.

وصَلَ السقّاء الأعورُ إلى باب الحجرة، وأوقف حماره:

- السلام عليكم.... أجرة الشهر!

قالها وهو يزيح قربةً ضخمةً من فوق حماره ويثبّتها في مسمارٍ مغروزٍ عند طرف الجدار.

فمشت إليه مسرعةً وهي تمسح دمعةً عن وجنتها:

- هذه هي!

ثمّ دسّتْ فِلْسَيْن في يد السقّاء، وعادت إلى باب الحجرة تتصنّع ابتسامةً وهي تقول لمحمّد:

- تذهبان إلى المدرسة إذَن بحول الله!

وفي صباح اليوم التالي كانوا ثلاثتهم ينتظرون في حجرة ناظر المدرسة. انشغل محمّد بالتفكير في طبيعة الحياة داخل تلك الحجرات. وكيف سيتفادى العراكَ مع الأولاد الحمقى. بينما كان أخوه يفكّر في أوقات الفسحة، والركض للذّهاب إلى المسجد، وفي وجود بعض أصدقائه هناك.

وقطع أفكارَهما صوتُ حذاء الناظر قادمًا، وقد ملأ البابَ بجبّته الرماديّة وهو يقول:

- السلام عليكم. مرحبًا.. مرحبًا.... بالطالبيْن النجيبَيْن!

قالت الأمّ بحياءٍ وعيناها إلى الأرض:

- وعليكم السلام...

جلس الناظر على الكرسيّ ووضع حزمة أوراقٍ على الطاولة:

- لقد حدّثني عنكما الشيخ حامد.

وتحت الضوء المنسرب من النافذة، اتّضحت معالم وجهٍ لحيمٍ بلحيةٍ خفيفةٍ. فقالت الأمّ:

- نعم، هو وصيٌّ عليهما بعد وفاة أبيهما رحمه الله!

لقد تعمّدت قولَ ذلك لتؤكّد أنّهما يتيمان كي يرقّ قلبُه ويرعاهما.

فتح الرجل خزنةً عن يمينه وأخرج دواةً وقلمًا ودفترًا ضخمًا. ثمّ فتح الدفترَ وغرز رأسَ القلم في الدواة وهو ينظر إلى محمّد:

- اسمك واسم أبيك وجدّك؟

- محمّد بن محمّد بن محمّد الغزالي.

تمنّت الأمّ لو سأله عن أمورٍ أخرى حتّى يعرف ذكاءه وفهمَه. فتحرّكت في كرسيّها وقالت:

- هو يستطيع القراءة والفهمَ كما يفعل الكبار.

فرفع وجهَه عن الدفتر مبتسمًا حتّى ظهرت رباعيّته السوداء:

- ما شاء الله، ما شاء الله... ماذا درست يا بنيّ؟

- حفظت نصفَ القرآن... وأستطيع..

- ما شاء الله، ما شاء الله!

والتفتَ إلى أحمد المشغولِ بعدِّ الدفاتر المصفوفة في خزنةٍ بطرف الحجرة:

- وأنت ما اسمك يا بنيّ؟

- أحمد بن محمّد بن محمّد الغزالي.

وفجأةً انطلقت صرخاتٌ مختلطة. فوقف الناظر منزعجًا، وسدّ بابَ الحجرة، وقال:

- هدوء! هدوء يا أولاد!

رمى محمّد بصرَه جهةَ الباب، فلاحظ أنّ الوقت وقتُ الفسحة. مئاتُ الطلّاب يتدافعون نازلين من الحجرات العلويّة إلى الساحة الأرضيّة الواسعة في طريقهم إلى قاعات الطعام. ورأى بعضَ وجوهٍ يعرفها: محمّد ابن القصّاب، وزهير ابن المرأة المجنونة التي تسكن في سكّة جهار مغز، ووجه الولد القميء المدلّل صاحب البغلة.

وأفاق على الناظر يصفّق بيديه:

- انتهى الأمر.. يأتيان غدًا. سيبقيان في المدرسة الأيّامَ كلّها حتّى أيّام الأعياد، ولا بأس إذا شئتِ أن تأخذيهما الخميسَ والجمعة.

والتفتَ نحوها:

- البقاء هنا مرهونٌ بحسُن السيرة. ولذا يُحظَر العراك، وتُحظَر مناقشة المعلّمين أو الإساءة إليهم أو إلى أيٍّ كان.

ثمّ وقف وهو يدلّك وجهه اللحيم:

- أراكما غدًا!

فخرجوا من الباب الأحمر المقوَّس يعمّهم الهدوء، ومشَوا مع الشارع المنحدر صامتين، وقد انشغل كلّ واحدٍ منهم بما ينتظره. هل يمكن للأمّ أن تبقى وحيدةً في حجرةٍ وسط الطابران، أم عليها الذهاب للعيش في بيت أخيها رغم بُغضها لزوجته القصيرة السليطة؟ ذلك أهونُ من السكنى وحيدةً أو قبول الاقتران بنخّاسٍ قذرٍ ثريٍّ يعرض عليها الزواج كلّما مرّت من أمام بيته المليء بالجواري ورائحة الخمور.

أمّا أحمد فكان خيالُه ممتلئًا بصورته وسطَ هذا الكمّ الهائل من الأطفال. سيكون له عشرة أصدقاء، وسيخرج أخيرًا من بيت أمّه ليصبح رجلًا.

وكان محمّد مهمومًا بأسئلةٍ أخرى. فكيف يمكنه العيش بين هؤلاء الأطفال؟ هل سيتعرّض للضرب؟ كيف يحمي نفسه من لغطهم وقتالهم الدائم؟ لعلّ الأساتذة إذا تعرّفوا إليه وفّروا له الحماية... ولعلّه يلوذ بالفرار إذا وجد المدرسة لا تطاق. لكنّ ذلك قد يزعج أمّه!

وهكذا ظلّ ثلاثتهم يمشون بصمتٍ في الشارع المنحدر المكتظّ.. وكلّ واحدٍ منهم يفكّر في ما يحمله الغد...

2

الطابران، 460 هـ.

انقسم الأطفال صفَّين. تقدّم طفلٌ قصيرٌ أقرعُ، وخطَّ ثماني دوائرَ في الأرض. كان موضوع السباق هو القفزَ برجلٍ واحدةٍ مع رفع اليدين حتّى إكمال الدوائر دون لمسِ أطراف الخطوط. وما إنْ صار إطار اللعبة جاهزًا حتّى صرخ طفلٌ حادُّ الصوت:

- لا أريد محمّدًا الغزاليّ في فريقي!

انصرفت العيون الصغيرة إلى الغزاليّ، فامتقع وجهُه. وتقدّم طفلٌ أسمر رافعًا إصبعه:

- الغزاليّ معي! معي!

كان الطفل يراهن على أن يساعدَه في حفظ درسِه مساءً إذا أنقذه من الحرج وقَبِلَه في فريقه. وبدأت الأرجل الصغيرة تتقافز، وجاء دور الغزاليّ. فاقترب من اللّعبة. وشمَّر جبّتَه إلى ركبتَيْه بقلبٍ خافق. كان قد تدرّب أمام المسجد وحيدًا كي لا يقع في أخطاء فاضحةٍ كتلك التي وقعت له قبل أيّامٍ فأخذ الطلّاب يتندّرون عليه طوالَ الأسبوع. حتّى إنّ معلّمَ النحو كان يشرح قاعدةً، وعندما سأله الغزاليّ عنها فاجأه ضاحكًا:

- أنت ذكيّ جدًّا والقاعدةُ بسيطة... فلا تدعها تختلط عليك كما تختلط رجلاك في الألعاب!

وظلّت تلاحقُه قهقهةُ الطفل الغبيّ الجالس عن يمينه.

تقدّم عاضًّا شفته السفلى، وبدأ يقفز. واحد... اثنان... ثلاثة...

أربعة... خمسة... ستّة... لم تبق إلّا دائرتان...آآآ... ودفعتْه يدٌ من وسط الزحام، فانحرف وسقَط. وارتفعت الضحكات. وقف ينفض ملابسه، ويمسح العرقَ عن جبينه. ثمّ رفع عينَيه السوداوين العميقتَين في الأطفال الضاحكين المتحلّقين حوله. كان قلبه يخفق، وأنفاسُه مسموعة، ويداه ترتجفان، والرمل عالقًا بأطراف جبّته. وما زاد في انزعاجه أنّه يعرف جيّدًا مَن دفعه.. إنّه المكتنزُ الأحمقُ ابنُ النخّاس بلا شكّ، ذلك الذي لم يفهم شيئًا ولم يحفظ قَطُّ حرفًا. تلفّتَ فرأى عصًا مرميّةً فقفز وأخذها، لكنّ طفلًا آخر اختطفها من يده:

- هذه عصاي ولا أسمح لك باستخدامها...

فشعر بروحه تكاد تخرج من جلده قهرًا.

ثمّ نظر إلى الطفل. *ماذا لو هاجمتُه وصارعتُه؟ لكنّه سيغلبني؛ فجسمه أقوى.* ثمّ تذكّر الحديدة المرميّة قرب المطبخ. نفض يدَيه ومشى. فانطلقت صرخة:

- هرب هرب... الطفل الذكيّ هرب...

وسمع صوتَ أحد زملائه في حجرة سكنه:

- قلت لكم إنّ الطفل لا يكون ذكيًّا في الدراسة إلّا وهو جبان!

- ها ها ها...

وهدأت الأصوات، واستُئنِف اللّعب. ثمّ أقبلَ الغزاليّ بهدوءٍ من جهة المطبخ وقد أخفى الحديدةَ تحت جُبّته. ولمّا اقترب من مكان اللعب ركضَ كالسهم:

- طاااخ!

فسقط ابنُ النخّاس، وانطلق صراخُ الأطفال؛ كانت الضربةُ على الرأس. أمّا الغزاليّ فوقفَ بأنفاسٍ متسارعةٍ ينظر إلى الولد الطريح، والأعينُ

المصدومة تفترسه. وسرعان ما انطلق طفلٌ ألثغُ قصيرٌ مشهورٌ بنقل الأخبار راكضًا جهةَ حجرة الناظر.

وفي اليوم التالي كان أحدُ الأساتذة يقودُه ليقف بين يدَي الناظر ويسمع قرارًا بتحديد مصيره. تناوشتْه أسئلةٌ كثيرة: *هل سأُطرد من المدرسة؟ هل ستغضب أمّي؟ كيف سأعيش إذا أعادوني إليها؟ هل ستعمل خادمةً في بيت النخّاس لتطعمني، أم في بيتٍ آخر؟*

دخل حجرةَ الناظر، فوجد أمّه واقفةً وسطها. فاجأه وجهُها المشرق وابتسامتُها الواسعة. ويبدو أنّها لم تغضب ممّا أخبروها به. ربّما لأنّه كان الضارب لا المضروب. فانتابَه شعورٌ طافحٌ بالسعادة.

- ما الخبر يا بنيّ؟

وروى لها الخبرَ كما وقعَ بزيادةِ أنّ ابن النخّاس شتمَ أمّه قبل أيّامٍ عندما رآه عند الحمّام. فمسحتْ جُبّته، ونفضت أطرافَ ملابسه، وجلست في ركن الحجرة وهو إلى جانبها. كان في الحجرة أربعة رجالٍ آخرين: ناظر المدرسة، ورئيس المكرّرين للطلّاب، والمسؤول عن السكن، والمسؤول عن العقوبات. وقد انشغل الأربعة بالحديث عن المدارس النظاميّة التي أسّسها الوزير نظام الملك قبل ثلاث سنوات. وأفاضوا في ذكر خصالها. ثمّ ختَم الناظر الحديث:

- والله إنْ صحّ أنّ الأمور في المدرسة النظاميّة على ما وصفتم فما هي بمدرسةٍ وإنّما قصرٌ من قصور الخلفاء!

وجاء صوتٌ من جهة الباب:

- السلام عليكم!

ودخل النخّاس في ملابسه الزعفرانيّة، وعمامته الخضراء الفاخرة وجلس. كان أبيض، أخضر العينَين، حادَّ الأنف. فبادره الناظر:

- أهلًا وسهلًا..

قالها وهو يتذكّر كيف اشترى منه جاريةً قبل سنةٍ، واكتشف أنّه غشَّه فيها فردّها إليه لكنّه رفض قبولها.

وانتبه النخّاس إلى وجود أمّ الغزالي في طرف الحجرة فارتبَك. ثمّ رفع يدَه وعدّل عمامتَه، وظهرت حُبيبات عرقٍ على طرف جبهته. راقبَ الغزاليّ النخّاسَ بتضايقٍ وهو يتذكّر ما سمعَ أمّه تقول لصديقتها قبل أسابيع. كان حينها جالسًا وسط الحجرة وأمّه جالسةً على عتبة الباب تُحادث جارتَها بصوتٍ خافت. وكانت صديقتها تحاول إقناعها بالزواج من النخّاس، وقالت أمّه في نهاية الحديث وهي تتنفّس بحرقة:

- والله لو وجدت مائة دينارٍ لما فكّرتُ في الزواج من خليفةٍ ولا وزير... مائة دينارٍ أُنفقُ منها على ولديَّ حتّى يكبرَا.

ولا ينسى كيف سهر تلك اللّيلة خوفًا من أن يرى أمّه تُزَفّ يومًا إلى ذلك النخّاس. واستيقظ على صوت الناظر:

- بسم الله... لقد اشتكى مهران النخّاس من أنّ محمّدًا الغزاليّ ضربه.. والغزاليّ فعل ذلك حقًّا. لكنّه ضربه لدوام إساءته إليه. وعليه، فنحن نودّ إبقاء الطفلَين في المدرسة دون عقوبةٍ لأيّ منهما على أن يتعهّدَا أهلوهما بألّا يكرّرا العراك ثانية.

فتحرّك النخّاس في مكانه، ونظر إلى أمّ الغزالي، ثمّ التفت إلى الناظر:

- كيف تساوون بين المعتدي والمعتدى عليه؟

وضع الناظر يده تحت ذقنه اللّحيم:

- هل تعرف ما فعل ابنك من قبل؟ لقد شتم أمّ محمّد وأباه، وانتزع منه دفترَه أمام المسجد، وضرب يده مرّةً وهو يأكل فسقطت اللقمة على ملابسه. وكان محمّد يسامحه ويتجاهله كلَّ مرّة.

فالتفت النخّاس جهة أمّ الغزاليّ التي ألقت بصرَها إلى الأرض، وشدّت خمارَها على طرف وجهها، وقال باسمًا:

- لا علم لي بقصّة الشتم.. ولو علمتُ أنّه شتم جارتنا الكريمة لما جئت للدفاع عنه.

ثمّ سكت قليلًا وهو يمسح حُبيبات عرقٍ بطرف عمامته عن جبينه. وفتح فمه ليواصل الحديث، لكنّه سكت، فقال الناظر:

- طلبنا حضورك كما طلبنا حضور أمّ محمّد لتتعهّدا بالكلام مع ابنيْكما حتّى لا يكرّرا العراك، وإن تعاركا داخل المدرسة بعد اليوم فسيكون عقابُهما الطرد.

وصفّق الناظر مؤذنًا بانتهاء اللّقاء، ففتح النخّاس فمَه ليقول إنّ الناظر منحازٌ ضدّه بسبب قصّة تلك الجارية الصقلبيّة، لكنّه سكت.

مشى الغزاليّ وسطَ الساحة الواسعة عائدًا إلى حجرته. تجاوز النافورةَ وهو يشعر بالرياح الباردة تداعب وجهه.

ولّما رفع بصرَه لمح النوارس تحلّق فوق مئذنة المسجد المتربّع في الزاوية، ورأى معلّم النحو يركض جهةَ حجرات الأساتذة. *هل سيتوقّف ابنُ النخّاس عن التحرّش بي بعد هذه الواقعة أم سيسعى للانتقام منّي؟ وماذا لو جمع أصدقاءَه وهاجموني وحيدًا يوم الخميس وأنا في طريقي إلى منزل أمّي؟*

وفجأةً شعر بالغبطة وهو يتذكّر كيف انحنى مسؤول الطلّاب على الناظر وقال له همسًا:

- مثل الغزاليّ لا يُطرد أبدًا... فهو الطالب الذي سنفاخر به حين يزورنا الوزير!

وهبّت رياحٌ باردةٌ آتيةٌ من الوديان الغافية شمال الطابران تحمل رائحةَ الأعشاب والأزهار البرّيّة، ودوّى أذانُ الظهر في أرجاء المدرسة.

توجّه إلى المسجد. وحالما تجاوز المواضئ الدائريّة، لاحظ مجموعةً من الطلّاب يتدافعون لقراءة ورقةٍ عُلّقتْ على باب المسجد. فاقترب وبدأ يقرأ. كانت الورقة تتحدّث عن جائزةٍ رصدها كبير التجّار في الطابران لمن يفوزون في مسابقةٍ ستُجْرَى بين المدارس. فيتكفّل التاجرُ برعاية المتسابق الأوّل مدى الحياة، ويفوز المتسابق الثاني بستّين دينارًا، ويحصل الثالث على ثلاثين.

شعر الغزاليّ بخدرٍ في ركبتَيه، ودوارٍ في رأسه. وتذكّر أن لا أحد يستطيع منافستَه في اللّغة العربيّة ولا في الفقه أو حفظ القرآن. مَن سيفوز في المسابقة غيره؟ وإذا حلّ الثّاني سيظفر بستّين دينارًا يأخذها ويسلّمها لأمّه كي لا تفكّر في ذلك النخّاس أبدًا... *ستّون دينارًا آخذها وأخرج أنا وأخي من سكن المدرسة لنسكن معها. نذهب إلى المدرسة لندرس فحسب، كما يفعل ابن النخّاس القميء. ونبقى معها دون أن تضطرّ إلى المبيت كلّ ليلةٍ عند أخيها.*

واستيقظَ على إقامة الصلاة... لكنّه لم يستطع دخولَ المسجد لانشغال ذهنه بالمسابقة والجائزة. ثمّ رجع إلى المواضئ وجلس متظاهرًا بالوضوء، وكيانُه منصرفٌ كلُّه إلى التفكير في تفاصيل المسابقة.

3

لم تكتظّ المدرسة هذا الاكتظاظَ منذ زمن. فآخر مرّةٍ امتلأتْ فيها ساحتُها كانت يومَ زارها الوزير قبل ثلاث سنوات. كان طلّاب المدرسة مميّزين بعمائهم الخضراء الأنيقة، وقد جلست النساء وراء الصفوف قربَ النافورة، بينما تربّعت المنصّة في المساحة أمام غرفة الطعام. ووقف الناظر في ردائه المكفوف بالأصفر ينظر مرتبكًا إلى الرجال المصطفّين عن يمينه، ثمّ التفت إلى لجنة المسابقة عن يساره:

- نبدأ على بركة الله. وقد اختارت المدرسة خمسة عشر طالبًا من بين طلّابها ليتنافسوا. فنحن نتوقّع أن يكون عالِم الطابران في آتي الأيّام بين هؤلاء الطلّاب الخمسة عشر النجباء.

وارتفعت غمغماتٌ من جهة النساء، فسكت الناظر، وهو يمسح وجهه اللّحيم. ثمّ أعاد عينَيه إلى ورقةٍ في يده:

- على كلّ طالبٍ أذكر اسمَه أن يصعد إلى اللجنة لتمتحنه.

كان الطلّاب الخمسة عشر جالسين على مقاعدَ قرب المنصّة. وقد توسّطهم الغزالي وهو يفكّر في أمرٍ واحد: كيف يكون الثاني في هذه المسابقة؟ إنّه لا يريد أن يكون الأوّل. وكان يقلقه أنّه يستطيع تحصيلَ المرتبة الأولى، لكنّه غير واثقٍ من اقتناص الثانية. هو يريد ستّين دينارًا وحسْب، فهي التي ستساعد أمَّه على التخلّص من التفكير في الزواج من النخّاس.

واستيقظ على صوت الناظر:

- عبد القيوم بن عبد السلام!

وقف طفلٌ ذو عمامةٍ طويلةٍ وعينَين واسعتَين واتّجه إلى المنصّة. فأخذ الغزالي ينصتُ ليرى أسلوب اللجنة في الاختبار. وبعد هنيهةٍ، رفع شيخٌ أشْيبُ رأسَه، وأزاح عمامتَه عن جبهته قليلًا وقال:

- أحدُ العشرة المبشَّرين بالجنّة، لكنّه تخلّف عن بيعة الرضوان. فأخذ النبيّ صلى الله عليه وسلّم يمينَه الشريفةَ ووضعها في يسراه وقال هذه عن فلان. مَن الصحابيّ؟

- عثمان بن عفّان!

قالها الطّفل دون تفكير. وتواصلت الأسئلة، فهدأت الأصوات وعمّ الصمت. وبعد ساعةٍ نادى الناظر:

- محمّد الغزاليّ!

وقف فلمحَ أمَّه ترفع رأسها بين النساء، وتشدّ خمارَها بتلهّف. ثمّ صعد ووقف أمام اللجنة. وكان الشيخ المسنّ ذو العمامة البيضاء أوّل السائلين. فقال كأنّه يجوّد كلامَه:

- ما... شروطُ إعمالِ اسمِ الفاعلِ؟

سرد الغزاليّ الشروط، ثمّ زاد أمثلةً واضحةً عن كلّ شرطٍ ذكرَه مراعيًا ترتيبها، حتّى كأنّه يقرأ من كتاب. وانطلقت صيحاتُ إعجابٍ من وسط المتجمهرين أمام المنصّة. فوقف الناظر ورفع يدَه والرياح تلعب بطرف ردائه:

- هدووووء...

وبعد سبعة أسئلةٍ نزل الغزالي من المنصّة بقلبٍ واجفٍ وجسمٍ متعرّق ويدين مرتعشتين. لقد تعمّد الخطأ في السؤال الأخير. كانت مسألةً فقيّهةً تخصّ مذهب الشافعيّ، فتعمّد الخلط فيها بين الشافعيّ وأبي حنيفة. عاد إلى كرسيّه، والتفت قبل الجلوس فرأى الدموع في عينَي أمّه. ثمّ انتبه إلى صوت

المتسابق الذي بعده يقرأ من سورة الفرقان. كان صوتًا شجيًّا جميلًا مؤثّرًا. فهدأت الأصوات، وأنصتَ الجميع لأحسن صوتٍ في مدرسة الطابران.

كانت الآيات تَخرج مِن فيه ناصعةً نابضة. فشعر الغزالي باقتراب السماء من الأرض، وخُيّل إليه أنّ الغيوم البادية في الأفق تقترب لتسمع التنزيل الغضّ، وأنّ ملائكة ترفرف بأجنحتها لتظلّل القرية الهادئة في تلك اللّحظات. ثمّ أفاق على نهاية المسابقة، وانفضّ الجمع، فعاد الطلّاب إلى حجراتهم يتحدّثون عن أخطاء المتسابقين، وعن الفائزين المتوقّعين.

انقضت ثلاثةُ أيّام لم تفتُرْ فيها الألسنة من الحديث عن المسابقة. وفي اليوم الرابع طاف رجلٌ عاري الرأس بين حجرات المدرسة يصيح:

- تعالوا إلى الساحة! تعالوا إلى الساحة!

وسرعان ما تجمهرت العيون المتطلّعة وسط الساحة. وخرج الخبر من بين أسوار المدرسة، فدخل بعض الأهالي والفضوليّين. وكثر اللّغط والتوقّع، وكان الغزالي هادئ المنظر لكنّ قلبه كان يقرع قفص صدره توقّعًا لما سيسمع. وجاء الناظر يمشي هادئًا متلفّتًا. ثمّ وقف في طرف الساحة قرب النافورة، وأخرج وُريقةً من جيبه وصرخ:

- الفائز الأوّل...

وتصلّبت الأعين، واتّسعت الآذان..

- الفائز الأوّل.. محمّد الغزاليّ!

وسقط الغزاليّ أرضًا، فتحلّق الطلاب حوله. وجاء رجلٌ يركض بسطل ماءٍ فصبّه عليه فانتفض وجلس. وقال وهو يرفع يده مداريًا دموعه:

- لا، أنا الثاني!

وتلفّت الطلّاب جهة الناظر وهو يقترب مسرعًا. ثمّ جلس ووضع يدَيه على رأس الغزاليّ:

- ما لكَ يا بنيّ؟ ما الأمر؟ لقد قلتُ إنّك الأوّل لا الثاني، فأبشر يا بنيّ! أنت الأوّل!

أدخل الغزالي رأسه بين ركبتيْه. وجاء صوته متهدّجًا:

- أنا الثاني!

- قلت لك إنّك الأوّل يا بنيّ!

- لا أريد أن أكون الأوّل... أريد الثاني!

شعر بألمٍ حادٍّ في أذنه بسبب السقوط، لكنّه لم يهتمّ بذلك إذ كان ذهنُه منشغلًا بالستّين دينارًا يريد أن يضعها في يد أمّه. بعد ذلك ابتعد الناظر، وأكمل النداءَ ببقيّة الأسماء. ثمّ عاد إلى الغزاليّ فأمسكه من يده وأخذَه إلى حجرته.

جلس على مكتبه وحكّ كفَّيْه ورفع وجهه فيه:

- تعال يا بنيّ... أخبرني ما الأمر؟

تلكّأ الغزالي، وفرك كفَّيْه صامتًا وعيناه إلى الأرض. ثمّ رفعهما نحو السقف الخشبيّ، وقال متلعثمًا:

- الأمر ما قلتُ لك... أُفضّل جائزة المركز الثاني.

- أتعي ما تقول؟ سيتكفّل كبير التجّار بأمر دراستك ونفقاتك حتّى تتخرّج عالمًا.. وربّما أرسلك إلى نيسابور لتدرس في النظاميّة!

وأجهش الغزالي، فانتفض الناظر وقام عن كرسيّه، ثمّ وضع يده على رأسه:

- سأدعو وليّ أمرك لنرى كيف نرتّب الأمر!

في مساء ذلك اليوم خرج الغزالي وأمّه من باب المدرسة وانطلقَا صامتَين مع شارع جهار مغز. كان منزعجًا من صمتها طوال الطريق ومن إصرارها على تغطية وجهها. بل لاحظ أنّها لم تردّ السلام على جارتها مريم

حين نادتْها في طرف الشارع. ولمّا وصلَا دخلت حجرتَها مسرعةً وأجلسته بين يدَيها وقالت كأنّها تصرخ:

- يا بنيّ... أتظنّني سأتزوّج أحدًا؟

ثمّ أجهشت، فارتمى في حضنها. كانت الدموع تنهمر من عينَيها الواسعتَين وهي صامتةٌ تداعب خصلات شعره. ثمّ قالت:

- أنا..

وغلبها الدمعُ فدفعتْه عنها قليلًا، وأطلقت العنان للبكاء، فارتفع نشجيها. كانت تلك أوّلَ مرّة يرتفع فيها بكاؤها منذ وفاة زوجها. وبدا ذهنها مكتظًّا بصورٍ مختلفة؛ تخيّلتْ معاناة ولدها الصموت، وتفكيرَه في زواجها. واستدعت صورًا كثيرة عن ضيقه بالنخّاس وابنه. الآن فحسْب بدأت تفهم تلك القصص، وتلك الأحاديث، وذلك الكرهَ الذي يكنّه لهما. *كلّ هذا بسببي؟ كان يتعذّب خوفًا من أن أتزوّج؟ كيف عرف كلّ ذلك؟ ومن أين له أنّي أحتاج إلى ستّين دينارًا؟* واقتربت وضمّته إلى صدرها:

- أبشر يا بنيّ! أمّك لن تتركك ولا أخاك، ولن تتزوّج أحدًا بعد والدك!

ثمّ صمتت. وفجأةً سمعَا صوتَ أحمد قادمًا. فقامت وجفّفت دمعها وابتعدت متظاهرةً بكنس المنزل. وتكوَّم الغزالي في ركن الحجرة وطعم دموعه بين شفتيه. ثمّ أخذ يجيل نظره بين أمّه تارةً وأخيه الذي بدأ يبحث عمّا يأكله، فيما تشاغلتْ أمّه بالكنس وهي تسترَق النظر إليه وإلى أخيه مفكّرةً في ما تخبّئه لهما يدُ الأقدار الخفيّة...

4

نيسابور، 474 هـ.

لعبت الرياح بأطراف جبّته، فضمّها إليه وهو يسير مع سكّةٍ مَعْقلٍ. كان يتأمّل البنايات المطلّةَ على طرفَيْ الشارع وأشجارَ الدلب الباسقة. تجاوز فندقَ الطاووس، ودخل ساحة الطاق. فألفاها مليئةً بالعابرين المتّجهين إلى أبواب نيسابور المختلفة. وملأت أنفَه رائحةُ الماء المنسكب من القنانيّ التي تسقي هذه المدينة المزدحمة. كان يشعر منذ الصباح بضيقٍ لا يعرف سببه. شيءٌ مّا يعكّر مزاجه دون أن يعرف ما هو. وفجأةً قرعتْ أذنه ضحكةٌ مجلجلة، ثمّ رأى رأسَ الديك الحجامَ يتمايل ضحكًا. فتنفّس متسائلًا: أكلّما قلَّ عقلُ المرء كثرت سعادتُه؟

حاول أن يخفّف عن نفسه الضيقَ، فانشغل بتأمّل حاله.

كيف تمكّن من قلبك حبّ نيسابور ولم يمض على وجودك فيها سوى عامٍ واحد؟ تآلفتما حتّى صرتَ تشعر بألفة مع جدرانها وهوائها. فما الّذي يضايقك إذن؟ طفتَ مدنًا كثيرة، وحصّلتَ علومًا جمّة، وطار اسمك في نيسابور وأنت في السادسة والعشرين فقط، فلماذا لا تشعر بالرضى؟

أسرع الخطى حتّى لا يفوته مجلس شيخه أبي المعالي الجويني. ودخل باحة المدرسة النظاميّة، ثمّ تجاوز النافورة. فلاحَ له المجلسُ في الساحة المفتوحة بين الحجرات، وتفاجأ بأنّ الدرس قد بدأ. *لماذا لم ينتظروني؟ لعلّ النبهانيّ هو السبب.*

خلع نعلَيه، وضمّ جبّته ليجلس فناداه الجويني:

- تفضّل هنا!

تلاحظ رجالٌ، وسرت في أطراف الحلقة غمغمات، وتجاوز الشابُّ العمائمَ الأضخمَ والرقابَ الأسنّ، وجلس على يمين الشيخ. ثمّ مسح الجويني لحيتَه البيضاء، وأدار عينَيه البُنّيّتَين الضيّقتين في أطراف الحلقة:

- ولذا، فما ذكره الماوردي من اشتراط القرشيّة في الخليفة لا دليلَ عليه. فالقرشيّ إنْ كان فَدْمَ القريحة، ميّتَ الخاطر، لا يعرف التدبير، ولا إبرامَ الأحكام، بليدًا أخرق، فإنّ مثله لا يحسب في الحساب، ولا يُربَط به سببٌ من الأسباب، والكافي الورِعُ أولى منه ألف مرّةٍ بتدبير شؤون المسلمين!

وترامق رجلٌ نحيلٌ مع آخَرَ أبيضَ بدينٍ في طرف الحلقة. وانصرفت الأبصار إلى التاجر الأحول الجالس عند ظهر الشيخ. كان ينصت بكلّ حواسّه، لكنّه يظهر عدم الانتباه وهو يلعب بطرف عمامته السوداء. وكان الناسُ يقولون إنّه ينقل الخبرَ إلى الوزير نظام الملك.

فجأةً صمت الجويني، وعضّ شفتَه السفلى كأنّه يُراجع ما قال. ثمّ رفع بصرَه في الساحة، فلمح النوارسَ تحلّق فوق النافورة، وعمّالَ المدرسة النظاميّة يخرجون ويدخلون، فقبض لحيته بكفّه وغيّر نبرته وقال:

- وإلّا.. فما رأيك يا غزاليّ؟

وانصرفت الأعين إلى الغزاليّ، فغضَّن جبهتَه ومسحَ طرف شفتِه، ثمّ رفع يدَه قليلًا ولمس بها جبهته:

- فلْيَسمحْ لي الشيخ بأن أعارضه في هذا.

وعادت الأعين إلى الجويني. فكيف لرجلٍ من أعلم أهل الأرض أن يخالفه تلميذُه بهذه العبارة وبين يدَيه. لكنّ وجه الشيخ تهلّل، إذ شعر أنّ غرسه أينع؛ فمع كثرة طلّابه ونبوغهم فإنّه يرى في هذا الفتى شيئًا آخر...

بل إنّه يُذكّره بنفسه في شبابه. لم يمض عليه في حلقته إلّا عامٌ واحد، لكنّه حديد الفهم، قويّ الذاكرة معتدٌّ برأيه.

- وكيف ذاك يا محمّد؟

- إنّ هذه الأمّة مُجمعةٌ على اشتراط القرشيّة في الخليفة -باستثناء الخوارج- لقوله صلّى الله عليه وسلم: «الأئمّة من قريش» ولعملِ الصحابة والتابعين. وهو ما جرى عليه العمل أربعة قرون، ولا أرى ضعفَ الخليفة سببًا لنقض ذلك الإجماع.

واستمرّت الأسئلة والأجوبة بين الجويني والغزالي حتّى أحسّ النبهاني بضيقٍ وتوتّرٍ من رفيقه في الدرس والسكنِ، فقال وهو ينظر إلى دفتره:

- أليس في كلام الغزالي نقدٌ بيّنٌ للسلطان ملكشاه؟

وانكتمت الأنفاس، والتفتت الأوجه إلى النبهاني ثمّ إلى الجويني، وغدَا الصوتُ الوحيدُ المسموع صوتَ أحد طبّاخي النظاميّة يؤنّب رفيقَه.

فردّد الجويني بصره بين تلميذَيْه مفكّرًا في التنافس بين الأقران:

- لقد جانبتَ الصواب يا محمّد. إنّ مدار الأمر على الكفاية، ولذلك اختير الأئمّة من قريش زمنَ كانت قريش محلَّ الكفاية والقوّة ورضى الناس. فقد كانت الجيوش لا تلتفّ إلّا حولهم والأمرُ لا ينفذ إلّا إذا جاء منهم. أمّا الدم القرشيّ فليس معيارًا، ولذا قال عمر بن الخطّاب وهو يجود بنفسه: «لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا لولّيته هذا الأمر». وسالم ليس بقرشيّ بل مولًى. فاستقلال وليّ الأمر بالنجدة والشهامة أولى بالاعتبار والاختيار!

بعد ساعةٍ انفضّ المجلس، وصعد الغزالي السلّمَ الواسعَ مسرعًا في اتّجاه حجرته شمالَ المدرسة. كان يشعر بتوقّدٍ وخفّةٍ بعد كلام الجويني.

وحين دخل الحجرة وجد مُساكنَه النبهاني سبقه إليها، فرمقه بطرف عينَيه وهو يعلّق عمامتَه على المشجب في ركن الحجرة ويقول:

- كيف رأيتَ درسَ اليوم؟

قالها وهو يفكّر في علاقته بصديقه. فكلاهما لا يشكّ في حبّ الآخر له، لكنّه يتضايق منه في حلقات الدرس. لم يكن ما بينهما حسدًا، وما هو بتنافسٍ ساذجٍ أيضًا. وجاء صوت النبهاني:

- كان درسًا طيّبًا، لكنّك قلت كلامًا قد يضرّك لو وصل إلى السلطان ملكشاه!

وفهم الغزالي أن صاحبه يُلبِسُ النقدَ ثيابَ النصيحة فقال:

- السلطان لا يهتمّ بهذا... ثمّ إنّ شيخَنا لا يقصد بكلامه رفعَ مكانة السلطان، وإنّما أراد رفعَ مكانة الوزير نظام الملك.. فالسلطان أجهل من الخليفة!

وقفز النبهاني، وأخرج رأسه من باب الحجرة متلفّتًا. ثمّ عاد ومدّ يدَيه وهو يقول بصوتٍ هامس:

- انتبه لما تقول! ماذا لو سمعتك عيونٌ من تلك العيون الكثيرة!

فضحك الغزالي وهو يخرج كتبًا من روزنة الحجرة:

- كلُّ نقدٍ يوجّهه الشيخُ للخليفة إنّما هو مدحٌ للوزير. لذلك يدعو إلى الإبقاء على الخلافة، وأن يتولّى الوزيرُ كلَّ شؤونها، مع تحوّل السلطان إلى مخلبٍ للوزير يبطش به فحسب!

وسكت النبهاني، ثمّ أخذ ينظر إلى عينَي صديقه السوداوَين وأسنانِه القويّة وذلك الناب المرتفع قليلًا إلى أعلى، وظَلَّ يفكّر في حدّة ذكائه ونباهته. فتذكّر يومَ جاء أكبرُ تجّار نيسابور بسؤالٍ في المواريث عجز الجميع عن حلّه إلّا هذا الفتى. وأحسّ بضيقٍ فقال:

- على كلّ حال، أرى أن تنتبه وألّا تورّطنَا..

ثمّ عاد إلى الصمت، وأجال نظره في أركان الحجرة، ثمّ وضع عمامتَه على رأسه:

- أنا ذاهب إلى السوق، نلتقي بمجلس الحديث بعد المغرب إن شاء الله.

أسند الغزالي رأسَه إلى الجدار، وفتح كتاب «البرهان» لشيخه الجويني، وبدأ يقرأ. لكنّ ذهنه انشغل بشَتات الذكريات.

تذكّر أمّه، فلا تكاد تمرّ ساعةٌ دون أن يزوره طيفُ خيالها، رغم مضيّ سبعة أعوامٍ على وفاتها. *ماذا لو كانت حيّةً وجئتُ بها إلى نيسابور وسكنّا معًا في حجرة ورأتني رجلًا يشار إليه بالبنان؟* وتذكّر نظرتَها إليه، تلك النظرة المفعمة حبًّا... ليس في الدنيا نظرةٌ أبرُّ أو أرحمُ أو أبردُ على الجسد من نظرة أمّ؟ وشخصت في ذهنه صورةُ الحيّ الذي تربّى فيه بالطابران، حتّى كاد يشَمُّ رائحةَ خبزه المنبعثة كلَّ صباح. أخذت الذكريات تتداعى، فشعر بالنفور من قراءة «البرهان»، فوضعه جانبًا. وفجأةً عاوده طيفُ فتاةٍ لمحَها في طريقه قربَ فندق الطاووس. فاهتزّت كلُّ حواسّه العميقة وانقبض قلبه. *لماذا أجدني صلبًا أمام كلّ شيءٍ إلّا النساء، حتّى إذا مرّتْ فتاةٌ رِيعَ قلبي، أو فاحَ عطرٌ من أردان امرأةٍ كاد فؤادي يطير؟* ثمّ رفع يدَه ومسح بها وجهه متضايقًا وهو يحدّق في سقف الغرفة.

لقد صار السقف مسرحَ أفكارٍ متشعّبة تتراكض فيطاردها فكره. ثمّ خطر له أنّ عليه أن يثبت لصديقه النبهاني أنّه جديرٌ بالتقديم في مجلس الشيخ، وأنّ عليه أن يثبت للشيخ أنّه أهلٌ للمكانة التي يضعه فيها. وألحّ عليه خاطرُ الشروع في تأليف كتاب.

ثمّ انتبه إلى دخول قطّته فتبسّم ووقف ليُعدَّ لها طعامًا.

5

نيسابور، 482هـ

هزّ الغزالي مجلّدًا في الهواء:

- هذا الناسخ غير متقِن!

فحدَجَه خبيب الورّاق بطرف عينه، أمّا رفيقه النبهاني فلكَزه هامسًا:

- لا تُثِرْه علينا.. أحتاج إلى كتابِ «الفِصَلِ» لابن حزم، فكيف يُعيرني إيّاه؟

كانا في دكّان خبيب عندَ طرف سوق الورّاقين. فاقترب خبيب والغضبُ في عينَيه، وما إن فتح فاه حتّى دخل رجلٌ مسرعًا ينادي بصوتٍ خائف:

- اركض يا غزالي! اركض! لقد جاؤوا في طلبك!

والتفت الغزالي مستغربًا نبرةَ الرجل. ولمّا اقترب من الباب لمحَ جموعًا قادمة، وسمعَ صيحاتٍ تتعالى. فجذبه النبهاني مسرعًا وهو يشير إلى زقاقٍ ضيّقٍ في الاتّجاه الآخر:

- من هنا!

تسلّلَا وهما يتلفّتان مع الشارع الضيّق.

كانت الجماجم تتدافع، والعصيُّ تلوح، والسّواعدُ ترتفع في الهواء مع الصُّراخ. وأطلّت النّساء الفضوليّات من نوافذ البيوت المشرفةِ على درب الورّاقين. وتَجمهرَ الغاضبون في السّاحة الضيّقة وسط السّوق، ثمّ قفزَ رجلٌ نحيفٌ عريض الجبهة ليقفَ على كتفَيْ آخر وطفِق يهتف. لكنّ كلماتِه ماتَت وَسط الضّوضاء. فمدّ يدهُ في الهواء مُسْتنصِتًا النّاسَ:

- أششششش! لَنْ نَرْضى إلّا بِحَرْقِ الكِتابِ وإبْعادِ مُؤلِّفِهِ مِنْ نَيْسابور!

امتدَّت الأيدي والعصيُّ في الهواء، وهتفَت الجُموع:

- لن نرضى إلّا بقتل الغزاليّ!

ثمّ ضجّت الجموعُ، وترجّل الرَّجلُ النّحيلُ مُخلّفًا وجهَ رفيقِه ينضَحُ عرَقًا. وظهرَ وسط النّاس شابٌّ ضخمُ العِمامة بيدِهِ كتاب، فهدأتِ الأصوات. واقترَبَ آخرُ يحمِلُ شهابًا وأُوقِدَت النَّارُ. وفجأةً رفع الشّابُّ الكتابَ:

- هذا كتابُ «المَنْخُول» للغزاليّ، نُحرِقُه لِتَطاوُلِ مُؤلِّفِه على مقام الإمامِ أبي حنيفة!

ورمى المجلّدَ في النّار.

تعالَت الصَّيحاتُ، ولَمْ يَصْبِر بعض الغاضبين فتَقافزوا فوق الكِتابِ يطؤونه بأقدامهم. وصَرَخ الشّابُّ النّحيل:

- لا يجوزُ وَطْءُ الكِتابِ بالأقدام... نحن نُنكِر ما فيه، لكنّنا لا نَطؤه، ففيه قرآنٌ وأحاديث!

واختفتْ توسُّلاته بين الصرخات، وخَمَدت النّارُ تحت الأقدام الغاضِبة، وتقدَّم الرجل النّحيل يرفعُ خنجرًا:

- إذا لَمْ يَقتُل الوالي ذلك المفتري فسأُجيلُ هذا الخنجرَ في بطنه الدّسِم!

خفَتَت هتافاتُ المتجمهرين وهُم يرقُبون مئات الغاضبينَ قادمينَ مِنْ دَرْبِ البَيْهَقَيّ يركضون. صرَخَ النّحيل:

- هؤلاء الشّافعيّة قادمون!

تقاربَ الجَمْعَان، واشتبكَت الأيدي والعصيّ. وتسلّقت مجموعةٌ من الشّافعيّة ظهرَ دكّانٍ بعد جمعِ أكوامٍ من الحجارة. ثمّ رفع أحدُهم رحًى قديمةً ورَماها فاستقرَّت على أحد الرّؤوس فسقَطَ صاحبُه يتشحَّطُ في دمائه!

تجمهَرَ النّاس، وراحوا ينظرون إلى الهامة المرضوضة، والدّم النّازف من الصُدغيْن، والرجل ملقًى على وجهه لا يتحرّك.

هدأت الأصواتُ وسكنَت الأيدي وانقبضَت الأرجُل. فتراجَع الشّافعيّةُ خائفينَ، وتفرّقوا في الأزقّة الضيِّقة بحيّ مَعْقَل. وأغلَق الورّاقونَ دكاكينَهم على عَجَلٍ، وحمَلَ الحنفيّةُ القتيلَ على أكتافِهم ومَشوا في دَرْبِ الرّياحين قاصدينَ بَيْتَ الوالي. تقدَّموا صامِتين، لا يُسمَع إلّا وقعُ أقدامهم على الطّريق المبلَّط، أَوْ حَوْقَلَةُ النّساء الآتيةُ من السّطوح المُطلَّة على الشّارع وأيديهنّ على أفواههنّ. ثمّ ظهرَ رجلٌ يركض خلف الجموع:

- انتظروا! هذا الشّيخ الهمَدانيّ آتٍ معكُم.

تراخَتِ الأرجُلُ، وتقدَّمَ الشّابُّ النّحيل وقد شمّر عن ساقَيه وأشار بيده، وعمامتهُ تكادُ تسقطُ، فتوقّف الموكب:

- لئن كان السّلطان مَلكشاه حنفيًّا، فإنّ وزيرَهُ نِظام المُلْك شافعيٌّ كما تَعلمون. وهو الّذي جرّأهم وملأ بهم نيسابور حتّى ضايقونا في الأوقاف والمدارس والأرزاق! ها قد جاء شيخُنا الهمدانيّ بتوفيق الله.

والْتَفَتَت الوجوه، فظهرَ الشّيخُ الهمدانيّ بجسمهِ الضَّخم على بغلةٍ يتقدَّمُها اثنانِ من طلّابه. أفسَحوا لهُ الطّريق وهم يحيّونه بإيماءاتٍ وانحناءات، ووضع الأكفِّ على الصّدور. فردَّ الشّيخُ بابتساماتٍ واسعةٍ وغمغماتٍ وحركاتٍ مُتسارعةٍ مِنْ جَفْنَيْه. ثمّ تقدَّمَ حتّى صارت البَغْلَةُ أمَامَ الجُموع، ووراءَها الرّجالُ الثَّمانيةُ الّذين يحمِلُونَ القَتيل.

سارَ الموكب صامتًا. وامتلأت الشّوارِعُ برياحٍ ربيعيَّةٍ تحمِلُ ذكرى ليالي الشّتاء القارِس الذي انجلَى عن نيسابور قبل أسابيع.

رفعَ الشّيخُ الهمدانيّ عينَيْه ومسحَ جبهتَه المتعرِّقَة وهو يرى دارَ الوالي منتصبةً في نهاية الشارع. فجاء جنديٌّ يركضُ، وقال بأنفاسٍ متقطّعة:

- مَن أنتم وماذا تُريدون؟

انطلقَت الصَّيحاتُ من أطرافِ الموْكِب:

- نُريدُ القصاص!

وتقدَّمَ مسنٌّ أدردُ حاسر الرّأس:

- لَقَدْ قَتَلوا بهراما، ولا بُدَّ مِنْ قَتْلِ قاتِلِه، ولن نَرْضى إلّا برأس سببِ الفِتْنَة في نيسابور... الغزاليّ!

وانطلقَ الهُتاف:

- رأسُ الغزاليّ!

- رأسُ الغزاليّ!

رفَعَ الهمدانيّ يدَهُ طالبًا السُّكوت، فاستقرَّت الأعينُ عليه. ثمّ تقدَّمَ ببغلَته وأدار ظهرَهُ إلى دَار الوالي مُولِيًا وجهَه شَطْرَ الجُمهور:

- اهدَؤوا، سيصلُ ما تُريدونه إلى الوالي.

فاقترَبَ الجنديّ من الهمدانيّ قائلًا برهبة:

- ما الأمرُ يا شَيْخ؟

لَمْ ينظُر إليه الهمدانيّ، بل رفَعَ وجهَه إلى السّماء:

- قُل للوالي إنّي هُنا!

ركَضَ الجنديّ حتّى اختفى وراء الباب الحديديّ الأسود. وبعد قليلٍ جاءت مجموعةٌ مِنَ الجُنود ووقفَت بين الجموع وباب الدّار. ثمّ ظهر رجلٌ يلبَسُ لباسَ الكُتّاب قادمًا يتبختر. واقترَبَ باسِمًا فاتحًا ذراعيه:

- أهلًا بالشّيخ، الوالي في الدّاخل ينتظركم.

تزحزحَ الهمدانيُّ فوق بغلتِه، ثمّ لمسَت رِجْلاَهُ الأرضَ وهو يمسح جبهتَه بطرف ردائه:

- اجلِسوا واهدَؤوا.

انفتح الباب الطّويل المُقوَّس، وتوارى بياضُ جُبّة الهمدانيّ وراءه. وسحَب الحاجبُ الباب. وما إن سكنَ صوتُ صرير الباب حتّى شعُرَ الهمدانيُّ أنّه خرَج مِنْ نَيسابور. قادَه الكاتِبُ وسط الممرّ الطّويل بين النّوافير والأزهار. والتفتَ يمينًا فرأى الكتّابَ في دواوينهم مُعتجِرين عمائمهم المميّزةَ بخيوطِها السُّود. ولمحَ بينَهم ذلك الرّجلَ الأعرجَ الّذي دَرَسَ عندَه قبل سنوات. والتَفَتَ يسارًا فلاحَتْ له دواوين الحُسّاب مُنهمكين في تدقيقاتهم وبين أيديهم دفاتِرُهم الضّخمة.

ولمّا بلغَا نهايةَ الممرّ المستطيل، رفع الهمدانيّ رِجْلَهُ بتثاقلٍ لِيَرْتَقي العتبَة وأنفُه يمتلئُ بريًّا عطرٍ بخاريٍّ ذكَّرهُ بتاجرٍ ديلميّ يُصلِّي جنبَه في المسجد. ثمّ دخلَا مجلسًا واسعًا مفروشًا بالسّجّاد النَّيسابوريّ، تنتصبُ وسطَه طاولةٌ مربّعَة. وعلى جدران المجلس صُوَرٌ لِفُهودٍ وأسودٍ ونُسُور. تفحّصَ الشّيخُ الصُّورَ المعلَّقَةَ، فجاءه صوتُ الكاتِبِ مُستأذنًا في الانصراف، ثمّ دخَل الوالي.

- أهلًا بالشّيخ، يا أهلًا!

وقام الهمدانيُّ بصعوبةٍ وارتباك:

- أهلًا به، أهلًا بِجَنَابِه!

مشى الوالي إلى كرسيٍّ مُنتصبٍ، وجلس عليه دفعَةً واحدةً:

- أيُّ بختٍ عظيمٍ جعل الشّيخ يُشرِّفُ مجلسَنا؟

ودخلَ خَصِيٌّ أبيَض مديدُ القامة، ووضَع طسْتًا كبيرًا على الطّاولة، ثمّ عاد الكاتبُ وجلَسَ عن يمينِ الوالي مُقَابِلَ الهمدانيّ. وخطرَ للشيخ ألّا يتحدّث أوّلًا في موضوع قُدومه، فالأَوْلَى أَنْ يَسْتَأْنِسَ نفسَ الوالي قَبْل ذلك، فقالَ وهو يتحسّسُ بأنامله نعومةَ الكرسيّ:

- البختُ بختي لدُخول مجلِسِكُم العَامر. ولقَدْ قلتُ مرارًا لِطلّابي إنَّ نَيسابور لَمْ تَشْهَد واليًا في حزمِكم وفضلِكم.

ثمّ سكَتَ، ورفَع بصرَه إلى الوالي ففاجَأتهُ حدّةُ عَينَيه وبريقُهما. واقترَبَ الكاتبُ من الوالي وناولَه ورقَة. وبعد لحظاتٍ رفعَ الوالي وجهَهُ:

- يا أهلًا وسهلًا بالشّيخ! ما خَبَرُ العامّة أمام الدّار؟

أبْعَدَ الهمدانيّ ظهرَه عن مَسْنَد الكرسيّ كأنّه يميلُ بِجِسْمِه:

- جنابُه يعلمُ أنّ هذه المدينة عامرةٌ بالمذاهبِ والفِرَقِ المُختلفة، وأنّ كلّ حِزْبٍ بما لديهم فرِحُون، لكنّ إيمانَ الرَّجُلِ بما عندَه لا يستلزِمُ لمْزَ ما عِنْدَ أخيه.

كان الوالي يُنصتُ وعيناه إلى الشّيخ الّذي اتّضحت مَخارجُ حُروفِه وبَرزَ صَوْتُه النّقي. وبدا له أنّ صوتَ الشّيخ لا يطابق صورته. فجسمِه مترهّل، وحركاتُه بطيئة، أمّا أفكاره وصوته ففي غايةِ الوُضوح والقوَّة والانسجام. واصل الشيخ:

- وهؤلاء العامّة يشكونَ قَتْلَ أحدِهم على أيدي الشّافعيّة، ويطلبون عقابَ شابٍّ من المدرسة النّظاميّة بنَيْسَابور يُدْعَى الغزاليّ على ما جاء في كتابِه «المنخول».

التفتَ الوالي إلى كاتبِه:

- لكنّ الحنفيّةَ سبقوا إلى قتل شافعيّ، وهم البادئون بالشّغَب حين أحرقوا الكتابَ في درب الورّاقين. والكتاب أُلِّفَ قبل سنوات، ولا أفهم أسبابَ تجدّدِ القولِ فيه.

فوجِئ الشّيخُ باندفاع الوالي في الحديث، وخشيَ أن ينفَلِتَ من يدَيْه زمامُ الكلام، فَخَلَعَ عِمامَته ووضعَها على ركبَتِه بعدما مَسَحَ بها جَبْهَته:

- أنا لا أنكر أنّ الشّغبَ بين العامّة سجالٌ، وأنّ العيّارينَ يدخلونَ للتّأجيج والتّهييج. غير أنّ قتلَ نفسٍ مؤمنةٍ لَيْسَ كغَيْرِه. وهؤلاء العامّة كما تعلمونَ يردّون الأمرَ كلَّه إلى ما جاء في كتاب الغزاليّ عن

إمامنا أبي حنيفة.

رفع الكاتبُ يده طالبًا الإذنَ في الحديث، فهزّ الوالي رأسَهُ:

- إنّ ما قالَه الغزاليّ في كتابِه «المنخُول» كلامُ عالمٍ عن إمام. وهو ممّا يقعُ في حِلَق العلم، وما قَصَدَ بِه تجريحًا أو تهييجًا، وكان حريًّا بالعُلماء من أمثالكم إسكات العامّة وتحذيرها من الخوض في العِلْمِ وأحاديثِ العُلماء. ثمّ..

فقاطعه الهمدانيّ:

- إنّ الدّين يختصُّ بأمرٍ لا يغيبُ عنكُما. وتعلمان أنّ شأنه ليس كشأن باقي العلوم والصناعات. فلو تحدّثَ الطّبيب في صناعَته لما دخلَ في حديثه أحدٌ إلّا من أمثالِه وأضرابِه. ولو تحدّثَ مهندسٌ في المساحة لما ضارعَه أحدٌ إلّا من شكلِه وسِنْخِه. أمّا العالِمُ في الدّين فلا يتحدّث في أدقّ عِلْمٍ إلّا عارضَه أوّلُ كنّاسٍ يسمَعُه، وشَغَبَ عليه أوّلُ خبّازٍ يراهُ، واعترَضَ عليه أوّلُ بقّالٍ يسمَعُ مقَالَتَهُ!

وسرَت ابتسامةٌ في وجه الوالي فانشرَحَت نفسُ الشّيخ الهمدانيّ فقال:

- وهذا من لطف الله، وتعلّق الدّين بكلّ فردٍ من البَشَر.

بدا الكاتبُ منشغلًا بإزاحةِ طرفِ عمامته عن أذنه كأنّه يُنصتُ بكلّ حواسِّه. وسكتُوا فجأةً مُصيخين لصيحات المتجمهرين خارجَ السّور. وتطلَّعت الأعينُ إلى الوالي تنتظر حديثه. فمرّر لسانَه بين شفتَيه:

- أرى أن تخرج إليهم أيّها الشّيخ وتقول لهم إنّ دمَ الرَّجُل لَنْ يَذْهَب هباءً وسنأتي بقاتِله. أمّا الغزاليّ فعالمٌ كتَبَ كلامًا وسأرفع أمرَه للوزير إن شاء أخرجه من نظاميّة نيسابور، وإن شاء أبقاه، فليس مردُّ الأمر إليّ.

ثمّ وقفَ الوالي، ومشى خطوتَين في المجلس الواسع المستطيل:

- ومشكلاتُ العلمِ يحلُّها فُحول النُّظارِ في حِلَق العِلْمِ وزوايا المحاريب، لا الكنّاسُونَ والبقّالون في شوارع نيسابور! وأنا لا يخفى عليَّ شيءٌ ممّا يدور في هذه المدينة. وما اشتدّ الشغب إلّا منذ وفاة الإمام الجويني رحمه الله قبل أربع سنوات. وهذا يعني أنّ العلماء أمثالكم هم المسؤولون عن وَأْدِ الفتنة..

لَمَحَ الهمدانيّ عينَي الوالي فرآهما وقد ازدادتا حدّةً وبريقًا، ورأى رذاذَ الرّيق متجمّعًا على طرف شفتِه السّفلى؛ فتذكّر صَلَفَهُ:

- يكونُ ما يريدُ جنابُه، وهؤلاء العامّة إنّما يُريدون القصَاصَ مِنَ القاتِل، وما أشك أنكم ستقومون به، وحينها سأكفيكَهُم. أمّا الغزاليّ فشابٌّ نزِق، قادته قريحتُه المتّقدةُ إلى قول ما لا يقال. والوزير أدرى بما يفعل به، ولا أشكُّ أنّه سيعاقبه.

ثمّ انفضَّ المجلسُ، وخرَج الشّيخ الهمدانيّ وأقنَعَ العامّة بالانصرافِ من أمام دار الوالي. ونقل إليهم تعهُّد الوالي بالقبض على القاتل شرطَ ألّا يتجمّعوا لتشييع الجثمان.

بعد ساعاتٍ كانت شمس ذلك اليوم تتوارى خلف البنايات الطّويلة المطلّة على ساحة الطّاق، بينما شقَّ الزّحامَ فارسٌ، ووقف قرب النّافورة المتربّعة وسط السّاحة الواسعة. فتجمهرَ النّاس حواليه سريعًا. فأخرج من طرف ثوبه ورقةً وقرأ بصوتٍ مرتفع:

- الوالي سيقطعُ رأسَ كلّ من يثير الفتنةَ ويشغَب بين المسلمينَ أو يتدخّل في ما لا يعنيه. وقد قُبض على قاتل بهرام وسيعرَضُ على القاضي.

وأزاحَ بصرَه عن الورقة، وأخذ يتأمّل الوجوهَ المستمعَة. فرأى عمائمَ مائلةً ولِحًى مُنصتةً، ووجوهًا شعثاء وأخرى تنضحُ بماءِ الحياة، وعيونًا

تفترسُه افتراسًا. لكنّه لَمْ يَلْحَظ علامةَ استحسانٍ أو استقباح، ولَمْ يَسْمَع صرخةَ احتجاجٍ أو مُوافقَة. فنزَلَ دون أن يعرف أَرَضِيَ النّاس عمَّا سَمِعُوا أمْ كَرِهُوه. وبين تلك الجموع كان عبيد الموسوس ينتصت بكلّ حواسّه.

وفجأةً خرَجَ من بين النّاس صوفيٌّ يقرَعُ طبلًا ويُنشدُ:

كان لي قلبٌ أعيش به ضاع منّي في تقلّبهِ

ومالتِ الأعناقُ إلى طيفور المحبّ. فإذا هو في مرقّعته، وبيده عصاهُ وطَبْلُه.

6

«إنّ البلَدَ الّذي يُسفح فيه الدّمُ يكثُر فيه النّماء!»

مثل تركيّ قديم

أصفهان، 482 هـ.

أنْصَتَ كلّ من في المجلس لِقَرْع نِعال الحاجب، وكان قادمًا يتعثّر في جبّته الأرجوانيّة. ثمّ اقترب من السّلطان، وانحنَى وهو يمدّ إليه رسالة. فرفعَ مَلكشاه حربَةً كانت في يدِه، وأشار بها إلى وزيره الجالس عن يمينه. فارتبَكَ الحاجبُ، وتقهقَر، ثمّ مدَّ الرّسالةَ إلى نظام المُلْك.

رفعَ الوزيرُ عَينَيه العميقتَين، واختطَفَ الرّسالةَ اختطافًا. مرَّر عَينيْه عليها، وافترَستْهُ عيون الرّجال الواجمينَ في أطراف البلاط السّلطانيّ. ثمّ انحنَى مَلكشاه، واعتمد بِمِرْفَقه على رُكْبَتِه، وأحدّ نظرَهُ في اتّجاه الوزير:

- خيرًا أيّها الوزير!

طوَى الوزيرُ الورقةَ، ووضعَها عَنْ يَمينه فوق الطّاولة، ثمّ مَسَحَ طرَف أنْفِه:

- يَقُولُ والي نَيسابور إنّ في المدينة شغَبًا من عامّة الحنفيّة، سببُه كتابٌ لفقيهٍ شافعيٍّ يسمّى الغزاليّ، وفيه نالَ من الإمام أبي حنيفة. وقد قُتِلَ في الشّغَبِ رجلٌ وهم يُريدون القصَاصَ لهُ.

اعتدلَ مَلكشاه:

- فَلْيَقتصُّوا مِنْه!

وسرَت تمتماتٌ في المجلِس. وتوجّهتْ العُيون إلى الوزير الّذي أخرج منديلًا من جَيْبِه ومسَحَ به شفتَيه الدّقيقتَين مرّاتٍ ليأخذَ وقتًا للتّفكير:

- مولاي! كيف نقتصُّ من الفقيهِ وهو لَمْ يَرْتِكِبْ جُرْمًا، ولا نَدري أيّ شيءٍ يَنْقمونَه علَيْه حقًّا. فلعلّ حاسدًا وشى به، والغائبُ على حُجَّته.

انتابَ السّلطانَ ضيقٌ وهو يَلْحَظُ بريقَ الأعْيُن لحديثِ وزيرِه بَعْدَ التّململُ مِنْ كلامِه. وخُيِّلَ إليه أنّه ثَعْلَبٌ في مِسلاخ إنْسان، ذئبٌ صحراويٌّ ذو نابَيْن يسيلانِ سُمًّا. فتأمَّلَ تيْنَك العينَين الغائرتَين والوَجْنَتَين النّاتئتَين. *كيف تركتُ هذا يكون صاحبَ دالَّةٍ عليّ؟* طافَت تلك الأفكارُ للمرّة الأولى بِذِهْنِ ملكشاه عن وزيرِهِ الأثير. لكنّه طرَدَها سريعًا وهو يسترخي في كرسيّه صامتًا والعيون تحدجُه وتنتظِر كلامَه. ثمّ تذكّر وقوفَ نِظام المُلْك معَهُ في كلّ حُروبه. حتّى إنّه استعادَ صورتَه وقد رفع سيفَه يُنافحُ عَنْهُ في آخرِ حَرْبٍ خاضَها. وشخَصَت في ذِهنه تلك اللّحظةُ الّتي مدَّ إليهِ يدَه فيها وأنْقَذَهُ من بين فارسَيْن كانا سيقتُلانِه حتمًا. واستعادَ صورةَ والدِهِ ألب أرسلان يُوصيه بوزيرِه وهو على فراش الموت.

ولمّا رفعَ رأسَه مِنْ شُرودِه وجَدَ الأعيُنَ شاخصةً تَسْتَنْطِقُهُ. فقالَ مُحاولًا عدم تغيير رأيِهِ سريعًا:

- وما ضرَّ لَوْ عُوقب فقيهٌ يُثيرُ سُخْطَ رعيَّتِنَا؟ فَكَمْ فارسًا تركيًّا وفَرَسًا عربيًّا يقودُهم هذا الغزاليّ؟!

ضجَّ المجلسُ ضَحِكًا. وسكنَتْ يدا خَصيٍّ يصبُّ كؤوس الشّرابِ قُرْبَ الجِدار وراء ظَهْرِ السُّلطان. وسُمِعَت أطولُ ضحكةٍ من المستشار تاجِ الملك، لكنّه انتبَه إلى استمرارِه في الضّحك بَعْدَ صَمْتِ مُجالِسيه، فانحنَى مُتشاغِلًا بِتناوُل حبّاتٍ زبيبٍ على الطّاولة قُرْبَ رُكْبَتِه.

تململ نِظامُ المُلْك في كرسيّه، مفكّرا في صيغةٍ يردُّ بها رأيَ السُّلطان في رفق. فقد لاحظ منْهُ ضيقًا به منذ أسابيع. وقَبْلَ أن يتحدّث جاءَ صوتُ تاج الملك وبقايا ابتلاعِ الزَّبيبِ واضحةٌ في صوته:

- الرأيُ رأيُ السُّلطان! فإذا كانَ الفقيهُ لا يعرفُ كيف يتناولُ خلافَ الأئمّة دون تجريحٍ فعليهِ أن يتعلّم ذلك بالتّأديب.

وسكت باحثًا عن آثار وَقْعِ كلامِه. فرمقَه نِظامُ المُلْك، ثمَّ الْتَفَتَ إلى السّلطان:

- مولاي السُّلطان! إنّ الشّيخ الغزاليّ شابٌّ من أَلْمعِ طلّاب الإمامِ الجويني، رَحِمَه الله، ووارثُ عِلْمِه. والعامّةُ لا تفقَهُ شيئًا ممّا يُكتَبُ ويُقَال، وللرَّجُلِ حُسّادٌ وأعداء. وعِلْمُهُ ورأْيُه ودُعاؤه للسُّلطان أقوى من الكتائِبِ والسُّيوف.

وتذكَّر الوزيرُ ضيقَ السّلطانِ بأيّ مقارنةٍ بين قيمةِ الجُنْدِ وغيرِهم فاستدرَك:

- فَهْوَ وَقَلَمُهُ وطلّابه جُنودُ السُّلطان وسيوفُه في ساحاتِهم!

فرفَعَ ملكشاه عَينَيه الضّيقتَين إلى سَقْفِ المجلِس، ومسَحَ طرَف أنْفِه الأفْطَس، ثمّ رفعَ يدَهُ إلى جَبْهَتِه الواسعة متلمّسًا ثباتَ تاجِه على هامَتِه. فشعَر بندَمٍ على تِلْكَ الأفكارِ الّتي مرَّت بذِهنِه عَنْ مُعلِّمه ووزيرِه. وأعاد نظراتِه إلى عيونِ الحاضرينَ حتّى غَدَتْ عيناه أضْيَقَ، ومدّ حربتَهُ جهة الوزير:

- الرأيُ ما يراهُ والدُنا الوزير!

وسرَت في جوِّ المجلِس نسمةُ ارتياحٍ شعر بها الحاضرون غيرَ تاج الملك. والتَفَتَ السّلطان إلى نِظامِ المُلْك:

- بُتَّ في الأمْرِ والرّأيُ مَا تَرَى.

ولحَظَ الوزير من طَرَف عَيْنِه اليُسرى تاجَ الملك، فرأى وجهَهُ يتَربَّد ضِيقًا. ثمّ رفَع السّلطانُ يدَهُ، فاقتربَ الكاتِبُ، ووقَفَ قُرْبَ نِظامِ المُلْك، فقال الوزير:

- اكتب للوالي أن يبحَثَ في ما جرى، وأنْ ليس للعامّة أن يطمعوا في النَّيْلِ مِنَ العُلماء. فَلِلْعُلَماء مجالٌ وللعامَّة ميدان. ولْيَنْشَغِلْ العالِمُ بعِلْمِه وكُتُبِه ودَوَاتِه وقِرْطاسِه. وَلْيَنْصَرِفْ التَّمارُ إلى تَمْرِهِ، والإسكافيُّ إلى نِعَالِه، والعطَّارُ إلى عُطورِه. فبهذا تُصْلَح البُلدانُ وتُعمَرُ أراضي سيّدي سُلطان العالَم. ولا يأتينَّ مجلسَ سيّدي السُّلطان طلبُ قتلِ عالِمٍ لِرَأيٍ رآه، أو كتابٍ كتبَهُ بَعْدَ اليَوم.

وابتعَدَ الكاتِبُ يَلُفُّ جانِبَي دُرّاعَتِه على بَطْنِهِ المُستَدير وهو يستعيدُ كلامَ الوزير حتّى لا يَنْسى مِنْهُ حرفًا. وكادَ يَصْطَدِمُ قُرْبَ باب المجلِسِ بالخصيِّ المُنْهَمِكِ في تلميع عتبة الباب. ثمّ دخَلَ الخدَمُ حاملينَ الأطباقَ، إذ حانَ وقتُ الفُسْحَةِ في الدّيوان. فنفَضَ الخصيُّ يدَيْه ومَسَحَهُما على طَرَفِ قميصِه وانطلَقَ يمشي مع الممرّ الوَاسِع، ثمّ لفَّ يمينًا مع الرّدهاتِ والدّهاليز الضيّقة. ولّما تجاوزَ الحديقةَ، دخَلَ منْطَقَة حَرَمِ السُّلطان.

استأذَن على زَوْجَةِ السُّلطان الحظيَّة، تركان خاتون، فأذِنَت له حالًا. فوَقَفَ لاهثًا بين يَدَيْها، وشرع يُفرغ في أذُنَيْها كلَّ ما دار في المجْلِس حتّى أشارَت لهُ بالانْصِراف دون أن يُدْرِكَ من تَعابيرِ وَجْهِهَا رأيَها في ما سَمِعَتْه، إذ وقَفَتْ تسحبُ ذَيْلَها، ثمّ دخلَت غُرْفتَها.

صكَّت البابَ وراءَها، وألقت جسمَها على كرسيٍّ منصوبٍ قُرْبَ النّافذة مُفكّرةً: *هذا الرّاعي سيُنهي هذه الدّولة! هذا الرّاعي لا يَعْرِفُ خَطَرَ الرِّجال! كيف يسمحُ لذلِكَ الوزير بامتلاكِ الدّولة والتَّصرُّف فيها؟ ماذا تَرَكَ له غير تاجٍ على هامةٍ وحربةٍ بيده؟*

ثمّ رفعَت يدَها ووَضَعَتْها تحت ذَقْنِها وهي تتذكّر والِدَها شيخ القبيلةِ التّركيّة. *كيف كان سيتصرّفُ مع الوزير؟ كان سيُرسِلُ لَهُ مَنْ يَقْتُلُه حالًا! فالمُلْكَ لا ينقسمُ أبدًا، والقطيع لا يجتمع فيه فَحْلان.*

بعد هُنَيهةٍ سمِعَت قَرْعَ نعاله، وانفتَح البابُ، فإذا السّلطانُ ملكشاه يُزيحُ تاجه، ثمّ يجلس على السّرير المُقابِل ويبادرها بالحديث:

- ما لكِ؟ كأنّك غَضْبى!

- لا، يا سُلطاني!

لَفَحَتْهُ بِنَظراتٍ مُعاتِبَةٍ فقال:

- عيناك تقولان إنّك غَضْبى!

فوَلّتْ وجهها جهةَ النّافذة، وسحبَت طَرَف السِّتارةِ كي ترى الحديقة:

- لسْتُ غَضْبى، لكنّي كنتُ أفكّر في أمْرِ وزيرِنا.

فصرَخَ:

- أوووووه! كانت عيونُك في المجلِس تتسقَّطُ أخبارَ الدّولة إذَن؟ وتُريدينَ النَّيْلَ من وزيري ووزيرِ أبي، وعامِل جدِّي! أَلَمْ أقُل لَكِ أَلْفَ مرّةٍ دَعي الفَرَسَ للفارِس، ودَعي الجُحْر لِلْحيَّة!

أشاحَ بوجهِه وعيناه الضّيّقَتَان تَنْفُثان شرَرًا، فوقفتْ ولمستْ كَتفَه:

- سُلطاني! أنا لَمْ أقُل شَيْئًا. وإنْ كُنْتُ قُلْتُه فإنَّما هو من أجلِك ومِنْ أجْل ولَدي محمود وأولادِنا الآخرين. هذا الوزير لا يَعْبَأ بالدّولة فَلَوْ...

وسكتَت قَبْلَ أنْ تحتجَّ بقصّة الغزاليّ لِما تعلمُ من ضِيقهِ برَصْدِها لمجلسِه فقالَت:

- هو لا يَعْبَأُ إلّا بِحَرْبِ الباطنيّة والشّيعة، وبِنَاء المدارس. وهذهِ أمجادٌ له، ولا صلةَ لها بالتَّوطئَة للسّلطان.

فمال وهو يضع مِرْفقَيْه على رُكْبَتَيه:

- الباطنيّة والشّيعة أعداؤنا ولا بُدَّ مِنْ حَرْبِهم!

- لكنَّهُ يستنزِفُ الجَيْشَ والمالَ لِحَرْبِهم ولا يهتمُّ بالثُّغور. أتذكُر كَمْ يُنْفِقُ على نظاميّةِ بغدادَ وَحْدها؟ خَمْسَةَ عَشَرَ ألْف دينارٍ كلّ عام!

ثمّ سكتَتْ، وصرفت عينيها نحو عَينَيه لِتَعْرِفَ وَقْعَ كَلامِها، فَلَمْ تُلاحِظْ تَغَيُّرًا في وَجْهِه فزَادَت:

- ثمّ إنّ حَرْبَهُ على التشيّع تعنيهِ ولا تَعني السُّلطان. فلا صِلَةَ لها بتثبيتِ أركانِ الدّولة وتَوْطِئَة الأمْرِ لآل سَلْجُوق!

وأحسّت بأنَّها أثْقَلَت عَلَيه. فَهْيَ تَعْرِفُ ضِيقَه بالحديث عن وزيرِه، لكنّها تشجَّعتْ حين لاحظَت إنْصَاتَهُ:

- أخْشَى ما أخشاهُ أنْ يتحالَف هُوَ والخليفةُ في بَغْداد ويدبِّرَا أمرًا...

لكنّها عادتْ إلى السكوت مرّةً أخرى. إذ كَانَت عَليمةً بأوقات الصّمت ولَحَظات القَوْل، فرفَع فيها عَينَين مُحمرَّتَين:

- يُدبِّران ماذا؟

- يُدبِّران أمرًا ضدّ السّلطنة وآل سلجوق!

انتفَض رافعًا مِرْفَقَيه عن رُكْبَتَيه، وانتبَه إلى ضرورةِ ضَبْطِ ردِّ فِعْلِه أمامَها حتّى لا تَنْتَبِهَ إلى أثَرِ حديثِها فيه، فسكَن، وتظاهَرَ بالتّثاؤُب. ثمّ رفَعَ يَدَيْهِ وهو يُفكّر في أحاديث الوزير الكثيرةِ دفاعًا عَنِ الخليفة:

- أتُريدينَني أَنْ أعْزِلَ وزيري ووزيرَ أبي؟

جلَسَت بِقَلْبٍ نابضٍ على طرَف كرسيّ السُّلطان، وقرَّبَت وجهَها من وجهِهِ، وضيَّقتْ عَينَيها هامِسَة:

- «إنّ البَلَد الّذي يُسفح فيه الدَّمُ يكثُر فيه النَّماء!». لا تَنْسَ هذا المثَلَ التّركيّ.

فاتَّسَعَت عَيْنَا مَلكشاه، ثمّ دفعَها بيَدَيه:

- ألا تَمَلِّينَ هذا؟!

وقفَ وأخذَ تاجَه مِنْ معلاقٍ قُرْبَ الباب، وخرَج عجِلًا مُفكّرًا. *هذه حيّةٌ رَقْطَاءُ من عائلةٍ لا تَعيشُ إلّا على الدّم! فهي ابنةُ طفغاج خان أمير سَمَرْقَند، ومِنْ نَسْلِ إفراسياب التّركيّ ذي المُلك الرّاسِخ قَبْلَ الإسْلام.* مشى مُطرِقًا في الممرّات الواسعة. وأنْصَتَ القَصْرُ لِوَقْعِ نَعْلَيْه وهو عائدٌ إلى مَجْلِسِه. أنْصَت الحَرَسُ والجَواري والخِصيانُ، وامتَلأ ذِهْنُه بالضّجيج الّذي أشْعَلَتْهُ بَيْنَ جَنْبَيه. زمَّ شفتَيه، ومشى بهدوءٍ مُفكّرًا فيها. فمن بين زَوْجَاتِه الثّلاث هي الوحيدةُ الغارقة في سياسة القُصور. تذكّر زَوْجَتَهُ الجميلةَ زُبَيْدَة والدَةَ ابْنِهِ بَرْكْياروق. تذكَّر جمالَها وهدوءها، واستعادَ وَجْهَ زَوْجَتِه الثّالثة تاج الدين صفريّة والدَة ابنيْه محمّد وسنجار. ثمّ عاد يفكّر في تركان خاتون، ولَمْ يَجِدْ تفسيرًا لِغَرَقِها في السِّياسة إلّا دِمَاءَ والِدِها.

كانت تركان خاتون مفطورةً على المشاعِر الحادّة، والمشي على النُّتوءَات، والإطلالِ من الأعالي المُخيفَة، واللَّعِب بحدّ السّكّين. تَدْخُلُ في شؤون السّياسة بالفطرة، وتَمقُتُ الرَّتابةَ والدَّعَةَ الخاليةَ من التَّوتُّر. كأنّما خُلِقَت لِتَقُودَ الجُيوش وتُقيمَ الإمبراطوريّات وتَخُوضَ في الدّماء. لا تستطيعُ العيشَ دُون حبٍّ حارقٍ مَحْفُوفٍ بالزّوال والزّلزال، أو تَوتُّرٍ أبديٍّ شاكٍّ في نَظْرَةِ المحبوب. كانت تستمتعُ بلحظاتِ الشّكّ والتّرقّب والمساحاتِ الرّماديّة وأنصافِ الإجاباتِ والإيماءات الواقفة بين «لا» و«نَعَمْ». خُلِق قلبُها ليظلَّ حيًّا دفَّاقًا، لا يُزهِرُ إلّا في زمهرير الحِقْدِ أو حَرُور الحبّ، ولا يستخفُّها الطَّربُ إلّا وسط العجاج والمؤامرات والدّسائِس.

كان ملكشاه يمشي مفكّرًا في طبيعتها ويداهُ وراءَ ظهرِه. فتطلّعتْ تركانُ من طرف البابِ لِتَرى أثَرَ حديثِهَا فيه، لكنَّهُ اختفَى وراء الحديقَة بَيْنَما كانت عَيْنَا الخصيِّ الحَادَّتَان تُراقِبَانِه مِنْ نَافذَةٍ مُطلَّةٍ وهو يدخُل مَجْلِسَه.

7

يتدافعُ المصلّونَ للخُروج مِنْ أبواب الجامع في نَيسابور. ولا يكادُ الواحد منهم يتجاوزُ باحةَ المسجدِ حتّى يتسمّر مشدوهًا، جاحِظَ العَينَين مُرتَخِيَ الفكّ. ووسط الرّحبة يتقلَّبُ طيفور الأصلعُ في مرقّعته، لاعبًا بعصاهُ، مُنشِدًا:

لَـوْ أنَّ مـا تَبتلينِـي الحادثـاتُ بِـه   يُلقى على الماء لم يُشرَبْ من الكَدَرِ!

يرفَعُ بصَره من تحت أهدابه الكثّة، ويمدّ سبّابتَه جهةَ السّماء، ثمّ يتحاملُ على يَدَيه ويقفزُ على رِجْلٍ واحدة، مُناديًا والدّموعُ تَسيلُ على لِحْيَتِه الشعثاء:

- إلهي! كيفَ تَخلقني ثمّ تتركني تائهًا في أودِية العَطَش!

تنتقلُ عدوى بُكائه إلى الواقفين. فيرتفعُ النّشيج، وتنطلقُ من أطراف المتفرّجين همهمات:

- رُحماك يا ربّ!

- عبدُك الضّعيف!

تسقطُ عِمامة طيفور فتظهرُ صَلْعَتُه الملساء. وتبدو حُبيباتُ عرقٍ تتقاطرُ مِن جَبْهته رغم الجوّ الرّبيعيّ البارد. يقفزُ دابًّا على يَديه ورُكبتيه، ثمّ يعودُ واقفًا بخفّةٍ مُنشِدًا:

كأنّكَ قد خَتمتَ على ضميري   فغيرُك لا يَمُرُّ على لِساني!

تتحرّك عُيون النّاس وقلوبهم بحركاته. يعتدلُ جالِسًا قابضًا على لِحْيَته.

يتّجِهُ جِهة القِبْلَة، ثمّ يُمسكُ عَصاه بِيُسراه ويتَمايلُ. أصبَح من اليَسير قراءة الكتابات الكثيرة المنقوشة على جبّته وعصاه. فَبَيْنَ كَتِفَيه على المُرَقَّعَةِ مَكتوبٌ: «لا تُبَاعُ ولا تُعَار»! ونُقِشَ على عصاه بِخطٍّ دَقيق:

حــيّرتهــم محــبّــةُ الله حتّى حسِبَ النّاس أنّ فيهم جُنونًا!

سكَن جِسمُه إلّا مِن تَمايلٍ خَفيف، وسافَرت عَيْناه تتفحّصان وجوهَ المتفرِّجين وأفواهَهُم الفَاغِرة. تأمّل طيفور أوجه النظّارة، فلمحَ الغزاليَّ في ملابسه الأنيقة آتيًا من باب المسجد. اقترَب ماشِيًا بهدوءٍ والعطرُ يتضوّعُ من جبّته السّوداء، ويدُه تتفقَّدُ عِمامتَه المُطرَّزة بالأصفر. تجاوزَ المتفرِّجين فتَبِعَه أربَعة شُبَّانٍ يَحمِلُونَ دَفاتِرَهُم ومَحابِرَهُم، ويَرتدونَ ملابِسَ المدرسَة النّظاميّة.

وقُبَيل خُروجه مِن باحَة المسجد ناداه طَيفور:

- إنّ الّذي تَطلُبُه وراءَك يا غزاليّ! لا تَتَفَقَّدْ مَلابِسَك وتَنْسَ قَلْبَك! لا تُسمِّن فَرَسَكَ وتُهْزِلْ قَلْبَك!

وتَذكَّر طيفور كَيْفَ كانَ يَرى ذلِك الشابّ الذّكيَّ في مَجالِس الشّيخ الصّوفيّ أبي عليّ الفارمذيّ. وكيفَ كان قلبُه مُمزّقًا بين طريق الدّنيا وطريق الآخرة، بَيْنَ شَيْخِه الفارمذيّ وشَيْخِه الجويني. وخطَر لَهُ أنّ الشّابَّ أخذَ طريقَ الدُّنيا وانغمَس فيها. فَتِلْكَ لَيْسَت ملابسَ مَن يُوقِنُ بالموت. وشعرَ طيفورُ بالإرهاق. فهدَأ ومسَحَ وجهَه بِيَدِه، وعَزَم في سِرِّهِ على ألّا يترُكَ ذلك الشّابَّ يَضيع. سيظلُّ وَراءه.

ثمّ رفَع بصرَه وصرَخ:

- إنّ الّذي تطلُبُه وراءك!

لَمْ يَزِد الغزاليّ على الالتفاتِ بَاسِمًا. وسرعان ما انحرَف يَسارًا إلى الزّقاق الواقِع شَرْقَ المسجد، ثمّ تراءى لَهُ مَدْخَلُ المدرسَة النّظاميّة. وقَفَ

ووراءه الطّلّاب الأربعة أمامَ الباب المُقوّس الضّخم، فاندفَع حارسٌ نَحيفٌ يَسْحَبُ البَابَ الخشبيَّ ويشير بِيَدِه إلى الدَّاخل:

- الأستاذ!

دخلوا السّاحةَ المربّعة، حيثُ يجلِسُ عشراتُ الطّلّاب مُعتجِرينَ عَمائِمَهم البَيضاء، مُتلفّفين في جُببهم البُنّيّة، موزَّعين في حَلَقَات. وَمَعَ تَعدُّدِ الحِلَق لا تُوجَد ضَوضاء، بَلْ أصواتٌ نَحيلةٌ خافِتة. فالباحَة المربّعة الواسعة الفاصلَة بَيْنَ فُصول المدرسة وحُجُرات الأساتِذة مَفتوحةٌ على الهواء، وهو ما يُتيحُ للأصواتِ تموُّجًا مُريحًا يَمْنَعُ مِن الصّدى والانكِتام.

عبِق أنفُ الغزاليّ بِتِلْكَ الرّائحةِ العطريّة المميِّزةِ لرَبيع نَيسابور؛ وهو ينظرُ إلى عامِلٍ مُمتلئٍ قَصيرٍ يرشُّ الأرضَ المبلَّطةَ بماءِ الوَرْدِ قُربَ النّافورةِ وسَط السّاحة. وصَلَ إلى كرسيِّهِ فخلَع نَعْلَيه وجلَس وهو يتذكّر أنّ هذا الكرسيّ كان مَجْلِس شَيْخِه أبي المعالي الجويني. طفِق الطّلّاب يَنْثَالُونَ عَليهِ مِن أطراف المدرسة، يَجلِسُون على الفُرُش المبسوطَة بَين يدَيه خافِضينَ رُؤوسَهم، والرّياحُ تَلْعَبُ بِأوراقٍ بَسَطُوها استعدادًا للإملاء. تَنَحْنَحَ الغزاليّ لِيَبْدَأ الدَّرس، لكنَّ أحدَ الطّلّاب الّذين رافقوه مِن المسجد سأله وصورة طيفور في ذهنه:

- ما رأيُ الشّيخ في هؤلاء المتصوّفَة والحالِ التي تُذهِلهم عن أنفسهم. هل هم مَسْؤولونَ عمَّا يتفوَّهونَ بِه؟ وهل يقودُ حبُّ الخالق إلى غِيابِ العَقْل؟

برَقَت عَيْنَا أبي حامد الغزاليّ، وهو يتفقَّدُ وَضْعَ عِمامَته، ويستقرّ في كُرسيِّهِ:

- كثيرًا ما شَهِدتُهم يدّعونَ الحَالَ فَيُصْرَعون، لكنّها صرعَاتٌ يتخيّرون مكانَها وزمانَها. فلا تأتيهُم الحالُ إلّا في مَكَانٍ وَطيء. لماذا لا تأتي

أحدَهم وهو فَوْقَ حَائِطٍ أو على ظَهْرِ جَمَل؟

تَرامَق الطلّاب ضاحكين وواصَلَ الغزاليّ:

- هُمْ لَيْسُوا أَخْوَف لله مِن أبي بَكْر وعُمَر وأبي ذرّ. وما كانَ أيٌّ مِنْهُم يُصْرَع أو يَذْهَلُ أو يُهمِل نفسَه. هذا تألُّهُ عُبّادِ البِدَدَة من الهُنود، لا دِينُ رَسُول الله! وهذا الكلامُ وهذِهِ الأشعارُ أمورٌ يستلذُّها الطَّبعُ؛ إذْ فيها البطَالَةُ مِن الأعْمالِ مَع تَزْكِيَةِ النَّفس، وقد جرَّبتُهم زَمانًا.

توقَّفَ مُصوّبًا نظرَاتِه إلى باب المدرسَة حيثُ ظهرَ شَابٌّ حَنَفيّ مِنْ طلَبَة العِلْم. اقترَبَ، ثمّ سلَّم، وناولَهُ رِسَالَةً مختومةً، ووَلَّى مُدْبِرًا. ففتَحَ الغزاليّ الرّسالَةَ بِلَهفةٍ لاحظَها طلّابه، ومرّر عَينَيه علَيها وسَطَ وُجوم الحاضرين.

كانُوا يُحاولُونَ قِراءةَ مَضْمُونِ الرّسالةِ من تَعابِيرِ وجهِهِ، وقد سكتت الحِلَقُ الأخرى في أطراف المدرَسة، وانصرَفَت وجوهُ طلّابها إلَيه. فَقِصَّةُ الشّغب بين الشّافعيّة والحنفيّة ما زالَت حيّةً في النُّفوس، وهتافاتُ العامّة بِاسْمِ الغزاليّ وحَرْق كِتابِه «المنخول» لا تزالُ تُسْمَعُ في حَواري نَيسابور. افترَسَتْهُ الأعيُنُ وهو يقرَأ الرِّسالة. ولمّا فرغ من ذلك رفعَ وجهَه، فرأى كلّ العُيون تَحْدِجُه!

أطرَق قليلًا، ثمّ رفعَ رأسَه:

- ومعَ ذلك فهؤلاءُ المتصوِّفة كغَيرهم مِن المسلمينَ فيهم الصّالحُ والطّالح، والمقْتَصِدُ والسّابقُ بالخيرَات. وإنّما أوتُوا مِن جِهة الجَهْلِ، لا مِن جِهَة القَصْد.

وسكَتَ. فاجْتَاحَت طلّابَه خَيْبَةٌ وانزِعاجٌ يشوبُهما إعجابٌ بهذا الأستاذِ الشّابِّ الّذي لا ينفكُّ يُفاجئهم بدقَّةِ حدسه وقوَّةِ ذاكِرَته. نظرَ يمينًا فرَأى الحِلقَ هادئةً صامِتة، والعَمائمَ ساكنَةً مُنصِتة. رجالٌ يُسرِّحونَ لِحَاهُم بأطرافِ أصابِعِهم، ويُصيخونَ لِسَماع أيِّ نأْمَةٍ مِن جهَتِه. نظرَ إلى طلّابه:

- لَقَد أرْسَلَ إليَّ الشّيخُ العُباديّ طالِبًا المناظَرةَ غدًا في مَسْجِدِه.

ورفَع يدَه اليُسرى، ولَمَس مكانَ الشّجَّةِ الواضِحَة الّتي تُمَيِّزُ جَبْهَتَهُ. وتلك حركَةٌ تعوّد طُلّابه على أنّها مُؤْذِنةٌ بأمرٍ أهمَّه. تدخَّلَ أحدُ الطلّاب وبدَأ قراءةَ درس اليوم؛ فانطلق الغزاليّ:

- الحَسَنُ عِنْدَ أهْلِ السُّنَّة ما حسَّنَهُ الشَّرْعُ بالحثِّ عَلَيه، والقبيحُ ما قبَّحَهُ بالزَّجْرِ عَنْه وذَمَّه. وقَدْ خالَف في ذلك المُعتَزِلَةُ والرَّوافِضُ فقَالوا: الحَسَنُ حسَنٌ في ذَاتِه وكَذَلِك القَبِيح.

كان يتحدَّثُ والخواطِرُ تتزاحَمُ في ذِهْنِه، والكلماتُ تتنافسُ للقَفْزِ مِنْ شفتَيْه. ومَع ذلك فقد أحسَّ بشرودٍ في ذِهنه وتعثُّرٍ في عِبَارَتِه مُنْذُ قَرَأ رِسَالَة المناظَرة. وكرِهَ أن يُلاحظ الطلّابُ ذلك الفُتور.

كان واثِقًا مِن أنّه أقْدَرُ مِنْ مُناظِرِه، لكنَّ طارئًا مّا قَد يَعْرِض أثْنَاءَ المناظَرة فتَنْقَلِبَ لِصَالِحِ خَصْمِه، كَما وقَع مرَّاتٍ في مُناظراتٍ بجُرجان وطُوس. ذلك أنّ انقطاعَ حُجَّتِه في هذه المناظَرة سيحُولُ دُونَ تحقيقِ حُلْمِهِ بالتقرُّبِ مِن الوَزير والسُّلطان، فيحرمه ذلك قطعًا مِن التَّصدُّر للتّدريس في أعظم كرسيٍّ دراسيٍّ في العالَم؛ كُرسيّ النّظاميّة الأكْبَر في بَغداد.

تزَاحَمَت تِلْكَ الأفكارُ في ذِهنه وهو يُشقِّقُ الكلامَ في أبوابٍ مُختلفةٍ مِن الأصولِ والمنطقِ، ثمّ توقَّف عَن الكَلام. تذكَّرَ العلاقةَ الخاصّة بَين الأحنافِ والسُّلطان ملكشاه. فَمَنْ يَضْمَنُ ألّا يكونَ في الأمر دسيسةٌ تقودُ إلى هزيمَته في المناظرة؟

توقَّف لحظاتٍ وهو يلعب بطرَف لِحْيَته الصّهباء ويتلمّس طرَف شجّتِه. ألقى عليه طالبٌ سؤالًا، لكنَّهُ لَمْ يَتكلّم. وترامَقَ طالِبان في طرَفِي الحَلَقَة فحدَجَهُما بنظرةٍ فَتورَّدَتْ وجناتُهما، ثمّ أشَاحَا وجهيْهما إلى الأرض.

كان مشهورًا بين أساتِذَة النّظاميّة بالتّنبُّه إلى كلّ ما يقعُ في أطراف حَلقته. فلا تُلقَى فِكرةٌ أو تَقعُ حركةٌ إلّا رصدَها بِعَينَيه السّوداوَين العَميقتَين.

رفعَ وجهَه إلى البَاحة مُتأمّلًا حمَامَتَين تتقافزان على طرف الحائط:

- ثمَّ قَسَّمُوا ذَلك إلى ما يُستدرَك بِمَحْضِ العَقْلِ وإلى ما لا يُستدرَكُ إلاَّ بانِضِمَام الشّرع إلَيه كحُسْن الزَّكوات والصَّلوات وأنواعِ العِبَادات؛ لأنّ مصالِحَهُما الخفيَّة لا يُطّلع عليها إلّا بتنبيهٍ من الشّرع.

عادَت أصواتُ الحِلَق إلى الارتفاع، وأخذ كلّ أستَاذٍ يَشْرَحُ مادَّتَهُ، لكنَّ الأذهانَ كُلّها كانَت مُنْصَرِفَةً إلى مضمون الرسالة. مرَّت ساعاتٌ والغزاليّ مُنطلِقٌ في التَّدريس. تبادَل الطلابُ الأماكنَ والدُّروسَ وهو جالسٌ على كرسيّه لا يتحرّكُ. وصدَح صوتُ حبيب الشّيرازي من المسجد فخفتَت هَيْنَماتُ الطُّلّاب، وأنصتَت نَيسابور لأعْذَبِ صَوْتٍ فيها.

وصلَ إلى تِلك الجُملَة الّتي طالما أطْرَبَ بها أهلَ نَيسابور:

- أشهد أنَّ مُحمّدًا رسُول الله!

ابتسَم الغزاليّ وهو يذكُرُ قَوْلَ عُبَيد المُوَسْوِس إنّ ذلِك الصّوتَ ضلَّ طريقَه إلى حَلْقٍ مَحْفُوفٍ بالشّعر، وكان حقُّه أن يخرُجَ مِن بَين شَفَتَي المغنّيةِ قَلَم.

انقضَى الأذانُ، ووقف الطُّلاب شاكرينَ بأدبٍ. ودسّ الغزاليّ قدَميْه في نَعْلَيه. كان يتحرّك حركةً بطيئةً تتصنَّعُ وقَارًا يُناقِضُه مَظهرُه ووجهُه المتورِّدُ النَّاضحُ بِماء الشَّباب.

تجاوزَ النّافورة قاصدًا المواضِئ وهو يضمُّ علَيه جبّتَه الواسِعة، ويُعَدِّلُ عِمامتَه. عَبَقَ أنفُه برائحةِ العِطْرِ الفوَّاح الّذي يُضمِّخُ جبّته. ورفعَ عَينَيه فتراءى لهُ الطُّلاب مُسرعينَ إلى المسجِد. انشغَلَ ذِهْنُه مُتسائلًا عمّا اعتراهُ اليَوم مِن ضيقٍ في الصّدر وانحباسٍ في اللّسان. فلِمَ يُعيرُ المناظرةَ عَقْلَهُ وهو الّذي لا يشكُّ أحدٌ مِن أهل نَيسابور في إتْقَانِه الجَدَلَ والمَنْطِقَ والفِقْه؟

خلَعَ نَعلَيْه، ووضعَهُما في يده، ثمّ دخَلَ المسجد. وما إنْ تجاوزَ السّاريةَ

الأولى حتّى لمحَ طيفورا رافعًا يديْه إلى السّماء يدعو. كان مُنتصبًا في مُرَقَّعَتِه كجذعٍ راسِخٍ، وصَلْعَتُه تلوحُ مِن تحت عِمامته المهترئة. فتسَاءل في نفسِه: *ألا يملُّ هذا مِنَ العبَادَة؟!*

نظرَ إليه مرّةً أخرى، فلمَحَ لُعَابًا يَسيلُ مِن طرَف شفَتِه السّفلى، وعبرَاتٍ تتحدَّرُ مِن جَفْنَيه المرتَخِيَين المُغْمَضَين.

اكتظَّ مَسْجِدُ النّظاميّة، فقد كان أكثَرَ مَساجِد نَيسابور ازدحامًا لِقُرْبه من ساحة الطَّاق المليئَة دومًا بالعَابِرين. استعادَ الغزاليّ صورَةَ مُنَافِسِه. تذكّر عَينَيه المائيَّتَيْن دومًا كأنّها تستعدَّانِ لِلْبُكاء، وهامَتَهُ الضّخمة، وصِلتَهُ بالسّلطان ملكشاه. *كيف يَقْبَلُ السّلطان وهو حنفيٌّ أنْ أنْتَصِرَ على شَيْخٍ حَنَفَيّ؟*

أفاقَ على الشّيرازي يُقيم الصّلاة. هدأت الأصواتُ، وهبَّت رياحٌ باردةٌ آتيَةٌ مِن النّافذة الواسعة المشرَعة شَمال المسجِد. فتحرّكت عَمائمُ، ولَعِبَ الهواء بجِبابٍ، وانطلَقَت تكبيراتٌ هامسةٌ مِن أنحاء المسجِد.

تنفّس الصُّعداءَ مُتضايقًا مِن انْشِغال ذِهْنِه بالمناظَرَة وهو في المحْرَاب. تساءل مؤنِّبًا نَفْسَه: *إذا كنتُ أعْمَلُ لله وأعلّم لله فَلِمَ يَشْرُدُ ذِهني في محْرَابِهِ وَبين يَدَيه لأفكّر في مخْلُوقٍ آخر؟* وخَطَرَ له أنَّ انشغالَ ذِهنه بتلكَ المناظَرة وحِرْصَه على الفَوْزِ فيها نابعٌ مِن حُبِّهِ لِلْحَقِّ وظهور السُّنَّةِ الصَّحيحة عَلى غَيْرِها.

تمْتَمَ مُستغفرًا في سرّه وهو ينظرُ إلى مِنكَبَيْ الإمامِ الّذي أحْرَمَ بالصّلاة. دخَل الصّلاةَ وقد طافت بذهنه كلمةٌ سمعَها مِنْ شَيْخِه الصُّوفيّ أبي عليّ الفارْمَذي، مفادُها أنَّ حُبَّ الرِّئاسَة آخِرُ مَا يُنْزَعُ مِن قُلُوب الصدّيقين. وشَخَصَتْ في خَيالِه لَحْظَةُ المناظَرَة.

8

مقبرة نَيسابور، 484 هـ.

مرَّت ساعةٌ وسَمْنون وسَط مَقْبَرِة شَاهبر رافعًا يدَيْه. تنغرِسُ قدَماه القويَّتَان في الأرض المُبلَّلة، وتلتصِقُ جبّتُه المرقَّعة بجَسَدِه في ظلماء اللّيل. يسَّاقطُ المطرُ على هامَتِه، فيسيلُ على وجهِه ولِحْيَتِه الكثَّة، عيناهُ مُغمَضَتَان وفكّهُ دائمُ التّحرُّك. فتَح عَينَيه مُتأمّلًا الأفُقَ المظلِمَ ودَنْدَنَةَ الرَّعدِ وتَخَافُقَ البُروقِ شرقَ نَيسابور. لَفَحَ البردُ ظهرَه، فَشعُرَ بألمٍ في قدَمِه الّتي وطئَها بَغلٌ في أحدِ الأزقَّة قبل أيّام، لكنَّه أحسّ بلذّةٍ روحيّةٍ أزالَت كلّ ذلك البرد. فتَحَ فمهُ:

- إلَهي! ها هُم أهلُ نَيسابور قد احتمَوْا بمساكِنِهم الفَارِهة، ولجَؤوا إلى دُورِهم الدّافِئَة، وها هو عُبيْدُك يتعرّضُ لِرَحْمَاتِك خاليًا فلا تَرُدَّهُ خَائبًا. ها هو بين القُبورِ البَالِيَة، والأجداثِ السَّاكنة المستسلِمةِ فَلا تَرُدَّه. مَنْ أنا حتّى تُعذِّبَني؟ مَنْ هذا العُبَيد اللّئيمُ الضّعيف؟ أنْتَ تَمْلِكُ آلافَ النُّجوم والشّموس.. فَمَنْ أنا؟

خَطَرَ لَهُ أَنَّهُ الوحيدُ الواقِفُ هُنا، الخارج مِنْ بَيْن البُيوت ليحدِّثَ ربَّه، فانطَلَقَ لِسَانُه بِبَيْتِ مَجْنُونِ لَيْلَى:

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ البُيوت لَعَلَّني أحدِّثُ عَنْك النَّفْسَ باللّيل خَالِيَا!

خُيِّلَ إليه أنّ بابًا مِنْ أبوابِ السّماء انفتَح، فارتمى على الأرض ساجِدًا حتّى لامسَت جبهَتُه الغليظَةُ أرْضَ المقابِرِ الطِّينيَّةَ الرَّخوةَ اللَّزجة. اندسّ أنفُه في الطّين، فأغمَضَ عَينَيه وأمسَك أنفاسَه لحظاتٍ شاعرًا بلذَّة السُّجود،

ثمّ رفعَ رأسَه. كان الطّينُ عَالِقًا بأرْنَبَةِ أنفِه وجبهَتِه، لكنَّ انهمارَ المطَرِ أزالَه بَعْدَ لَحظَات.

رفعَ يدَيه، ومسَحَ بِهما وجهَه في انْشِراحٍ. فسرَتْ في بدَنِه ورُوحِه طمأنينَةٌ. والتَفتَ يبحث عن عصاه حتّى لمحَها مُسنَدَةً إلى أحد القبور. فأمْسَكَها، وشَمَّرَ جبّته، ثمّ بدَأ يضرِبُ القُبورَ ويصيحُ:

- كذّابُون! كذّابون! هذا كانَ يقولُ هذه داري! وذاك يقولُ هذا مُلْكي. والآخر كانَ يقولُ هذه زَوْجَتي! أهْلُ الدّنيا لا يَمْلِكُون شيئًا، إنَّما يَمْلِكُ الله! لِمَ لَمْ تتواضَعُوا؟ أيْنَ أمْلاَكُكُم؟

بدَأت الأمطارُ تَخِفّ، وارْتَخَت يدُه عن العَصا. فأنْصَتَ لِوَقْعِ المطَرِ على الأرض، ومَلأ رئَتَيْه برائِحَة الغَيْثِ وريَّا الأشْجَار والأزهار. تَذكّر أمَّهُ وأختَه اللّتَين تُوفِّيَتَا حَرْقًا في ثَوْرَةٍ بِنَيسابور. فشخصَتْ في ذِهْنِه صُورتُهما مُحْتَرِقَتَين، وعادت به الذكرى إلى ما في ذهنه مِنْ تَعاسَة الدّنيا وكَذِبِها.

تلفَّتَ، فَلَمَحَ سكّة العطّارينَ الّتي تقودُ إلى طريقِ مَعْقَل، فَانْدَفعَ إلَيها. مشَى مُبَلَّلًا مُطيَّنًا مُرهَقًا. لكنَّهُ كان مطمئنَّ النَّفْسِ هادِئ البَال، لا يَسْمَع إلّا خفَقَانَ قَلْبِه ووَقْعَ المطرِ في الظّلام.

مشَى في دَرْبِ العطّارين. مدّ بصرَه مع الدَّرْبِ الخالي مِنَ المارَّةِ، وسمِع مَيازيبَ البُيوت تصبُّ على أطراف الأزقّة بقَايَا المطر. لمحَ الماءَ المنحدِرَ يَنْسَرِبُ لِيَتَّصِلَ بِقنواتِ المجاري فتَنْقُله إلى خَارِج المدينة. بدَا الشّارعُ نظيفًا لِخُلوِّهِ مِنَ الأرْجُلِ والجَماجِم والتّدافُع. وخُيِّلَ إليه أنَّ الأرْضَ تطهَّرَت مِنْ أقدام الظالمين، وأنّ الهواء اغتسلَ من أنفاس العُصَاة، وأنّ المطرَ صقَلَ رُوح نَيسابور وأعادَها خالِيَةً مِنْ أوْضَار الفَاسقين. كأنّ الغَيْثَ يَغْسِلُ شوارعَ المدينةِ وزواياها مِنَ الغيبَةِ والنَّميمَة والظلم والدسائس.

كان يسيرُ بِقَدَمَيْه الحافِيَتَين في الشّارع المُبَلَّط، وطَرَفُ مُرقَّعَتِه يُلامِسُ

الأرض. وصَلَ إلى نهاية دَرْب العطّارين فانحرَفَ يسارًا آخِذًا سكَّةَ مَعْقَل. وفجأةً سمِعَ نداءً قادمًا مِنْ أعلى الدَّار الّتي كان يمرُّ تَحْتَها. فرفَعَ بصره، فلاحَت لهُ ذراعٌ بيضاء في الظّلام، وغزا أنفَه عطرٌ أخّاذٌ، ثمّ سمِع وقْعَ دينارٍ عَلى الأرض، فانحنَى وأخذَه وقال بصوتٍ مُمتنّ:

- رزقَكم الله ممّا تُحبُّون!

لكنّ الرَّائحَةَ ضرَبت حبَّةَ فُؤاده. وخطَرَ لهُ أنَّ تِلْكَ ذِراعُ بِنْتِ حَمْزَة التَّاجر، ذات الوجه الدّائريّ والعينين الواسعتين، والساق الخدلة التي لمحها مرّةً في متجر أبيها. شعُر بدبيبِ ألَمٍ في زوايا رُوحه. متَى يكفُّ عَنْ التّفكير في محاسِنِ امرأةٍ لا تحلُّ لَه؟ وكَيْفَ يُفكّر في النّساء لحظاتٍ بعد ضَرْبه قُبورَ الموتى؟ رفع قدمَه الّتي تُؤلمه، وضرَبَ بها طَرف الحائِط لِيَشْغَل ذِهْنَه عن رائحة العطر وصُورَة السّاق، فصرَخَ. وسرَى في أجزاء جسَده ألمٌ شديد جعَله يتلوَّى حتّى تعرّق كلُّ جسدِه، ثمَّ أحسَّ براحَةِ الانتصارِ عَلى النَّفْس، فالْتَقَطَ خِرْقَةً مَرْمَيّةً في طرف الشّارع، ولفَّها على قَدَمِه، وواصَل السَّيرَ حتّى رأى مَدْخَل الخانقاه.

طرق الباب الخشبيّ، فانفتَحَت فُرْجَةٌ وسطَه. ورفعَ الحارسُ مِصْبَاحًا إلى أعلى مُطِلًّا برأسِه. وحالما لمحَ وَجْهَ سَمْنون، فتَح الباب دونَ كلام.

وضع سَمْنُون رِجْلَهُ وهو يعرُج دَاخِل الخانقاه فنفَحَتْهُ تِلْكَ الرَّائحةُ المُعتادة؛ العَرَقُ الكثيفُ الممزوجُ برائحةِ الملابِس البالِية، وبقايا الأطعمَة ورائحَة الأرض بُعَيْد المطر. بدا الخانقاه كعادَته ضاجًّا بالحرَكة والأصواتِ والرّوائح والقراءة والصّلاة والأذكار. قطَعَ الباحَة الفاصِلَة بين الحُجرات، ثمّ اتّجه يمينًا، وصعَدَ أرْبَع درجاتٍ ودخَلَ حُجْرَتَهُ.

سلَّم على رفاقِه الجالِسين في زوايا الحُجْرَة وهْوَ يخلع مُرَقَّعَتَهُ المُبلَّلة ويَسْتَبْدِلُ بِها مُرقَّعَةً أُخرى كانت معلَّقَةً في طرف الغُرفة. لاحت له أبواب

الحجرات تحت أضواء القناديل، ورأى المتصوّفة الدَّاخِلينَ والخَارجين، فانشرَحَت نَفْسُه وهو يَلْمَحُ الطبَّاخِين في زاوية الخانقاه مُنهمِكَين في تجهيز العَشاء.

كان رفاقُ حُجرته الأربعَة يتحدّثون. فقد عزموا على البقاء ثلاثةَ أيّامٍ يَتَعبَّدون بلا نَوْم. وحين جلَس قُرْبَ فَيروز، رفَع فيه وجهَه. فلاح له تحت ضوءِ المصبَاح كأنّه ازدَادَ اصفرارًا.

قال فيروز بشفَةٍ مُنطفئةٍ وعينَين حالمَتَين وخدَّين محفُورَيْن:

- سَمْنون، من أين أقْبَلت؟ حَدِّثْنا! فالحديثُ تُحْفَةُ القادِم!

نهرَه طيفور، وهو مندَفِعٌ يَخِيطُ ثَوْبَه:

- دَعْنَا مِنْ هذا. وتعالَ قُلْ لي: ما أسبابُ تكاثُفِ الحُجُب على عُيونِ النّاس؟ ما سرُّ غَفْلَتِهم عن حقائِق الوُجود؟

زمَّ سَمْنون شَفَتَيه لِيتحدّث، فجاءَ صوتُ فيروز كأنّه يهذي:

- الخَلقُ محجُوبون عن رؤية حقائِقِ العَالَمِ بِثَلاث: حُبِّ الدِّرْهَم، وَطَلَبِ الرِّياسَة، وطاعَةِ النِّساء!

وخرَجت كَلِمَة «النّساء» من شفتَيه الجافّتَين كآخرِ لحظَةٍ من لحظاتِ اليقظة. فمالَ جَنْبُه إلى الأرض، لكنّ الحَبْلَ المشدودَ بِشَعْرِهِ الكثّ المربوط بالسّقف جَذَبَهُ فعادَ إلى الجُلوس. قالَ فيروزُ مُعيدًا السَّؤال إلى الكَهْل الأصْلَع المقوّسِ الظهر:

- ما الّذي يمنعُ البَشَر مِنْ فَهْمِ الوُجود يا طَيفور؟

اقترَب طيفور الأصلعُ مِنَ القِنديل مُقَطِّبًا ما بين عَينَيه ليرَى ثوبه واضحًا تحت السِّراج، ثمّ جمَعَ طرَف الثّوب بطرَفه الآخر ودسّ الإبرَة وهو يقتربُ أكثر من القِنْديل:

- إنّ ما قطعَ العِبَاد عَن خَالِقِهم ثَلاثَةُ أشْياء: قلّةُ الصّدق في الإرادة، والجهلُ بالطّريق، ونُطْقُ عُلماءِ السُّوءِ بالهوى.

وعاد ذهن سَمْنُون إلى قضيَّة النّساء وهو يُفكِّر في أنّ فيروز جرَّبَ النّساءَ وتزوَّجَ وَوُلِدَ لَهُ. ولِذَا يَستطيعُ فَطْمَ نَفْسِه عَنِ التّفكير فيهنَّ أكثر مِنْهُ. وعادَت صورةُ الذِّراعِ البَيضاء، وذِكرى الرَّائحةِ الزَّكيّة. ثمّ صرَفَ ذِهْنَه عَجِلًا وَهْوَ ينزَعُ عِمَامَته:

- هَلْ حَضَرْتُم أمْس مُناظرة الغزاليّ؟

كان الأصلع قَدْ وضَعَ الثَّوبَ على رُكْبَتِه وبدَأ يُسوِّيه بِيدِه:

- لَمْ أحضر. وقَدْ علِمتُ أنّ منافسَ الغزاليّ جمَع عنه كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ قَبْلَ المُناظَرة. إذ تحدَّث مع أتْرَابِه الّذين جاؤوا معَهُ مِنْ طُوس، وعرَف أهلَه وما يُعيَّر به، وسأل عن كلّ تفاصيل حياته؛ وَلَيْتَ شِعْري أيْنَ دِينُ مُحَمَّدٍ من هذا؟

كان سَمْنون قَدْ وَضَع عِمَامَتَهُ تحت فخِذه، فظهرَ شَعرُه الكثّ مُنْعَكِسًا على الجدار كأنّه رأسٌ آخر مُنْشَعِبٌ من هامَته. ثمّ حرّك جَفْنَيه:

- لكنّي سمعتُ أنّ هذه المناظَرات والمُشاغبَات تُعجِب الوزيرَ الصَّالح نِظامَ المُلْك، ويُثيب علَيها!

لفّ طَيفور الأصلعُ الثّوبَ، ثمّ نفَضَه، وقال:

- الوزير الصّالح؟ تلك جُمْلَةٌ مُتناقِضَةٌ مَنطِقيًّا. اسْمان يتبرّأُ كلّ مِنْهُمَا مِنْ جارِه!

كانَ رأسُ فيروز يميلُ إلى الأرض، لكنَّ الحَبْلَ جذبَه ففتَح عَينَيه زامًّا شفتَيه الدّقيقتَين:

- أيّها الشّيخ، كيف تعيشُ في خانْقاه بناهُ الوزير، وتأكلُ طعامًا يسَّرَهُ لكَ الوزير، ثمّ تقولُ هذا عَنْه؟

عاد فيروز مُغمِضًا عينَه مائلًا مُسترخيًا. وانفتَحت شفتَا طيفور عن نابَيْن حادَّين مُنفَرِدَين. وسكنَت يداهُ عَنِ الخِياطَة:

- هذا تسخيرٌ مِنَ الله. والمنَّةُ للمسخِّر لا لِلْمُسَخَّر! وهذا الّذي يتفضَّلُون بِه على العِباد إنّما هو فُتاتٌ مِنْ حُقوقهم.

وسُمِع إنشادٌ شجيٌّ آتٍ من إحدى الحُجرات القريبة، فرفَع طَيفور يدَيْه يدعو إلى الإنصات. فجاء الصّوت الشّجي واضحًا:

وقال ليَ العَذولُ تَسَلَّ عنها فقلتُ له: أتدري ما تقولُ؟!

هي النَّفْسُ الّتي لا بدّ منها فَكَيْفَ أزولُ عنها أوْ أحُولُ!

ثمّ رفعَ طيفور يدَيه في الهواء، وأمالَ رأسَه إلى الأسفل كعادته عند الاستحسان، وصَاح:

- الله!

يصيحُ بها ثمّ يمدُّ اللامَ مدًّا، وعند نهاية نطقِه بالهاء يُحرّك ذَقْنَه إلى اليمين ويتنهّد! وكان رفاقُه ينتظرونَ هذه اللّحظَة استطرافا لَها.

كان سَمْنون يتأمّل طيفورًا مُتعجّبًا مِن قوَّتِه ونشاطه، فكيف يكون هذا الكهل الأصلع بهذه القوّة والنّشاط وهو لَمْ ينَم مُنذُ يومَين ولم يأكُل إلّا مِلْءَ كَفِّه؟ وفجأةً ظهرَ دَرويشٌ قصيرٌ يسيرُ بين الحُجرات رافعًا يده:

- دعُوا التَّواجُد والإنشاد الآن، فهذا وقتُ العَشاء.

وخفتَت الأصواتُ، ولَم يَبْقَ غيرُ صَوْتِ إنْشَادِ الشّيخ الأصْلَع طَيفور. قامَ فيروزُ، وحلَّ شعرَه مِنَ الحَبْلِ المُتَدَلّي مِنَ السّقف، ومشى رِفْقَة سَمْنون قاطعًا الباحَة الواسعَة إلى غُرفة الطّعام المجاورة للمطبخ. وجلَس المُريدونَ حِلَقًا. كان العَشاء أرزًّا مطبوخًا بلَحمِ الضّأن المليء بالبَهارات. وانحسرَت الأكمامُ عَن السَّواعِد، وتحرّكت الأذقانُ الكثَّة، وهدَأت الأصوات، وتكاثر اللُّعابُ السَّائِلُ مِنَ الأفواه الجائعة، وانطلَقت دعواتُ

طلَب الماء من زوايا الحُجرة. لكنَّ سَمْنُون لَمْ يجلِس على المائدة، بَلْ وقَفَ طالِبًا مَلْء كفِّه أرزًّا، ولَبَنًا مخيضًا على غَيْرِ عادَته. فَقَدْ أزْمَعَ أن يعاقبَ نَفْسه على الخواطِرِ الرَّديئَة الّتي مرَّت بِذِهْنِه.

ثمّ خرَج سَمْنون، وما إن ابْتَعَد حتّى قال فيروزُ كاسِرًا الصّمت:

- أحسُّ طَعْمَ مَراعي طُوس في هذا اللَّحْمِ اللّيلة. أتُحسّون؟

وقعَ سؤالُ الدّرويش على آذانٍ خَرْساء، فالأفواهُ مليئةٌ بالأرزّ وفُتَاتِ اللَّحم. فرفعَ عَينَيه مُتأمّلًا الوُجوهَ الماضِغَة تحت ضوءِ القَنادِيل المُعلَّقة في زوايا الغُرفة، ثمّ أغْضَى داسًّا يدَه في الأرزِّ النّاعم. كان يتحسّسُ حَبَّةَ الأرزّ مُغْمِضًا عَينَيه، ويشمُّ قِطْعَة اللَّحمِ قبل أن يضعَها في فَمِه. كان يأكُلُ بكلّ حواسّه، ويشمُّ الطّعام بكلّ كيانه رغم نُعاسِه. وخطرَ لهُ بغتةً أنْ يُعاقِب نفسَه اليَوْمَ بِرَفْعِ يَدَيه عن الطّعام قبل الشَّبع، لعلّ ذلِك يُساعِدُه في دَفْعِ النُّعاس. فرفعَ يدَه ووقَف. فتَرامَقَتْهُ عُيونٌ من أطراف الحُجرة. وتحرّكت أفكارٌ في جماجِم الرّجال مُوحيَةً بأنّ هذا ليْسَ أكل فَيروز عادةً. وجاءَ صوتُ شيخٍ في طرَف المائدة:

- خيرًا يا شيخ؟ لمَ لا تأكُل؟

ابتعَدَ فيروز دونَ كلامٍ. وخفَّت الحركَةُ داخِل الخانقاه. وظلَّت الأيدي الجائعَة تفترسُ الأرزّ ولحم الضّأن. ثمّ انفتحَ البابُ فجأةً بقوَّةٍ، وجاء الصّراخ.

- لقد قُتِلَ صاحِبُكُم! لَقَدْ قُتِلَ الشّيخ! لَقَدْ قُتِل!

وارتفعَت الأيدي، ووقف الصَّائِحُ وسَطَ باحَة الخانقاه:

- يا مُريد، لقد قُتِلَ سَمْنون! ها هو يتشحَّطُ في دَمِه في الشّارع!

وركَضَ الصّوفيّة يلعَقُون أصابِعَهم إلى الشّارع يَتَقَدَّمُهم الشّيخ الأصْلَعُ طَيفور. ركضوا جِهَة ساحَة الطّاق حيثُ مَكْتَبَة البَيْهقِيّ. وهُناك،

في زاويةٍ مُعْتِمَةٍ عند التِقَاء شَارِعِ مَعقل بزُقاق الحمير، عند قَبْرٍ قديمٍ وجدُوا سَمْنُون جُثَّةً راكِدة.

بدَت الجُثَّةُ البَيْضاءُ في ظلام الزّقاق طَيْفًا فِرْدَوْسِيًّا غريبًا. تأمَّلوا جسدَه وجبّتَه، ثمّ قلَبُوه فوجَدُوه ميِّتًا بِطَعْنَةٍ واحِدَة في قَلْبِه. كان رأسُه الضّخم مُسندًا إلى الحائط ورقبَتُه مُلْتَوِيَةً قَليلًا، ويدُه مضمومةً على كِتاب، وجِرَابُه مَرْمِيًّا مُتناثِر الأشياء.

ضجَّ المُريدون، وخرَج الجيرانُ إلى الشّوارع، وكثُر النّحيب. كيف يُقْتَل سَمْنون؟ وَمَنْ قَتَلَهُ؟ كيف يُقْتَلُ الرَّجُلُ الّذي صامَ عَشْرَ سِنينٍ ومَا آذى أحدًا ولا رُئِيَ إلّا باسِمًا؟

وارتفع الصّراخ، ومزَّقَ أحَدُ الصّوفيّة مُرَقَّعَتَهُ، وجاءَ عُبَيد الموسوس راكضًا:

- قُتل الشّيخ سَمْنون!

وسُمعتْ ولْوَلةُ النّساء أعلى السُّطوح. وقفَ طَيفور جامِدًا وهو يَنْظُر إلى الجثّة، وإلى الجسَد الرّاكِد. تخيّل الأفلاكَ الّتي تُسافِر إلَيها رُوحُه الآن، والبِقاعَ الغريبةَ الّتي تَعْبُرُها بَعْدَ اسْتِعْدَادِها لذلِك عشرات السَّنوات. تخيّل ملائكةَ الرَّحمةِ تُرَفرِفُ بأجْنِحَتِها على سكّة مَعقل، ولاحظ اقترابَ السّماء مِنَ الأرض، ثمّ أحسَّ دبيبًا في جسَده. وانثالَت دُموعُه.

لَمْ تَنم نَيسابور تِلك اللّيلة، وهبّت ريحٌ عاتِيةٌ بثَّت الرُّعبَ في أرجاء المدينة. وتحدَّثَ النّاس عن أنَّ سببَ هبوبِها قَتْلُ الشّيخ سَمْنون، فأيُّ يدٍ شيطانيّةٍ تَمْتَدُّ إلى ذَلك الصُّوفيِّ المُتجرِّدِ لله؟

9

نَيسابور، محرم، 484هـ

أطْبَق الغزاليّ يَدَيه على شبَّاكِ الشّرفة، وراح ينظر إلى الشّفَق المتلاشي وراء رؤوس الجِبال. غزَتْ خياشيمَه رائحةُ الزُّهورِ المتفتّحَة، وسمِعَ خريرَ المياه في القنواتِ المنتشرة بالشوارع، فقال مُتنهّدًا:

- لا شيءَ أجْمَلُ مِن ليالي نيسابور!

سمِعَ خَفْقَ نِعالٍ قادمة، فأدرك أنّها أقدامُ مُسَاكِنِه النبهانيّ. وسرعان ما وصَلَه صوتُه الرقيق الحادّ:

- السّلام عليكم!

- وعليكم السلام!

ترك الشّرفَةَ، فالْتَقَيا في الغُرْفَةِ المملوءَة كُتُبًا. ثمّ قال الغزاليّ وهو يجْلِسُ على كرسيٍّ منصوبٍ قُرْبَ الطّاولة المثقلَةِ بالمجلَّداتِ المبعثَرة:

- هل حَضَرْتَ تجمُّعَ النّاسِ اليَوْم بالجامِع؟

رفَعَ النبهانيّ عِمَامَتَهُ وعلَّقَها على المِشْجَب:

- نَعَم، قرأ رسولُ الوالي رِسَالَةً يُحذِّرُ فيها مِن الشّغب الذي لا ينقطع بين الحنفية والشافعية. ويتوعَّدُ أيّ أحَدٍ مِن العامّة بالوَيْلِ إنْ حرّك يدًا أو مَدَّ رِجْلًا في أمورِ الخِلاَف.

ففتحَ الغزاليّ فاهُ لِيَسْأَلَ عمّا إذا كان اسمُه قد ورَد في الرّسالةِ، لَكِنَّ الحَيَاءَ منعه، فقال:

- وكَيْفَ كان أثَرُ الرّسالَةِ في وجوهِ النّاس؟

- أنتَ تعرِف النّاس. لا يَعلَم مَا بَيْن حَناياهُم إلّا خالِقُهم. لكنَّ الظّاهِر أنّهم استَمَعُوا وسكَتُوا.

اقتربَ الغزاليّ مِن المصباحِ يتفقّد بقايا زَيْتِ الفَتيلة، فظهرَ وجهُه المتناسِق وعيناهُ الواسعتَان العميقَتان:

- لِمَ يظنُّونَ المدينةَ مَدينَتَهم والنّاسَ أغرابًا عنها؟

فوضعَ النبهاني جِرَابَه مُتنهّدًا:

- أنتَ تَعلَمُ أنّنا -مَعاشِر الشّافعيّة- دخَلنا عَليهم هذه المدينَة. فخُراسان كانت حنفيّةً في الغالب، إلى ما قَبْل قَرْنٍ ونِصْف. وها هو مَذْهَبُ الإمام المطَّلِبي يغزو القُرى والمدائِنَ واحدةً تِلْوَ أُخْتِها.

فتَح الغزاليّ فاهُ ليردَّ، لكنَّهُ سَمِعَ قَرْعًا قويًّا على البَاب. فوضَع عِمَامَتَهُ على رأسِه، وتناولَ المصباحَ، ونزلَ السلَّمَ مُسرعًا. فتحَ البَاب، ورفعَ المصباحَ فظهرَ لَهُ وَجْهُ غُلامٍ مِن غِلْمَانِ البَرِيد يتبعه فارس. أخرَج الغُلامُ يدَهُ مِن تحت عباءتِه وناوله رسالة:

- هذه رسالَةٌ مِن سيِّدنا الوزير أَيَّدَهُ الله!

اختطفَها شاكِرًا، وَهو يصُكُّ البَاب. ثمّ صعدَ، ودخلَ الحُجْرَةَ، ومال جهة المصباح وبدأ يَقْرَأُ:

إلى الشّيخ محمّد الغزاليّ، حفِظَهُ الله ورعاه، وللمعالي والعِلْمِ أبْقَاه،

أمّا بعد، فإنّ جنابَ الوزير سيكونُ في المعسكَر جمعتَه هذه. وجنابُه يودُّ رؤيتكُم في مجلِسِه، ودعوتَكُم إلى المناظَرَة بَيْنَ يدَيه.

والسّلام.

كان النبهانيّ ينظرُ إلى قسماتِ صاحِبِه تترسَّلُ سعادةً تحت ضوء المصبَاح معَ كلّ سَطرٍ. ثمّ رفعَ الغزاليّ رأسَه ومدَّ الرّسالَةَ إليه وهو يقول:

- الوزيرُ لا يميّز شافعيًّا مِنْ حنَفيّ. وعندما كان في بغداد زار قبور ابن

حَنْبَل، وأبي حنيفَة، وأئمّةِ البَيْت، ومعروفٍ الكرخيّ، ومقاماتِ عَليٍّ والحُسَين. وهؤلاء الحَمْقَى مِن حنفيّة نَيسابور يكيدونَ لَهُ ويسعَونَ بَيْنَهُ وبَيْنَ السّلطان. وحُرُوبُه -أيّده الله!- لَيْسَت علَيهم بَلْ عَلَى الباطنيّة.

وانصرَف ذِهنُ كلٍّ مِنهُما يفكّرُ في ما سَمِعَاهُ خلال الأشهرِ الماضية عَنْ وجودِ باطنيِّينَ في المدرسة النّظاميّة. فَقَدْ انْتَشَرَت في نَيسابور أخبارٌ عن وجودٍ كبيرٍ لهُم حتّى بَيْنَ أساتِذة النّظاميّة. وشاعَت أخبارٌ أخرى بأنّ مَن تكلّم عن الباطنيّة اغْتِيل.

هجَمَتْ على الغزاليّ موجَةٌ عاتِيَةٌ مِن السّعادة. أخيرًا سأكونُ بَيْن سِماطيْ نِظام المُلْك، وأناظِرُ الأقرانَ بَيْنَ يَديه. وتخيّل لِسَانَهُ مُنْطَلِقًا والوزير يرقُبه إعجابًا.

حكَّ كفَّيهِ وقالَ مغيِّرًا الموضوع ليُشعِرَ النبهاني بأنَّهُ غَيْرُ مُتفَاجِئٍ بِدَعوَتِه إلى مجْلِسِ الوَزير:

- إنّ الله تَعالى تَداركَ هذه الأمَّةَ بهذا الوزير. هَلْ سمِعْتَ بِوَقْفِهِ اليَوْمَ مَكْتَبَةً على دار الصوفيّة؟

كان النبهانيّ قد أخذَ كِتَابًا فأطْبَقَهُ سريعًا:

- يَبْتَغي بِذَلك وَجْهَ الله!

والغزاليّ يعرِفُ ضيقَ صديقه بالوزير، ويَعزو ذلك إلى عدَمِ اكتراثِه به. فَقَدْ بلغه عَنْهُ أنَّهُ قال: كيف يُقَرِّبُ الوزيرُ الغزاليّ وأنا وهُوَ فَرَسَا رِهَان؟! ويعلَمُ كلُّ مَن في المدرسة النّظاميّة ذلك.

أخذَ الغزاليّ عُلْبَةَ زَيْتٍ مِن تحت الطّاولة، ومالَ على المصباحِ وقطَّر على الفَتِيلَة:

- شُوف، أيّدَكَ الله! كيفَ تُنكِرُ فَضْلَ الوزير وهو الّذي جاء فوجَد

المنابِرَ تَلْعَنُ الأشاعِرة؟ وجَدَ شيخَنا الجويني مطرودًا إلى الحِجَاز. ولَمْ يَبْقَ في خُراسان مِن عُلماء الأشعريَّةِ والشّافعية أحَد. أنسيتَ أنّ الوزير الكُنْدُريّ حسّنَ للسُّلطانِ طغرل بك لعنَ الرّافِضَة على المنابِر فأذِنَ لَهُ فأضافَ إلَيهم الأشاعِرة؟ فلمّا جاء الوزير أعاد الشّيوخ وأوقَفَ اللَّعْنَ على المنابِر؟

رَشَحَت جَبْهَةُ النبهاني عَرَقًا رَغْم الرّيح الباردة الآتيةِ مِن الشّرفَة، ورمى الكِتابَ على الطّاولة رافعًا صوتَه:

- نَعَم، أعرِفُ كلّ هذا. لكنَّ الرَّجُلَ ما فعلَ ذلك إلّا كَيْ يكونَ لَهُ مِن العُلَماءِ أعوانٌ يَنْشُرونَ محَاسِنَهُ وَيَطوونَ مَساويه. إنّ مَرْمَاهُ مِن كلّ هذا لَيْسَ الفَوْزَ بِجِنَان الخُلْدِ، بَل الاستئثارَ بفراديسِ الدُّنيا وثناءِ النّاس، وتوطيدَ الأمر لأبنائه مِن بَعْدِه. انظُر كَيْفَ عيَّنَ أولادَه وأحفادَه في الوِلايات؟

انتبَهَ الغزاليّ إلى أنّ عَيْنَي صديقِه تتطايران شرَرًا تحت ضوء المصباح؛ فما الّذي أغضَبَهُ ولَيْس في الأمر ما يستثيرُ حفيظتَه؟ همّ بأن يسألَهُ: لِمَ دَرَسْتَ في مَدْرَسَةٍ يُنْفِقُ عَلَيها الوزير؟ ولِمَ تعيشُ على الأوقاف الّتي أوقَفَها؟ لكنَّهُ ابْتَلَعَ لِسَانَهُ إذ فكّر في صداقَتِهما. هما صديقَان مُتحابّان طالَ سُكناهُما معًا حتّى علمَ كلٌّ مِنْهُما عَن الآخر أكْثَرَ ممّا يَنْبَغي، وعَرَفَ مَا عِنْده مِن علومٍ وأفكارٍ وقِصَصٍ ومُيولٍ وخواطِرَ وذكرياتٍ ورغائِب. وماتَت في قلبَيهما حاسَّةُ الإعجابِ والتَّوقير لِطُولِ العِشْرَةِ والمصاحَبَة، لا لِنَقْصٍ في أيٍّ منهُما، أو تقصيرٍ مِن أحدِهما في حقِّ الآخر. لكنّ كلًّا مِنهُما كان مُمَتَّعًا بَعَقْلٍ فوّارٍ وعينٍ لاقطَةٍ وقَلْبٍ يَقِظ، وفهمٍ للخواطر والطّبائع يعصِمُه مِن تَجاوُزِ حدِّ اللَّباقة وحقِّ الصُّحْبَة.

تحامَلَ النبهانيّ على نَفْسِه، وقد قمع غَيْرَةً ملأت جَوانِحَهُ، فقال:

- حمدًا لله على هذه الدّعوة الّتي جاءتك، ولعلّها فاتحةُ خَيْرٍ كبيرٍ إن شاء الله.

- لعلَّها كذلك. نسألُ الله أن تُمهِّدَ التَّمكين للمَذْهَب.

تشاغَلَ النبهانيّ بتقليبِ كتابٍ بَيْنَ يدَيه، وراح يفكّر في الصّراع بين الشّافعيّة والحنفيّة على الأوقاف والثّروات والمساجِد والقُرْبِ مِن السّلاطين. ثمّ شرَدَ ذِهنُه مُتخيّلًا زميلَه جالِسًا بين نِظامِ المُلْك وملكشاه. وتخيّلَ الخبرَ ينتشِرُ بَيْنَ النّاس وحِلَق العِلْم. *كيْفَ تجاوَزني هذا؟ ألَمْ نَدْرُس كلَّ شيءٍ معًا؟ ألَمْ أعْرِف كلَّ ما عَرَف؟ فبِمَ يفضلني إذن؟*

كان الغزاليّ ينظرُ إلى صديقِهِ بِلحاظِه ففهِم ما دار بخَلَده تمامًا، فوقَف مُتظاهِرًا بجلْبِ كتاب:

- لَعَلِّي إذا نِلْتُ حظوَةً عِنْدَ الوزير أكون سببًا لِخَيْرٍ يَعُمُّ الجَميع.

انعقَد لِسانُ النبهانيّ، ثمّ تدارَك نفسَه مُوارِيًا مَا في ضميره:

- لا أشكُّ في ذلك. وأنا مؤمّلٌ خيرًا لنا إن شاء الله.

دخلت قطّةُ الغزاليّ الحجرة، وسمِعَا صوت الرَّعد يُدمدِمُ في سماء نَيسابور فأنصتَا. وتوالَت البُروق، وهبَّت رياحٌ باردةٌ حرّكت السّتائرَ ولعِبَتْ بالنّوافذ. صَمَتا، بَيْنَما غلِيَ دماغُ كلٍّ منهُما بالتفكير في المناظَرَة بَيْنَ يَدَي الوزير نِظامِ المُلْك. ولم يكد الغزالي ينام ليلَه. فتلفّف في لحافه وقلبُه يخفق سعادةً وخوفًا وتوثُّبًا لما يُخبّئه له آتي الأيّام.

10

نيسابور، 484 هـ.

يسيرُ عُبَيد المُوَسْوِس مُترنّحًا في شارع العطّارينَ مُتّجهًا غَرْبًا. يُقَلِّبُ عَينَيه الزّائغتَين بين الدّكاكين المتراصّة يَمْنَةً وَيَسْرَة. يَمشي حافيًا كعادَته، في عِمامةٍ سَوداء وجُبّةٍ مُرَقّعَة باهتة الألوان. فتَقْرَعُ قَدَماهُ الأرضيّةَ المبلّطة، وتتراقصُ أسمالُ جبّته بَيْنَ قَدميه ورُكْبَتَيه. ثمّ يرفعُ وجهَه إلى السّماء شاخصًا، وما يَلْبَثُ أن يُعيدَ نَظَرَاتِه إلى الأرض وهو يغنّي.

وفجأةً، قرَعَ أذنَهُ نِداء:

- عُبَيد! تعالَ قلّد لَنَا صَوْتَ مُؤذّنِ النّظاميّة!

الْتَفَتَ، فرأى صاحبَ الصّوت باسِمًا واقفًا أمامَ دكّانه يرشُّ الأرضَ بالماء. وقبْلَ أنْ يُجيبَه جَاءه صوتٌ مِنَ الجَهَةِ الأخرى:

- عُبَيد! بالله قَلِّد لنَا مِشْيَةَ مُفْتِي سكّة خَرْكُوش؟

فرفعَ عُبَيد يَدَيه إلى السّماءَ وصفَّقَ، ثمّ دَلّى وجهَهُ إلى الأرض وصفَّرَ مُنْطَلِقًا.

انقطَع شارعُ العطّارين غربًا في سكّة مَعقل، فسلكها لِتُوصِلَهُ إلى ساحَة الطّاق، وكانت تقع وسط نيسابور، يُطِلُّ علَيها المسجِد الجامِع مِن الشّمال، وخان الطّاووس مِن الشّرق، ومِنْها تتفَرَّعُ الشّوارع المؤدِّيَة إلى أبواب المدينة الأربعَة. حين بلغَ مدخلَها الجنوبيّ وجَدها مُكتظّةً بحركَةِ الأَرْجُلِ والرّؤوس المُتدافِعَة. فانحرَف يَسارًا يطلبُ الجِهَةَ الغربيّة مِن السّاحة حيثُ مكَانُ جُلُوسِه أمامَ باب مَكْتبَةِ البَيْهَقِيّ. وليس مجلِسُه سوى كيسٍ ضَخْمٍ

مملوءٍ بالتّراب تُظلِّلُهُ شجرةٌ باسِقَة. فجلَسَ مُوليًا المَكْتَبَةَ ظهرَه، والسّاحَة الواسِعَة وجهَه. فهذا المجلِسُ يُعطيهِ نظْرَةً صَقْريَّةً لا يَفُوتُها أيُّ تَفْصيلٍ داخِلَ السّاحَة. ويتيحُ لهُ رؤيةَ الدَّاخلينَ إلى خان الطاووس والمسجِد الجَامع. بل يستطيعُ تَخْمِينَ وِجْهَةِ المسافرين مِن الأبواب الّتي يَعبُرون والبَضائِع الّتي يحمِلُون.

مرّر يدَهُ على شعر رأسِه الكثّ، ودلّك عَيْنَه بِطَرَفِ يَدِه، وضَحِكَ ضحْكَةً مُجَلْجِلَة. فوضعَتْ فتاةٌ تمرّ بِقُرْبِهِ يدَها على صَدْرِها مُشيحَةً بوجهِها، واندفَعت مُختفيَةً في الزّحام خَلْفَ أبيها. أمّا هو، فأسْنَدَ رأسَه إلى شجرةِ السَّرْوِ، واستَرخى على الكيسِ التّرابيّ وهو يَشْعُرُ بإرهاقٍ شديد، إلى أن أيقظه صَوْتُ المؤذِّن.

فوقفَ مُستعجِلًا، وألْقَى نَظرَةً على أطرافِ السّاحَة، ثمّ دخلَ زُقاقَ الكِلابِ قبالةَ المكتبة، واتّجه غربًا. مشَى ما يقارب مائِتَين وخمسينَ خطوةً حتّى وصلَ إلى دكّانِ حَسَن الحدَّاد، وكان يَقَعُ بين شارعَين متوازيَين ويفتح عليهما معًا. دخَلَ مِن الباب الجنوبيّ، فرأى الحَدَّادَ جالِسًا يَسُنُّ خِنْجَرًا. ردّدَ عُبَيد نظرَهُ في الدّكّان مُتأمّلًا السُّيوفَ الأنيقَة المعلّقَةَ، والخناجِرَ المُذَهَّبَة وهو يَلْعَقُ إبهامَه. وكانَ المكان خالِيًا إلّا مِنَ العمّال الثّلاثة. فنظَرَ يَمْنَةً ويَسْرَةً، ثمّ اقترَبَ مِن حَسَن الحَدَّاد، فتَجَافى لَهُ عَنِ الطّريق، فدخَل دِهليزًا مُظلِمًا في أقصى الدّكّان. ولمّا وصلَ إلى نهايته، انحنَى ونزَع غطاءً حديديًّا دائريًّا، وتَوارى داخِلَه. ثمّ نزَلَ سُلَّمًا حلَزُونيًّا قادَهُ إلى بابٍ أرضيّ. طرَقَهُ، وقال:

- فرْ! فرْ!

فانفتَحَ الباب.

نزَلَ سُلَّمًا حَجَرِيًّا، ثمّ انحرَفَ يمينًا إلى دهليزٍ قادَه إلى مَجْلِسٍ مُستطيلٍ مَفْروشٍ بِبُسُطٍ خُضْرٍ وعلَيه طَنَافِسُ ووسائدُ مرصوصَة. وكان هذا المجلِسُ المكانَ الوحيدَ الّذي يشعُر فيه عُبَيد بالاطمئنان.

لاحَت وجوهُ أربعَة رِجالٍ تحتَ ضَوء المصبَاح الزَّيتيّ المنْصُوبِ في طرَفِ المجْلِس. أزالَ عِمَامَتَهُ، ومسَحَ جَبْهَتَهُ المتعرِّقَة، وقال وهْوَ يتأمّل رجلًا بدينًا يراهُ في المجلس أوّل مرَّةٍ:

- كَيْفَ حَالُكُم؟

بادَرَه الرّجال الأربعةُ، وعانقُوه واحدًا واحدًا. وجلَسوا متقاربينَ كلٌّ مِنهم تُلامِسُ رُكْبَتُه رُكْبَة جليسِه. ثمّ قال الشّابُّ القَصيرُ الأقرَب إلى عُبَيد بالفَارسيّة:

- به نامه خدا... نَبْدَأ بِمَا وقَع ومَا رأيتُم وما سَمِعْتُم.

خلَعَ رَجُلٌ أبيض عِمَامَتَه، وقال:

- جديدُ السّوق أنّ التجّار اتَّفقُوا على رَفْعِ ورقَةٍ للشَّيْظَم مُطَالِبينَ بِخَفْضِ الضَّرائب. وَسَيَشْخَصُ بالرِّسالَة أحدُ فُقَهَاءِ الشّافعيّة.

قاطعَه عُبَيد بنبرةٍ حازمةٍ مُوجِّهًا كلامَه إلى الشّاب القَصير:

- قَبْلَ كلّ هذا، هل تأكّدتُم مِن أنَّ النَّواميسَ محفوظَة؟ المداخِلُ والمخارجُ وسَطْحُ البَيْت؟

فقالَ الرَّجُلُ القَصير بِثِقَةٍ:

- نَعم.. كلّ النَّواميسِ مَرْعِيّة.

أكمَلَ الرَّجُل الأبيَض حديثَه عن السّوق، ثمّ سكَتَ، وأخذ ينَفض نَمْلَةً وقعَت علَى ثَوْبِه مِن السّقف. فالْتَفَت الرَّجُل القَصيرُ إلى عُبَيد:

- وما جديدُ النّاس؟

كان عُبَيد جالِسًا متربّعًا دونَ عِمَامَة. فظهرَ الشّيبُ الّذي بدأ يَغزو هامَتَهُ الصّغيرةَ المُتنَافِرَة مع حنكَيْه الكبيرَين ووجْنتَيه النَّاتِئتَين. ثمّ قال بهدوء وثِقَة:

- لا جديدَ في المدينة. جاءت قافلةٌ مِن طُوس منذ ثلاثَة أيّام، وكان

فيها شابَّانِ يبغيان التَّعَلُّمَ في المدرَسة النّظاميّة. ووصلَتْ قافلةٌ مِن أصفَهان فيها خمسُونَ رَجُلًا وسَبْعٌ وثلاثونَ امرَأة. وقد نزَلَ في خان الطّاووس البَارِحَة رَجُلٌ يُشْبِهِ الجَواسِيس.

مالَ الشّابُّ القَصير جِهَة عُبَيد وعيناهُ تَلْمَعَان تَحْتَ ضَوْء المِصْبَاح:

- كَيْف؟

- معَهُ بَغْلَةٌ مُدَرَّبَة، ويلفُّ تَحْتَ مَلابِسِه خِنْجَرًا وبدا في غَايَة الكَيْس. وقَدْ رأيتُه يتأمَّلُ ويُلاحِظُ ويتحفَّظ.

ثمّ سكَتَ عُبَيد، فنظَرَ إليه الرَّجُلُ القَصير ورفَع رأسَه إلى السّقف هامسًا:

- هَلْ كَلَّمْته؟

- نَعَم. وهو أسْمَرُ نَحِيفٌ في لِسَانِه عُقْدَة.

وسَكَتَ قليلًا وهو يَحُكُّ كَتِفَهُ بِيَدِه:

- دعُونا مِن هذا، فإنّ لنا أمرًا علَينا الخوضُ فيه.

تطلَّعَت الأعينُ الفُضوليَّة إلى عُبَيد. فبَدَت المساحَةُ ما بَين أسْفَلِ أنْفِه وشَفَتِه واسعة، واتَّضحَ لَوْنُ عَينَيْه البرَّاقَتَين تحت المصباح. حَكَّ جبهَتَهُ بِخِنْصَرِه:

- أخبارُ ذلِك الشّيخ الغزاليّ الطُّوسيّ. سَمِعْتُم كلُّكُم خبَرَ مناظَرَتِه الوشيكَة بَين يَدَي الشّيظم، والجوائزِ السَّنِيَّةِ الّتي قَدْ يَعودُ بها مِن عِنْدِه. أكادُ أتخيّلُه راجعًا وهو ينظرُ في عِطفَيْه وينفخُ مِنْخَرَيْه تكبُّرًا وتِيهًا وصَلَفًا. وقَدْ سمعتُ أنَّهُ أصْبَحَ يَعُدُّ أيَّامَه في نَيسابور، ويرى المدينة لا تَليقُ بِه... يُريدُ نِظاميَّةَ بغداد.

رفَعَ الرَّجُلُ البَدينُ الجَالِسُ في طرَف الحُجرَة سبّابتَه طالبًا الإذنَ بالحديث، فهزَّ عُبَيد رأسَهُ موافقًا، فقَال الرَّجُل:

- لقَد اقترَبَ ذلِك الفَتى الطُّوسيُّ مِن وَكْرِ العَدُوّ. فالشّيْظَمُ أكبَرُ مُحارِبٍ

لنَا، بَلْ هُو مَن أغْرَى «الكبير» بإرسالِ الجَيْش إلى قَلْعَةِ آلموت.

انفتَحَت عَيْنَا عُبَيد، واجتاحَتْهُ مَوْجَةُ انزِعاج: *مَنْ هذا؟ هَلْ بلغَ مرتَبَةً تُؤهِّلُه للانضِمام إلى هذا المجْلِس، أمْ وَقَعَ خَطَأٌ في النواميس جعلَه يَجلِسُ معنا؟ كيفَ ينطِقُ كلمَة «آلموت»!* كان عُبَيد مُتعوّدًا داخل الحِلَق الإسماعيليّة على صيغةِ حديثٍ تشير إلى الكِبار بأسماءٍ مُستَعارة؛ فـ«الشَّيظَم» هو اسمُ نِظامِ المُلْك، والحديث عن حسَن الصَّبّاح لا يكون إلَّا بضمير الغائبِ بالهاء المجرَّدة. لكنّ الرَّجُلَ البَدين نطقَ كلمةَ «آلموت» دون حاجةٍ إلى ذلك. وهذا يعني أنَّ لِسَانَه لم يتعوَّد بعدُ على الرُّموز الإسماعيليّة، وأنّه لم يبلغ درجةً عاليةً في التنظيم.

استأذَن عُبَيد في إيقاف الجَلْسَة، وهو يُشير إلى الشّابّ القصير بأن يلحَقَ به. مَشَيَا في الممرّ ودخَلَا الحُجرةَ المجاوِرَة. فقَال عُبَيد هامِسًا:

- مَنِ الرَّجُلُ البَدين؟

- هذا الحُسَيْن بن حَمْدُون، مِنْ أهْلِ الريّ، مِنْ حارَة الياسَمين. وهو موضع ثِقَة.. و...

- مِنْ أيِّ دَرَجَةٍ هُو؟ «داعِيَة» أمْ «رَفيق» أمْ «لاصِق»[1]؟

قال الشّابُّ بِنبرةٍ هامِسَة:

- داعِية! كَيْفَ يَجْلِسُ معَكَ لو لم يكن كذلك؟

فتنفّس عُبَيد بانشراح، ومسَحَ عَرَقًا عن جَبِينِهِ:

- رابَني نُطْقُهُ بَعْضَ الكَلِمات دُونَ كِنَاية.

ثمّ عادَا إلى الجَلْسَة، وضَمَّ أطرافَ جبّته لِيَجْلِسَ وهو يقولُ بهدوء:

- لاَ تُؤاخِذُوني يا رِفَاقِي.

ورفَعَ الرَّجُلُ الأبيض يدَه:

---

(1) هذه درجات سُلّم الترقّي في التنظيم الإسماعيليّ الشيعيّ.

- هَلْ وَصَلَت الدّعوة إلى الغزاليّ ولو مرّةً؟

ترامَقَ الجالِسونَ، وبدَت وُجوهُهم تَحْتَ ضوء المصابيحِ مُوحيَةً بأنَّ كُلًّا مِنْهُم يَتَجَنَّبُ الحديثَ احترامًا لِعُبَيد فقال:

- لا، عِنْدَما وصَلَ إلى نَيسابور عام 473 هـ تولاّهُ أحَدُ دُعَاتِنا في المدرسة النّظاميّة، لكنَّه ما تجاوزَ مَعَهُ عَتبَةَ «الزّرق» و«التّفرّس»[1].

وسكَتَ عُبَيد كأنّه يُمسِكُ لِسَانَه قَبْلَ أن يقولَ ما لا يودُّ قَوْلَه، فَجاء صوتُ الرَّجُلِ الأبْيَض:

- الغزاليّ رَجُلٌ مِن أهل الجَدَل والمنطِق، وقد حُشِيَ كِبْرًا وزَعارةً واستخفافًا بِعَقْلِ غَيْرِه. ولا أظنُّ الدّعوةَ تَدْخُلُ قَلْبَهُ إلّا إذا دخلَت قَلْبَ مُعاوية بن أبي سُفيان!

وسرَت ابتسامةٌ إلى فَمِ عُبَيد وهو مُنشَغِلٌ بإزالَةِ وَسَخٍ عَنْ إبْهَامِه:

- على كلّ حال، سنظلُّ غَيْرَ بَعيدينَ مِنَ الطُّوسيّ، وسنرسُل إلَيْـ«ه»[2] بأخبارِه لِيُشيرَ بِمَا يَراه. وسنرى ما يكون من أمره بعد ذهابه إلى الشيظم في المعسكر.

وختَم عُبَيد الجَلْسَةَ وهو يفكّر في أمر الغزاليّ ورسالة الوزير. ثمّ ذَهَبَ إلى الحُجْرَة المجاورة لِلْمَجلس، وطلب مِن الرَّجُلِ الأبْيَضِ أنْ يَلْحَقَ به. كانَ لِعُبَيد بَعْدَ كلّ جَلْسَةٍ حديثٌ خاصٌّ مَع كلّ داعٍ مِن الدُّعاة يُناقِشُ فيه ما لا ينبَغي لِبَقِيّة الأعضاءِ سَمَاعُهُ.

كان يجلس مُستندًا إلى الجِدارِ، عِمامَتُه مَرْمِيَّةٌ على وِسادَةٍ جلديّة، وشَعْرُهُ الكثُّ يَظهرُ مُنعكِسًا عَلَى الجِدار. وسرعان ما دخَلَ الرَّجُل الأبيَض وجلَس

---

(1) أوائل درجات الإسماعيليّين في تقييم من سيدعونهم إلى دعوتهم السّريّة.

(2) الضّمير المجرّد (ـه) عند الباطنيّ يعودُ على حَسَن الصَّبّاح شيخ حِزْبِهم الحَصين بخُراسان: قلعة آلموت.

قُرْبَه. كانَ نَقيبَ التجّار في نَيسابور، ولا يَعْرِفُ أحدٌ أنَّهُ انضمّ إلى الإسماعيليّة قَبْلَ عَشْرِ سَنوات. فنظَرَ إلَيْهِ عُبَيد وقال:

- كيْفَ الحِسَاب؟

حرّك التَّاجرُ رأسَه:

- كَمَا هُو. خُلَيد وبُجَير ونُفَيخ لَمْ يَدْفَعُوا هذا الشّهرَ مَا عَلَيهم مِن «النَّجوَى»[1]، والبقيّةُ دفعُوها.

أنْهَى عُبَيد حديثَه مع التَّاجر، ومع بقيّة الدُّعاة. ودَعا الشّابَّ القَصيرَ فطلبَ مِنْهُ الصُّعودَ إلى الدّكّان للتَّثبُّتِ مِن أنّ الخروج آمن. كان سعيدًا بأنَّه سيتحمّم ويُغيِّر مُرَقَّعَتَهُ بأخرى نَظيفة.. وينامُ اليَوْمَ نَوْمَةً هنيئةً على سريرٍ وثير... بعيدًا عَن مجلِسِه المغبرّ أمامَ مَكْتبَةِ البَيْهَقِيّ.

وعندما جاءت إشارةُ الشّابّ القَصير بأنَّ الدّكّان والشّوارِعَ آمنَةٌ صعَدَ الرّجالُ تِباعًا مِن تحت الأرض، وخرَجوا مِن دكّان الحدَّاد لِتَبْتَلِعَهُم حواري نَيسابور... كلٌّ في طَريق.

(1) «النّجوى» هي المصطلح الحركيّ للاشتراك الماليّ الشّهريّ لدى الإسماعيليّة.

11

نيسابور، 484 هـ.

طلعت الشمسُ على نَيسابور، فخرَج الغزاليّ من باب النّظاميّة، وسَلَكَ الزّقاقَ الضيّق المؤدّي إلى ساحة الطّاق. كان معَهُ طالِبٌ يقودُ بغْلَتَهُ الشّهباء. عَبَرَا ساحَة الطّاق، فلمَحَا عُبَيدًا الموسوسَ جالِسًا على كيسِ تُرابٍ أمام مَكْتَبَةِ البَيْهَقِيّ تحت شجرة السّرو الباسِقة. وسمعا ضَحكةً مدويةً من دكّان رأس الديك الحجام. لمحَ الغزاليّ نزلاءَ خان الطّاووس شرقيّ السّاحة يدخلونَ ويخرجُونَ، ولَفَحَتْهُ رائحةُ الخُبْزِ الطَّرِيّ مِن دكَّان مَحْمُود في طرفِ السّاحة الجنوبيّ.

وما إنْ عَبَرَا السّاحةَ ودخَلَا سكّة مَعْقل حتّى دَنْدَنَ الرّعدُ واكتسَت سماءُ نَيسابور غِلالَةً مائلَةً إلى الدكنة. رفَعَ بصرَه مُتأمّلًا الأفق، فَلَم يشكّ في أنّ المطَرَ مُوشِكٌ على الانهمار. نظَرَ إلى عَيْبة مَلابِسِهِ على ظَهْرِ البَغلَةِ، وتذكّر أَنّهُ سيكون بَعْدَ ساعاتٍ في مَجْلِسِ نِظامِ المُلْك للمناظَرة المشهودة. *هل سيؤجّلُ المطرُ اللّقَاء؟ وهل ستعبَثُ الأمطارُ بِملابِسِه فيدخُل على الوزير مُبَلّلًا في هَيْئَةٍ مُتَقَشِّفَة تَصْرِفُ عَنْه الأنظار؟ هل عليه العودةُ حتّى ينقطعَ المطَر؟ وإذا تخلّف، ألا يُشيعُ ذلك خوفَه من المناظَرة بين يدَي الوزير؟*

اكتظّ ذِهْنُه بالأسئلة وهو يرمق رؤوسَ المارّة تعلو وتسفُلُ وسط السّكّة المليئَة بالتجّار والمسافرينَ والسّائلينَ والمتسكّعين. وفجأةً بادرَه الطّالب بالفارسيّة:

- أستاد!

لكنّ صخَب السّكّة وقَرْعَ حوافِر البِغال للأرض أصمَّاه. فتردّد الطّالب في مناداته هَيْبَةً لَهُ، ثمّ قال:

- أستادِ مَنْ!

والتَفَتَ إليه، فقال الطّالب مُتردّدًا:

- ألاَ ترَى أن نعودَ حتّى يَنْقَشِع المطر؟

فرمقَه مُقَطِّبًا:

- أرى أن نُواصلَ السّيرَ، فالمعسكَرُ غير بعيد، ولعلّنا نَعتصمُ بشجرةٍ أو كَهْفٍ إذا أُمْطِرْنَا.

لفظَهُما بابُ المدينةِ، فخفتَت الضّوضاء. وأوقَفَ الطّالب البَغْلَةَ لشيخه، فقفَزَ عليها وهو يقولُ باسِمًا:

- لَوْلاَ أنّي أخشَى وعْثاءَ السَّفرِ والدُّخولَ على الوزير أشْعَثَ ما استأثرتُ بها دُونَك.

بدَتِ السّماءُ شبهَ صافيَةٍ، وظهَر الأفقُ واضحًا بعدَما ترَكَا مبانيَ المدينة وراءهُما. سارَا في طريقٍ مُتعرّجٍ بَيْنَ وادٍ سحيقٍ وجبَلٍ مُنِيف، لا يَسْمَعانِ إلّا أنفاسَ البَغْلَةِ وَوَقْعَ حوافرها على الأرض المعشَوشِبَة، وبين فَيْنَةٍ وأخرى يُسْمَعُ صَوْتُ تَدَحرُج حَصَاةٍ جِهَةَ الوادي، أو صوتُ طائرٍ يُغرِّدُ بعيدًا.

ملأ الغزاليّ عَينَيه مِنَ الجِبَالِ الخَضْرَاء، وأطرافِ الوادي المُعْشِب، ولَعِبَت أنسَامُ الرّبيع بطرف جُبّتَه. وما هي إلّا لحظة حتّى انطَلَقَت صَرْخَةُ الطّالب رافعًا يَدَهُ، وظهرَ مُسلَّحان آتيَيْن مِن جِهَة الجَبَل.

تقدَّمَ أقْصَرُهُما شاهرًا خنجرًا:

- هَلْ عِنْدَكُما ما نتغدَّى بِه اليَوم؟

ردّد الطالب نظرَه بين الغزالي واللصّ. فتحرّك الغزاليّ بهدوءٍ لِيَنْزِلَ عَنْ بَغْلَتِهِ فَصَرَخَ الآخر:

- مكانَكَ وإلّا طَعَنْتُك!

وضعَ رِجْلَيْه على الأرض بهدوءٍ ثمّ وجَّهَ سبّابتَه إلى اللِّصّ:

- نحنُ طلاّبُ عِلْمٍ مِن المدرسَة النّظاميّة، وأنا أبو حامد الغزاليّ!

فدوّت ضِحْكَةُ اللّصّ حتّى رجَعَ صَداها مِنْ جِهَة الجبَل. والتَفَتَ إلى رفيقِه:

- وتظنُّ أنّا نعرفُك! هل أنتَ رأسُ الأسَدِ سيّد الوادي؟ أم أنتَ حُمَيد سيّد الجبل؟

ضحِكًا، وتقدّمَ اللّصّ الثّاني:

- هيّا، هاتا ما عندكما!

نزعَ الغزاليّ عِمامَتَهُ ووضعَها على البَغْلَةِ ورفَع سبّابته:

- نحن في طريقنا إلى الوزير نِظام المُلْك، وإنْ تُصيبُونا بِسوءٍ فَلَن تَسْلَمَا.

بَدَا على وجهَيهما تردّد، وقَال اللّصّ مُظهرًا الاستعطاف:

- نحنُ لا نُريدُ إيذاءكما... ونحنُ كما تعلَمانِ لا نُؤذي طَلَبَةَ العِلْمِ ولا الصُّوفيّة. أَعْطِيَانَا شيئًا.

تراجَعَ الغزاليّ إلى الوراء. واستنَدَ إلى البَغْلَةِ، ثمّ دسَّ يمينَه في طرف جُبَّتِه وأخرَج دينارًا، وعاد خطواتٍ مُقْتَرِبًا. فمدَّ اللّصُّ يدًا خَشِنَةً يُشْبِهُ جِلْدُها ظَهْرَ السُّلحفاة غليظةً مليئةً بالنُّدوب، وانتشَلَ الدِّينارَ، وولَّى راكضًا جِهة الجَبل، فابتلَعَتْهُما الصُّخورُ السُّودُ الجاثِمة. تنفّسَ الغزاليّ وتلميذُه الصُّعداءَ وهُمَا يَمشِيَان صامِتَين. وقُبَيْل خُروجِهما مِن الطّريق الضيِّق شاهَدَا أنفارًا قادِمين. ظَهَرَ أربعةُ رِجالٍ مُسلَّحين، ومِن ورائهم نِساءٌ وأطفال. كانَت قَافِلَةً صغيرَة. اقتَربوا وتَبادَلوا السّلام، وقال أحدُ الرّجال:

- هل رأيتُم عِنْدَ صَخْرَة الثّور أشخاصًا؟

وفهم الغزاليّ أنّه يَعني مكانَ اللُّصوص:

- تَقصِدُ الصّخرة الضّخمة المحاذِيَة لُمنْتَصَفِ الطّريق؟
- نَعَم!
- هناكَ اثْنَانِ مِن صِغَارِ العَيَّارين.
- هَلْ سَلِمْتُما مِنْهُما؟
- بِفَضْلِ الله!
ولوّح الرَّجُلُ المسلَّحُ بِيَدِه مُودِّعًا بالفارسيّة:
- خدا نكهدار!

بعد خروجهما من الطريق الجبليّ شعُرَا براحَةٍ ونَشاط، وبَعْدَ خطواتٍ قال الغزاليّ:

- لِي مَع اللُّصوص تَجْرِبَة.

تطلَّعَ الطّالبُ إلى ما يَرمي إلَيْهِ شَيْخُه، لكنّ الحيَاءَ عَقَدَ لِسانَه. فأصاخَ مُستطلِعًا، فلَمْ يَسْمَع غَيْرَ وَقْعِ حوافر البَغْلَةِ، وتغريدِ الطُّيور. وبَعْدَ حِينٍ بَدَأ الغزاليّ يَروي قصَّةً مِن فَجْرِ شبَابِه، كانَت أوَّلَ ما رَوى لِشَيْخِه الجويني عِندَما جاء للدِّراسَة في نظاميّة نَيسابور عام 473.

- كنتُ أدرُسُ على أبي القاسم بن مسعدة الإسماعيليّ في جُرجان. صَحِبْتُه سنواتٍ حتّى رَوَيْتُ عَنْهُ كُتُبًا أجازَني في حَمْلِها، وكَتَبْتُها بِيدي، ووضعتُها في تَعْلِيقَةٍ[1] ثمّ صحِبتُ قافلةً أطلب الرجوعَ إلى طوس.

وهنَا شَخَصَت القِصَّةُ حَيَّةً في ذِهن الغزاليّ. إذْ كانَت مِن أحبِّ تَجارِبِه إلَيه؛ فتسلَّلَت ابتسَامَةٌ إلى فيه وواصل:

- وبعْدَ خُروجِنا مِن جرجان هَجَمَ علَينا اللُّصوص واستَلَبوا كلّ مَا نَمْلِك، وولّوا راكِضين. فتأمَّلْتُ حَالي ووجدتُ أنِّي خَسِرْتُ

(1) التعليقة بلغة ذلك العصر هي الملزمة الدراسيّة.

جُهْدَ سنوات، وأظلَمَت الدّنيا في عَيْنَيّ فَتَبِعْتُهم. فلمّا رآني مُقدَّم اللُّصوص صاح بي:

- اِرْجع -وَيْحَكَ!- وإلّا هَلَكت!

فقُلتُ لَهُ مُتضرّعًا:

- أسأَلُكَ بالّذي تَرجو السَّلامَةَ مِنْهُ أن تَرُدَّ عَلَيَّ تَعليقَتي، فلا أبتغي غيرها! فَما هي بشيءٍ تَنْتَفِعُونَ بِه.

فقالَ لي المقدَّمُ:

- وما تَعْلِيقَتُكَ؟

فقلتُ:

- كُتُبٌ في تِلْكَ المِخلاة السّوداء هاجَرْتُ لِسَماعِها وكتابَتِها ومَعْرِفَةِ عِلْمِها.

فلمّا سَمِعَ اللّصُّ كلامي ضَحِكَ وقَال:

- كيفَ تَدَّعي معرفةَ عِلْمِها وقَدْ أخَذْنَاها مِنْكَ فَتَجَرَّدْتَ مِنْ مَعْرِفَتِها وبَقيتَ بِلا عِلْم؟!

فلّما قَال ما قَال فهمتُ أنّهُ مُستنطَق، أنْطَقَهُ الله لِيُرشِدَني في أمري. فَلَمّا وافَيْتُ طوسَ أقبلتُ على الاشتغَال ثلاثَ سنينٍ حتّى حَفِظْتُ جميعَ ما علِقْتُه وصِرْتُ بِحيثُ لو قُطِع عليَّ الطّريق لَمْ أتجرّد مِنْ عِلْمي.

سمِعَ الطّالبُ القصَّةَ بكلّ حواسِّه، وسكتَ الغزاليّ، ثمّ رفعَ بصرَهُ، وتأمّلَ السّهولَ المستويَةَ أمامَه، فلاحظ أنَّ مُعسكَر الوزير صارَ قريبًا، وعَلَيهِ تَغييرُ ملابِسِه. فأوْقَفَ البَغْلَةَ وفَتَح العَيْبَة. ثمّ مشى مُبْتَعِدًا عَن الطّريق قَليلًا حتّى اخْتَفَى وراء شُجيرات. فلَبِسَ الدُّرّاعَةَ، وكوَّر العِمامةَ، وأخْرَجَ مِن جَيْبِه مِسْواكًا مِن البَشَام، وظهرَ مِن وراء الشّجرةِ وهو يُميحُ أسنانَه. وما إنْ سارَا قليلًا حتّى ظهرَ المعسكَرُ في الأفق، وبدأ صخَبُهُ يَصِلُ آذانَهما. صرخَاتُ

الفُرسان الأتراك المنهمكين في التّدريب، وصَلْصَلَةُ السُّيوفِ، وغُبار الخَيْلِ المتسابِقَة، وحَمْحَماتُ الجياد الرّابضة داخلَ الإصطبلاتِ المحيطةِ بالمعسكَر.

جاءَ جُنديٌّ قَصيرٌ أعْورُ راكضًا، وقال:

- من أنتما؟

لَمْ يَفْهَمَاهُ. فقالَ الغزاليّ بالفارسيّة:

- فارسي صُحبتْ ميكنيد؟

حرّك التُّركيُّ رأسَهُ دُون أنْ يتكلّم، وطلبَ مِنْهُما مُرافقتَه. ثمّ دلَفَا مِن المدْخَلِ الجَنوبيّ للمُعَسْكَر، وأشارَ الجُنديُّ الأعوَرُ إلى سَائسِ البِغَالِ، فجاءَ راكضًا، وأخذَ زِمَام البَغْلَة. مشَيَا وسَطَ ضَوْضَاءِ المعسكَر. وكان الغزاليّ مأخوذًا بِدَقَّة النِّظامِ البَاديةِ وسَطَ الفَوضَى. لاحظَ أنَّ زِيَّ الجُنودِ مُوحَّد. إذ لبس كلُّ جُنديٍّ سِرْوَالًا أسودَ واسِعًا، وصدريَّةً حمراء يَزينُها خَيْطٌ أخضر على الكَتِفَين. وفكَّر في صيغةِ التَّفاهُم بين كلّ هؤلاء النّاس. فمنهم من لا يتكلَّمُ إلّا الفارسيّة، ومنهم من لا يتحدّث إلّا التّركيّة، فكيفَ يتفاهمونَ في الأمور الدّقيقة؟ وصَلَا إلى خيمَةٍ مَنصوبَةٍ أمامَها حارسَان. فعدّل الغزاليّ درَّاعَته مُتسائلًا عمّا إذا كانا سيجدان نِظامَ المُلْك داخِلها؟ *هَلْ سَيستقبِلُني قائمًا كَما كانَ يفعَلُ مع الإمامَين الجويني والقشيري؟ وهَل سينزِل عَنْ كُرسيّه ويُجلِسُني مكانَه كما كان يَصْنَعُ مَع الإمام الفارْمَذي؟*

أشارَ الجُنديُّ إلَيهما بِدخِولِ الخَيْمَة قائلًا:

- هذان جاءا إلى المعسكر..

فُوجِئ الغزاليّ عندَ دُخول الخَيْمة بالسُّيوفِ المعلَّقَة والرِّماح المرصوصَة فَوق طاولاتٍ حديديَّة، يجلِسُ إلى جانِبها رَجُلٌ على كرسيّ. قلّبَ ناظِريْه في السِّلاح، وخطَرَ لَهُ أنَّ هذا أكبَرُ قَدْرٍ مِنَ السِّلاح رآه في حيَاتِه. ثمّ قال الرَّجلُ الجالِس دُون أن ينظُرَ إلَيه:

- أهلًا وسهلًا. مَن أنْتُما؟

التَفَتَ الطّالبُ إلى الغزاليّ، فردّ بِهُدوء:

- أنا مُحَمَّد الغزاليّ.. جئتُ بِدَعْوَةٍ مِن الوزير.

رمَى القَائدُ الحَرْبَةَ الّتي كانت بيدَيه على الطّاولة، وانبسطت أساريرُه:

- أهلًا وسهلًا بِضَيْفِ الوَزير... نَعَم.

رفعَ القائدُ عَينَيه الضيِّقَتَين المرهقتَيْن مُتأمّلًا الغزاليّ. فلَمَحَ الشّجَّةَ الواضِحَةَ على طرَف جَبْهَتِهِ الأيمَن، وأنفَه الأقْنى الجَميل، ولِحْيَتَهُ الصَّهباء الخفيفة، وقامَتَه المتوسِّطة، وملابِسَه الحريريَّةَ الفاخِرة، وهو يستعيدُ كلام الوزير عن ذلك الشّابِّ العَالِمِ الّذي ملأ صِيتُهُ نَيسابور وكادَ يتسبَّبُ في فِتْنَة.

ثمّ عادَ إلى التّرحيب:

- يا أهلًا وسهلًا!

فحرّكَ يُمناه في اتّجاه الجُنديّ الواقِفِ عند طَرَفِ الخَيْمَة.

خرجَا يمشِيانِ خَلْفَ الجُنديِّ وسَطَ صخَبِ المُخيَّم. كان الصّوتُ الغالبُ صدَى طَرْقِ الحديد لتقويمِ السُّيوفِ وتَثْقِيف الرِّماح، يخالطُه صهيل الخُيول. مشَوا في الزّقاق الضيّق بَين الخِيَام. وتذكَّر الغزاليّ نصًّا قرأه مرّةً يقول إنّ التُّركيَّ يولَدُ على ظهر فَرَسٍ ويموتُ عَلَيه. ولَمَحَ عشراتِ الأطفال مَحلُوقي الرّؤوس جالسينَ في خَيْمَةٍ يقفُ أمامَهم فارِسٌ يتحدّث. وامتلأ أنفُه برائحةِ القُدورِ الضَّخمَة المنصوبَة أمام الخَيْمَة المجاوِرة.

وصلُوا إلى خِيَمِ الضّيافَة. بدَت الخَيْمَةُ الأولى مكتظّةً بأشخاص مُختَلِفي الأعْمارِ والهَيْئَات. وتذكَّر الغزاليّ خان الطّاووس، والرّائحةَ الغريبَة الّتي تَلْفَحُهُ كلّما مرَّ أمامَه. ورقَصَ قَلْبُه عندَما تجاوزَ بهما الجُنديُّ خيمَةَ الضِّيافة الأولى. ساروا حتّى انتهوا إلى أخرى تَقَعُ في الطَّرَفِ مفصولَةٍ عن بقيَّة الخِيام يَقفُ أمامَها حرّاس. وحالما بلغا بابَها تلقَّاهُما خادِمانِ بأيدٍ مَمْدُودَةٍ ورؤوسٍ

مطأطَأةٍ. ولمحَا السّجّادَ الخُراسانيَّ الفاخِرَ والمسانِدَ الأصفهانيَّةَ الأنيقَة، ونَفحتْهُما رائحَةُ العِطْرِ المشوبِ بِعُودِ الهِنْد. فخلَع الغزاليّ نعلَيْه، وجلَسَ في طرف الخَيْمَةِ مُديرًا وجهَه جِهَةَ البَاب.

جاءَ غِلْمانٌ صقالِبَةٌ يَحمِلُونَ صينيَّةً علَيها جِرارٌ صغيرةٌ فيها عَصير، وصُحونٌ فيها لَوْزٌ وجَوْزٌ وتَمْرٌ وزبيبٌ وفَواكهُ طازجة. مدَّ الغزاليّ يدَيْه وشرِبَ مِنَ الماء، وذِهْنُهُ مُنْشَغِلٌ بالمناظَرة. *هل ستكونُ الآن أم اللّيلة؟ أَهِيَ عن تَفريعَاتِ الفِقْهِ بَين الشّافعيّ وأبي حنيفة؟ أم ستكونُ في عِلْمِ الكلامِ والمنطِقِ؟ هل سأفوز فيها أم تنتظِرُني مَكيدَةٌ مِن الأحنَاف؟*

بدأت أذُنُه تألَفُ صخَبَ المعسكَر. ثمّ لاحَ مِن باب الخيمَة خيَال، ودخلَ رجلٌ يرتدي مَلابِسَ الكُتّاب. فسلَّمَ وقال:

- حيّاكُما الله. الوزيرُ يُقرئكُما السّلام، ويعتذِرُ لِسَفَرٍ طارِئ، ويطلُبُ انتظارَه حتّى يعودَ لِيَراكُما. ثمّ خرَج دُون انتظارِ تَعليق.

رفعَ الغزاليّ يدَهُ لِيَلْمَسَ طرَفَ جَبْهَتِه، وهو يعضّ على شفتِه السّفلى. انتابَه ضيقٌ وتقافَزَت في ذِهنه أسئِلَة: *أحقًّا سافَرَ الوزيرُ أم هُو موجودٌ في المعسكَرِ الآن؟ هل للأمرِ علاقةٌ بمَيْلِ السُّلطان ملكشاه إلى الأحنَاف؟*

هل أستأذنُ للْعَوْدَةِ إلى المدرَسة النّظاميّة ثمّ أرجِعُ مَتى عادَ؟ وخطَرَ لَهُ أنَّ هذا قد يَصْرِفُ عَنْهُ قَلْبَ الوزير. فكيفَ يعودُ قَبْلَ لُقْياه؟ ثمّ شخَصَتْ في ذِهنه بَغداد.. تِلْكَ المدينةُ الزّاهِرة السّاحِرَة. وتخيَّلَ نفسَه يدخُل قَصْرَ الخِلافَة ويُدرِّسُ في النّظاميّة.

خلَعَ عِمامتَه، وأخَذَ حفنَةَ زبيبٍ فاستفَّها، وبدا له أن ينتظِرَ حتّى يفوزَ بإبرازِ مهاراتِهِ أمامَ نظامِ المُلْك. ولمّا رفع رأسَه رأى أمام الخيمة ذلك التاجر الأحول الذي يحضر الدروس في النظاميّة دومًا. وهو رجلٌ تقول نيسابور كلّها إنّه يرفع الأخبار إلى نظام الملك.

12

المعسكَر، ضواحي نَيسابور، 484هـ.

كان الغزاليّ يحرّك شفتَيه بالدّعاء وهو يَدخُلُ الخَيْمَةَ المربّعةَ الكبيرةَ مُتَهيّبًا. وكان رِجَالُ الدّولة يصطفُّون يمينًا وشمالًا، وفي نهايةِ الممرّ الطّويل يَجلسُ نِظامُ المُلْك على كرسيٍّ مُرتَفِع. ذكّرَ نفسَه بأنّ علَيه التّقدُّمَ للسَّلام على الوزير أوّلًا، دُونَ الالتفاتِ إلى الواقفينَ في طريقِه، فذلك هو النِّظامُ المتبَّعُ. لكنّ الوزيرَ نزلَ عَن كرسيّه باشًّا:

- يا مَرْحَبًا بالأستاذ!

تعثَّرَ الغزاليّ بطرَف جُبّته حتّى كادَ يسقُطُ، ثمّ اعتدَل مُرتَبِكًا، مُتعرّقَ الجَبْهَةِ، وهو يمدُّ يدَه إليه:

- أهلًا بِجَنَابِه، يا مرحبًا بِجَنَابِه!

تورّدَ وجهُه خجَلًا، بينَما كان نِظامُ المُلْك يُشيرُ إلى مكانِ جُلوسِه. فجلس على كرسيٍّ وطيءٍ عَن يسارِ الوزير، ثمّ بدأت الوُجوهُ الموجودَةُ في الخَيْمَةِ تتَّضِحُ لَه. كان يُسلِّمُ بإشارَةٍ مِن يدِه وإيماءةٍ مِن رأسِه، وكان النّاسُ يردّون عليه بانحناءة. رأى قادَةَ الجَيْشِ في الجِهَةِ اليُمنى مِن الخَيْمَة، بينَما جلَسَ الكتَّابُ والعُلماءُ في جانِبها الأيسَر. وفوجئ بأنّ الشّيخ الهمَدانيّ عن يَمين الوزير وهو يوزِّعُ نظراتِه مِن عَينَيه المائيّتَيْن، والابتسامةُ الواسعَةُ لا تفارِقُ مُحيَّاه. فضاقَ بدُخول الهمدانيّ قَبْلَهُ عَلَى المجلس.

رفَعَ الوزيرُ يدَيْه داعيًا الجميع إلى الجلوس، فخفتَت الحرَكَة، وانْصَرَفت الأعيُنُ مِن أطراف الخَيْمَة إليه تَرَقُّبًا لِحَديثِه. مدَّ نِظامُ المُلْك يدَه إلى أوراقٍ

على طاولَةٍ مَنْصُوبَةٍ عَن شماله، وجعَلَ ينظُر فيها وهو يبرمُ خصلاتٍ مِن لِحْيَتِه. وكانَت الأوراقُ تَحوي تقريرًا مُفصَّلًا عَن الشّغبِ الّذي وقع بين الأحنَافِ والشّافعيّة، وحادثَة مَقْتَلِ بَهْرَام، وتلخيصًا لِكلام الغزاليّ في كتابه «المنخول» عن الإمام أبي حنيفة.

نظرَ الغزاليّ إلى الوزيرِ مُتأمّلًا وجهَهُ الأبيض، ووجنتَيْه البَارِزَتَين فوقَ خدَّيهِ المحفورَين، ولحيتَهُ الخفَيفة. فلاحظ أنَّهُ ازدادَ ضخامَةً عمّا كان عليه قَبْلَ سَنواتٍ عندَما زارَ المدرسَة النّظاميّة مُعزّيًا في وفاةِ أبي المعالي الجويني. لكنّ أفكارَه انقطَعت بتَنَحنُحِ الوزير وهو يَضَعُ الأوراق:

- حيّاكُم الله في هذا المجلس. نحنُ -كما تعلَمُون- لا نعدِلُ بمُجالَسَةِ العُلَماء وأهْلِ الفَضْلِ شيئًا.

وسكتَ قليلًا، فجاءت الأصواتُ مِن أطرافِ الخَيْمَة:

- حَفِظَكُم الله!

- رعاكُم الله!

- أبْقَى اللهُ الوزيرَ لإحياءِ السُّنَّة!

قال نظامُ المُلْك:

- لَقَد علِمْتُم أنّ بعضَ العامّة شغَبوا في نَيسابور وتَقحَّموا أمورًا هي مِنْ شأنِ العُلماءِ والفُقَهاء. وقَدْ حَسَمْنَا ذلِكَ الدَّاء، وأخَذْنَا بالقَصَاصِ لِلْقَتيل من قاتله، وقُلنَا لِلْعَامَّةِ إنَّ الانشغالَ بتدبيرِ أقْوَاتِها أسْلَمُ، والانصرافَ إلى أعمالِها أدرُّ للخرَاج، وأفضلُ للسّابِلَة، وأرغَدُ لِلْعَيْش.

تحدَّثَ بصوتٍ واضحٍ ومخارجَ فصيحةٍ زانَتها لَكْنَتُهُ الطُّوسيَّةُ المميَّزةُ بمَدِّ أواخِرِ الكَلِمَات. وكانَ يتوقَّفُ أحيانًا لِيُوضِّحَ بالفارسيّة ما قالَهُ بالعربيّة.

- ونحنُ نعلَمُ أنّ الخلافاتِ الكلاميّةَ والفقهيّةَ لا تُحَلُّ إلّا في مجالِس العِلْمِ وتباحُثِ العُلَماء. وهذا الصِّقعُ المبارَكُ مِن أرضِ سيّدي أميرِ المؤمنين المقتَدي بأمرِ الله، وسَلْطَنَةِ سيّدي السُّلطان ملكشاه مَعْمُورٌ بأتباعِ الإمامَيْن العظيمَين، أبي حنيفَة والشّافعيّ في الفُروع، وأتباعِ الأشعريّةِ والمعتزلَة في العقائِد. ونحن الآنَ في حَضْرَةِ شَيْخَين مبرِّزيْن مِن هذين المذهَبين.

وسكتَ قليلًا، ثمّ أشارَ إلى الغزاليّ:

- هذا العالِمُ العلاَّمَةُ الذي أسكَتَ الخلائِقَ وفصَّلَ أصولَ المذهَب؛ الأستاذ مُحمّد بن مُحمّد بن مُحمّد الغزاليّ الطّوسيّ، شَيْخ الشّافعيَّةِ والأشاعِرة!

خفَضَ أبو حامِد رأسَه امتنانًا، مُزْدَهِيًا لتذكّر الوزيرِ اسمَهُ كامِلًا.

ومالَ الوزيرُ يَسارًا:

- وهذا شَيْخُ الحنفيَّة والمعتزِلة، ومَنْ عجَزَت نَيسابور عن إنجابِ مِثْلِه فَضْلًا وعِلْمًا، الشّيخ صفيّ الدّين بن عبد الله بن عبد الصمد الهمدانيّ.

واتّسعَت ابتسامَةُ الهمدانيّ، وهو يضع يدَهُ عَلى أعلى بَطْنِه الضّخم ويهزُّ رأسَه امتِنَانًا.

ثمّ سكَتَ الوزيرُ. وغدَا الصّوتُ المسموعُ صوتَ حَمْحَمَةِ فَرَسٍ آتِيًا مِن بَعيد. وأشارَ إلى شَابٍّ واقِفٍ وراءَه، فتقدَّمَ في عِمامَةٍ سوداء مرخيّةِ الذُّؤابةِ بَين كتِفَيه. تجاوزَ الوزيرَ ووقفَ في الممرّ المفتوحِ بَين الحاضرين:

- باسم الله على بركَة الله، تبدَأُ هذِه المناظَرة وَفْقًا لِشُروطِ البَحْثِ والمناظَرة المعروفَة. وسيكونُ جُزؤها الأوّل في أصولِ العَقائِد، والنَّجاةِ الأخرَوِيّة بَين الأشاعِرَة والمعتزِلة. ويكونُ شطرُها الثّاني في

شُروطِ الصّلاة عِنْدَ الإمامَين أبي حنيفَة النُّعمان، ومحمَّد بن إدريسَ الشّافعيّ رَحِمَهُمَا الله.

وأمالَ الشّابُّ رأسَه إلى الإمامِ الغزاليّ مُتأمّلًا وجهَه الأبيض النّاضحَ بالحياة:

- وسيبدَأ الشّيخُ الغزاليّ.

ثمّ تَجافَى الشّابُّ عن الممرِّ، فدخَل خَدَمٌ يحمِلُون كرسيَّيْن وضعوهُما بَين يَدَي نِظامُ المُلْك. وأشارَ الشّابُّ إلى الإمامَين بالتَّقدُّمِ والجُلوس مُتقارِبَين بَين يَدَي جناب الوزير.

تقدّم الرجلان، وتَنحنَح الشّابُّ، ثمّ قبَضَ يدَه اليُمنى وفتحَها مُؤْذِنًا ببَدْءِ المناظَرَة.

خيَّمَ صمتٌ وترقُّبٌ. ومالَ نِظامُ المُلْك على مَسنَد كرسيِّهِ واضِعًا يدَهُ تحت ذَقْنِه، واشرأَبّت أعناقُ الجالِسينَ، وفاحَت رائحةُ البَخور في أرجاءِ المكَان، ثمّ جاءَ صوتُ الغزاليّ:

- ما قَوْلُ الشّيخ في إيمانِ ثلاثَةٍ مُؤمِنٍ وكَافِرٍ وصبيّ؟ وما مَنَازِلُهُم في الآخِرَة؟

مالَ الهمدانيُّ إلى الوراء في كرسيِّهِ، وقال بصوتٍ واضحٍ مُرتَفِعٍ كأنّه يَخْطُبُ:

- إنّ الّذي نعتَقِدُهُ ونَدينُ لله بِهِ أنّ المؤمنَ بالله تَعالى مِنْ أهْلِ الفَوْزِ والدَّرجاتِ، والكافرَ مِن أهْلِ الهَلَكَاتِ والدّرَكاتِ، ولا نَشُكُّ في أنَّ الصَّبيَّ مِن أهْلِ النَّجاةِ بَعْدَ الممات.

سَرَتْ في جوانِبِ الخَيْمَة غَمْغَماتُ استحسان، ورَمَقَ الغزاليُّ وَجْهَ الوزيرِ بطرَف عينِه فلاحَظَ نِظْرَتَهُ المحايِدَة. فرَفَعَ يدَه وقال بصوتٍ قويٍّ هادئ:

- إنْ أراد الصَّبيُّ أنْ يَرْقَى إلى أهْلِ الدَّرجاتِ فَهَلْ يَستطيعُ ذلِك؟

فمالَ الهمدانيّ إلى الأمامَ مُحِدًّا نَظْرَتَهُ:

- لا! يُقالُ لَهُ إنَّ المؤمِنَ إنَّما نالَ هذِه الدَّرَجَةَ بالطَّاعَةِ في الدّنيا ولَيْسَ لَكَ مِثْلُها. فأنْتَ تَرَكْتَ الدُّنيا دُون أن تتعبَّد لله، وجئتَ إلى الآخرَةِ بِلا صلواتٍ أو ابتلاءات، فَكَيْفَ تَطْمَعُ بأجرِ عملٍ لَمْ تَقُم بِهِ؟

وتراجَع في كرسيّه شاعرًا بالرّضا عَن جوابِه. والتَفَتَ مُتأمّلًا وقْع أجوِبَتِهِ على الحُضور، فرأى العَمائِمَ ساكِنَة، والعُيونَ رانِيَة، والأفواهَ مَفتوحَةً تنتظِر.

وجاءَ صَوْتُ الغزاليّ:

- وماذا إنْ قالَ الصَّبيُّ لمولاه إنَّ التَّقصيرَ لَيْسَ مِنِّي، فَلَوْ أحيَيْتَني لعَمِلْتُ مِنَ الطَّاعَاتِ كَعَمَلِ المؤمِن؟

- سيقُولُ لَهُ الله إنِّي كُنْتُ أعْلَمُ أنَّكَ لَوْ بَقيتَ لَعَصَيْتَ ولَعُوقِبْت، فَراعَيْتُ مَصْلَحَتَكَ وأخذتُكَ إليَّ قَبْلَ أنْ تَنْتَهِيَ إلى سِنِّ التّكليفِ رَحْمَةً بِك!

ولَمْ يُمهِلْهُ الغزاليّ فسأله:

- وماذَا لَوْ وقَفَ الكافِرُ وقالَ لله تَعالى: يا ربِّ! عَلِمْتَ حالَه كَما عَلِمْتَ حالي؛ فهلّا راعَيْتَ مَصْلَحَتِي مِثْلَهُ؟

انطلَقَ في أطرافِ المجلِس هَمْس، وتحرّكَت عمائِم، وافترَسَت الأعينُ الشّيخَ الهمدانيَّ الّذي بدَا ساكِنًا لا تتحرّك إلّا عيناهُ. ثمّ تقدَّم قَيّمُ المناظَرَة، فَرَفَعَ الهمدانيُّ يدَهُ مُعترِفًا بالعجز عَنِ الجَوَاب.

انتزَعَ نِظامُ المُلْك يدَه مِن تَحْتِ ذَقْنِهِ واعتَدَل مُدارِيًا فَرْحَتَه بالمناظَرة، مُتصنّعًا الحيَادَ. وأشَارَ الهمدانيُّ إلى قَيِّمِ المناظَرَة فاقترَب، وهمَسَ في أذنه بأنْ لا ضرورةَ للمناظَرة الفِقْهيَّة.

شخَصَت الأعينُ إلى الغزاليّ مفترِسَةً هذا الشّابَّ الّذي هزَم أبْرزَ شيوخِ الحنفيّة والاعتزالِ في جَوْلَةٍ واحِدَة. واشرأبَّت إلَيه أعناقٌ، وافتَرستهُ عُيونٌ، وجالَت فيه أفكار. ورمَى أحَدُ كُتَّابِ الوزيرِ سُؤالًا في المنطِق. فانطلَق الغزاليّ يتحدّث بأسلوبٍ مَسْجُوعٍ مُتْقَن، مُتَجوِّلًا بَين القواعِد الأصوليَّة والفقهيّة والمنطقيَّة. كان صوتُه قويًّا نَدِيًّا، واضحَ المخارج، فَخْمَ الألفاظ، حَسَنَ التَّقاطيعِ والوَقَفَات. ثمّ انفضّ النّاس مِن مَجْلِس الوزيرِ بَعْدَ ساعاتٍ وهم يتحدّثون عن أستاذ النّظاميّة الشّابّ، وعقلِهِ القاطِعِ كَسَيْفٍ تُركيّ. وأذِنَ الوزيرُ للجميعِ بالانصراف ما عدَا الشّيخَين. ثمّ نزلَ عن كرسيّه ومشَى معهما في الطّريق الضيّقِ بَين خِيامِ الجُنود مُتَّجهينَ إلى خَيْمَةِ الطَّعام.

كانَ الوقتُ زوالًا، والهواءُ عليلًا. دخلوا المجلِسَ فَتَلَقَّتْهُم رائحةُ الطّعام الطَّازَج المغطًّى على مائدةٍ مُستطيلَةٍ كبيرَة. وجلَسَ الوزيرُ مشيرًا إلى الشَّيخَين بالجلوس.

كانَ الغزاليّ سعيدًا بفوزِه في المناظَرَة، لكنّ الهمدانيّ في مِثْلِ سنِّ أبيهِ، وهو ذو مكانَةٍ في نَيسابور. وقَبْلَ الجُلوس رفَع الغزاليّ عَينَيه في وجْهِه وقال:

- أيّها الشّيخ! أنا في مقامِ تلميذِكُم، ولَقَد تعلّمتُ مِنكم كثيرًا أيّامَ مجلس الفارْمَذي.

ووجد الهمدانيُّ في ذلك بعضَ عَزَاء، فخلّلَ لحيتَه بإصبَعه مُبتسِمًا:

- لا عليكَ أيّها الشّيخ، إنّما سعَيْنا إلى إظهارِ الحقّ، وتعلِيمِ الخَلْق.

وأشَارَ الوزيرُ إلى المائدةِ الكبيرَة، وقال بالفارسية:

- بفرمائيد! بفرمائيد!

تَسلَّلت الأيدي الحيِّة إلى اللُّحومِ الطَّريّة. ورفعَ الوزيرُ كوزًا مليئًا بالعصيرِ، وعبَّ مِنْهُ، ثمَّ وضعَهُ دفعةً واحدة، وقال بنبرَةٍ تتصنَّعُ عدَمَ الاكتراث:

- مَنْ تَرونَ قاتِلَ الشّيخ سَمْنون، أيّها الشّيخَان؟

في تلك اللّحظَة كان الغزاليّ قَدْ ابتَلَعَ قِطْعَةَ لَحْم تتدلَّى مِنها عَصَبَةٌ دقيقَة. فابتلَعَ اللَّحمَة وبقيَت العصبَةُ في حلقه، فشعُرَ بِغُصَّةٍ دارَاها حتّى لا يُلاحظَها جليسَاهُ. وتظاهرَ بأنَّهُ يكحُّ في الجِهة الأخرى. ثمّ عادَت إليه نَفْسُه بَعْدَ قَلَقٍ وتَوتُّر، ولَمْ يَسْتَطِع أن يُجيبَ الوزيرَ، فردّ الهمدانيّ:

- لا أدري والله، لكنّي لا أراهُ إلّا أحدَ اللُّصوص.

سأل الوزير:

- اللُّصوص؟!

والتَفَتَ إلى الغزاليّ فلاحظَ امتقاعَ لَوْنِهِ، وفَهِمَ أنَّهُ ربّما أكلَ لُقْمَةً حارَّةً، أو ازدَرَدَ مُضْغَةً ضخمَة؛ فقالَ وهو يُقلِّبُ فَخِذَ دَجاجَةٍ في الصَّحن:

- اللُّصوص لا يقتُلونَ المتصوّفَة ولا طلَبَةَ العِلْم. بل يقتُلون التُجّارَ الّذين يَمنعونَهم ما تحتَ أيديهم. وما أعلَمُهُ أنَّ الشّيخَ سَمْنُون كان مِن روَّادِ الخانقاه الّذي بَنَيْنَاهُ، ولا يكادُ يَخرُجُ مِنْهُ إلّا إلى المسجِدِ أو المكتَبَة.

جاءَ صوتُ الغزاليّ وحِبَالُه الصّوتيّة ما تزال مُتشنِّجَة:

- مَقْتَلُ الشّيخ أمْرٌ عَجَب! ولا أجدُ أيَّ سبَبٍ يَجْعَلُ لِصًّا يقْتُلُه، ولَمْ يَبْقَ إلّا أنْ يَكونَ عَلَى الشّيخِ ثأرٌ قَدِيم.

كان الوزيرُ مُصيخًا بكلّ حواسِّه، حتّى إنَّهُ أمْسَكَ عَنِ المضغِ. ولَمَّا سكتَ الغزاليّ قال:

- ما مذهَبُ الشّيخ؟

ترامَقَ الشّيخانِ، ثمّ قال الهمدانيّ، وهو يضعُ يدَه على فيه:

- أمّا في الفِقْهِ فَحَنَفِيّ. وكان أمْيَلَ في العَقَائِدِ إلى مَذْهَبِ السّلَفِ وعَدَمِ الخَوْضِ في عِلْمِ الكلامِ مع مَعْرِفَتِهِ الدّقيقة به. لكنه ترك الكلامَ في الفقه والمذاهب منذ تصوّف وتمحّض للعبادة والزهادة.

شمَّ الغزاليّ رائحةً حادَّةً آتيَةً مِن جِهَة الوزير؛ ولم يَدْرِ أَهِي رائحةُ زعفَرانٍ مخلوطٍ بِعِطْر؟ أم رائحة عُودٍ هنديّ؟ وانشغَلَ ذِهنُه هنيهاتٍ مُفكِّرًا في طبيعَة الرّائحة. وامتدَّ المجلِسُ فتراخى الكلامُ، وتسارَعَ المضغ، وتكاسَلَت الألسِنَةُ عَن الحديث. ثمّ جاء الخدَمُ يحمِلُونَ الصَّابونَ والمغاسِلَ والمناشِفَ والعُطور. ودخَلَ أحدُ الكتَّابِ مُستعجِلًا، وهمَسَ في أذُنِ الوزير، فوقَفَ مُستأذنًا. بقِي الغزاليّ والهمدانيّ وحدَهُما. وتشاغَل كلٌّ مِنهُما بمراقَبَة الخدَم يحمِلُون بقايَا الأطعمَة ويرفَعُونَ الموائد.

في مساء ذلك اليوم دعَا الوزيرُ حاجبَه وأمرَه بتسليم جائزةٍ للغزاليّ. ثمّ طلب منه أن يدعو صديقَه التاجرَ الأحول. وبعد لحظاتٍ مَثُلَ بين يدي الوزير وهو يعدّل عمامتَه السوداء. ثمّ جلس متهيّبًا في طرف المجلس فبادره الوزير:

- عرضتَ عليَّ مرةً جاريةً من جواريك، مدحتَها كثيرًا وذكرتَ من حذقها وغنائها؟

- نعم سيدي!

- أرجو أن ترسلها إليَّ...

وتبسّم الوزير، وضحك التاجر الأحول، ثمّ أحنى رأسه:

- أمركم سيدي!

13

نَيسابور، 484هـ.

أسلَمتْ نَيسابور روحَها لِلَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ ماطِرَة بَعْدَ يَومَين مِن ضجيجِ النّظاميّة والخانقاه ودَرْبِ الورَّاقينَ بالأحاديثِ عن جائِزة نِظام المُلْك للغزاليّ. فَلَوْلاَ خَبَرُ الجائزَة لبقي مقتلُ سمنون مرتعَ الألسَنَةِ الفُضوليّةِ والشّفاهِ المتحرِّقَة إلى الأخبَار. أجْمَعَ طلّابُ النّظاميّة على أنّ الوزيرَ لَمْ يُعطِ أيًّا مِن أساتِذَة تلك المدرسة جائزَةً مِثْلَها. فلَمْ يَهَبْ أستاذًا قَطُّ ألفَيْ دينَارٍ وبغلَةً فارهَة.

كان اللّيلُ مُعتِمًا ونَيسابور غارقَةً في أحلامِها. تخافَقت البُروقُ، وهطلَ المطُر، فترقرَقَتْ مياهُهُ مختلطَةً ببالوعاتِ الصَّرْفِ وميازيب الريّ. أنْصَتَ الغزاليّ إلى صَوْتِ الماء مُتدفّقًا على الأزقَّةِ المبلَّطَة، وخريرهِ هابطًا مِنْ سُقوفِ البُيوت. تقدَّمَ إلى شُرفَةِ البَيْتِ فلاحَت لَهُ مباني نَيسابور ومآذنُها تحت ضوء البروق كأنّها تغتسل بالمطر، ولمح القَصْرَ الأبيض مُطلًّا يَرْقُبُ المدينةَ كحارِسٍ من الماضي.

أرخى السِّتارةَ المسدلَةَ على النّافذة، فأثار صوتُ المطر معانيَ غريبةً في ذِهنه، وشرد خيالُه إلى مغاني طفولته في طوس، وخيال أمِّه الّتي لا يفارقه وجهُها الأبيض، وعَيناها السّوداوَان وقوامُها المعتَدِل. حاول أن يُطاردَ صورَة أبيه، فلم يتذكّر غير صوتٍ بعيدٍ ظَلَّ صداه يتردّد في أذنيه بما تيسّر من ذِكْر الله. لمسَ جانِبَ جُبَّتِه السّمرقنديَّة النّاعمة، وأجالَ بصرَه في أطرافِ البَيْتِ الواسِع، ثمّ عادَ إلى الشّرفَة مُتأمّلًا المطرَ، فانتابَهُ ضيقٌ شديدٌ وهو يفكّر

في عَجْزه عن مشاركةِ أمِّه وأبيه هذه الدُّنيا المقبِلَة. *ماذا لو كانا حيّين؟ ما قيمةُ أن تأتيك الدّنيا بَعْدَ رحيلِ مَنْ تُحبُّ؟ ما قيمَةُ المال الّذي لا تُلقيه في يَدِ المحبوب المرتعشَة؟ ما قيمةُ الثِّيابِ الفاخِرة إذا لَم تَلفَّها على جسَدِ والدَيْكَ الفَقيرَين العاريَين؟ ما قيمةُ الدّارِ الفسيحَة في الحيِّ الأنيقِ إذا لَم تَنْقُلْ إليها والدَيْكَ مِن أطرافِ المُدُن القَذِرَة الكئيبة؟ حتّى أخوكَ أحمد، ليس في حاجةٍ إليك. فهو الآن أديبٌ واعظٌ شُهِر إحسانُه وجرى بالأوراد لسانُه، كأنّكما عقلٌ وقلبٌ لا يلتقيان. فهل كُتِبَ على الدّنيا ألّا تكتمل؟!*

خفقَت برْوقٌ، ودوّتْ رعودٌ، وهبَّت رياحٌ تلاعبَت بالسِّتارةِ المرخاة على النّافذة الواسِعة. *ما الّذي بقيَ مِن أمنيّاتي؟ أتقَنْتُ العُلومَ، وحُزْتُ أكبَرَ مَنْصِبٍ في النّظاميّة، وَسَموْتُ إلى مكانةٍ عليّةٍ في قُلوب النّاس.. وفزتُ بِرِضَا الوزير نظامِ المُلْك. فماذا بقيَ بعد ذلك؟*

واستعادَ صورَةَ الوزير في آخر لِقَاءٍ بينَهما. كان نائِمًا في خَيْمَةِ الضّيافةِ، فاستدعاهُ كاتِبُ الوزير مُنْتَصَفَ اللّيل. أخذَهُ إلى خَيْمَةٍ في طَرَفِ المعسكَر، فوجَدَ فيها نظامَ المُلك. كانَ جالِسًا وحيدًا على كرسيٍّ خشبيٍّ وبَيْنَ يَدَيه طاوِلَةٌ على طرَفها الآخرِ كرسيٌّ شاغرٌ. أشارَ إلى الكاتِب بالانصِرَافِ، وبدا كأنّه يودُّ الحديثَ معه في أمرٍ مهمّ. ودعاه إلى الجلوس قبالته على الكرسيّ، فجلس. وعندَما اتَّضحَت رؤيةُ الأشياء داخَلَ الخَيْمَة -تحْتَ ضَوء القَناديلِ المعلَّقَة في أركانها الأربعة- لاحظَ خارطَةً على الطّاولة.

نزَعَ الوزير عِمَامَتَهُ ومدّ إصبعه:

- اسْمَع يا زين الدّين!

خفَقَ قَلْبُ الغزاليّ، فَتِلْكَ إشارَةٌ إلى أنَّ هذه هي الصّفَة الّتي اختارَها لِيسمّيَه بها. وقَبْلَ أنْ يتكلّم واصلَ الوزير:

- أنتَ تَعْلَمُ أنَّ أمَّةَ الإسلام مُمزَّقةٌ كلَّ مُمزَّقٍ، وأنّ إسلامَ أبي بَكْر

وعُمَرَ وعُثْمانَ وعَلِيٍّ كادَ يرتَفِعُ مِنَ الأرضِ بِسَبَبِ الأهواءِ والشِّيَعِ والأحزاب.

بدا للغزالي أنّ الوزير صادقٌ دقيقُ الوَصْف. فهذهِ أوّلُ مرّةٍ يَسْمَعُ فيها ذا سُلطانٍ يتحدَّثُ بهذا الجدّ. فأومَأ برأسِهِ:

- نَعَم، جَنَابُكُم!

وسكَتَ الوزيرُ، وتلفّت حوله كأنّه يَخْشَى الآذانَ المُتطلِّعَة، ثمّ أعاد بصَرَه إلى الخارطَة:

- مُنْذُ سَمِعْتُ عَنْكَ وعَن عِلْمِكَ وعَقْلِكَ، تَيقَّنْتُ مِن صلاحك لِمَا أنويهِ، وعَلِمْتُ -مِن مجالستك هذه الأيّام- أنّك أصْلَحُ مُسَاعِد وأكفَأ مُجاهِد.

ثمّ عاد إلى السكوت، وكانَ الغزاليّ يكادُ يَسْمَعُ نَبْضَ صُدْغِهِ مِنْ وَقْعِ كلامِ الوزير. سعِدَ بالثِّقَةِ، وتوجّس ممّا سيطلُبُه مِنْهُ. *هل سيتحدّثُ عن التّدريس في نظاميّة بغداد؟ هل سيجعلني رسولًا لدى أحَدِ الملوك؟ أمْ سَيطْلُبُ منّي أن أكونَ شِحنةً*[1] *أتسقّط أخبارَ النّاس وأجلد المسلمين ظُلْمًا أو عَدْلًا؟*

رفعَ الوزير وجهَه عن الخارطة، وتنفّس عميقًا، ثمّ قامَ وقَبَضَ على لِحْيَتِهِ بيَدِه:

- أنتَ تعلَمُ -يا أبا حامِد- ما حاقَ بالإسلامِ في رابع القُرون الماضي. فَقَد ضعُفَ الدِّينُ واستُبيح، وتفكَّكَت الخِلافَة حتّى صارَت الدّنيا في أيدي المتغلّبين ومُلوكِ الطّوائف. وكلّ واحِدٍ مِنهُم حصّلَ في يَدِهِ بَلَدًا يَمْلِكُهُ وَيَمْنَعُ مالَه. فصارَت واسِطُ والبَصْرَةُ والأهواز في أيدي البَريديّين، وفارسُ في يَدِ عليٍّ بن بُوَيْه، وكرمان في يَدِ أبي عليٍّ بن

---

(1) الشّحنة بلغة ذلك العصر مدير الأمن بلغة اليوم.

إلياس، وأصبَهان والرّيُّ والجَبَل في يَدِ الحسَن بن بويه، والموصِلُ ودِيارُ رَبيعة ودِيارُ بَكر في أيدِي بَني حمدان، ومِصْرُ والشّامُ في يَدِ مُحمَّد بن طُغُج، والمغرِبُ وإفريقيّة في يَدِ أبي تَميم، والأندلُس في يَدِ الأمويّين، وخُراسانُ في يَدِ نصر بن أحمد، واليَمامَةُ والبَحْرَين وهَجَر في يَدِ أبي طاهر بن أبي سعيد الجنّابي، وطَبَرِستانُ وجُرجانُ في أيدي الدَّيْلَم.

كان الوزيرُ يعدُّ الولاياتِ وأسماءَ الوُلَاةِ بصوتٍ مُرتَفِعٍ حزين. فيرتَفِعُ صوتُه، وتتحرَّك يداهُ في فضاء الخَيْمَة. ثمّ جلَس على كرسيّه، وأزاحَ عِمامَتَهُ، وضمَّ أطرافَ جُبَّتِهِ، فقال الغزاليّ:

- هو كما قال جنابُه. وإذا تأمَّلنَا الدِّينَ والمذاهِبَ وَجَدْنَا الخِلافَ والتّفرُّقَ كذلِك. فَقَدِ انتشَرَ الإلحاد، وراجَت سُوق التّأويلِ في الدّين. وظهرَت فِرَقٌ لا تَرى القُرآنَ حُجَّةً بَل تُؤوّلُه وتَلوي أعناقَ الآيات، مثلَ المذاهِب الباطنيّة وأشباهِها. وانقسَم أهل السّنَّةِ بين شافِعيَّةٍ وحنفيَّةٍ ومالكيّة، وأشعَرِيَّةٍ وكراميَّة. وغدَا النّاس لا يُصلّونَ في مَسْجِدٍ واحِد، بَلْ لِكُلِّ طائفَةٍ إمامٌ وجماعةٌ في زاويةٍ مِنْ زَوايا المسْجِد.

أرجعَ الوزيرُ عِمامتَهُ إلى هامَتِهِ وهو يقولُ هامِسًا:

- هَلْ مِنْ سبيلٍ إلى تَضييقِ الخِلاَفِ بَيْنَ مذاهِب المسلمِين هذه يا أبا حامِد؟

وقعَت الكُنْيَةُ في أذُن الغزاليّ وقْعًا مُريحًا وهو ينظُر إلى انعكاسِ ظِلِّ هامَة الوزير على سَقْفِ الخَيْمَة، فأعادَ بصرَهُ إلى الخارطة:

- إنّ النّاس في مَيْلِهم إلى المذاهب مُختلِفون. فهذا يؤْثِر بِطَبْعِهِ العلومَ العقليَّة، وذاك يُفضّل العلومَ النَّقليَّة، وذلك يميل إلى العلوم اللُّغويَّة،

وهذا يَجْنَحُ إلى الرِّياضَة النّفسيّة. والنّاس بحاجَةٍ إلى مذهَبٍ يضمُّ هذا الشّعث، ويجمَعُ تِلْكَ الآراء.

- وكيفَ ذلك؟

أجاب الغزاليّ:

- إنّ الإسلامَ -يا جنابَ الوزير- دينٌ جامِعٌ، لكنّ النّاسَ جزّؤوه وفرّقوه. فطائفةٌ طارَت بالقَلْبِ وتركت العَقْل. فانشغَلوا بالعِبادات في دُويْرات الصوفيّة، أو في الفَلَوات. وطائفةٌ قالَت إنّ الدّينَ في العَقْلِ وحده، فطَفِقُوا يَدْرُسونَ مَنْطِق أرسطو وعلومَ الأوائل، فماتَت قُلوبُهم وغفَلوا عن أنفسِهم. وطائفةٌ رأت الدّينَ في الحديث ورِجالِه وطُرُقِه، فانصرَفوا إليه بعقولٍ مدخولَة وأفئدَةٍ مخبُولَة.

برقَت عينا الوزير وهو يتأمّل الغزاليّ تحت الضّوء الخافِت. حدّق في أنفِه الحادّ، وعَينَيه العميقتَين، وتِلْكَ الشّجَّة في طرَف جَبْهَتِه؛ فمالَ بِمِرْفَقَيه على الطّاولة مُنْصِتًا.

- وطائفةٌ أخرى انشغَلت بالفقهيّات وتفريعاتها وما قالَه الشّافعيّ وأبو حنفية، دونَ فَهْمٍ لمرامِي الفِقْه، أو تعريجٍ على الحديث، فأشبَهوا بذلك أحبَارَ اليهود. وآخرونَ انصرَفوا إلى العِبَادَة وتربيةِ القُلوب دون التِفَاتٍ إلى الفِقْهِ والفَهْمِ وواجباتِ الحَياة، فأشبَهوا عُبَّادَ الهند ورُهبانَ النَّصارى. ولَوْ أنَّ المسلمينَ وجدوا طريقًا يَجْمَعُ كلّ هذا لوجدتْ كلُّ تلك الأنفُسِ مَنَازِعَها ورغَائبَها، وقلَّ الخِلاف، وهذا معنى فطريّة الدّين. وأنا أرى أنّ مدارسَ الوزير النّظاميّة تُمهِّدُ لذلك وتهيّئ لَهُ بِتوفيق الله.

وسكتَ قليلًا ثمّ أردف مُتلكِّئًا:

- إنْ وجدت العلماءَ الموجِّهين!

شعر الوزيرُ برغبَةٍ طافحةٍ في أن يَقومَ ويحتضنَ هذا الشّابَّ الّذي يَتَّقدُ ذكاءً. *كيفَ وصلَ إلى الفكرةِ الّتي في ذِهني دون شَرْحِها لَه؟ كيفَ عرَف أنّي ما أسّستُ المدراس النّظاميّةَ إلّا لأجمَعَ التّصوّفَ والفِقْهَ، والمنطِقَ مع الحَديث، لِيُصْبِحَ كلّ هذا مُتصالحًا يُدْرَسُ تَحت سقفٍ واحِدٍ؟*

وتذكَّرَ الوزيرُ ذلِكَ التّقرير الّذي كلَّفَ بِهِ شِحْنَتَه وكتبَهُ لَهُ عن هذا الشّابِّ الطّوسيّ، واستعادَ وصْفَ التّقرير لافتِتانِ النّاس بذكائه وَجِدِّه. ثمّ لفّهما الصمت. وشعُر كِلاهُما بِسخونَةِ الخَيْمَةِ رَغْمَ الجوِّ الرّبيعيّ البارِد. كان دِماغُ كلٍّ مِنْهُما يَغْلي بالأفكارِ الكبيرَة والطُّموحاتِ الخَطِرة.

فتَنَحْنَحَ الوزيرُ وهو يرفع يدَه إلى فِيه:

- أنا أريدُك في بغداد. فَهي مدينةُ الدّينِ، وعاصِمَةُ الدّنيا، ومَصَبُّ أموال العالم، والمدرَسَةُ فيها تحتاجُك. ستعودُ إلى نَيسابور حتّى أفرغَ مِن بعض الحُروبِ مع الباطنيّة ورأسِهِم حَسَن الصَّبّاح، ثمّ نلتقي بعدَ ذلك في بغداد.

حاول الغزاليّ أن يخفي سعادَته: *سأدَرّسُ طلّابَ الآفاق، وتمتَلئ حَلَقَاتي بتلامذَتي مِن المشْرِقِ والمغْرِب! سأُجالِسُ الخليفَةَ صباحَ مَساء!*

استعاد الغزاليّ لقاءه بالوزير وهو ما زالَ واقِفًا في شُرْفَةِ بَيْتِه بنَيسابور. لاحظَ تَوَقُّفَ المطَرِ وشعرَ بِنُعَاسٍ وتَعَبٍ يَسْرِيانِ في أطرافِ جَسَدِه. ولمحَ قَبْلَ انصِرافِه مِن الشّرفَة خَيالًا يقتربُ مِن باب بَيْتِه يلبَسُ صاحبُه ملابِسَ المريدين. ثمّ سمع قرعًا على الباب.

انتابَهُ ضيقٌ وشكٌ، فترَكَ الشّرفَة، ونزل السُّلَّم. نظرَ مِن ثُقْبِ الباب؛ فَلاحَ لهُ وجْهُ الشّيخِ الأصْلَع طَيفور. *ما الّذي جاء به في مِثْل هذه السَّاعَة؟* فتَحَ البابَ مُرتَبِكًا:

- الشّيخ! ما خبَرُكَ؟ أيُّ أمْرٍ جلَل؟!

ودخلَ الأصلَعُ دون كلام أو انتظار إذْنٍ. استشعَرَ الغزاليّ خَوْفَ الرَّجُل وسَط الجوِّ المظلِم وهو يقول بصوتٍ مَبْحوح:

- لقد أوصاني سَمْنُون قَبْلَ مَوْتِهِ أن أوصِلَ إلَيْكَ أمرًا. لكنِّي لا أقْدِرُ على البَوْحِ بِهِ قَبْلَ أن تُعاهِدَني على كتمانه. تِلْكَ وصيَّتُهُ رَحِمَه الله، أمَّا أنا فَلا أبالي لو أذعتَه في المسْجِدِ الجامِع.

حاوَلَ الغزاليّ استِكْنَاهَ تعابيرِ الأصْلَعِ في العَتمة، لكنَّه لم يتَبَيَّنْ سوى وجهِهِ المرهَق، وعِمامَتِه المكوَّرَة، وعَينَيه تدوران في الظّلام. فقالَ مُحاوِلًا جرَّهُ إلى المصبَاح:

- تعالَ اصْعَد معي، ثمَّ نَتحدَّث.

رفعَ الأصلَعُ يدَهُ:

- عليَّ الانصرافُ الآن..

- قُلْ، فلن أخبرَ أحدًا بشيء.

تلفَّتَ الأصلَعُ في الظّلام، وقال بصوتٍ راجِف:

- أوصاني إذا حَصَلَ لهُ مكروهٌ أنْ آتيكَ وأقولَ لَكَ أنْ تذهَبَ إلى الشّيخِ ذي الأنْفِ الأفطَس والشّامَةِ السّوداء تَحْتَ الشّفَة بِمَكْتَبَةِ البَيْهَقِيّ وتطلُبَ مِنْهُ الوديعةَ الّتي تركَها عِنْدَهُ. وقَد أوصاهُ ألّا يُسلِّمَها إلّا إلَيك.

- وهل قالَ...

لَمْ يَنْتَظِرِ الأصلَعُ، بَلْ فتح الباب وخرَجَ يتعثَّرُ في مُرَقَّعَتِه. وتوارى في الزّقاق، بينَما ارتفع نُباح كَلْبٍ بَعيد. فصكّ الغزاليّ البابَ، وصعد السُّلَّم راكضًا خائفًا حتّى كاد يطأ قطّته الأثيرة.

14

نيسابور، 484 هـ.

بدأ الطّريق يتّسعُ ويَعْتَدِلُ، وبدأَتْ تَشْعُرُ بإرهاقٍ وخَدَرٍ في قدمَيْها. *ماذا فعلتُ؟ وماذا كان يضيرني لو بقيتُ مع سيّدي حتّى أعلَمَ ما يكون؟ أهذا هو الهَرب الّذي كنتُ أفكّرُ فيه؟* وتذكّرت وجوهَ الجَواري اللّائي هَرَبْن. هرَبَتْ زَيْنَب، ثمّ أُعيدَت إلى أهلِها بَعْدَ عام، أمّا نَغَم، فهرَبت ولَمْ يُسْمَع عَنْها خَبَر. *تُرى أَينَ هي الآن؟ أهِيَ سَيّدةُ بَيْتٍ ولَها أطفالٌ أَمْ اخْتَطَفَها خاطِفٌ؟ على كلِّ حالٍ مِمَّ الخَوْفُ؟ فأنا إمّا أنْ أنْجُوَ مِنَ العُبوديّةِ وإمّا أن أعودَ إليها.*

ضاقَ صدرها بمشاعِرِها حتّى خُيِّل إليها أنّ الوجوهَ في الشّارع تسمع خطَرَات قَلْبِها. فألقَت جِسْمَها المُنهكَ على صخرةٍ وسَطَ حديقَةٍ. وشرعت تتخيّلُ نفسَها تعيشُ هُنا حرّةً لا سُلطانَ لأحَدٍ عَلَيْهَا، أو زوجةً وأمًّا ومُربّيَةً لأطفالٍ مِنْ رَحِمِها لا أبناء سيّدةٍ أُخرى. سرَحَ خَيَالُها وراءَ الحُلم اللّذيذ وهي تَرَى نفسَها بين أرْبَعَة أطْفَالٍ وَزْوجٍ وَبَيْتٍ في ذلك الجانبِ الغربيِّ من المدينة.

لقد سمعت سيّدها البارحة يتحدّث مع سيّدتها ويقول:

- نعم... هي في نهاية الأمر جاريةٌ مملوكة. وأنا لا أستطيع رفضَ طلبٍ للوزير!

لم تصدّق ما سمعته. فكيف يعطيها دون أن يرفّ له جفنٌ وهي التي كانت تفتخر أمام الجواري بأنّه والدها لا سيّدًا من الأسياد!

ثمّ أفاقَت على أسئلةٍ مُلحَّة. *ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ هل أذهبُ وأعود*

إلى سيّدي؟ أم أبقى في الشّارع حتّى يَتصيَّدَني اللُّصوصُ والعَيَّارون؟

سَمِعَت أذانَ الفَجْرِ يتجاوبُ في أطراف نيسابور المتَمَلْمِلَة استعدادًا لِيَوْمٍ جَديد. فنهضت كالملدوغة وحثّت الخطى إلى المسجد. البردُ قارسٌ والظّلام لمّا يَنْجَلِ. وفي الطريق لَمَحت كَلْبًا سائِبًا يمشي، وسمِعَت ديكًا يَصِيح. كانت تعلمُ أنّ المسجدَ في نهاية الزّقاق الثّاني، فمشَت مُتلفِّعَةً بخِمارِها، حتّى بَلَغَت بابَه الواسعَ. فدخلَت الرَّحْبَةَ، وجلَسَت في الرُّكْنِ. وكان الرّجالُ المتَلَفِّعونَ في جِبَابِهم وعمائِمِهم يدخُلون تِبَاعًا مُتَمْتِمِين. ثمّ ظهرَ شيخٌ مقوَّسُ الظهر يهمِس:

- أصْبَحْنَا على فِطْرَة الإسلام وعلى كَلِمَةِ الإخلاص!

وتلاه شابٌّ حاسِرُ الرّأس يُتمتِمُ:

- ربّنا آتِنَا في الدّنيا حَسَنَة!

كانت ترقُب القادِمين مِنْ زاويةِ الرّحْبَة، وهي جالِسَةٌ تَبذُل كلَّ ما تستطيعُ لتتكوَّرَ على نَفْسِها كي لا يُلاحِظَها أحَد. امتلأ المسْجِد، وأُقِيمَت الصَّلاة. انتظرَت حتّى انْتَهت، ثمّ وقَفَت مُسْرِعَةً وسارت إلى الباب الصّغير الخاصّ الّذي يَدْخُلُ مِنْهُ الإمام، وبقيتْ في انتظاره هُناك.

بدأ الرّجالُ يَخْرُجون، ووقَف الإمام، فابْتَدَرَتْهُ:

- السّلامُ عليكُم أيّها الشّيخ!

- وعليكُم السّلام

- القاضي عُبَيد الله بن عليّ الخطيبي؟

- نَعَم، خيرًا يا ابْنَتي؟

- أيّها الشّيخ أنا جاريةٌ تائهة. كُنْتُ مع أهلي في قافلة، وتهتُ، ولَمْ أعثُر لَهُم عَلَى أثَر، وأريدُ مَنْ يُساعِدني في الوصول إلَيهم... إنّهم بشيراز.

نظَرَ إليها الشّيخ تحت أنوار الفجر المُنسابَة مِن وراء أشجار السَّرو النّحيلة والبُيوت والشّرفات، فلمَحَ وجهَها المقنَّع. وحَزَرَ أنّها صادقَة، فقالَ:

- تعالي يا ابْنَتي!

مَشى خطواتٍ أمامَها. كان يُفكّر في ما سيقولُه لِزَوْجَتِه. دفَع بابًا صغيرًا عند مَدْخَلِ بَيْتِه ودخَل. شعُرَت خَلُوب بِدِفْءِ البَيْتِ المُظْلِم، ووقفَت قُرْبَ الباب. تقدَّمَ الإمامُ مُنادِيًا:

- شيرين! تَعالي!

وأطلَّ رأسٌ ملفوفٌ بقطيفة.

- هذه جاريةٌ ضاعَت مِنْ أهلِها عندما مرّوا بالمدينة، وتُريدُ أن نُساعدَها في الوصول إليهم. دعيها معَكَ حتّى نَجِدَ قافِلَةً ذاهبَةً إلى شيراز.

وقفَت المرأةُ ببابِ حُجْرَتِها وفي صَوْتِها نَبْرَةُ تَفاجُؤٍ:

- تفضَّلي، يا أهلًا.

دخلَت خَلُوب الغُرفةَ المعتِمَة، فلاحظَت أربعَة صِبْيَانٍ نائمين في لِحَافٍ واحِد. وابتعَدَ الشّيخ إلى غرفةٍ مجاورَةٍ، وجلَسَت هي مُرتَبِكَةً على طرف مَرْتَبَة. ثمّ خرَجت الزَّوجَةُ، فنَفَحَت خَلُوبا رَيًّا عطرٍ ذكيّ. كانَ الإمامُ واقِفًا يَخْلَعُ عِمامَتَه داخِلَ غُرْفَتِه، فدخَلَت عَلَيهِ زَوجَتُهُ هامِسَةً بِلُغَةٍ حازِمَة:

- متَى تَرَكْتَ الإمامَةَ وأصْبَحْتَ صاحِب الشُّرَط؟ لِمَ أتَيْتَ بِهَا؟ هل أعْجَبَتْك؟

ولاحظَت تحت الضّوءِ الخَافِتِ نِظْرَته الغاضِبة، وهو يضَع عِمامَتَهُ على المِشْجَبِ المركوز في الحائط عِنْدَ ظهرِه:

- ألاَ تَتْرُكِينَ هذه التُّرَّهات؟

تشبَّثَت المرأةُ بِطَرَفِ جبّته:

- إنّما سألتُ فحسْب! أنت لا ترى امرأةً إلّا أشْفَقْتَ علَيها؟ كأنّما خَلَق الله قلبَك للشَّفَقَةِ عليهنَّ!

ولَمْ يتكلّم الخَطيبي. بَلْ جَلَس، وأخذَ كِتَابًا، وبدأ يَقْرَأ، فيما خرَجت زوجَتُه مُسْرِعَة، ودخلَت على خَلُوب:

- يا أهلًا ومرحبًا.

بدَأت تُعِدُّ الفطورَ في المطْبَخِ القَابع عند طرَف المنزِل المُربَّع. وبدَأ الصِّبْيَانُ يستيقظون وُحْدانًا فاركينَ عيونَهم ناظرينَ إلى خَلُوب بِجِبَاهٍ مُقَطِّبَةٍ مُسْتَطلِعَة. جاءت زوجَةُ الإمام، ودعَت خَلُوبا إلى الطعام في البَهْو المفتوحِ بَيْنَ الغُرَف. فشرَعت تأكلُ باستحياء. ثمّ جاءَ الصِّبْيَةُ، وجلَسوا قُرْبَ أمِّهم، فأخذتْ تَشمُّهُم وتَضُمُّهُم.

كانت خَلُوب تنظُر إلى الأمّ وهي تمسحُ على رؤوس أبنائها، وإلى يدَيها الملْفُوفتَين على أجسادِهم الصَّغيرة مُحاوِلَةً تخيّل مشاعِرها. *ما طبيعةُ الشّعور الّذي ينتابُ الإنسانَ وهو يلمَسُ ابْنًا أو أخْتًا أو أمًّا أو أبًا*. لَمْ تُجرِّبْ شُعورَ الإحساس بالأمومَة ولا بالأخوّة منذ فتَحَتْ عَينَيها على الدّنيا. وكلّ ما تَعْرِفُه هو ما سمِعَتْهُ مِنْ سيّداتها: لقد بِيعتْ هي وأمّها في بغداد، ولَمْ تَسْتَطِعْ أمُّها العَيْشَ فمَاتَت بنيسابور كمدًا عِنْدَ سيّدها أسابيعَ بَعْدَ قُدومها مِنْ بِلاَدِ الرُّوم.

انتزعتْها من شرودها كحَّةُ الإمام وراءها، ثمَّ رأتهُ يخرُج من بابِ منزلِهِ يَلُفُّ عِمَامَتَه. فانتابَها خوفٌ وقلَق. ولاحظَت زوجةُ الإمامِ انقباضَ يدَيْها عَنْ الأكل.

- ما لَكِ؟ كُلِي يَا ابْنَتِي!

اقتَطَعَت خلوب قِطْعَةً مِنْ رغيفٍ، وغَمَسَتْها في العَسَل، ثمّ دسَّتها

في فَمِها ولاكَتْهَا بِهُدوء. *هَلْ أهرب قَبْلَ عَوْدَتِهِ؟ لكِنْ لماذا أهرب؟ وهَلْ سينفَعُني الهَرَب؟ ثمّ إنَّ لَهجَتَهُ كانت تَشي بالصّدق.*

وبعد ساعَةٍ عادَ الإمامُ ضاحكًا ووراءَه رجُلان. اقترَبَا وكحَّ أحدُهما، فتَوَارَت الزَّوجَةُ داخِلَ غُرفَتها. وظلَّت خَلُوب جالِسَة. دخَلَ ثلاثَتُهم حُجْرَة الكُتُبِ. وأطلَّ الإمامُ بِرَأسِه:

- تَعَالَي يا ابْنَتي!

وقفَت مذعورةً وقد أحكمتْ طرَفَ خِمَارِها على وَجْهِها. ثمّ دخلَت تتأمَّلُها الأعينُ المتطلِّعَة تحتَ العمائِم الكبيرة.

- اجلسي!

- نحنُ سنتكفَّلُ بإيصالِك إلى سيِّدِك في شيراز. لكن ينبغي التّحقُّق مِنْ أمْرِكِ أوّلًا. ثمَّةَ قافِلَةٌ ستسيرُ بَعْدَ أيَّام، ولا بدَّ مِنْ تَسْجِيلِ الأمْرِ عِنْدَ القاضي اليَوم وحِفْظِهِ في دِيوانه.

دقَّ قَلْبُها دقًّا قويًّا، وشعُرَت بخَوْفٍ مُريع. *هَلْ أصْدُقُهم القَوْلَ وأطلُبُ العَوْدَةَ إلى سيّدي؟ أمْ أواصِلُ السَّعْيَ للذَّهابِ إلى شيراز؟* ولاحظَ الرِّجالُ الارتبَاكَ الّذي اسْتَولَى علَيها فقال القاضي:

- انزَعي اللِّثام حتّى نَرَاك.. فهذان شاهِدان.

رفعَت يدًا مُرتَعِشَةً إلى نِقَابِها وأزالَتْه. فرأى الرِّجالُ تيْنكَ العَينَين الواسعتَين الزّرقاوَين، والأنْفَ الأقْنَى المُتوسّط، والوَجنتَين البَارِزَتَين، وانتبَه كلٌّ منهُم إلى ذلك الخالِ عِنْدَ نهايةِ الأنْف. فرفَعَ القَاضي الخطيبي قلمَه، ودسَّه في الدَّواة، وقَالَ دُون أنْ يَرْفَعَ بَصَرَهُ إلَيها:

- مَا قِصَّتُكِ؟

فطَفِقَت تَروي قِصَّتَها بالتَّفْصيل. كَيْفَ مرَّت في قَافِلَةٍ قُرْب نيسابور، وكيْفَ ذهبَت لِتَقْضِي حاجتَها، ثُمّ عادَت فَلَمْ تَجِدْ أهلَها. وَخَتَمَ القَاضي

الورقَة، ووقَّع الرَّجُلان الجالِسان المحْضَرَ، وأشار إليها بالعَوْدَة إلى زوجَتِه، فوقَفَت مُتعثِّرةً خائِفَة.

وفي المساءِ جَاء شُرطيَّان، وأخذاها إلى مقرّهم لمقارنة أوْصَافِها بأوْصَافِ جَارِيَةٍ هَربتْ من سيّدها في صبيحة ذاك اليوم. وعِنْدَ انْبِلاجِ فَجْرِ اليَوم الموالي كانَت خَلُوب تَخْرُج مِنْ مَقَرّ الشّرطَة بعد التَّحقيق معَها، واعْتِرافِهَا بكلّ شيء.

كانَت تَمشي بين شُرطيَّين في الشّارع المؤدّي إلى بَيْتِ سيّدها. مشتْ مُشتَّتة الخاطِر مرتبِكَة، تشعرُ بإحساسٍ لا تستطيعُ تَحديدَ ماهيّته. فلا تدري أهي حزينةٌ لِعَوْدَتِها إلى إسَارِ العبوديّة، أمْ سعيدةٌ لِرُجوعِها إلى بَيْتِ سيّدها ونِهاية تَشرُّدِها. لكنّها لا تدري قطْعًا ما الّذي ينتظرُها. فهل سيرسلها سيّدها إلى الوزير أم سيغيّر رأيه؟

وانتشَلَها صوتُ الشّرطيّ السّائِر أمامَها. فوقفَتْ وراءه تتأمّل البابَ الّذي تربّتْ داخِلَه ولا تعرِفُ غيرَه. وأخذ الشّرطيُّ يقرَعه مُتبَرِّمًا عَجِلًا حتّى انْفتَح، وأخْرَج غُلامٌ رأسَهُ من ورائه، فَصَاحَتْ:

- حيدوس!

- خَلُوب! خلُوب!

واندَفَعَت لِتَدْخُلَ فَصَرَخَ الشّرطيّ:

- انتظِري!

ثمّ التَفَتَ إلى الخادِمِ:

- قُلْ لِسَيِّدِكَ أنْ يأتي لأُسَلِّمَهُ الجَارِيَة.

ولم تَمضِ لحظاتٌ حتّى ظهرَت جُبَّةُ الأحوَل. فرمَى خَلُوبًا بِنظراتٍ من طَرَفَيْ عينَيه، وتجنّب النَّظَرَ إلَيها مباشرةً، فتَنَحْنَحَ الشّرطيّ:

- هذهِ جارِيتُك. نُعيدها إليك بِحُكْمٍ من قاضي نيسابور بَعْدَ أنْ طابَقَت صِفَاتُها صِفَاتِ جاريةٍ طَلَبْتَ البَحْثَ عَنْها. اخْتِم هذه الورقَة بِتَسَلُّمِها.

دخَلَ الأحوَل، وعادَ بدواةٍ وقلَم، وكتَبَ اعْتِرافًا بالتَّسَلُّم. وانْدَفَعَت خَلُوب إلى داخل الدَّار وعينَاها تَتَفَرَّسَانِ وجه سيّدها مُحاولَةً فَهْمَ ما ينتظِرُها.

15

نيسابور، 484 هـ.

نزَلَ إلى الشّارِعِ الصَّاخِبِ مُفكّرًا. كانت صورَةُ سَمْنُون غيرَ بعيدَةٍ مِن ذِهنِه طوال مدّة هُجوعِه. هامَتهُ الضّخمة وشفَته المشقوقَة وأنفه الغَليظ ومُرَقَّعَتهُ الدَّاكِنَة. تذكَّرَ يَوْمَ طَرَقَ عَليه البابَ في سَكَنِهِ بالنّظاميّةِ وطلَبَ مِنْهُ الخُروجَ معَهُ إلى باحَةِ المسجِد. وكان سَمْنُون هادئًا كعادَته، ذاويَ الشّفتَين مُرهَقًا رغمَ جِسْمِه القويّ، وعينَاه طافحِتَين بأمْرٍ يَودُّ أن يقولَه. خرَجا إلى الباحَة، فاستَنَدَ سَمْنُون إلى طرَفِ الحائط، وسألَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِقْهيَّة في المواريث. وكان الغزالي يُدرك أنَّه استدعاهُ لأمرٍ آخرَ ثمّ عَدَلَ عَن مُفاتحَتِه فيه.

انتابَه ضيقٌ وهو يتساءلُ كيفَ يُمكن لإنسانٍ أن يَدُسَّ سكّينًا في قَلْبِ سَمْنُون. تنازَعَتْهُ الخواطِرُ وهو يملأ عَينَيه مِن الشّرُفاتِ الحجريَّةِ المطلَّةِ على سكّة مهيار ويردُّ التّحيَّةَ لأصْحَابِ الدّكاكين.

- صبخير!

- صبخير!

في هذا الجزءِ مِن السكّة تختلِطُ دكاكين العطّارين بمحلّات الحجّامين والصيرفيِّين والبزّازين، ويكثرُ الصَّخبُ. تأمَّل الوجوهَ العابرة المتشاكِسة، ما بين أنوفٍ صينيَّةٍ وأخرى تُركيَّةٍ وخزَريّة وهنديّةٍ وعربيّة. خُيِّلَ إليه أنّ نَيسابور تُشبِه ما ذُكرَ لَهُ عن بغداد في اختلاف السُّحَن وتقاسيمِ الوجوه. وفكّر في أنَّ مَنَابِتَ النّاس تُقاسُ بالأنوفِ والعُيون لا بالألوان.

زحفَت الشّمس من وراء البِنَايات الحجريَّة، واضطرَبَتْ حَنايا شارعِ مِهيار بالغادينَ والرَّائحين، وارتفَعت أصواتُ البَاعَة والمشتَرين. وصَلَ إلى سكَّة مَعقل فسلكها يَسارًا حتّى أسلَمَتْهُ إلى ساحَة الطّاق. وهناك لَمَحَ عُبَيدًا الموسوس جالِسًا مَجْلِسَه المعتادَ أمامَ مَكْتبَةِ البَيْهَقِيّ في الجِهة المقابِلَة لخان الطّاووس. ولمَحَ محمودًا الخبَّاز جالِسًا أمام مَخْبَزِهِ ورأسُه الصّغير يكادُ يتوارَى بَين كَتِفَيه. كانَت يداهُ القويَّتان تستقرّان على رُكْبَتيه، ورأسُه يدورُ مُتأمّلًا الحركةَ في ساحَة الطّاق. ألْقَى الغزاليّ التّحيَّةَ على محَمود، فأجابه:

- أستاذ!

- كيفَ حالُك يا محمود؟

قامَ بِصعوبَةٍ، فتلقَّاهُ الغزاليّ بنظراتٍ مُتطلِّعَةٍ إلى داخِل المخبَزِ. واقترَب محمود فاتِحًا ذراعَيه ورأسُه يكادُ يختَفي بَين مِنْكَبَيه:

- حالُ مَن أتعبَهُ أصحابُ الحِسْبَة... جاؤوني وما تَرَكوا شَرْطًا إلّا ألزَمُوني بِه.

تصافَحا، وانتزَع كلٌّ مِنْهُما يدَه مُفكّرًا في مَلْمَسِ كفِّ الآخَر. شعُرَ الغزاليّ بأنّهُ لمسَ ظَهْرَ سُلَحفَاةٍ، وتذكَّر محَمود مَلْمَسَ أنامِلِ رضيع. ثمّ مشَيا إلى المَدْخَل والغزاليّ يقول:

- وبِمَ ألزموك؟

وحالما دخلا المخبَز، شَعُرَ الغزاليّ بدفءِ المكانِ ورائحةِ الخُبز الطَّريّ. وسافَرَت عينَاه تتأمَّلانِ ذلِك الرُّكنَ في طرَفِ المخبَزِ، كان يقعُ قُبَيْلَ الدّهليز المؤدِّي إلى الفُرن حيثُ رأى ابنةَ محمود مرَّاتٍ مِن قَبْل. تذكَّرَ عَينَيها العسَلِيَّتَين، وأنفَها الدَّقيق، وذقنَها المرسُومَ، ونظراتِها السّخيَّة... وتذكَّر قوامَها الرشيق. فشعُرَ بضيقٍ وهو يكبَحُ أفكارَه ومشاعِرَه. لكنّ الخبّاز ربَّتَ على كتفِه، ومدّ إليه مِن فوق النّضد ورقَةً، فانتشلَها وبدأ يقرَأ شروطَ أصحاب الحسبة:

- لا يعمَلُ عامِلٌ إلّا بقناع.
- لا يَخبِزُ الخُبْزَ خبّازٌ إلّا وهو مَحْلُوق شَعْرِ الذِّراعَين.
- لا يَخْبِزُ خابِزٌ دون غَسْلِ يدَيه بالأشْنَان.
- إنْ وُجدَت شَعْرَةٌ في رغيفٍ يُغلَقُ الدّكّان أسبوعًا.

وطوَى الورقَة، فقالَ محمودُ مُتنفّسًا والعرَقُ يسيلُ مِن صَلْعَتِه الملسَاء:

- كأنّي أخبِزُ لأميرِ المؤمنين في بغداد!

ثمّ نظرَ إلى الغزاليّ، وأخذ يتأمّل تلك الرُّباعيّة الأقصَرَ مِن باقي أسنانِه:

- ثمّ إنّ هذا الخُبزَ لا يأكلُه نِظامُ المُلْك، بل يأكلُه المُكارُون والكنّاسونَ وعبيدُ الموسوس، ورأس الديك!
- هل خصّوكَ بأمرٍ دُون النّاس؟ لعلَّ هذه شروطُ القَوْمِ فَتَحَمَّلْها.

لَمْ يَنْبِس محمود، فقال له الغزاليّ مواسيًا:

- إذا عادوا إليكَ فنادِني، ولو كنتُ وسطَ الحَلقة، لأرى أمرَهُم.

وانطلَق لِسانُ محمود بالفارسيّة:

- خيلي ممنونم!

ترَكَ الغزاليّ المخبزَ، واتّجه شمالًا قاطعًا السّاحةَ المكتظّة. فلاحَت لهُ منارَة المسجِد ذات الحجارة الملسَاء، والتَفَتَ يسارًا مُتأمّلًا مدخَل مَكْتَبَةِ البَيْهَقِيّ. فارتعد وهو يفكّر في لحظَة مُفاتحَة الرَّجُلِ ذي الشّامَة داخل المكتَبة. لمحَ عُبَيدًا مُتربّعًا على الكيس في طرَف السّاحة، فحيَّاه. فرفع عُبَيد يدَهُ:

- إلى أين يا أبا حامِد؟

أشار أبو حامِد بيدِه جهةَ باب المكتَبة ولَمْ يتكلَّم، إذ كان ذِهنه مشحونًا بما ينتظرُه وراء جُدرانِها. رفَعَ وجهَه في باب المكتبَة الحديديّ الموصَد، ومدخلِها الصّخريّ المزركَش بنحوتِ السِّباعِ والصُّقورِ، فانقبَضَ قَلْبُه. لماذا أُغلقَتِ المكتبَةُ واليومَ يومُ أربَعاء؟

التفَتَ فوجدَ عُبَيدًا يضحَكُ:

- قُلتُ لكَ إنّها موصدَة... لكنّكَ مَشغولُ الخاطِر!

علَت الحُمرَةُ وجنَتَيْه، وضمَّ جُبّتَهُ وهو يفكّر في أسبابِ إغلاقِها، فجاءَهُ صَوْتُ عُبَيد:

- ينظّفونها اليَوم، لكنَّهُم يَفْتَحُونَها غدًا.

وبعد قليلٍ وجد نفسه عند باب النّظاميّة فبادرَه الحارِس:

- أستاد! بفرماييد!

تجاوَزَ العتبَة فلمَحَ عشراتِ العَمَائم خاشِعَةً تَنْتَظِرُه. كان الطلّابُ جُلوسًا على مراتِبَ مُربّعةٍ يتوسَّطُها كرسيٌّ مُرتَفِع. ولمّا اقتربَ قاموا، فمَشى مُغتبِطًا بخطواتٍ هادئةٍ ونَفْسٍ مُنشرحة. وجلَسَ على الكرسيّ، ففاحَ الطّيبُ مِن جبّتِه الفاخِرة. بَسْمَلَ، ثمّ تلفَّتَ مُتفحّصًا عيونَ طلّابِه:

- توقَّفنا أمس عِند الرُّكنِ الثّالث مِن أركان الحُكم، وهو المحكومُ علَيه، أي المكلَّفُ المخاطبُ بالأحكام. وشرطُهُ أن يكونَ عاقِلًا يفهَم الخِطاب، فلا يصحُّ خطابُ الجَمادِ والبهيمة، ولا خطابُ المجنونِ والصَّبيّ الّذي لا يُميِّزُ، لأنّ التّكليفَ مُقتضاهُ الطّاعَةُ والامتِثال، ولا يُمكِنُ ذلك إلَّا بِقَصْدِ الامتِثال. وشرطُ القَصْدِ العِلْمُ بالمقصودِ والفَهْمُ للتّكليفِ، فكلُّ خطابٍ مُتضمِّنٌ للأمرِ بالفَهم، فَمَن لا يفهَمُ كَيْفَ يُقالُ لَهُ افْهَم؟ ومَن لا يَسْمَعُ الصّوتَ كالجمادِ كيف يُكلَّمُ؟ وإن سَمِعَ الصّوتَ كالبهيمَة ولكنَّه لا يَفْهَمُ، فهو كمَن لا يسمَعُ. ومَن يسمَعُ وقَد يَفْهَمُ فَهمًا مّا لكنَّهُ لا يَعْقِلُ ولا يثبتُ كالمجنون وغير المميِّز فمُخاطبَته ممكِنَةٌ، لكنَّ اقتضاءَ الامتِثال مِنْهُ -مع أنّه لا يصحُّ مِنه قَصْدٌ صحيح- غيرُ ممكِن.

رفعَ طالِبٌ قصيرٌ يدَه:

- لكنَّنا نرى أمورًا تجِبُ على الصِّبيانِ كالغَراماتِ والزّكاة، وهم غَيْرُ مُخاطَبين!

ابتسَمَ الغزالي فظهرَت رُباعيّتُهُ القصيرةُ، ورفعَ سبّابته ومسَحَ بها طرَف شفته:

- لَيْسَ ذلِك مِن التّكليفِ في شيء، إذ يستحيلُ التّكليفُ بِفِعْلِ الغَيْر. إذْ تَجِبُ الدّيَّةُ على العاقِلَة لا بِمَعنى أنَّهم مُكلَّفون بِفِعْلِ الغَير ولكن بِمَعنى أنّ فِعْلَ الغَيْرِ سَبَبٌ لِثبوتِ الغُرْمِ في ذمَّتِهم فكذلك الإتلافُ. ومُلْكُ النِّصابِ سببٌ لِثُبوتِ هذه الحُقوقِ في ذمَّة الصِّبيان، بمعنَى أنّه سببٌ لخطابِ الوليِّ بالأداء في الحال، وسببٌ لخطابِ الصّبيّ بَعْدَ البُلوغ، وذلك غيْرُ مُحَال، إنّما المُحالُ أن يقالَ لمن لا يَفْهَمُ: «اِفهمْ»، وأن يُخاطَب مَن لا يَسمَعُ ولا يَعقِل.

كان يتحدّث والأعين شاخصَةٌ إليه، والأقلامُ ترقُصُ على الأوراق بِما يَقول، وأصواتُ الحَمام الغرِدِ تأتي مِن الشّجيرات الموزّعَة في أطراف الحائط الواسِع.

- وأمَّا أهليَّةُ ثُبوتِ الأحكام في الذِّمَّة فمُستفادٌ مِنَ الإنسانيّة الّتي بها يستعدُّ لِقَبُولِ قوَّةِ العَقْلِ الّذي به فهِم التّكليفُ في ثاني الحَال، حتّى إنّ البهيمةَ لمّا لَمْ تكُن لَها أهليّةُ فَهْمِ الخِطابِ بالفِعل ولا بالقوَّة لَم تتهيَّأ لإضافَة الحُكمِ إلى ذمَّتها. والشّرط لا بُدَّ أن يكونَ حاصِلًا أو مُمكنًا أن يحصُل على القُرْبِ؛ فيُقال: إنَّه موجودٌ بالقوَّة، كما أنَّ شَرْطَ التَّملُّكِ الإنسانيّةُ، وشرطَ الإنسانيّةِ الحياة. والنُّطفَة في الرَّحِم قد يَثْبُتُ لها المِلْكُ بالإرث والوصيَّة، والحياةُ غير موجودةٍ بالفِعْل ولكنَّها بالقُوَّة إذْ مصيرُها إلى الحياة؛ فكذلِك الصَّبيُّ مصيرُه إلى العَقْلِ فَصَلُحَ لإضافَةِ الحُكْمِ إلى ذِمَّتِه ولم يَصْلُح للتَّكليفِ في الحال.

طالَ الدَّرسُ، وتفنَّن الغزاليّ في التّفريعاتِ العَقْليَّةِ والأصوليّة، فتسلَّلَ التَّعبُ إلى بَعْضِ الطَّلَبَة، وفجأةً شاهد الجميعُ عُبيدًا الموسوسَ قادِمًا يركُض مِن جَهَةِ الباب. اقترَبَ لاهثًا ووقَفَ على الحلَقة، وقال مقطِّبًا جبينَه رافِعًا صوتَه:

- يا أستاذ، هل تعلمونَ أنّ الخُرْءَ حُلْوٌ!

انكتَمَت الضّحكاتُ في أطراف الحلَقة، وغطَّى الطلّاب أفواهَهم بأطرافِ عمائِمِهم، واتَّجهَت أبصارُهم إلى الغزاليّ الذي تورّدَت وَجْنَتَاهُ، وقال:

- يا عُبَيد!

خفَّ لُهاثُ عُبَيد، وقال مندفعًا:

- رأيتُ الذُّبابَ يسقُط على النّبيذِ الحُلْوِ، ولا يسقُطُ على الحازِر، ويقَعُ على العَسَلِ ولا يَقَعُ على الخَلّ، ثمّ رأيتُه أكثَرَ حُبًّا للخُرْءِ مِن التَّمر. أفتريدونَ حجَّةً أوضحَ مِنْ هذه؟

رفَعَ الغزاليّ طرَفَ عِمامَتِه مُدارِيًا ضِحْكَةً، لكنَّهُ لَمْ يَسْتَطِع فانفجَرَ ضاحِكًا. وكأنّ ضحْكَتَهُ كانَت إذْنًا للطلّاب فضجتْ الحلقَةُ. وأشارَ الغزاليّ بيدِه إلى أحَدِهم كي يُنادي الحارسَ لِيُخرِجَ عُبَيدًا.

عاد المجلِسُ إلى هُدوئه. ورجعَت إلى الغزاليّ نفسُه، وهو يتذكرُ نصًّا في كتابِ «الحيوان» للجاحظ مُطابِقًا لما قال عُبَيد. فخطَرَ لَهُ أنّ عُبَيْدًا ربَّما قرأ ذلك النّصّ قَبْلَ جنونه فَعَلِقَ بذاكِرَتِه. ثمّ عاد وقطّب جبينَه وذِهنُه يجولُ في وصيّة سَمْنُون الّتي سيطَّلِعُ عليها غدًا.

خرَج عُبَيد من باب النّظاميّة مُسرعًا، واتّجه إلى قَبْرِ الوليّ أحمد النَيسابوري. سيأخُذ الأوراقَ الّتي يرميها النّاس عِند رأس الوليّ طالبينَ قضاءَ حوائجِهم. فقد كانت تلك الوُرَيقَات وسيلَتَهُ الأهمَّ لِفَهْمِ كلِّ ما يدورُ في نَيسابور.

16

نيسابور، 484 هـ.

لَعِبَت الرّياح الرّبيعيّة بالنّوافذ المطلَّةِ على ساحة الطّاق، فتحرّكت السّتائرُ والنّوافذ، وهبَّت رائحةُ الخبز الطّريّ مِن مَخْبَزِ محمود الخبّاز. قَطَعَ الغزاليّ السّاحةَ المربّعة الواسِعة في اتّجاه جانبِها الغربيّ. وتجاوزَ عُبَيْدًا الموسوسَ الجالِسَ تحت شجرة السّرْو. ابتسمَ مُراوِحًا النّظرَ بين عُبَيد وباب المكْتبَةِ لِيَتَأكَّد مِنْ أنَّهُ مَفْتُوح. ثمّ نَظَرَ إلى الباب الحديديّ المُشْرَعِ، والمدخَلِ الصّخريّ المزركَشِ بالنُّحوتِ. ودخَلَ بِقَلْبٍ خافِقٍ مُفكّرًا في طبيعَة الوصيّة الّتي تنتظرُهُ. فتَلَقَّفَتْهُ رائحةُ الكُتُبِ الورقيَّةِ المخلوطَة برائحَة الجُلود والغُبار. صعد السُّلَّمَ قاصِدًا الكُتْبيِّين. وحالما دخل القاعةَ تلقَّاهُ أمينُ المكتبَةِ الشّيخ حاجي مُتهلّلًا:

- الأستاذ!

طوَى الغزاليّ طرَف دُرَّاعَتِه تحت إبطه، ورفَع رأسَه:

- يا أهلًا، شما خوبي؟

كانَ الارتباكُ بيِّنًا في نَبْرَته وفي خَلْطِه بين العربيّة والفارسيّة. فلا يدري هل يسألُ عَنِ الرَّجُلِ الّذي لا يعرِفُ اسْمَهُ، أمْ يَتَظاهرُ بالبَحْثِ عن كِتَابٍ حتّى يَراهُ فَيُكلِّمَهُ. وزادَ مِن توتُّرِهِ سؤالُ حاجي:

- هل تُريدونَ استعارَةَ كِتَاب؟ يُمكنني تيسيرُ ذلك مع أنَّ اليومَ خَميس.

- نَعَم، أريدُ كِتَابًا، لكنّي أودُّ التردّد في جَنَباتِ المكْتَبَةِ أوّلًا. فمَنْظَرُ الكُتُبِ يَشْرَحُ النُّفوسَ ويَجلُو الأبصَار.

وابتسَم حاجي مُشيرًا إلى الأستاذ بالتَّقدُّم.

كانَت المكتبَةُ مُكوَّنَةً مِن صفوفٍ طويلَةٍ مرصوصَةٍ على رفوفٍ خشبيَّة. مشَى بَين الرُّفوف، وعينُه لا تبحَثُ إلّا عَن ذلِك الرَّجُلِ صاحِب الشّامة. يذكُرُ جيِّدًا أنّهُ رآه مِرارًا، لكنَّهُ لَمْ يُكلِّمْهُ قطُّ. وفجأةً اصطدَمَ عِنْدَ مُنعرَج أحَدِ الرُّفوفِ بِشَخْص. فرفَع وجهَه مُعتذِرًا إليه فإذا هو أحَدُ الفرَّاشين.

خطَرَ له أن يترُكَ البَحْثَ عَن الرَّجُل، فهو أيضًا يَبْحَثُ عَنْه. والأفضَلُ أن يأخُذَ كتابًا ويجلِسَ بمكانٍ في المكتبَةِ حتّى يراه فيأتيَ إلَيه. استحسَنَ الفِكْرَة، وتأمَّلَ الكِتَابَ الّذي بَين يدَيه فوجدَه بِعنوان: تاريخ سَمَرْقَند. فأخذَه ومشَى حتّى نهايةِ الرّفّ، وجلَس على مَرْتَبَةٍ في الرُّكنِ وبَدأ يَقْرَأ.

لم تكن الأحرُفُ تَعني لَهُ شيئًا. فذِهْنُه مشغولٌ بالانتظار، وأذنُه مُصيخَةٌ لأيِّ نأمة. ولَمْ يَطُل انتظارُه، إذ ظهرَ خَيالٌ وراء ظهرِه. وسَمِعَه يقول:

- الأستاذ؟

حرّكَ الغزاليّ رأسَه دون أن يلتفِتَ. كان كثيرًا ما يسمَعُ عن كثرة التّنظيمات السرّيّة في نَيسابور ومُدن خُراسان كلّها. وها هو يَشْعُرُ اليَومَ بالاقترابِ مِن ذلك العالَمِ الّذي كان يَظنُّهُ أحيانًا محْضَ خَيال. *وإلّا لمِ يُقتَل ذلك الصُّوفيُّ سَمْنُون؟ ولِمَ يَتْرُك وصيَّةً عِنْدَ هذا الرَّجُلِ الغريب ذي الشّامَة؟ ولِمَ كلّ هذا؟ ولِمَ لمْ يَحمِلِ الرَّجُلُ الكِتَابَ إليه في حَلَقتِهِ ويُسلِّمُهُ إيّاه؟*

تجاوزَ الرّجلُ الغزاليَّ صامِتًا، فازدادَ قَلَقُهُ وتوتُّرُهُ. *ما سِرُّ كلّ هذا التَّحرُّج؟ ما أسبابُ هذا الخَوف؟* وممّا زادَ في توتُّرِهِ اكتظاظُ المكتبَةِ بالنّاس. فاليَوْمَ خميس، وهو مِنْ أيّام المطالَعَة، لا مِنْ أيّام الإعارَة. فحيثُما الْتفَتَ لَمَحَ ناسًا جالِسينَ يُقلِّبونَ كُتُبًا. خُيِّلَ إليه أنّ كلَّ العُيونِ تَفْتَرِسُه، وتتساءلُ عَن سَبَبِ وجوده. أَلَيْسَ في مَدْرَسَةِ النّظاميّة ما يكفي مِن الكُتُب؟ ألا يَستطيعُ الغزاليّ إرسالَ أحَدِ الطلّاب لإحضارِ مَا شاء؟

ولاحَت لَهُ جُبَّةُ الرَّجُلِ عائدًا مِن وراء الرُّفوفِ المستطيلَة. وقد وضَعَ كِتابًا صغيرًا بَين يدَيْه، وقَالَ مُتَلَفِّتًا:

- أعطاني إيَّاهُ الشّيخ قَبْل ما وقع بأسبوع، وأخذ عليّ عهدًا ألّا أفتحَه ولا أسَلِّمَهُ إلّا إليَك، ولا أخْرِجَهُ مِن مَخبئِهِ بالمكْتبَة.

دسّ الغزاليّ الكِتَابَ تَحْتَ إبطه، وتوجّه إلى الشّيخ حاجي. اقترَب مِنْهُ ملوّحًا بيدِه:

- هذا كتابُ تاريخ سَمَرْقَند.

حيّاه حاجي مُشيرًا إلى أحد الكُتبيّين بأن يكتبَ اسْمَ الكِتاب واسمَ المستَعير، وذكّر الغزاليّ بأنَّهُ يُعيرُه إيّاه رغم مَنْعِ الإعارَة اليَوم. فلَمْ يشكرهُ لانشغالِ ذهنه، بَل ابتسَم ابتسامَةَ مَن يُريدُ الانفكاكَ حالًا. وضعَ رِجْلَهُ خارجَ المكتبَة وَجِلًا، وذَرَعَ السّاحَةَ عجلًا وهو يبحث عَن الزّقاق المؤدّي إلى بَيْتِه وعقلُه مشغولٌ بما في الكِتاب. *هل ثمَّةَ ورقَةٌ مدسوسَةٌ داخلَه تتضَمَّنُ وصيَّةً مّا؟ وما سرُّ خَوْفِ ذي الشّامَة مِن ذِكْرِ اسْمِهِ؟*

لَمْ يُفِق إلّا وهو عِنْدَ باب بَيْتِه. أدخَل المفتاحَ بيَدٍ مُرتعشَة، ثمّ تجاوزَ العَتبة وصكَّ البابَ وراءه، فجاءهُ صوتُ النبهاني مُرحِّبًا. صعَدَ السُّلَّم، ودخَل غرفةَ كُتُبِه، ووضَع الكِتابَ على الطّاولَة، وبدأ يتأمّلُهُ وهو واقِفٌ. كِتَابٌ جِلديٌّ صغير، مكتوبٌ بأحرفٍ أنيقَةٍ بقلَمٍ كوفيّ. قعَدَ على الكرسيّ، ووضعَه بين يدَيه وبَدَأ يقرَأ.

دفائن الخبائث
تأليف
مَمْنُون أحمد بن الحسين البغداديّ

«**الحَمْدُ لله ساتِر العُيوب ومُظْهِرها، وكاشفِ الكُروب والممتحِن بها. والصّلاة والسّلامُ على سيِّدنا مُحمّد المبعوثِ بالشّريعَة الحنيفَة، المنزّهَةِ عَنِ**

البِدَعِ الشّنيعَة. وبعد، فأصِخ سَمْعَك إليّ أيّها الأخُ المسلِمُ المشفِق، سقاكَ الله مِن رَحْمَاتِه كلّ هَتُون، وختَمَ لَكَ بالسَّعادَة عِنْدَ المنُون، لأُسمِعَكَ خَبري وأبثّك عُجَري وبُجَري.

فإنّي قاصٌّ عليكَ -أبقاك الله للخيرَات- ما جَرَى لي مِن دَواءٍ تَشيبُ لها الوِلدان، وما تقحَّمْتُ من أخطارٍ عَصَمَ منها الرحمن، وراوٍ لكَ ما تولّجتُ مِن مداخِلَ دقيقَة، وما تنسَّمتُ من قُلَلٍ بحثًا عن الحقيقة. فوالله الّذي لا إلهَ غيرُه لَوْ لَمْ أكن شاهدتُ وشهِدت، ورأيتُ رأيَ العَيْنِ لمَاَ صدّقتُ ما رأيت، ولا توهَّمتُ وقوعَ ما حَكَيت.

كان الغزاليّ يقرأ وعيناه تتّسِعَان، وأنامِلُه تحكُّ جَبْهَتَهُ حَكَّةً خفيفَة، وفمُه يفترّ عَنْ أسنانِه. أحسّ بحرارةٍ وتَعَرُّق، فنزَع عِمَامَتَهُ، ووضعَها على طرف الطّاولة وهو يخشى أن يدخُلَ عَليه النبهانيّ فيجِدَهُ يقرأ الكِتَاب.

وضعَ الكِتابَ، وأغلَقَ بابَ حُجْرَتِه لِيتأكّد مِنْ أنّه لَنْ يدخُل عليه إلّا مُستأذِنًا. ثمّ واصَلَ القراءة:

«لَقَدْ كُنْتُ في أيّام الشّباب أتقحَّمُ كلّ مُقْتَحَمٍ بحثًا عن الحقّ، وتوقًا إلى إصلاحِ ما انفتَق مِن شريعَةِ أفضَلِ الخَلْق. لَمْ أترُك بابًا إلّا قرعتُه، ولا مَذْهَبًا إلّا وَلجْتُه، ولا مَستورًا إلّا أظهرتُه، ولا ظاهِرًا إلّا خبِرتُه. فأنا كما قالَ الأوّلُ قَدْ «لابَسْتُ السّلاطينَ والمساكين، وخدَمْتُ الخُلفاءَ والمُكدّين، وخالَطتُ النُّسَّاكَ والفُتّاك، وعمرتُ السُّجونَ كما عمرتُ مجالِس الذِّكر، وحلَبتُ الدّهرَ أشطُرَه، وصادفتُ دهرًا كثيرَ الأعاجيب. فَلَوْلاَ أنّي دخلتُ مِن كلّ باب، وجرَيتُ مع كلّ ريح، وعرفتُ السّرّاءَ والضّرّاء لما كتبتُ لَكَ ما كتبتُ.

سَلْ عنّي صعاليكَ الجَبَل، وزواقيلَ الشّام، ورؤوسَ الأكراد، ومَرَدَةَ الأعراب، ولُصوصَ بغداد. وسَلْ عنّي المتشبّهةَ وذبّاحي الجزيرة، وخنّاقي

نَيسابور. سلْهمْ كيفَ بَطْشي ساعَة البَطْش، وكيفَ حِيلَتي ساعةَ الحيلَة، وكيف أنا عِنْدَ الجَوْلَة، وكيفَ ثباتُ جَناني عِنْدَ رؤيةِ الطّليعَة، وكيفَ يقظَتي إذا كنتُ ربيئة، وكيف كلامي عند السّلطان إذا أُخِذت، وكيف صبري إذا جُلِدت، وكيف قلَّةُ ضجَري إذا حُبِست، وكيف مشيي في القَيْدِ إذا أثقلْت. فَكَمْ مِن حائطٍ قَدْ نَقَبْتُه، وكَمْ مِن مُطبِقٍ قد أفضيتُه، وكم مِن سجنٍ قَد كابَدتُه»».

كان الغزالي كلَّما أنهى صفحَةً أحسّ بفروة رأسِه تتقشَّرُ. فالكِتابُ يشرَح قصّةَ انتظامِ سَمْنُون في سِلْك الإسماعيليّة ويكشِفُ عقائدَهُم السرِّيَّة ويصفُ أحوالَهم. ويكشِفُ أسماءَ بعض دُعاتِهم المستَترينَ في بغداد وأصفَهان ونَيسابور.

كان يقرأ أسماء دُعاة الباطنيّة المسترين في نَيسابور وأصابِعُهُ ترتَجِف. وضعَ الكِتاب، ومشى إلى شُرفَة بَيْتِه. وتذكَّر وجهيْ أستاذَين مِن أساتذة النّظاميّة يُثبِتُ الكِتابُ أنّهما إسماعيليّان. ولاحَ لَهُ وجهُ المرأة المِعطارَة المتَّهمَة بالبغاء مُتسائلًا كيف تكون داعيةً باطنيّة؟

خُيِّلَ إليه أنّ العالَمَ منقَلِبٌ يَمشي على رأسه، وأنّ الأرض عَلَتِ السّماء، وأنّ البِحَارَ تستَقي مِن الرّكايا، والسّماءَ تستقبلُ المطَرَ مِن أقنية الرّيّ في نَيسابور. رأى وجوهَ النّاس أقنعةً وضحكاتِهم أفواهًا مفتوحةً للافتراس. ثمّ أسنَدَ يدَه إلى الشّرفة، وراحَ يتأمّل الشّارع. فخُيِّل إليه أنّ المارّة سِربٌ من الضِّبَاع يلتحِفون ملابِس الآدميّين.

تذكّر ورقةً وضعها الشّيخ سَمْنُون في آخر الكِتاب، وفيها طلب مِنْهُ السَّعيَ في حربِهم وإبلاغ السّلاطين أمْرَهم حتّى يتداركوا الإسلام. فاجتَاحَتْهُ رغبَةٌ عارمَةٌ في الخروج إلى الشّارع شاهِرًا سيفَه لِيُبيدَ الباطنيّة.

ترَكَ الشّرفةَ عائدًا إلى وسط غُرفته. فتَحَ الكِتاب، وبدأ يبحث عن فقرةٍ

تشرَحُ مَراتِب دعوَةِ الفَرْدِ، وكيْفَ يتدرّجونَ إلَيه حتّى لا ينكشِفَ أمرُهم إن لَمْ يَرْضَ المدعوُّ بدَعوتِهم. أعاد قراءتها:

«ومراحِلُ دعوَةِ الإنسان ليُوقِعُوهُ في شَرَكِهِم تِسع، ولكلّ مرتَبةٍ اسمٌ وهي: التفرّسُ، ثمّ التأنيسُ، ثمّ التّشكيكُ، ثمّ التّعليقُ، ثمّ الرَّبطُ، ثمّ التّدليسُ، ثمّ التّلبيسُ، ثمّ الخَلْعُ، ثمّ السَّلخ»!

وشخصَت في ذِهنه صورَةُ الرَّجُلِ الّذي لازمَهُ سنَةً كاملَةً يتودَّدُ إليه أوّلَ ما جاء إلى نَيسابور. *هل كان مِنهم؟ كان يستأنِسُني؟ أكان يرمي إلى جعلي إسماعيليًّا وضمّي إلى الباطنيّة*. غَشِيَهُ خَوْف، وتلفّتَ فَلَم يَرَ غير جدرانِ بَيْتِه الطّويلة، وسمِعَ صَوْتَ النبهانيّ يترنَّمُ بأبياتٍ مِنْ بَعيد. *من يدري؟ هل يكون صديقي ومُساكِني منهم؟*

قلّبَ بَصرَه في فضاء غرفَتِه حائرًا، مُتأمّلًا السّقوف، والسّتائرَ الملوَّنَة والنّوافذَ الصَّمّاء. ثمّ نظرَ إلى الكِتاب مُفكّرًا: أين يُخفيه حتّى يُرْسِلَهُ إلى نِظامِ المُلْك؟ فهو وَحْدَه مَنْ سيُقدّر هذا الكِتاب. وتذكّر حوارَه معه وحديثَه الحارِقَ عَنِ الباطنيّة وتهديدِها الإسلام.

لكِنْ، كَيْفَ أرسِلُه؟ ففي الكِتاب أسماء بعض الباطنّية المستَترين، وإرسالُه مُخاطَرَةٌ. لا يُمكن أن يحمِلَهُ إلى نِظامُ المُلْك غيري. هل أخفيهِ حتّى يأتي أمْرُ الوزير بسفَري إلى بغداد، أم أذهَبُ إلى أصفَهان الآن لإشعارِه بالأمر؟

لفّ الكتابَ في خِرْقَةٍ، ودسَّهُ في طرَفٍ قصيٍّ بين الكُتُب، وقرَّرَ التّوجّه إلى أصفهان مع أوّلِ قافلَةٍ للقاء نظام الملك. *وماذا لو هُجِمَ على القافلة وفُتّشتُ فوَجَدَ الباطنّيةُ الكِتابَ مَعي؟*

ثمّ أفاقَ على نفسه غارقًا في العرق.. لكنّه ذاهب لا محالة.

17

أصفهان، 484 هـ.

تفقَّدَ الغزاليّ عِمامَتَهُ، وسرّح لِحْيَتَه بأصابِعِه، وهو يدخُل قصرَ الوزيرِ شمالَ أصفَهان.

قادهُ أحدُ الخَدَم في ممرّاتٍ واسعَةٍ تحت أقواسٍ حجريّةٍ وبين حدائقَ بهيجَةٍ ونوافيرَ رقراقَة. انفتَح بابٌ فلمَحَ الوزيرَ جالِسًا وهو يقول:

- الأستاذ! أهلًا وسهلًا بأبي حامد!

تعانَقا، ثمّ أشارَ الوزيرُ إلى رجلٍ كان معه:

- هذا ابْنِي فَخْرُ المُلْك!

لاحظَ الغزاليّ ضِيقَ المجلِس وتواضُع أثاثِه؛ مراتِبُ مغطّاةٌ بقماشٍ أصفهانيٍّ مختلِفِ الألوان، وجُدُرٌ عاريَةٌ مِن التّصاويرِ والمنحوتات، وسُفْرَةٌ بَين يدَي الوزير عليها فواكِهُ.

مدّ الوزيرُ يدَه، وأخذَ نصف رمّانة، وناول الغزاليّ إيّاها:

- علمتُ أنّكَ مُسافرٌ إلى بغداد!

رفَع الغزاليّ يدَهُ، وقبَضَ لِحْيَتَهُ لِيُواري ارتبَاكَهُ وهو ينظرُ إلى فَخْرِ الملك، ثمّ أعادَ نظرَه إلى الوزير:

- نَعَم، قلتُ لأهل نَيسابور إنّي ذاهِبٌ إلى بغداد حتّى لا يَعرِفُوا وِجْهَتي. وإلّا ما كان لي التوجُّهُ إلى بغداد قَبْلَ أمْرِكُم.

- كنتُ سأرسلُ لكَ بالتوجّه إليها بعدَ شهرٍ لِتَبدأ التّدريسَ في النّظاميّة.

- أعلَمُ ذلك، لكنّ أمورًا حدثتْ كان عليَّ إطلاعُ جنابه عليها.

نفضَ الوزيرُ يدَه وهو يَلْمَحُ الجِدَّ في عينَي الغزالي. ثمّ أشار إلى ابنه فَخْر الملك بالانصِراف، وقال:

- أحسَنَ الله عزاءك في الطّالب الذّكيّ الّذي كان في حَلقَتِك.. محمود الطّابرانيّ!

- رحِمَه الله، وأبْقَى الوزير!

مالَ الغزاليّ بجسمِه المنهَكِ على الجدار مُستغربًا سرعَة انتقالِ الأخبَارِ إلى الوزير. فلا يكادُ يقعُ في خُراسان شيءٌ إلّا جاءه حالًا. وخطَرَ لهُ ما سمِعَ مِن أنّ له مائة ألفِ مملوكٍ يحمل السّلاح، وأولادُه وُلّاةٌ على مُدُنٍ عديدةٍ بخُراسان. وسرعان ما قطع عليه الوزيرُ خَواطِرَه:

- خيرًا يا أبا حامِد؟

فاعتدَل في جِلسَته ويدُه تتلمّسُ جِرابًا جِلديًّا صغيرًا تحت إبطِه:

- نَعَم، لَقَد أهمّني أمرٌ هُوَ سبَبُ مجيئي العَجِل.

- خيرًا؟

- هل تذكُرونَ الصُّوفيّ سَمْنُون؟

- نَعَم، المقتول غِيلةً؟

- نَعَم. لَقَد ترَكَ لي وصيّةً بكتابٍ أَلَّفهُ. والظّاهرُ أَنَّهُ عاشَ دهرًا وهُوَ داعيَةٌ مِن دعاةِ الباطنيّة، ثمّ راجَعَ نفسَه، وهداهُ الله لِلحقّ. لكنَّه خَشِيَ نَشْرَ أخبارِهم، وخافَ على حياتِه، فأَلَّفَ كِتابًا فيه أسرارُهم، وها هو بَين يدَيكم، فإنّ الله يَزع بالسّلطان ما لا يَزعُ بالقرآن.

كان الوزيرُ جالِسًا مُتربّعًا مائلًا بجسمِه جِهة الجدار، وحدقَتا عَينَيه الشّهلاوَيْن تتراقصانِ تحت حاجبَيه الأشيَبَين الكثَّين، وهو يُنصت لِنبرَة الغزاليّ الهامِسة.

- هل معكَ الكِتاب؟

فَتَحَ الغزاليّ الجِراب، وأخرَج الكِتاب. قرَّبَ نِظامُ المُلْك وسادَةً، ومالَ علَيها بِمِرْفَقِه، وقرّب الكِتاب مِن عَينَيْه، وبدَأ يقرأ.

راقَبَ الغزاليّ وجهَ الوزير وهو يغيبُ في تضاعِيفِ الكِتاب، فتَنَحْنَحَ، ثمّ قالَ:

- إنْ شاءَ جنابُه أن يتجاوزَ المقدِّمَة، فليس فيها إلّا شرح سمنون لقَصَّةِ خُروجِه مِن نِظامِهم، وخوفِه مِن بَطْشِهِم. أمَّا خبرُهم وحِيلُهم فتأتي بَعد ذلك.

اقترَب مِن الوزير، ووضَعَ إصبَعَهُ على أسطُرٍ وهو يَقول:

- هذه حِيلَة الرّبط، وهي مُتَعلِّقةٌ بأيْمانِ البيْعَةِ عِنْدَهُم.

وبدأ الوزير يقرأ بصوتٍ مَسموع:

«وأمّا حيلَةُ الرّبط للمُريد فهي أن يُرْبَطَ لِسانُه بأيمانٍ مُغلَّظةٍ وعُهودٍ مُؤكَّدَةٍ لا يَجْسُرُ على المخالَفَةِ لها بِحال. وهذه نُسخَةُ العَهْدِ؛ يَقُولُ الدَّاعي لِلْمُستجيبِ لِلدَّعوَة: «جَعَلتَ عَلى نفسِكَ عَهدَ الله وميثاقَه وذمّةَ رَسُولِه عليه السّلام، وما أخذ الله على النّبيِّين مِن عَهدٍ وميثاقٍ أنّك تُسِرُّ ما سمِعتَه منّي وتَسْمَعُه، وعلِمْتَهُ وتَعْلَمُه، مِن أمري وأمْرِ المقيم بهذه البَلْدَةِ لِصاحِبِ الحقِّ الإمام المهديّ وأمورِ إخوانِه وأصحابِه وولدِه وأهلِ بَيْتِه وأمرِ المطيعينَ لَهُ على هذا الدّين، ومُخَالصةَ المهديّ، ومُخَالَصَةَ شيعتِه مِن الذّكور والإناث والصّغار والكِبار، ولا تُظهرَ مِن ذلك قليلًا ولا كثيرًا تَدُلُّ به عليه إلّا ما أطلقتُ لكَ أن تتكلَّمَ بِه، أو أطلَقَ لَكَ صاحبُ الأمر المقيمِ في هذا البلَدِ أو غيره فتعمَلَ حينئذٍ بمقدارِ ما نرسُمه لَكَ ولا تتعدّاهُ. جَعَلتَ على نفسِكَ الوفاءَ بما ذكرتُه لَكَ وألزَمْتَهُ نَفْسَكَ في حالِ الرّغبة والرّهبة والغضبِ والرّضا. وجعلتَ على نفسِك عَهْدَ الله وميثاقَه أنْ تَتبَعَنِي وجميعَ مَن أسمِّيهِ لَكَ وأبيّنهُ عِنْدَكَ ممّا تمْنَعُ مِنْهُ نفسَك، وأن تنصحَ لنا وللإمام وليِّ الله نُصْحًا ظاهِرًا وباطِنًا، وألّا تخونَ

اللهِ ولا وَلِيَّهُ ولا أحدًا مِن إخوانِه وأوليائه ومن يكونُ مِنْهُ ومنّا بسببٍ مِن أهلٍ ومالٍ ونِعْمَة، وأنّه لا رَأيَ ولا عَهْدَ تتناوَلُه على هذا العَهْدِ بِما يُبْطِلُه. فإن فعلتَ شيئًا مِن ذلك وأنتَ تعلَمُ أنّكَ قَدْ خالَفتَه فأنت بريءٌ مِن اللهِ ورُسُلِهِ الأوّلينَ والآخرين ومِن ملائكَتِه المقرّبينَ ومِن جميع ما أنزلَ مِن كُتُبِه على أنبيائهِ السّابقين، وأنْتَ خارجٌ مِن كلّ دِين، وخارجٌ مِن حِزْبِ اللهِ وحِزْبِ أولِيائه، وداخلٌ في حزبِ الشّيطانِ وحِزبِ أولِيائه، وخذَلَكَ اللهُ خذلانًا بيِّنًا يُعجِّلُ لَكَ بذلك النِّقمَةَ والعُقوبَةَ إنْ خالَفتَ شيئًا ممّا حلَّفْتُكَ عليه بتأويلٍ أو بِغير تأويلٍ، فإن خالَفتَ شيئًا مِن ذلك فللّهِ عليكَ أن تَحُجَّ إلى بَيْتِهِ ثلاثينَ حَجَّةً نَذْرًا واجِبًا ماشِيًا حافِيًا، وإن خالَفتَ ذلك فكلُّ ما تملِكُهُ في الوَقْتِ الّذي تحلِفُ فيه صَدَقَةٌ على الفُقراء والمساكينِ الّذين لا رَحِمَ بَيْنَكَ وبَينَهم، وكلُّ مَملُوكٍ يكونُ لَكَ في مُلْكِكَ يوم تُخالِفُ فيه فَهُمْ أحرار، وكلّ امرأةٍ تكونُ لَكَ أو تتزوَّجُها في قابِل فهي طالِقٌ ثلاثًا بَتَّةً إن خالَفتَ شيئًا مِن ذلك، وإن نويتَ أو أضمرتَ في يَميني هذه خِلافَ ما قصدتُ فهذه اليَمينُ مِن أوّلِها إلى آخرِها لازِمَةٌ لَك، واللهُ الشّاهِدُ على صِدْقِ نِيَّتِكَ وعَقْد ضميرِك، وكفى باللهِ شهيدًا بَيني وبَينَك. قُلْ: نَعَم، فَيقولُ: نَعَم»».

رَفَعَ نِظامُ المُلْك رأسَه وهو يُحِسُّ بِعروقِه تَنْبِضُ غيظًا. كَيْفَ لهذه الدّعوةِ الخَطِرَة أن تُوجَد في مُدُنٍ تحتَ سُلطانِه، وكيفَ استطاعَ القومُ جَلْبَ الأتباعِ وقَتْلَ مَعصومي الدِّماء لأنّهم خالَفُوهم بَعْدَما وافقوهُم. ثمّ وضعَ الكِتابَ وهو يَقولُ مُتنهّدًا:

- إذَن هُم مَن قَتلوا سَمْنُون رَحِمَهُ الله.. هذا ما توقّعتُه!

وزمَّ شفتَيه:

- لَقَد علِمتُ مِن شِحْنَةِ نَيسابور أنَّ سَمْنُون مِن أهل بغداد، وجاء إلى نَيسابور قبل أربَع سنوات. فكأنّه خَرَجَ مِن بغداد سرًّا خَوْفًا مِنهم.

انشغَلَ ذِهنُ الغزاليّ بالتّفكير في قوَّةِ حافِظَةِ الوزير وضَبْطِهِ الدَّقائق، مَعَ أنّ عُمرَه يُقارِبُ الثّمانين، ثمّ هو في الوزارة ومشاغِلها مُنذ زُهاء ثلاثين عامًا. وخطرَ لهُ أنّ سببَ ذلِك ما عُرِف عَنْهُ مِن كثرَة الصّدقاتِ وحُبِّ العَدْلِ والإنصافِ والحِرْصِ على خِدْمَةِ المسلمين.

ثمّ قال الوزيرُ وهو يُناوِلُه تِينًا مِن فَوق السُّفرَة:

- لعلّك تعلَمُ أنّ زعيمَهُم حَسَنَ الصبّاح مقيمٌ في قَلْعَةِ آلموت لا يخرُج. فَقَد دخلَها وتحصّن بها. وقَد كلّمتُ السّلطانَ مِرارًا لِنَذْهَبَ إلَيها ونستأصِلَهُ قَبْلَ إفسادِه بلادَ المسلمين، لكنَّهُ ما زالَ يُقدِّمُ رِجْلًا ويؤخِّرُ أخرى ويكتَفي بإرسالِ الجَيْشِ لِحصارِها.

قال ذلك، ثمّ تلفَّتَ حَذِرًا مِن أن تُنقَلَ عنهُ العِبارَةُ إلى السُّلطان. ولَمْ يَرَ غَيْرَ صاحِب مُكحلَته واقفًا مُتظاهرًا بتنظيفِ طرَفِ البَاب.

- أيّها الوزير، إنّ الكِتاب يَحوي في نهايتِه أسماءَ بعض الدُّعاة، ووصيّةً بإيصالِه إلى جَنابِكُم.

قالَ الوزيرُ بنبرةِ تَطلُّع:

- ماذا؟ ثمّة أسماء!

أخذَ الكِتاب، وبدأ يُفَتِّشُهُ بيدٍ عجِلة. فمالَ عليه الغزاليّ لِيُساعِدَهُ في تحديدِ الصَّفحَةِ الّتي تُوجَدُ فيها الأسماء، فتصادَمَت أنامِلُهُما عِنْدَها، وقرأ الوزير:

«دَاعيَةُ بغداد أحمد بن علي الكرخيّ، وداعيةُ أصفَهان خبيب بن فيروز الطّابرانيّ...».

ضمّ الوزيرُ الكِتابَ بيَدين عَجِلَتَين مُلْتَفِتًا إلى الغزاليّ:

- جزاكَ الله خيرًا أيّها الشّيخ! والله لا أنامُ اللّيلةَ إلّا وقَد أمَرتُ بإيداعِهم السُّجون!

وصفَّقَ، فجاء غُلامٌ أبيض عريض المنكَبَين:

- مَولاَي!

- ائتِنَا بطَعَامٍ، فَقَدْ جاء الشّيخ مِن سَفَرٍ طويل، وادْعُ لي كبيرَ الحَرَس.

اعتمَدَ الوزيرُ على يَديهِ لِيَقِف، وتَوارى خلفَ الباب. فجاءه كبيرُ الحَرَسِ مُتَبَخْتِرًا. وقَفَا قليلًا، وهزّ رأسَهُ وانصَرَف. ثمّ رفَع الوزيرُ رأسَه، فظهرَ له في نهاية الممرّ شِحنتُه قادِمًا مُسرعًا. أشارَ إلى الآخر بالابتِعاد، فوقَف الشّحنة وسلّم على نظام الملك. ولاحظَ الوزيرُ في تَعابير وجهِه أنّهُ يَحْمِلُ خبرًا مُهمًّا. تَوارى به قليلًا واقتربَ مِنْهُ.

- خيرًا، هل طرأ طارِئ؟

- السّلطان ملكشاه غاضِبٌ علَيكم كلّ الغَضَب. وقَد قالَ كلامًا كثيرًا... وسيُرسِلُ إلَيكم رَسولًا بالأمر.

وطالَت المُسارَّةُ بَين الوزير وشِحْنَتِه، قبل أن يأذن لهُ بالانصِراف. ثمّ عاد مُتصنّعًا الانشراحَ، فوجَد المجلِسَ يفوحُ برائحَةِ الدّجاج المحشُوِّ بالبهارات، وجلَس مُتباطِئًا. ثمّ قالَ، وهو يتنفّس الصُّعدَاء:

- أيّها الشّيخ، إنّ حربَ هؤلاء الباطنيّة لا تقومُ إلّا على العُلَماء والسّلاطين. فعليكَ بعقائدِهم الفاسِدة وتَخييلاتِهم المضلَّة، رُدَّ علَيها وخَصِّص لَها...

وسكَتَ دُون أن يُكْمِل، فَلَمَحَهُ الغزاليّ بعَينَيْه مُتوسّلًا إكمالَ ما في ذِهنه فقالَ:

- وخصّص لَهُم كُتُبًا. ودَعْ لي حربَهم، فوالله لَنْ أترُكَ ذلك الأفّاكَ حتّى أنزِلَهُ مِن قَلْعَتِه.

ومدّ يدَه مُشيرًا إلى الدّجاج المدفونِ في البَهارات الأصفهانيّة:

- بنام خدا!

مدَّ الغزاليّ يدَهُ إلى الأكل، وهو يُصارعُ نفسَه هَلْ يتعهَّدُ بالكِتابَةِ عن هؤلاء المَرَدَة أمْ لا؟ فَمَن يَضْمَنُ لَهُ ألّا يغتالوهُ كما يَغتالونَ كاشِفي أسرارِهم. وقرَّبَ فخِذَ دجاجة، فَسال الرّيقُ مِن طَرَفِ شَفَتِه.

أمّا الوزيرُ فقد انصرَفَ ذِهنُه إلى السّلطان، وما عَلَيه فِعْلُه لِيتَّقِي شرَّهُ. *كيف يتصَرَّفُ مع سلطانٍ لا تنفَكُّ زوجَتُه ومُستشارُها يُفسِدان قَلْبَهُ عَلَيه؟ كيف يُديرُ العلاقَةَ بِهِ وهُم يُواجهونَ خَطَرَ الباطنيّة المتمَترسينَ في قَلْعَةِ آلموت؟ وكيفَ يتأكَّدُ مِن مَيْلِ تركان ومستشارِها إلى عقائدِ الباطنيّة؟*

وخطَرَ للوزيرِ أنّ على الغزاليّ البدء في مَعرَكةٍ أخرى، علَيهِ السّفر حالًا لِتَسَلُّمِ كرسيّهِ في نظاميَّة بغداد، فلَيسَ بها عالِمٌ يفهَمُ ما يَدورُ في رأسِه مِثْلَ هذا الفَتى الطّوسيّ اللمّاح. فتَنَحْنَحَ وقال:

- أيّها الشّيخ! تَجهَّز للسَّفَرِ إلى بغداد فَوْرًا. فطلّابُ العِلْمِ مُنْتَظِروك، وشبهاتُ هؤلاء الباطنيّة تحتاج إلى تفنيدٍ في عاصمة الإسلام.

واقترَبَ صاحِبُ المكحلَة قائلًا وهو يدقّق النظر إلى الكتاب:

- جنابُكم! تَحْتَاجُون إلى شيء؟

فقال نِظامُ المُلْك:

- جهِّز الأشنَانَ والماء.

وفي مساء ذلك اليَوم طارتْ حَمامَةٌ إلى قَلْعَةِ آلموت حامِلَةً رسالَةً بكلّ ما جرَى في قَصْرِ نِظامِ المُلْك.

18

أصفهان، 484 هـ.

ختَمَ نِظامُ المُلْك الرّسالَةَ وهو يتلفَّتُ. فلَمْ يَرَ غيرَ السَّواري الطّويلة والجُدرانِ الصّامتة، وخَيْطًا مِنَ البَخُور يَصَّاعَدُ في طَرَف الحُجْرَة البَارِدة. رأى صاحبَ سِواكه ومُكْحُلَته مُقتربًا مِنْهُ، فأشارَ إليه بالابتعادِ. واختارَ إرْسالَ الرِّسالةِ معَ واحدٍ من أكْثَرِ مُساعديهِ إخلاصًا. ثمّ صفَّقَ، فدخَلَ الحَاجِب.

- ادعُ لي أحمد المَرْوَزيّ!

فدخَلَ المَرْوَزيّ مُسرعًا، ووقَفَ حَانِيًا رأسَه بين يدي الوزير:

- مولاي!

سكَتَ الوزيرُ مُطْرِقًا، يفكّر في كيفيّة إشعارِ المَرْوَزيّ بجَسَامةِ المهمَّة التي كلّفه بِها. ثمّ رفَعَ رأسَه وبدأ يُسرِّح شَعْرَ ذَقْنِه بأصابِعه. اتَّسَعَت عَيْنَا المَرْوَزيّ، وتعرَّقَت جَبْهَتُه، فقال الوزير:

- تعْلَمُ مقامَك عندَنا وتقديرَنا لِبَلائِك في خِدْمَتِنا. ولَقَدْ فكَّرنا في مَنْ نُكلِّفُه بِشَرَف السّفارة بينَنا وبَيْن الخَليفَة، فَلَمْ نَجِد غَيْرَكَ. فَخُذ هذه الرّسالةَ واكتُمْهَا عَنْ نَفْسِك حتّى تُوارى الثَّرى. ستخرُج الآن، وتأتي المَعَسْكَرَ لِيَصْحَبَكَ فارسٌ مِنْ هناك.

لمعَت عيْنَا المَرْوَزيّ بالامتِنان، وشَرَق بريقِه:

- خادِمُكُم وخادِم خليفَة المُسْلِمين!

ثمّ رفَعَ نِظامُ المُلْك الكتابَ في الهواء وفتَح فمَه... ثمّ سكَت. فمدّ

المَرْوَزيّ يدَه وأخذَ الكِتَابَ ودسَّهُ في الحِزامِ المثبَّتِ على خِصْرِه، وضمَّ عليه جبّته وانْحَنَى وخرَجَ.

أسرع في أرْوِقَة القَصْر، بينَما كانت عُيون خصيٍّ ترقُبُه مِن أعلى الجِدار المسامتِ لِحَرَمِ الوَزير. شقَّ الممرَّ المستطيلَ المحفوفَ بالأشجارِ حتّى وصل إلى البابِ الخارجيّ. ثمّ لفَّ إلى الإصْطَبْلِ، فوجَدَ فارسًا تركيًّا ينتظرُه، وقدّمَ له فرسًا من أفْرَاسِ البريد. قفزَ على مَتْنِ الفَرَس وقطَعَ الشّارعَ الفاصِلَ بين الجَامِع والمكتَبة، فلَمَح النّاس يدخُلون المسجِدَ لصِلاةِ العِشاء. وحزَرَ أنّه يستطيعُ الوصولَ إلى المعسكَر قَبْلَ مُنْتَصَف اللّيل لينامَ ثمّ ينطلِقَ عِنْدَ بُزوغ الفجر. وتجاوزَ بابَ المسجِدِ شاعرًا بنسمَة الهواء البارد على وجهه.

ابتعدَتْ أصواتُ المدينة، فصارَ لا يسمَع إلّا لُهاثَ فرَسِه وصَوْتَ حوافِره على طريق البريد المعبَّد. أسْلَم ذِهْنَه لِلَحْظَةِ دُخوله على الخليفة، مُفكّرًا في طبيعة الرّسالةِ الّتي يَحْمِلُها. حَمْحَم الفَرَسُ ورفَع أذُنَيْه، ثمّ سَمِعَ جَلَبَةً خَلْفَهُ. وحين التَفَتَ، لَمَحَ فُرْسَانًا قادمينَ في السَّهْلِ مِنْ ورائه. فركَل الفَرَسَ في خاصِرَتَيْه ومالَ إلى الأمام وصَرَخَ:

- أججج!

انْطَلَقَ الفَرَسُ يَنْهَبُ الأرْض نَهْبًا، وأسْرَع الفُرسانُ وراءَه. كان يُنصِتُ لِوَقْعِ حوافرِ الخَيْلِ الرَّاكِضَةِ خَلْفَهُ. وخَطَرَ لَهُ أنْ يَقِفَ لِيُعرِّفَهم بِنَفْسِه وبأنّه رسُولُ الوَزير. *فَمَنْ ذا الّذي يستطيعُ مطارَدَةَ رَسُولِ الوَزير؟!* لكنَّه لَمْ يَقِف، ولاحظَ اقترابَ الفُرْسَان مِنْه، فَفَرَسُهُ فَرَسُ بَريد، وأفراسُهم أفراسُ حَرْبٍ اعْتَادَت الكرَّ والفرَّ والمراوغَة. أحسّ باقترابِ أحدِ الفُرسَان مِنْ ذَيْلِ فَرَسِهِ فَصَرَخَ:

- مَهْلًا! مَهْلًا!

ثَنَى العِنَانَ وخفَّفَ الرَّكْضَ اسْتِعْدَادًا لِلْوُقوف. فوقَفُوا كلّهم وهم

يَسْمَعُون لُهَاثَ الأفْراس. كانوا أربعَةً يَلْبَسُون مَلابِسَ حَرَسِ السُّلطان. فتسارَعت دقَّاتُ قَلْبِه، وبدَأ يُفكِّر في صيغةٍ للتَّخلُّصِ من الرّسالةِ وهو يتأمّل ملابِسَهم المميّزة بشاراتها الحمراء:

- آآ.. و

قاطعَه أحدُهم بِلَهْجَةٍ ساخرةٍ مُقَلِّدًا صوتَه:

- آآآآ تعرِفُ ما نُريد!

- وماذا تُريدون؟ أنا رسُول سيّدي الوزير!

- نُريد الكِتاب الّذي معَك!

فكّر المَرْوَزيّ سريعًا. *هل يُنكِر وجودَ الكتَابِ أمْ يعترِفُ بِهِ ويرفُضُ تسليمَه؟* وتذكَّر كَيْفَ اخْتَارَه الوزيرُ من بَيْن كلِّ موثوقِيه ليُحمِّلَهُ الأمانة:

- أنا رسولُ سيّدي الوزير!

- تعودُ معَنا أو تُسلِّمنا الكتابَ أو نَقْتُلك!

وقفَ صامتًا يتأمّل الفُرسان، والتَفتَ، فَلَمْ يَرَ غير السُّهولِ الممتدَّة السَّاكنَة تحت شُعاع القَمَر:

- سآتي معكُم.

ثَنَى عِنَانَ فَرَسِه، وتوجّهوا عائدينَ إلى أصفَهان. لاحَت لَهُم أضواءُ المدينةِ بعيدةً مع نِهاية السَّهل. وساروا صامِتين حتّى قطَعَ الصّمتَ صراخٌ:

- اضرب!

أفاقَ المَرْوَزيّ على أحدِ الفُرسان وقَدْ استقرَّ وراءَه على ظَهْرِ فَرَسِه وأمسكَ بِيَدَيه مِنْ خَلْفِه. وقفَزَ آخَرُ ورمَى لَهُ قَيْدًا كبَّلَهُ بِهِ. فلَمْ يتحرّك، بل سرَحَ خيالُه مُفكّرًا في ما ينتظره. ومشى الفُرسانُ صامتينَ، لكنّ ضجيجَ الأسئلَة كانَ يملأُ جُمْجُمَة المَرْوَزيّ وهو يشعُر بضغط القَيْدِ على يَدَيه. *ما*

الأمر؟ كيف يجرُؤون على الوزير؟ هل حدثَ مكروهٌ للوَزير؟ كانت جُمْجُمَتُه تَغلي بالأسئلَة وقلبُه يخفِقُ، وجبهَتُه تَرْشَحُ عَرَقًا تحت الرّياح الباردة.

دخلُوا المدينة، وشقُّوا شارع الأضياف مُتَّجِهين إلى أحدِ قُصورِ السّلطان.

أنزَلوا المَرْوَزيّ، ووقفوا أمامَ البابِ الضّخمِ المُغلق. اقترَبَ أحدُهم من الباب وظَلَّ يطرقُه بقوَّةٍ حتّى انفتح، وأطلّت هامةُ جنديّ:

- مَنْ؟

- قُلْ للحَاجِبِ تاج الملك إنّ بُغا وصل.

وخلال ثوانٍ عاد الجنديُّ، وفتَح البابَ، فدخلوا يدفعونَ المَرْوَزيّ في ظهره. عبقَت أنوفُهم بالعِطْرِ المعقودِ بالعُود الهنديّ. تجاوزُوا حديقةَ القَصْر، ثمّ سلكوا الأروقةَ الواسعة الّتي أسلَمَتهم إلى مجلس السّلطانة. وجاء حاجبُها تاجُ الملك راكضًا:

- اتركوه!

أمسكَ تاجُ الملك بطرف المَرْوَزيّ، وسحَبَه. وظهرَت تركان خاتون جالسةً على كرسيٍّ عالٍ وبينَ يدَيْها قِطَّةٌ تُداعِبها. اقترَب تاجُ الملك يَدْفَعُ المَرْوَزيَّ في ظهرِه حتّى أوقفَه قريبًا مِنْهَا، ثمّ انحنى:

- مولاتي!

رفعَت يَدَها، ووضعَتْها على رأس القِطَّة، وداعَبتْها بأنامِلها، ثمّ رفعَت رأسَها قائلةً لِلْمَروزيّ:

- ادْفَع الرّسالةَ إلى حاجِبنا!

طلب فكّ القيدِ عن يديه أولا. ثم دسَّ يدَه في حِزامه وعيناه تَروغان بين وجْهِ الحَاجِب ووجه تركان، وأخرَج الرّسالةَ بيدٍ مُرتعشة. فانتشلَها تاجُ الملك بقوَّة:

- إنْ أذِنَتْ مَوْلاتي!

- اقْرَأ.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الأبوابِ الشّريفة والمقامِ العليّ، إلى أمير المؤمنين وخليفة المسلمين المقتدي بأمر الله.. خلّد الله أيّامَه؛

أمّا بعد، فإنّ خادِمَكم علِمَ بِنِيَّةِ سيّدي السّلطان مُخاطَبَتكُم بِتَوْلِيَة سِبْطِه جَعْفَر وليَّ عهدٍ للمُسلمين، وجَعْفَرُ لاشتراكِه في النَّسَبِ النَّبويّ والنَّسَبِ السّلطانيّ قَمِنٌ بكلّ مَنْصَب، وحقيقٌ بكلِّ مقام، غير أنّ هذِه الأمّة اتَّفَقَت -مُنذ قرونٍ- على هذه الدَّوْحَة العبّاسيّة، وأخشى إن رضيتُم بالأمْرِ أن ينقطِعَ ذلك السِّلْكُ المُبارَك، وتنتشرَ حبّاتُ عِقد الإسلام ويكونَ في ذلِكَ بَوَارُ الخِلافةِ وهلاكُ الأمّة. فاعْتَذِرْ للسُّلطان ما وسعك الاعتذار، فَمِثْلُهُ يعذر وهو على مصالح الأمّة أحْرَصُ، وما فكَّرَ في تولِيَةِ الأميرِ جَعْفَر إلّا حرصًا منه على المصلحة. لكنَّ الرّأي قد يفوتُ اللّبيب، وما كلّ رامٍ مُصيب. وثمّة أمرٌ آخرُ إنْ رأى الجنابُ النّبويّ أنْ يُنبَّهَ عَليه؛ وهو تَنْبِيهُ السّلطان -أيّده الله- على الجدِّ في حَرْبِ الباطنيّة. فقد بدأ شررُهم يصلُ الأطراف، حتّى إنّ العارفينَ يقولون إنّ بعض جنودهم دخلوا في حاشية السّلطان واستمالوا بعضَ وزرائه وربّما حُرُمِه، والله اللّطيف الحافظ. فلو أنّ الجنابَ العليّ نبّه إلى هذه الأمور لربّما حَسَمَ الفِتْنَةَ قبل استفحالِها، وقَمَعَ الكُفْرَ قَبْلَ أن يَضْرِبَ بجِرانه.

ثمّ إنّي أرسلْت العالم محمّدًا الغزاليّ، وهو من علماء نيسابور، إلى نظاميّة بغداد، ليكون عونًا للجناب الطاهر، فلعلّ خليفة المسلمين يصرفه في ما يرى، ويكون عونًا له في ما يريد.

والسّلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

طوَى تاجُ المُلك الرّسالةَ ويدُه ترتَعِش. لَقَدْ لَمَّح الوزيرُ إلى اتّهامه هو وتركان بالتَّعاونِ مع الباطنيّة. ثمّ نظرَ إلى السّلطانة، فرأى وجهَها استحالَ إلى الحُمرة وهي تُبعدُ الهرَّة، وتقف صارخة:

- كيف يجرؤ على هذا؟ لقد تعدَّى ذلِك العجوز طَوْرَه!

ومسحَت خدَّها بِطَرَفِ سبّابتها، ثمّ عادت إلى كرسيّها وجلستْ تنظر إلى المَرْوَزيّ:

- لَوْلاَ أنّك رسولٌ لقَتَلْتُكَ! اذْهَب إلى صاحِبِكَ وقُل لَهُ ما جرَى مَعَك!

خَرَجَ المَرْوَزيّ لا يُبْصِر أيْنَ يَضَعُ قَدَمَه. وأشارَت تركان إلى حاجِبها تاج الملك بالانصراف. كانت مستعجلةً لِتَرى السّلطانَ وَتَنْقُلَ إلَيه الرّسالة. فرفعَت ثَوْبَها الطّويل، ووضعَت رِجْلَها على الأرض، ثمّ توارَت في أروقة القَصْر وقلبُها يكادُ يخرُج من فيها ترقُّبًا لردّ فِعْلِ السّلطان ملِكْشاهْ. وكيف ستشرح له تطاولَ الوزير، وخُطَطَهُ الماكرةَ لتوظيف المدارس والعلماء في إحكام سلطانه على مقاليد السلطنة والخلافة معًا.

19

نيسابور، 484 هـ.

مرّت أيّامٌ طويلة على رُجوع خَلُوب إلى بَيْتِ سيّدها. وكلُّ مَا تعرفهُ أنّه يسير بقانونٍ مشهور: فالبِنتُ إذا هَرَبَتْ تُقْتَل، والجاريةُ إذا أبِقَتْ تُبَاع. جَلَسَت بِقَلْبٍ واجِفٍ وطرَفٍ مُغْضٍ وهي تَرْقُبُ حرَكَةَ الغِلْمان في أطراف المنزل الدّائريّ الواسِع. وضعَت سبّابتَها على طرَف شفتِها، وبدأت تناجي نفسَها: *هَلْ أهربُ مرّةً أخرى؟ ما قيمَةُ الهَربِ فَقَدْ جرَّبتُه، وكيف سأصِلُ إلى حارَة العَبيد في شيراز؟ فَلَيْسَ في هذه الدّنيا مَنْ يَرْحَمُ جارِيَةً آبِقَة. وفي الشرع، يجِبُ على مَن وجدَها أن يُطْعِمَها ويَسقيها ويبحَثَ عَن صاحِبِها حتّى يَجِدَهُ. فإنْ لَمْ يَجِدْهُ خلالَ سَنَةٍ بيعتْ ووُضع ثَمَنُها في بَيْتِ المال، أو وُقِفَ عَلى رُوحِ سيّدها.*

وظهرَت بِنْتُ سيّدها زَيْنَب قادِمَةً مُسرعَةً في الممرّ. لمحَت صَفْحَةَ وجهِها تَحْتَ ضَوء الشّمس المتسلِّلِ مِن فَتْحَةِ السّقف، ففهمَت أنَّها تحمل خبَرًا. فقَد كانت زَيْنَبُ أقرَبَ بَنَاتِ سيّدها إلَيها سِنًّا ورُوحًا. قالَت:

- أبْشِري! لَقَدْ أخبرَني أبي باسْمِ الرَّجُلِ الّذي وُهِبْتِ لَه!

أشاحَت خَلُوب خِمَارَها لِتَعْدِل طرحَةً كانت على رأسها، وتظاهرت بأنّها لا تعرف:

- ومَنْ يَكون؟

ملأَت زَيْنَبُ صوتَها بالفَرَحِ المُصْطَنَع:

- مولانا نظام الملك!

والتَقَت عيناها بِعَيْنَيْ زَيْنَب، فسالَت دُموعهُما. وتمتَمت خَلُوب:

- أكرَهُ الخُروجَ مِن دارِ مَوْلايَ!

فقالَت زَيْنَبُ وهي تَمْسَحُ الدّمع:

- تعلَمين أنّ أبي لن يعطي إلّا لمن يثق به، وأنت محبوبةٌ بطبعكِ، وسيعشقك الوزير!

استمَعتْ إلى ثناءِ سيّدتها على الوزير كأنّها تسمعُ رياحًا في الدهليز. فَقَد عوَّدتها الدّنيا ألّا تفرَحَ بِمَحَاسِنِها لأنّ محَاسِن العبيد سرعان ما تستحيل إلى مَساوئ، وقد تكون في محاسنِها علّةُ آلامِها. فماذا يجْني العَبْدُ مِن ساعِدَيْه المفتولَين غَيْرَ العَمَلِ كالحِمار؟ وماذا تَجْنِي الجارية مِن بَسْمَتِها الوضَّاءَة وطلَّتِها الخالِبة والتِفَاتَتِها السّخيّةِ وضِحْكَتِها الرّنّانَة غَيْرَ الأحزانِ والدّموع وبَخَرِ الكُهولِ؟ فمحاسِنُ العبيد أثْقَالٌ علَيهم، وجَمَالُ الجاريةِ تاجٌ مِن اللّعنات.

شخَصَتْ في خيالِها لحظةُ دخولِها على سيّدها الجديد. *ومن يدري؟ قد يهديني إلى جِلْفٍ تركيٍّ لا يتكلّم العربيّة ولا الفارسيّة؟ وقد يهملني كما يفعل الوزراء.. فكم جاريةً عنده؟ وما أفعلُ إذا لَمْ أَنجح في إغوائه وَلَفْتِ قَلْبِهِ إِلَيّ؟* خمّنت زَيْنَب الضّوضاءَ المعتَمِلَةَ في رأس خَلُوب، والحُزْنَ النّاقِع في عَينَيها. حاولَت النَّظرَ إلى عَيْنِها فأحسَّت بدَمْعَةٍ تنفلت، فابتعدَت. وشعرت خَلوبُ بِبُكَاءِ سيّدتها، فمدَّت يدَها مُتلمّسَةً الجِدارَ ويدُها ترتجِفُ حتّى توارَت داخِل الغُرفَةِ القَريبة. *ألا يتوقَّفُ هذا العَناء؟ ألا تنتهي تِلك الرِّحلَةُ الأبديّة؟ ألا تستقرُّ الحياة دُونَ القَبر؟* شعُرَت بالدّنيا ثُعْبانًا ضخْمًا فاغِرًا فَاهُ لِيَلْتَهِمَها. ورأَت خَيالًا يقترِبُ مِنْ وراء البَاب.

كانَت جالِسَةً مُسندَةً ظهرَها إلى الحائط والدّموع تَغْسِلِ وَجْنَتَيها المتورِّدتَين. وكانَت عيناها مُترعتَين دُموعًا وحُزنًا وأسئِلَةً. دخَلَ الأحول

وجلَس. نظرَ إلَيها نظرَةَ الأبِ إلى ابْنَتِه الأثيرة الّتي استوجَبَت عِقَابَه حتّى لا تُفْسِدَ عَلَيه بقيَّةَ بناتِه. تأمَّلَ وجنَتَيها، فذكَّرَتاهُ بِوَجْنَتَي أمِّهَا، تِلْكَ المرأةِ المكلُومَةِ الّتي لا يعرفُ أيَّ مَدينَةٍ أنْبَتَتْها، ولا أيَّ يَدٍ سَبَتْها.

كزَّ على أسنانه، فخرجَ صوتُه خافتًا:

- تعلمين أنّي لا أستطيع التراجع.. فالقانون الذي ربّيتكُم عليه معروف... تُقتَلُ البنتُ إن هربتْ.. وتُباع الجارية إن أبِقتْ! فكيف بطلب الوزير!

كانَت تستمعُ وشفتاها مُمطّطَتَان استعدادًا لِنَشيجٍ مَكْبُوت. ثمّ نظرَت إلى الأرض وهي مُنصِتَةٌ فجاءَ صوتُهُ:

- لكنّ الوزير ســ...

وابتلع لسانه قبل أن يقول لها إنّ الوزير سيهبُها لشابٍّ عالم. وندم على أنّه أوشك أن يكشف سرًّا من أسرار الوزير، فما يدريه أن يغيّر رأيه ويحتفظ بها لنفسه.

ثمّ وقَفَ فَجْأَةً واستدارَ ماشِيًا، والعَبْرة تخنُقه. وقَفَت مُقترِبَةً مِن النّافذة المشرِفَة على الشارع. فظهرَت مناراتُ المسجِد الجامِع، وشرُفاتُ قصرِ شيرين، والسّاحة الواسِعة الغاصَّة بالشّجر. وترامَت إلى سَمْعِها صرخاتُ أطفالٍ في الشّارع. خُيِّلَ إلَيها أنّ الشّوارعَ تستعدُّ لموكِبٍ جنائزيٍّ مَهيب، وأنَّ شُرفات قصر شيرين تسيلُ دُموعًا، وأنّ مناراتِ الجامِع تستعدُّ لإعلانِ خَبَرٍ مُريع. فتراجعَت وقطعَت الممرّ، ودخلَت حُجْرَتَها. ثمّ فتَحَت الخِزانَةَ واستخرَجَت العُود.

كانَت عكِرَةَ الرُّوحِ صدِئَةَ المزاجِ وبها حاجةٌ إلى الصُّراخ أو الغِنَاء. انتابتْها حالةٌ مِن حالات الحزن العميق التي يستمتعُ فيها الإنسانُ بِتَعْمِيقِ حُزْنِه، كأنّما يَحتاجُ إلى الاغتسال بِدُموعِه لِتخفيف آهاته، أو غَرْز السَّهمِ

في جسدِه أكثر حتّى يزدادَ مِن دَمِهِ ارتِوَاءً! فأنصافُ الأحزانِ تكونُ أحيانًا أكثرَ ألمًا مِن الحُزْنِ الطَّاغي الذَّاهب إلى نهاياتِه، المتحوِّلِ إلى سَلوى لِجَبروتِه وعُنفوانه وطُغيانِه. فذلك الحُزنُ الكامِل يُجبِرُ المرْءَ على الاستسلامِ والاسترخاء. أمّا أنصافُ الأحزان فَمَقْرُونَةٌ بالاضطراب، مُحيطَةٌ بالقلَقِ المرهِق المتوسِّل إلى الخَلاص المُتوهَّم الكاذِب!

أمسكت العُود، وجلَسَت على المرتَبَة، وطفِقَت أصابِعُها تَلْعَبُ بأوتارِه.

انتشَرَ النَّغَمُ في أطرافِ البَيْت، وجلَس سيّدُها بأذنَين مُشْرَئبّتَيْن في بَاب حُجْرَتِه. وجاءت زَيْنَبُ راكضَةً، وجلسَت قُرْبَها. كانَت أوتارُها شجيَّةً مُحْزِنَةً تُشبِه الأنينَ المكتوم. فقد عجّ خيالُها بِصُوَرٍ وذِكرياتٍ وأمانٍ بِيضٍ وأُخْرَى مُجْهَضَة. رفعَت وجهَها وملأت صَدْرَها كأنّها تنوحُ:

أستودِعُ اللهَ في بغداد لي قَمَرًا   بالكَرْخِ؛ مِنْ فَلَكِ الأزرارِ مَطْلَعُهُ
ودّعتُهُ وبِوُدِّي لَوْ يُودِّعُني   صَفْوَ الحَياةِ وأنّي لا أودِّعُهُ

تنَاوَحَت مُكرِّرَةً: «وأنّي لا أودِّعُهُ»!

مَطَّطَت اللّامَ والدّال، ثمّ رقَّقَت صوتَها، ونزلَت نُزولًا هادِئًا مُتدرِّجًا عَلى العَيْنِ والهاء هَمْسًا. وعادَت تُكرِّرُ البيتين مُتناوحةً مُتضاجِرةً مُفكّرةً في شوارِع نيسابور. تذكّرت عُهودَ صِبَاها بين هذه الأفنِيَة البهيّةِ والشّوارع المشجّرَةِ الأخّاذة. وتخيّلت نفسَها محمولَةً في هَوْدَجٍ مَعَ رَجُلٍ لا تعرفُه يَخْرُجُ بِها لَيْلًا إلى أرضٍ لا تعرفها.

تذكّرت وجهَ سيّدتِها، زَوْجَةِ الأحول. *تلك سَيِّدَةٌ وأنا مملوكة! أنا أحْذَقُ مِنْها بالقراءة والكتابَة والفُنون والطّبخ، وأجمَلُ مِنْها؛ فما الّذي جعلَها سَيِّدَةً وجعلَني جارِيَةً مملوكَة؟* ضغطَتْ ذِهْنَها مُحاولَةً تذكُّرَ أهْلِهَا... أمِّها، أبيها، وطنِها. لكنّها لم تتذكّر أيَّ شيءٍ. وما أصعَبَ أن يُحْرَم المرءُ مِن ذاكرَة الأمومَة والأبوَّة والوطن.. مِن ذاكرَة المنبَتِ الأوّل، والذّكرى الأولى!

كيْفَ جاءت أمّي إلى هذه الدّيار؟ هل اختُطفَتْ مِن أرضٍ بعيدَةٍ أمْ سُبيَت في حَرْب؟ حتّى سيّدُها لا يعرِفُ الإجابَة. وكلّ ما يعرِفُه أنَّهُ اشترَى أمَّها الّتي ماتَت عَنْها في عامِها الرَّابع. تذكّرت ما يحكيهِ سادتُها عَن أمِّها. كانَت تتحدَّثُ لُغَةً غريبَة، ودائمةَ الذهول والبكاء، ثمّ ماتَت كمَدًا بَعْدَ مجيئها إلى البَيْتِ بِشَهْرٍ واحِد. وتربَّت هي داخلَ البَيْت. تذكّرت ذلِك وهي تتخيّل مشاعِرَ أمِّها قُبَيْل وفاتِها، ثمّ استنزَلَت نَغَمَةً مِن آخِر خَيْشُومِها، وثقَّلَتْها:

لَـوَ أنّ مَـا تَبْتَلينـي الـحَادِثَـاتُ بِـه   يُرمى على الماءِ لَمْ يُشرَب مِنَ الكَدَرِ!

سَمِعَت تأوّهاتِ سيِّدها، وتلفَّتت، فوجدَت بعض سكّان البَيْتِ يسترقون السمع.

أحسَّتْ في روحها وأعصابها دبيبًا ورَجَفانًا. *كيفَ تَتْرُك هذا البيتَ وترحَلُ إلى المجهول. هل ستموتُ كَمَدًا كَما ماتتْ أُمُّها؟ ومَن يضمَنُ ألّا يُعطيَها الوزير لأحد قواده ثم تُسْبَى في حَرْبٍ فتنتهي ببلادٍ مِن بُلدان الرُّوم أسيرةً لا تعرفُ حرفًا مِن لُغَةِ أهْلِ البَلَد.* ضغطَت على العُود وحركتُهُ في حجرها وهي تنظُر إلى فنَاء البَيْتِ وسُقوفِه ووجوهِ الغِلمان والجَواري ووجوهِ سيّداتها. *وماذا يَضيرني أنْ أخْرُجَ مِن هُنا؟ ربّما يكونُ الخُروجُ طريقَ الخلاصِ مِن العُبوديّةِ الأبديّة.*

كانَ المقامُ الغنائيُّ مَقَامًا شجيًّا مُبكيًا يُداعِبُ خبايا الذّكريات الدّفينة، والأماني المتلفِّفة في أحْنِيَةِ الضّمائر، والذّكرياتِ المتصارِعَة في أماكِنَ غائمَةٍ مجهولَة من الضمير. وقد نزلَت على المقامِ نُزولًا وهي ترفَعُ يدَهَا في الهواء، مُميلَةً رأسَها كأنّها تئنُّ أنينًا.

ثمّ صمتَت فجأةً وهي تشعرُ بأحمال الهُموم تنزاحُ عَنْ كَتِفَيها المرهَقَتَين. وخطرَ لَها أنّ الغِنَاءَ يُخرِجُ الهمومَ من البَدَن لِيُوزِّعَها على السَّامِعين. فحرّكت العُودَ واندفعَتْ:

لَعَـلَّ انْحِـدَارَ الدَّمْـعِ يُعْقِـبُ راحَةً مِن الوَجْد! أو يَشفي نجِيَّ البَلابِلِ!

وانشغَلَ كلُّ مَن في البَيْتِ بالتّفكير في ما ينتظِرُ خَلُوبا في الأيّام الآتية. فكلُّهم يَعْرِفونَ صلابَةَ الأحول وصعوبَةَ ثَنْيِه عمَّا عَزَمَ عَليه، فكيف بوعدٍ للوزير نظام الملك؟

20

أصفهان، 484 هـ.

رفعَ نِظامُ المُلْك يدَيه وعَرَك بِهِمَا وجهَه طويلًا، ثمّ سرّح بصرَه مَعَ الجُدران الطّويلةِ والسّتائر النَّيسابوريّة المُزَرْكَشَةِ المُلْتَفَّة. رفعَ إحدى يدَيه وضرَب وِسادةً كانت أمامَه حتّى تردّد صَوْتُ الضَّربَةِ في الفنَاء الواسِع، فدخَل غُلامٌ يَرْكُض:

- أمْرُكَ يا مولاي!

أشارَ لَهُ بالابتعادِ دُون أنْ يَنْظُرَ إلَيه.

هذه أوّل مرّةٍ يشعُرُ فيها بالعَجْزِ مُنذُ تَولّيه الوَزارة قَبْل أكثر مِن عِشرينَ عامًا. *كَيْفَ أعجَزُ عَن تدبيرِ السِّياسة وأنا مضرَبُ الأمثالُ في حُسْنِ التَّدبير ودقَّةِ المَداخِل والمخَارج؟ هذه مُعضِلَةٌ لَمْ تُسعِفني بِجَوابِهَا الأَيّام.* وقفَ، ومشَى في البَهو الوَاسِع ويَداه وراءَ ظهرِه مُتمتمًا:

- لقد أعددتُ نفسي لمصارعَة الفُحول، لا لمخاتَلَةِ رَبَّاتِ الأسَاوِر والخُدُور!

كان يفكّرُ في زَوْجَةِ السّلطان، وتَمَالُئها مَعَ مُسْتَشَارِها تَاج الملك للإيقاع بِه. *كيف تجرّأ على تَعقُّبِ رَسولِي وقَطْعِ طريقه؟ كَيْفَ يَرْضَى السُّلطان بهذا؟ هل نَجَحَ الباطنيّة حقًّا في استمالَة تِلك الأفعى وذلك الثَّعْلَب؟*

جلَسَ مُتثاقِلًا يسترجعُ تاريخَه الطّويل مَعَ مُعْضِلاتِ البِلاط السَّلجُوقيّ. تذكّر يومَ خرَج مِن ضواحي طُوس شابًّا غِرًّا، وخِدْمَتَه أميرَ بلَخ أبا عليٍّ بنَ شاذان، ثمّ داود بن ميكائيل بن سَلْجُوق والِد ألب أرسلان. وَتذكّر

أنّه تَجاوزَ عقَبَاتٍ كَأْدَاء، وتَخَلّصَ مِن كلّ ذلك بالأناةِ والعَقْل والحَزْمِ. كان شَابًّا وحيدًا لا يَمْلِكُ غَيْرَ عَقْلِه وعِلْمِه وأَنَاتِه. واليومَ، ها هو أكبَرُ وزيرٍ في بلادِ الإسلام، أبٌ لاثْنَيْ عَشَرَ ولدًا، كُلّهُم حُكَّامٌ على الأقَاليم، وَيَمْلِكُ أَلْفَيْ فَارِس؛ فَكَيْفَ يَعْجَزُ عَن مُقارَعَة ذاتِ أساوِرَ؟

تَذكَّر يومَ وصّى به داودُ ابنَه ألب أرسلان، وكَيْفَ خدَم السّلطانَ ألب أرسلان عَشْرَ سِنين، وكان عِنْدَ رُكْبَتِه لَحْظَةَ وفَاتِه، ثمّ استعادَ وصيَّتَهُ لَهُ بِرعاية ابْنِه ملكشاه. وكيف ثبَّتَ الأمْرَ لملكشاه رَغْمَ أُنوفِ إخوَتِه. مَالَ عَلَى كُرسيّه وعيناهُ تتأمَّلان السّقف الرَّفيع، فطاف بذهنه يَوْم تولّي ملكشاه السّلطنة -وهو ابنُ ثمانية عشرَ عامًا- سنة 465هـ. *لَقَدْ أَنقَذْتُهُ مِن ثَوْرَة عَمِّه عليه، وكان لا يتنفّس إلّا برأيي ولا يسمعُ فيّ قولًا، واليومَ ها هي ذي الأفعى تَحْمِلُهُ على غَمْزِ قَناتي أوانَ شَيْبَتي بَعْدَمَا بَلَغَتْ شَمْسُ العُمرِ رَأْسَ الحَائط! كيفَ أعجزُ أمامَ لَبؤةٍ تُركِيَّة مِن بُخَارى!*

صفَّق فدخَل كاتِبه.

- عليَّ بكتابي «سياستْ نامَهْ».

كانَ ملكشاه قَدْ طلَب مِنْهُ تأليفَ كِتَابٍ يُجْمِلُ لَهُ فيه تَجاربَه ونصائحَه في السّياسة ليَتَّخِذَهُ دليلًا في الحُكْم. وبَعْدَ ثَوانٍ ظهَرَ الكاتِبُ مُسرعًا في جبّته الأرجوانيّة وبَيْنَ يدَيه مُجَلَّدٌ أنيقٌ خَمْريُّ اللّون. وضعَه على الطّاولة القَصيرة عِنْدَ رُكبته، فأشارَ إلَيه بالانْصِرَاف. أخذَ القَلَمَ وكَتَبَ:

«الفَصْلُ الثّاني والأربعون: في النِّساء وحُرُم القَصْر وحدِّ المرؤوسينَ ومَرَاتِبِ قَادَةِ الجَيْش:

يُمْنَعُ تَمْكِينُ مَنْ هُم تَحْتَ سُلْطَةِ المِلك وفي خِدْمَتِه مِنْ أَنْ يكونَ لَهُم نُفوذٌ وقوَّة، لِمَا يَنْجُم عن هذا مِنْ إخلالٍ عظيمٍ يَذْهَبُ بِجَلالِهِ وأُبَّهَتِهِ وَهَيْبَتِهِ، وأَخُصُّ مِن هؤلاء النّساء؛ فهنَّ مُحجَّباتٌ مستوراتٌ ناقصاتُ عُقول، الغايةُ

منهنّ الإنجابُ لِحفْظِ بَقَاءِ النَّسل. وإنَّ أفضلَ النّساء وأجدرَهنّ بالإيثارِ والقَبُول أحسنُهنَّ نَسَبًا وأكثرُهنَّ سِتْرًا وتَقْوَى».

وتذكَّر أنّ تركان خاتون لا تُبرم أمرًا إلّا بِمُشَاورَة تاج الملك، فَكيفَ سَيُوصِلُ الفكرةَ إلى السّلطان؟ أَسْنَدَ القلَمَ إلى الدَّواة، ووضعَ يَديه تحتَ ذَقنه، ثمّ انتزعَهُمَا سريعًا وعاد يكتبُ:

«وإذا امتدَّت أعينُ النّساء إلى المُلك وتدخَّلنَ في الحُكم فإنّهنّ لا يتعدَّيْن ما يُوحي به إليهنَّ ذوو المآرب والأطماع. لأنّه ليس لهنَّ القُدرة -مِثْلَ الرّجال- على استطلاعِ الأحوال في الخارج برأي العَيْن. فمُعظَمُ أوامِرِهنّ تَصْدُرُ بِوَحْيٍ مِنْ أقوالِ مُتَصدِّري أكثرِ شُؤونهنَّ مِن مِثْلِ الحَاجِبَةِ والخَادِمِ، ولا بدّ -والحال هذه- مِن أن تأتي أغلَبُ أحكامهنّ وأوامرهنّ مُغايرةً للحقائق والواقع؛ فَيَنْشَأ الفَسَادُ ويُضار المُلْك في جَلالِهِ ووقَاره وحُرْمَتِه، ويُسَام النّاس الأذى والخسفَ ويتسرّب الخَلَلُ إلى الدّينِ والمُلك، وتُصبح أموالُ النّاس وثرواتُهم عُرضةً للنَّهب والزَّوال، وَيَلْحَقَ الأذى والهَوانُ بِكِبَارِ رِجال الدّولة»!

أمسَكَ القلَمَ في الهواء مُتهيِّبًا أنْ يُورِدَ تفاصيلَ قَدْ يَفْهَمُ السّلطان أنّ فيها تَلْميحًا إلى زَوْجَتِه. ثمّ مرَّرَ أصابِعَه على خدَّيهِ المحفُورين، وأعادَ نظرَه إلى الورَقة وكتَبَ مَعَ خَفْقَةٍ في قَلْبِه:

«ولَمْ يَنْتُج عَن تسلّط زَوْج أيِّ مَلِكٍ عليه، في أيّ عَصْرٍ مِن العُصورِ، سِوَى الذلّ والعارِ والشّرّ والفِتْنَةِ والفَسَاد»!

استرخَى في كرسيّه وهو يشمُّ رائحةَ البَخور المنسابَة مِن طَرف المجْلِس. وسمِع خَفْقَ نِعَالِ حاجِبِه. رفَعَ رأسَه قليلًا عَنْ مُسْنَدِ الكرسيّ، فانحنَى الحَاجِب:

- سيّدي، مَولاي السّلطان يَدْعُوكُم.

جلَسَ مُتثاقِلًا. *ماذا يُريد؟ وكَيفَ السَّبيلُ إلى مُدَاراتهِ؟ أمْ الأمْثَلُ مُصَارَحتُه وَمُنازَعتُه، والشّكوى من الأفْعى وحَاجِبِها؟*

وقَفَ مُستنفِرًا كلّ طاقاتِه وخِبْرَتِه ودَالَّتِه. ثمّ مشَى في الممرَّاتِ الواسِعة مُنْصِتًا لِتَغْريدِ الطُّيورِ في جَنبَاتِ القَصْر. خُيِّلَ إلَيه أنَّ أصواتَ الطُّيورِ الغَرِدَة تتحوَّلُ إلى أصواتِ بُومٍ مُنذِرةٍ بالبَوارِ والشّؤم. *ما الّذي يَنْتَظِرني؟ وكَيْفَ سَأُحادِثُ السّلطانَ؟ وهل سأعودُ من هذه الممّرات ورأسي فَوْقَ كَتفِيّ؟*

اختَفَى بَين الأروقة في طريقِه إلى السّلطان، بينَما كانَت عَيْنَا صَاحِبِ مُكْحَلَته ومِسواكه تُطارِدانِه بِفُضول.

21

أصفهان، 484 هـ.

انفتَح البابُ الخشبيُّ الضّخم فظهرَ نِظامُ المُلْك قادمًا يمشي مِشيةَ الزّاحِفِ إلى عامه الثّمانِين، ويده اليمنى تقبض طَرَفيْ دُرّاعَتِهِ البَيْضَاء الواسِعَة. لاحظَ خُلُوَّ المجلِسِ إلّا مِن السّلطان وكاتِبِهِ وتَاج المُلك، ولَمْ يَشُكَّ في أنَّ السّلطانَةَ تَسْمَعُ مِن وراء الحِجَاب، أو مِنْ أذُنِ جَارِيَةٍ مِن جَواري القَصْر أو خَصيٍّ مِن خِصْيَانِه. وقفَ مُنْحَنِيًا:

- السّلامُ عَلَى مَوْلاي السُّلْطَان!

غَمْغَم السُّلطان بفتور:

- وعليكُم السّلام!

أشارَ بِيَدِه إلى كُرسيٍّ عَنْ يَمينِه يُقَابِلُه آخَرُ يَتربَّعُ عَلَيه تاجُ الملك. جَلَسَ مُتثاقِلًا، ثمّ قال بِصَوْتِه العميقِ المشُوبِ بنفسٍ مُتْعَبَة:

- كيْفَ حالُ مَوْلاَي؟

كان السّلطانُ يَعرِفُ وزيرَه جيّدًا. فمُنذ تِسْعَ عَشْرَةَ سنَة وهُما يَعْمَلانِ مَعًا. فلاحظَ في نَبْرَته تَرَقُّبًا وَخَوْفًا، فقال:

- مَوْلاكَ بِخَير لَوْلاَ مَا قُمْتَ به.

مرَّرَ الوزيرُ لِسانَه سريعًا على شَفَتَيه:

- مَولاي! هَلْ لي أنْ أُجلّيَ الأمرَ حتّى يَتَّضِحَ لِجَنَابِكُم؟

أمالَ السّلطان رأسَهُ إلى الورَاء:

- قُل مَا شئتَ أيّها الوَزير!

مالَ نِظامُ المُلْك إلى الأمام مُلْتَفِتًا بِجسمه كلِّه جِهَةَ السّلطان:

- يَعْلَمُ مَولانا طُولَ خِدْمَتي لِهذِهِ الشّجرةِ الزّكيّة. فمُنذُ انطلَقْتُ مَا فَتَرْتُ وَلاَ تَوانَيْتُ. وسلَختُ عَشْرَ سِنين مَعَ السّلطان ألبْ أرسلانْ وتِسْعَ عشرةَ مع مولاي. وقَدْ علَّمني النَّظرُ في العِبَر والسِّنين، وفي تخالُفِ اللّيل والنّهار، وسِيَرِ الهالِكين مِن الأكاسِرَة والقياصِرَة أمُورًا وَجَبَ عليَّ أنْ أُعمِلَ ثَمْرَتَها في الحيلَة لِيَدُومَ رُسوخُ هذه الشّجرة الزَّكيَّة.

وسكَتَ هنيهة، ثمّ التَفَتَ إلى تَاج الملك، فوجدَه يُردّدَ بَصَرَهُ بَيْنَهُ وَبَيْن ملكشاه سابِرًا أثَرَ وَقْعِ الكلامِ عَلى السّلطان؛ فواصَلَ:

- وقَدْ عَلِمْتُم أنَّ مِن رأيي الإبقاءَ على هذه الخلافةِ العَبَّاسيّة تَبَرُّكًا بالدَّوحَةِ النَّبويّة وحمايةً لِسِلْكِ الإسلامِ أن يَنْتَثِر. فَقَد تعوَّدَ المسلمونَ مُنذ اثْنَين وخَمسين عامًا وثلاثمائة على خليفةٍ عباسيٍّ في بغداد، ولا أرْضَى للسُّلطان ولا لأحَدٍ مِن ذريَّتِه بِقَطْعِ ذلِك السِّلك.

وأحسَّ الوزيرُ بوَجْهِ السُّلطان يَنْبَسِطُ وبِقَسَماتِه تَلين. ولَمَحَ تاجَ الملك مِن طرف عينه، فَرأى وجهَه يتربَّدُ. تحرّكَ نِظامُ المُلْك مُعتدِلًا في جلْسَتِه بَعد إحساسِه بالثِّقَة:

- وأنتُم -يا سلطانَ المشرِقِ والمغْرِب- تَمْلِكونَ بغداد بِمَن فيها، فلَكُم الأمرُ والنَّهيُ. والخَليفةُ إنَّما يَمْلِكُ المراسيمَ والقَضيبَ والبُردَةَ النَّبويّة، ومباركةَ ما تقومونَ بِهِ وما تَرْونَه، ومُشاركَتكُم الدّعاء على المنابِر؛ فهو آلةٌ من آلاتِكُم، ورأيُه سَهْمٌ مِن سِهامِكُم، ودُعاؤه عُدّةٌ مِن عُدَدِكُم. وأنا إنَّما فعلتُ ما فعلتُ حِرْصًا على بَقاء الدّولة وتَطييبًا لِخَاطِرِه نِيَابَةً عَنْكُم.

كانَ السّلطان يستمِعُ وهو يَنْقُرُ بِحِرْبَتِه طرَفَ كُرسيّه. فَقَدْ بَدَأ مُنذ

أشهرٍ يشعُرُ بِمَلَلٍ مِن طُولِ صُحْبَةِ الوزير ومِن كثرةِ أمْوالِه وضِيَاعِه وخَدَمِهِ ونُفوذِهِ واسْتِبْدادِهِ بالأمْرِ عَليه أحيانًا. لكنَّهُ لا يتصوّرُ غيابَه عن بلاطِهِ، ولا خلوَّ دولتِهِ مِنه. فَمَن سيضبِطُ حِساباتِ الخَرَاج، ويأخُذُ أموالَ الإقطاع، ومَن سيديرُ الجيوشَ، ومَن يتَّصلُ بالعُلماءِ والوُجهاء والمدَارِس لِيُسخِّرَ ذَلك كلَّهُ لِخِدْمَتِه غَير هذا الصَّقْرِ العَجوز؟

وكَيْفَ سأخْرُجُ لِلصَّيْد والاستمتاع به وأنا خالي البَال إذا لَمْ يَكُن هذا الثَّعلبُ الهرِمُ يُديرُ الأمرَ في غَيْبَتِي؟ أطْرَقَ الوزيرُ، وأرْسَلَ السّلطانُ بصرَهُ مَع الجُدرانِ العَالية. وسُمِعَ صَوْتُ طائرٍ يُغرّدُ مِن النّافذة. وبَعْدَ وقتٍ جاءَ صَوْتُ السُّلطان:

- لكنَّكَ بَعَثْتَ رِسالَةً تَحْتَ جُنح اللّيل في أمْرِ الخِلافَة وَلَمْ تُطْلِعني علَيها!

تنفّس الوزيرُ، ومرّر يدَهُ على ذَقْنِهِ بِسُرعَة، ثمّ نظَرَ إلى وَجْه ملكشاه، فَتحاشَى نَظَرَاتِه، ولَمح غَضَبًا مَشُوبًا بِعتَبٍ في عَينَيه. ففرَكَ يَدَيه قائلًا، وقَدْ ازدَادَ صَوْتُهُ ارْتِفَاعًا:

- الأمرُ أمرُ مَولاي! وما كانَ لِيَأمُر بَأمْرٍ إلّا وَهو الصَّوابُ. وما أقدمتُ على الأمر دونَ عِلْمِكُم إلّا لِتَوهُّمِي أنَّكَم قَدْ لا تَقْبَلُون؛ فنظَرتُ لِلْمَصْلَحَةِ وإنْ كَرِهنَاها مَعًا، كما ينظر الأبُ لابنه. وأنا نادِمٌ لِعَدَمِ إخْبَارِ جنَابكم. وأنا -يا سلطانَ المشْرِقِ والمغرِب- رجُلٌ هرِمٌ تعِبٌ. وقُصَارى أمانيَّ أن أذهَب إلى الحجِّ ماشيًا، ثمّ أعودَ وأبني دارًا للصوفيّة أعْتكِفُ فيها عن الدُّنيا ونَاسِهَا.

وتخيّل السّلطانُ وزيرَه في فَلَواتِ العَرَب لابِسًا مُرَقَّعَةً وبِيَدِه رَكْوَة. وشخَصَت في ذِهْنِه سَلْطَنَتُهُ خاوِيَةً تَخْفِقُ الرّيحُ في أطرافِها. فانتابه إشفاقٌ وهْوَ يَتَأمَّلُ شَيْبَ وزيرِه، وخدَّيهِ المحفُورَين. فَقَالَ بِنَبْرَةٍ رقيقة:

- لا عليكَ أيّها الوزير! كان أحرى بِكَ أن تُخبرني قَبْلَ إرسال الرّسالة، وأنت تَعلَمُ أنّي لا أردُّ لَكَ أمرًا.

- عفوَك يا مولاي! ظننتُ أنَّ مِن تَمامِ الخِدْمَةِ إخفاءَ الأمْرِ عَنْكُم حتّى يترتَّبَ علَى ما أراهُ الخَيْر دُونَ ثَنْيِكُم عمَّا تُريدون.

والتَفَتَ السّلطان إلى تاج الملك، فقرأ في عَينَيه أنَّهُ يُذكِّرُهُ بِأَمْرِ الحِسَابات الّتي ظلَّت تركان خاتون تتحدَّثُ عنها؛ فقال:

- وثمَّةَ أمرٌ آخر أيّها الأتابِك[1].

أنْصَتَ الوزيرُ بِقَلْبٍ يخفقُ سعادةً بَعْدَ سَماعِ السّلطان يُناديهِ «الأتابك»:

- إنَّكَ تُنْفِقُ في كلّ سنَةٍ على أربَابِ المدارِسِ والرِّباطاتِ ثَلاثمائة ألف دينار. ولو أُنفِق هذا المبلغُ على جَيْشٍ لَدخل القسطنطينيّة!

برَقَت عينا تاج الملك، وشخَصَ ينتظِرُ جوابَ الوزير الّذي رفَعَ يَدَيه وجمَعَ رُؤوسَ أصابِعِه:

- يا سُلطانَ العَالَمِ! أنا شَيْخٌ لو نُودي عليَّ في السّوقِ ما زادَت قِيمتي على ثلاثَة دنانير. وأنْتَ حَدَثٌ لَوْ نُودي عليكَ ما زادَت قيمَتُكَ على ثلاثين دينارًا. وقد أعطاكَ اللهُ تَعالى وأعطاني بِكَ مَا لَمْ يُعْطِ أحدًا مِنْ خَلْقِهِ. أفلا نُعوّضُهُ عَنْ ذلِكَ في حَمَلَة دِينِهِ وحفَظَةِ كِتَابِهِ ثلاثمائة ألف دينار؟

وسكَتَ قليلًا مستحضرًا ميزانيَّة الإمبراطوريّة الّتي يَحْفَظُ كلّ تفاصيلِها ثمّ قالَ مُبتسِمًا:

- ثمّ إنّك -يا سلطانَ المشرق والمغرب- تُنْفِقُ على الجُيوش المحاربةِ كلّ سنَةٍ ستَّةَ أضعاف هذا المال، مع أنَّ أقواهُم وأرْمَاهُم لا تَبْلُغُ

---

(1) الأتابك يُطلق على من يربّي أميرًا من أمراء الأتراك.

رَمْيَتُهُ مِيلًا ولا يَضرِبُ بِسَيْفِهِ إلَّا مَا قَرُبَ مِنْه. وأنا أجيِّشُ لَكَ بهذا المال جَيْشًا تَصِلُ سِهَامُ دُعائه إلى الله لا يَحْجُبُها شيءٌ!

وسكَتَ الوزيرُ مُحَمْلِقًا في السّلطان، فلمَحَ غِلالةَ رِضًا تلوحُ على جبينِه مَشوبَةً بِتَذمُّر. وخَطرَ لهُ أنَّ أقْسَى ما يُمْكِنُ أنْ يُقْدِم عليه هو أن يَعْزِلَه. وَلَوْ فَعَلَ لانْتَقَضَ كثيرٌ مِن أمْرِ سَلْطَنَتِه القَائمَة على رجالٍ صَنَعَهُم، وإدارةٍ بَنَاها. ونظَرَ السّلطان إلى عينَيْ وزيره مفكّرًا: *لِمَ لا أتخَلَّصُ مِن هذا العجوز الماكِرِ وأستَريح؟ لقَدْ تحقّق كلّ ما كانت تركان تتحدّث عَنْه. مَن هُم حكّامُ الوِلايات إلّا أبناؤه؟ ومَنْ يَقْبِضُ الخَراجَ غَيْرُهُ؟ ومَن يُطيعه الفُقهاء وتلهَجُ الصّوفيّة بالدّعاء له؟ ومَن يُنفِقُ على المساجد والطُّرُقِ والصوفيّةِ غيره؟* لكنّ السّلطانَ سرعان ما شعُرَ باغترابٍ عَنْ نَفْسِه وهو يَسْتَغْرِقُ في هذا التّفكير. *كيف أفكّرُ في هذه الأمور ضدَّ رجلٍ أخذَني صغيرًا، وحَماني مِن الذّئاب التّركيّة الضّارية وضَمَّني تحْتَ جناحَيْه حتّى كبرتُ؟ ألَيْسَت هذه الخواطِرُ عُقوقًا لرجلٍ خدمني وخَدَمَ آبائي؟*

ورفَعَ سبّابتَه، ووضعها بيْنَ شَفتَيه مُواصِلًا التّفكير، ثمّ تنبّه على صَوْتِ الوزير:

- مَوْلاي، ألا يستحقُّ رَسُولي اعْتِذَارًا عمّا أُلْحِقَ بِهِ مِن هَوان؟ فَقَدْ ضَرَبَهُ الفُرْسَان!

رَمَقَهُ السّلطانُ إذ بدا له أنّه تجاوز حُدُودَه. *كَيْفَ يَطْلُبُ الاعتذارَ مِن فُرْسَانٍ مِن حَرَسي ضَرَبُوا رسُولًا مِنْ رُسُلِه؟* وخطرَ لَهُ أنْ يَصْرُخ في وجهِهِ وَيطْرُدَه. ثمّ تذكَّر أنّ وراء هذا الذّئبِ الفارسيِّ العَجُوز آلافَ السُّيوفِ، آلاف الفُرسان الأتراك، وآلاف العُلَماء والطلّابِ والصُّوفيّة والخَدَم.

أمْسَكَ لِسَانَه وداری ما في خاطِرِه من أفكار:

- يَدُكَ ضَرَبَت يَدَكَ أيّها الوزير. فَلِمَ الاعتِذار؟ أذِنّا لَكَ بالانْصِرَاف!

وقَفَ نِظامُ المُلْك وهو يَشُدُّ دُرَّاعَتَهُ. وجَال بخاطِره أنّها أوَّلُ مرّةٍ يقولُ لَهُ فيها سُلطانٌ سلجوقيٌّ أنّ بإمكانه أنْ يَخْرُجَ! تَكَلَّفَ الابتسامَةَ وهو يَسْبِرُ آثار طَرْدِهِ في وجه تاج الملك، فلَمَحَ عَينَيه تطْفَحان بالتَّشفِّي. ثَبَّتَ عِمَامَتَهُ على هامَتِه وتَمْتَمَ:

- فَلْيَحْفَظ الله مولاي السّلطان!

وخرَجَ والأسئلةُ تتزاحَمُ في ذِهنِهِ عَنْ كَيفيَّة التَّعامل مع هذا السّلطان، صنيعتِه، فقد بدأ ساعدُه يشتدّ، ومِخْلَبُه يَحتدّ. لكنّ الرياح الأصفهانيّة البَارِدة صفعتْهُ على وجهه فتوقّف عن التفكير وعبَرَ حديقَةَ القَصْرِ مُتّجهًا إلى الباب الخارجيّ.

22

أصفَهان، 484 هـ.

رَفَعَ نِظامُ المُلْك يَديه وتمطَّى، ثمّ وضعَ ظهرَ كفِّهِ اليُسرى على فيه مُتثائبًا. وتلفَّت يبحث عن وسادةٍ أضخم مِن الّتي وراء ظهرِه. فبادرَ غلامٌ مقطوع الأذن، ودسّ مخدّةً خضراء مهدَّبَةً بين ظهرِه والجِدار. أحسَّ الوزيرُ بالضّجَر. فمُنذ سبع ساعاتٍ وهو جالسٌ للحاجات والمظالم والتّوقيعات. ملأ شدِقَيه بالهواء، ثمّ نفخَهُما وهو ينظُر في الورقة الأخيرة الّتي أعطاه إيّاها صاحبُ ديوان الحِساب:

- خمسة آلاف دينار؟

- سيّدي!

انفلَت رذاذُ الرّيق مِن فم المحاسِب حتّى وقعَ على أنف الوزير، فتحوّل شعورُ المحاسِب مِن الهلَع إلى الخجَل، وانتبَهَ نِظامُ المُلْك فقال مُبتسمًا:

- ظننتُ المبلغ كثيرًا، لكنّه ليس كذلك. المبلغ زهيد. فترتيبُ ميازيبِ بيوتِ النّاس في أصفهان أمرٌ عظيمٌ مُكلِف.

وطوى المحاسِبُ أوراقَه جذِلًا، مُستأذِنًا. واسترخى الوزيرُ على الوِسادَة، وأخذ يفكّر في أنَّهُ لَمْ يَبْقَ إلّا أن يدخُلَ عليه الخصيُّ المسؤولُ عن حُرُمِه وجواريه. وما إنْ توارى المحاسِبُ خَلْفَ الباب مُتعثِّرًا في جبّته حتّى ظهرَ خصيٌّ طويلٌ أبيضُ مُحْدَودِب الظَّهر ووقف بين يدي الوزير مُنحنيًا:

- السّلام على سيّدي ورحمة الله!

فرَدّ عليه بتثاقلٍ:

- وعلَيْكَ السّلامُ يا ياقوت.

وأشار عليه بالجلوس، فجلسَ الخصيّ عن يمين الوزير على كرسيٍّ قصير، وبين يديهِ طاولَةٌ مُربَّعة مغشَّاةٌ بحريرٍ فاخِر. ثمّ وضعَ ورقةً على الطّاولة، وقال بصوتٍ رقيق:

- سيّدي، ثمّة سبعَةُ أعبدٍ وأربعُ جوارٍ لَمْ يأمُر سيّدي فيهم بشيء.

كان الوزيرُ يستَمِعُ، وهو ينظر إلى غلامه حتّى سكَتَ، فظَلَّ ساهِمًا، ثمّ قال بَعْدَ هُنَيهات:

- يُدفع العبيد إلى قائدِنا دِرَاز. وتُسلّم الجواري إلى وصيفَة الجواري ويبقَينَ في حِجْرِها حتّى أرى رأيي فيهنّ.

ثمّ رفعَ عَينَيه إلى غلامه وسأله:

- هل فيهنَّ مَنْ تُحسِن الغِناء؟

- بينَهنَّ جارية التاجر الأحول، إنّها تُحْسِنُ الغِناء.

- آآه، نسيت! ألم يرسلها إلى الفقيه منذ زمن؟ فَلْتُوَجَّه حالًا إلى الغزالي!

- أمرك، مولاي!

قامَ الوزيرُ واضِعًا يدَيه على رُكْبَتَيه حتّى اعتَدَل. ثمّ مشَى والخَصِيُّ يَتْبَعُهُ. تجاوزَ الفِنَاء المليء بأشجارِ الرُّمَّان والبُرتقال حتّى وصل إلى الباب الطّويل حيثُ يقِفُ حارِسان. انفتَح الباب، فدخَل مُستَغْفِرًا مُحْسْبِلًا. ومشَى في الممرّ الضَيِّق إلى الدّهليز الثّالث.

سارَ مُترنّحًا في ردهاتِ قَصْرِه حتّى بلغ حُجْرَةَ الأكلِ الخاصّة بأهلِه. أزالَ العِمامَة، ووضعَها على المِشْجَبِ المثبَّتِ قُرْبَ البابِ عَنْ يَمينِه، فتلقّاهُ ابنُه فَخْرُ الملك وقبّل يدَيْه:

- كَيْفَ حَالُ أبي اليَوْم؟

- بخير يا بُنيّ!

واقترَب فَخْرُ الملك مِن مكانِ جُلوسِ والِدِه، بينما جلس الوزيرُ متأوّهًا:

- صدق زُهَير: «سئمتُ تكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يَعِش ثمانينَ حَوْلًا -لا أبَا لَكَ- يَسْأَمِ!».

وضعَ فَخْرُ الملك كِتَابًا كان في يدَيه على الطّاولة:

- تُعَمِّرُ عُمرَ نُوحٍ إنْ شاء الله!

- أخخ!

ثمّ مال بجسمِهِ على الوِسادَة:

- أخخ! لِمَ سَمِعْتُ صراخَكَ البارحةَ في جَنْبِ الدَّار؟

- كُنْتُ أؤدِّبُ غُلامًا مِن غِلْمَاني عَليم اللِّسان!

تبسَّم نِظامُ المُلْك وهو يَنْظُر جِهَةَ البابِ إلى خادِمٍ قادِم:

- عليمُ اللِّسان؟ هذا ممّا يُسْتَمْلَحُ، فِلَمَ تؤدِّبُه؟

- نَعَم، قَدْ يُسْتَمْلَحُ ذلك في الجاريَة، أمّا العَبْدُ فَعِلْمُه وظُرفُه ثُلْمَةٌ ومَنْقَصَة.

وضع الخادِمُ خِوانًا بين الوزير وولَدِه، ففاحَت رائحةُ اللَّحمِ المطبوخ والكرَزِ واللّيمون والزُّبدَة. والتفَتَ فخر الملك إلى أبيه:

- هل تذكُرُ قصَّةَ أبي العَيْنَاء مع عَبْدِه العَلِيمِ اللِّسان؟

أزاحَ الوزيرُ جبّتَهُ، فبَقيَ في قميصٍ وإزار، حتّى اقترَبَ غلامٌ ومدّ له جُبَّةَ الرّاحَة. ثمّ أخذَ مِلْعَقَةً من الملاعِق المصفوفَة في طرَف الخِوان:

- وما خَبَرُ غلامِ أبي العَيْنَاء؟

- حَكَى أبو العَيْنَاء سَبَبَ تَحوُّلِهِ مِن البَصرة إلى بغداد فقالَ: رأيتُ غُلامًا ينُادَى عَلَيْهِ بثلاثينَ دينارًا في سُوق البَصْرَة، ومِثْلُهُ يُساوي

ثلاثمائة دينار فاشتريتُه. وكنتُ أبْنِي دارًا، فأعطيتُهُ عشرينَ دينارًا لِيُنْفِقَها على العمّال. فأنفَقَ عشَرَةً واشتَرى بَعَشَرَةٍ ملابِسَ لِنَفْسِه. فقلتُ لَهُ: ما هذا؟ فقال: لا تَعْجَلْ، فإنَّ أربابَ المروءاتِ لا يَعيبونَ هذا على غِلْمانِهِم. فقلتُ في نَفسي: أنا اشتَريتُ الأصمعيَّ ولَمْ أدْرِ! ثمّ أرَدْتُ أنْ أتزوَّج امرأةً سرًّا خَوْفًا مِنْ بِنْتِ عمّي فاستكْتَمْتُهُ وحضَّضتُ عليه كتمانَ الأمر. ودفعتُ إليه دينارًا يشتري بِهِ حوائجَ وسمكَ هازِبَى. فاشتَرى غَيْرَ ما أمرتُهُ بِهِ، فغاظَني ذلك. فلمّا عاتبتُه قالَ: رأيتُ الحكيمَ بقراط في كُتُبِهِ يذمُّ سَمَكَ الهازِبَى الّذي طلبتَهُ! فقلتُ لِلْغُلام: يا ابن الفاعِلَة! لمْ أعْلَم أنّي اشتَريتُ جالينُوس. فأخذتُه وضربتُه عَشْرَ مَقارعَ. فلمّا فرغَتُ مِن ضَرْبِه قام فأخذَني وضربَني سَبْعًا، وقال: يا مَولاي! الأدَبُ ثلاثٌ، وإنَّما ضربتُكَ سَبْعًا قِصاصًا. فقُمتُ، فرمَيتُه، فشَجَجْته، فغضِبَ، وذهَب إلى بِنْتِ عمّي وقال لها: الدّينُ النَّصيحة، ومن غشّنا فَلَيْسَ منّا. إنَّ مولايَ قَدْ تزوَّج عليكِ واستكتَمَني، لكنّي قلتُ: لا بدّ مِن إخبارِ مولاتي، فضرَبَني وشجَّني.

فغضِبَت بِنْتُ عمّي، ومنَعَتني دخولَ الدّارِ، وحالَتْ بَيْني وبَين ما فيها. وما زالَت كذلِك حتّى طلَّقْتُ المرأةَ الثَّانية، ثمّ صارَ الغُلامُ عندَها مُدلّلًا مكينًا بين الغِلمان، وسمَّتْهُ بِنْتُ عمّي «الغُلامَ النّاصِحَ». فكرِهْتُ مُناداته بها، وقلتُ أعتِقُهُ وأستريحُ. فلمّا أعتَقتُه لَزمَني، ورفَضَ الخروجَ مِنَ الدّار، وقال: الآنَ وجَبَ حقُّكَ عليّ، فالولاءُ لُحْمَةٌ كَلُحْمَةِ النَّسَبِ كما قال صلّى الله عليه وسلّم. وأرادَ الحجَّ، فزوَّدتُهُ، فغابَ عشرينَ يومًا ورجع، وقال: قُطِعَ الطّريقُ علَينا، فرأيتُ حقَّكَ قَدْ وَجَبَ. وأرادَ الغَزْوَ فَجَهَّزْتُهُ، فلمّا غابَ بِعْتُ مالي بالبَصْرَةِ وخَرَجْتُ مِنْها خَوْفَ أن يَرْجِع!

فضحك الوزيرُ وقال:

- الغلامُ البليغُ كالزَّوجَةِ العالِمَة. فهي مُرهِقَةٌ مُغضِبة! تُناقِشك وتُلاحيك، وتحتجُّ عليكَ بمَالِك والشّافعيِّ في شؤون المنزل.

ونهَشَ الوزيرُ فخذَ دجاجةٍ مُفكّرًا في الجارية التي أرسلها إلى الغزالي. فقد سمع الأحول يمدحُها كثيرًا بالعقل والأدب. وتوقَّف فجأةً عن المضغ، وتلفّت إلى ابنِه:

- كيفَ الباطنيّة في إيالتكم؟ هل لَهُم أتباعٌ وأشْيَاع؟

رفَع فَخْر الملك يدَه عن الطعام، وقال بمخارجَ مُشوَّشَة:

- قَبَضْنَا مرَّةً على مجموعَةٍ مِنهم مُسترينَ في ضَيْعَةٍ بضواحي بلخ، وأخذنا عليهم الإقرارَ، ثمّ أطلقناهُم.

ولَمْ يَنْبِس الوزيرُ. إذْ ذَهَبَ ذِهنُه ناحيةَ قَلْعَةِ آلموت، وذلك الصَّبَّاح المتمترسِ فيها. فكّر في الحِصار الّذي طالَ خارجَ القَلْعَةِ دُونَ فائدَة، وفي مكايداتِ حَسَن الصَّبّاح لأمراء الجَيْش المخيِّم حوله. تأوَّهَ وهو يُشيرُ إلى صاحِب سِواكِه ومُكحلَتِه الواقِفِ غَير بعيد. فاقترَب منه خافِضًا رأسَه. ودَعا بغَاسِل الأيدي بينما كان يحدُّ السَّمعَ لكلّ كلمَةٍ يَنْبِسُ بها الوزير في شأن الباطنيّة.

وفي مساء ذلك اليَوم، كتب صاحِب المكحلَة رسالَةً تحوي كلّ ما فاهَ بِه الوزيرُ مِن خُطَطٍ وأرسلَها إلى حَسَنَ الصّبّاح.

23

نيسابور، 484 هـ.

تجاوز الجنودُ دكّانَ محمود الخبّاز، ودخلوا ساحة الطاق المليئةَ بالغادِين والرائحين. وكان عبيد الموسوس جالسًا في طرفها الغربيّ وظهرُه إلى الشجرة عند مدخل مكتبة البيهقيّ. أخذتْ خلوب تنظرُ إلى الجنديِّ الممسكِ برسَنِ البغلة مفكّرةً في ما ينتظرها. ها قد سلِمتْ من تَسَرِّي العجوز نظام الملك بها، لكنّها لا تدري شيئًا عن الرجل الذي وُهبتْ له. أَهُوَ عجوزٌ أبخر؟ أم شابٌّ جلفٌ سيُذهِبُ محاسنَها بالخدمة وغسل الصحون؟

انتبهت من خواطرها على الجنود يقفون أمام منزلٍ متوسّطٍ ذي بابٍ مربّع. قرع الجندي الباب، فَفُتِحَ:

- من؟

- السلام عليكم... الشيخ محمد الغزالي؟

- نعم.. ما آآ

- أنا من خَدَمِ سيّدي الوزير، وقد أرسَلَ إليكم هذه الجارية..

كان الغزاليّ في إزارٍ وقميص، فشعُر بالخجل وهو ينظر إلى الجارية الجالسة على ظهر البغلة. ارتبك قليلًا، حتّى إنّه صمَتَ دون أن يشكر الوزير أو يرحّب بها. ثمّ تدارك:

- حفظ الله مولانا الوزير... تفضّلوا..

ابتعد الجنديّ، واقتربَ الغزالي من خلوب ليساعدها في النزول. كان أوّلَ ما انتبه إليه جسمُها البضُّ المَجْدُول، وعيناها النجلاوان، وذلك

الكبرياء الثاوي بين عينَيها وشفتيها. وبعد لحظاتٍ كان يقودُها من يدها داخل المنزل. صعدَا مع السلّم وهو متضايقٌ لتفكيره في فوضى المنزل وعدم نظافته، فمنذ رحلَ النبهانيّ تكاسلَ عن تنظيفه وحدَه. وخطر له أنّ غرفةَ الكتب أكثرُ الغرف نظافةً وترتيبًا، فأخَذَها إليها.

- يا مرحبًا... يا مرحبًا...

كان وجدانُ خلوب مشتّتًا بين المفاجأة والحيرة والتوجّس، خليطٌ من المشاعر يتناوش فؤادَها. حتّى إنّها لا تدري أهي حزينةٌ أم سعيدةٌ. تركها في الغرفة، وخرج، فأرسلت بصرَها إلى الكتب المصفوفة والمتناثرة. وشمّت رائحةَ الحبر الممزوجة بالعطر والغبار.

ثمّ سمعت قرعَ نَعْلَيْه قادمًا:

- أهلًا وسهلًا... ما اسم الكريمة؟

- خلوب!

- هذا اسمٌ فاتن...

جلس وناولها كأسًا من الماء:

- الخلوب بلغة العرب من تخلبُ الإنسانَ عقلَه...

وأنصتتْ جازمةً أنْ لا عهدَ لسيّدها الجديد بمحادثة النساء. نظرت إلى الكتب المتناثرة والأقلام والحبر، ثمّ أعادت بصرَها إليه. فوجدتْه شابًّا مكتملَ القوّة. وخطر لها أنّها قد توقعُه في حبّها حتّى تلدَ منه فتصبح حرّة. وماذا تريد أكثر من ذلك؟

وتذكّرت الخادمةَ الدرداءَ التي كانت تجمع الجواري وتنصحهنّ:

- لا تملك الجارية اختيارَ سيّدها... ولا بدّ أن ترضى مهمَا وقعَ لها.. فالرضى طريقُها إلى التمكّن!

سرح ذهنها في الكتب المصفوفة، بينما رتعَ الغزاليّ فيها بعينَيه النهِمَتَين.

تأمّل جسدها البضّ وقوامَها المجدولَ وعينَيْها الفاتنتين، وأناملَها الرخصةَ فسرَتْ قُشعريرةٌ في جسدِه. وشعر بموجةٍ عاتيةٍ من الحياء، فغادر الحجرة. وانتبهتْ خلوب إلى وجود قطّةٍ بيضاء قابعةٍ في زاوية الحجرة، فاقتربت منها تداعبها. وبعد قليلٍ عاد الغزاليّ يحمل عنبًا وهو يقول:

- حدّثيني عنك وعن نشأتك! وهل تربّيْتِ في قصر سيّدي نظام الملك؟

وقبل أن تفتح خلوبٌ فمَها سمِعا قرعًا قويًّا على الباب. فوقف الغزاليّ مُتأفّفًا نازلًا مع السلّم، وهو يقول:

- من الطارق؟

- نظام الملك؟ أنا عبيد!

- وماذا تريد يا عبيد؟

- جئت لأبارك لك قدوم العروس.. ولا تنس أن تُولِمَ وليمةً كبيرة، وأن تدعوني وتدعوَ رأسَ الديك الحجّام، ومحمودًا الفرّان.. ونُفيل وكلَّ سكّة معقل..

- قطعًا.. قطعًا..

قالها الغزالي بانقباض وانزعاج. وأدخل يده في جيبه وأخرج دراهم ودسّها في كفّ عبيد دون أن يعرف عددها وهو يقول:

- تصرّف في هذا حتّى نرى أمر الدعوة.. هيّا انصرف!

فابتعد وهو يصفّر ويغنّي، وصكّ الغزالي البابَ وصعد. ثمّ جلس في طرف الحجرة وعاد يقول:

- يا أهلًا وسهلًا.. حدّثيني عنك وأين نشأت...

فانطلقت خلوب تروي قصّتَها محاولةً إغواءه وإغراءَه بكلّ ما تملك من أسلحة الغواية.

24

«أوّلُ ما بُنيت المدارسُ والرباطاتُ للمساكين ووُقِفَت عليها وقوفٌ تجري على أهلها في وزارة نِظام المُلْك».

ابن تيمية

قَلْعَة شاه دز، أصفهان، 484 هـ.

كان السّلطانُ ملكشاه في ملابِسِهِ العسكريّةِ وبيدِه حَرْبَتُه، يَذْرَعُ الحُجْرَةَ المستطيلَةَ جيئةً وذهابًا. رفَعَ بصرَهُ مَع نافذةِ القَلْعَةِ المُطِلَّةِ على التِقَاء الأودِيَةِ وأطرافِ الهِضابِ، فَلَمَحَ غربانًا مُجتَمِعَةً على جيفَة، وقافِلَةً تَسيلُ مع الوادي تحتَ أشعَّةِ الشّمس المتسلِّلةِ مِن خلَل الأشجار. ثمّ قلّبَ بَصرَه في الجِبال العالِية المحيطَة، فتراءتْ لَهُ الحِجَارةُ السّوداء الملساءُ كالحَةً صلْبَة، وضوء الإشراقِ يَتسلّلُ إليها على استِحيَاء.

تذكّرَ عشرات آلافِ الدّنانيرِ الّتي أنْفَقَها في بِنَاء هذه القَلْعَة. وهو مالٌ يهونُ لِمنعَتِهَا وصُعوبَة الوصولِ إلَيها. وتذكّر يومَ جاءتْهُ فِكْرَةُ بِنائها. كانَ يَصْطَادُ رِفْقَةَ قائدٍ رُوميٍّ، فهرَبَ مِنْهُ كَلْبٌ مِن أفضَل كلابِ صَيْدِه، فَبَحثوا عنهُ، فوجدوهُ بهذا المكان المرتَفِع. فالتَفَتَ إليهِ القائدُ الرُّوميّ:

- لَوْ أنّ الرُّومَ تَمْلِكُ مِثْلَ هذه البُقْعَةِ لجَعَلْتَها قَلْعَة!

لكنّ التَّضايُقَ عاوَدَه. فوسّعَ قميصَه، ومشى حتّى اقترَبَ مِن الشّرفَة ناظرًا إلى مَهوى الوادي. انعطَف عائدًا إلى الحُجْرَةِ ذات الجُدران العالِية وأصابِعُهُ تلعَبُ بالحَرْبَةِ المُذهَّبة. كان يَرْفَعُ رأسَه ويخفِضُه، وما يكادُ يَصِلُ

إلى بابِ الغُرْفَةِ الواسِعَة حتّى يعودَ إلى طرفِها الآخرِ. كانت عُروقُه تَنْبِضُ، وصدرُه يَغلي، وعَيناه حَمراوَين. *كيفَ أغدو عاجِزًا في مَمْلَكَتي؟ كيفَ أطلُبُ مالًا فلا أجِدُهُ إلّا مِن وزيري؟ كيفَ يضعُ ذلك الوزيرُ أولادَه على الوِلاياتِ فَيَتسلَّطونَ حتّى يضرِبُوا رُسُلي ويُؤذوا جُنودي؟*

وضعَ يدَيه وراء ظهرِه، وخفضَ رأسَه، وأخذَ يتأمَّلُ السّجّادَ الفاخِر المتمايِزَ تحتَ حِذائه الخَشِن. ثمّ رفَعَ هامَتَهُ ناظِرًا إلى السّقف الأخضر، والقِبابِ المزركَشة. *لكنّ هذا الوزير صاحِبُ دالّةٍ علَينا. فقَد خدَمَ أبي وخدَمَني ومكَّن للسَّلطَنَة، ولَيْس مِن سياسَة الملِكِ أن تَحمِلَه سَورةُ الغَضَبِ على البَطْشِ بِهِ.*

وصلَ إلى الباب، فانعطَفَ راجِعًا، وقعَدَ على كرسيٍّ نُصِبَ في طَرَفِ المجلِس. *إذا كانَ صاحِبَ دالَّةٍ فَعَلَيهِ مُراعاةُ آداب المُلْكِ، ونحنُ كذلِك أصحابُ دالَّةٍ عليه. مَن جعلَه وزيرًا ومَن جعَلَ أبناءه وأحفادَه وُلَاةً؟ ومِنْ أينَ جاءه كُلُّ ذلك المالِ والرِّجال؟ وكيفَ جرُؤ حفيدُه عُثمان وابنُه فَخْرُ المُلْكِ على إيذاء شِحْنَتي قَوْدَن؟*

وصفَّقَ، فدخَل الحاجِبُ مُسرعًا حتّى نشَبَ طرَفُ جُبَّتِه بالباب.

- ادعُ لي الكاتِبَ وتاجَ الدّولة ومَجْدَ المُلْكِ البَلاسانيّ والقائدَ قَوْدَن.

انعطَفَ الحاجِبُ خافِضًا رأسَه، ومضى مسرعًا وهو يتفقَّد مكانَ الخَرْق في جُبَّتِه. وبعدَ ساعَةٍ حضرَ الجميعُ بَين يَدَي السلطان. كان لا يزالُ في بزَّتِه العسكريّة ويدُهُ تَلعَبُ بِحرْبَتِه المذهَّبة. أخذوا مَجْلِسَهُم وعُيونُهم تَرْمقهُ مُتسائلة، دُون أن يَتجرّأ أيٌّ مِنهم على البَدْء بالكَلام.

استَرخى السّلطانُ في مَقْعَدِه، وأمالَ رأسَه إلَيهم وقال بصوتٍ هادِئ:

- أيُّها الكاتِب!

- مَولاي السُّلطان!

اكتُب لوزيرِنا نِظامِ المُلْك!

- الطَّاعَة يا مولاي!

- **إنْ كُنْتَ تَرَى نفسَك شَريكي في الملك، ويدُك مع يدي في هذه السّلطنة، فذلِك تسلطُنٌ وتملّكٌ لا وِزارة. وإن كنتَ نائبي وتحتَ سُلطاني فيجبُ أن تلزَم حدَّ التّبعيّة والنّيابَة. فهؤلاء أولادُك قَدْ استَولى كلّ واحِدٍ مِنْهُم على كَوْرَةٍ عظيمة، ووُلّيَ ولايَةً كبيرة، ولَمْ يُقْنِعْهم ذلك، حتّى تَجاوزوا أمْرَ السّياسَةِ ومدُّوا أيديهم إلى النّاس، حتّى بلغوا بها قُوَّادي وحاشِيَتي.**

كانَ السّلطانُ يُملي رسالَتَهُ وعُيونُ الحاضرينَ شاخِصَة، وقُلوبُهم تَرْجُفُ في أقفَاصِها. *كيفَ يكونُ هذا؟ أيكتُب السّلطانُ للوزير الّذي ربَّاهُ بمثل هذا؟ كيفَ يكتُب بتلك النّبرَةِ للرّجُلِ الّذي لا يَدعوهُ إلّا «والدِي»؟ وما الحادثَةُ الّتي قادَت إلى ذلك؟* كان الغَضَبُ بادِيًا في نَبْرَةِ السّلطان، وكلِماتُهُ تَقْرَعُ آذانَ جُلَسائه.

رفَعَ السّلطانُ يدَهُ، فاقترَب مُساعِدُ الحاجِب، وناولَه الخَتْمَ. وما إنْ خُتِمَت الرّسالَةُ حتّى نَادى السّلطان:

- يَحْمِلُ الرّسالَةَ تَاجُ الدّولة وَمَجْدُ المُلْكِ مَع بَعْضِ قَادتِنا.

ثمّ سكَتَ، وراح يتأمّل الأعينَ الشّاخصَة، فبدا له أنّ مُعظَمَها صنائعُ الوزير، فَرُبّما مالوا إليه إنْ حدث انشِقَاق، ولَعلَّهم لا يأتونَ بِرَدِّه كما هو. فنزَلَ عَن كرسيّه وقال:

- وسَيَصْحَبُكُم الأميرُ يَلْبِرْد.

وأشارَ إلَيهِم بالانْصِرافِ، فخَرجوا مِن الباب الكبيرِ وهو يتأمّل أكتافَهُم واحِدًا واحِدًا. ولّما خلَا المجلِسُ، دَعا الأميرَ يَلْبِرْد، فَدَخَلَ. وطلب منه الاقتِراب، وهَمَسَ له:

- اصْحَبْهُم إلى الوزيرِ، واسْمَع ما يَقُولُ لَهُم، فَقَدْ لا يَصْدُقونَني عَنْهُ.

فهزَّ يَلْبِرْد رأسَه. وسرَت في وَجْه ملكشاه ابتسامَةٌ تشفٍّ، ثمّ حرّك حَربَتَه، وأشار إلى الأميرِ بالانصِراف، فخرج مُسرعًا. وبَعْدَ ساعَةٍ دخل رِفْقَةَ أصحابِه على الوزير.

وجَدُوه في مَجْلِسِ عِلْمِه، محَفوفًا بالعُلماء والكُتَّابِ ووُجوهِ النّاس، جالِسًا على كرسيٍّ طويلٍ وعَن يمينِه كُتُبٌ مصفوفَة، وبَين يدَيه أوراقٌ وأقلامٌ ودَواة. كانَ أحدُ العُلماء الشّبّانِ جالِسًا عن يَساره يَقرأ عَلَيه مِنْ أوراق، والعَمائمُ البِيضُ المكوَّرةُ مُنصِتَةً في أطراف المجلِس المستَطيل. وكان الشّابُّ الأبيَضُ النَّحيفُ ذو اللّحية الطّويلة منهمكًا في قراءة كتابِ «سياستْ نامَهْ» باللُّغَةِ الفارسيّة، بينَما كان الوزيرُ يأمُرُ بتَغيير كَلِمَةٍ أو زِيادَة أخرى لِتَصحيحِ الكِتَابِ قَبْلَ إخراجِه إلى الورّاقين.

قرأَ الشّابُّ بصوتٍ واضِح، وهو مُتربِّعٌ والوزيرُ يُنْصِتُ:

- «يَتخيَّرُ الله تَعالى في كلّ عَصْرٍ وزَمانٍ واحِدًا مِن بَين خَلْقِه فَيُضفي عَلَيه فَضائلَ المُلْكِ ويَزينُه بِها، ويكِلُ إلَيه مَصَالِحَ البِلادِ وراحَة العِبَاد، ويُوصِدُ بِه أبوابَ الفَسادِ والاضطِرابِ والفِتْنَة، ويَبثُّ هَيْبَتَهُ ووقَارَهُ في أعيُن الوَرَى وأفئدَتِهم، لِيَقْضِي النّاسُ أيَّامَهُم في ظلِّ عَدْلِهِ ويَعيشوا آمنينَ مُتمنِّينَ دَوامَ مُلْكِه. فإذا ما بدا -والعياذُ بالله- مِنَ العِبَادِ عِصيانٌ..».

أشارَ الوزيرُ إلى القارِئ بالتّوقُّفِ، وهو يَرى الحاجِبَ يَقتربُ مُسرعًا. همَسَ الحاجِبُ ذو الوَجْهِ المتجهِّم في أذُنه، فأزاحَ الأوراقَ ووضعَها على الطّاولَة، فتمكَّنَ جُلّاسُه مِن رؤيَة وجهِه بِوضوح.

وعدّلَ الوزيرُ جِلْسَتَهُ وهو يَرى تَاجَ الدّولَةِ ورِفَاقَه يَقتربون.

- السّلام على الوزير وَرَحْمَةُ الله!

- وعلَيكُم السّلام ورَحْمَةُ الله.

رفَعَ عَينَيه يتأمّل الوجوهَ الجادَّةَ المحمرّةَ، وفكَّر في ما أخبَرَهُ بِه شِحْنَتُه من قبل. فرَفَعَ يدَهُ إلى العُلَماء الجالِسين:

- إنْ شِئْتُم!

وقَفوا؛ فَسُوِّيت العَمائمُ، واهتزَّت اللِّحى شاكِرَةً مُودِّعَة. وعندئذٍ اقترَبَ الرُّسُلُ وأخذوا مجالِسَهُم. كان الوزيرُ يتأمّلُ الوجُوهَ الطَّافِحَةَ بأمرٍ جَلَل، واكتفى الرُّسُلُ بالنظر إليه على استحياءٍ وهُم يَلْمَحون في عَينَيه تَوَقُّعًا لِطَبيعَةِ ما جاء بِهم. مرَّت لحَظاتُ صمتٍ ملأهَا التّوتُّرُ والرِّيبَةُ والتردّدُ والأسئلة، ولم يكسِرْها سوى حَمْحَمَةِ فَرَسٍ في إصْطَبْلٍ بَعيدٍ، وزقْزَقَةِ طيورٍ آتيةٍ مِن جَنبَاتِ القَصْرِ، وحركَةِ أقدامِ الغِلْمان في أطرافه.

ثمّ قطَعَ الوزيرُ الصَّمْتَ بالحديث:

- خَيْرًا، ما الأمر؟

وقَفَ تَاجُ الدّولة، وناوَلَهُ الرّسالَةَ المختومَة. مدَّ الوزيرُ يَدَهُ مِن فَوْقِ الكُتُبِ الّتي بجانِبِه لِتَنُاولِها حتّى ظهر شَعْرُ ساعِده الكثّ. فَتَحَها، وبَدَأ يقرأ. وكان كلّما قَرأ سطرًا احْمَرَّ وجهُه وغَلَى غضبًا. رَفَعَ إصْبَعَهُ وحكّ أرنبَةَ أنفِه، ثمّ طوَى الرّسالَةَ وقال كأنّه يُقْسِمُ:

- قُولوا للسّلطانِ إنْ كُنْتَ لا تَعْلَمُ أنّي شريكُكَ في المُلْكِ فَاعْلَمْ!

وتحرّكَ في كرسيّه كأنّه يُراجِعُ نفسَه:

- قُولوا لَهُ إنّه ما نالَ هذا الأمرَ إلّا بتدبيري ورأيي. أمَا يذكُر حينَ قُتِلَ أبوه وأصبَح كالشّاةِ المطيرة في اللّيلَة الشّاتية؟ فَقُمْتُ بتدبيرِ أمرِه، وقَمَعْتُ الخَوارِجَ علَيه مِن أهلِه، وهو يومئذٍ يلزَمُني ويتمسَّكُ بي ولا يُخالِفُني في أمر.

ونزَل نِظامُ المُلْك عن الكرسيّ والعيونُ ترمقه. مشى خطوات، وواصَلَ حديثَه محدِّقًا في الوجوه الواجِمَة:

- أبَعْدَ أنْ قُدْتُ الأمورَ إليه، وجمَعتُ الكلِمَةَ عَليه، وفتحتُ له الأمصارَ القريبَةَ والبعيدَة، وأطاعَهُ القَاصي والدّاني، أقبَلَ يتجنّى لِي الذّنوب، ويَسْمَعُ فيّ السِّعايات؟

وسكَتَ. وتأمّلَ وَقْعَ كلِمَاتِه على الوجوه الشّاخصة، ثمّ انعطَف قاصِدًا الكرسيّ وأخَذَ الدّواةَ المنصوبةَ على الطّاولة ورفَعَها:

- قُولوا لَهُ إنّ ثَبَاتَ تِلْكَ القُلنسوةِ الّتي على رأسِه مَربوطٌ بهذه الدّواة الّتي بِيدي. وإنّ اتّفاقَهُما رِباطُ كلّ رغيبة، وسببَ كلّ غنيمَة. ومتى أطبقتُ هذه الدّواةَ طارت تلك القلنسوةُ الّتي على مَفرِقِه. فإنْ عزَمَ على تغييرٍ فليتزوّدْ للاحتياط قَبْلَ وقوعِه، وليأخُذ الحَذَرَ مِن الحادِث أمام طُروقه.

كان الرُّسُلُ والحُجَّابُ يترامَقون، وألوانُهم تَصفرُّ وتَحمرُّ لما يسمَعُون. *كيفَ يتصارَعُ الوزيرُ والسّلطان؟ وما مصيرُ الدّولَة إذا وقَعَ ذلك؟ وكيفَ يعرِفونَ الجنديَّ المطيعَ للسّلطان وذاكَ النَّصيرَ للوزير؟*

ثمّ أفاقوا على نَبْرَته الهادئة وهو يتأمَّلُ وجوهَهُم الواحدَ تلوَ الآخر:

- قُولوا للسّلطان عنّي ما أردتم، ولا تكتموهُ شيئًا. فقد أهمّني ما لَحَقَني مِن توبيخِه لي، وفتَّ في عضُدي، ووالله ما أبالي ما صَنَعَ!

ثمّ نفَضَ طرَف رِدائه، وخرَج مِن المجلِس وعُيون الرُّسُلِ والحجّاب والكتّاب تُشيِّعُهُ. ترامَقَ الرُّسُلُ، ثمّ خرجوا صامِتين. مشوْا في الفِناء الواسع، تُظلُّهُم الجدرانُ العالِية، وتفترِسُهم عيونُ العمّال المنتَشرين في أفنِيَةِ القَصْر، وتَتبعُهم عَيْنَا الخصيِّ الأبيَض الواقِفِ قُرْبَ بابِ المجلِس. وبَعْدَ خطوات وجدُوا أنفسَهُم خارِجَ البابِ الكبير، فقالَ أحدُهم:

- أرَى ألّا نُخبِرَ السّلطانَ بِما قال الوزيرُ. فثَبَاتُ الدّولَةِ وصلاحُ المِلَّةِ في اتِّفاقِهِما.

هزُّوا رؤوسَهُم مُوافقينَ، وغامَتْ عَيْنا الأميرِ يَلْبرْد وهو يهزُّ رأسَه. ثمّ ركبُوا خُيولَهم، ومَشَوا في فِناء السُّورِ العَالي على الشّارع المبلَّطِ بالحِجَارَة الحَمْراء.

أمّا الوزيرُ فقد صعد إلى حُجْرَةٍ في قَصْرِه مُشرفَةٍ على الشّارع. وجلس على مَرْتبَةٍ بين الحشايا المزركَشَة يلهو بأطرافِ لِحْيَتِه. فلَمحَ الرُّسُلَ يَمشون في الشّارع باتّجاه القَلْعَة. وعاد ذِهنُه مُتأمّلًا سيرةَ كلّ واحِدٍ مِن هؤلاء الرُّسُل. يَوْمَ أتَى بِكلّ واحِدٍ مِنهم ومهَّدَ لَهُ الدّخولَ إلى السّلطان. تذكَّر عُيونَهم المليئةَ بالعِرْفَان، وألسِنَتَهُم اللّاهِجَة بالثّناء. وتذكّرَ السّلطان. فاستعادَ وجهَه المتورِّدَ وهو يَنْظُرُ إلَيه مُتوسِّلًا عِنْدَ كلّ مُلمّة، مُقارنًا ذلك بنظراتِه الشَّرِسَة خلالَ الأشهُرِ الماضِيَة.

خلَعَ عِمَامَتَهُ ووضعَها على حَشيَّة، وسرَّحَ شَعْرَهُ الأشيَبَ المخضوبَ بأصَابِعه.

كيفَ سيكونُ الأمرُ بعدي؟ فهذه الدّولة السّلجوقيَّةُ المباركَة هي أملُ هذه الأمّة في دَحْرِ الباطنيّة والرّوميَّةِ والشّيعيّة. رفَعَ بصرَهُ بعيدًا، فرأى الرُّسُلَ قَد اختفَوا مِن الشّارع، ولمحَ رؤوسَ البُيوتِ والشّرفات.

فكّر في أولادِه. *إذا مَسَّني سوءٌ فَهَل سُيصيبُهم؟* وكيفَ يكونُ ذلك؟ *فكُلُّ سَيْفٍ بيدِ السلطان أنا الّذي صَقَلْتُهُ، وكُلُّ حارِسٍ فَوْقَ رأسِه أنا مَنْ أوقَفْتُه علَيه. هل أستسلم للأقدار وأنتظر ما سيفعل السلطان؟ أم آخذ قسمًا من الجيش وأهاجمه وأستبدّ بالأمر؟*

ومسح وجهه بيديْه وهو يتنفّس. *لِمَ لا أرسلُ إلى الغزاليّ أن يصدِرَ هو وعلماءُ النظاميّة فَتْوى في هذا الأمر؟ لِمَ لا أطلب من علماء النظاميّة في بغداد*

ونيسابور وبلخ وغيرها أن يصدروا فتوى بوجوب طاعة الخليفة وطاعتي؟ ثمّ آخذ جيشًا وأزحفُ إلى بغداد؟

وأبعد كلَّ الخواطر من ذهنه متضايقًا. *بل عليّ الانتظار، فليس لذلك الراعي قدرةٌ على فعلِ شيء.*

وسمِعَ نَقْرًا خفيفًا على الباب فقَال:

- ادْخُل!

واقترَبَت جاريَةٌ تتعثَّرُ في ملاءتِها:

- مولاتي تَدعُوكم!

25

نيسابور، 484 هـ.

كان عُبَيدُ الموسْوِسُ آخرَ الدّاخلينَ هذا المساء إلى الفَتْحَةِ المحفورَة داخلَ دكّانِ حَسَن الحدّاد. نَزَلَ السُّلَّمَ، ومشى في الدّهليز الضيِّق. فلاحَت لهُ أوجُه الرِّفاق تحتَ المصبَاحِ الخافِتِ وهُم يفترسُونَه بنظراتٍ مُترقِّبَةٍ مُتوثِّبَةٍ مَشحونَةٍ بالأسئلة. خَلَعَ عِمَامَتَهُ مُغمغِمًا بالسّلام، فجاء صوتُ نقيبِ التُّجار:

- كيفَ إيوانُ كِسْرَى اليَوم؟

فَهِمَ عبَيد أَنَّهُ يُشيرُ إلى مجلِسِهِ أمامَ المكتبَةِ فقَال:

- لا بَأس!

قَالها بِتَضايُقٍ لاستغرابِه انبساطَ النّقيب في مِثْلِ تلك اللّحظة. ثمّ هَرَعَ إلى الحمَّامِ، ونظَّفَ يدَيْه ووجهَه. رمَى إلَيه قيّمُ المكانِ بمِنديل، فتلقَّفَهُ بيَدِه الخَشِنة. واقترَبَ مِن الرّجال الأربعة الجالسينَ وعينُه على إبهامَيْه يُنشِّفُهُما:

- كيفَ حالُكم؟

تَردَّدت في أطراف الحُجْرَةِ إجابات، فجلَس مُتلفّتًا:

- أكلُّ النَّواميسِ مرعيَّة؟

فأشارَ إليه القَيِّمُ بهزَّةٍ مِن رأسِه. تربَّع مُسنِدًا ظهرَه إلى الحائط، فظهرَ ظلُّ جُبَّتِه الكثَّةِ على طرَفِ الجِدار المسامِت للدِّهليز. ثمّ رفعَ وجهَه مُتأمّلًا رفاقَه. كانَ نقيبُ التّجّارِ جالِسًا أمامَه يُحيطُ بِه رَجُلانِ آخران. فرَكَ عُبَيد يدَيه، ثمّ قالَ وهو يَرمي المنديلَ جانِبًا:

- نبدأ بِجَدِيدِ النّاس!

الْتَفَتَ النّقيب إلى رفيقَيْه مُستنطِقًا، فأشارَ إليه عُبَيد أن يبدَأ.

- خَلَتْ نَيسابورُ مِن القَمْحِ يَومَين كامِلَين. وجاء البَارِحَةَ رجُلٌ مِن بُخارى بِقافِلَة. وَحَدَثَ عِراكٌ بَين المحتَسِبِ وكِبَار التُّجار، لكنَّ الوالي أصلَحَ الأمرَ، وسكَنَت النُّفوسُ...

واصَلَ النّقيب حديثَه، وكان عُبَيد يُنصِتُ بكلّ حواسّه، وعينَاه مُثبَّتتانِ على النّقيب، وأحيانًا يوقِفُهُ مُستفسِرًا. ودارَ الكلامُ حتّى وصَلَ إلى عُبَيد فقال:

- تَعلمونَ أنّ الغزاليّ سافَرَ قَبْلَ أسبُوعَين؟

مالَ النّقيب إلى الأمام:

- نَعَم... إلى بغداد.

حَدَجَهُ عُبَيد، وقال بنبرةٍ سُلطَوِيَّة:

- نعم، ذهب إليها بأمرٍ من الشَّيْظَم ليدرّس في النظاميّة.

فمدّ النّقيبُ رأسَه إلى الأمام حتّى ارتَخى طرَفُ عِمامَتِه على رُكبَتِه مُحاوِلًا ألّا يَفوتَهُ حَرْفٌ مِن الحديث.

- عندما كان في أصفهان جالَس الشّيظمَ، وناقَشا أمرَ الدّعوةِ وهُما يَنوِيانِ شرًّا وشيكًا بها. وقد أعطاه الشيظمُ جاريةً تدعى خلوبا.. كان يملكلها صديقه التاجرُ الأحوَل.

ثمّ سكت وقد تذكّر أنّه وجدَ عند قَبْرِ الوليّ أحْمَد النَيسابُوريّ ورقةً وضعها شابٌّ، وفيها يتوسل بصاحب القبر لكسب قلب جاريةٍ تسمّى خلوبا.

وسمِع عُبَيد فجأةً حرَكَةَ أقدامٍ فَوْقَ السّقف، فَسَكَت. خفتَت الأصوات، وسكنَت الأيدي، وأصاخَ الجميعُ، فَلَمْ يسمَعُوا شيئًا. والتَفَتَ عُبَيد إلى القيّم، فركَضَ مَعَ الدّهليز، وصعَدَ السُّلَّمَ وفتَحَ نُقبَةً في السّقف

تُمكِّنُهُ مِن رؤية الدّكّان. فرأى حَسن الحدّاد يَتجوَّلُ داخِلَ دكّانه ويُنظِّفُ جُدْرَانَه.

نزَلَ مُشيرًا بيدِه إلى أنّ الرُّسومَ مَرعيَّةٌ ولاَ خَوْف.

شعُرَ الرّجال براحَةٍ، فاستعادَ عُبَيد نشاطَه:

- سيعمد الشّيْظَمُ والشّيطانُ إلى غَزْو قَلْعَتِه[1]. وأخبارُ أصفَهان تقولُ إنّ الأمرَ وشيك.

سكَتَ عُبَيد مُوزِّعًا نظراتِه على مُجالِسيه تحت أضواء القناديل، مُحاوِلًا سْبرَ وقعِ الأخبارِ علَيهم. فلمَحَ عينَي النّقيب تدورانِ تحتَ عِمامَتِه الّتي لا يَلْبَسُها إلّا للدُّخولِ إلى هذا المكان. ولَمَحَ اهتمامًا وتوتُّرًا في عَينَيْه.

ثمّ جاءَ صوتُ الرَّجلِ ذي الأنْفِ الأفطَس:

- وما نفعلُ؟

- نحتاطُ ونُبالغُ في مُراعاةِ الرُّسومِ فهي العاصِمة الحامية، ونفتَحُ عيونَنا لِكُلِّ حركَة، ونُصيخُ أسماعَنا لكلِّ نأْمَة. فلا ينهَقُ حِمَارٌ في نَيسابور إلّا كُنّا عِنْد رأسِه، ولا يزعَقُ مُؤذِّنٌ إلّا كُنّا عِنْدَ ظهرِه، ولا يشتمُ أبٌ أبناءَه إلّا كُنّا شُهودًا علَيه. ثمّ نَنتَظِرُ أوامِرَه.

وسكَتَ عُبَيد، كانت تِلك طريقَتَه في شدِّ انتباهِ جُلَسائه. سكَتَ قليلًا والعُيون شاخِصَةٌ إليه وهو يفرُكُ كفَّيه، ثمّ قال بصوتٍ خفيض:

- سأترُكُ البَلْدَةَ لبعض الأمور، والقائمُ بأمر البَلَدِ بَعْدِي خُبَيْب حتّى أعود.

فوجِئ نَقيبُ التّجّار بما قال عبيد، فهو لا يعرِفُ أحدًا باسمِ خُبَيب؛ ففَتَحَ فمَهُ لِيَسْأل، لكنّهُ تذكَّر مُخالَفَةَ ذلك للرُّسوم. وبقِيَ فَمُهُ مفتوحًا، فلمَحَ

(1) يشير الإسماعليّة في الجلسات إلى زعيمهم حَسَن الصّبّاح بضمير الغائب فحسب.

عُبَيد انعكاسَ ظلِّهِ فاغِرًا فَاهُ على الجِدارِ فتبسَّم. وانفضَّ الاجتماع، وخرَجوا وُحْدَانًا مِن الدّكّان حذِرين إلّا عُبَيدًا، لأنّه نَام لَيْلَتَهُ في المختبإ.

وقُبَيْلَ إشراقِ الشّمس بقليلٍ انفتَح بابُ الهُوَّةِ، فظهرَتْ عِمامَةُ عُبَيد. خرَجَ مُتأفِّفًا ينفُضُ يَدَيه وينظُرُ إلى الحدّادِ الجالِس عَلى كيره. تأمَّلَ الجدرانَ المظلِمَةَ وهو يتبادَلُ التّحايا مع الحدّاد في الظّلام، مُفكّرًا في الوُرَيقَاتِ الّتي في جَيْبِه.

اقترَب مِن الباب، ونظرَ مِن الثُّقب، فلمَح بَغْلًا يَتبختَرُ على الطّريق، وكَلْبًا شارِدًا، وجاريَةً بدينَةً عاريَةَ الذِّراعَين تَحْمِلُ خُبْزًا. والتَفَتَ إلى الحدّاد، فأشارَ إلَيهُ بأنَّ النَّوامِيسَ مَرْعِيَّة. ثمّ فَتَحَ بابَ الدّكّان، وابتلَعَهُ الزّقاق.

أحسَّ برودةَ البلاطِ تحت قَدَمَيه الحَافيَتَين وهو ينظرُ إلى الأفق. ودون أن يشعر أدخَلَ يدَهُ في جَيْبِه، وأخذ يُفكّرُ في الوُريقَات الّتي جمَعَها البارحَةَ مِن عند قَبْرِ الوليّ أحْمَد النيسابُوريّ. كانَ الاطّلاعُ علَيها مِن أحبِّ الأمورِ إلى نَفْسِه، فَهي تُطلِعُهُ على ما في بُيوتاتِ النّاس، وعلى بَعْضِ الأحداثِ الآتية. مِنْها يَعرِفُ الزَّوجَةَ المحبَّةَ لِزَوجِها والأخرى الكارِهَةَ له، ويعرفُ حظَّ النَّاسِ من المال. تجاوزَ ناحيةَ سكّة مَعقَل وهو يُفكّر فِي مَن سينوبُه في جَمْعِ تِلْكَ الوُرَيقَات.

شعُرَ بالبَرْدِ الرّبيعيّ رغَم غلظِ مرقّعته، وأحسَّ بِقطرَةٍ تسقُط على رأسه. فنظر، فلَمَحَ ماءً يسيلُ مِن ميزابِ بَيْتٍ. فردَّ يدَهُ ولمسَ البَلَلَ:

- لا بأسَ، ماءٌ فَحسب.

تراءت لَهُ ساحَةُ الطّاق مُترَعَةً بالحياة. ملأ أنفَهُ برائحَةِ الخُبزِ الفَائحَة مِن جهة الفرّان. وتوقَّف أمامَه قليلًا، فرأى محمودًا الفرَّان واقِفًا وراء النّضد ورأسُه يدورُ بَين كَتِفَيه، صارخًا على عمَّالِهِ مُستحثًّا، وأيادي الأطفال والجواري تتلقَّفُ الخبزَ مِن وراء النُّضد. حيَّاهُ مِن بعيد، وذهَب إلى إيوان كِسْرَى، وجلَسَ عَلَيه مُتثاقِلًا.

رفَعَ أهدابَه، وتأمَّلَ مَدْخَلَ خان الطّاووس. كان يبحَثُ عَنْ رَجُلٍ ذي بَغْلَةٍ بَيضاء بيدِه حَبْل، ويعتمر عِمَامَةً سوداء فيها خُيوطٌ بيض. فكَّرَ في تفاصيلِ آخرِ رسالَةٍ وَصَلَتْهُ، فتذكَّر أنّ الرَّجُلَ لا بُدَّ أن يكونَ وَصَلَ إلى نَيسابور البَارحَة.

تَملمَلَ في مَجْلِسِهِ مُتثائبًا، واستعادَ وجوهَ رِفَاقِه الّذين سيترُكُهم. تذكَّر نقيبَ التجّار وبلاءهُ في سبيلِ الدَّعوة، وتذكّر حَسن الحدّاد، وتصفَّحَ عشرات الأوجُه بشيءٍ مِن الحَنين. *هَلْ سألقاهُم في آتي أيّامي؟ هل سأعودُ بعد أسابيع أم يكونُ للشَّيخِ رأيٌ آخر؟*

ولمحَ حاجِبَ الشّمس أصفَر يتسلّل مِن وراء البَيْتِ الكبير القابِعِ خَلْفَ خان الطّاووس. فنَفَضَ طرَفَ جُبّتِهِ وقامَ يتجوَّلُ ويُغنّي. وحانَت مِنْهُ التفاتَةٌ جِهة خان الطّاووس فلمَحَ خَيالَ رَجُل. اقترَبَ مِنْهُ، وتبادَلا النّظرات. فقال عُبَيد للرَّجُلِ هامسًا دُونَ أن ينظُرَ إليه:

- فَرْ!

فنظرَ إليه الرَّجلُ متفرّسًا. رفع فيه عينَين عميقتَين كأنّهما خُلقَتا لِفَضْحِ الأسرار. وصعّدَ نظرَه معَه من قدَميْه حتّى رأسِه كأنّه يبحَثُ عن علامَة، ثمّ انفتَحت أساريرُه:

- فَرْ!

انثنى عُبَيد بنِصف ابتسامَةٍ وهو يَحكُّ ذَقْنَه، ومشى في السّاحة حتّى عاد إلى مكان جُلوسه أمام مَكْتَبَةِ البَيْهَقِيّ. تأمّل السّاحةَ كأنّه يودِّعُها. ونظرَ إلى الشّرفات المطلَّةِ، والأزقّة الضيّقَة، والأرجُلِ الكثيرة الرّاكِضَة. فتذكَّر سنواتٍ قضّاها في هذه المدينَة على هذه الحال. تذكّر كيفَ جاءها وأهلُ الدّعوةِ لا يبلُغونَ عشرين رجلًا، وها هو اليَومَ يَخرُج منها وهم سبعةٌ وسبعونَ مِن خيرَة النَيسابوريّين. انتابَه زهوٌ وهو يفكّر في حماقَة هذه الجموع

الّتي لا تراهُ إلّا صوفيًّا مُوسوِسًا. ماذا لو عَرَفوا؟ هل ستأتي السّاعَةُ الّتي يعرِفُ فيها النّيسابوريُّون حقيقَته؟ *هل سيأتي يومٌ أكون فيه والي نَيسابور؟*

ونفَضَ رأسَه، فتحرّكت جمّتهُ الضّخمَةُ كأنّه يطرد فكرةً لَمْ تَخْتَمِر. وقَفَ مُتنفّسًا وهو يُغنّي سرًّا بَيْتَ امرئ القَيْس:

فَقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكَ! إنّما نُحاوِلُ مُلْكًا أو نَمُوتَ فنُعْذَرَا!

رأى الرَّجُلَ يمسك زِمامَ بَغْلَتِه مُتّجهًا إلى سكّة مَعْقل جَنوب ساحة الطّاق. فراقبَهُ حتّى تجاوزَ دكّان محمود، ومشى وراءه. سار عُبَيد وراء الرَّجُلِ وهو يتأمّل رؤوسَ العابرينَ تَعلو وتسفل في الشّارع، وحوافِرُ الحمير والبِغال تقرَعُ الأرضيّة المبلّطة، واكتظّ ذِهنُه بأسئلةٍ حارِقَة. *كَمْ سيأخذ الطّريق للوصول إلى قَلْعَةِ آلموت؟ هل سأكونُ أخيرًا في الدّائرَةِ الخاصّة بالشّيخ؟ هل ستنهالُ عليَّ بركاتُه؟ وبأيّ فيضٍ مِن الأسرار القُدُسيَّة سيغمرني؟* وشَخَصَت في ذِهنه لَحظةُ دخولِه على الصَّبَّاح. ولَمْ يتنبَّه إلى انحسارِ الدُّور. وفوجئ بوقوفِ صاحِب البَغْلَةِ مُنتظرًا. فأسرَعَ راكضًا. وما إن اقترَبَ مِن الرَّجُلِ حتّى فتَحَ له ذِراعَيه:

- أهلًا وسهلًا!

تعانقَا.

ثمَّ التفَتَ عُبَيد وراءه محاذرًا أن يراهُ أحدٌ ممّن يعرِفُه. كانَا قد ابتعدَا عن باب المدينَة الأكبر. وكان الطّريقُ خاليًا مِنَ المسافرين، فهذا يومٌ لا تسيرُ فيه القافِلَةُ ولذلك اختارَهُ دليلُه.

فرَكَ عُبَيد رأسَه الكثّ كَمَنْ خرَجَ مِن محِنَة، ثمّ دحرَج يدَه على وجهه وحكّ أرنبةَ أنفِه وشفتَه العُليا، ورفيقُه يرقُبُهُ.

نظر إليه رفيقه، ثمّ ضربَ بيدِه على جِرابٍ فوق ظهر البَغْلَة:

- ماذا؟

- ألا تُريدُ سِلاحَكَ؟

فتحَ الرّفيق الجِرابَ بحماس، وسلّ خِنجَرًا حادًّا عاجيَّ المِقْبَض، وتأمَّلَهُ، ثمّ مدَّهُ إلى عُبَيد:

- أرجو أن تكونَ ممَّن يُحسِنُ استخدامَه!

وسرَت إلى شفتَي عُبَيد ابتسامةٌ واثِقَة، وتمنّى لو يستطيعُ أن يكشِف لصديقِه عددَ الأنفس الّتي قتلَها مِن قَبْل. ثمّ حدَجَ رفيقَه:

- نتدرَّبُ على يدَيك أيّها الرّفيق!

وأمسَك الرّفيق زِمامَ البَغْلَة، وقفَز عُبَيد عليها حتّى اعتدَل. ثمّ شرعا يتحرّكان وهُما يسمَعان أصوات الطُّيور، وعُبَيد يملأ رئتَيْه مِن عبير الرّبيع، ويتأمّل شُجَيْراتٍ ما زالَ النّدى يُغطّي أوراقَها. وامتلأَ سمعُه بأصوات طيورٍ خرجتْ مِن أوكارِها تغنّي على رؤوس الأشجار القريبة. ثمّ انطلَق الرّفيق يُغنّي أغنيةً فارسيّةً شجيَّة، بينما سافرَ خيالُ عُبَيد منتظرًا ما تخبِّئُهُ لَهُ اللّيالي الحُبلَى أبدًا بالأعاجيب.


دانشمند

26

بغداد، 484 هـ.

انطفأ السّراجُ المنصوبُ في الرَّوزَنة، وهبّت الرّياح متلاعبةً بستارةِ النّافذة، وخفتَتْ أصواتُ بغداد مع تكاثُفِ حُلكَة اللّيل. كانَت خَلُوب مستلقِيَةً على جَنْبِها الأيسَرِ تنصتُ لِشخيرِ سيّدها. مرّ وقتٌ على وصولِها إلى بغداد، وقتٌ طويلٌ خاضَتْهُ بِقلبٍ نابِضٍ وجَفْنٍ ساهِر. قَلَّبَت بصرَها في ظلام الغُرفَة مفكّرةً، واستعادَت صورَة سُوق النِّخاسَة الّذي زارتهُ مِرارًا في نيسابور. فشخَصَ في ذِهنها ذلك المكانُ الواسِعُ المملوءُ بجَوارٍ وغِلمانٍ معروضينَ لِلبَيع. تذكّرت الأعيُنَ المتورّمة بكاءً، والأوجُهَ المنقَبِضَة انتظارًا لِلمجهول. تذكّرت الوجوهَ عندَما تستسلِمُ لِقَدَرِها عجزًا لا رِضًا. حين تَيْبَسُ الشّفاه، وينطبعُ الصّوت بهمسٍ حزينٍ مُتقطّعٍ لا تُدركُه إلّا أذن مَن يخشى التّعرّض لِتِلْكَ الحال. *ماذا يبقَى مِن الإنسانِ عِنْدَما تُسْلَبُ إرادتُه؟ ماذا يبقى منه سوى قَلْبٍ نَابِضٍ في جُثّة وعَقْلٍ مُشتَّتٍ وحُزْنٍ مَرير؟*

مرَّ وقتٌ طويلٌ وهي في هذا البَيْتِ الواسِع دُونَ أن تعرف ما ينتظِرُها. *هَل رضِي عنها سيّدُها؟ و هل تعلّق بها؟* انقلَبَت على شقّها الأيمَن وهي تنظرُ إليه في الظلام. حاولَت مِرارًا فَهْمَ ما ينويه دُون جَدوى. كانت أمواجُ الأملِ ترفعُهَا عالِيًا، ثمّ تهوي بها أمواجُ اليَأس بِقَدْرِ ذلِك الارتِفَاع. رَجُلٌ مَيسورٌ حَسَن البزَّةِ نظيف الملابس لَيْسَ في بَيْتِهِ امرأةٌ غيرها. *هَل سيحتَفِظُ بها وتُنجِبُ مِنهُ أبناءً فتَنْعَتِقَ وتَغدو أمًّا؟ أم سيبيعها في سوق النخّاسين ببغداد في أحد الأيّام؟*

طالَ أرقُها حتّى سرَحَ ذِهنُها إلى نيسابور. تذكّرَت سيّدَها الأحول، وجواريَه الكثيرات، وبناتِه اللاّئي كنَّ يُعامِلْنَها معاملة الأخت. انتابَها حَنينٌ إلَيهِم. وتذكّرت الصّخَبَ الحبيب المسموعَ دَوْمًا في جَنبَاتِ ذلك البَيْتِ الجَميل. تذكّرت المزرعَة حيث يذهبونَ للاستجمام من ضوضاء المدينَة، فسقَطت دَمْعَةٌ على وَجْنَتِها.

تقلَّبَت مُتسائلَةً: *كيفَ أبكي شَوْقًا إلى مَن يَرَوْنَني سَقْطَ مَتاع؟ كيفَ أسفَحُ الدّمعَ على مَن تَعلُو ضَحَكاتُهم الآنَ دُون تَفكيرٍ فِيّ؟ كيفَ أبكي على مَن طَرَدَني بِمَحْضِ إرادَته ودَفَعني عَن بابِه؟* وشخَصَت في ذِهنها طُفولَتُها في ذلِك البَيْت، وتِلك الأوقات العَذْبَة الّتي قضَّتها رِفْقَةَ سيّدها وسيّداتِها.. فمسحَت دَمْعَةً شارِدَةً أخرى.

طرَدَت الأفكارَ وهي تتقلّبُ في فراشِها وتتأمّلُ سيّدَها. نظرتْ بِعينٍ تطفَح إعجابًا واستغرابًا. شابٌّ وسيم في ريعان الحياة لَم يتذوّق الخمرَ ولا سمِعَ الموسيقى ولا باتَ لياليَ الشّتاء في مخادِع أصفَهان أو نَيسابور.. ما الّذي يعرِفُه عَن الدّنيا؟

أخذت تحدّق في عينه الكَسْلَى تحت الظّلام وهو غارقٌ في نَوْمِه. *لكنّ ذهنه منشغلٌ دَوْمًا. ما الّذي يُفكّرُ فيه؟ قَطْعًا لا يفكّرُ إلّا في الكُتُبِ والأوراق والمدرَسَةِ النّظاميّة وفَتاوى أهلِ بغدَاد والمناظَرات.* لكنها تجد في نفسها ميلًا إليه. أهُو مَيْلُ الجارية إلى سيّدها فحسب؟ أمْ مَيْلُ مَن تَسعى إلى الإنجابِ ممّن لا تُحبّ؟ لا، هو شُعورٌ آخَرُ لَم تُجرّبْهُ قطّ. فعلاقةُ سيّدها الأحول بها كانت علاقَةَ أبُوّة. أمّا هذا الفتى فأعجبَها في كلّ شيءٍ إلّا في صمتِه وجولان ذِهنِه وانشغالِ فِكرِه بكتُبِه. وخطَرَ لها كم هي محظوظة. تذكّرت صديقتَها الجارية شيرين، جارتَها التي أخذها سيّدُها وذبَحها بسكّينٍ بعدما علِمَ أنّها تُصادِق غُلامًا مِن جيرانها. أمّا هي فكانَت محظوظَةً بكونِها جاريةً للأحول،

فلَو هربَت مِن بيتٍ آخرَ فلَربّما قُتلَت أو بِيعَت لِعسكريٍّ تُركيٍّ كَريه، أو أعرابيٍّ جلف. أمّا الأحول فأهداها، رغم هربها، إلى أعظم وزيرٍ في الدّنيا. وها هي ذي في بيتِ رَجُلٍ ذي خلُقٍ ودِينٍ وعِلْم.

وتذكّرت جوهرة، تِلكَ الفتاة الّتي قابلَتها في عُرسِ بِنتِ سيّدِها. كانت جاريةً حسَنَةَ الجِسْمِ بَضَّةَ الأعضاء عَيْناء جَمْلاء تمشي كأنّها ترقُص، وتتلفّت كأنّها تغنّي، لكنّها لا تتكلّم بَل تُشير بيدَيها دَومًا. وعِندما استفسَرَت عَن أمرِها علِمَت أنّ سيّدَها وجدَها يومًا تُغنّي لِشابٍّ تَعشَقه فقَطَع نِصْفَ لِسَانِها.

تمنّتْ لو كانت في نيسابور لِتحكيَ مشاعِرها لإحدَى صديقاتِها أو جاراتِها. أمّا هُنا فهي غريبةٌ في بغداد، لا تعرف أحدًا تُقاسمه هواجسها. تقلَّبت في فِراشِها مفكّرةً: *ما أصعبَ أن يخلو العالَم ممّن تشكو إليه فترى آلامَك في عَينَيه، وما أبأس دنيا تخلُو مِن وطنٍ تحنُّ إليه!*

واسترخَت في سريرها مُطلقَةً خيالَها، فرأت نفسَها حامِلًا... حرّةً في يومٍ مِن الأيّام، وأمًّا لِطفلٍ مِن عالمٍ شابٍّ، يُجالِسُ السّلاطينَ ويعلّم النّاس في مدارسِ بغداد. ورقصَ قلبُها جذَلًا.

تنفّسَت بِحرقَةٍ، فانتبَه الغزاليّ مُتَمَلمِلًا في فِراشه. وفَتَحَ عَينَيه مُلاحظًا أنّها لَم تَنم، لكنَّه تظاهرَ بالنوم. انتابَته رغبَةٌ في الحديث معها وسؤالِها عمّا يمنَعُها مِن النّوم، لكنّه تعمّد ألّا يستفسِرَها. فقَد سَمِعَ عشرات القِصَص عَن ألاعيبِ الجواري وقِصَصهنّ الغريبَة وحيلهنّ. تذكّرَ تحذيرَ أحدِ أساتذة النّظاميّة في نَيسابور مِن أنْ يُشعرَ الإنسانُ الجاريةَ بأنّ لها مكانًا في قلبِه. فإذا فعَلَ ذلِك أتعَبَتْهُ وأصبَحت مِثل الزّوجة الحُرّة: تَغارُ وتُناقِشُ وتُرهِق. ثمّ إنّ الجواري والخدمَ والعبيد يطغون بالمعامَلَةِ الحَسنة، ويَحتقِرُون المحسنَ، ويهابونَ المسيء. تقلّبَ في فِراشه وأدارَ لها ظهرَه، وفتَح عَينَيه مُلاحظًا

اقترابَ الفجر. فسرَحَ خيالُه مُفكّرًا فيها. *تبدو جاريةً عَذبَةَ الحديث، عاقِلَةً لَبيبة. ولا أشكّ في أنّ الوزيرَ خصّني بها لميزةٍ فيها.* وصرَف ذِهنه عنها مُفكّرًا في الزّواج علَيها مِن إحدى بناتِ التجّار في نَيسابور أو طُوس.

طفِقَت الأسئلةُ تَذْهَبُ وتأتي في ذِهن كلٍّ مِنهُما عَن علاقتِهِ بالآخَر دون أن يُصرّحَ أيٌّ منهما لصاحِبه. كانا مُتقاربَين لا يفصِلُ بينَهما إلّا حيّزُ وِسادَة. لكنّ مسافَةَ الاهتمام والأولويّات والانشغالاتِ بينَهما كانَت واسعةً شاسِعَة.

27

بغداد، 484 هـ.

كان صوتُ جَوْهَر الكُتُبِيّ الصّوتَ الوحيدَ المسموعَ في جَنبَاتِ مَكْتَبَةِ النّظاميّة ببغداد. بدا نشِطًا مَرِحًا ضاحِكًا كعادَته. يرفَعُ السِّجلّاتِ ويضعُها مُعيدًا ترتيبَها وتصفيفَها كلَّما لمسَهَا لامِسٌ، لكنّ أيًّا مِن ذلك لا يشغَلُهُ عَن الحَديث.

بَلَّ إبهامَهُ، وأمسَكَ ورقَةً داخِل سجلٍّ «كُتُبِ التّاريخ» وهو يقولُ للطَّلَبَةِ الواقفينَ أمامَه:

- ما رأيُكم في الغزاليّ؟ صاحِبِكُم الجَديد؟

ترامَقَ الطلّابُ، فأردَفَ وعيناهُ على السِّجِلّ:

- ذلِكَ الفَتى الطُّوسيّ!

بادَرَ الطّالِبُ الأسْمَرُ ذو اللّحية الطّويلة:

- نَعَم، رأيتُه وحضَرتُ مَعَهُ دَرْسَ الصَّباح و..

- لا شكَّ في أنّ درسَه كان دَرْسًا ممتعًا. ولِمَ لا يكونُ كذلِكَ وهو لَمْ يَتْرُكْ في بَيْتِهِ حُرّةً تَؤُزُّه أزًّا؟!

ترامَقَ الطلّابُ بوجوهٍ مُتورِّدَة، وشفاهٍ محبوسَةٍ عَن الضّحك. هذا الكُتبيُّ لا يَفوتُهُ شيء.

كانَ كلُّ مَن في نظاميّةِ بغدادَ يَعْلَمُ أنّ الأخبارَ تَطيرُ إلى الكُتبيّ. فلا يكادُ أحَدٌ يأتي أو يذهَبُ إلّا كانَت أخبارُه عِنْدَهُ يتفكّهُ بها. ولهُ صِيَغٌ بديعَةٌ لِلْحُصولِ عَلَيها وتوزيعِها وانتزاعِها مِن الألسِنَة. وكان ذِهنُه لا يرتاحُ

لِلْقِصَصِ المبتورَةِ والأخبارِ غَيْرِ المكتمِلَة، فإنْ أحسّ بأيّ نقصٍ فيها استنفر طاقاته الخارقة وكمَّلَها مِن عنده، حتّى شاع بين جُدران النّظاميّة أنّ الحادثَةَ تَقَعُ في أذنَيه قَبْلَ وقُوعها في الحَياة، وأنّه يَعْلَمُ بطلاق المرأةِ قَبْلَ عِلْمِ زَوْجِها.

كانَ جَوْهَر يتحدّثُ وعيناهُ تبحثانِ في الأسطُرِ الدّقيقةِ مُتَخازِرًا ليرَى بوضوح، وسبّابتهُ تتحرّك داخل السّجلّ، حتّى بلَغَ نِصْفَ الصَّفحَةِ، فقَرأ:

- تاريخُ أصفهان!

ورفَعَ حاجِبَيْه الأقرنَيْن في أحد مُساعِديه:

- خذْ لَهُم الكِتَاب، تَجِدُهُ في الرُّكنِ الغربيّ، تَحْتَ حَرْفِ الهَمْزَة.

وأطبَقَ السِّجلَّ مُتعجِّلًا، ودسّ راحتَيه تَحْتَ ذقنِه:

- لَقَدْ طُرِد أستاذانِ مِن هذه المدرَسَة كي يَسُدَّ ذاك الفَتَى الطُّوسيُّ مكانَهما. يجبُ أن يكونَ ضَخْمَ العَجُز إذَن!

وقَهْقَهَ رافعًا رأسَه حتّى مالَت عِمامَتُهُ وظهرَت مَضَاحِكُهُ الطّويلة الّتي تُغطّي السُّوسَةُ نِصْفَها. فوضَعَ أحدُ الطلّاب طَرَفَ عِمامَتِه على وجهِه حياءً.

- هيّا... اغرُبوا مِن أمامي!

وابتعَدوا ضاحكين، ووضع يدَيه على سجلِّهِ وهو يفكّر في ما سمِعَهُ عن الغزاليّ ووصولِه إلى بغداد في مَوْكِبٍ سيّرَهُ مَعَهُ نِظامُ المُلْك.

رفَعَ عَينَيه في جَنبَاتِ المكتبة مُتأمّلًا الطلّابَ المتفرِّقين في أركانها. ثمّ مرّرَ بصرَه على الطّاولاتِ المتناثرة باحثًا عن كتابٍ مُهمَل. فلَمْ يُصدِّق عَيْنَيه، إذ لَمَح كِتَابَ «الشّفاء» لابن سينا على إحدى الطّاولات. فوقفَ، واستدارَ مِن وراء النّضد، ومشى إلى الطّاولة مُترنّحًا رافعًا سبّابته:

- ذلِكَ الفَتَى الدِّمشقيّ... سيندَم!

التفَّت رقابٌ مِن جَنبَاتِ المكتبَةِ الهادئة. ومشى جَوْهَر شاقًّا الرُّفوفَ

كأنّه يَقْفِزُ حتّى وصلَ إلى قِسْمِ الطِّبِ. ولمحَ شُبَّانًا غارقينَ في المطالَعة، فقال مخاطِبًا:

- لَقَد تَرَكَ ذلِك الطّالبُ الدّمشقيُّ الكِتَابَ مَرمِيًّا ولَمْ يُعِدهُ إليّ! ألَمْ أقُل مِرارًا إنّ في هذه المكتبَةِ ستّةَ آلافِ مُجلّد، ولا بُدَّ مِن مراعاةِ النّظامِ حتّى نستطيعَ ضَبْطَهَا.

ورمقَه الطلّاب بنظراتٍ تُظهِرُ الاستنكارَ وتُخفي التّشفّي. وعندَما ولّى مُدبِرًا سَمِعَ صوتًا خَلْفَهُ:

- لو كانَ فتاةً لَتَغافَلْتَ عَن الفِعلة!

وجاء صَوْتُ جَوْهَر:

- حَسْبِي الله فيكم!

نظَرَ إليهِ الطلّاب مُدْبِرًا، ثمّ مالَ أحدُهم على رِفاقِه هامِسًا:

- لا يُرَخِّصُ لأحَدٍ بالصّراخ داخِل المكتبَة.. إلّا لِنَفْسِه! هو لا يَمْنَعُ الصّراخَ لِتَضَايُقهِ منه بل لاحتكارِهِ إيّاه!

وضحِكُوا هَمْسًا، فالتَفَتَ إلَيهم بنظرةِ تأنيبٍ تُخفي ابتسامَة.

عادَ إلى النّضد من جهة الباب، وسرَّح عَينَيه الحادَّتَين مع السّاحة الّتي تتوسّطُ المدرسَة. فلمَحَ مجموعَةً مِن الطلّاب تتجاوزُ النّافورةَ وسط المدرسة قاصدينَ المسجِد.

دوّى الأذانُ في أرجاء المدرسَة النّظاميّة. فخرَجَ الطلاب المعمَّمُون مِن جِهاتها الأربع، واكتظَّ المسجِدُ بالمصلّين.

بُعَيْد الصّلاة بقليلٍ وقَفَ شابٌّ أبيض رقيقُ الصّوت كثُّ اللّحية حليقُ الشّارب:

- هل الشّيخ الغزاليّ مَوْجُود؟

وتحرّكت يدُ الإمام مِن المحرابِ مُشيرًا إلى الغزاليّ الجالِس يمين الصّفّ:

- هذا دانشمند!

واقتربَ الشّابُّ شاقًّا الصُّفوف، والنّاس يوسِّعونَ له، ثمّ جثَا مُقابِلَ رُكْبَتَي الغزاليّ:

- أيّها الشّيخ، لقد انتشرَت الفِتْنَةُ في بغداد بسببِ سُكوتِ العُلماء عَن بيانِ الحقِّ وخوفهم مِنَ العامَّة. وإنّي سائلُكم، ونحن مُتحرِّقُونَ إلى عِلْمِكُم وإرشادِكُم.

سرَت ابتسامةٌ إلى وجه الغزاليّ، وهو يعتَدِلُ في جِلْسَتِه ويُقبِل بوجههِ على الشّابّ. فهدأت الأصواتُ، وتقاربَ النّاس مِن أطرافِ المسجِد.

- يا شَيخ، ما حُكْمُ مَن صرَّح بِلَعْنِ يَزيد بن معاوية؟ هل يُحْكَمُ بِفِسْقِه، أمْ ذلِكَ مُرخَّصٌ فيه؟ وهل كان يزيدُ مُريدًا قَتْلَ الحُسين، رضي الله عَنْه، أمْ كانَ قَصْدُه الدّفْعَ؟ وهَل يسوغُ التّرحُّم علَيه أم السّكوتُ عَنْهُ أفضَل؟

ما إنْ فَرَغَ الشّابُّ مِن أسئلته حتّى سَرَت ضوضاءُ في أطرافِ المسجِد. ووَقَفَ شُبَّانٌ كالمغاضِبين وخرَجوا. واقترَبَ آخرون لِيَسْمَعُوا الجَواب. تذكَّر الغزاليّ شُهرَةَ أهلِ بغدادَ بتلقّي كلِّ قادِمٍ إلَيهم بالأسئلَة لِسَبْرِ مَكانَتِهِ ومِزَاجِه. فَوَقَفَ دُفعَةً واحدَةً وتوجَّه إلى المِنْبَر. وقَبْلَ أن يضع قَدَمَه عَليه تذكَّر انتشارَ الحنابِلَة في بغداد وولَعَهُم بيزيد مُناكَفَةً للرّافِضَة فقال:

- بِسم الله الرّحمن الرّحيم، السّلام عليكُم ورحمَة الله وبركاته.

وارتفَعَت الأبصارُ مُحدِّقَةً جِهَةَ الصّوت:

- وعليكُم السّلام ورحمَة الله!

كان الغزاليّ يلبس ثوبًا أبيضَ ناصِعًا، وعِمَامَةً قُطنيَّةً مفتولَةً بأناقَة، وكانَ صوتُه واضِحًا جهْوَريًّا فصيحًا، بينما بدا وجهُهُ أكثَرَ شبابًا وتوقُّدًا مِن مُعْظَمِ شيوخِ النّظاميّة:

- *وبَعْدُ، فإنَّهُ لا يجوزُ لَعْنُ المسلمِ أصلًا. ومَن لَعَنَ مُسْلِمًا فهو الملعون. وقَدْ قالَ صلّى الله عليه وسلّم: «المسلِمُ لَيسَ بلعّانٍ». وكيفَ يجوزُ لَعْنُ المسلمِ ولا يجوزُ لَعْنُ البهائم لِوُرودِ النَّهي عَن ذلك. وحرمةُ المسلم أعظَمُ مِن حُرْمَةِ الكَعْبَةِ بنصِّ قَوْلِ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.*

كان صاحبُ السّؤال جالِسًا قُرْبَ المِنْبَر، وأساريرُه تَنْفَرِجُ كلّما فاهَ الغزاليّ بجُمْلَة.

- *ويزيدُ صحَّ إسلامُه، وما صحّ قتلُه الحُسينَ، رضي الله عنه، ولا أمرُه ولا رِضاهُ بذلك. ومادامَ لَمْ يصحّ ذلك منْه فلا يجوزُ أن يُظَنَّ ذلك به. فإنّ إساءة الظّنّ بالمسلِمِ أيضًا حرام. وقد قال تعالى: «يا أيها الّذين آمنوا اجتنِبوا كثيرًا مِنَ الظّنِّ إنّ بعضَ الظنّ إثم». وقالَ صلّى الله عليهِ وسلّم: «إنّ الله حرّم مِن المسلِمِ دَمَه ومالَه وعرضَه وأن يُظنّ به ظنُّ السّوء». ومَن زعم أنّ يزيدَ أمَرَ بقَتْلِ الحُسين، رضي الله عنه، أو رضي به فينبغي أن يُظنّ بِهِ غايَة الحَماقة. فإنّ مَن قُتِلَ مِن الأكابر والوزراء والسّلاطين في عصرِهِ لَو أراد أن يعلَم حقيقة من أمر بقتله، ومن الّذي رضي به، ومن الّذي كرِهَه لَمْ يقدِر على ذلك. وإن كان قد قُتل في جِواره وزمانه وهو يُشاهده، فكيف لو كان في بلَدٍ بعيدٍ وزمنٍ قديمٍ انقضى؟ وكيفَ يُعلم ذلك في ما انقضى عليه قريبٌ من أربعمائة سنةٍ في مكانٍ بعيد؟ وقد تطرّق التّعصّب في الواقعة فكثرَت فيها الأحاديث، فهذا أمرٌ لا تُعرف حقيقته أصلًا. وإذا لم يُعرف وَجَبَ إحسانُ الظّنّ بكلّ مسلِمٍ يُمكن إحسان الظّنّ به، ومع هذا فلو ثَبتَ على مسلِمٍ أنّه قَتَلَ مُسلِمًا فمذهَبُ الحقّ أنه لَيْسَ بكافِرٍ، والقَتْلُ لَيْسَ بكفرٍ بل هو مَعْصِيَة. وإذا ماتَ القاتِل فربّما مات بعد التّوبة، والكافرُ لو تابَ مِن كُفْرِهِ لَمْ تَجُزْ لعنَتُه، فكيف من تابَ عَنْ قَتْلٍ؟ والله أعلَم.*

وشمَّر جبَّتَه لِيَضَع قَدَمَهُ على درجَةِ المنْبَرِ نازِلًا، فسرتْ ضوضاءُ في أطراف المسجِد. وظهرَت عِمَامَةٌ تتحرّك وسَطَ الجُموع، وإصبَعٌ مرفوعَةٌ في الهواء. والتَفَتَت الوُجوه المتطلِّعَةُ فإذا جَوْهَرُ الكتبِيّ:

- أيّها الشّيخ الطّوسيّ، وماذا عن رَفْضِهِ الغَزْوَ مع جُنودِ المسلمينَ وهُم بأرضِ الرُّوم، وهو جالِسٌ يشرَبُ بِديرٍ للنَّصارَى اسمه ديْرُ مُرّان. ولّما عَلِمَ بِمَوتِ جنُود المسلمينَ في بلاد الرّوم قَالَ:

وما أُبَـالِي بما لاَقَـتْ جنودُهُم بالفَرْقَدُونةِ مِنْ حُمَّى ومن مُومِ
إذا ارتفقتُ على الأنماط مُصْطَبِحًا بدَيْـر مُـرّانَ عنـدي أمُّ كُلْثـومِ!

فرفَعَ رَجُلٌ طويلُ العُنُقِ رأسَه مِن طرف المسجد وصاح:

- يا الله!!! يَغْفِرُ الله لَهُ لِجَمَالِ أبْيَاتِه!

مدّ الغزاليّ يدَهُ طالِبًا الهدوء، فانكتمَت الأصوات. ثمّ مَسَحَ لِحْيَتَهُ مُوجِّهًا بَصَرَهُ إلى باب المسجد:

- شُوف -أيّدكَ الله!- تِلْكَ الّتي يتغزَّلُ بِها زَوْجَتُه، وذلِك طَيْشُ الشّباب، وأنا لَمْ أبرِّئهُ مِن المعاصي، وإنَّما أجَبْتُ بِعَدَمِ جوازِ لَعْنِ المسلِم.

ووضَعَ رِجْلَهُ خارجَ المسجِد، فرمَى طالِبٌ نَعلَيْه أمامَه، فأدخَلَ فيهما رِجْلَيْه وهو يتأمّل شُرفاتِ المدرَسَة العالِيَة، وجموعَ الطلّاب المتفرّقين في أطرافِها يراجعون دروسهم. شرَدَ خَيالُه وتساءل: *هل كان السّؤالُ عَن يزيد سؤالًا مِن سائلٍ طالِبٍ للحقّ، أمْ امتِحانًا مِن الخليفَة أو أحدِ وُجهاء بغداد؟ أم رصَد الحنابِلَةُ لَهُ سؤالًا لِيَروا رأيه في بعض الخلافيّات؟*

هل وُفِّق في الجواب؟ وهل سَيرضى نِظامُ المُلْك بهذا الجوابِ إذا بَلَغَهُ؟ عجّ رأسُه بِتِلْكَ الخواطِر وهو يشقُّ طريق العودة إلى حُجْرَةِ التّدريس، ورأى جوهر الكتبيّ خارجًا من المدرسة.

أسرع جوهر مع شارع الياسمين، ثمّ سلكَ شارعَ التفّاح، وما كاد يدخل حجرته حتّى جلس وكتب في ورقةٍ صغيرة:

- «وصل من نيسابور أستاذٌ له عند الأتراك مكانة.. اسمه محمّد الغزالي. والحديث في بغداد كلّها عن صراعٍ بين الوزير نظام الملك والسلطان ملك شاه...».

وطوى الورقة وهو يفكّر في لقائه الليلةَ مع ذلك السائل الذي يتظاهر بالعمى ويجلس عند مسجد أبي حنيفة، ليسلّمه إيّاها.

28

ضواحي أصفهان، 485 هـ.

جلَسَ السّلطان ملكشاه على كرسيّه المرتفِعِ المنصوب في أقصى المجلس، وكانت عيناه الضيّقتانِ تتأمّلان وجوهَ الكتّابِ والوزراء والقَادَة مِن حَوْلِه كأنّه يَبْحَثُ عَن شيءٍ. قَرَعَ بِحَرْبَتِه طرَفَ الكرسيّ وهو يُحرّك رُكْبَتَهُ صامتًا. كان يفكّر في ما قالَهُ لَهُ أحدُ الشّعراء أمس مِنْ أنّ الأتراك يُشبِهونَ الأسُود. فأنوفُهم فطسٌ، ووجوهُهم عَريضة، وسواعِدهُم مَفتولة، وعُيونهم ضيّقَة، ويرِدون حياضَ الموت باسِمِين.

تذكَّرَ والِدَهُ وأجدادَه مُقلِّبًا في ذِهنِه ما يَفْعَلُهُ بوزيره نِظام المُلْك. هل يقتُلُه غيلةً حتّى لا يثورَ بعضُ الجنودِ مِنْ أجلِه؟ أمْ ذلِكَ جُبْنٌ وخَوَرٌ لا يليقُ بِسلِيلِ السّلاجقَة؟ كيف يُفكّر في الغِيلَة كأنّه جاريَةٌ مَهيضَةُ الجَناح؟ إنّه السّلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، الملقَّب بِمُعِزِّ الدّنيا والدّين، المعظَّم شاهنشاه، مَوْلَى العَرَب والعَجَم، سُلطان أرض الله، رُكْنُ الإسلام والمسلمين؟ شَعُرَ بصدرِه ينتفِخُ وهو يتأمّل تلك الألقابَ المخلوعَة علَيه. وقرّر أن يَقْتُلَ نِظامَ المُلْك عَلَنًا بعد رسالته تلك، ويضَعَ رأسَهُ على خَشَبَةٍ عِنْدَ مَدْخَلِ أصفَهان فيراهُ الدَّاخل والخارج، لِيَعْرِفُوا أنّ ملكشاه لا يغفِرُ لأيِّ مُتطاوِلٍ على سُلطانِه، ولَوْ كانَ ذلِكَ المتطاولُ الوصيَّ علَيه وبانيَ السّلطنة، ومُثبِّتَ أركانها، نِظام المُلْك.

تجسَّدَت في خَيالِه صورَة زَوْجَتِه البارحة وهي تتحدَّثُ عن وزيره. كانَت تَلْبَسُ مِرطًا أحْمَرَ وتستلقي بغَنَج على سريرٍ في مَخْدَعِهَا وَسَطَ القَلْعَة.

وحين دخَلَ وجلَسَ على طرَفِ السّرير، سألَتْهُ:

- مَا لي أراكَ ساهِمًا مهمومًا؟ هذا لا يليقُ بسلطانٍ تُركيّ!

- لَسْتُ ساهِمًا... وإنّما أفكِّرُ في تدبير شؤونِ السّلطنَة.

جلَسَت دُفْعَةً واحدَةً حتّى انحَسَرَ طرَفُ المِرط عن مِنْكَبِها وهي تفكِّرُ في أنَّهُ لا يُدبِّرُ إلّا الصَّيْدَ واللَّعِب:

- أنا أعْرِفُ دلالاتِ حركَةِ عَينَي سُلطانِي جيّدًا. فأيُّ امرأةٍ لا تفهَمُ حركَةَ عَيْنَي زوجِها لَا تستحقُّهُ!

ثمّ شبّكَت ساعِدَيْها، وأمالَت رأسَها غنَجا، حتّى انسدَلَ شعرُها:

- عندما تُفكِّرُ في أمْرٍ يهمُّكَ أرَى انقِباضًا في طرَفِ حدَقَةِ عَيْنِك اليُمنَى، وظِلالًا تُشبِهُ لَوْنَ الغُبارِ على وجهِكَ كلِّه.

رفَعَ رِجْلَيْهِ عَن الأرضِ لِيَضَعَهُمَا فَوْق السّرير، ورمَى قَلنْسُوَتَهُ وهو ينظرُ إلى قدَمَيْه:

- أعرِفُ أنّكِ تُلاحظينَ كلَّ شيءٍ مُرتَبِطٍ بالنّساء قَطْعًا.

ضَرَبَتْهُ في صَدْرِهِ دَلالًا، وحَدَجَتْهُ بنظرَةٍ وهي تُميلُ رأسَها نِصْفَ إمالَة، ثمّ خفَضَتْ عَينيها:

- أستطيعُ رؤيَة مكانِ القُبْلَةِ على خدّكَ بَعْدَ عَشرَةِ أيّامٍ مِن وقُوعها...

قَهْقَهَ وهو يدسُّ رأسَهُ في الوِسادة الوثيرة، ثمّ رفعَ عَينَيه في سَقْفِ الحُجْرَةِ المزيَّنِ بصوَرِ الطّواويس:

- وما الّذي أفكِّرُ فيه اليَوم؟

اضطَجَعَتْ قُرْبَهُ، ووضعَت يدَهَا عَلَى صَدْرِهِ وقد تذكّرت ما كانَت أمُّهَا تَقُولُ لَهَا مِن إمكانِ إقناعِ المرأةِ لِزَوْجِها بأيِّ شيءٍ متى تمكّنتْ مِن أذنيه، وقالت:

- تُفكِّرُ اليَوْمَ في أمْرِ الوزير نِظام المُلْك!

امتقعَ وجهُه، لكنَّهُ لَمْ يَلْتَفِت إليها. بل واصَلَ النّظَرَ إلى الطّواويس المرسومة المتراصّة على أطراف السّقف:

- أمّا هذه فَصَدَقْتِ فيها!

جلست:

- أعْلَمُ أنّكُم لا تُقيمون وزنًا لآراء النّساء، لكنْ اسْمَع منّي ما أقول.

تجاوزَت عيناهُ الطّواويس إلى رَسْمٍ لأسَدٍ فاغِرٍ فاهُ يَفْتَرِسُ ثَوْرًا برّيًّا. ثبَّتَ نظراتِه على صُورَة الأسَد وأخذ ينصتُ إليها:

- هَلْ تذكُر ما فَعَلَ المنصورُ العبّاسيّ بأبي مُسلِمٍ الخُراسانيّ؟ تَرَكَهُ حتّى ثبّت لَهُ أركانَ الدّولة، ثمّ قطَعَ رأسَهُ بِيَدِه! وماذا عن هارون الرّشيد؟ كان رضيعَ البَرامِكَةِ وكانوا إخوَتَه، لكنَّهُ لَمّا عَرَفَ أنّهم يَعْبَثُون بِسلطانِه وينوون مُنازعَتَهُ رِداءَ المُلْكِ قَطَعَ رؤوسَهُم وصادَرَ أموالَهُم.

وسكتَت. كانت امرأةً تُحسِنُ الكلامَ وتعرِفُ مواطِنَ السُّكوتِ كذلِك. تَنْفُثُ كلماتِها، ثمّ تتركُ أثرَها يَعْتَمِلُ في أُذُن السّامع. تلسَعُ، ثمّ تتركُ السُّمَّ يسري في أطراف الجَسَدِ رُوَيْدًا.

وضعَت يدَها على صدرِه ونزَلَت متباطئةً داسَّةً رأسَها في الوِسادَة اللّينَة وهي ترقُبُ قسمات وجهِه تتلوَّن.

كان ملكشاه يستعيد حِوارَه مع زَوْجَتِه حين سمع نِداء الحاجِب:

- الوزير نِظامُ المُلْك بالباب!

رفَعَ السّلطان عَينَيه، وأشارَ بيدِه، فانفتَح البابُ المقوَّسُ الطّويل، ودخَل نِظامُ المُلْك ماشيًا بتؤدَةٍ يحفُّه بَعْضُ مُساعديه وكتّابِه.

- السلام على مولاي السلطان!

رفَعَ السّلطانُ يدَهُ مُشيرًا بالحِرْبَةِ المذهَّبَةِ الّتي في يدِهِ إلى كرسيٍّ بجانِبِه:

- أهلًا وسهلًا بوالِدي!

جلَسَ الوزيرُ مُتثاقِلًا في الكرسيّ المنصوبِ عن يمين السّلطان؛ فالتقَتْ نظراتُهما. نظراتٌ حارِقَةٌ مُتوتِّرةٌ صارخَة. رفعَ الوزير وجهَه، لكنَّهُ سلَّط عَينَيْه على أنف السّلطان لِيَتَفَادى الْتِقَاء عُيونِهما مرّةً أخرى. لاحَظَ الوزيرُ أنّ السّلطان أيضًا يُغَالِبُ النَّظرَ في عَينَيه. ورأى أيضًا تغيّرًا في وجهِه لَمْ تُخطئهُ نظرتُه الّتي جَرَّبَتِ الرّجالَ في أوضاعٍ مُختلِفَةٍ مِن الرّضا والغَضَبِ والصِّراعِ والقِتَالِ والقوَّةِ والضّعفِ.

- أهلًا بالوزير! هَلْ مِنْ أخبَارٍ عَن الجَيْشِ الّذي أرسلتَ إلى حَسَنَ الصَّبَّاح في قَلْعَةِ آلموت؟

مالَ الوزيرُ إلى الأمام في مَقْعَدِه حتّى ظهرَت عِمَامَتُه الضّخمة أكبرَ مِن حَجْمِها العاديّ:

- نَعَم سيّدي! ما زالَ الجَيْشُ يُحاصِر القَلْعَةَ، وسيظلُّ هناك حتّى يَنْزِلَ الأفّاك الباطنيُّ على شُروطِهم.

- ألاَ يَعْلَمُ ذلِك الأبلَهُ أنّ طَيْرَ السّماء لا تستطيعُ الهَرَبَ مِن سُلطانِنا؟ سيُنزلونَهُ صاغِرًا وأعلِّقُ رأسَهُ عَلَى مَدْخَلِ أصفَهان!

شعُرَ الوزيرُ بتضايقٍ مِنْ لَهْجَةِ السّلطان، وهاجَمَتْهُ أسئلةٌ مُختلِفَة. *لِمَ يتحدّث بهذه الصّيغَة؟* فلَيْسَ مِنْ عادته الحديث هكذا. هُو بدويٌّ تُركيّ، وأولئك البَدو رِجَالُ أفعالٍ لا رِجَالُ أقْوَال. *هل هذا التّهديدُ يَعنيني أمْ يَعني حَسَنَ الصَّبّاح؟*

تنفّس الوزيرُ مُتصفِّحًا وجوهَ الجالسين في المجلس الواسع. *كلّ واحدٍ مِن هؤلاء صنيعَتي. أنا الّذي أدخَلتُ كلًّا مِنهم في خِدْمَة السّلطان ودَرَّبتُه وصنَعْتُ منه شيئًا. فما الّذي يستطيعُ هذا الولَدُ الغِرُّ أن يفعَلَ بي؟*

راحَ يتأمّل وجهَ السّلطان. وتذكّر يومَ تُوفّيَ أبُوه ولجَأَ إليه لِتَثْبيتِ أركانِ

مُلْكِه. وكيفَ كانَ يُوجِّهُه في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة. نَظَرَ إلى ساعِدَيه المفتولَين وتاجِهِ الشّامِخ وحرْبَتِهِ المذهَّبة. *ألا مَا أتعَسَ الإنسانَ! الإنسانُ بطَبعِهِ حيوانٌ خائِنٌ. يأتيكَ في لحظاتِ الضّعف بعينَين مُتوسِّلَتين ضعيفتَين، حتّى إذا تمكّن واشتدَّ ساعِدُه طغَى وتَجَبّر. فما الّذي يَمْنَعُني مِنْ أَخْذِ قِسْمٍ مِنَ الجَيْشِ وإعلانِ نَفسي أميرًا؟*

تراجع الوزير في مقعدَهِ، وغرَقَ في أسئلةٍ كثيرةٍ لم يستفق منها إلّا على المستَشارِ تاجِ المُلْك يَخْتَرِقُهُ بنظراتٍ كأنّه اطَّلع على خواطِره. وسادَ المجلسَ صمتٌ مُقْلِق، ودبّتْ أسئلةٌ حَيْرَى في أذهان الحاضرين، فقَد سَمِعَ كلٌّ مِنْهُم عَنِ الرسائلِ الّتي تبادَلَها الوزيرُ وسُلطانُه. وشَعُرَ كلُّ مَن في المجلِس بالحاجَة إلى كَسْرِ الصّمت الصّارخ، لكنْ لا أحَدَ يستطيعُ ذلك قَبْلَ أنْ يتحدَّثَ السّلطان. وبَعْدَ ثوانٍ ابتسَمَ ملكشاه ابتسامَةً تُشبِهُ التّكشيرةَ مُديرًا وجهَهُ في المجلِس:

- أيّها الوزير، أما زالَ السِّجنُ مليئًا بِخَلْقٍ كثيرٍ بِدَعوى أنّهم مِنَ الباطنيّة؟

- الأمرُ كذلِك يا حضرَة السّلطان. فَقَدْ حَصَلْتُ على كِتَابٍ فيه أسماءُ دُعاتِهم وأودَعْتُهُم السّجنَ حتّى يَنْظُرَ مَولاي في أمْرِهِم.

- مولاكَ أمَرَ بإطلاقِ سَراحِهِم حالًا!

وانطلَقَ تَاجُ المُلْكِ جَذِلًا:

- جزَى الله السّلطان خَيْرَ الجَزَاء. فَمَا ثَبَتَ مُلكٌ بِمِثْلِ حِلمٍ وعفو!

تحرّك نِظامُ المُلْك في كرسيّه، كان يفكّر في أسبابَ تَشجيعِ تَاجِ المُلْكِ للسّلطانِ، وقال:

- الأمرُ أمرُكَ أيّها السّلطان. لكنّ هؤلاء أعداءُ السّلطنة وجنودُ الخبيث الّذي يُحاصِرُهُ جيشُ السلطان في آلموت، و..

جاء صوتُ ملكشاه رافعًا يَدَهُ بالحربَةِ في الهواء:

- يُطْلَقُ سَراحُهُم حالًا!

واستَرخى في كرسيّه مُستَمْتِعًا بِنَشْوَةِ نَفَاذِ الأمر، مُفكّرًا في مرامي قرارِه. *لا بُدَّ أنْ يَعْرِفَ هؤلاء الأوغاد أنَّ لِوَزيري حُدودًا، وأنَّ يَدَهُ غَيْرُ مُطْلَقَةٍ في سَلْطَنَتي. لا بُدَّ أن يعرِفُوا ذلك وهو حيّ، قَبْلَ تنفيذ ما سأرى فيه.*

وقَطَعَ الصّمتَ صوتُ نِظام المُلْك:

- أيّها السّلطان! إنّ الإسلامَ لَمْ يُبْتَلَ مُنْذُ ظَهَرَ كَما ابْتُلِيَ بهؤلاء الباطنيّة. فهُم يَنشُرُونَ بين النّاس الإباحيَّة ويُسقِطُونَ مَهابَةَ ألفَاظِ القُرآن مِن صُدورِهم، ويُظهرونَ الدّعوة للإمام ويُبطِنونَ الكُفْر. وأنا ما سَجَنْتُهُم إلّا بَعْدَ أن جاءني كِتَابٌ كَتَبَهُ رَجُلٌ صَالِحٌ كان مَخْدُوعًا بِهم ثمّ تابَ مِنْ بِدْعَتِهم يُدعَى سَمْنُون. كَتَبَ كِتَابًا يَفْضَحُهُم فيه فَقَتَلُوهُ غِيلةً مَعَ سِنِّهِ وشَيْبَتِهِ وعِبَادَتِه.

وانطلَقَ الوزيرُ يتحدّث بِلُغَةٍ فَصيحةٍ ونبرةٍ قويّةٍ غَيْرَ مُتلعثِمٍ ولا مُتردِّد. وشخَصَت الوجوهُ مِن أرجاء المجلِس، وتردّدت نظرات الحاضرين بَين الوزير وعينَي السّلطان. كانَ ملكشاه ينظُرُ إلى الأرضِ حِينًا، وإلى سَقْفِ المجلِس حينًا. ومَا إنْ أنهى كلامَهُ حتّى وقَفَ السُّلطانُ صارِخًا:

- يُطْلَقُ سراحُهُم فَوْرًا!

وقفَ الجميعُ بوقوفِ ملكشاه، ومالَتْ عِمامَةُ الوزير الضّخمة إلى الأمام هامسًا:

- سَمْعًا وطاعَةً يا مولاي!

وقُبَيْلَ خُروج السّلطان مِن المجلس التفَتَ وقال:

- يَتَجهَّزُ الجميعُ للسَّفرِ إلى بغداد.

وقعَت كلماتُه وقْعًا قويًّا على الحضور. ما الّذي يفكّر فيه؟ وما الّذي

يُضْمِرُه. وانحنَت الرّؤوس، وانطلَقت الأصوات مِن أطراف المجلِس:

- السّمع والطّاعة!

ثمّ توارَى السّلطان وراء الباب تشيّعُه النّظراتُ الخائفَة والقُلوبُ الواجِفَة. وكان الخصيُّ النحيل آخرَ الخارجين وهو يستعيد في ذهنه كلَّ ما سمع، وانطلقَ إلى تركان خاتون.

29

بغداد، 485 هـ.

كان الدّيلميّ يَقْرَعُ الأرضَ بقدمَيْه الضّخمتين رافعًا ذراعَيه ويصيحُ:

- هذه لَمْ تَعْد دارًا للصّوفيّة... لقد غَدَتْ دارَ مِسكٍ المغنّية!

خرجَ مِنْ حُجْرَتِه في عِمامَتِه الصّفراء وهو يهزُّ مِنْكَبَيه الضّخمين ورقبتَه القَصيرة، وكان ذلك نذيرًا بِيَوْمٍ عاصِفٍ أو خَبَرٍ مُستطير.

وصَلَ إلى قاعَةٍ دائريّةٍ واسعةٍ تحيطُ بها عشرونَ حُجْرَةً فسيحةً تتّسِعُ كلّ منها لِعَشرة مُريدين. فأطلَّت الرّؤوس الحَذِرَةُ مِن الحُجرات تراقبه. فالوقتُ لَيْسَ وقتَ طعامٍ ولا ذِكْرٍ جماعيّ. كانَ يحمل صحيفَةً كبيرةً ينظُرُ إليها عبر زجاجَةٍ بِيَدِه. تأمَّلَها ثمّ رفعَ صوتَهُ:

- يا عبّود! يا عبّود!

وظهرَ عبّود آتيًا ركضًا مِن جِهَة المطابِخ الواقِعَة في الرُّكنِ الغربيّ للخانقاه. وقفَ حابِسًا أنفاسَه:

- أمرُك يا سيّدي!

- شوف، ادْعُ كلّ المريدينَ إلى القاعَةِ الآن!

وخلال دقائق تزاحمت الأجسادُ النّحيلةُ في الملابس الرّثَّةِ. مشَى الدّيلميّ إلى المنبَرِ في طَرَفِ القَاعَة. واعتلاهُ موزِّعًا نظراتِه المرتابةَ دومًا. جفنَان غليظَان تتحرّك تحتَهُما حدقَتان لامعتَان. ثمّ رفع وجهَه عَن الصحيفة وقال:

- ما الّذي جاء بِكم إلى هذا المكان؟ أنتُم هُنا لِتَربيَةِ النُّفوسِ وتَنْقِيَتِها مِن أوْضار المعاصي. وقد جئتُ لأعلِمَكُم بثلاثَةِ أمور.

سكَتَ، ومدّ بصرَه يتأمّل العُيونَ النّاعسة المرهَقَة الّتي تَفْتَرِسُه. ورفَع صوفيٌّ ضَخمُ الهامة ذو سالِفَتَين رأسَه:

- وما الثّلاثة؟

- الأوّلُ، أنّ ضُيوفًا جاؤوا مِن نَيسابور فاستوصُوا بهم خيرًا. فلا أريدُ سماعَ شكايَةِ تضايقٍ مِن ضيف، أو تَضجُّرٍ مِن رفيق.

شعُر الشّيخ الأصْلَعُ طَيفور القَادمُ حديثًا مِن نَيسابور بالسّعادة.

- والثّانية أنّ اللُّحومَ ستُمنَع عنكُم أربعينَ يومًا، حتّى لا تُمسَخُوا أسودًا مِن أسود بيشة. والثّالثة أنّا عَلِمْنَا أنّ بعضَكم يَقْبَلُ الهدايا والطّعام مِن الجيران. وأنتُم في هذا الرّباط لا يعوزكم شيء، فالمال كثيرٌ والحمد لله.

فسرَتْ في أطراف القاعة المكتظّة غمغمات وهمسات. ولَوَى المريدونَ رؤوسَهم يتحادثُون. ثمّ جاء صوتُ مِيرزَا، الرَّجُل الأسمر النّحيل الطّويل، وكان يقِفُ مُسنِدًا ذراعَهُ إلى السّارية الضّخمة القريبَة مِنَ المنبَر:

- المالُ كثيرٌ، لكنَّ اليَدَ الّتي تتصرَّفُ فيه تُقصِّرُ أحيانًا عَنْ مَدَاها.

وتفصّدَ جبينُ الديلميّ عَرَقًا، فتشاغَلَ بِحَكِّ إبهامِه مُفكّرًا في صيغَةٍ مُثْلَى يردُّ بها على مِيرزا، ثمّ قال:

- إنّ الرّاعي مؤتَمَن، وإنّي إنّما أدَّخِرُ المالَ لَكُم.

كفّ مِيرزا ذراعَه، ولفَّ ساعِدَيه، ومالَ على السّارية بكَتِفَيْه، وقال مُتظاهِرًا بعدَم الاكتراث:

- تدَّخِرُهُ لَنَا أو لخانقاه الأعظميّة؟

فانكتَمَ كلّ شيء. وانْسَحَبَ الهواءُ، وسكَنَت الشّفاه بَيْنَ مَفْتُوحَةٍ ومَزْمَومَة، وبَقِيَت الحركَةُ الوحيدَةُ حركَة الأعيُن المحمرّة المرهَقة المتقافِزَة بين مِيرزا والدّيلميّ، حتّى سُمِعَ صوْتُ الحَمامِ القُمْريّ يَنوحُ على الأغصان

في أطراف حائط الخانقاه.. وسُمِعَت أصوات طلّاب النّظاميّة وراء الشّارع وهم يُراجِعُونَ دُروسَهم ويَتناقَشُون. فالتفت الدّيلميّ إلى مِيرزا نِصْفِ الْتِفَاتَة، وقالَ كأنّه يتأفَّفُ:

- سأرفَعُ شكوى منك إلى القَيّم، وأخرى إلى ديوان الوزير أيّدَهُ الله. وسواء كان ما يقولُه الحسَّادُ حقًّا أو كَذِبًا فلا تكونوا حَفْنَةً مِن المتسوِّلين!

أمالَ ميرزا رأسَه على السّارية مُتثاقِلًا:

- أُشْكُ إلى ملكشاه بن ألب أرسلان، وارفَع مَظْلَمَتَك إلى الحضرَة المؤيّديّة! لَكِن لا تُحوِّل أموالَ الخانقاه إلى بَيْتِكَ في الأعظميّة.

ومشى الدّيلميّ مُلَمْلِمًا أطرافَ جُبَّتِه، ونظراتُ الاستغراب والاندهاش تُشيِّعُه. كيفَ غدا هادِئًا؟ وكيفَ تقبّل الإهانَةَ بهذا البُرود؟ وما الّذي سيَفْعَلُه؟ ثمّ توارَى داخِل حُجْرَتِه وأغلق على نفسِه بابَه. فوقَفَ الصّوفيّة مُتفرّقينَ في الحُجُراتِ والأفنِية، وبقي مِيرزا واثنانِ مِن رفاقِه جالِسين في القاعة. ثمّ اقتربَ صوفيٌّ حادُّ الأنف عاري الصّدر مِن مِيرزا:

- هَلْ حَقًّا ما يقولُه النّاس مِنْ أنّ الدّيلميّ يبني قَصْرًا في الأعظميّة مِن مالِ الرّباط؟

- نَعَم.

حرّك الدّرويش جفنَين ناعسَين وشفتَين دقيقتَين:

- هذه تُهمَةٌ عظيمَةٌ تقتضي أدلَّةً قطعيَّة.. وما أظنُّ مَنْ يعيشُ في خانقاه، ويتكسّبُ مِنْ خِدْمَة المتصوّفة يَفْعَل هذا.

أدارَ مِيرزا رأسَه، وحرّك عَينَيه السّوداوَين المنطفئتَين دومًا كأنّما خرج مِن مرض. ثمّ التَفَتَ جِهَةَ حُجْرَةِ الدّيلميّ:

- شُوف، لَوْ لَمْ تَكُن هذه الدُّنيا مَبْنِيَّةً عَلَى أنْ يَخُونَ الأمينُ ويَكْذِبَ

الصَّادِقُ، ويَسْرِقَ المؤتَمَنُ، لَطَابَ العَيْشُ وارتَفَعَ كَثيرٌ مِن المحَن. في هذه الحياةِ قَدْ يَسْرِقُ قيِّمُ المتصوّفَة، ويَزني عاقِدُ الأنكِحَة، ويَكْذِبُ مُحلِّفُ الشّهود، وينهَبُ الوكيلُ أموالَ الأيتَام! وتعفُّ البَغِيُّ أحيانًا، ويرقُّ قَلْبُ الجبَّارِ آونَةً، وهكَذا. فأمورُ العَالَمِ قَائمَةٌ على التّخليط.

اعتدَل الدّرويش في جِلْسَتِه كأنّ ماءً باردًا أُفرِغَ على هامَتِهِ فجأةً:

- آ، أو...

- لا، ثمّةَ أمرٌ آخر. إنّ اللّصّ الهارِبَ يختَفي عادةً قُرْبَ دار الشُّرَط، والمحتالَ يودِع أموالَه لدى زَوْجَةِ القَاضي. وذلِك أنّ قوامَ أمْرِ هذا العالَمِ على وجودِ السُّمِّ في العَسَل، والدَّواءِ في التّرياق، والموتِ في الحياة.

- لا إله إلا الله!

قطَع مِيرزا حديثَه وهو يَرَى الشّيخَ السّعيد يقتربُ بخطاه الوئيدة. فقد حانَ وقت الذِّكْرِ الجماعيّ. وانثالَ المريدون مِن أطرافِ الرباط في جِبَابِهم الصّوفيّة والهواءُ يتلاعَبُ بأطرافِها.

تحلقوا حِلَقًا، وجلَسَ الشّيخ السّعيد وظهرُه إلى المنبَر. فوقَف مُريدٌ أبيض ضخمٌ ناتِئُ الخاصرتَين مُشيرًا إلى الصّوفيّة بالاقتراب والانتظام. وانطلَق صوت الشّيخ السّعيد:

الله! الله! الله! لا إله إلا الله! الله الله!

مدَّ الحرفَ الأخيرَ مِن اسْمِ الله حتّى انتَهى أمَدُ نَفَسِه، فتردّد صوتُه الشّجيّ في أطراف المكان. ثمّ هدأت الأصوات، وخرَج العُمّال مِن أطراف الخانقاه، حتّى إنّ عبّودًا ورفاقَه في المطبخ جلَسوا مُستندينَ إلى السّواري القريبَة وأيديهم تحت أذقانِهم مُنصِتِين.

كانت لحظة الذّكر الجماعيّ بعد العَصْرِ أحبَّ ما في البرنامَج اليَوميِّ لِسكّانِ الخانقاه.

وارتفعَت الأعين إلى الشّيخ السّعيد. كان نحيفَ الأعضاء، عظيم الهامَة، دقيقَ الذّراعَين كثَّ اللّحية أبيضَها، تعلوهُ عِمامَةٌ سوداء تحتها جبهَةٌ واسِعَةٌ بيضاء. واصَلَ تَرداد اسمِ الجَلالَة. فقد عوّد مُجالسيهِ ألّا يُغيِّرَ النَّبرَةَ قَبْلَ أن يُكرِّرَ الذّكر خمسينَ مرَّة.

الله الله!، لا إله إلا الله! الله الله! لا إله إلا الله!

ومطّط اسمَ الجلالةِ الأخيرَ بِنبرَةِ النّحيب! فجاشَت أنفُس، وانحدَرَت عبرات، وصرخَ شيخٌ مقوّسُ الظّهر في وسَط الحَلَقَةِ مُنشِدًا بصوتٍ متهدّجٍ حزين:

لَـوْ أنّ دُونكَ بحـرَ الصّينَ مُعترضًا　　　لخِلـتُ ذاك سرابًـا ذاهـبَ الأثـرِ!

ولَـوْ دُعيـتُ -وفيـما بيننـا سَـقَرٌ-　　　لهوَّن الشّوقُ خَوْضَ النّار في السّقَرِ!

فتمايَلَ الشّيخ السّعيد، ورفعَ ذِراعَيه في الهواء، وانحدَرت الدّموعُ على شَعْرِه الأشيَب:

الله الله، لا إله إلا الله! الله الله الله، لا إله إلا الله!

كان المتواجِدون ينتظرونَ لحظةً مِن لَحظاتِ تواجُد الشّيخ السّعيد. فيَومَ يَنْجَحُ ذو صوتٍ شجيٍّ في استفزاز كوامِنِه وإخراجِهِ عن طَوْرِه يكون يَوْمًا مِن أبْرَكِ أيّامِ الذّكر. وهكذا حدَجَتْهُ العُيون مِن أطراف الحَلَقَةِ، وتنافَسَ المنشِدُونَ في استثَارةِ كوامِنِه.

والتَفَتَ الشّيخ السّعيد، فرأى مِيرزا جالِسًا القُرفُصَاء، ورأسُه لا يزالُ مُستندًا إلى السّارية مُحرّكًا شفتَيه.

سخَنَ الجوُّ في القاعَة؛ وتحدّرَ العَرَقُ مِن الجِباهِ رَغْمَ الطقس اللّطيفِ خَارج أسْوارَ الخانقاه. وتسارَعت نبراتُ الذّكر، وطابَت الأصوات، ونشِطَت الحناجِرُ المتكاسِلة، وتحرّكت الأعينُ النّاعسة المرهقَة مِن قِيام اللّيل. وفجأةً وقفَ الشّيخُ الأصلع، ونزعَ كوزَه مِن تحت إبطِه، ووضعَه

إلى جانب الشّيخ السّعيد. ثمّ خَلَعَ عِمامَتَهُ وجعَلَ يَرْقُصُ عَلى رِجْلٍ واحدَةٍ مادًّا ذراعَيه يمينًا وشمالًا كأنّه طائرٌ سماويّ. فانفرَجَت الحِلَقُ أمامَهُ موسّعةً لَهُ مَجالَ الرّقص. وتصاعَدَ الذّكرُ، وانتظَمت نَغَماتُه، وظَلَّ الشّيخ يَحْجِلُ عَلى رِجْلٍ واحدَةٍ حتّى سَقَطَت قُلُنْسُوتُه. فقَفزَ الشّيخ السّعيد، وأخذَها، وقَبَّلَها، ثمّ وضعَها علَى رأسِ الأصلَعِ وهوَ يَحْجِلُ، وعادَ إلى مكانِ جُلوسِه.

دارَ طيفور الأصْلَعُ ووقَفَ مُنشِدًا بنفَس حزين:

وإذا ذكرتُكَ ما خلَوتُ تقطّعتْ كبِدي عليكَ وزادتِ الحَسَراتُ!

قالَها بنفَسٍ تذكاريٍّ حزين، وهزَّ رأسَه، وضرَبَ صدرَه، ونتَفَ شعَرَةً مِن لِحْيَتِه. فجاشَت النُّفوسُ، وعلا النّحيب، وهتف صوفيٌّ أسمَرُ قَصير:

ولَـوْ طابَ لي غَـرْسٌ لَطابَتْ ثِمارُه ولَوْ صحَّ لي غَيْبي لَصحَّتْ شهادَتي!

تزّهـدتُ في الدّنيـا وإنّي لَراغِـبٌ أرى رَغْبَتـي ممزوجَـةً بزهـادَتي

أيَـا نفسُ! مـا الدّنيا بأهـلٍ لِحُبِّهَـا دَعيهـا لأقـوامٍ علَيهـا تعـادَتِ!

وسُمع هديرٌ وجلبةٌ في طرف الخانقاه، فالتفَّتِ العَمائم والرّؤوس، فإذا محمود المحبّ قادِمٌ يمشي على يدَيه، مِشْيَتَه المشهورة في الخانقاه بمِشْيَة العَقْرَب. كان يدبُّ على يَديه هادِرًا وشفَتهُ السّفلى مفتوحَة والرّيقُ يتطايرُ مِن فيه، رافعًا رِجْلَيه مَعكوفتَين في السّماء مائلتَين إلى الأمام، وهو يُدَنْدِنُ:

شَرِبـتُ الحـبَّ كأسًـا بَعْـد كأسٍ فـما نَفَـدَ الـشّرابُ ومـا رَويـتُ!

قَفزَ الشّيخُ الأصلَع وبدأ يحبو في اتّجاه محمود.

ودارت رؤوس المريدين ناظرةً إليهما. فنزلَ الأصلَعُ مِن عتبة الحُجْرَة إلى البلاط الممتدّ جهَة الباب، ومحمود آتٍ يدبُّ علَى يدَيه.

تقارَبا. فوقَفَ محمود على قدمَيه ورفع سبّابتَه إلى السّماء:

يـــادتْ كـنـمْ يـرشـاذْ وكــــر غــمــكــيــنــمْ

نــامــتْ بــرم ار خـيـزم اكـــــر نــشــيــنــمْ

هتف الشّيخ الأصلَعُ:

وتحـقّـقـتُـكَ في سرِّي فـنـاجـاكَ لِـسـاني
فـاجـتَـمَـعْـنَـا لِمعـانٍ وافـتـرَقـنا لِـمـعـانِ

شَعُرَ الشّيخ السّعيد بصَدْرِه يضيقُ بملابِسه. فبدأ يُنصت إلى ذلك الدّبيبِ الحارِق يغزو فَرْوَةَ رأسِه رُويدًا رُويدًا. وتلبّسَتْهُ قشعريرَةٌ سرَت في زوايا جَسَدِه. فحنَّ إلى ربوعٍ مغروسَةٍ بَين جوانِحِه لا يَعرِف أينَ هي. ذكريات مِن ربوعٍ مجهولَة، حنينٌ إلى أوطانٍ مُشتهاةٍ غائمة، لكنّها محفورةٌ في ذاكِرَته الأزليّة. أشواقٌ طافحَةٌ إلى لحظَة الذّرّ والتّكوين الأوّل للإنسان، إلى الأوطانِ المهجورَة مُنذُ أيّام الأرحام، ومنازلُ مهجورَةٌ منذُ أيّام ميثاق «ألَسْتُ بربِّكُم».

شعر بصبابَةٍ وشَوْقٍ ورقَّةٍ وغلَيان. كانَت فَرْوَةُ رأسِه ممّا يلي صدغَه تتقشَّرُ وهو يسمَعُ أنينَ الشّيخين، ويرى تحدُّر دموعِهما، ويسمع شوقَهما إلى المَحْبوب. فعاودته خواطِره الّتي تهجم عليه في مِثْلِ تلك السّاعات الحرِجَة. *كَمْ مِن دمعةٍ سكَبَتها العُيونُ البَشريّة شوقًا إلى المحبوب؟ كَمْ مِن عَيْنٍ سَفَحَت عبراتِها تَعلُّقًا به؟ أيُّ أوديَةٍ مِنَ النّار تلك المتّقدَة في صدور العشّاق؟ حاشا أن ينفَدَ ينبوعُ الحبِّ الرّقراق الدّفّاق المثَّبتِ تَحت عَرْشِ الرّحمن؟ كَمْ عَيْنًا رَمَدَتْ شوقًا إلى محبوب؟ وكم خدًّا توَرّدَ مِن نظرَة حبيب؟*

وقَفَ الشّيخُ، ونفَضَ كُمَّهُ ورفَعَ بصرَه:

لَقَـد لامَنـي في حُـبِّ ليـلَى أقاربي أخِي وابنُ عمّي وابنُ خالِي وخالِيَا

دارَت رؤوسٌ، وانقلَبَت عمائم، وتعفَّرَت لِحًى بيضاء في التّراب، وعلا الصّراخ في جنبَاتِ الخانقاه. فالتَفَتَ الشّيخُ السّعيد، فرأى الشّمس حمراءَ قانيةً قريبةً مِن رأس الحائط. تخيّلها شمسَ العُمر تُوشِك على الأفول، فصرَخَ صرخَةً أفاضَت بقايا الصّبرِ والتّجلُّدِ في نفوس المريدين، فزَعَقوا وارتفعَ النّحيبُ:

- الله الله، لا إله إلّا الله!

رفَعَ الشّيخ السّعيد وجهَهُ والعَرَقُ يتصبَّبُ مِن جَبْهَتِه المتغضِّنَة. وأشار بيده إلى أنَّ وقتَ الذّكر الجماعيّ انقضى، وصلاةَ المغرِب مُوشكة. ومَشَى إلى المسجِد وهو يمسح خدَّه وجبهتَه، فتفرّق الدّراويشُ إلى أماكِن الوضوء. وبقي الصّوت الوحيدُ المسموعُ صوتَ الشّيخ الأصلَع يُغنّي وهو يتوضّأ في طرف الميضأة:

وَلَوْ قِيل: طَأْ في النّار أعلمُ أنّه رضًا لكِ أو مُـدْنٍ لنا مِن وصالكِ

لقدَّمتُ رِجْلِي نحوَها فوطئتُها سرورًا لأنّي قـد خَطَـرْتُ ببالِـكِ!

وسكتَ الأصلَعُ عِنْدَ ارتفاعِ صوت الأذان. وشرَدَ خيالُه فتذكّر أنّه لَمْ يَرَ الغزاليّ منذ قَدِم إلى بغداد وأنَّ علَيه رؤيتَهُ والحديثَ معَهُ. فهو لا ينسى كيفَ أوصاهُ الفارمذيّ بِه وبعدَم تَرْكِه للفقهاء بعيدًا عن السلوك. لا يَنْسَى ما قال لَهُ وهُمَا واقفانِ قُرْبَ بئرٍ وسَطَ حديقةٍ بنَيسابور والفارمذيّ يُشيرُ إلى الغزاليّ: هذا رجلٌ أخافُ علَيه عَقْلَهُ!

ووقَفَ الأصلَعُ مُتّجهًا إلى المسجد، بينما خرج النّاظر مِن حُجْرَتِه ورأسُه يترنَّحُ فوق رقبَتِه القصيرَة. وانسحَبَت على بغداد عباءةٌ ليليّةٌ جديدةٌ مِن ليالي شتاءٍ قارِس!

30

بغداد، 485 هـ.

لَعِبَتْ الرّياحُ الباردة بأطرافِ جبَّتِهِ، وامتلأ أنفُ الخادِمِ الّذي يقُودُ بَغْلَتَهُ برائحةِ العُطورِ الفاخِرَة في ملابِسه. ملأ الغزاليّ عَينَيه مِن شوارع الكَرْخِ المغسولَةِ بمياهِ الأمطار، فلاحظَ أنّ الميازيب ما زالَت تقطُر مِن بقايا مطرٍ لَمْ تَشْهَد بغدادُ مِثْلَهُ مُنذ سنوات. ثمّ ظهرَ أمامَه أطفالٌ يقرعونَ طبلًا، ويُغنّونَ أهازيج المطر بصوتٍ مُوقَّع:

- جاءَ المطرُ، جاءَ القِطْرُ، يا النَّعجَة جاك العريس! قُومي حُطّي العَنذَبيسْ!

أوقَف الخادِمِ البَغْلَةَ في طرف الشّارع كي يُفسِحَ الطّريق للأطفال، وأتبعَهم الغزاليّ بصرَهُ متذكّرًا طفولَتَهُ في الطّابران. وما لَبِثَ أن عادَ ذِهْنُه إلى التّفكير في كُتُبٍ يَنْشَغِلُ بتأليفِها، وطموحٍ يدبُّ بين جوانِحِه. متَى سيستدعيهِ الخليفَةُ إلى القَصْرِ؟ ومتى سيعرِفُ أهلُ بغداد قدرَه؟ متى سيتَّفِقُ السُّنَّةُ والشّيعَة على تقديمِه في مناظرَاتِهم مَع الملحِدين، ومتى سيكونُ ذِكرُه في المدارِس أرفعَ مِن ذِكْرِ شَيْخِه الجويني؟

جذَبَ الغلامُ زِمام البَغْلَة، وواصَلَ السَّير، بينما اتَّضحَت أصواتُ انصبَابِ الماء مِن صبَّاباتِ البيوت بَعْدَ ابتعادِ الأطفال. عادَتْ إليهُ نفسُه، وفكّر في أنّ تلك المناظَرات الّتي بدأ يُشارِكُ فيها ستُظهِر قُدراتِه العقليّةَ والحجاجيّة وتجعَلُ اسمَه يَدورُ في كلّ بيوتَاتِ بغداد، فيسمَعَ عَنْهُ التجّار والقَادَة، ويَسْتدعيه الخليفَة.

سارَت البَغلَةُ مع شارعٍ ضيّق، فلاحَ منزلُ الطّبيب سعيد بن هِبة الله. كان بَيْتًا كبيرًا كأنّه في غابَة، يكادُ لا يظهَرُ مِنْهُ شيءٌ مِن كثرَةِ النَّخيلِ والأشجارِ في أطرافِه. نَزَلَ عَن البَغلَةِ ماسِحًا شفتَيه، بينَما أسرَع الخادمُ لإخبارِ الطّبيب بقدومِه. وبَعْدَ لحظاتٍ خرَج سَعيد بن هبة الله باسِمًا فاتِحًا ذِراعَيه:

- دانشمند! لقد ازدان الكَرْخُ اليَوم!

قال الغزاليّ وهو يتفقَّدُ ملابِسَهُ مِن غُبارٍ عَلِقَ به في الطّريق:

- لَمْ أنتَبِه لكثرةِ أشجار المنزِلِ في زيارتي الماضية!

- كثرةُ النَّظرِ إلى الخُضْرَةِ تُقوّي البَصَر! و..

قاطعَهُ الغزاليّ وهما يتجاوزان مَدْخَلَ البَيْت:

- ولكن لِمَ يُسْرِعُ العَمَى إلى الدَّيلَمِ ويحتفظُ أعرابُ الصَّحراء بأبصارِهم؟

وفتَحَ الغِلمانُ بابَ المجلِسِ، فقال سعيد رافعًا صوتَه:

- لَقَدْ وَصَلَ دانشمند!

وقَفَ الرّجالُ في أطراف المجلس الدّائريّ، وجاءت الأصواتُ مختلطةً:

- يا مَرْحَبًا ... أهلًا وسهلًا!

رأى الغزاليّ مجموعَةً مِنَ الفُقَهاء والأطبّاء، والفلاسِفَة. وأشار الطّبيب إلى صدر المجلِس:

- تفضَّل!

وما إن جلَسَ حتّى اتّضحت الوجوهُ أكثر. فذلك الرَّجُلُ الأسمر النّحيل الوسيمُ ابن عقيل الحَنْبَليّ، والجالِسُ في الجبَّةِ السّوداء والعِمامَة الضّخمة يجبُ أن يكونَ متّى البغداديّ الّذي جاء لمناظَرَته.

شعُرَ بدفءِ المجلِس بَعْدَ الهواءِ البَارِدِ في الخارِج، وزاد مِن الدّفء ذلِكَ البَخُور المتصاعِدُ مِن أطراف المكان. كانت رائحتُه تتغلغلُ في ذاكرة

الغزاليّ. بمَ تُذكِّرُهُ؟ وسرَحَ ذِهْنُه قليلًا تحت ضغطِ الرّائحة حتّى تذكَّرَ ذلِك البَيْتَ الأحمَرَ المبنيَّ بالآجُرّ في طَرَفِ سكَّةٍ مَعْقَل بنَيسابور. وجاءه صوتُ ابن عَقيل:

- دانشمند! كيفَ أنتُم؟

- في نَعيم! حفِظَكُم الله.

ظَلَّ الغزاليّ يسترق النظرَ إلى الرَّجُلِ الجالِس أمامَه في ملابسه السّوداء، مُقدِّرًا أنَّه متَّى البَغداديّ. وكان رجُلًا أبيَضَ أشقَرَ قويَّ الأركانِ سمينًا كثَّ اللّحية. ثمّ مالَ إليه وقال:

- كيف أنت أيّها الشّيخ؟

تحرّك متَّى في مكانِه، وردّ بلهجَتِه البغداديّة:

- والله بخير. كيف أنتم؟ ما أشدّ سُروري بِلُقياكُم!

وانتبَه الغزاليّ إلى وجودِ طلّاب متّى عَن يَمينِه. كانوا في ملابِسهم السّوداء، منشَغِلينَ بترتيبِ دفاتِرهم وأقلامِهم. فاستعادَ في ذِهنِه قصَّة كبيرِ الأساقِفَة العراقيّين الذي كفَّر متّى بِسببِ دراسَتِه عِلْمَ الكلام، وحرمَه مِن كلِّ صِلَةٍ بالنصارى، حتّى قَبْلَ أن يَقول بقِدَمِ العالَم. وتذكَّر كلام الجويني عَن ضيقِ النّصارى بدراسَةِ الفَلْسَفَةِ وتحريمِهم إيّاها، وعِقابِهم كلَّ مَن يَدْرُسُ المَنْطِق. وخطَرَ لهُ وهو يَرَى الطلّاب المحيطينَ بِمَتّى أنَّهُ كان عليه أنْ يأتِي هو أيضًا بِبعضِ طلّابه. فسَيْر الشّيخ مَع كَوْكبَةٍ مِن طلّابه أشدُّ إيقاعًا للهيبة في النُّفوس.

وانقطعَت أفكارُه لدخولِ ثلاثَة خدَمٍ حاملينَ فواكِه وأشربَةً يُوزِّعونَها في أطراف المجلِس، وجاء صوتُ جوهر الكتبيّ:

- حيّا الله أشْياخَنا... كيف أنتم؟

وما كادَ الخَدَمُ يخرُجون حتّى كان جَوْهَر أوَّلَ مَن مدَّ يدَهُ إلى الصُّحونِ.

وبعدَ دقائق وقفَ سعيد بن هبة الله، وردّدَ بصرَهُ في أطراف المجلِس المكتظّ، ثمّ قالَ بصوتٍ فيه رِعدَةٌ خفيفَة:

- مرحبًا بكم.. لقد ازدانَ هذا المجلسُ بهذه الوجوه، وشرُفَ المكانُ بهذه الكَوْكَبَةِ مِن أهْلِ العِلْم.

وازدادَت الرِّعدَةُ وضوحًا في صَوْتِه وهو ينظُر إلى الوجوهِ المنصِتَة. فتوقَّف قليلًا، ثمّ كحَّ كحَّةً خفيفةً:

- نجتمعُ اليَوم لسماع شيخَين مِن جلّة أهل بغداد. ولِذَا أدعو أبا إسحاق الحَمَويَّ لأخذِ زِمَامِ الكلامِ وتَقسيمِه بينَ المتنَاظِرَيْن.

وجلَس سعيد على الأريكة الصّفراء، فوقفَ شابٌّ أبيض قصير. مسحَ طرفَ لِحْيَتِه وقال:

- نبدأ المناظَرة على بركَة الله. ومَوضُوعُها اليَوم قِدَمُ العَالَم وحُدُوثُه. سيتكلَّمُ الشّيخ متّى البغداديُّ أوّلًا، مُحاجِجًا عن قِدَمِ العالَم، على أن يُناظِرَه الشّيخ الغزاليّ في ذلِك.

وسكَتَ الحمويُّ مُردّدًا بصرَه في أطراف المجلِس. فلمح الغزاليّ جالِسًا في ملابسِه البيضاء النّاصعة قُرْبَ سعيد بن هبة الله، ومتّى البغداديّ يقابله على الأريكَة في ملابسِهِ السّوداء وعِمَامَتِهِ الصّفراء الضّخمة.

أخرَج الحَمَويُّ ورقَةً مِن كُمِّهِ وبدأ يُذكِّرُ سامِعيه بالشروطِ:

- يُمْنَعُ الحديثُ أثناء المناظَرَة ولَوْ بكَلِمَة. يُمْنَعُ التَّعليقُ ولَو بالتنهُّد أو أيِّ صوتٍ دالٍّ على استحسان حُجّةٍ أو استهجانِ أخرى.

وبعدَ سَرْدِ الشّروط هزَّ الحضورُ رؤوسَهُم موافِقين. وصفَّقَ الحمويُّ مُعطِيًا إشارةَ البَدْءِ. امتلأَت الأنوفُ برائحَةِ البَخُورِ. وانكتَمَت الأنفاسُ في انتظارِ بدايةِ المناظَرة. وغدا الصّوتُ الوحيدُ المسموعُ صوتَ كَبْشٍ يصيحُ في فِناء المنزل. فمدَّ سعيدُ بن هبة الله يده مُشيرًا إلى الخَصِيِّ الأبيض الطّويل

الواقِف قُرْبَ الباب، فاقتربَ مُسرعًا. وهمَسَ لهُ في أذنِه أن يُبْعِدَ الكَبْشَ عن الدّار.

- وتَنَحْنَحَ متّى البغداديّ، ثمّ قالَ بِلكْنَةٍ بغداديّةٍ خالِصَة:

- إنّ الّذي نَرَاهُ ونَعْتَقِدُهُ أنَّهُ يستحيلُ أن يكون هذا العالَمُ مُحْدَثًا. فَنَحْنُ نَرَى أنّ صدورَ حادِثٍ عنْ قَديمٍ أمرٌ مُستحيلٌ عَقْلًا. فإذا فرَضنا وجودَ القديمِ دَهْرًا طويلا، ولمْ يصدُر مِنْهُ العالَمُ فإنّما ذلِك لعدَم وجود مرجّح، بل كان وجودُ العالَمِ مُمكِنًا إمكانًا صِرْفًا. فإذا أحدَثَ القديمُ العالَمَ بعد ذلك فلا بُدَّ لإحداثِه مِنْ سَبَبٍ وباعِثٍ ومُرجّح. فإمّا أن يكونَ تَجدَّدَ مُرجِّحٌ لِحُدوثِه أو لَمْ يتجدَّد. فإنْ لَمْ يتجدّد مرجّحٌ بقيَ العالَمُ على الإمكان الصِّرْفِ كما كان قَبْلَ ذلِك، وإنْ تَجدَّد مرجّحٌ فمَن مُحدِثُ ذلك المرجِّح وما سببُه؟

وتلفَّت متّى في أطراف المجلِس مُستطلِعًا وَقْعَ حديثِه على المستَمعين. فلمَحَ الفقيهَ ابنَ عَقيل يَفْتِلُ طرَفَ لِحْيَتِهِ مُنصِتًا، فأعاد بصرَهُ إلى الغزاليّ:

- ثمّ لماذَا حدَثَ العالَمُ في تِلْكَ اللّحظَةِ وَلَم يحدُث قبلَها؟ والسُّؤالُ في حدُوثِ المرجِّح قائِمٌ! وبالجُملَة فأحوالُ القَديم -أعنِي الخالِقَ القديمَ على زَعْمِكُم- إذا كانت مُتَشابِهةً فإمَّا ألّا يوجَد عنْهُ شيءٌ قطُّ، وإمّا أنْ يوجَد على الدَّوام، فأمّا أن يتميَّز حالُ التَّركِ من حالِ الشّروع فهذَا مُحالٌ في حقِّه. فالقديمُ لا تطرأ لَهُ الرَّغباتُ ولا الإراداتُ ولا تتغيَّرُ حالُه، ولا يَشرَعُ في فِعْلٍ سبقَهُ إمسَاك.

وصمَتَ متّى، ومرَّر لِسانَهُ علَى شَفَتِهِ العُليا، ثمّ رفَعَ يدَيه الغَليظَتَين يتفقَّد عِمامَتَه، فلاحظَ أنَّ جبهَتَهُ تتعرَّقُ رغْمَ الجوِّ البارد. وانتابَهُ ضيقٌ مَخافَةَ أنْ يُلاحِظَ الغزاليّ ذلك. ثمّ واصَلَ:

- السُّؤالُ القائِمُ هو: لِمَ لَمْ يحدُث العالمُ قَبْلَ حُدوثِه؟ فلا يُمكِنُ أن يُقالَ

إنّ تأخُّرَ حُدوثِه عَنْ وقتِه الّذي حَدَثَ فيه راجِعٌ إلى عَجْزِ الخَالِق.
ولا يُمْكِنُ القَوْلُ إنَّهُ راجِعٌ إلى استحالَةِ الحُدوثِ، فالحُدوثُ مُمْكِنٌ.
وعَلَيه فالعالَمَ قَديمٌ، وصِلَتُهُ بالخَالِقِ كَصِلَةِ النُّورِ بالشّمس.

كان متَّى يتحدَّثُ بِلُغَةٍ واضِحَة، ولَهْجَةٍ مُحبَّبَة، والعُيون تَفْتَرِسُهُ مِن أركان المجلس، وأقلامُ طلّابِه الجالِسين عن يَمينه تُحدِثُ صريرًا مَسموعًا وهُم يكتبونَ في دفاتِرِهم، بينما كان الغزاليّ مُنصتًا. وانتبَه كلُّ من في المجلِس إلى جَوْهَر الكُتُبِيّ ينزِلُ عَن كرسيّه، ويمدُّ يدَهُ إلى الصَّحنِ، ويملأ يَدَهُ مِنَ اللَّوزِ، ويرميه في فيه، ثمّ يبدَأ المضغَ بصوتٍ مسموع.

مَسَحَ متّى لِحْيَتَه الكثَّةَ السّوداء، وقال:

- فَحُدوثُ الإرادَة في ذات الخالِق مُحالٌ لأَنَّهُ لَيْسَ مَحَلًّا للحوادِث.
وحدوثُها مُنفَصِلَةً عَنْهُ لا يجعَلُهُ مُريدًا. فإذَنْ قَدْ تحقَّقَ بالقَوْلِ المطلَقِ أنَّ صدورَ الحادِثِ عن القديم مِنْ غَيْرِ تغيّرٍ في حالِ القديم مِنْ قدرةٍ أو آلَةٍ أو وَقْتٍ أو غَرَضٍ أو طَبْعٍ مُحَالٌ!

وضمَّ علَيه أطرافَ جبَّتِه وجلَسَ. فانكتَمَت الأصواتُ، وبَقِيَ صَوْتُ أضراسِ جَوْهَر تطحَنُ طَحْنًا مَسموعًا. فوقفَ الحمويُّ مُتلفِّتًا، ثمّ نادَى:

- الآن يتفضَّلُ الشّيخ أبو حامد الغزاليّ!

عندئذٍ وقفَ الغزاليّ، ثمّ رفع يدَهُ ولمسَ طَرَفَ جَبْهَتِه:

- لعلَّ خُلاصَةَ كلامِ الشّيخ هِيَ استحالَةُ حُدوثِ حادِثٍ بإرادَةٍ قَديمَة.
والاعتراضُ على هذا مِنْ وجهَين: أحدِهما أنْ نَقُولَ: بِمَ تُنكِرُونَ عَلى مَنْ يَقُولُ: إنّ العَالَمَ حَدَثَ بإرادَةٍ قديمَةٍ اقتضَتْ وجودَه في الوَقْتِ الّذي وُجِدَ فيه، وأن يستمرَّ العَدَمُ إلى الغاية الّتي استمرَّ إلَيها، وأن يبتدِئ الوُجودُ مِن حَيْثُ ابتَدَأ، وأنّ الوجودَ قَبْلَهُ لَمْ يَكُن مُرادًا فَلِمَ يَحْدُث لذلك، وأَنَّهُ في وقتِه الّذي حَدَث فيه مُرادٌ بالإرادَة القديمَةِ

فَحَدَثَ لِذلك. ما المانعُ لهذا الاعتقادِ وما وجهُ كَوْنِهِ مُحَالًا؟

وتلفَّتَ الغزاليّ فرأى جَوْهَرًا ما زال يَقْضِمُ، وبِجَنْبِه ابنُ عَقيل يَلْعَبُ بِشَعْرِ لِحْيَتِه، فأعاد نظرَه إلى متّى فوجدَه مُنْصِتًا وأشفارُ عَيْنِهِ تتحرّكُ بِسُرْعَة.

- نَعَم، يُمكِنُكم الاعتراضُ بأنّ هذا مُحال. لأنَّ الحادِث موجَبٌ ومسبَّب. وكما يستحيلُ حادِثٌ بغَيْرِ سَبَبٍ ومُوجِب، يستحيلُ تأخُّرُ وجودِ أمْرٍ قَدْ تمَّتْ شرائطُه وأركانُه وأسبَابُه. بَلْ وجودُ الموجَب عند تحقُّق شروطِه -وهي القدرَة والإرادَة- ضروريٌّ وتأخُّرُهُ مُحالٌ، كاستحالَةِ وجودِ موجودٍ دُون مُسبَّب. يعني أنَّهُ ما دامَ الله كان قادِرًا ومُريدًا ولا تَنْقُصُهُ آلَةٌ لِصُنْعِ العالَمَ ولا تنقصُه إرادَةٌ فكيفَ تأخَّرَ حُدوثُ العالَمِ عَنْ وقتٍ مُعيّن؟

وصمَتَ مُفكّرًا في أنَّهُ أشبَعَ الاعتراضَ شَرْحًا وأنَّ علَيه نَقْضَهُ:

- وجوابُنا هو: إنّ استحالَة إرادَةٍ قديمَةٍ مُتعلِّقَةٍ بإحداثِ شيءٍ -أيّ شيءٍ كان- تعرفونَه بضرورَة العَقْلِ أو نظره.

وصمَت ناظرًا إلى متّى الّذي لَمْ يَنْبِس. فرفَع سبّابته جِهَتَهُ:

- أوْ عَلَى لُغَتِكُم في المنطِق: تَعرفُونَ الالتقاءَ بين هذَين الحدَّينِ بِحَدٍّ أوسَط أو مِن غَير حدٍّ أوسَط. فإن ادّعيتُم حدًّا أوسَط -وهو الطّريق النّظريّ- فلا بُدَّ من إظهارِه. وإنْ ادّعَيتُم معرفَةَ ذلِك بضرورة العَقْلِ فكيفَ لَمْ يُشارِكْكُم في معرفتِه مُخالِفُوكُم؟ والفِرْقَةُ المعتَقِدَةُ بحدوثِ العالَمِ بإرادَةٍ قديمَةٍ لا يحصرُها بَلَدٌ ولا يُحصيها عَدَد؟ ولا شكَّ في أنَّهُم لا يُكابِرون العقولَ عِنادًا مع المعرِفَة، فلا بدَّ مِن إقامَة بُرهانٍ على شَرْطِ المنطِق يدلُّ عَلَى استحالَةِ ذلِك، إذْ لَيْسَ في جميع ما ذكرتمُوه إلَّا الاستِبْعَادُ والتّمثيلُ بِعَزْمِنَا وإرادَتِنَا وهو فَاسِدٌ، فلا تُضاهي الإرادَةُ القديمَة القُصودَ الحادِثَة، وأمّا الاستبعادُ المجرَّدُ فلا يكفِي مِن غير

بُرهان.

وصمَتَ مرّةً أخرى وأعاد النظر إلى متّى، ثمّ قال:

- يُمكِنُكَ الجَوابُ على السُّؤال!

تحرّكَ متّى في كرسيّه وقال دونَ أن يَقِفَ:

- نَعلَمُ ذلِك بضرورَةِ العَقْل، فلا يُتصوَّرُ موجِبٌ بتمامِ شروطِه مِنْ غَيْرِ موجَب، ومجوّزُ ذلك مكابِرٌ لِضَرورَةِ العَقْل. يَعني أنّه يستحيلُ وجودُ القُدْرَةِ والإرادة لدَى الخالِق مع غياب وجودِ الخَلْق عَيْنًا. هذا نَراهُ بِضَرُورَةِ العَقْلِ، لا بنظره.

تبسَّمَ الغزاليّ:

- وما الفَصْلُ بَيْنَكُم وبَيْنَ خُصومِكُم إذا قالوا لَكُم: إنَّا بضرورَةِ العَقْلِ نَعْلَمُ إحالَةَ قَوْلِ مَن يقولُ: إنّ ذاتًا واحِدَةً عالمةً بجميع الكلّيّات، مِنْ غَيْرِ أن يوجِبَ ذلِك كثرةً، ومِن غَيْرِ أن يكونَ العِلْمُ زيادَةً على الذّات، ومِنْ غَيْرِ أنْ يَتعدَّد العِلْمُ مع تَعدُّد المعلومِ؟ وهذا مذهَبُكُم في حقّ الله، وهو في نظرنا وحسب عُلومِنَا في غايَة الإحالَة!

وصمَتَ قليلًا، وعدَّلَ عِمامَتَهُ وواصَل:

- بَلْ لا نتجاوزُ إلزامات هذه المسألَة: فَبِمَ تُنكرونَ على خُصومِكُم إذا قالوا: قِدَمُ العالَمِ محالٌ لأنّه يؤدّي إلى إثباتِ دَوراتٍ لِلْفُلُكِ لا نهايَةَ لأعدادِها ولا حَصْرَ لآحادِها، معَ أنّ لَهَا سدُسًا ورُبعًا ونِصْفًا؟ إنّ فُلك الشّمس يدورُ في سَنَةٍ، وفُلكَ زُحل في ثلاثينَ سنَة، فتكون أدوارُ زُحَل ثُلُثَ عُشْرِ أدوار الشّمس، وأدوارُ المشتَري نِصْفَ سُدُسِ أدوارِ الشّمس، فهو يدورُ في اثنَتي عَشرة سنة. وكما أنّه لا نهايَةَ لأعدادِ دورات زُحَلَ ولا نهايَةَ لأعدادِ دَوراتِ الشّمس مع أنّهُ ثُلُثُ عُشْرِه، لا نهاية لأدوارِ فُلك الكواكِب الّذي يدورُ في ستّةٍ

وثلاثين ألف سنَةٍ مرّةً واحدَة. وهذا ممّا يُعْلَم استحالَتُهُ ضرورَةً. وأعدادُ هذه الدّوراتِ شَفْعٌ أو وترٌ، أو شَفْعٌ ووترٌ جميعًا، أو لا شفعَ ولاَ وَتر؟

رفَعَ متّى إصبَعَه مُستأذِنًا الحمويّ، فأشارَ إلَيه بالموافَقَة، فقالَ:

- شَفْعٌ!

- هذا يُعلَم بُطلانُه ضرورةً. فالشّفع يَصيرُ وترًا بواحِدٍ، فكيفَ أعوز ما لانهايةَ لَهُ واحِدٌ؟ وإنْ قُلتُم: وترًا، فالوتر يصيرٌ بواحِدٍ شفعًا، فكيف أعوز ذلك الواحِد الّذي به يصيرُ شفعًا؟ فيَلْزَمُكُم الإقرار بأنَّه لَيْسَ بِشفعٍ ولا وتر. إنّما يُوصَفُ بالشّفع والوتر المتناهي، وما لا يتنَاهى لا يوصَفُ به. فَجُمْلَةٌ مُركَّبَةٌ مِن آحادٍ لَها سُدُسٌ وعُشُرٍ كما سبَق، ثمّ لا توصَفُ بشَفْعٍ ولا وترٍ يُعلَم بُطلانه ضرورةً مِن غَيْرِ نَظَرٍ، فبماذا تَنْفَصِلُون عَنْ هذَا؟

وطالَ الكلامُ، واحتدَّ النِّقاشُ، وتعرَّقَت جَبْهَةُ متّى، وردّدَ الغزاليّ يدَه بَين عِمامَتِهِ وجَبْهَتِه، وسرَى شعورٌ جازِم بانتصارِ الغزاليّ بَعْدَ أربَع ساعات. فوقَفَ الحمويّ:

- ينتَهي هذا المجلِس، على أن يكون ثمَّة مجلِسٌ آخَر لاستكمالِ الجَدَل يَوْمَ الجُمُعَة.

وصمَتَ المجلِسُ، وبدأت الأحاديث البينية بين الرجال عن جولة اليوم من الجدل والمناظرة. وانطلَقَ صَوْتُ جَوْهرٍ وهو ينظر إلى السقف مُميلًا رأسه:

- عِندي سؤالٌ لِشَيْخِنا سَعيد!

فالتَفَتَت الأعناق إليه فقال:

- هل الغداء مُحدَثٌ أمْ قَديم؟ فَقَد متُّ جوعًا!

وضحِكَ طلّاب متّى، واستَثْقَلَ ابْنُ عَقيل المزْحَةَ فقَال:

- الطّعامُ مُحْدَثٌ. وأدلَّةُ حُدُوثِه تَجِدُها في كِتابٍ مِن تأليفِ الشّيخ أشْعَب رَحِمَه الله!

وتدخَّلَ سعيدٌ باسِمًا:

- أبْشِر يا جَوْهَر بخَروفٍ مَغْمُوسٍ في البهاراتِ بَعْدَ قَليل.

واقتربَت الأيدي مِنَ المكسَّراتِ والفواكِه الّتي على الطّاولة. وانصرَفَ ذِهْنُ الغزاليّ لِتَقييمِ أدَائه في المناظَرة. فقد كان لا يشكُّ في أنَّهُ أفحَمَ خَصْمَه. وتساءل: هل أزعجَهُ إزعاجًا يُبعدُه عن الدّخول في الإسلام؟ فَقَد أخبرَه سعيد بأنَّهم يطمَعُون في إسلامه. ومتَّى يعرفُ أنّ قانونَ الشّريعَة يحْمِيه مِنَ القَتْلِ على أيدي نصارَى بغداد الّذين يُحرِّمُونَ الفَلْسَفَة، ولكنّهم لا يستطيعونَ قَتْلَ المرتدِّ ما دَامَ في بِلادِ الإسلام.

وخطرَ للغزاليّ أنّ ذلِك الرَّجُلَ الجَالِسَ قُرْبَ البابِ في ملابِس الكُتَّابِ قَدْ يَكُون مكلَّفًا بنقلِ الخَبَرِ إلى قَصْرِ الخليفَةِ. فَهل سينقُل لَهُ ما حدَثَ بِدَقَّةٍ؟ وهَل سيكونُ ذلِكَ سببًا مِن أسباب دُخوله القصر؟

ثمّ التَفتَتِ الوجوهُ صَوْبَ البَاب، فوقفَ سعيد وفتَح النّافذة فلاحظَ المطَرَ يَنْهَمِرُ انهمَارًا. وشَعُرَ الجميعُ بخفَّةٍ وسعادَةٍ وهُم يَنظُرونَ إلى الخَدَمِ يَدْخُلُونَ حاملينَ الخِوان، بَينَما دخلَت رائحةُ الطّعام المبهّر إلى أطراف المجلِس. وقام ابن عَقيل مِن مَكانِه واتّجه نحو الغزاليّ.

كان ذِهنُه مشغولًا بالمقارَنَةِ بَيْنَ انطباعِه عن لِقَائه معَه وجهًا لِوَجْهٍ، وتِلْكَ الصّورة الّتي نُقلَت لَهُ عَنْهُ، صورَةِ العالِمِ المتكبِّر المحتَقِرِ لِعُقولِ النّاس. وجلَسَ قُرْبَهُ فَنفَحَتْهُ رائحَةُ العطورِ مِنْ ملابِسِه.

31

قلعة آلموت، 485 هـ.

انقضَتْ ساعاتٌ ثلاثٌ والرّجالُ الخَمسةُ واجِمُونَ في انتظار سماعِ كَلِمَةٍ واحِدَةٍ أو رؤيةِ إيماءةٍ شاردَةٍ مِن الشّيخ حَسَن الصّبَّاح. كان يَجْلِسُ متربّعًا في الظّلام على سجّادةٍ حمراء في رُكنٍ مُظلِمٍ كأنّه جِذْعُ شَجرةٍ. يُولّي وجهَه شَطْرَ نافِذَةٍ واسِعَةٍ تشرفُ على الوادي المعتِم السّحيق الّذي تُطلُّ عليه القَلْعَةُ. وعلى كَتِفَيْه يَنْسَدِلُ رداءٌ أسودُ يُغطّي الجزءَ العُلويّ مِن جبّته القطنيَّةِ البَيضاء. ووراءَ ظهرِهِ يجلس الرّجالُ الخمسَةُ صامِتين. كانوا قَدْ دَخَلوا حُجْرَتَهُ بعدَما طلَب مُثولَهم بَين يدَيه بُعَيْدَ العشَاء. لم يكن يُسْمَعُ سوى صوتٍ بعيدٍ يأتي مِن أسفل الوادي، صوتِ صرخَاتٍ مُتقطِّعَةٍ لجَيْشٍ يحاصِر القَلْعَة، ونِيرانُه تَلوحُ مِن وراء النّافذة في الظّلام الدّامس.

كان عُبَيد الأوسطَ بين الرّجال الخمسَة. داهمتْه الكحّة، وشعُرَ بالهواء يكاد يخرُج من فيه، فأطبَقَ يدَهُ على شفتيَه، وطأطأ رأسَهُ محُاوِلًا مَنْعَها، لكنّها انفَلَتَت. فغطَّى فَمَهُ بِطَرِفِ جُبَّتِهِ خجَلًا. ورمَقَتْهُ الأعينُ تحت الظّلام، ولكزَهُ الرَّجُلُ الجالِسُ عن يَسارِه.

قطَعَ الصّمتَ نباحُ كَلْبٍ جائعٍ في غرفَةٍ قريبَة. وتحرّك الشّيخ الصَّبّاح، فقفزَت قُلوب الرّجال. رفعَ يدَيْه إلى السّماء، ثمّ مسَحَ بهِمَا وجهَه والتَفَتَ:

- أهلًا وسهلًا بِجُنُودِ الإمام!

تحرّكت الألسِنَةُ بَين الأشداق، لكنَّ المهابَة عقَلَتْها عن الإبَانَة:

- بي.

- وعلي..
- آهمن ..
- سيّدي ومولاي.

شعُر عُبَيد بقشعريرةٍ في جسدهِ لَمْ يَشْعُر بها منذُ وُلِد. فرفع عَينَيه في الظّلام ليملأهُما مِن الشّيخ الصّبّاح، الرَّجُل الّذي يتلقَّى الأوامِرَ مِنَ الحَضْرَةِ الإلهيّة كِفَاحًا. حاوَلَ تأمُّلَ ملامِحِه تحتَ جُنحِ الظّلام، فلاحظَ سُمْرَتَهُ ودقَّة ملامِحِه وخفَّةَ عارِضَيْه ونحافَةَ جِسْمِه.

أمّا الشّيخ، فرفَعَ يدَيه ووضعَهُما على رُكبَتَيه:

- لكُم أنْ تُفاخِروا أهلَ الدّنيا والآخرة! فقد انتخبَكُم المعصومُ دُون غيرِكُم لِلْقِيَامِ في مقامَاتِ الصّدِّيقينَ والشُّهدَاء.

وسكَتَ. فدارَت الأسئلةُ الحَيْرَى في الجماجِم الخَمْسِ أمامَه. *ما الّذي ينتظِرُنا؟ وما طبيعَةُ المهَمّاتِ الموكلَة إلى كُلٍّ منّا؟*

أدار الصّبّاح عَينَيْه الحادتين السّوداوَين في وجوه الحاضِرين، ثمّ همس:

- مَنْ يكفيني نِظامَ المُلْك؟ فَقَدْ جرَّدَ سيفَه على الدّعوة وعلى الإسلامِ يُريد استئصالَ بقيَّةِ آلِ مُحمّدٍ مِن الأرض. لَمْ يُشْبِعْهُ ولَمْ يُشْبع أجدادَه تُرابُ كَرْبَلاء، ولا رويَ هُو ولا أمثالُه مِن دُموعِ بَناتِ الحُسَين ومحمَّد... مَنْ يأخُذ لِي رأسَهُ؟

وارتفَعَت يَدٌ غليظَةٌ خَشِنَةٌ في الهواء:

- أنَا أكْفِيكَه يا سيّدي!

تحرّكت جفونُ الصّبَّاح:

- عُبَيد؟
- نَعَم، عَبْدُكُم، يا مَولاي!

وقَفَ الصَّبّاح، فوقَفَ الخَمْسَةُ. مَشَى خطوةً إلى النّافذة، وظَلَّ ينظر

إليها. كان يُفكِّر في تفاصيلِ مَا وصلَه من تقاريرَ عَن عُبَيد. فأخذَ يُوازِنُ بَين قيمَة عُبَيد داعيَةً سِرِّيًّا والسّماحِ لَهُ بأن يَقتُلَ الوزير، ويُقْتَلُ. ثمّ التَفتَ بهدوءٍ وقال بصوتٍ واثِق:

- والله الّذي لا إله إلّا هو إنّي لأغْبِطُكَ! ولَقَدْ كُنْتُ أعلَمُ أنّك مَن سيقتُلُهُ... مَكتوبَةٌ في اللّوح المحفوظ.

واجتاحَت جَسَدَ عُبَيد قُشعريرَة، حتّى شَعُرَ بِدُوارٍ في رأسِه. وشخَصَت في ذِهنِه كلُّ ثاراتِ آل مُحمّد. خُيِّل إلَيه أنَّهُ رأى رأسَ الحُسَين يتدلّى مِن النّافذة الّتي بَيْنَ يَدَي الصّبّاح، ثمّ سقَطَ الرّأسُ ذُو الدّم الفَائر على طرَفِ النّافِذَة. فصَرَخ:

- ابنَ بِنْتِ رَسُول الله! المعفَّر في كَرْبَلاء!

ناوَلَهُ الصّبّاحُ الرّأسَ، فأكبَّ يُقبِّلُه. شَعُرَ بحرارةِ دَمِ الحُسَين في حَلقِه. واقترَبَ مِنْهُ الشّيخ وضَمَّهُ ضَمَّةً طويلَة.

صحَا عُبَيد على الصّبّاح يُصفِّقُ بيدِه. فَجاء رَجُلٌ يَرْكُضُ وفي يده مِصْبَاح.

انعكَسَت الأضواءُ عَلَى وجوهِ الرّجال الخمسَة، فتأمَّلَهُم الصّبّاح واحِدًا واحِدًا. لكنَّهُ تأمَّلَ عُبَيدًا أكثرَ. كان يَعْرِفُ عَنْهُ كلّ شيء. *هذا إذَن هو أبو طالِبِ الأوراتيّ؟ ذلك الدّاعية الّذي غيّر نَيسابور. هذا الّذي ما فَتَرَ مُنْذُ انطلَق، هذا المنحدِرُ مِن جبال الدّيلَم الّذي تلقَّفَتْهُ الدّعوةُ طفلًا. لَيْسَ لِذلك الشّيطان نظام الملك إلّا هذا.*

ورفَعَ يدَهُ في الهواء شاهِرًا خِنْجَرًا. فبرقَت العُيونُ الخاشِعة. ثمّ مدَّهُ إلى عُبَيد، وقال بصوتٍ راجِف:

- خُذْهُ.. ومَوْعِدُنَا الفَراديس!

وفي اليَومِ الموالي استيقظَ عُبَيد وهو لا يزالُ في غُرْفَةِ الضّيافة بالقَلْعَة.

لا يذكُرُ أَكانَتْ رؤيتُهُ رَأسَ الحُسَين نَوْمًا أم يَقْظَةً أم تَخييلًا مَحْضًا، لكنّه واثِقٌ بأنّه أصبَح مُرْهَقَ الأطراف مُنْشَرِحَ الصّدر طيّب النَّفْس.

تفقَّد الخِنْجَر المسمومَ وهو يَتَعَهَّدُ مِقْبَضَهُ العاجيَّ الأنيق، ثمّ أعادَه إلى غِمْدِه ودسَّهُ في حمّالَتِه. وتذكَّر الرَّجلَ الّذي درّبه على القَتْلِ قَبْلَ أكثر مِن عَشْرِ سَنَوات. فاستعادَ ذلك المساءَ في بَيْتٍ خَارِجَ الريّ. كانُوا شُبَّانًا نَحو العشَرَة جالِسينَ في بَيْتٍ مُنزوٍ بمكانٍ بَعيدٍ عن أعيَن النّاس. فدخَلَ عَليهم المعلِّمُ وأشعرَهم بأنّ المدرِّبَ آتٍ بعدَ قليل. ثمّ دخل رجلٌ أبيض أشْيَبُ، وجلَس أمامَهم بِلا سَلام. وجاء آخرُ يقودُ أربعَةَ شبّانٍ وقذَفَ بِهم مُقيَّدين. فتقدّم الرَّجُلُ الأشْيَبُ، وأخذَ خِنْجَرًا، واقتربَ مِن الشّابِّ المقيَّد الأصغَرِ بَين الأربَعَة، وقالَ لَهُ:

- هل تتمنّى أنْ أعيدَكَ إلى أمِّك؟

فشهَقَ الشّابّ:

- أيْ والله! أتوسَّلُ إليكَ إلّا فعَلْتَ. فأنا لا ذَنْبَ لي، وقد اختُطِفْتُ مِن الشّارع وأنا ألْعَبُ قُرْبَ بَيْتِ أمّي!

ضحِكَ الكَهْلُ الأشيَبُ، وأخذَ الخِنْجَرَ، وفي لمح البَصَرِ دسّهُ في نَحْرِ الفَتَى، فانبثق الدّمُ على وجوهِ الحاضرين.

يذكُرُ عُبَيد كيف هزَّهُ الرُّعب، لكنّ المدرِّبَ أخذَه وزملاءه بعدَ ذَبْحِ الفَتَى إلى حديقَةٍ في طَرَفِ البَيْتِ وتعشّوْا عشاءً دَسِمًا، وتحدَّثوا في كلّ شيءٍ إلّا قَتْلَ ذلِك الطّفل. وبُعَيدَ العشاء عادوا، فتقدَّم شابٌّ آخرُ يَرْسُفُ في أغلالِه، فَقالَ الكَهْلُ لِعُبَيد:

- تفضَّل، تقرَّب بهذا. ولا تنسوْا جِماعَ هذا الأمر وأصلَه: الضَرْبَةُ واحِدَةٌ لا تتكرَّر!

تقدّم عُبَيد خطوات، وهو يُغالِب شعورًا طاغيًا مِنَ التّهيبِ والخَوْفِ،

ودسَّ الخِنْجَرَ في قَلْبِ الفَتى، فشهَقَ وسقَطَ. لكنّ ذلِك التّهيُّبَ زالَ في اليَومِ الرّابع حين أكْمَلَ قَتْلَ خَمسِ أنْفُس.

تذكَّر جيّدًا يَوْمَ قَالَ لَهُ المدرّبُ:

- إنّ للقَتْلَةِ الأولَى رَهْبَةَ القُبْلَةِ الأولَى والكَأسِ الأولى.. ثمّ يَدْفِنُ الرّجال مشاعِرَ الطُّفولَة في صُدورهم القويّة.

كان عُبَيد يَشعُرُ بسعادةٍ غامرةٍ لتكليفه بقتل نِظام المُلْك. *لَم أُكَلَّف بِقَتْلِ فَقيهٍ ولا والٍ، بل بِقَتْلِ الشّيظَم عَيْنِه. رأس الفِتَن!* وتخيّلَ نفسَه في قَصْرِ الوزير يتحدّثُ بِلَكْنَةٍ طوسيّة، مُتظاهرًا بمظهرٍ يُتقِنُهُ جيّدًا.. هو الصوفيّ الفقير. ورأى يدَهُ تقبض على الخنجر وتغرسُه في قَلب نِظامِ المُلْك. فاشتبكَت في نَفْسِه مشاعرُ متشاكِسَة، واستيقظَت صُوَرٌ قديمةٌ في خَيالِه. فلمحَ والِدَهُ على الخَشَبَةِ ينزِفُ دَمًا، وأجلافَ أصفَهان يجعلون منه فُرْجَةً ومُتعَة. رأى جُمّتَهُ الكبيرةَ عالِقَةً بالمساميرِ على أطرافِ الخَشَبة، والدّمَ القَاني يَقْطُرُ على الأرضِ مِن كاحلَيْه المقطوعَين. واستيقظَت في ذاكرته تِلك النّظرة الّتي حدجَهُ بها والِدُه:

- إيّاك والعمَلَ مَعَ السُّلطانِ أو ضِدَّهُ يا بُنيّ! كُن لِنَفْسِكَ فَحَسْب!

32

إنّ الأسودَ لا تهابُ حمرةَ اللّحم.

رمضان، الطّريق بين أصفَهان وبغداد، 485هـ

اعتدَلَ ملكشاه على الرّبوة العاليةِ، كان يشعُر بِغبطةٍ وهو ينظرُ إلى الغُبار المتصاعدِ من آثار حوافِرِ خيل فُرْسَانِه. فضاقَ صدرُه بأنفاسِه وهو يفكّر في عظمَةِ ذاتِه. عظيمٌ مِن عُظماء، حفيدٌ مِن أحفادِ سَلجُوق، مَلِكٌ مِن مُلوك السّلاجقة الّذين لَمْ يُخلَقُوا إلّا للقِرَاعِ والهِراشِ وافتكاكِ العُروش، والمشي على شَفَراتِ السّيوف. تأمّل الأفقَ الممتلئ بجنودِه، وغصّ خيالُه بأسماء البُلدان المترامية الّتي يحكُمُها؛ *هل يوجد أعظمُ منّي؟* ثمّ رفع عَينَيه إلى السّماء المليئة بالغيومِ مُتسائلًا: *هل تحتَ أديمِ هذه السّماء مَلِكٌ يفوقني؟*

فرَكَ يدَيه، وراحَ يستعيدُ الأشعارَ الّتي تُمجِّدُ والِدَه ألب أرسلان، وجدَّهُ طغرل بك. وشخَصَت في خيالِه معاركُ كثيرةٌ شَهِدَها بأمّ عينيه، وقِصصٌ غزيرةٌ سَمِعَها في بلاطِ أبيه عن السّير الأبديّ لآبائه نَحوَ الخُلودِ المنقوعِ في أودِيَة الدّم. ثمّ جَلس بجسدِه القويّ على الأرض وهَمَسَ:

- آآآآآ

كان يفكّر في نِظام المُلْك. تذكَّرَ قَوْلَ أبيه إنّ الملْكَ عَقيمٌ لا رَحِم لِصَاحِبِه. فالرَّجلُ يَقْتُلُ أخاه وابنَه إذا كانَت سياسة الملْكِ تَقضي بذلك. *لكنّني لو قتلتُ نِظام المُلْك فإنّما أبترُ كفًّا بِها أحارِب، وأغمِدُ سيفًا به أقاتِل.* وتنفّس تنفّسًا عميقًا. *كيف لابن سلجُوق أن يَحارَ في أمْرٍ مِن أمورِ الملْكِ؟*

أدخَلَ أصابِعَه في كَوْمَةِ تُراب، وقبَضَ قَبْضَةً بِقُوّة. ثمّ جعَلَ يَضغطُها وهي تتمايزُ مُنثالَةً بَين أصابِعِه الغليظَة القويّة. *هل آمُرُ بقَطْعِ رأسِه حالًا؟ أمْ آمُرُ بمَن يَضَعُ لَهُ السُّمّ كَما فعَلْتُ بابنِهِ جَمال المُلْك؟ ماذا كانَ ألب أرسلان فاعِلًا لَو كانَ مكاني؟*

وتذكَّر قصَّةَ جدِّه طغرل بك ووالِدِهِ ألب أرسلان مع وزيرهما عَميدِ المُلْكِ الكُندُريّ. *كيفَ غفَلْتُ عن تِلك القصَّة؟* تذكّر كيفَ دعاهُ والِدهُ ألب أرسلان وقصَّها عليه. *لِمَ قصّها عليّ؟ لقد كان ذلك للاعتبارِ لا لِلسَّمَر. وإنّما قَصَّهَا عليَّ لأتسلّحَ بها لآتي الأيّام، وأتزوَّدَ بها عِند مَضايِقِ المواقِفِ، وأعتَصِمَ بها في مخانِقِ الآراء ومنزلَقاتِها.*

واستيقظَ ذلِك المساءُ حيًّا نابِضًا في ذِهنِه بتفاصيلِه وصُوَرِه. كانَ يافِعًا يتدرَّبُ على الرّماية شرقَ مُعسكَر والِده، فجاءهُ أحدُ الجنود راكضًا:

- سيّدي! أبوكَ السّلطان يَدعُوك.

دخَل الخَيْمَة السّلطانيَّة، فاستقبلَتهُ نظراتُ والِدِهِ الهادِئة. رآه جالِسًا في طرف الخيمة مُستندًا إلى وِسادَةٍ جلديّةٍ كبيرَة، وما كاد يجلِسُ حتّى قال له ألب أرسلان:

- أريدُ أن أقصَّ عَليك قِصَّة.

فردّ في قرارة نفسِه «أهذا وقتُ قِصص؟»، لكنّه سرعان ما أدرك بنظرةٍ واحدةٍ إلى أبيه بأنّ في الأمر عبرةً فأصاخ السَّمْع.

عندئذٍ اعتدَلَ ألبْ أرسلانْ في جِلْسَتِه، وأخذَ حرْبَةً إلى جانبِه، وبدأ يَنكُتُ بها في اللَّبَدِ المفروشِ تَحته:

- كانَ لِجدّكَ وزيرٌ عظيمٌ عالِمٌ اسمُه عَميد المُلْكِ الكُندُريّ. وقد ولّاهُ أمورًا كثيرةً في الدّيوان. وثِقَ به وجعَلَهُ مِن خواصّه، وكلّفهُ يومًا بأن يَخطبَ لَه فَتاةً أصفهانيّة.

وصمَت ألب أرسلان، وواصَلَ ملكشاه الإنصاتَ بكلّ حواسه، ويدُهُ تحتَ ذقنِه. كان والدُه يتحدّثُ على عادَة الأتراك البَدو، يُكثِرُ الصّمتَ بَين جُمَلِهِ ويأخُذُ الوَقتَ الكافي للتّفكير في الجُمْلَةِ قَبْلَ التّلفُظِ بِها. وبعد لحظاتٍ رفَعَ الحَرْبَةَ ووضعَها إلى جانِبِهِ، ثمّ استنَدَ إلى الوِسادة وأردف:

- لكنّ الوزيرَ الكُندُريّ خطَبَ الفتاةَ لِنَفْسِه. وعندَما عَلِمَ السّلطانُ بالأمرِ أمَرَ الأطبّاء أن يُخْصوهُ. فأُخِذَتْ مَذاكيرهُ ودُفِنَت في خوَارزْم، ثمّ سجَنَهُ فَترةً وبعدَها أشفَقَ عليه وأطلقَهُ وأعادَهُ إلى الوزارة.

شَعُرَ ملكشاه بضيقٍ وهو يتصوَّرُ لَحظَةَ إخصَاء الوزير. *كيفَ يُخصَى وزيرٌ كبيرٌ عالمٌ معروفُ المكانة؟* وظلّ ينصتُ دُون ظهورِ أيّ علامَةِ استغرابٍ على وجهِه.

- ولمّا آلَ الأمرُ والسّلطانُ إليَّ، كلّفتُه ببعض الأمر في مَرْو الرَّوْذ، لكنَّهُ لَم يُطاوِعني في بعض الأمورِ فَعَزَلْتُه وسجَنْتُه في دارِه، ثمّ أرسلتُ غِلْمانًا لِقَتْلِه.

وسكَتَ ألب أرسلان، كأنّه نَدِمَ على تِلْكَ الفِعْلَة. تذكَّر كيفَ روَى لهُ الغِلمانُ قصَّةَ قَتْلِهِم إيّاه. دخَلُوا عليه وبأيديهم السّيوف فوجَدوه في مَجْلِسِه. وتقدَّمَ كبيرُ الغِلمانِ، وقالَ:

- قُمْ فَصَلِّ رَكعتَين وَتُب إلى الله فإنّ السّلطانَ أمَرَ بِقَتْلِكَ!

فوقفَ الوزيرُ يتلمَّسُ الجِدارَ بطرَف يَدِهِ ويُحوقل، ثمّ قالَ بعدَ لحظات:

- اتركُوني أدَخُلْ أودِّع أهلي ثمّ أخرُج.

فأمالَ الجنديُّ القصيرُ رأسَه بلا مُبالاة:

- اِفْعَل بسرعةٍ إذن!

مشَى الكُندُريّ بقدَمين ثَقيلتَين ووجهٍ خالٍ مِن الدّم. وخرَجَ مِن

المجلِس وعُيون جُلَسَائه تُشيّعُهُ بصمتٍ مُترَعٍ بالحُزن والشّفقَة والخَوف. مشى خطواتٍ في الدّهليز ودخَلَ على حُرُمه. فعَلا الصِّياحُ والصّراخ، وظهرَ الوزيرُ خَارجًا مِن بَيْتِ حُرمِه، والجواري ناشراتٌ شُعُورهنّ مُتعلّقاتٌ بِه. فترامَق الغِلمانُ المكلّفون بِقَتْلِه. وردّدَ بعضُهم نظرَهُ بَين الجواري الباكيات ووجهِ الوزير، وَوَجْهِ قائدِهم. ثمّ تقدّم قائدُ الغِلمان، وقال:

- تَعال!

رفَعَ الوزير يَدَهُ:

- خُذ بيَدي، فَقَد مَنَعني الجَواري!

جَذَبَهُ الجنديُّ بِعنف، فمشَى حافيًا إلى المسجِدِ القَريب، وتَوارَى فيه، وصلّى ركعتَين، ثمّ خَرَجَ.

وأطلّت النّساءُ برؤوسهنّ مِن الأسطُح، ووجمَ الرّجالُ والأطفالُ في الشّارعِ يَنظُرون. أمّا الوزيرُ فقد وقف أمامَ صَحْنِ المسجِد، وخَلَعَ فُرجيّةً وفَرْوَ سَمُّورٍ كانا عليه ومدَّهُما إلى الجنديّ. وقامَ، فخرَقَ قميصَه وسراويلَه حتّى لا يُلبَسَا بعدَه. ثمّ جلَس يَنظرُ في عيون الغِلمان. فتقدَّمَ أحدُهم بشاروفةِ الخَنْقِ، فقالَ الوزيرُ:

- أنا لَسْتُ بقاطع طريقٍ ولا لِصٍّ فأُخنَق، والسَّيفُ أروَحُ لي!

فرمَى الغُلامُ الشّاروفةَ وتراجَعَ ساحِبًا سَيْفَه. وخرَقَ الوزير كُمَّه، ومدّ قِطعَةً مِنه إلى الغُلام وقالَ:

- لُفَّها على عَيني، واضرِب هذا الرّأسَ المليء بالعِلْمِ والأدَبِ!

وهكذا لفَّ الغلامُ الخِرقَة على عَينَيه، فرفعَ الوزير يدَهُ:

- سلِّمُوا على نِظام المُلْك وقولوا لَهُ: بِئسَ ما فعلتَ! علّمتَ غِلمانَ الأتراكِ قَتْلَ الوزراء! وإنْ امتدَّ بِكَ الدّهرُ فسَتَشْرَبُ مِن الكأسِ ذاتِها.

وأنزَلَ يدَهُ، ورفَع وجهَهُ إلى السّماء:

- لا إله إلّا الله!

واسْتكَّتْ مسامِعُ النّظّارَةِ المتجمِّعينَ بصوتِ الضَّربَة:

- طااااق!

سقَطَ الوزير، ومالَ الغلام، واحتزَّ الرّأسَ ووضعَهُ في مخلاةٍ حمراء، ثمّ ترَكَ جثّتَهُ تَسيلُ دمًا. فركضَت امرأةٌ مِن جانِب النّظّارةِ صارِخَة:

- أخي أخي!

وحَمَلَتْ أختُه الجثّةَ ظُهرَ ذلك اليَوم لِتدفنها في بَلدته كُندُر.

شَعُرَ ملكشاه بِقَلْبِه يَقْرَعُ قَفَصَهُ وهو يَسْمَعُ نهايَة القصّة. وبعد لحظاتِ سكوتٍ قال ألب أرسلان مُتخيّلًا أحاسيسَ ابنِه:

- إنّ الأسودَ لا تهابُ حمرةَ اللّحم..

واعتَدَلَ، ثمّ وضَعَ يدَهُ على مِنْكَبِ ملكشاه:

- كان الكُندُريُّ يظنُّ وزيرَنا نِظامَ المُلْك حرَّضَ عليه، وما كان الأمر كذلك. بل أنا فَهِمْتُ مِنْهُ جراَةً عَلَى السّلطَنَةِ ومَيْلًا إلى اصطنَاعِ الجُنْدِ فَخِفْتُهُ عَلى الدّولَة. وقَدْ وُزّعَ جسدُهُ: فقُطِّعَت مذاكيرهُ في خوارزم، وأُريقَ دَمُهُ بِمرو الروذ، ودُفِنَ رأسُه في نَيسابور، وقحْفُ دِماغِه في كرمان، وباقي جسده في كُندُر، لأنَّهُ نازعَنا الملْكَ. أفَهِمْتَ يا بُنَيّ؟

طافَت تِلْكَ الذّكرى برأسِ ملكشاه وهو لا يزالُ جالِسًا على الرّبوة وكفُّهُ مملوءةٌ تُرابًا. شَعُرَ بانزياحِ الهمِّ عَن كاهِلِه. *كيفَ غَفَلْتُ عَن هذه القصّة؟ كيفَ تردّدتُ؟ فأنا لَسْتُ خَيْرًا مِن والِدي ولا مِن جدّي!*

وقفَ دُفعَةً واحِدَةً، ونفضَ الغُبارَ عَن ثَوْبِه، غيرَ متردّدٍ في ما سيُقدِمُ علَيه بشأن نِظام المُلْك. ثمّ رَفَعَ بصرَه مُتأمّلًا الغُبارَ المتصاعِدَ والجُنودَ

المتوزّعينَ في الأفق. *في هذه الرّحلَة إلى بغداد سأقتُل نظِام المُلْك وأخلَعُ الخَليفَة.* ونَزَلَ مُسرِعًا مِن الكثيب، وقد قفَزَ إلى ذهنه ذلك المثَلُ التركيُّ الذي كانت تركان خاتون تردّدهُ دومًا: «إنّ البَلَدَ الّذي يكثُرُ فيه القَتْلُ يَنْتَشِرُ فيه العَدْلُ والنّماء!». فانتابه الإحساس بالطمأنينة والرضا.

33

بغداد، 485 هـ.

ارتفعَت الشّمس، فانعكسَتْ أشعّتُها على جدران المدرسة النّظاميّة. كانت أروقتُها تغصّ بالمتعلّمين المائجين، وحُجُراتُها مُكتظّةً بالطلّاب والأساتذة والمنازَعات الفلسفيّة والفقهيّة والكلاميّة. ظهرت عِمامَةٌ ضخمَةٌ تشقّ الطّريق الطّويل الممتدّ بين المدخل الرئيسيّ والمكتَبة. كان صاحبُ العمامة لا يمرُّ بجماعة من الطلّاب إلّا بادَروه بالسلام، فيردُّ باسِمًا واضعًا يدَه على صدره مُنحنيًا نِصفَ انحناءة.

كان لِجَوْهَرٍ الكتبِيِّ شخصيَّتان، واحدة للعَمَلِ داخلَ المكتبَة، وأخرى عندَما يَخرُجُ مِن بَين أسوارِها. فهو يُحسُّ عندَما يَتعاطى مع الطلّاب خارجَ المكتبَة إحساسَ الفارسِ المجرّد مِن سلاحِه. فلا يزيدُ على ردّ السّلام والابتسام، ويؤجّلُ المشاكسات القارصَة إلى أن يتوارى داخل المكتبَة. وكان يرى حياته خارجَ مكان عملِهِ حياةً شائنةً لا تستحقُّ أن تُعاش.

وصل إلى مدخَل المكتَبة فوجَد الفرّاشين والمساعدين قد رتّبوا كلّ شيء. فجلَسَ على النّضد يحكُّ جبهَته. استلّ سجلّ الإعارات، وبلّ إصبَعَه، وبدأ يُقلِّبُ الورَقَ باحثًا عن المستعيرين المتأخّرينَ عن إرجاعِ ما عِنْدَهم. فلاحظ أنّ ذهنه ما زال مشغولًا برسالةٍ وصلتْه أمس من القسطنطينيّة، فيها دعوةٌ إلى إرسال مزيدٍ من الخبر، والانتباه إلى كلّ ما يتعلّق بالأتراك والصراع بينهم. وانقطعَتْ أفكارُه فجأةً حين انسدّ باب المكتبة بظلٍّ، فقال دون أن يرفع عَينَيه عن الدّفتر الضّخم:

- أهلًا وسهلًا بالشّيخ النبهانيّ!

دخل النبهانيّ ضامًّا أطرافَ جُبّته، بينما كان جَوْهَر يُشيرُ إلى الكراسي المنصوبة قُرب النّضد:

- لمْ يخبروني بمَن جاء معك من بيهق!

كانت تلك صيغَةَ تَعمِيَةٍ مِن جَوْهَر غدتْ مكشوفَةً عِنْدَ مُجالسيه. فهو لا يريدُ الاعترافَ بأنّه لم يعلَم بقدوم النبهانيّ، إذ يَعتبر ذلك جُرْحًا في صورته المعروفة عند النّاس. فجلَسَ النبهانيّ، وأخذ يُجيلُ نظراته في جنبات المكتبة ويقارنُ بينها وبين مَكْتَبَةِ مَدينَة بَيْهَق. انتبَه إلى أنّ مَكْتَبَة بَيْهَق أكبر من هذه. كيف تكونُ مكتبةٌ يتعلَّمُ فيها ستّة آلاف طالِب، مثل مدرسَة النّظاميّة، أصغرَ مِن مَكْتَبَةٍ عامّةٍ في بَيْهق. وهمَّ بكشفِ ما فكّر فيه لِجَوْهَر، ثمّ تذكّر أنّه سيعتَبِرُ تِلك إهانَةً له، فعدَلَ عن الأمر واسترخى في كرسيّه متثائبًا:

- يا شَيخ جَوْهَر، كيف حالك؟ وما جديدُ المدرسة؟

لمعَت عينا جَوْهَر الكتبيّ وهو يدعو أحدَ مساعديه ليُحضر مشروبًا وفواكه:

- خُذْ أعجبَ خبرٍ ستصعدُ به الملائكة إلى السّماء هذا اليوم!

انفرجَت أساريرُ النبهانيّ، ومسحَ طرف شفتِه السّفلى حتّى ظهرَت أسنانُه القويّة ولثته السّوداء:

- وما ذاك؟

- صاحِبُكَ الغزاليّ...

في تلك اللّحظة وصلَ العامِلُ حامِلًا صينيّةً دائريّةً صفراء. فطلب منه جوهر أن يضعها على طرف الطّاولة، وقد تعمَّد التّوقّفَ عن الكلام لِيَستحثَّهُ ضيفُه على استئنافِ حديثِه. مدّ النبهانيّ أصابعَه وأخذ لَوْزَةً والتقَمها ثمّ قال:

- ماذا عن الشّيخ الغزاليّ؟

- كان يسومُ جاريةً من عند يوشع النخّاس!

- إذا حدث الأمرُ أمس فكيفَ وصلَك الخبرُ اليَوم؟ هل كنتَ شاهدًا على الواقِعة؟

دوّت ضحكَةُ جوهر، كعادتِه حين يشعرُ بالانتصار. فثناءُ جليسِه وتَفطّنُهُ إلى سُرْعَةِ وصولِ الأخبار إليه هما الجائزة الّتي يُطارِدُ دومًا. وانطفأت الضّحكة، وحلّت مكانَها ابتسامةٌ عريضةٌ جادّة. ثمّ مال على الصّينيّة، وأخذ حَفْنَةَ زبيبٍ، وقال بنبرةٍ متغيّرةٍ وهو يَمْضَغُ:

- هذه أمور تَسوقُها الأقدار إليّ.

ثمّ خطرَ لهُ أن يستعرِضَ بعضَ معارِفِه:

- أم إنّك صرتَ مُعتزليًّا لا ترى تفسيرَ الوقائع بالأقدار؟

أخذَ النبهانيّ يسترجعُ قِصَصَه مع صديقه الغزاليّ وأحاديثَهما عن النّساء أيّامَ نَيسابور، وتذكّر أنّ صاحبه يفضّل الخراسانيّات، فقال:

- ومن أيّ جَلْبٍ هي؟

- جارية مِن جَلْبِ الرّوم.

- وماذا وقَع لجاريتِه الّتي أهدى إليه الوزير؟

نفخَ جَوْهَر شِدقَيْه استغرابًا، وهو يأخذ حبّة لَوْز:

- كأنّك لا تسألُ عَن أخبار صاحِبِكَ! ألَمْ يَعُد صديقَك؟ ألم تَدرُسَا مَعًا على الجويني وتسكُنا حُجْرَةً واحدةً في نظاميّة نَيسابور؟

ولم يستسغ النبهانيّ أن يذكُرَ الكتبيُّ تلكَ التّفاصيل. إذ كان يكره ذكرَ ماضيه مع الغزاليّ، فقال:

- بلى، ما زلنا صديقَين، والودُّ موفُور.

وشَعُر النبهانيّ بدبيب الغَيْرَة يسري بين جوانحه. واستعادَ صُورَة

الشيخ الجويني وهو يقارنُ بَينَه وبين أبي حامد، واصفًا إيّاهُما بفرسَيْ رهانٍ في التّعلّم والفَهْمِ والإدراك. بل لا ينسى أنّه كان أبلَغَ عِبارَةً وأدقّ مُناظَرَةً مِن الغزاليّ. فكيف غدَا الغزاليّ النّجمَ اللّامع في سماء بغداد، ومؤلّفَ الكُتُبِ المشهور، ومُجالِسَ الوزراء والملوك، وبقي هو فقيهًا في بَيْهَق؟

تخيّل لقاءه اليوم معَه. *كيف سينظُر إلَيه؟ هل سَيَشْعُر بمسافَةٍ بينَهما رغم الصّداقة القديمة والزّمالة الطّويلة؟ وماذا يقولُ الغزاليّ عنه لزملائه في النّظاميّة؟*

وأفاق على عَيْنَي جَوْهَر تفترسانِه، وذقنُه مائلٌ إلى الأسفل، وشفَتاه مُنفرجتَان عن ابتسامَةٍ واسعَة، وثناياه المتباعدتان تبدوان أكثر نتوءًا. فقال مُحاوِلًا مُداراةَ ما في ذِهنه عن تَيْنِك العينَين اللّاقطتَين:

- إنّما جئتُ اليومَ لأرى الغزاليّ، فَقَد تراسَلنا وهو ينتظرني بُعَيْدَ دَرس السّاعَة الرّابعة.

فرَفَع جَوْهَرُ عَينَيْه مع باب المكتبَة ناظرًا إلى قُرْصِ الشّمس:

- لعلّها الثّالثة الآن.

وجاء صوتُ طالِبٍ أجشّ يُنادي زميلَه في أحَدِ أركان المكتَبة:

- نلتقي بُعيد العصر وانتظرني بالغداء!

وقفَ جَوْهَر قافِزًا، ومشى في الممرّ الضيّق بينَ الكُتُب، فلمَحَ الطّالبَ وراء الرفوف يكادُ يخرُجُ مِن المكتبَة فناداه:

- انتظِر.

وركَضَ جِهَةَ الباب حتّى وقفَ قُرْبَ الشّابّ:

- ألَمْ نَقُل ألفَ مرّةٍ إنّ الصّوت العاليَ محظورٌ بين هذه الجدران؟ ومَن شاء أن يرفَع صوتَه فليذهَب إلى حَلَقَاتِ الذّكر في رباط أبي سعيد، أو إلى مُجّان بغداد على نهر دجلَة.

تحوّلت وجنَتا الشّابّ إلى حبَّةِ تُوت:

- عفوَكَ سيّدي!

امتلأ جَوْهَر حُبورًا وهو يرَى وَجْهَ الفَتى. فربّتَ على كتفَيْه، وعاد إلى مقعدِه، فوجدَ النبهانيّ واقِفًا:

- سأذهبُ إلى حُجْرَة الأساتذة لأرى أبا حامِد.

واندفَعَ في الممرّ الواسِع المتّجِهِ إلى الحُجرات المتراصّة في الجانب الشّرقيّ من المدرسة وهو يشعُرُ بتهيُّبِ لقاءِ صديقِه، فأنّب نفسَه. كم كنتَ *كثيرَ النّقدِ لمن يُقيمُ للنّاسِ وَزْنًا بسبب المكانَة والجاهِ، وها أنت تشعُر بهَيْبَة مُحمّد الغزاليّ لأنّه تقلّد المناصِبَ وجالَس السّلاطين والوزراء.*

وصلَ إلى طرَفِ الممرّ مِن جِهَة المسجد، فرأى خادِمًا يَحْمِلُ سجّادةً على رأسِه، فضربَ طرفُ السجّادَةِ عَمامتَهُ، فطارَتْ وسقطَتْ على الأرض. فشَعُرَ بتضايقٍ وتشاؤمٍ مِن الحادِثة. وانحَنى، وأخذَها، ثمّ نَفَضَها ووضعَها على رأسِه. *هل يعني سقوطُ عَمامَتي سُقوطَ جاهي هُنا؟ أيعني استحالَةَ تَعييني مُدرِّسًا في النّظاميّة؟*

وصَلَ إلى الحُجْرَةِ الأوسَع المنتصبَة شرقيّ المدرسة، وخُيّل إليه أنّه لَمَحَ أبا حامد فاقترَب ودخَلَ:

- السّلام عليكم!

كان الغزاليّ جالِسًا في طرف الحُجْرَة على كرسيٍّ، وبَين يَديه أوراق، فقام حتّى أسقطَ أوراقًا كانت بينَ يَديه:

- وعليكُم السّلام! يا أهلًا.

تعانقَا طويلًا، ولَم يُمهِل الغزاليّ صديقَه فبادرَه بالأسئلة:

- كيف حالُكَ؟ وما أخبارُك؟

وابتعدَا إلى ركنٍ في الحُجْرَة قُرْب نافذةٍ مفتوحَةٍ على الحديقة خَلف الحجرات. دعاه إلى الجُلوس وهو يقول بنفَسٍ مُتقطّع:

- هل أدعو بشرابِ التّفّاح؟ أما زالَ هُو حظّكَ مِن الدّنيا؟

ابتسَم النبهانيّ ابتسامةً متكلّفةً ضيقًا بالحديث عن الماضي. وعدَّلَ عِمَامَتُه وهو يتذكّرُ سُقوطَها قبْلَ قليل:

- أشرَبُ كلَّ ما تجودُ بِه كفّاك!

فوقَفَ الغزاليّ، ونادى أحدَ الخدم، ثمّ عاد يفركُ كفّيهِ تحرُّقًا إلى الحديث:

- كيفَ حالكَ؟ وما جديدك؟

- أنا كالعادة في بَيْهَق، أدرّسُ الطلّاب وأخطب في الجامع.

دخلَ خادِمٌ قصيرٌ يحملُ صينيّةً وضعَها على طاولةٍ كانتْ بينهما، ثمّ ابتعَد. وانشغَلَ ذِهن النبهانيّ بتذكُّرِ قِصَصٍ حكاها له الغزاليّ عن طفولَته في الطابران وحياةِ اليُتمِ وشظف العيش. وتذكّر قِصَصه عن خبّازٍ كان يستأجِرُه لِيَقْطَع له الحطَب حتّى يُعطيه أربعةَ أرغِفة. استعادَ كلَّ ذلك وهو يرفَعُ نظرَه مع الباب، وينظر إلى ممرّات النّظاميّة، مُفكّرًا في المال الّذي غدَا الغزاليّ يحصُل عليه مع المكانَةِ والجاهِ وانتشار الكتب.

وانتبَه الغزاليّ إلى شُرود مُجالِسه، بل إنّه خمّن بفِطْنَتِه ما في ذِهنه:

- أين ذهبَ ذِهْنُك؟

وتذكّر النبهانيّ دقَّة ملاحظَة صاحبِه، وتوقُّدَ ذِهنِه، وقُدرَتَهُ الخارقَة على فَهْمِ ما يدورُ في أذهان مُجالِسيه:

- كنتُ أفكّرُ في ذِكرياتِنا معًا.

- هل تزوّجتَ؟

- نعم، ولي أبناء.

وسعِدَ النبهانيّ بالسّؤال، فهو بابٌ لاستعراض بعضِ مُنْجَزاتِه:

- تذكُر ابنةَ التّاجر الّتي كنتُ أحدّثكَ عنها... لَقد تزوّجتُها!

التَفَتَ الغزاليّ إلى الباب ليرى ما إذا كان الطلّاب يُشاهدونَه، فَلَم يلمحْ أحدًا، فأعادَ نظرَهُ إلى صديقِه:

- آآآه! تلكَ الفتاة الّتي كنتَ تُشبِّهُهَا بقصائدِ المتنبّي!

وضحِك النبهانيّ سعيدًا لأنّ صاحبَه ما زال يتذكّر تلك التفاصيل بعد مُجالَستِه الوزراء:

- ما شاء الله! تتذكّر؟ نَعَم، وكنتَ أنت تقولُ إنّ ابنة محمود الفرّان تُشبِهُ قصائدَ النّابغة؛ لأنّها مشحونَةٌ بالاعتذارِ والخَوْف!

ضحِكَا، ورفَعَ الغزاليّ يدَهُ ليمسحَ دمعَة:

- لقد كنتَ أمهرَ منّي بالغزل!

تلفّت النبهاني وخفض صوته:

- لا، كيف؟ أنت كنت أبرع مني. أنسيتَ أنّك راسلتَ إحداهن وكتبت لها: أتعرفين ما الذي سأهديك إذا رأيتك؟ سأهديك مرآةً. فأفضل ما تهديه للحسناء مرآةٌ مَصقولةٌ ترى فيها مكامن حسنها... فليس في العالم هديّة للحبيب أجمل من وجه الحبيب!

وضحك الغزالي مُغيّرا الموضوع:

- أسعدَك الله، والله إنّي بِك لمسرور!

شَعُرَ النبهانيّ بأنّها لحظةٌ يجب عليه اغتنامُها لمفاتَحةِ صديقِه في ما جاء مِن أجلِه:

- أبا حامد، لقد جئتُ لأحدّثكَ في أمرٍ لَن يَقضيه غيرك.

- اللّهمّ نَعَم! وماذا تَبغي؟

التفتَ مُتفقّدًا الممرّات فتأكّد مِن خلوِّ المكان، فقال بتلكُّؤٍ:

- أريدُ.. أريد آآ...

- تفضّل، تعلَمُ أنّي لا أحبُّ خِدْمَةَ أحَدٍ حُبّي خِدْمَتَك. تفضّل!

- أنتَ تعلَمُ طبيعةَ هذا الزمن. فلا أحدَ يستطيعُ فِعْلَ أمرٍ دُنيويٍّ أو دينيّ إلّا بالسّلطان. وأنا أريدُكَ أن تُكلّم الوزير -أيّدَهُ الله- لأدرّس معكُم في النّظاميّة.

رفَعَ الغزاليّ يدَهُ، ثمّ أعادها إلى فخذِه، وحرّك رأسَه يَمْنَةً ويَسْرَة:

- أوووه، ما أسهَلَ ما طلبتَ أيّها الشّيخ.

وسَكَتَ الغزاليّ وعيناهُ إلى الصّحن، ثمّ مال، وأخذ قِطْف عِنَبٍ مدَّهُ إلى صديقِه:

- شوف -أيّدك الله!- إنّ الوزيرَ والسّلطان في طريقهما إلى بغداد. فإن شئتَ كلّمتُ الوزير، وإن شئتَ أدخلتُك عليه ليراكَ ويسمَعَ مِنْكَ. ولعلّ الأمثَلَ أن تكلّمَهُ فيأمُر لَك بالأمر وهو في بغداد.

وتبسَّمَ الغزاليّ، مُفكّرًا في سببِ اقتراحِه لذلك، وقال مُوارِيًا ضحْكَتَهُ:

- فَقَبْلَ عامَين جاء أبو مُحمّد عبد الوهاب الشّيرازي وأبو عبد الله الطّبري بأمرٍ من الوزير بتعيينهما مُدرِّسَين في المنصِبِ عَينه. وحدث نِزاعٌ وشَغَبٌ لاستحالَة ذلك، ثمّ تقرّر أن يُدرِّسَ كلّ واحِدٍ يَوْمًا. فالوزير يَنسى أحيانًا، وإذا أمَرَ بتَعيينِك وهو في بغداد سَهُلَ الأمر.

اجتاحَت النبهانيّ سعادَةٌ غامِرة، وتخيَّل نفسَه بين يدَي الوزير يستعرض قُدراتِه الفقهية. فشَعُرَ بامتنانٍ لصديقِه، وانفرَجت نفسه. فأخذَ حبّة عنبٍ ورماها في فيه:

- جزاكَ الله من أخٍ صالِح، وصديقٍ ناصِح. أرى أن أدخُلَ عَلَيه مَعَك.

- ذلِك لَكَ أيّها الشّيخ!

وتأمّل النبهانيُّ عَينَيْ الغزاليّ السّوداوَين العميقتَين الواسعتَين، وأرنبَةَ

أنفه الدّقيقة. ولاحظ ملابسَه الفاخرة. فهمّ بِسُؤالِه عن سِعْرِها لكنّ الحياء عَقَدَ لِسانَه فقال:

- وما أخبارُ الجارية التي كنتَ تَسومُ أمس؟

- وما أدراك؟

- أخبرَني جَوْهَر الكتبيّ!

- هذا يَعرِفُ كلّ شيءٍ في هذه المدرسة. فطلّاب النّظاميّة ستّة آلاف، وكُتبُ المكتَبة ستّة آلاف مجلّد، وهو يَعرِف أسرارَ أولئك الطلّاب وأماكِن تِلك الكُتُب!

وصفّق الغزاليّ نافضًا فُتاتَ العِنَب وواصل:

- ليس المدرسة فحسب! هذا يعرف كلَّ ما في بغداد. يقول عنه الطّلبة هنا إنّ أرسطو لو رآه لآمن بمعرِفَةِ الله للجزئيّات!

ضحِكَ النبهانيّ مُنحنيًا على الصينيّة وقال:

- الجارية الّتي كنت تسومُها مِن أيّ جَلْب؟

- مِنْ جَلْبِ الرّوم.

- أذكر حُبّك للخراسانيّات، وليس أشبه بهنّ إلّا السّنديّاتُ، فلمَ لمْ تَسُمْ سنديّة؟

- كنتُ أريدُ جاريةً تُحْسِنُ الخِدْمَة والغناء لأنّي أفكّر في تخصيص جاريَتي الأولى لأمر البَيْتِ والأولاد.

قالَها الغزاليّ وهو يستعيدُ صُورة خَلُوب: عَينَيها الفاتِنَتَين، وصدرَها البَارِز، وحركاتِها اللّافتةَ الموَّقعة، فشَعُرَ بِشوقٍ إليها.

- ألا تحبّ جاريةً تغنّيك وتؤنسك؟

- جاريتي الّتي معي عارفَةٌ بالغِناء، لكنّها إذا أصبَحت أمَّ أولادي وغدَتْ حرّةً فستَفْقِدُ محَاسِنَ الجاريَة، فيغلُبُ عليها الحياء. ثمّ إنّها

ستنشَغِلُ بالحَمْلِ تِسعَةَ أشهر، والرّضاعِ عامَين، وبتربيةِ الأولاد والإشرافِ على أمرِ البَيْت. فأحتاج إلى جاريةٍ لِلْمُتْعَةِ فَحَسب.

وسكتَ، وتسارعَت حركاتُ جفونِه حتّى خُيّل لصاحبِه أنّ جَفْنَ عَينه الأيمن ازداد كسَلًا بعدَه. وتذكّر النبهاني سؤالًا مهمًّا، فهمّ بطرحِه على صديقه، لكنّه سرعان ما توقّف، إذ دخَل عليهما الحجرةَ رجلٌ قصيرٌ يعتمر عمامةً ضخمةً، فألقى عليهما السّلام، ثمّ أخذ جِرابًا كان نَسيَهُ على طاولَتِه في الحُجْرَة. وحالما انصرَف، عادت إليهما نفساهما، فقال النبهانيّ:

- أصحيحٌ ما طرَقَ أسماعَنا مِنْ نيَّةِ ملكشاه الوقيعَة بالوزير؟

غامَت عَيْنَا أبي حامِد مُستعيدًا ما ورَدَهُ مِن أخبارٍ عن الخلافِ بَين الرَّجُلَين. فرفَع عَينَيه في جنبات المدرسَة مُفكّرًا في الوزير الّذي أسّسها قَبْلَ ثمانيةٍ وعشرين عامًا، وقال:

- سمعتُ ذلك أيّها الشّيخ. وإنْ حدث مكروهٌ للوزير فسينثَلِمُ الإسلامُ ثُلْمَةً كبيرَة. فما عرَفَت الدّنيا وزيرًا في همّتهِ وخِدْمَتِه النّاس، ولا أظنُّ هذه الدّولة السّلجوقيّة منصورةً إلّا بِحِكْمَتِه وصلاحِه وتَدبيره.

شَعُرَ النبهانيّ بتضايقٍ إذ تصوّرَ حُدوثَ مكروهٍ للوزير قَبْلَ أن يقابله ويعيّنه في المدرسة النّظاميّة، حتّى إنّه تذكّر سقوط عمامته.

وفجأةً، فتحَ أستاذٌ شابٌّ الباب، فدخلَت رياحٌ باردَة، ولمّا فوجئ بوجود الغزاليّ أغلَق البابَ مُعتذِرًا بالفارسيّة.

وقفَا معًا، ونزلَا مع السُّلَّمِ العريض. ثمّ أخذَا ينظران إلى الباحة المكتظَّة بالعمائم والأرجل والحمام والخدَم. ولاحت النّافورة تطفَحُ ماءً، ومدخلُ المكتبَة مُطِلًّا وراءها. فمالَ الغزاليّ إلى صديقه:

- نذهب إلى الحديقَة لنتمشّى ونتحدّثَ في ما سألتَ عنه، فكلُّ لَبِنَةٍ هُنا

أُذنٌ صاغِيَة.

سارَا في الممرّ الواسع. فكان الطلّاب يقفونَ مُفْسحينَ الطّريق، حانينَ رؤوسَهم إجلالًا للغزاليّ كلّما رأوه، فتصوّر النبهانيُّ نفسَه قريبًا في هذه الممرّات والرّؤوسُ محنيَّةٌ له.

دخلَا من جانب الحديقة الغربيّ شرقَ المدرسة. فانصرف ذِهن النبهانيّ إلى سؤال الغزاليّ عن الرّسائل الشّديدة المتردّدة بين السّلطان ملكشاه والخليفَة، ونيّة ملكشاه تنصيبَ نفسِه في بغداد بَعْدَ طَرْدِ الخليفَة منها، وما يفعلُه الخليفَةُ لاحتواء تلك الرّسائل، وموقف نِظام المُلْك مِن كلّ ذلك.

وهبّت رياحٌ شماليّةٌ باردَة، بينما عجَّ ذِهنُ كلٍّ مِنهُما بتخيّلِ ما تحمِلُه الأيّام المقبلة لبغداد وسطَ صراع الخليفة العبّاسيّ والسّلطان السّلجوقيّ.

34

ضواحي نهاوند، رمضان، 485.

وقف عُبَيد على الرّبوة المُطلّة على الوادي. ومدّ بصرَه، فتراءى له المعسكَرُ أكبرَ مِن تخمينِه. أربَكَهُ منظرُ الخِيام السّود المُتراميَة في سفح الوادي المُعْشَوشِب، وضجيجُ الأصوات في نواحيه. رمقَ الحجارةَ السّوداء المتناثِرَة على حافّة الوادي، فبدتْ لهُ شاهدةً على العصورِ البائدَة وتعاقُبِ اللّيل والنّهار وفناءِ الإنسان. ثمّ مسَحَ أنفَه بطرف عِمَامَتِه ونزل مُندفِعًا.

كان يملِكُ معلوماتٍ وافيةً عن نظام المعسكَر وطُرُقِ الحِراسة فيه ويوميّاتِ الوزير وأسماءِ معاونيهِ وخدَمِه. هبطَ مُتعثّرًا في مُرقّعَتِه، وأخذه خيالُه إلى يوم خروجه مِن نَيسابور. ولم يفق من ذكرياته إلّا على فارسٍ تُركيٍّ يقتربُ مِنْهُ:

- إلى أين؟

رفع عُبَيد عَينَيه، وقطّب جبهتَه الغمّاء، وملأ شدقَيْه رياحًا:

- أففففف! أبهذا تُخاطِبُ الأمراءَ؟

ابتَسَم الجنديُّ وهو يجذبُ لِجامَ الفَرَس:

- يا فَقير.. ماذا تريد؟

أنزل عُبَيد جرابَه كالمتعَبِ، وقال:

- أنا آتٍ للإفطار مع الوزير. فَقَد سَمِعْتُ أنّ للمُريدينَ مائدَةً في مَجْلِسِه.

كانت الفَرَسُ تُنازِعُ فارِسَها لِجَامَها وهو يَشدُّه شَدًّا. فَحَصَ الجنديُّ

وجهَ عُبَيد، ودقّق النظرَ في مُرقّعتِهِ المهترئة وجرابِه وعصاه، ثمّ قال بنبرةٍ عسكريّةٍ يُعرَفُ بها جنود نِظامِ المُلْك:

- اتبعني!

مشى الفارسُ وعُبَيد يَسيرُ وراءه.

مرَّا بين شُجيراتٍ قصيرة، ولاحظ عُبَيد كثرةَ الجواري السّائرات في أطراف المخيَّم، ثمّ وقَفَا عند خيمةٍ، وأشار الفارس إلى عُبَيد بدخولِها. فأدخل رأسَه فيها:

- الله! الله!

التَفتَت إليه أربعة رؤوس، فسَلَّم عليهَا دون مصافحَة، وجلَس مُتثاقِلًا، واضعًا يدَيه على رُكبتَيه.

كانت الخَيْمَة مخصّصةً للعابرين مِن زوّارٍ ودراويش. وضعَ جِرابه بين يدَيه، ثمّ وضع رِجلَيه على الجِراب، ومال على دِعَامَةِ الخَيْمَةِ وهو يُتمتمُ بالذّكر.

أماطَ الرّجلُ الطّويلُ الأبيضُ القريبُ منه لحافَه عن رأسه، ونظر إليه مُبتسِمًا:

- أهلا بالشّيخ، من أين قَدِمْتُم؟

حدجَه عُبَيد بنظرةِ استنكار، وقطّب جبينَه:

- آ.. أُو.. إي! آ... أوْ... إي!

أشاحَ الرّجلُ بوجهه شطرَ زملائه مستفسرًا، ثمّ أعاد نظرَه إليه:

- قلتُ، من أين أتيتم؟

وقبَض عُبَيد قدَميه عن جِرابه، ومالَ إلى الأمام غارزًا مِرفقَيه في رُكبتَيه:

- جئتُ مِن عالَمِ الأرحام. لكنّي لا أذكر شيئًا ممّا رأيتُ!

وتبسّمَ الرّجل مُستظرِفًا كلامه، ثمّ أخذَ وِسادَةً بِجانِبه ورماها إليه:

- وإلى أين إن شاء الله!

رفعَ كفّيهِ الغليظتَين، ووضعهما تحت ذقنه، وقال بنبرة لامُبالاة:

- إلى قصر الخليفة أو قصر السّلطان؟ إلى أين؟ إلى دُويرة الصّوفيّة في الريّ!

كان يتحدّث والرّجال مُنصتون بشفاهٍ مُنفرجَةٍ وعُيونٍ لامِعَة.

ثمّ سكت، وراح يفكّر في صيغَةٍ لاستدراجِهم إلى الحديث عن نِظام المُلْك كي يَعْرِفَ ما إذا كان في المعسكر اليَوم، فقال:

- أنا جائعٌ، فكيفَ إفطارُكم؟

وجاء صوتُ رَجُلٍ ذي هامَةٍ ضخمَةٍ دون أن يرفعَ وجهَه عن كِتابٍ في يدِه:

- مائدةُ سيّدي الوزير تُشبِعُكَ وتُشْبعُ دُويرَة الصّوفيّة وأهلَ الريّ!

ثمّ تبعَه صوتٌ آخر:

- وتُشبعُ عالَمَ الأرحام الّذي مِنْهُ أتَيت!

رفع عُبَيد يدَه، ومسحَ بها أرنبَةَ أنفِه وهو يُمسِكُ نفسَه عن سؤالٍ قد يُفهَم منه التّطفُّل. أعاد نظَرَه إلى جِرابه، وأفاق على صوت الفارس أمام الخَيْمَةِ يُنادي:

- المريد.. تَعال!

اضطرب قَلْبُ عُبَيد، ووقف ليخرج، ثمّ تذكّر أنْ يأخُذَ جِرَابَه. فانحنى، وألقاه على مِنْكَبِه، ووقف عند باب الخَيْمَة، فلاحظ وجود رَجُلٍ مع الجنديّ تُشْبِهُ ملامِحُه ملامحَ أصحاب ديوان الخَبَر. فبادرهما مُتظاهرًا بالغَضَبِ:

- ويلكُما! ماذا تريدان؟

التفتَ الجنديّ إلى رفيقه، ثمّ أعادَ نظَرَهُ إلى عُبَيد:

- اقترِب!

تقدّم الرّجلُ ذو العِمامَة والملابسِ النّظيفة وعيناه تُوحيان بأنّه استيقظَ مِن نَوْمِهِ قَبْلَ قَليل. وصعّد نظرَه، وخفضَه مَع عُبَيد. ثمّ تأمّل وجهه وعِمامَتَهُ وجِرابَه حتّى شَعُرَ بأنّ نظراتِه اللّافحة تخترقُه وتَعبَثُ بدواخِلِه، بل لعلّها ترى ذلك الخِنْجَرَ وتِلك العقاقيرَ المدسوسَة تحت جبّته.

- مَن أنتَ ومِن أينَ أتَيت؟

- أنا عبدٌ وأتيتُ مِن الأرحام! مَن أنتَ ومِن أينَ أتَيت!

ورفعَ رأسَه إلى السّماء، ونفخ ملء شِدقَيْه، ثمّ أمالَ وجهَهُ جِهَةَ الأرض، ومرّر يدَيه ونزع عِمامَتَهُ وبدأ يهدر:

- أنا عُبَيد الموسوس.. أما سَمعتَ عنّي؟ أما سمعتَ كَم ثَوْبًا سَرَقْت؟ وكَم رغيفًا اغتصَبت؟

ثمّ سكتَ، ورفعَ رأسَه لِيسبرَ تقاسيمَ الرّجل، فرآها لانَت واستأنسَتْ، ولمحَ ابتسامَةَ استظرافٍ وطمأنينَةٍ فأردف:

- إنْ كُنتُم لا تُرحّبونَ بضيوف الله في رَمضان فقولوا لي! ففي هذه الأودية مِن ورَقِ الشّجر ومياهِ الأمطارِ ما يُقنِعني!

ورفع الرّجل يدَيه:

- يا مرحبًا بكم، ومرحبًا بكلّ صوفيّ.. الوزير لا يُجِلُّ أحدًا إجلالَهُ إيّاكم!

وأشار إليه بالعَوْدَة إلى الخَيْمَة. فهدأ عُبيد، ونظَرَ إلى الأفق، فلمَح الشّمس تدنو إلى الغروب. وعاد مُتثاقِلًا إلى الخَيْمَة وهو يسمَعُ أصوات الجنود يتدرّبون في طرف المعسكر. وتلفّتَ مخمِّنًا أنّ تلك الخِيَم الخمس المتراصّةَ ينبغي أن تكون خِيَمَ الوزير. إذْ يُخصِّصُ في العادة ثلاثًا منها لحُرُمه وخدَمه، وواحدَةً للاستقبالات الخاصّة، وأخرى كبيرةً لمجلِسِه العامّ.

عاد وهو يَشمُّ رائحةَ قُدورٍ منصوبَةٍ في طرف المخيّم استعدادًا للإفطار. ولَفَحَتْهُ رائحَةُ الخُبْزِ والبهارات والشّواء، فشَعُرَ بحنينٍ غريبٍ إلى مَسْقَطِ رأسِه. انتابَهُ شعورٌ قلّما يَشْعُر به. انتابته صَبابةٌ وشوقٌ وتَحنَان. واستيقظَت في ذِهنِه صورٌ من طفولته وهو يركُض حافيَ القَدمَين آتيًا مِن المخبَز إلى بَيْتِ أبيه. تذكّر صورةَ والِدِه جالِسًا في ركن الدّار تُحيط به الكُتُبُ والأسطرلاباتُ والأوراقُ والأقلامُ والخرائط. تذكّر هبوبَ الرّياح سَحَرًا، وطعمَ اللّبن في الصّباحات، ووجوهَ الأمّهات يُرضعنَ أطفالهنّ، وصوتَ الدّجاج، وزقزقَةَ العصافيرِ على رؤوس الأشجار وقتَ السحر.

استيقظَت في أنفه رائحةُ العُشبِ في قَريته، وملابس أمّه، ودواة أبيه. وأحسَّ بحرارةٍ تجتَاحُ جِسْمَهُ، فأزاح عِمَامَتَهُ عَن جبهته وهو يرفَعُ بصرَه مُتأمّلًا خيامَ الوزير البادية على الرّبوة. من أين جاءه هذا الشّعور؟ أَهُوَ جُبْنٌ وتَعلُّقٌ بالحياة بعد هذا الطّريق الشّاق الطّويل؟ هل هذا تَشبُّثٌ بحِبالِ البَقاء بعدَ رؤية العَدُوِّ وقُرْبِ الظّفَر؟ دارتْ جُفونُه مُتسارعةً، فانتبه إلى الرّجل الأبيض يرمقه، فتظاهر بالابتسامِ صارخًا:

- الله! الله!

ثمّ بدأ يُنشِد شِعْرًا فارسيًّا.

لكنّ ذلك الشّعور الغريب لم يفارقه. استيقظ فجأةً على نَفْسٍ غَريبَةٍ بَين جَنبَيه لا يَعرِفُها. شَعُرَ بفتورٍ. *هل أُقدِمُ على ما جئتُ مِن أجلِه؟ هل سَيُبادِرُني الحرّاس بالسّيوف هذا المساء وأُصلب اللّيلةَ على تلك الرّبوة؟!*

وشخَصَتْ في ذِهنه صورةُ أبيه أصفرَ الوجه مَنفوشَ الشّعر يئنّ مَصلوبًا على خشبَةٍ في أصفهان. رأى وجهَ والِدِه الشبيه بوجهه، وجهًا أشيَب ضخمَ الشّدقَين صغيرَ الجبهَة غليظَ التّقاطيع. تذكّر آهاته والدّمُ يسيلُ مِن كاحلَيه المقطوعيْن. وتذكّر وصيّتَه له بأن يبتعدَ عن مُشاغَبَة السّلطان أو القُرْبِ مِنه.

عجّ خيالُه بالدّم السّائل على الخشبة، وبجموعِ الأطفال المتجمهرينَ حولَه يعيّرونه بصلبِ الوزير أباهُ لكُفْرِه وزندَقَته، لكنّ صورَة والدِه كانت حافِزًا أعاد إليه العزمَ والانطلاقَ للأخذ بثأرِه. وفي مساء ذلك اليوم جاء خادِمٌ يركض، ووقف أمام الخَيْمَة:

- فلتتفضَّلوا إلى مائدة الإفطار!

كان عُبَيد آخر الخارجين من الخَيْمَة. فقد تفقّد مخبأَ خِنْجَرِه المدسوس في مرقّعته. وتفقّد العقاقيرَ المسمومة الّتي عليه ابتلاعُها إذا اعتقِلَ حتّى يموتَ قبل الاعتراف بأيّ شيء. استعادَ تلك الطّريقة الّتي تدرّب عليها مئات المرّات: يلفّ يدَه إلى الوراء كأنّه يحكُّ كتفَه، ثمّ يَسْحَبُ ويَضْرِب في لَمْحِ البَصر.

خرَج من الخَيْمَة، فامتلأ سَمْعُه بأصداء الأذان الآتية مِن نواحي المعسكر. وقد التحَفَ الأفق لونًا أحمر قانيًا يُشبه الدّم المسفوح. ومرّت طيورٌ سودٌ تُطلِق أصواتًا متنافرَة.

مشى مُتثاقِلًا خلف الرّجال الأربعة يُردّد الأذكار ويحرّك رأسَه. ودخل المجلسَ المستطيل، فلاحظ كثرةَ العمائم والقلانِس. كانت سُفَرُ الطّعام تُغطّي كلّ أركان المجلس، والخَدَمُ يدورُون بالمغاسِل على الرّجال، و الأحناكُ تتحرّك والأذقان. ثمّ جلَس باحثًا بعينِهِ عَن الوزير. *أين يجلِسُ؟* فالتّوجيهُ الّذي عِنْدَهُ يأمرُه بأن يَجْلِسَ وسطَ الجُموع، ولا يتميّز من ضيوفه ولا من الدّراويش بشيء. يتظاهرُ بالتّشبُّه بهم وبلينِ العريكَة لكلّ مَن يتلبّسُ بِلبوس الدّين.

لَمْ يُلاحِظ وجود الوزير. هل يسأل عنه هذا الرّجل المشغولَ بِقَضْمِ سَمبُوسَةٍ؟ ولكنّ ذلك قد يَلْفِتُ إليه الانتباه. ولاحظ أنّه الوحيد الّذي لا يمضَغ. فمدّ ذراعَه، وقطَعَ نِصْفَ رغيفٍ دسَّهُ في المَرق المليء بالبهارات

والتقمَه. وفي لحظةٍ التفَتَت الأعناق إلى باب الخَيْمَة، فظهر نِظام المُلْك قادمًا. وارتفعَت الأصوات بالدّعاء للوزير، وسكنَت لُقْمَةٌ في حَلق عُبَيد، فاكتفى برفع يدَيه إلى السّماء وتقليبِ عَينَيه مُتظاهرًا بالدّعاء. وقد تناوَشَتْه الأسئلة: *هل أطلب الإذنَ بالدّخول عليه في الخَيْمَة الأخرى؟ أم أنتظرُ إفطارَ غدٍ لعلّي أكون مَعَهُ في خَيْمَةٍ واحدَة؟ أم أقِفُ له الآن في الطّريق صوفيًّا فقيرًا سائلًا؟*

ووقَف عُبَيد، وتقدّم جهة نِظام المُلْك.

35

«كيفَ ترى ربّك وقد نبتَتْ شعرةٌ في عين قلبك»؟!

جلال الدين الرّومي

بغداد، 485 هـ.

سارَ الشّيخُ الأصلع بين دكاكين الورّاقين المتراصّة، وأخذ يملأ عَينَيه بالسُّحَن المختلفة والوجوه والألوان المتشاكسة، ويصغي للغات بغداد المتنافرة. مالَ إلى الحائط كي يفسحَ الطّريق لفتاةٍ أحسَّ بعطرها صاعدًا مع خياشيمه حين اقتربتْ منه، فدسّ إصبعيه في أنفه مستغفرًا.

كان يحمل كوزَه تحت إبطه الأيمن، ويمسك كتابًا اشتراه قبل قليلٍ من ورّاقٍ شحيح. فكّر في هذه الرّائحة الغريبة الّتي ذكّرته بنيسابور. مزيجٌ من العطر والحبر والانكتام يسكن هذه الأزقّة. خرج من درب الورّاقين إلى السّاحة الفاصلة بين الدرب والسّوق الكبيرة، فرأى غلمانًا يصرخون ويدفعون النّاس ليفسحوا الطّريق. واصل سيره، فدفعه غلامٌ صارخًا:

- ابتعد أيّها العجوز!

تداعى الأصلع حتّى كاد يسقط، وظهر فارسٌ في ملابس كبار الجنود الأتراك على فرسٍ أدهم، وبين يدَيه عشرات الغلمان. كانت ملابسُه وفرسُه يَشِيَانِ بأنّه من كبار القادة. تبخترَ فرسُه في السّاحة والنّاس وقوفٌ فاغرين أفواهَهم يتأمّلونه متهامسين: هذا القائد طُغْتِكِين. فقفز الشّيخ الأصلع مادًّا إصبعه إلى القائد:

- لقد سمَّنتَ فرسَكَ وأهزلتَ دينَك!

التفت طغتكين إلى الشّيخ الأصلع مقطِّبًا جبهتَه، وأدار وجهه إلى أحد مرافقيه مستفسرًا عمّا قال. فاقترب منه أحد فرسانه وترجم له كلمات الأصلع. فجَذَب القائدُ لجامَ فرسه:

- مَن أمرك بأن تكلّمني بهذا؟

- ربّي أمرني! من أنت؟ ما أنت إلّا عَذِرةٌ قذرة حالًا، تصير جيفة نَتِنَةً مآلًا!

قفزَ غلامٌ قصيرٌ ضخم الذراعين من فوق بغلته، ومشى وإصبعه على فيه:

- اششششش! اسكت قبل أن ينفصل رأسُك عن منكبَيك!

فضحك الأصلع حتّى مال إلى الوراء، وصفّر وصفّق:

- أتهدّدني بالموت؟ من قال لك إنّي أبحث عن شيءٍ آخر غيره منذ ثمانين سنة؟

سرتْ بين النَّظارة تمتماتٌ. وأحسّ القائد طغتكين بأنّ الأمر قد يتجاوزُ الشّيخ إلى غيره، فمالَ على أحد فرسانه متمتمًا. اقترب الفارس من الشّيخ، وأمسك يدَيه ليضع فيهما قيدًا فصاح:

- كوزي! كوزي!

لكنّ الجنديَّ الضخمَ الذراعَين جذب يدَي الشيخ، ووضعَ فيهما القيد، فسقط الكوز والكتابُ على الأرض.

- كوزي وكتابي!

انبعثت من بين النظارة امرأةٌ حتّى انكشف رأسُها، وأخذت الكوز والكتاب، واندفعت بهما جهة الشّيخ. لكنّ الجنديّ كان قد وضعه على البَغلَةِ، وانطلق به، فاختفى بين الزحام ويداه ممدودتان تطلبان الكوز والكتاب.

وشعر الأصلع بسرورٍ تشوبُه مرارة. فقد أسعده ما لقيه من إيذاءٍ في سبيل إسماع سلطانٍ جائرٍ كلمةَ حقّ. كان جذِلًا وهو يعدّ كلَّ حركةٍ الآن في ميزان حسناته: صرخات الجنود، والقيد المطبق، وإساءات الجنود. لكنّ فقدانَ كوزِه شوّش خاطرَه. كيف فارقه هكذا؟

واستعاد آلاف مرّاتٍ توضأ فيها منه، ولياليَ طويلةً صَحِبَه فيها قائمًا متعبّدًا، وأيّامًا حارّةً رافقه فيها وهو صائم. وتذكّر عشرات الصالحين الذين شربوا منه متحرّيًا بركاتِهم. وشخصتْ في ذهنه صورةٌ هزّتْه، صورةُ امرأةٍ طُرِدت من بيت أهلها بعدما رأوها تُصادق رجلًا. فكان يتعهّدها ويأتيها بكوزه مملوءًا حليبًا كلَّ ليلة. وتذكّر تلك القطّة المشرّدة الّتي كانت تأوي إلى خربةٍ وكيف كان يأتيها بالأكل والشّراب في ذاك الكوز ويصبّه لها صبًّا لتشرب. *كيف يفارقني هكذا؟*

وبعد ساعاتٍ وجد الأصلعُ نفسه داخل سجن «المُطبِق» في طرف بغداد. دفَعَهُ حارسٌ إلى حجرةٍ مظلمةٍ حتّى سقط. كان مستلقيًا على قفاه والقيدُ في رجله ووجوهٌ شائهة تفترسه من أطراف المكان. فجلس دفعةً واحدةً، وتلفّت:

- لا إله إلا الله!

اقترب منه رجلٌ طويلٌ نحيف:

- ما الّذي جاء بك أيّها الشّيخ؟

فأجابه ضاحكًا:

- جئت للتنزّه يا بنيّ!

شعر الرّجل النحيف الطّويل بسُخف سؤاله، فتراجع إلى مرقده صامتًا. وأدار الأصلعُ رأسَه في جنبات الحجرة الواسعة فبدأت قسمات الوجوه تتّضح قليلًا. كانت الحجرة دائريّةً غير مفروشة. فيها نحو عشرة

رجالٍ تلوح وجوههم تحت الضّوء المتأرجح الخافت في الزاوية. لمح الشّيخ سلاسل مدلّاةً من السّقف. *هل يعلّقون فيها النّاس؟*

شرد فكرُه وهو يتذكّر النقاش الفقهيّ الطّويل في شروط السجن والسجّان، وكيف ناقشَ علماء المسلمين شرعيّة السجن ابتداءً. فإذا كان الإنسان يُسجَن عقابًا له فكيف يُسجن دون تأذِّي أحبّته وأهله وهو أمرٌ غير شرعيّ لقول الله تعالى: «ولا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى».

ثمّ انشغل ذهنُه في حيلةٍ لإخراج هؤلاء المساكين من هذا المكان. وأدار بصره في الحجرة، فجاءه صوتُ الرّجل النّحيل الطّويل مرّةً ثانية:

- ما الّذي قادك إلى هذا المكان، أيّها الشّيخ؟

- أتت بي أقدار الله يا بنيّ!

أحسّ الرّجل بغصّةٍ وهو يتذكّر يومَ كان يحسن لأمثال هذا الشّيخ قبل أشهر، حين كان من أشهَر تجّار بغداد. وها هو الآن سجينٌ يبتلع أجوبة الشّيخ على مضض، لكنّه واصل أسئلته مُصرًّا على مفاتحته لمعرفة آخر أخبار بغداد لعلّ فيها انفراجًا:

- دعني أفكّ عنك القيد أيّها الشّيخ، ولا عليك من أسئلتي.

مدّ الأصلع يدَيه المشدودتين:

- فكّ الله عنك كُرَبَ الدّنيا.

فكّ التّاجرُ البغداديّ القيدَ عن الأصلع، فتنفّس ناظرًا إلى مكان القيد في يديه، فرِحًا باستطاعته الآن الوضوء دون عناء.

وعاد التّاجر إلى زاويته، بينما انزوى الأصلعُ في ركن الحجرة المعتم مُتأمّلًا حالَه وحالَ هذا المكان الذي ما خطر له أنْ يدخله يومًا. نظر في أطراف الحجرة، فرأى الأجساد الشّائهة، وشمَّ الرّوائحَ الكريهةَ فتساءل: كيف يعيشون هنا أيّامَ الحرّ؟

وتذكّر صورةَ القائد التركيّ الذي رماه هنا. *هل أدعو عليه؟ نعم. أتضرّع بين يدي الله هنا في هذه الأقبية حتّى يُنزله من عليائه وكبريائه. كيف أدعو عليه؟ ما هذا؟ إذا دعوتُ عليه يكون ذلك انتصارًا للنفس لا لله. فأنا إذا كنتُ آذيتُه فانتصرَ لنفسه ثمّ آذاني فانتصرت لنفسي فما الفرق بيني وبينه؟*

استولت عليه الندامة لتفكيره في الدّعاء على القائد، فبدأ يدعو له في سره:

- اللهمّ اهدِه وعافِه! اللهمّ بعد هدايتك إيّاه كثّرْ أموالَه وأرزاقه، ومتّعه بالصحة والعافية!

واعتدل في جلسته مؤنّبًا نفسَه: *كيف أفسدتُ الاحتساب بتلك الخواطر؟*

تربّع في الزاوية مستغفرًا، وأخذ يتأمّل السّقف الواطئ، ويجاهد نفسَه لئلّا يصرخَ ضيقًا بالرّوائح الكريهة. ففاجأته عودة الحديث بين المساجين. إذْ اندفع شابٌّ قريبٌ منه مواصلًا قصّةً كان يحكيها:

- وبغداد الآن ترتجف انتظارًا لما قد يُقدِم عليه السّلطانُ ملكشاه. الأمر ما حدّثتكم به، أمّا غيره فأحاديثُ سُمّار.

وضمّ التّاجر البغداديّ قدمَيْه، واعتدلَ في جلسته، وقال متأوِّهًا:

- أحسنت يا حسين. لكنَّ ما لا يعرفه النّاس هو سبب غضب السّلطان على الخليفة. وتحرّكت يد في العتمة وسط الحجرة وجاء صوتٌ خشن:

- حدِّثنا! فأنت أحدثُنا عهدًا ببغداد... عدا ذلك الشّيخَ المنقبض!

ارتفعت همهمات، قطَعها صوتُ التّاجر:

- تعلمون جميعكم أنّ الخليفة تزوّجَ ابنةَ ملكشاه تقرُّبًا إلى السّلاجقة. لكنّكم لا تعلمون أنّ ابنة السّلطان رجعت إلى أبيها مغضبةً كارهةً للخليفة.

سَرَتْ في أطراف الزنزانة غمغمات، ثمّ واصل التّاجر:

- نعم، عادت إلى أبيها غاضبةً شاكيةً من إهمال الخليفة لها. فهو ينسَاهَا بين جواريه وزوجاته ولا يعبأ بها وهي بنت ملكشاه! وهذا من أسباب غضب السّلطان على الخليفة. ولعلّ هذا الشّيخ الداخل توًّا حديثُ عهدٍ بأخبار بغداد.

تململ الشّيخ الأصلع:

- أبشرُوا. سأقصّ عليكم القصّة بفصّها ونصّها. فأنا مولعٌ بأخبار مصارع الظالمين وخلافاتهم لدلالتها على قدرة الله وعلى تغيّر الأيّام، وضربِ الظالمين بعضهم ببعض.

ومسحَ صلعتَه المتعرّقةَ استعدادًا للكلام، فلاحظ توقَ الأنفسِ السجينة إلى حديثه، والأعينَ المُصوَّبَةَ جهتَه في عتمة الزنزانة. فانطلق يحكي آخرَ ما سمعه من قصصٍ في بغداد عن الصراع الوشيك بين الخليفة والسّلطان.

36

قصر الخلافة، بغداد، 485 هـ.

انتابه ضيقٌ من الانتظار والصّمت. فالحجرة واسعةٌ خاليةٌ إلّا من رجلٍ طويلٍ ذي عمامةٍ ضخمةٍ منتصبٍ قربَ الباب الخشبيّ ذي المصراعيْن. راقبه الغزاليّ، فلاحظ أنّ عَينَيه لا تتحرّكان وجسمَه ساكنٌ كتمثالِ شمع. تلفّت باحثًا عن كتابٍ يتلهّى به، فلم يرَ إلّا المَساند الأنيقةَ والنمارق اللّامعة، والثريّات المدلّاة من السّقف العالي. أدار عَينَيه في السقوف مُتذكّرًا زيارتَه الأخيرة للخليفة قبل شهرٍ حين قابله في مجلسٍ عامٍّ مليءٍ بالرسوم. لكنّه اليومَ يتوقّع مقابلتَه مقابلةً خاصّةً خاليةً من تلك الرسميّات.

انفتحَ الباب، وصرخ الرّجلُ الطّويل الأبيض ذو العمامة:

- خليفة المسلمين! أمير المؤمنين! سليل دوحة النبوّة سيّدي المقتدي بأمر الله!

وقف الغزاليّ حانيًا رأسَه، فدخل المقتدي بأمر الله يمشي كأنّه يتدحرج، وعليه رداءٌ موشّى بِكُمّين مذهّبَين، ثمّ مدّ يده فقبّلها الغزاليّ.

- أهلًا، سيّدي!

- أهلًا، دانشمند!

جلس الخليفة في صدر المجلس على مرتبةٍ عاليةٍ خضراء محفوفةٍ بطنافس مُهدَّبة، وأشارَ إلى الغزاليّ بالجلوس على كرسيٍّ منصوبٍ عن يمينه. وكان أوّل ما لاحظه الخليفةُ أناقة ملابس الغزاليّ، مقارنةً بلقائهما الأوّل، فقال باسمًا:

- أراكَ تبغْدَدْتَ، يا أبا حامد!

- بكُم، ولَكُم، يا أمير المؤمنين!

وانفتح الباب، فدخل خَصِيّان طويلان أبيضان كأنّهما توأم. وضعَا صينيّتَين وأوانيَ، وتقهقرَا حتّى تواريَا. فرفع الغزاليّ عَينَيه مُتأمّلًا المقتدي أوّلَ مرّة. إذ كان رآه من قبل في المجلس العامّ، أمّا الآن فها هو بين يدَيه على قرب مسافة شبرٍ منه، ومن دون التاج.

تأمّلَ وجهَه الطّويل الجميل، وعَينَيه الخضراوَين وشعرَه الأصهب وأسنانه الحادّة المتراصّة. وقطع عليه الخليفة تأمّلاته:

- كيف حال المدرسة؟ وما أوضاع طلّابها وعلمائها؟

- بخير ما دامت في كنفكم!

انطلق الغزاليّ يصفُ أحوال النّظاميّة بنصفِ ذهنه، ونصفُه الآخر مصروفٌ إلى تأمّل الخليفة. *هذا من ذرّيّة عبد الله بن عبّاس! كم خليفةً جاء قبله؟ وكم آخرَ سيأتي بعده؟* استعرض الأسماء في ذهنه، فوجده الخليفة الثامن والعشرين من العباسيّين.

انشغل ذهنه بالمقارنة بين قوّة الخليفة وقوّة ملكشاه ونِظام المُلْك. *كيف أصبح هذا العبّاسيّ طفلًا بيدِ ذلك التركيّ الآتي من البادية أمس؟ كيف تزوّج ابنةَ السّلطان تزلُّفًا، وكيف أقام لها العامَ الماضي وليمةً لم تشهد بغداد مثلها منذ قرنَين!*

أفاقَ على الخليفة يحثُّه ليتناول بعضَ الأشربة المنصوبة فوق الطّاولة قربه، فأنهى حديثَه عن النّظاميّة وما قامت به في سبيل إعادة السنّة وإماتة البدعة، وسكت. عندئذٍ رفع الخليفة يده ملامسًا طرف لحيته كأنّه يفكّر في أمرٍ لا يريد البَوْحَ به. رمقه الغزاليّ بطرف عَينه، فرآه يرفع يدَه ويضعها على ركبته، ثمّ جاءه صوتُه:

- كيف صلتك بنِظام المُلْك وثقته بك؟

- صلتي به كما يريد أمير المؤمنين!

وفكّر سريعًا في عشرات الاحتمالات محاولًا فهمَ ما يريده الخليفة. *ماذا يريد؟ هل غضب من صلتي به؟ هل بلغه أمر؟*

لكنّ الخليفةَ لم يمهله:

- أنت أيّها الشّيخ ترى ما آلت إليه أمورُ الخلافة. وهو أمرٌ لا يحبّه عاقلٌ من أهل الملّة، فكيف بأمناء الله على أمّته من العلماء.

- نعم!

- وقد تناهى إلى أسماعنا أنّ الوزير آتٍ رفقةَ السّلطان إلى بغداد. ونحن نرى أن تُحدّث الوزيرَ وتُخوِّفه من أيّ شيءٍ يمسّ هيبةَ الحضرة ويضرّ بالخلافة.

فهم الغزاليّ مرمَى كلام الخليفة. *يريدني أن أطلب من نِظام المُلْك ثَنْيَ ملكشاه عن التّفكير في طرده من بغداد.*

كان الغزاليّ واثقًا من أنّ هذا رأيُ الوزير أيضًا. فقد كان نِظام المُلْك يؤمن ببركة الخليفة. فاعتدلَ في جلسته خافضًا صوته:

- نحن خدمُ أمير المؤمنين! والشّيخ الوزير أكثر من عرفت حرصًا على خدمة الخلافة ومصلحة الأمّة. وأنا سأحدّثه بأمر جنابكم حالَ وصوله بغداد هذه الأيّام.

وسكتَ مُتأمّلًا جوانب القصر الفخم. وتخيّل حالَ الخليفة لو أخرجه ملكشاه من هنا ونفاه إلى خارج بغداد. *كيف سيكون؟ ما شعور مَن يُطرَد من هذه القصور الّتي وُلد بها وتربّى فيها أجدادُه قبله؟ هل ثمّة أثقلُ على النفس من فقد النعمة بعد الانغماس فيها طويلًا؟*

أفاقَ على صوت المقتدي بأمر الله:

- لقد أمرْنَا لكم بهدايا، ونرجو ألّا يخلوَ مجلسُنا منكم!

- جزى الله أميرَ المؤمنين خيرًا وأطال عمره في الخير ومتّعه بما أعطاه.

وانفتح الباب ذو المصراعين، فدخل كاتب الخليفة مؤذنًا بنهاية اللقاء.

37

«نظامُ الملكِ بهرَ العقولَ جودًا وكرمًا وعدلًا، وإحياءً لمعالم الدين... وماتَ ملكًا في الدنيا، ملكًا في الآخرة»

ابن عقيل

ضواحي نهاوند، رمضان، 485.

ارتخت الأيدي، وتثاقلت الأشداقُ بعدما امتلأت البطون. فوقف شيخٌ أحمر أحدب رافعًا يدَيه وفي صوته حشرجة:

- الآن تُرفَع السّفرة للصلاة! والوزير -أيّده الله- سيؤمّ المصلّين!

وقف عُبَيد يبحثُ عن صابونٍ وماء. رأى غلامًا غير بعيدٍ يحمل مغسَلًا ضخمًا فصاح به:

- تعال! فالصّلاة تكاد تُقَام!

اقترب الغلام، وانحنى على عبيد، فمدّ إليه يدَيه، وانحسرَت مرقّعته عن ذراعٍ شَعِرةٍ قويّة. فركهما بالصابون مُفكّرًا *هل يهاجم الوزيرَ أثناء الصّلاة على غرّة؟ أم إنّ تقدّمه للصفوف سيثير انتباهَ الحرس.* نفضَ يدَيه واقفًا، فقال الغلام:

- سيّدي، بقيّة صابونٍ على ظهر يدك اليسرى!

عاد عُبَيد مُحرَجًا، وتمنّى ألّا يكون الغلامُ لاحظ توتّره. ففرك يدَيه بتُؤدةٍ ليُريَه عدم الاكتراث أو التعجّل. ورمى إليه غلامٌ آخرُ منديلًا. وسرعان ما تقاطر المصلّون على الخيمة الموالية حيث مجلس الوزير.

وانطلق صوت المسمِّعِ يُسمع صلاةَ نظام المُلك.

كان الوزير يقرأ قراءةً نديّةً بمقاماتِ أهل خراسان. يمطّط نهايات آي الفاتحة كأنّه يغنّي. ومشى عُبَيد حتّى وقف في طرف الصفّ الموالي للخيمة الّتي يصل منها صوت الوزير، ودخل في الصلاة.

كان ذهنه مشتّتًا. *هل أنتزعُ الخنجرَ وأشقُّ طرفَ الخيمة وأهاجمه؟ أم أنتظره حتّى يفرغ من الصّلاة وأترصّد عودته إلى خيمته؟ أخشى أن يمرّ دون أن أراه.* واستمرّت الصّلاة. فكان يتحرّك مع النّاس لكنّ ذهنَه غاصٌّ بالأسئلة والاحتمالات. *من سيوصل الخبر إلى الشّيخ؟ كيف سيعرف؟ ماذا سيقول إذا بلَغَه أنّ أبا طالب الأوراتي كفاه الشّيظم؟ هل سأنجو لأقابل الشّيخ بعد هذه الفعلة؟ هل سأنجو حتّى أعود إلى أخواتي وأخبرهنّ أنّي أنفذتُ في قلب نِظام المُلْك خنجرًا حتّى ترقأ دموعُهنّ؟ أم سأُقْتَل حالًا؟*

ثمّ تجاوز خيالُه لحظةَ ما بعد الموت.

ماذا سيقع لي لحظة قتلي؟ وإذا قُتلتُ هل سأدخل الجنانَ لأجد الأئمّة المعصومين صفوفًا في انتظاري؟ هل سآكل إفطاري مع الحسين وزين العابدين وآل محمّد؟ وهل سأتعشّى مع أهل الطف؟

امتلأ ذهنه بالدماء والدّموع! وشخصت كربلاء حيّةً نابضةً في خياله! مئات الخيول الجامحة تثير النقعَ دائرةً حول خيمةٍ منفردةٍ في الصحراء فيها ابنُ بنت رسول الله!

الحسين! يخرج بابتسامته العذبة رافعًا ابنَه بين يدَيه! والسهام الغادرة تنوشه يمنةً ويسرة... وإحدى بنات رسول الله تخرج متلفّعةً بمِرطها تريد شربةً لأبيها فيصفعها جنديٌّ ويعطي الماءَ للفرس!

واستيقظ على صوت الوزير والمسمِع:

- السّلام عليكم ورحمة الله.

وقف شاعِرًا بخدرٍ في ساقيه! *هل هي روح الشّهداء تلبّسته؟* تذكّر رداءَ الشّيخ الصبّاح، ورأسَ الحسين مطلًّا من النّافذة.. وصورةَ أبيه مصلوبًا وكاحلاه يسيلان. وفجأةً سمعَ النّاسَ يحيّون الوزيرَ ويدعون له بالدوام وامتدادِ العمر. ثمّ ظهر أمامَه.

ها هو الوزير نِظام المُلْك الحسن بن عليّ بن إسحاق الطوسيّ! ها هو يمشي على بعد عشرينَ شبرًا عائدًا في مِحَفَّتِه إلى خيمةِ حُرُمه.

نظر إليه والحرّاسُ يحيطون به يمنعون النّاس الاقتراب. ها هو الرّجل الّذي قتلَ أبي، وشرّد طائفتي، وغيّرَ وجه خُراسان، ومكّن فيها للشافعيّة والأشعريّة المتعصّبة!

ها هو الشّيظم الشّيطان!

أمسك أطراف جبّته، ومشى مقتربًا منه:

- سيّدي! مَن للمساكين غيرك؟ من للمُعْتَفين غيرك..

ثمّ اقترب متعارِجًا. فتلقّاه غلامٌ ليبعده، لكنّ الوزير أشارَ بتركه. رفعَ نِظام المُلْك يدَه ليُعطيه مالًا، فأرجع عُبَيد يدَه في لمح البصر إلى ظهره، واستلّ الخنجر، وطعنَ الوزير في صدره، ثمّ سلّه وطعنَه به فوق سرّته. شخصتْ عينَا الوزير وهو يلمح خيالَ عُبيد. رأسٌ ضخمٌ وجبهةٌ غمّاء وشدقان مكتنزان وملابس صوفيٍّ فقير. لمحَه وهو يمدّ يدَه متداعيًا للسقوط. ثمّ ارتطمَ بالأرض. سقط نِظام المُلْك قتيلًا وسط مخيّمه، ووقفَ عُبَيد وخنجرُه يرشَح دمًا!

علَا صراخ الحرس، وقفز عُبَيد شاهرًا خنجره، لكنّ طُنُبًا من أطناب الخيمة أمسكَه فسقط. ولحقَه حارسان. سقطت عمامة نِظام المُلْك حتّى ظهرت قلنسوتُه. وعلَتْ صرخةُ عُبَيد على كلّ صوتٍ، بعد أن طعَنه أحدُ الحرّاس بالسيف.

تجمّع الرّجال، وعلَا الصّراخ:

- لقد ضُرب الوزير!

وظهر كاتبٌ يصرخ:

- ماتَ العدل! ماتَ حبّ العلم والعلماء! ثُلِم الإسلام! ثُلِم الإسلام!

وارتفعَ النّحيبُ في خيمة الحُرُم، وخرجت فتاةٌ ناشرةً شعرَها تركض جهةَ الجثّة، وارتمت على صدر الوزير صارخة:

- جدّي! جدّي!

ثمّ رُفع الوزير على أعناق الغلمان. كانت عيناه شاخصتَين وفمُه مفتوحًا وذراعُه تهتزّ.

وصرخَ صارخ:

- أيّها القادة! توجّهوا إلى المجلس!

وغصّ المجلس بقادة الجيش وصنائع الوزير. وتقدّم أكبرُ القادة وهو يغالب الدّموع:

- لقد ثُلِم الإسلام اليوم وثُلِّمْتُم أنتم! فهذا الوزير..

فقاطعه رجلٌ قويُّ البنية حادُّ النظرات يجلس على كرسيٍّ ذي قوائمَ قصيرة:

- علينا قبل كلّ شيء إخبار السّلطان بالأمر.

أشار القائد إلى أحد مساعديه. وبعد لحظاتٍ انطلق فارسٌ في اتّجاه معسكر السّلطان.

وعادَ القائد إلى حديثه:

- لقد قُتِل القاتل دون معرفة مَن أمَر بالقتل. فمن يقتل الوزيرَ لا يكون إلّا عدوًّا لله وللمسلمين!

والتَفَتَ قائدٌ في طرف المجلس إلى آخر وترامقَا. فالجميع هنا يعرفون

النزاعَ بين الوزير والسّلطان، وفرضيّةُ وقوف السّلطان وراء القتل واردة.

وتنحنح القائد:

- وأنا لا أشكّ في أنّ السّلطانَ حفظه الله وأبقاهُ سيكشف المخبوءَ ويعاقِب الجُناة!

ثمّ انفضّ الاجتماع. لم ينَم المعسكر ليلتَها. حتّى الخدم في خيمهم المليئة برائحة الطّعام والدخان لم يناموا. تحدّثوا طويلًا عن الصراع بين الوزير والسّلطان، وعن الباطنيّة وكثرة أعداء الوزير، وعن عدله ورقّته ولطفه وعطفه على الفقراء والصوفية.

وطلعت أوّلُ شمسٍ على خراسان دون وجود الوزير نِظام المُلْك، دون أنفاس خواجه بزركْ منذ ثلاثين سنة!

ومع الإشراق جاءَ السّلطان في موكبه.

كان يتقدّم نحو ثلاثمائة راكب، واجمًا وتاجُه على هامته. مشى صامتًا إلى خيمة حرم الوزير. ألقى بصرَه على الجثّة الهامدة. وجلس عند رأس الوزير. عينان مغمضتان، فمٌ مفتوحٌ قليلًا، شعرٌ منفوش، خدّان قويّان محفوران، وجسدٌ باردٌ لا حراك به.

أين ذلك الصّوت وتلك الصولة وذلك الصّراخ وتلك الحكمة والحنكة؟

نظر إلى يدَيه القويّتَين الشّائختَيْن! ولأوّل مرّةٍ منذ عامٍ شعر برقّةٍ تجاهه. *يدان خَدَمَتاني وخدمتَا أبي!* وتلبّسه ندم على ما فَرَط منه.

كيف آذيتُه وضيّقت عليه وهو في سنّه هذه؟ أمَا كان عليَّ أن أصبر عليه قليلًا وهو في شيبته. رفع يدَه، ووضعها على رأسه، ثمّ انحنى، وقبّل جبهته.

تذكّر مواقفَ كثيرةً أنقذه فيها بعقله الراجح ونظره الثاقب وحِنْكَتِهِ في إدارة الرّجال.

أيّ رجل فقدت الدّولة؟

ثمّ تذكّر تسلُّطَ أولاده ومواقفَه معه. بل تذكّر رسالتَه له يومَ قال إنّه شريك في الحكم. فوقف مبتعدًا عن الجثمان، ومشى إلى المجلس. سارَ صامتًا لا يسمع غير النشيج وحمحمةَ الخيول في أطراف المعسكر. شعر بجبلٍ أزيح عن كاهله. وأحسّ أوّل مرّةٍ بأنْ لا حاجز بينه وبين السّماء، وأنّه يستطيع التصرّف دون الرجوع إلى أحد. غدًا ليس بينه وبين الأمر والنهي وسيط. لقد أصبح ملكًا حقًّا.. سلطانًا تامًّا، ملكَ ملوك العالم. هذه أوّل ليلةٍ يصبح فيها شاه شاهان!

رفعَ هامتَه، ودخل المجلس. وردّدَ بصره مُتأمّلًا القادةَ الواجمين:

- لقد أمرْنَا بالحداد وقتلِ كلّ مَن تثبت علاقتُه بالجريمة. سأدعو «صاحب الخبر» ليعرفَ مَن أمرَ ذلك القاتلَ بتلك الفعلة الشّنعاء.

وسكت قليلًا وهو ينظر إلى يدَيْه، ثمّ رفع وجهَه:

- هيّا! عودوا إلى أعمالكم ونحن باقون على ما كان عليه الوزير، وسنواصل السّير إلى بغداد.

ثمّ خرجَ من الخيمة مظهرًا الحزنَ والتضجّر، لكنّ جوانحَه كانت ندِيّةً بشعورٍ غريبٍ لم يجرّبه من قبل. أحسّ بأنّ صدره يتّسع لأنسام الهواء كلّها، وكتفَيْه تُماشِيَان السحاب. إنّه طعم العظمة الخالية من المنافسة.

تخيّل نفسَه بعد أسبوعٍ يدخل قصرَ الخليفة العبّاسيّ في بغداد، والخليفةُ يخرج مُنكَّسَ الرّأس من أحد أبوابه الأخرى حاملًا أمتعته. *ماذا لو رأى سلجوقُ هذا اليوم؟ ماذا لو رآه والدي ألب أرسلان؟ لو رأياه لَعَلِما أنّهما ما تَرَكَا الأمرَ لنِكْسٍ ولا دنيء... بل تركاه لملك الملوك.. ملكشاه.*

38

بغداد، 485 هـ.

ركضَ مؤذّنُ النّظاميّة صارخًا في أطراف المدرسة:

- الصّلاة جامعة! الصّلاة جامعة!

اشرأبّت الأعناق من الحجرات، ورمَى الطبّاخون العجينَ من أيديهم، واندفع طلّابٌ يلوون عمائمَهم استعدادًا للصّلاة. فضاقت بهم مخارجُ الحجرات. كان الغزاليّ وأربعةُ أساتذةٍ من أوائل الداخلين إلى المسجد. تقاربت الجماجم، وغصَّ المكانُ بالعيون المتطلّعة، وفاحتْ رائحةُ عَرَقٍ مَشُوبَةٌ بفوائح العطر والحبر والورق. ثمّ ظهر قَيِّم المدرسة النّظاميّة آتيًا من باب المسجد والصفوفُ تنفرج عنه حتّى وقف على المنبر، وفتح ورقة، ثمّ شرَع يقرأ:

«لقد شاء الله القادرُ أن تمتدّ يدٌ غادرةٌ إلى رَضِيِّ الخليفةِ، وتاج الحضرتَين، سيّدِنا نِظام المُلْك، خواجة بُزُرُكْ، رحمه الله. فقد قتله باطنيٌّ يوم العاشر من رمضان وهو في الطّريق من أصفهان إلى بغداد. فادعُوا له وتصدّقُوا عنه. وقد أمرَ مولانَا السّلطانُ ملكشاه تاجَ الملك بتولّي الوزارة بعدَه، ولله الأمر من قبلُ ومن بعد»!

ضجّ المسجد بالدّعاء والأسئلة والهمس. كيف يُقتل نِظام المُلْك؟ ومن يجرؤ على قتله؟ وغمغمَ رجالٌ بضلوع السّلطان في الأمر. وسُمع وسط الضّوضاء صوت:

- هل سترضى الجنود النّظاميّة بالأمر؟

وبحثت عيونٌ من أطراف المسجد عن صاحب الصّوت، وارتفعت أيدٍ، ثمّ عادت حائرةً إلى أمكنتها.

أنصتَ الغزاليّ لنبض صُدْغَيْه. *لقد قُتل نِظام المُلْك؟* أحسّ ببرودةٍ في قدَمَيْه وهو يلفّ جبّتَه ليقف. *كيف يُقتَل نِظام المُلْك؟ هل فعلَها السّلطان؟ كيف تُسوّل له نفسُه قتلَ أعظم وزيرٍ عرفه الإسلام؟ وما مصيرُ الأمر مِن بعده؟ هل يظنّ أنّ اثني عشر ألف فارسٍ من أتباع الوزير سيهدؤون ويرضون؟ وكيف يقوى على إخراج الخليفة من بغداد غدًا إذا تغيّرت عليه قلوب الجنود النّظاميّة؟*

خرج ماشيًا في ساحة المدرسة وجمجمتُه تغلي أسئلةً وحيرةً. ولمح مئات العمائم العائدة إلى الحجرات وغرفِ الدرس، والحمامَ الحائمَ فوق الرّؤوس، والنّافورةَ تنفث ماءً خُيّلَ إليه أنّه دم فوّار. فكّر في مصير هذه المدرسة الّتي يدرس فيها ستّةُ آلافِ طالب، وتُنفَقُ عليها خمسة عشر ألف دينارٍ كلَّ عام. *هل سيستمرّ هذا أم سيعمدُ جنديٌّ تركيٌّ أحمقُ إلى إيقافه؟ كيف تُغلق المدرسةُ والوزير رحمه الله أوقف أوقافًا فيها أسواقٌ ودكاكين وحمّاماتٌ لضمان استمرارها؟*

تجاوز النّافورة، وخرج إلى الشّارع الضاجّ بالحياة العاديّة كأنّ موت نِظام المُلْك لا يعني أحدًا فيه. كأنّ سقوطَ أكبر وزيرٍ في بلاد الإسلام لا يستدعي حدادًا، ولا يُثني عنانَ الحياة الراكضةِ اللّاهثة. فذاك خبّازٌ يمشي وخبزُه على رأسه، وهذا مُكَارٍ يبحث عمّن يحمله، وتلك امرأةٌ تدخل على عطّار لتتجمّل لحبيب. ستغرُبُ الشّمسُ اليومَ حمراءَ قانيةً دون تأخّر، وستشرق غدًا وكأنّ نِظام المُلْك ما كان ولا كانت أيّامه! وحمَلتْه رجلاه سريعًا إلى داره. فعاد بصدرٍ ضيّق ونفَسٍ متسارع وخيالٍ كليل.

دخل من الباب الخشبيّ الأحمر إلى دارِه الواسعة فتلقّتْه خَلُوب، ونزعتْ جبّتَه وعمامتَه وطَيْلَسانَه.

مشى مع الدّهليز متجاوزًا المجلسَ عن يمينه، والرّياحُ تُحرِّك السّتائرَ المسدولةَ على الغرف الستّ. ثمّ خرج إلى فناء المنزل حيث الحديقة الصّغيرة المربّعة. فرمَى جسده على الكرسيّ، ورفع يدَه، وعرك بها جبهتَه وأرنبةَ أنفه. ثمّ أنزلَها حتّى استقرّت على ركبته. ولمحَ خيال خَلُوب وراءه.

- سيّدي، هل تأمرُ بشيءٍ؟!

مكّن ظهرَه من مسند الكرسيّ:

- دعيني أخلُ بنفسي قليلًا، وإذا أذّن المغرب فأخبريني!

وابتعدت مخلّفةً ريًّا عطرٍ فوّاح.

أسندَ رأسَه إلى الجدار. *لمَ هذا التضايق؟ أليس نِظام المُلْك رجلًا كغَيْره من الرّجال تخْترمُه المنون ويطويه الزّمان؟ فيمَ هذا الحزن وهذا التضايق؟ كأنّك يتيمٌ تركَه أبواه؟ ألم تتحمّل اليُتمَ وأنت طفلٌ غضُّ الإهاب؟ فكيف يضرّكَ وأنتَ رجلٌ تملأ الدّنيا صيتًا ومكانة، وتحاصرك نِعَمُ الله.*

فكّر في النعم المحيطة به: نجمٍ لامعٍ في سماء العلم، ومكانةٍ في قلوب الأمراء والطلّاب، وبيتٍ لا ينقصُه شيء. غير أنّه شعر بغيابِ رضا القلب. وأخذ يحاولُ إقناعَ نفسه بسعادته، لكنّ شيئًا مّا في قلبه لا يتقبّل أنّه سعيد. *كيف جاءت التعاسة والتضايق مع تكاثر المال والجاه؟ هل كنتُ سعيدًا وأنا طالبٌ كادح؟ كلّا. لم أكن كذلك، لكنّني انشغلتُ بالسعي إلى تحقيق الأمانيّ فلم يجد قلبي وقتًا لوزن مقادير السّعادة، فلمّا تحقّقت الأمانيّ تفرّغ القلب لوزن السّعادة وتحرّيها.*

ملأ سمعَه صراخُ غلمان الجيران استعدادًا للإفطار، ولمحَ اسوداد اللّيل يزحف على عاصمة الخلافة فانقبض. لقد حَنّ إلى نَيسابور والطابران... وحنّ إلى أبوَيْه.

لمَ تشجيه اللّيالي دَومًا؟ لمَ يشوّقه اللّيلُ إلى أمورٍ لا يعرفها؟ لمَ يتلفّت قلبُه

إلى ماضٍ تَعِسٍ معرضًا عن حاضرٍ بهيج؟ ألا يستطيع حاضرٌ ناضرٌ ريّانُ منافسةَ ماضٍ موحشٍ متصرّم ظمآن؟ أيُّ ألاعيب تتقنها الذاكرة البشريّة؟

نظرَ إلى نور الشّمس المتواريةِ على استحياءٍ خلفَ قصور بغداد. فلمح رؤوسَ الأشجار المشرئبّةَ من حيطان الجيران، وتخيّلها وُجُوهًا شائهةً فضوليّةً تفتّش خبايا روحه. *لماذا يملؤه اللّيل شَجَنًا؟ كأنّ النهار يشغل الإنسانَ بالسعي والكدح، حتّى إذا فرغ من أعماله وجنَّه اللّيل تناوشتْه الهمومُ وفرغَ قلبه للأسئلة المؤجَّلة. ألذلك يملأ اللّيل جوانحَه بشوقٍ إلى مرابع لا يعرفها، وإلى رفقةٍ مجهولةٍ لم يَرَها وإلى مساكن مُشتهاةٍ بعيدة، وحكاياتٍ لم تدُر له بخَلَد؟ أَهُو التعلّق برؤية أبيه الّذي اختطفتْه المنون وهو يحلم بأن يصير أحدُ أبنائه عالمًا؟ أَهُو شوقُ الإنسان إلى جنانٍ خرجَ منها جدّه آدم؟ لكنّ الشّوق خاصّيّةٌ بشريّةٌ متأصّلة حتّى دون وجود مهيّج منطقيّ. حتّى الأعرابيّ الجاهل كان يذوب شوقًا إلى صحرائه إذا سكن غيرَها ولو كان أجمل منها.. ألا يعني هذا أنّ امتلاء الروح ورضاها لا يكونان أبدًا بموجودٍ مادّيّ؟*

وما لبث أن تناوشتْه أسئلةٌ أخرى عن مصير النّظاميّة والصراع بين السّلطان والخليفة ووضع المدرسة ومدرّسيها وطلّابها بعد وفاة مؤسّسها وحاميها منذ تأسيسها عام 457 هـ.

تسلّل الأذانُ إلى أذنَيه آتيًا من جهاتٍ مختلفة، فوقف متنفّسًا. ومشى مع الدّهليز قاصدًا الباب الخارجيّ فابتَدَرَتْه خلوب:

- ألا تفطر سيّدي؟

- أذهب إلى المسجد أوّلًا.

وضعَ رجلَه خارجَ البيت، فلاحظَ الصّمتَ المطبق. فالزّمان رمضان وأهلُ بغداد كلّهم متحلّقون حولَ موائد الإفطار، والشّوارعُ تكاد تخلُو من

أيّ رِجلٍ ماشية. كان يسمع وقعَ قدمَيه على الشّارع المبلّط وهو يقترب من المسجد. *لا حقيقة لهذه الدّنيا ولا ثباتَ فيها لسلطان. ولن يعصمَني إلّا الانشغال بالتّأليف والابتعاد عن السّلاطين.* لكنّ نفسه انقبضت لذلك السّؤال الّذي يخالجُه منذ فترة: *ماذا سأكتب؟ وكيف أنجز أمرًا لم يُنجَز قبلُ؟ وفيمَ أؤلّف؟ أفي النحو بعد سيبويه؟ أفي اللّغة بعد الخليل؟ أم في الأصول بعد الشّافعيّ والجويني؟*

وصل إلى مدخل المسجد فدخَل الباحةَ وهو يفكّر: *ماذا أستطيع أن أنجز؟ فكلّ القصائد الرّنّانة قيلت؟ وكلّ الكتب العظيمة أُلّفَتْ وجُلّدَتْ ووُضعت في مكتبات بغداد ونيسابور ودمشق وبلخ، وكلّ البطولات وقعت وخُتمتْ بأسماء أبطالها ورُويت!*

لا شيء أدعى إلى السَّأَم من أن تكون حفيدَ رجالٍ عظماء، ومنحدرًا من أمّة سامقة. ألا ما أسعد الرّجل الّذي يولد في شبيبة الزّمان! فالطّريق أمامَه ممتدّةٌ فسيحة، والمواقفُ الملحميّة تتبرّج له على جنبات الطّريق! والكتبُ المفصليّة تنتظر من يسطرها. لو وُلدتُ صدرَ القرنِ الأوّل أو الثاني فربّما أتيتُ بما لم تأتِ به الأوائل، لكنّي وُلدت في المائة الخامسة.

وسمعَ إقامةَ الصلاة وهو يخلع نعليْه عند باب المسجد. فطَرَد تلك الأفكارَ وهو يعتدل داخل الصفّ، وانصرف ذهنُه إلى أسئلةٍ عمّا ينتظره بعد وفاة نظام الملك، وما ينتظر بغدادَ بسبب الصراع بين الوزير والسلطان. وكيف ستكون علاقتُه بالسلطان ملكشاه؟ *هل سيقرّبني كما قرّبني نظام الملك؟ أم سيراني من أعوان الوزير ويبعدني عن النظاميّة؟*

39

بغداد، 485 هـ.

كانت ألسنةُ الخبّازين والصّوفيّة والورّاقين والعطّارين وجواري القصر تتلهّى بخبرٍ واحدٍ لا غير. فلا حديثَ إلّا عن وصول السّلطان وجنوده، وعَسْكَرتِهم شرقَ بغداد. ولا وصفَ إلّا لخيام جيش السّلطان ومئاتِ الإصطبلات الغاصّةِ بالخيول.

جلست تركان خاتون على طَرَف سريرِها مقطّبةً تنتظرُ دخولَ السلطان. بدت في حُلّتها الزرقاءِ وقميصِها الأرجوانيّ أصغرَ من عمرها. كانت هامتُها تتألّق بطرحةٍ ذهبيّةِ الأهداب، وأُذُناهَا مُزْدانَتَيْن بأقراطٍ ترصّعُها بالجواهر، تلمع تحت أضواء المصابيح المعلّقة في أطراف الخيمة. رفعتْ وجهَها جهةَ الباب بترقّب: *هل يتراجعُ السّلطان عن طردِ الخليفة من بغداد؟*

كانت ترى نفسَها سليلةَ ملوكٍ من الترك، ولذلك فمعرفةُ إدارة القصور طبيعةٌ ثانيةٌ وُلدت معها كنعومة بشرتها، ودقّةِ أنفها، ولونِ عَينَيْها. زمّت شفتَيها وهي تفكّر في حججٍ تقنعُ بها زوجَها حتّى لا يتراجع عن طَرد الخليفة من بغداد. فمن يدري؟ قد يصبح ابنُها ذو الأعوام الخمسة رجلًا يتملّك على دولةٍ تمتدّ من الصّين إلى الحجاز. لا يمنع ابنَها من ولاية العهد إلّا ابنُ السّلطان الآخر من زوجته زبيدة، بركياروق ذو الأحد عشر عامًا.

واستيقظت على السّلطان يقف بباب الخيمة، فقامت:

- أهلًا بسلطاني!

اقترب ملكشاه، ورمَى قلنسوتَه، وخلعَ صدريّته المصنوعة من جلود النمور، وجلس على طرف السّرير متأوّهًا:

- أشعر بإرهاقٍ، فاستعراضُ كتائب الجيش اليومَ كان شاقًّا.

- تفضّل، تعالَ واسترحْ!

مالَ على السّرير واضعًا رأسَه على الوسادة القطنيّة:

- كيف حال محمود؟

استعادت تركان خاتون الفكرةَ الّتي كانت في ذهنها، وتخيّلت طفلَها ملك الملوك:

- بخير، كان يلعب مع أبناء القادة.

تزحزح ملكشاه ممكّنًا رأسه من وسادته، ونظرَ إلى زوجته وقد أحسَّ في نبرتها ونظراتها أنّ لديها ما تقول. لكنّه تعوّد ألّا يُفسح لها حتّى لا تتجاوز. فقد تعلّم من والده قواعدَ التعامل مع النّساء. المرأةُ مخلوقٌ سياسيّ بالفطرة، يعشق الإشاراتِ والرموز. وهي لا تتوقّعُ من الرّجل تلبيةَ رغباتها فحسب، بل تلبيتها دون تكليفها عناءَ التلفّظ بها. هي مخلوقٌ يريد أن يُفهَم دونَ كلام، ويطاعَ دون أوامر، وتُحقَّقَ رغباتُه الدفينةُ دون أن يفصح عنها. ولا ينسى يوم قال له والدُه إنّ للمرأة همّةَ الملوك. فهي تتربّص أبدًا لاحتلال مناطقِ نفوذٍ جديدة. فإذا تنازلتَ لها عن مسافةِ قدمٍ ضمّتْ إليها أقدامًا، وإذا منحتها خيمةً ضمّت إليها حيًّا، وإذا تركت لها عادةً من عاداتك طلبت التخلّيَ عن عادات أُخَر. وكلّ امرأةٍ تحارب كما يحارب الفارس التركيّ. تكِرُّ مُضْمِرّة الفرَّ! وتفرّ مُضمِرّة الكرَّ. فإذا أدبرتْ بعد نقاشكَ معها فاحذرْ أن تغزوكَ بعد لحظاتٍ وأنت خالي الذهن أعزل قد حسبتَ الجولة انتهت.

كانت خاتون أيضًا قد تعوّدت على سلاح الصّمت الّذي يمارسه زوجُها، فانطلقت:

- يجب أن ترسل إلى الخليفة رسالةً فيها أمرٌ بالخروج من القصر والتوجّه إلى حيث شاء من البلاد. فبقاؤنا هنا في هذه الصحراء يُسقط الهيبة ويُميتُ جذوةَ الحماس في الجنود!

- كنت أرسلت إليه بالأمر. وأنت تعلمين أنّه لا يملك إلّا البُردة والقضيبَ ومراسمَهما، فلماذا نلحّ عليه؟ يمكننا تركُه حيث شاء في ركنٍ من القصر إلى أن يملّ.

تذكّرتْ صورةَ والدِها حاكم سمرقند وهي تردّد النظر في عَيْنَيْ ملكشاه. *أيّ راعي غنم هذا!* وضعت يدَها تحت ذقنها محرّكةً حاجبيْها المُقوّسين:

- أنت حفيدُ ملوك! وتعلم أنّ من قواعد الملك التفرّدَ به، ومن آيين السّلطنة خُلُوَّ المكان من مُتشوّفٍ إلى مكان الحاكم. وما يدريك؟ فقد ينضمّ غلمانُ نِظام المُلْك إلى الخليفة فيقع ما لا ترضى!

انتفض جالِسًا وعيناه تدوران. *كيف غاب عنّي هذا؟ ففيهم القُوّادُ الشّجعان الّذين لم ترقأْ لهم دمعةٌ منذ مقتل سيّدهم!* ثمّ وقف وأدخل قدمَيه في نَعْلَيْه أسفل السّرير وعبَرَ السّاحةَ المربّعة بين الخِيم قاصدًا مجلسَه الكبير. فهتف الحاجب:

- سيّدي السّلطان!

مشى دون التفاتةٍ حتّى جلس على كرسيّه، وقال للحاجب:

- ادعُ الكاتب حالًا!

وبعد لحظاتٍ كان الكاتب يدخل الخيمةَ منحنيًا:

- أمر السّلطان!

- اكتب إلى الخليفة أنّا أمَرْنا بخروجه من بغداد فورًا إلى حيث شاء من البلاد. معه حُرُمه وحشمه وخدمُه وأمواله وما شاء. فقد رأينا

أنّ حفظ بيضة الدّولة لا يكون إلّا بوجود السّلطان داخل بغداد. غير أنّ طلباتِه محفوظةٌ وهو مستشارٌ مؤتمَن. وأمرُنا هذا لا يُراجَع. والسّلام.

ووقف متلفّتًا في أرجاء المجلس:

- تصله فورًا! ولا تخبروا أحدًا بالأمر!

انطلق ثلاثة فرسانٍ من طرف المعسكر ينهبون الأرض نهبًا. دخلوا بغدادَ من باب خراسان، ولم يتوقّفوا حتّى ظهر أمامَهم قصرُ الخليفة. ظهرت شرفاتُ القصر المضاءةِ بالقناديل ذكرى دائرةً من زمنٍ غابر. وتقدّم الفارس إلى الحارس المتجمّد قربَ الباب:

- قل للحاجب إنّنا رُسُل السّلطان!

وصل الخبر إلى الحاجب، فانطلق مذعورًا لا يسمع غير نفَسِه المتقّطع وقرعِ نعلَيْه لبلاط القصر الفسيح. وجد الخليفةَ في مجلسه مع ندمائه. فوقف في طرف المجلس مُشيرًا بهامته، ففهِم المقتدي بأمر الله من الإشارة أنّ الأمر جِدٌّ، فأشار بيده، وقال لندمائه:

- إنْ شئتم!

وقف الرّجال مستأذنين ضامّين عليهم أطرافَ ملابسهم، وتقدّم الحاجب:

- لقد أرسل السّلطان ثلاثة فرسانٍ في هذه الساعة!

زمّ الخليفة شفتَيه، وعدّل عمامته:

- فليدخلوا!

كان الفرسان مشدوهين وهم يتأمّلون القصرَ وأفنيتَه ومبانيه وأشجارَه ونظامَه. مَشَوْا بترقُّب، ثمّ فوجئوا بالخليفة واقفًا ينتظرهم قرب باب مجلسه. فتقدّم الفارس الأكبر:

- سيّدي ومولاي! لقد وجّهَنا السّلطان بهذه الرّسالة!

مدّ الحاجب يدًا مرتعشةً، وتسلّمها، ثمّ مدّها إلى الخليفة، ففتحها. توقّف عند الفقرة الأخيرة: «وأمرُنا هذا لا يراجع»!

غامتْ عينَا الخليفة، وأحسّ بدوارٍ، لكنّه تذكّر أنّ عليه التماسُك. فنفض رأسَه قليلًا مُتظاهرًا بتعديل عمامته:

- قولوا للسلطان أن يمهلني شهرَيْن حتّى أجهّز حُرُمي للرحيل!

وأشار إلى الجميع بالانصراف. فانحنى الفرسان الثلاثة. ثمّ تواروا في دهاليز القصر. اقترب الخليفة من الجدار. واستندَ إليه وهو يسمع أقدامَ الفرسان تقرع بلاطَ قصره مبتعدين. ومرّرَ يدَه على الجدار ماشيًا حتّى وصل إلى كرسيٍّ وجلس. رفعَ بصره في الجدران والسقوف والأفرشة المنتقاة من أركان الأرض. ثمّ نظر إلى آثار منادمته لأصحابه قبل قليل. رأى دواوين الشّعر وكتبَ السالفين. وخطر له أنّ الأمر حلمٌ عابرٌ لا حقيقةَ له. *أيعقل أن يخرج وريث المنصور والهادي والرشيد والمأمون والمعتصم من بغداد؟ كيف ستشرق شمسُ بغدادَ دون عبّاسيّ جالسٍ في قصورها؟*

وتخيّل بغدادَ خاليةً شاحبةً موحشة، وشمسَها تتلفّع قناعًا أسود، ودجلةَ دماءً آسنة، والبومَ تنعق في أفنية هذه القصور. أفاقَ من أفكاره ووقف. عليَّ بحيلةٍ مّا، فمَن لم يحتل لنفسه تجرّعَ كؤوسَ الذلّ المرّة، وشربَ السمّ الزعاف. وإذا أُخرجتُ من بغداد فلن يعود إليها عبّاسيّ أبدًا. جعل يدور داخل المجلس طولًا وعرضًا، ثمّ وجد نفسه يكرّر:

إذا المرء لم يحتلْ وقد جدَّ جِدُّهُ   أضاعَ! وقاسى أمرَه وهو مُدبِرُ!
ولكنْ أخو الحزم الّذي ليس نازلا   به الخَطْبُ إلّا وهو للقصد مُبصِرُ!

وقف، ثمّ تراجع وأمسك طرفَ الكرسيّ وجلس. *أيمكنني التواصل مع أتباع نِظام المُلْك وإغراؤهم بالمال والجاه؟ وتنصيب قوّادهم مكان*

السّلطان؟ وتخيّل أحدَ القادة يهرع إلى ملكشاه فيخبره. ورأى ملكشاه يدخل القصر بالقوّة ويعبث به وبحُرُمه وأهله. *لو كان نِظام المُلْك حيًّا لسهُل الأمر!*

ثمّ لمعت في ذهنه فكرةٌ أورثَتْه راحةً ونشاطًا، فمشى خطواتٍ إلى الحمّام ليغسل وجهه. لكنّه ما إن وقف في الحمّام حتّى تجمّد. فقد فوجئ برجلٍ أشعثَ محمرِّ الحدقتَين ناتِئِ الوجنتين ينظر إليه نظرةً قاسيةً شرسةً طافحةً بالشّراسة واللوم والتساؤل.

تأمّل صورته في المرآة. *هل شبتُ في أسبوع واحد؟ هل هذا أنا؟*

خرج من الحمّام عازمًا على التشبّث بملكه، ثمّ تمتم في سرّه:

- لا بدّ من أن أكلّم الغزاليّ غدًا... فقد تكون تلك الحيلة الوحيدة!

وانتشر خبرُ رسالة السّلطان في مخادع القصر وأفنيته وشرفاته ودهاليزه. واستقبلتْه الجواري بشهقاتٍ وقلق. وبات القصرُ العبّاسيّ ليلةً بغداديّةً حُبلَى بالخوف والترقّب.

40

الإنسان حجرٌ مُلقًى من السّماء!

بغداد، 485 هـ.

أنهى الأصلعُ صلاتَه والتَفَتَ إلى رفاق زنزانته:

- هل علمتم بوصول ملكشاه إلى بغداد؟

افترسته العيون من جهات الزنزانة. فالأصلعُ هو السجين الوحيد الّذي يخرج ويدور بين الزنازين لا يمنعه حارسٌ، وذلك لاستلطاف السجّانين له وأمنهم من هروبه. فكان كلّ يومٍ يخرج من المطبق ويعبر باحةَ السجن ويدخل الزنازين الواقعةَ جنوبَ السجن ويحادث الحرّاس، ويقابل الزائرين.

استدار وأسندَ ظهره إلى الجدار، وكحّ كحّةً بقي أثرُها في صوته:

- والخليفة المقتدي بأمر الله يصوم النهارَ ويُفطر جالِسًا على الرماد يدعو الله أن ينقذه من مخالب ذلك التيس التركيّ.

بادَرَه التّاجر ورأسُه مسندٌ إلى الجدار:

- ومن أخبرك أيّها الشّيخ؟

- أخبرني كبير السجّانين.

لفّ التّاجر يدَيه على ساقَيه المتورّمتَين من آثار التعليق والتعذيب، وقالَ كأنّه يئنّ وهو ينظر إلى رجله:

- ماذا سيفعل ذلك السلجوقيّ؟ أتراه يرحم الخليفة أم يذلّه؟

تربّع الأصلع، ووضع مرفقَيه في حجره، وخفض رأسه، وجَعَلَ ينكت الأرض المبلّطة بسبّابته. وبعد ثوانٍ رفعَ وجهَه فوجَد الوجوه النّحيلةَ والعيونَ الجاحظة شاخصةً تنتظر، فقال بالفارسيّة:

- نكاهْ كنْ!

ثمّ وضع عمامتَه إلى جنبه وقال بنبرةٍ شجيّة:

- إنّ الإنسان حجرٌ مُلقًى من السّماء، لكنّه في هويّه ذلك يظنّ أنّه منطلقٌ بإرادته وعزمه وقوّته وهو لا يملك من نفسه شيئًا. وهذا التركيّ قد يرحم ذلك العبّاسيّ، والخالقُ قد يبطش بهما أو بأحدهما قبل كلّ شيء.

ورفع سبّابته باتّجاه السماء وصرخ:

- اللّـــــــه!

مدّ صوته باللّام طويلًا كما يفعل كلّما هزّه أمر. ثم عادَ إلى هدوئه مُبتسِمًا:

- كم مرَّ عليكم من العِبَر؟ كم رأيتم ممّن تصرّف تصرّفًا لا يُتوقَّع منه؟ إنّ الناقة أحيانًا تدرّ من اللبن قدرًا غزيرًا لم يُظَنّ من وكْدِها ولا عهدها، وإنّ الخائنَ يفي، والصادقَ يكذب أحيانًا، والأمينَ يخون مرّة. وكلّ هذا يدلّ على أنّ الإنسان لا يملك من أمره شيئًا. كم صدوقًا كذب؟ وكم جبانًا شَجُع؟

برقت عينا رجلٍ جالسٍ بين الأصلع والتّاجر:

- أيّها الشّيخ، الله وحدَه يعلم. فقد يتخلّق ذلك التركيّ بأخلاق أهل الحِلم ويرحمُ ذلك العباسيَّ المستضعَفَ سليلَ دوحة النبوّة.

رمقه الأصلع:

- قد يكون السلجوقيّ كعبد الزَّبَدِ!

كان التّاجر يعرك ركبته المتورّمة فرفع وجهه مقطّبًا جبينَه ألمًا:

- وما عبد الزبد؟

- ألا تعرفون قصّة عبد الزبد؟

- ولا سمعنا بها.

فمالَ الأصلع على الجدار وبدأ يروي الحكاية:

- هذه قصّةٌ معروفةٌ، وهي مدوّنَة في كتب أهل بغداد. فمن غريب «ما جرى في بغداد أنّ عبدًا أسودَ كان يأوي إلى قنطرة الزَّبد ويلتقط النّوى ويطلب الطّعام ممّن حضَر ذلك المكان ممّن يأتون للّهو واللعب. وكان هذا العبد عاريَ الجسد لا يتوارَى إلّا بخِرقة، ولا يُؤْبَه له، ولا يُبالى به. ومضى على هذا دهر. فلمّا وقعت الفتنة في بغداد وانحلّ عقدُ السّلطان، وفشَا الهرج والمرج رأى هذا الأسودُ مَن هو أضعف منه وأقلّ شأنًا قد أخذ السّيف وأعمله وصارَ له شأن. فطلب سيفًا وشحذه، ونهب وأغارَ وسلب، وظهر منه شيطانٌ في جلد إنسان».

وسكت الأصلع متفرّسًا وجوه سامعيه، فوجد العيون متعطّشة شاخصة:

- «فلمّا وقع ذلك صبُح وجهُه في عيون النّاس، وعذُب لفظُه في آذان سامعيه، وحسُن جسمُه، وعَشِق وعُشِق. فالجمال أحيانًا فرعٌ عن القوّة. إنّ الأيّامَ تأتي بالغرائب والعجائب. وأنتم تذكرون قولَ الحسن البصريّ: إنّ العبر كثيرة، والمعتبِرَ قليل. فلمّا دُعي ذلك الأسود قائدًا وأطاعَه رجالٌ وأعطى الأموالَ وفرّقها، وطلبَ الرئاسة صار جانبُه لا يرام، وحِماه لا يُضام. فممّا ظهرَ من حسن خُلقه، مع شرّه ولعنته، وسفكه للدّم، وهتكِه للحرم، وركوبه

للفاحشة، وتمرّده على ربّه القادر، أنّه اشترى جاريةً كانت بألف دينار، وكانت حسناءَ جميلة. فلمّا صارت عنده حاول منها حاجتَه، فامتنعت عليه امتناعًا. فقال لها: ما تكرهين منّي؟ قالت: أكرهك كما أنتَ. فقال لها: فما تحبّين؟ قالت: أن تبيعني. فقال لها: أو خيرٌ من ذلك؟ أُعْتِقُك وأهبُ لك ألفَ دينار. قالت: نعم! فأعتقها وأعطاها ألف دينارٍ بحضرة القاضي ابن الدّقاق عند مسجد ابن رغبان. فعجب النّاسُ من نفسه وهمّته وسماحته، ومن صبره على كلامها، وإعراضه عن مكافأتها على كراهتها له. فوالله لو قتلها ما كان أتى ما ليس من فعله في مثلها ولما سأله أحدٌ عن دمها». فمَن جعل عبد الزبد رحيمًا كريمًا يجعل ملكشاه كذلك!

قبض التّاجرُ يدَيْه على ساقه وضغطها قليلًا، ثمّ رفع رأسه:

- لا أظنّ ملكشاه يرحمه. ولا أراه يملك مروءةَ عبد الزبد!

ورفع يدَيه عن ساقه، وضمّها إليه بهدوءٍ:

- لا تنسَ -أيّها الشّيخ- أنّ جدّه طغرل بك خصى وزيرَه الكُندُريَّ، وأباه ألب أرسلان قتلَه بعد ذلك! فما أرى الحِلم من شِيَم هؤلاء!

رفع الأصلع يدَه:

- إنّ الإنسان... آآآآ

واشتدّت الكحّة عليه. كحّ كحّةً تردّد صداها في الزنزانة المعتمة. واقترب منه التّاجر البغداديُّ الأقربُ إليه واضعًا يده على جبّته:

- أبِكَ حمّى؟

حرّك الأصلعُ سبّابته في الهواء نافيًا، ونطق بصوتٍ يكاد لا يُفهم:

- هذا الجسد لا يُحمّ.. إنّما الحمّى للصدّيقِين!

ثمّ مال، فتلقّته يدُ التّاجر. وصرخ أحدهم:

- أيّها السجّان! أيّها السجّانون!

زحفَ التّاجر متحاملًا على جراحه، وجعل يقرع باب المطبق. وانتفض الشّيخ الأصلع، وفتح عَينَيه ثمّ قال باسمًا:

- هوّنوا عليكم.. أنا بخير!

وعادَ التّاجر زاحفًا:

- ما أظنّه إلّا الجوع. لا بدّ أن يأتوك بطعام.

أخذ الأصلعُ عمامتَه، ووضعها على هامته، واستند إلى الجدار وهو يتمتم:

- الحمد لله، لا بأس.

عادَ ذهنُه إلى قصصه وعِبره. فاستعادَ صورة التركي المقتول المنتصب على ظهر الفرس يومَ اعتقله. وذهب ذِهْنُه إلى طفولته يومَ وقف في ساحة الطاق بنيسابور رفقة أبيه، وهما ينظران إلى أوّل انتصارٍ لدولة السّلاجقة. تذكّر دخول طغرل بك ضحوةَ عام 429هـ. إلى شوارع نيسابور. كان النّاس يتأمّلون ملابسَ الأتراك الخشنةَ وتصرفاتِهم البدويّةَ وعاداتِهم الغريبة. تذكّر كيف ضحكت نَيسابور كلُّها على قصصهم، قصّة أكل طغرل بك للكافور وشكواه منه أنّه ملحٌ مُرّ.

انتابته رقّةٌ وشفقةٌ على ذاك التركيّ الّذي سجنه. *أيُّ مسكينٍ هو؟ إنّه طفلٌ فرحٌ بلُعَبه؟ ألا يعرف أنّه يوشك أن يموت؟*

أحسّ برغبةٍ عارمةٍ في لقائه وإخبارِه بعفوه عنه ومسامحته إيّاه. بل ودَّ لو يشكره على ما أتاح له من عَرض نفسه على أبوابٍ من العبادة ما كان له أن يجرّبها لولا السانحةُ الّتي مكّنه منها.

وخطرت للأصلع محدوديّةُ علمِ ابن آدم وجهله بنفسه. فالإنسان لا يستطيع معرفةَ ذاته مهما عُمّرَ من السنين. إنّه لا يعرف نفسَه إلّا إذا رآها في

كلّ حالةٍ من حالات الدّنيا، وهذا أمرٌ متعذّر. فالحالات الّتي تعيشها أيّ نفسٍ حالاتٌ محدودةٌ معدودةٌ مقارنةً باحتمالات الحياة المتعدّدة.

ما يدريني أنّي ظالم وطاغية؟ فأنا لم أجرّب السّلطة ولم أقُدْ الجيوش؟ وربّما لو قدت جيشًا لوجدتُ نفسي فرعونًا. فبين جنبيْ كلّ إنسان فرعون، وما من نفسٍ إلّا وهي مُضمِرَة ما أظهر فرعونُ من قوله «أنا ربّكم الأعلى»! ولكنّ فرعون وجد مجالًا وقبولًا لتَفَرْعُنِهِ وأنا لم أجده. وما يدريني أنّي لصّ على أموال الأيتام؟ فلو وليتُ أموالهم لربّما تأوّلت وأكلت!

وفكّر في أنّ معرفتَه بنفسه التي يربّيها منذ عشرين عامًا قد تكون عبثيّة. فلا مجال لمعرفة النفس إلّا بعد عرضها على كلّ إمكانات الحياة.

ضحك في سرّه مستغربًا من عبارةٍ تلوكها ألسُن النّاس: إنّي أعرف فلانًا معرفةً تامّة! وفلان لا يمكن أن يتصرّف هذا التصرّفَ أو يقف هذا الموقف. ألا إنّ فلانًا نفسَه لا يعرف نفسَه الّتي بين جنبَيه فكيف بجليسه وقعيده!

وانتبه إلى انفتاح الزنزانة. وشخصت العيون، فدخل سجّانٌ أفْحَجُ صارخًا:

- ماذا تريدون؟

صرخَ به الأصلع:

- لا نريد شيئًا!

لكنّ التّاجر قال:

- نريد حساءً للشيخ، فقد أغشي عليه من الجوع.

وقف الأصلع، ومسحَ صلعته بيدَيه، واقتربَ من باب الزنزانة، وهمهم في أذن السجان:

- دعني أخرجْ معك قليلًا!

أشارَ السجّان بالموافقة، وارتسمت على شفتَيه ابتسامةٌ متنافرةٌ مع جبهته المتغضّنة وعَينَيه الحمراوين. تبعَه الأصلع ماشيًا في الباحة وهو يسمع أصواتَ المساجين وصراخَهم في الزنازين والعنابر المصفوفة يمنةً ويسرة. وقف الشّيخ الأصلع يتأمّل رجلًا يمشي في الباحة. تأمّل أسمالَه البالية وعمامتَه وجبّته المرقّعة. فلم يصدّق ما يرى.. وشعر بخدرٍ في ركبتَيه ودورانٍ في رأسه، ثمّ صرخ:

- شيخي!

رمَى الشّيخ صحنًا كان بيده وهرب. فركض الأصلع وراءه، لكنّ الرجل كان أسرع، فتوارى بين العنابر. وواصلَ الأصلع سيرَه وراء السجّان مُتذكّرًا هذا الشّيخ، المشهورَ باسم الشّيخ الملامتيّ. إذ يقضي مذهبَه الملامتيُّ الصوفيّ بأن يأتي كلَّ فعلٍ يُسقط هيبتَه ويعرّضه لملامة النّاس. فيتظاهر بالسرقة حتّى يسجن أو يعذّب بحثًا عن الأجر.

وتذكّر الأصلع كيف جرّب الطّريقةَ الملامتيّة، ثمّ اقتنع بعدَ حديثٍ مع الغزاليّ في نظاميّة نَيسابور بمخالفتها الشّرعَ. فالمسلم لا يذلّ نفسه، ولا يعرّضها طوعًا للامتحان. وانتبه من حديث النفس وهو يدخل مقطعَ السجن الخاصّ باللّصوص والخنّاقين. فرأى الوجوه الشّائهة والأشداق المحفورة، والجلود المحروقة، والأسنان المنزوعة، والجباه المكويّة. مشى مُتأمّلًا وجوهَهم مُتسائلًا في نفسه كيف حُشر مع هؤلاء في صعيدٍ واحد؟ *لو حَبستُ لساني لَكنتُ الآن في مجالس الذّكر بالخانقاه.*

وانتابه غضبٌ على نفسه: *مَن أنت حتّى تتكبّر على هؤلاء! وكيف تكفر بنعم الله إذْ فتح لك أبوابًا من العبوديّة لم يفتحها لغيرك؟!* رفع يدَه، ولطمَ وجهه، وانفتَلَ راجِعًا إلى المُطبِق وهو يُحوْقِل. وانتابته كحّةٌ أحسّ أثرَها في كافّة أطرافه.

مشى شاعِرًا ببرودة البلاط الأحمر تحت قدمَيه، وسمع السّجّان الأفحج ذا الصّوت القويّ يناديه:

- الأصلع.. جاءك زائر!

فأجاب دون أن يلتفت:

- لعلّك غلطتَ أو لعلّه غلط.. من سيزورني؟

- قلت لك تعالَ إلى زائرك، هيّا حتّى لا أتأخّر عن أفراخي!

وانعطف الأصلع وذِهنُه يستعرضُ وجوهًا يمكن أن تكون علمت بمكانِه أو بحثَت عنه. من *يكون الزائر*؟

41

بغداد، 485 هـ.

خمسة أيّامٍ قضّتها زوجة المقتدي بأمر الله تذرع ردهات القصر جيئةً وذهابا. كَلّتْ قدمَاها من قرع البلاط الأخضر، وغفلتْ عن شرب الماء حتّى جفَّ حلقُها، وسمعتْ إحدى جواريها تقول إنّها أفنتْ زوجَ نعالٍ من الركض في ليلةٍ واحدة.

كانت تتفقّد الخزائنَ بعقلٍ مشوَّش وقلبٍ نابض. وتتأمّل ما مُلئتْ به من نفائس وتُحَفٍ وملابس. لا تستطيع ترك هذه النفائس ولا حملها، ويومُ الخروجِ من القصر يقترب. *ماذا آخذ وماذا أترك؟ هذه خزائن لم تُخَزَّن لتُنقَل يومًا! ومتى فكّرَتْ زوجةُ خليفةٍ بغداديٍّ في الخروج من القصر؟*

نزلت سلّمًا سرّيًّا إلى قَبْوِها الخاصّ. تصلّبت قدمَاها وهي تنظر إلى الرفوف المحفورة داخل الجدار. غرفةٌ دائريّةٌ مملوءةٌ بالملابس والتُّحَف والجواهر الآتية من أركان الدّنيا الأربعة. كيف تترك آلافَ التُّحَف والملابس النفيسة التي جمعتها عبر السنين؟

وقفت بين الرفوف منصتةً لخفقان قلبها. تلك تحفةٌ بعثتها زوجةُ قيصرَ من القسطنطينيّة، وهذه أخرى أهداها ملك الصين إلى الخليفة، وتلك مزهريّةٌ من الجواهر الخالصة منحَها أحد أمراء فرغانة.

وتذكّرت أربعَ غرفٍ متشابهةٍ داخل القصر. *مَن يضمن ألّا يراها الأتراك فينهبوها نهبًا إنْ أنا حملتها معي؟ وكيف أحملها؟* فمقتَنَيات الخلفاء لا تُنقَل من القصور؛ لأنّهم يبقون في قصورهم ما داموا أحياء.

ألحّ عليها الخاطر، فخرجت من القبو، وأحكمت إغلاقَه وصعدت السلّم.

مشَتْ تجرّ ساقَيها جَرًّا وهي تنظر إلى نوافذ القصر، والجواري السّاحبات ذيولهنّ في ممرّاته، والخصيان الّذين يحنون رؤوسهم كلّما مرّت. تجاوزت البهوَ المفتوح أمام مجلس الخليفة حيث يستقبل الضّيوفَ، واتّجهت إلى المكتبة حيث يجب أن يكون الآن. وطرقت الباب:

- ادخلْ!

ظهر لها الخليفة كائنًا غريبًا. كان جالِسًا على سجّادةٍ والمصحفُ بين يديه، ولحيتُه شعثاء ووجهه منطفئ لا روحَ فيه. *هل هذا هو الرجل القويّ الّذي أعرف؟ هل هذا المقتدي بأمر الله؟ ماذا يبقى من الإنسان إذا جُرِّد من قُواه؟ أوهام الملك وأوهام الصحّة وأوهام المال؟ أهذا المقتدي بأمر الله حفيد الخلفاء؟*

وجلست عند رجلَيه وعيناها مُغْرَورِقتان:

- لي رأيٌ في هذا الأمر الّذي نزل بنا!

وضع المصحفَ على المِسند، وتراجع حتّى أسندَ رأسَه إلى الجدار، وحرّك عَينَيه المرهقتَين مستفسرًا.

- أرى ألّا تقبل بالخروج من مدينة أجدادك، وليفعلوا ما بدا لهم!

رفعَ رأسَه، وبرقت عيناه المنطفئتان:

- ليس بعد أن قُتل نِظامُ المُلْك. فقد كان ذلك الوزير الصالح يحمينَا من أعراب العجم.

مسحتْ دمعةً على وجنتها، وأمالتْ رأسَها، وقالت بنبرةِ تحدٍّ:

- لكنّ الموت خيرٌ من خروجنا. إنّ الملوك لا يخرجون من القصور إلّا إلى القبور أو السجون!

رمقَ في عَينَيْها انكسارًا يراه أوّلَ مرّة، رغم لهجتها المتحدّية فآلمه.

- لقد اقترب وقتُ الإفطار، اتركيني وشأني ولْنتحدّث اللّيلة إن شاء الله.

وقفت متثاقلة، وتوارت خلف الباب.

عاد إلى مصحفه يقرأ. لكنّه لم يكن يرى إلّا الخيولَ التركيّة تتراكض بين الأسطر، وتقتحم بغداد، وجواريه في الطرقات تائهات حاسرات، وعامّة بغدادَ يطلّون من السطوح يتأمّلونهنّ. وتخيّل ابنه ووليَّ عهده المستظهر بالله يسأله:

- يا أبت! كيف طابتْ نفسُك بتَرْكِ قصورِ آبائنا، وكيف خرجَ الأمر من أيدينا بعد ثلاثٍ وخمسين سنة وثلاثمائة؟

أطبق المصحف، ومشى بين رفوف الكتب حتّى وصل إلى نافذةٍ صغيرةٍ تطلُّ على فضاءٍ مفتوحٍ وراء القصر. رأى رؤوس الأشجار الباسقة، ولمحَ شمسَ بغداد تبتعد غاربةً، فتخيّلها مصبوغةً بالدّم الفائر. وقلّب بصرَه في السّماء مُفكّرًا في أنّ هذه هي السّماء الّتي كان ينظر إليها المنصور والمهديّ والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل!

تخيّل وجوهَ الخلفاء تُطلّ عليه شامتةً معيّرة متسائلة: *لمَ أُزْهِقَت الأرواحُ وطارت الجماجمُ وسُيّرت الجيوشُ؟ لمَ سُفك دمُ عثمان، وقُطعَ رأس الحسين، واغتيل الخلفاءُ، وضُربت أعناقُ الملوكِ؟ أليس طلبًا لمُلْكٍ أو حفاظًا عليه؟*

رفع مرفقَه عن طرف النّافذة: *لمَ سار الزمنُ على طريقةٍ واحدةٍ مع سبعةٍ وعشرين خليفةً حتّى إذا ما وصل إليَّ انحنى انحناءته المشؤومة هذه؟ أهو الحظّ العاثر أم حصائد ما كسبتْه يدَاي؟*

ظهرَ سربُ طيورٍ يحلّق في اتّجاه دجلة، فصرَف بصرَه عنه مبتعدًا عن

النّافذة هامسًا: *والله لو خرجتُ من هنا فلن يعود إلى بغداد عبّاسيّ أبدًا. هل سينقضي ملك العبّاسيّين عندي؟*

خرج بقدمَين ثقيلتَين ورأسٍ مصدوع وقلبٍ مختلج. مشى في دهاليز قصره، ثمّ نزلَ إلى قَبْوٍ أعدّه للإفطار منذ أمهله السّلطان عشرةَ أيّام. كان فضاءً غير مفروشٍ مُلِئ رمادًا. جلس في الرماد، وأخذ قبضةً منه، ثمّ انتظر حتّى حانَ وقت المغرب فبدأ يُذريه على رأسه ويدعو ويتضرّع إلى الله ألّا ينتهي ملك آبائه عنده، وألّا يصبحَ سَبّةَ الدهر.

تكاثف الظّلام والخليفةُ جالسٌ في الرماد يتضرّع متذلّلًا لله. ثم نفَضَ يدَيْه، وخرج يتلفَّت كي لا يراه الخدمُ في تلك الهيئة. دخل الحمّام المسامتَ للقبو، فلاحتْ له صورتُه في المرآة: لحيةٌ رماديّةٌ شعثاء، وعينان تلمعان في الظّلام. صبَّ الماء، وجعل يفكّر في المحاولة الأخيرة الّتي ينتظرها بعد قليل. هل ستنجح وتنكشف هذه الغمّة؟ أم ستزيد السّلطانَ صلفًا وطيشًا؟

بعد صلاة العشاء كان الخليفة يدخل إلى مجلسه والغزاليّ ينتظره متهلّلًا:

- السّلام على سيّدنا ورحمة الله!

وجلس الخليفة وسط المجلس مُتظاهرًا بالانشراح:

- أهلًا وسهلًا بدانشمند.

ولم يطُل السّلام، فقد كان ذهنُ الخليفة يسابقه إلى الحديث. كان الغزاليّ جالِسًا عن يمينه ووجهه إلى الأرض، يتأمّل السّجّادَ الأخضر الفاخر، ويفكّرُ في طبيعة ما دعاه إليه الخليفة. وجاء صوتُ المقتدي بأمر الله:

- اسمع يا أبا حامد! أنا أعلم حبَّكم للخلافة وتعلّقكم بها حاميةً للدين وجامعةً لشَعَثِ المسلمين. وقد بلَغَنا جهرُكم بذلك وتأييدُكم للوزير رحمه الله في مسعاه. وأنا دعوتُك اللّيلة لسفارة لا يقوم بها غيرك.

أنصت الغزاليّ إلى الخليفة وهو يتأمّلُ وجهَه الجميلَ المهمومَ وشعرَه الأصهب البادي من تحت عمامته السّوداء.

- أريدك أن تأخذ كلَّ شيوخ النّظاميّة ومَن في بغداد مِن وجوه النّاس وتذهبوا غدًا إلى السّلطان وتخوّفوه من طَرد خليفة المسلمين من عاصمته. حذّروه الأمرَ وبيّنوا له حُرمتَه، وذكّروه بأنّ الأمر كلّه له، فلمَ يضيق بالخليفة؟ فالخطبة على المنابر باسم السّلطان، واسمُه مقرونٌ باسمي على الدينار، والأمرُ والنهي له، وليس لدى الخليفة إلّا القضيب والبُردة!

وسكت المقتدي بأمر الله، فأخذ الغزاليّ يفكّر في عبثيّة المهمّة. فهو يعلم أنّ السّلطان نادمٌ على ترك الخليفة عشرين سنةً دون إخراجه من بغداد. وذهب ذهنُه إلى تركان خاتون وإلحاحها الدّائم على طرد الخليفة وحلمها بتولّي ابنها محمود السّلطنة يومًا، وأن يكون سبطها جعفر بن المقتدي بأمر الله خليفةً عبّاسيًّا في بغداد تسري في عروقه دماءُ بني سلجوق!

رفع عينَه في الخليفة، فانتابتْه رقّة. *هل هذا حفيدُ الخلفاء؟ كيف يضرب الزمنُ ضرباته؟ وكيف يَخلِقُ اللّيلُ والنهارُ كلَّ جديدٍ ويَفُلّان حدَّ كلّ حديد!* وانتبه الخليفةُ إلى شرود الغزاليّ، فرفع سبّابته:

- غدًا صباحًا!

كحّ الغزاليّ كحّةً خفيفة:

- أمركم سيّدي! على أن يمدَّني أمير المؤمنين بغلمانٍ يوصلون الخبر إلى الشّيوخ اللّيلة ويرتّبون الخروج غدًا.

وصفّق الخليفة، فجاء الحاجب مسرعًا. وخطر للغزاليّ أنّ عمامة الحاجب تزداد ضخامةً كلَّ مرّة، وقامتَه تزداد طولًا عندَ كلّ زيارة. وقف الحاجب دون الباب وانحنى:

- أمركم سيّدي!

وضع المقتدي بأمر الله يدَيه على ركبتَيه:

- تصحب الشّيخ إلى الباب، وترسل معه ما يريد من غلمانٍ وبغال.

سادَ صمتٌ ثقيلٌ يشوبُه شعورٌ بعدم جدوى الحديث، لم يقطعه إلّا خفقُ نعال الحاجب مبتعدًا. وانصرف ذهنُ كلٍّ منهما إلى صورة الجيش العريض المخيّم شرقَ بغداد. وتخيّل الغزاليّ نفسه داخلًا غدًا رفقة الشّيوخ على ملكشاه، وتاجُ الملك عن يمينه جالِسًا على كرسيّ نِظام المُلْك. فخفَق قلبُه أسفًا، ورفَعَ بصرَه، فوجد الخليفة ذاويَ الشّفتين حائلَ اللون. لكنّه عزم على أن يؤدّي السفارة على أكمل وجه، وأن يستخدم كلَّ مهاراته الإقناعيّة والمنطقيّة لثَنْيِ ملكشاه عن طرد خليفة المسلمين من عاصمته.. من مدينة السلام.

42

أطراف بغداد، 485.

مالت العمائمُ الطّويلة، وذبُلَ بريقُ العيون تبرّمًا من انتظار السّلطان. فقد غصَّ المجلس الدّائريّ ذو الفُرُش الحُمر بعُلَماء النّظاميّة ووُجَهَاء بغداد منذ ساعات، لكنّ السّلطان لم يظهر. ضجروا، فخَفَتَتْ أصواتهم، وتكاسلت ألسنتهم عن الأحاديث، وتثاءب شيخٌ أحدب مائلًا جهة الغزاليّ:

- هل سيأتي؟

لم يجبه الغزاليّ، بل التفتَ حين سمع جلبةً. وظهر السّلطان وراء الباب. سُمع أطيط الكراسيّ، وجفجفة الملابس، ووقفَ الرّجال حانين رؤوسَهم، فقال السّلطان:

- السّلام عليكم ورحمة الله!

وضجّ المجلس بردّ السّلام. ومشى ملكشاه مستقيمًا بجسمه القويّ وحَرْبَتُه المذهّبةُ في يده حتّى جلس على الكرسيّ وسط المجلس.

أدار عَينَيه الضيّقتين تحت جبهته الواسعة، ولمس أنفَه الأفطس:

- أهلًا وسهلًا بعلماء بغداد ووجوهها!

كان السّلطان عَكِر المزاج لأنّ الوَفدَ أخّره عن الخروج إلى الصيد. فقد أعدّ للخروج ضحوةً على ألّا يعود حتّى تنقضي مهلتُه للمقتدي بأمر الله، فيتّجه من مكان الصيد إلى قصر الخلافة. ردّدَ بصرَه في الوجوه الواجمة والعيون اللّامعة واللّحى الوقورة. واندفع الخدمُ يضعون الأشربة

والفواكه والتمور، فانحجبتْ أوجه الوفد عنه لكثرة الخدم. وما إنْ خرج الغلمانُ حتّى جاء صوت الغزاليّ:

- أيأذن لنا سلطان المشرق والمغرب في الحديث؟

واسترخى ملكشاه في كرسيّه وهو ينظر إلى الشّجّة في جبهة الغزاليّ، وإلى نابه الأيسر المرتفع قليلًا وعَينَيْه العميقتَين:

- تفضّل، دانشمند!

وقف الغزاليّ ضامًّا طرفَيْ دراعته، مديرًا بصرَه في جوانب المجلس:

- أيّها السّلطان الأكبر والقائد الأجلّ. هؤلاء علماء المسلمين ووجوهُ بغداد قد جاؤوك بالتماسٍ من خليفة المسلمين. وأنتم أيّها السّلطان أحرصُ النّاس على العباد والبلاد، وأكثرُهم خدمةً للملّة والدين. فمن أجله خرجتم، ولحمايته نجَمْتُم، وفي سبيله قاتلتم؛ سُنّةً ماتَ عليها سَلَفُكم، ودرجَ عليها خَلَفُكم. فذاك جدُّكم سلجوق خرج من باديته انتصارًا للدين الّذي بدأ ينمحي رَمْسُه، ويدرس مغناه. فجاء -رحمه الله تعالى- بعزيمةٍ فتيّة، وشجاعةٍ بدويّة، فأنقذ الله به الأمّة وتدارك به الملّة. وذاك أبوك السّلطان ألب أرسلان، كان قريب الدمع، حريصًا على المصلحة موطّأ الأكناف. أبطلَ لعنَ أهلِ السنّة على المنابر، وردَّ العلماء إلى خراسان كشيخنا الجويني وأبي القاسم القشيري.

وسكت مُتظاهرًا بكحّةٍ خفيفةٍ ليرى وقع كلامه على السّلطان. فرآه واجمَ الوجهِ ساكنَ الطرف، متجهّمَ الجبهة ينكت برأسِ حربته طرفَ كرسيّه. قلّب عَينَيه في العلماء فوجدهم يحدجونه بعيونٍ لامعةٍ طافحةٍ بالإعجاب:

- وقد بَعَثَنا الخليفةُ إليكم ملتمسًا إبقاءَه في قصره حيث كان أجدادُه. ونحن نلتمس ذلك مستشفعين برحِم السّلطان بالخلافة، فهو والدُ

سبطكم الأمير جعفر، وبينكُم وبينه نسب، ونستشفع بالعترة النبويّة الّتي تجري دماؤها الزكيّة فيه.

بدا السّلطان متضايقًا من طلب الغزاليّ، لكنّه كان مأخوذًا بطريقته في الحديث. فقد كانت الكلماتُ تخرج من فيه كأنّها لؤلؤٌ منظوم، وهو واضحُ المخارج حلوُ الصّوت جميلُ الوقفات، كأنّ حديثَه موقّعٌ مع حركات رأسه ويدَيه.

وجلس الغزاليّ وهو ينظر إلى السلطان؛ فسرتْ في جنبات المجلس غمغماتُ استحسانٍ مكتومةٌ قطعَها دخول الوزير تاج الملك. رفعَ السّلطان يدَه مُشيرًا إلى تاج الملك بالجلوس عن يمينه. واعتَدَل ملكشاه في جِلْسَتِه مُردّدًا نظرَه في الحاضرين، ورفع حربَتَه:

- شكر الله مسعاكم أيّها الشّيوخ! وبارك خطاكُم وأدام حرصكم على السّلطان والخلافة. لكنّا كنّا رأينَا في هذا الأمر رأيًا وما نحن بمُراجعيه. وهو رأيٌ لم يكُ بالفطير ولا بالمتَّخَذِ بين يومٍ وليلة، ولا كان عن نزوةِ خاطر، ولا جموح فُؤاد. بل رأيٌ سديدٌ عتيق، قُلِّب على وجوهه ظَهرًا لبطنٍ حتّى نضج. فلقد تولّيتُ هذا الأمر عامَ خمسة وستّين وأربعمائة، وها نحن أولاء في عام خمسةٍ وثمانين وأربعمائة. وكنت قادرًا على إخراج الخليفة من بغداد في اليوم الأوّل، لكنّي تركت الأمر لمصلحة، وها أنا أعاوده اليوم لمصلحة.

وسكتَ السّلطانُ، وأخذ يتأمّل العيونَ الشّاخصة إليه، يريدُ أن يسبر وقعَ حديثه على الحاضرين. فقد بدأ منذ شهور يتعلّم الخطابة ورصفَ الكلام الفصيح. وكان معجبًا بما سمعه من نفسه، مُنصرِفَ الذهن إلى كيفيّة قولِه أكثرَ من اهتمامه بمضمونه. والتَفَتَ إلى تاج الملك، فوجد عَينَيه ممتلئتين رضًا وحُبورا. وردّدَ بصرَه في العلماء فرأى الضيق المتواري خلفَ

الشّفاه المبتسمة والعمائمِ الوقورة والعيون الساكنة. تأمّل الغزاليَّ فرأى في عَينَيه ضيقًا وتبرُّمًا، وحركةً خفيفةً في أسفل شفته تؤذن بتَوْق إلى الحديث. فاستحضر صلةَ الغزاليّ بنِظام المُلْك وبالخليفة، وأضمرَ في نفسه أمرًا بشأنه وقتَ دخوله بغداد. وصمت المجلس؛ فغلتْ رؤوسُ الحضور بالأفكار والخواطر والاحتمالات. وازدادَ تكاثف الصّمت مع مرور الثواني حتّى كأنّ الهواء انكتم داخل الخيمة الواسعة. وارتفعت العيون إلى السّلطان مستمطِرةً إشارةً أو نأمةً أو كلمة. فوقف فجأة:

- شكر الله لكم، لقد أخّرْتمُوني عن موعد صيدي!

واندفع ضاربًا بقدميه القويّتَين السّجّاد الأحمرَ. غادر المجلس، فلمحَ الخيولَ واقفةً تنتظره، وعُدّةَ الصيد محمولةً على البغال الواقفة وراءها. ثمّ جاء جنديٌّ عريضُ المنكبَين يركض مُقرّبًا جوادًا أبيض منه، فقفز على ظهره وانطلق. تصارخ الغلمان والجنود من ورائه، وجرت الخيول تنهب الأرض، وتعلّقتْ عيونُ العلماء بالغبار المتصاعد في الهواء. ورمق الغزاليّ الغبارَ المنتشر في الأفق مظلّلًا جهةَ بغداد، كأنّه نذير بشؤمٍ وشيك.

انشرح السّلطانُ وهو يرَى الأرضَ المتحرّكةَ من بين أذنيْ جواده الراكض، وأنصتَ مسرورًا إلى وقع حوافر الخيل من خلفه وعن يمينه وشماله. رفعَ بصره إلى الفضاء المبسوط مُفكّرًا في أيّام الصيد الّتي تنتظره. فلم يكن يحبّ شيئًا مثله، ولا كان يفخر بشيء فخرَه به. قلّبَ بصرَه في الأفق وفي الخيل الراكضة، وفي سماء بغداد، وتذكّر ما ينتظره من أمورٍ عليه أخذُ قراراتٍ حازمةٍ بشأنها. فغمز فرسه وصرخ به:

- أججج!

43

بغداد، 485 هـ.

كان الغزاليّ يحبّ التدريسَ في هذه الحجرة أكثر من غيرها، وذلك لوجودها في أعلى المدرسة واتّساعها لمائتيْ عمامةٍ وإطلالتها على الحديقة. فينصت الطلّاب إنصاتًا تامًّا لا يقطعه إلّا تغريد الطيور في الحديقة أثناءَ سكتاته. يتربّع على كرسيٍّ ضخم، وتستقرّ يداه على ركبتَيْه وهو يحرّك رأسَه ويديه شارحًا. وكان كلّ طالبٍ من الحضور يشعر بفخرِ الجلوس في حلقة دانشمند. فكلٌّ واحدٍ منهم إذا عاد إلى بلاده وحدَّث أنّه أخذ عن الغزاليّ ازدادَ بذلك شَرَفًا.

كان يتحدّث في أصول الفقه عن حجّيّة السنّة. فرفع طالبٌ نحيل الأطراف يدَه:

- أيّها الشّيخ، وماذا عمّن يشكّك في النبوّة ذاتها، وكيف يكون إثباتها عقلًا؟

- شوف، أيّدك الله!

برقت عينَا الطّالب، وثبّتَ كراريسَه في حضنه وأمسك قلمَه.

- إنّ جوهرَ الإنسان في أصلِ فطرته خُلق خاليًا لا خبرَ معه من عوالم الله تعالى، ولا عن الكون وطبيعته. وهو لا يتعلّم علمًا عن العوالم إلّا بواسطة الإدراك. وكلّ إدراكٍ من الإدراكات خُلق ليطّلع الإنسانُ به على عالمٍ مُحدّدٍ من الموجودات.

والتَفَتَ ناظرًا إلى حمامةٍ هبطتْ فجأةً على طرف النّافذة. ثمّ أعاد نظرَه إلى الطّالب:

- ونعني بالعوالم أجناسَ الموجودات. فأوّلُ ما يخلق اللهُ في الإنسان حاسّةَ اللّمس، فيدرك بها أجناسًا من الموجودات: كالحرارة والبرودة والرطوبة واليُبُوسة واللّين والخُشُونة، وغيرها. وهذه الحاسّة لا تستطيع إدراكَ الألوان أو الأصوات قطعًا. بل إنّ الأصوات والألوان معدومةٌ عند حاسّة اللّمس هذه. أليس كذلك؟

جاء صوت طالبٍ قصيرٍ وسط الحلقة يلبس طيلسانًا أصفرَ:

- بلى!

فوضع مرفقَه على فخذه ومال إلى الأمام:

- ثمّ تُخلق للإنسان حاسّة البصر. فيُدرك بها الألوانَ والأشكال. وهو أوسعُ من عالم المحسوسات، ثمّ ينفتح لهُ السمعُ، فيسمعُ الأصوات والنغماتِ، ثمّ يُخلق له الذوق.

وهكَذا إلى أن يجاوز عالمَ المحسوسات. فيخلق فيه التمييز، وهو قريبٌ من سبع سنين. وهذا طَورٌ آخر من أطوار وجوده وإدراكه. فيدرك فيه أمورًا زائدةً على عالم المحسوسات، ولا يوجد منها شيءٌ في عالم الحسّ، ثمّ يترقّى إلى طَوْرٍ آخَر، فيُخلَق له العقل؛ فيدركُ الواجباتِ والجائزات والمستحيلات العقليّة، وأمورًا أخرى لا توجد في الأطوار الّتي قبله.

ورمقَ الطّالبَ صاحبَ السّؤال، فلمحَ في عَينَيْه بريقَ الاستزادة، فمالَ في كرسيّه رافعًا يديه:

- ووراء العقل طورٌ آخرُ تنفتح فيه عينٌ أخرى يبصر بها الغيبَ وما سيكون في المستقبل، وأمورًا أخرى لا يستطيع العقلُ رؤيتها

لأنّه معزول عنها كعَزل قوّة الحسّ عن إدراك الألوان وعن أمور العقل. فكما أنّ غير العاقل لو عُرضتْ عليه مدركاتُ العقل لأَباها واستَبْعَدَها، فكذلك بعضُ العقلاء أبوْا مُدركاتِ النبوّة واستبعدوها، وذلك عين الجهل.

وطُرق بابُ الحجرة، فسكت الغزاليّ. والتَفَتَت العمائمُ إلى الباب الّذي سدّته جبّةٌ بنّيّةٌ وعمامةٌ ضخمةٌ صفراء:

- عذرًا أيّها الشّيخ. أنا ناظرُ رِباط أبي سعيد، وأودّ الحديث إليكم.

عادت عيون الطلّاب إلى الغزاليّ المعروف بضيقه بقطع الدروس. لكنّهم فوجئوا به يُشير إلى الرجل بالدّخول. واقتربَ ناظر الرباط، فمالَ الغزاليُّ جهتَه، فتشاغل الطلّاب بالأحاديث كي لا يسمعوا نجواهما. واقتربَ النّاظر من أذن الإمام:

- تذكرون الشّيخ الأصلع النيسابوريّ؟ فقد علمتُ من بعض رفاقه أنّكم تعرفونه؟

- أجل، ما باله؟

- لم نجد له أثرًا منذ أسابيع. وقد قلبتُ بغدادَ بحثًا عنه، فلم أعثر له على خبر. لكنّ ورّاقًا أخبرني أنّه سمع عن قبض أحدِ القادة الأتراك على شيخٍ في السّوق وغالبُ الظنّ أنّه هو.

- نعم!

- أودّ منكم محادثةَ أحدِ رجال الدّولة للبحث عنه، فلعلّ «أصحاب الخبر» رأوه أو سمعوا عنه.

اعتدلَ الغزاليّ في كرسيّه وهو يبحث في ذهنه سريعًا عمّن سيُكلّم. *هذا أمرٌ أحقرُ من أن أكلّم فيه الخليفةَ، فمَن أكلّم؟* ولاحظ النّاظرُ شرودَ ذهنه، فخاف أن يكون رفضًا للطلب، فبادر بلهجة مشفقة:

- الشّيخ لا أهل له إلّا أهل الله! وأخشى..

- الخطب سهل، دع الأمر لي.

تورّدَ وجهُ النّاظر امتنانًا، وكاد يقفز ليقبّل عمامةَ الإمام. فقد كان ينظر إلى كلّ صوفيّة الرباط على أنّهم عِيالُه رغم المعاملة الغريبة والحزم في تدبير شؤون الرباط. وضمّ عليه جبّتَه مبتعدًا متواريًا وراءَ الباب. ثمّ جاء صوتُ الغزاليّ كأنّه لم يتوقّف عن الحديث:

- ومن ينكر الغيبيّاتِ لتعذُّر آلتِها معَه فلا دليل لديه، إلّا أنّه طورٌ لم يبلغه ولم يوجد في حقّه فيظنّه غير موجود. فالأكمه لو لم يَعلم بالتواتر والتسامع عن الألوان والأشكال، وحُكي له ذلك ابتداءً، لم يفهمها ولم يُقِرَّ بوجودها لعدم وجود آلتها معه.

وارتفعت يدٌ من الصفّ القريب من الباب:

- وهل وهبنا الله من عقولنا أو تجاربنا ما يشير إلى تلك الخاصّيّة الغيبيّة النبويّة؟

- طبعًا!

أزاح الغزاليّ قدمَيه ووضعهما وسط الكرسيّ متربّعًا. وهو تصرّفٌ يعرف طلّاب النّظاميّة كلّهم أنّه إشارةٌ منه إلى اهتمامه بما سيقول:

- لقد قرّب الله تعالى إلى خلقِه فهمَ إمكانِ النبوّة بأن أعطاهم نموذجًا منها وهو النوم. فالنائم يدرك ما سيكون من الغيب، إمّا صريحًا وإمّا في كسوة مثالٍ يكشف عنه التعبير. وهذا لو لم يجرّبه الإنسانُ من نفسه وقيل له: إنّ من النّاس من يسقط مغشيًّا عليه كالميّت، ويزول عنه إحساسُه وسمعُه وبصرُه فيدرك الغيبَ، لأنكرَ ذلك، وأقام البرهانَ العقليّ على استحالته وقال: إنّ القوى الحسّاسة هي أسباب الإدراك! فمَن لا يدرك الأشياءَ مع وجودها وحضورها

أثناءَ اليقظة كيف يدركها مع ركودها أثناء النوم؟ فالسمع والبصر والعقل واللّمس هي أدوات الإدراك، فكيف يعرف الإنسان غيبًا وقد خمدت هذه وغابت بسبب النوم. العقل يعارض هذًا.

وتلفّت إلى الطيور المتقافزة على رأس الشّجرة في الحديقة، ثمّ واصَل:

- وهذا نوعٌ قياسيّ يكذّبه الوجودُ والمشاهدة. فمَن منكم لم يرَ أمرًا في المنام ثمّ وقعَ بعدُ؟ فكمَا أنّ العقل طورٌ من أطوار الآدميّ، تحصل فيه عينٌ تُبصَر بها أنواعٌ من المعقولات -والحواسُّ معزولة عنها- فالنبوّة أيضًا عبارةٌ عن طورٍ تحصل فيه عينٌ لها نورٌ يُظهر في نورها الغيبَ، وأمورًا لا يدركها العقل.

واسترسل في تبيان أدلّة النبوّة عقلًا، ثمّ خطرت له حاجتُه إلى التنبّؤ. *فما الّذي سيقع بين الخليفة وملكشاه؟ هل سُيطرد آخر خليفةٍ من بغداد ويعيش في مكانٍ آخر؟ أتقبل الجنود النّظاميّة بذلك؟ أم ستحُلّ الرحمةُ بالخليفة فيرقّ قلب ملكشاه وهو في صيده فيعود بنّية أخرى؟*

ولاحظ الطلّابُ انشغالَ ذهنه. فارتختْ أيديهم، ووُضعت الأقلام على الكراريس دون أن يتجرّأ أيٌّ منهم على تنبيهه. كان سادرًا ساهيًا يفكّرُ في عبثية الدّنيا وتقلّباتها. *كيف أصبح الخليفةُ العبّاسيّ عاجزًا عن حماية نفسه، بلْهَ حماية مملكته؟*

وانتبه من تفكيره، فوجد عيون الطلّاب تفترسه. فتنحنح قليلًا، ثمّ انطلق يواصل كلامَه في النبوّة.

44

أطراف بغداد، 15، شوال، 485 هـ.

كان السّلطان ملكشاه يتهادى بين غلامَين أبيضَين طويلين. يعضّ شفتَه السّفلى، ويُقطّب جبهتَه ويتنفّس نفسًا حارقًا. تطلّعت إليه العيون من أطراف المعسكر، وغَلَتْ أدمغةٌ تتساءلُ عمّا أصابَه. وما إنْ دخل خيمة تركان خاتون حتّى تداعى جسمُه المنهكُ على السّرير متأوّهًا. فمسحت جبهتَه مشيرةً إلى الغلامين بالابتعاد، وقالت:

- ألمْ أقلْ لكَ أن تترك هذا الصيد؟

- آه.. آه.. ادعِي لي الطّبيب.

وبعد دقائقَ دخل الطّبيبُ الخيمةَ متهيّبًا. أدارَ بصره في حناياها، فوقع نظرُه على فُرجة:

- سُدّوا تلك الفرجة، فأسوأ ما يؤذيه البرد.

جسّ نبضه، وطلبَ عيّنةً من بوله، ثمّ قال:

- أيّها السّلطان! لمَ افتصدتَ في مكان الصيد؟ كان ينبغي الانتظارُ حتّى ترجع.

قطّب السّلطان، وتسارعتْ حركةُ جفنَيه وهو يشعر بألمٍ حادٍّ في أطراف جسمه، وقال بصوتٍ متقطع:

- أقدار الله! ما أراها إلّا النهاية! فما شعرتُ قَطُّ بما شعرتُ به اليومَين الماضيَين.

قالت تركان كأنّها تصرخ:

- بل هي العافيةُ أيّها السّلطان!

فتحَ الطّبيب خَرْجَه، ونظر داخله، ثمّ قال:

- هذا الدواء عندي ذرورٌ ومرهم، فأيّهما تفضّل أيّها السّلطان؟

- المرهم!

- ضعوه على أماكن الفصد، وأطعموه الطّعام الّذي سيأتيكم الغلام بصفته بعد قليل. وفي الصباح سأعود إليكم.

خرج الطّبيب، فأغلقت تركان بابَ الخيمة، وجلست قربَ ملكشاه. *ما الّذي أصابه يا ترى؟ مَن كان معه في رحلة الصيد؟ هل كان فيهم بعض خُلَّصِ نِظام المُلْك؟ هل آذوه؟* مرّت دقائق وهي تفكّر هل تسأله تلك الأسئلة، لكنّها عدلت عنها، وهي تقول:

- هل أكلتَ شيئًا لا تعرفه؟

لم يُجبها، وانقلبت حدقتَا عَينَيه، لكنّ صدره ما زال يتحرّك ففزعت. ووضعت يدَها على صدره:

- سلطاني!

فتح عَينَيْه بجهد:

- نعم.. أنا.. نعم.

وسمعت أذانَ العشاء تخالطُه حمحمةُ الخيل. وهبّت رياحٌ باردة، ولم تمضِ ساعةٌ حتّى ضجَّ المعسكر بالتساؤل عمّا أصاب السّلطان.

وبُعيد منتصف اللّيل بقليلٍ جلست تركان في خيمتها صامتةً حزينةً عازمةً على كتمان الأمر. *لن يعلم الذباب بما جرى.* أُدخلت عليها جواريها اللصيقاتُ بها الواحدة تلو الأخرى. فلاحتْ لهنّ عيناها تلمعان حزمًا تحت ضوء المصباح الخافت، والوزير تاج الملك جالسٌ قربها، ووراءه جنديٌّ يحمل سيفًا مصلتًا يلمع. قالت مُحِدّةً نظرها إلى الجواري هامسة:

- إذا نطقتْ واحدةٌ منكنّ اسمَ السّلطان فستذبح بهذا السيف! أقبِلْنَ على شؤونكنّ ولا تتحدّثن أبدًا.

وحرّك الجنديّ سيفَه في الظّلام فانعكسَ عليه ضوء المصباح. وخرجت الجارية الأولى لا تبصر أين تضعُ قدمَها جزعًا، فتعثّرتْ بطرف سجّادة، فسقطت على الوزير، فنهرتها تركان وفي صوتها تطيُّر:

- قومي! لا أقال الله لك عثرة!

تفرّقنَ سريعًا حذراتٍ متواريات. وبقيت السّلطانةُ والوزير. تهامسَا واتّفقَا على ما ينبغي فعلُه بدقّةٍ غير تاركَين شيئًا للمصادفة. ثمّ خرج الوزيرُ يتلفَّتُ مِنْ خَيْمَةِ السّلطانة بُعيدَ منتصف اللّيل.

جلستْ على سريرها بجنب السّلطان. ولمّا كشفتْ عنه اللّحاف الأبيض رأته مغمضَ العينَين فاغرَ الفمِ، متصلّبَ الأعضاء. فرفعت المصباح، وقرّبتْه منه، فرأت يدَه قربَ يدِها وسبّابتُه مثنيّة، فلمستها لتقيمها فوجدتها صلبةً باردةً يابسة. تذكّرت الأصائلَ العذبةَ وأوقات السّعادة معه. تذكّرت ضحكتَه وقوّته وملكَه.. لقد ذهب كلّ ذلك!

لقد توفّي الرّجل الّذي كان يملك جميعَ بلادِ ما وراء النهر، وبلادَ الهياطلة، وبابَ الأبواب، والرّومَ وديارَ بكر، والجزيرة، والشّام. وخُطب له على جميع منابر الإسلام سوى بلاد المغرب. وكشفت مرّةً أخرى عن وجهه مفكّرةً في أنّ هذا الوجه الميّتَ الشّاحبَ كان يملك من كاشغر إلى بيت المقدس طولًا، ومن القسطنطينيّة إلى بلاد الخزر وبحر الهند عرضًا.

واستلقت جنبَه بعينَين مفتوحتَين في انتظار الصباح، وأخذتْ تفكّرُ في خطّة انتقال المُلْك إلى ابنها. تنفّست متقلّبةً في فراشها، فاركةً وجهَها بكفّيها. فأحسّت بدبيب ألمٍ في قلبها. *أين الوفاء؟ لمَ لا أحزن على زوجي بما يكفي؟ لمَ ينصرف ذهني إلى توطيد السّلطنة دون حُزن عليه؟ زوجي الّذي*

منحني حقَّ الدّخول والخروج على الديوان دون زوجاته، وحقَّ السّفر معه أنّى شاء! زوجي الّذي كان السبب في كلّ ما أنا فيه! ثمّ تخيّلت ابنَها محمودًا سلطانًا مُبَايَعًا، وهي تدير الأمر كلَّه في أرجاء الدّولة من الصين شرقًا إلى الشّام، ومن بَلْخَ إلى تخوم صنعاء.

سامرتْها أمانيُّ القوّة طيلة ليلها، فلم تذق نومًا. وعند انشقاق الفجر كان غلامٌ قصيرٌ يتربّع على بغلةٍ تركض في أرجاء المعسكر مناديًا:

- السّلطان يأمر بالرحيل! السّلطان يأمر بالرحيل!

تحرّكَ الجيش مُشرِّقًا يتوسّطه هودجٌ ضخم مستورٌ بالديباج يحمل جثّةَ السّلطان الملفوفةَ في لحافٍ مملوءٍ بالملح والكافور وأخلاط من الأعشاب الحافظة. وكانت تركان في الهودج الأصفر الملاصق له تراوح النظرَ بين هودج السّلطان وابنِها ذي السنوات الخمس. راحتْ تستعيدُ الخطّةَ الّتي أعدّتها. ينبغي إسراعُ السّير للوصول إلى أصفهان. فهناك عشرة آلاف جنديٍّ ستكسبهم إلى صفّها وتتخلّص من ابن ملكشاه بركيارق ومن أمِّهِ زُبيدة. ثمّ تبعث رسالةً إلى الخليفة تطلب فيها مباركةَ تنصيب ابنها محمود سلطانًا على المسلمين.

45

بغداد، 485 هـ.

كان الدّربُ خاليًا إلّا من كلبٍ شاردٍ يمشي لاهثًا مُلتصقًا بالحائط. شعر بالهواء البارد يتسلّل بين الدور العالية غازيًا بغدادَ المتوثّبَةَ لليلةٍ جديدة. هبّت أنسامٌ نديّة على وجه الغزاليّ وهو يعبر شارع باب الكوفة إلى شارع الرقيق. لامس الندى وجهَه فالتفتَ ملاحظًا أنّه آتٍ من الفراغ بين البيتين المُطلّين اللّذين يتسلّل من بينهما ضوء القمر. أدخل يديْه في جبته وأرخى طرف عمامته على وجهه وهو ينظر إلى عمارة المسجد الشامخة الراسخة كأنّها تُديم ثباتَ أقدام الأبدِ المتخشّبة. اختلس أنفُه رائحةَ الرياحين المشوبة برائحة الجلود، وهو يتذكّر أنّ سوق الجلود غير بعيد. أنصتَ لصفير الريح العاوية في الطّرقات والأزقّة الموحشة فخُيّل إليه أنّها تعصف بكل مواريثه من العقائد والعادات والاطمئنان. تخيّل صدرَه قاعًا صفصفًا لا نبات فيه! شعور مرعب مخيف! وحشةٌ طاغية وسواد بهيم. *أين ذهب كلّ ذلك اليقين؟ كيف اقتلعته الأسئلة المتراصة، والثقة المُوغلة في النفس من الوقوف على كلّ يفاع، وتقحّمِ كلّ فرقةٍ، ومجادلةِ كلّ صاحبِ مذهب؟!*

ظَلَّ يفكّر في جدوى صلاة العشاء الّتي صلّاها آنفًا، وعقله يرمي أسئلةً يمانعُ قلبُه التّفكيرَ فيها، حتّى وصلَ إلى مدخل داره، ففتح له الخصيّ الباب. فنزع خفَّيْه، ومشى في الدّهليز، ثمّ صعد السلّم عن يساره. ومشى في الدّهليز العلويّ حتّى دخل الحجرة الأولى عن يمينه.

كان يقضي معظم وقته داخل هذه الحجرة الّتي تغطّي الكتبُ ثلاثة

جوانب منها، ويتربّع وسطها سرير مفروشٌ بالقماش النيسابوريّ وطاولةٌ وكرسيّ.

وقف أمامَ رفوفِ الكتب، فشعُر بزُهدٍ في القراءة وعبثيّةٍ في كلّ شيء. رمى جسدَه على الكرسيّ. *هل هذه هي الحياة التي كنتُ أتمنّاها منذ زمن؟ هل هذه هي نتيجةُ كلّ ذلك الكدح ومواصلة سهر اللّيل بكَلال النهار؟ هذا البيت الواسع والصيت الذائع، وتلك المكانة في القلوب؟ ألمْ أحقّق كلَّ ما رجوته؟*

رفع وجهَه في زخارف السّقف تحت أشعّة المصباح، فتخيّلها رسومَ أطفالٍ يعبثون. رأى الكتب المصفوفة، والستارةَ الطّويلة، وأصغى إلى الخادم أسفلَ البيت يغنّي.

خلع عمامته وقلنسوته وجبّته، وبقي في قميصه. ثمّ فركَ وجهَه بيديه. *لم لا تهجُم السّعادةُ على أحدنا لحظةَ حصوله على مبتغاه؟ لم نتصوّرها بعيدةً متمنّعةً مشتهاةً مربوطةً بمنصبٍ أو محبوب حتّى إذا قبضنَا على المتعة والتَفَّتْ أيدينا على خصر المحبوب تبخّرت السّعادة المتصورةُ وحلّت محلّها نوازعُ وخواءٌ وتبلُّدٌ ومواتٌ بين الجوانح؟ أين القلب المضطرب التائقُ إلى المُتخَيَّل؟ أين اليد المرتعشة الساعية إلى المطلوب؟ أهذه آفة الهمّة العالية والطموح الوثّاب؟ أهو الشّغف الأبديّ بالنصف الغائب، وبالشّخوص الظاهرة من بعيد؟ لم نتوهّم جمالَ المعدوم ونضيقُ بجمال الموجود؟ متى تأتي السّعادةُ المنتظَرة؟ واليقين المشتهى؟ متى يسكن هذا الجناح عن الطيران رضًا وقنوعًا، وتنقبض تلك الرّجلُ عن السعي حبورًا، ويسكت هذا اللّسان عن الهذر يقينًا؟*

أنزل يدَيه ووضعَهُما على ركبتَيه، وتأوّه عاليًا، ثمّ تَلفَّتَ خَوْفَ أن تكونَ خَلُوب أو الخادم يسمعانه.

تذكّر أيّامَ كدحه طالبًا عند الجوينيّ في نيسابور. وشخصت في ذهنه ساعاته الصافيةُ مع إلْكيا الهراسيّ والخوافيّ والنبهانيّ يتنافسون في حفظِ المسائل وخوضِ المناظرات وكَسبِ قلبِ شيخهم.

كنتُ سعيدًا يومَها، لكنّي لا أعلم أنّي سعيد. حتّى عندما كنتُ يتيمًا في الطابران ألجأُ إلى أمّي يومَيْ الخميس والجمعة كنتُ سعيدًا طيّبَ النفس، لكنّي ما وجدتُ من ينبّهني إلى أنّي سعيد. أتحتاجُ السّعادة إلى منبّهٍ من الخارج؟ أتحتاجُ إلى هزّةٍ وفَقْدٍ لتُعرَف؟

وتسارعت نبضاتُ قلبه. *لَم يمرّ أحدُنا بلحظاتٍ يحسبها تعيسةً حتّى إذا ما ولّتْ غاربةً ركض متشبّثًا بعباءتها ناظرًا إليها بعين الرضا والشّوق؟ أهو خداع الذاكرة؟ هل الوقت المنسرب من بين أصابعنا يزدادُ جمالًا كلّما ابتعد، ويلتحف ثوبًا قدسيًّا إذا ولّى وأدبر؟*

ارتخى في كرسيّه، وأدارَ بصرَه في رفوف الكتب. *ما هذه النفس البشرّية؟ ما هذه البئر الحالكة العميقة؟ نفسي الّتي بين جنبيَّ لا أعرفها، فأنّى لي بمعرفة نفوس النّاس؟ كيف يدّعي الأحمق معرفةَ صديقه أو حبيبِه وهو لا يعرف نفسَه؟*

وتذكّر أنّ كلّ هذه الخواطر إنّما هي هربٌ من السّؤال الأخطر الّذي وقعَ عليه في المسجد. *هل لهذه الصّلاة الّتي كنت أصلّيها فائدة؟ ما أدراني أنّ هذا دينٌ ورثتُه كما ورث النصرانيّ دينَه واليهوديُّ ملّتَه؟*

أحسّ بالأرض تهتزّ تحت قدميه. *أنتَ الّذي تتحلّق حولك ثلاثمائة عمامةٍ من شباب المسلمين كلَّ يوم راجيةً علمَك، ويطاردك المسلمون الباحثون عن اليقين، تسكن قلبَك هذه الخواطر والشّكوك؟ من هذا المريض الّذي يداوي النّاس وهو عليل؟*

واستعادَ الوجوهَ الشّاخصةَ والعيونَ النّاظرةَ إليه غبطةً وحبًّا. استعادَ

صورتَه وهو لا يكاد يخرج من مسجد النّظاميّة لكثرة المتدافعين حوله. وشخصت في ذهنه صورةُ فتاةٍ عطرةٍ وقفتْ ساعاتٍ تسألُه عن عِدَّتها وطلاقِها حتّى يطمئنّ قلبُها أنّها حلالٌ لزوجها بعد قصّة طلاقٍ ملتبسة. وكيف رفضتْ السماعَ من كلّ فقهاء بغداد مصرّةً على ألّا تعود إلى زوجها إلّا إذا أفتاها دانشمند.

كلّ ذلك وأنتَ هنا مشتَّت الخاطر ضعيف النفس تسكنك هذه الخيالات. ثمّ همسَ بلسانٍ كليلٍ متعثّر:

- أستغفر الله!

أخذَ الكرسيّ، ومشى جهةَ الستارة وجلس. أزاحَها، وملأ عَينَيه من بغداد الخاشعة تحت ليلةٍ شاتية. لمحَ رؤوسَ النخيل تحت أشعّة القمر، ومناراتِ المساجد تتنهّد مناجيةً السّماء من الجهات الأربع، والشّوارعَ تودّعُ خُطُواتِ الكادحين الأخيرة بعد يوم مليء بالأعمال والأثقال.

بدا له نهرُ دجلة في الأفق ساكنًا وادعًا كأنّه بحيرةٌ سرمديّة. *كم مَرَّ على ذلك النهر من كبيرٍ ووزيرٍ وفقيرٍ، ثمّ انقرضوا. أين هم الآن؟ ماذا لو حكى ذلك النهرُ عن العابرين على قنطرته، والغارقين في أحشائه، والعاشقين المتناجين على ضفافه. كأنّ الرشيد ما مرّ عليه، وكأنّ المأمون ما نظر إليه، وكأنّ المعتصم وأتراكَه ما عبروه!*

أحسّ ببرودةٍ في قدمَيه وذهنُه يعود إلى ذلك التساؤل: *ما قيمة كلّ هذا؟ ما قيمة هذا الزيف؟ ما قيمة هذه العلوم إذا كانت أُسُسها غير صحيحة؟ ما أدراني أنّ هذا كذب؟ كيف أعرف أنّ هذه العقيدة الّتي أدين بها صحيحة؟ وكيف أعرف أنّني أعرف؟*

وسمعَ قرعًا على الباب. ودخل الخادم يحمل طبقًا وضعه على الطّاولة وخرج. نظر إلى الطبق؛ خيارٌ وجبنٌ وحليبٌ وعسلٌ وخبز. وخطر له أنّ

هذا علفُ دابّة. نأكل ثمّ نَتَسافَدُ وننام. ما البشر إلّا مجموعة من الكلاب تتهارش على جيفة الدّنيا. نتزّيا بالأزياء لسَتر عوراتنا، ثمّ نلتقي لنتهارش على هذا العلف وذلك النكاح! لقد صدق ابن السّماك: «لولا ثلاثٌ لم يقعْ حيف، ولم يُسَلّ سيف: لقمةٌ أسوَغُ من لقمة، ووجهٌ أصبحُ من وجه، وسلكٌ أنعم من سلك»!

نادى الخادمَ فجاء راكضًا:

- خُذ هذا الطّعام!

انحنى الخادم الأشقر على الصحن، وخرج حائرًا في ما غيّرَ مزاجَ سيده. جرّ الغزالي قدمَيه، وارتمى على السّرير محدّقًا في السّقف. *إنّما هذه وساوس الشّيطان يقذفها في قلب المؤمن ليحرمَه تذوّقَ نعمِ الله الّتي مَنّ بها عليه. لا بدّ من طرد هذه الشّكوك العابرة، فما هي إلّا حديث نفسٍ سينتهي بعد ساعات.* ورفع وجهَه ودلّك جبهتَه متعجّبًا من تعرّقها في الجوّ البارد.

لمحَ خيالَ خَلُوب مقتربة. وقفتْ متشبّثةً بمصراع الباب وشعرُها المنسدل يلامسُ أحد جانبَيه. كانت في ملابس نومٍ زادتها بهاء. قامةٌ معتدلة، وجسمٌ مجدول، وشعرٌ منسدلٌ أخّاذ، ووجهٌ وضّاءٌ في ليلٍ بغداديٍّ بارد. نظر إليها بلامبالاة. ففاجأه صوتُها الطافح بهجة:

- أما علمت؟ أما علمت؟

- ماذا هناك؟

فقفزت، وجلست عند قدمَيه وأمسكت بيدَيْه:

- إنّي حامل!

قالتها، وحاولت الحديث، فانعقد لسانُها بهجةً، وظَلّ فكُّها يرتجف دون صوتٍ والدموع تنهمر على خدّيْها.

كانت عيناها طافحتَين بالغبطة المنفلتة، والسّعادةِ الآتيةِ بعد الانتظار

الطويل. وكان خيالُها مسكونًا بكلّ معاناتها وذكرياتها، وهي تفكّر في شعورها يومَ تنظر إلى طفلٍ من دمها ولحمها، يوم ترى بشرًا يتحرّك على ظهر الأرض ذا صلةٍ بها. *أخيرًا سيكون لي طفلٌ أشدّ به ظهري، وأحدّثُه عن همومي؟ أخيرًا أجد صلةً بأشخاص ليست صلةَ أَمَةٍ بسيّدها. أخيرًا سأصبح أمّ ولد حرّة بحكم الله!*

وقفت، وبدأت تجول في أطراف المكتبة صارخة:

- إنّي حامل يا سيّدي! سيكون لك ولد! سأكون حرّة!

كانت تتحرّك وجبينُها يعرق، ويداها ترتجفان. تذكّرت صورةَ أمّها الباكية دومًا، وصورةَ الفتيات اللّائي كانت تراهنّ يقبّلن أطفالهنّ وتتساءل عن شعورهنّ. *هل ستجرّب هي ذلك الإحساس أخيرًا؟ هل ستنعتق من العبودية؟ سيصبح للفظها معنى، ولمواهبها وزن، ولكلامها سامع.* قفزت وجلست بقربه:

- إنّي حامل! سيكون شابًّا وسيمًا مثل أبيه!

انتابته سعادةٌ عقليّةٌ لم تلامس فؤادَه. فقلبُه ما زال مسكونًا بتلك الأسئلة المقلقة. *ما قيمة كلّ هذا؟ كيف تستطيع هذه أن تفرحَ كلَّ هذا الفرح؟ هل وجدتْ أجوبةً على الأسئلة الأبديّة؟ هل فهمت طبيعة الكون؟ هل اتّضح لها نظام المجرّات؟*

عاد إلى نفسه مؤنّبًا، وحمدَ الله على حملها، وتخيّل نفسَه أبًا فاقترب منها:

- الحمد لله. أسأل الله أن يكون ولدًا مباركًا.

استلقت إلى جانبه وقلبُها يضطرب. أمّا هو فانطلق لسانُه بالاستغفار. وخطرَ له أن يُصلّيَ ركعاتٍ لعلّها تعيدُ إليه بعض الطمأنينة. فأزال يدَها عن صدره، وجلس على حافّة السّرير، وأنزل رجليه، فتفاجأ بأنّ كلّ ذرّةٍ من ذرّات جسمه ترتجف.

46

أزاحَ عمامتَه، ووضعها بين يدَيه، وتأوّه:

- يكفي هذا اليوم!

لكنّه أفاق على العيون المتطلّعة والشّفاهِ المفتوحة والحواجبِ المتخلّجة، فانتبه. ردَّ عمامتَه إلى هامته متمتمًا:

- عذرًا، فأنا لم أنم البارحة، وقد عجبتُ من تدريسي إيّاكُم اليوم.

خرج من الحجرة سائرًا مع الممرّات المكتظّة، مُسرِّحًا طرفَه مع شرفات النّظاميّة. لمحَ الطيور تحلّقُ على الأسوار، ورؤوسَ الأشجار مشرئبّةً من وراء حيطان النّظاميّة، وبحرًا من العمائم والقلانس يتحرّك في باحات المدرسة. نزل الدرجَ متجاوزًا النّافورة في اتّجاه المكتبة وذهنُه مشغولٌ بذهابه إلى شِحْنة بغداد للسؤال عن طيفور. لا بدّ أن يذهب اليومَ، فلعلّه يُنفّس كربةَ الشّيخ الأصلع.

كان يشعر بتضايقٍ سببُه أرقُه وشكوكه، ففي لياليه الماضيات لم يقرأ غيرَ كتبِ ابن سينا والفارابي وأرسطو. دخل باب المكتبة، فتلقّاه جوهر بنشاطه العاديّ:

- دانشمند!

أمسك بيده، وتجاوز به النّضدَ إلى الجلسة الدّائرية في الطرف وهو يقول:

- ما جديد الدّنيا؟ وما الّذي يتهامس به ناسٌ دون ناس؟

أمسك الغزاليّ رأسَ الكرسيّ، ودفعه قائلًا بنبرةٍ مرهقة:

- شوف، أيّدكَ الله! النّاسُ لا يتهامسون الآن. فقد استغنوا عن ذلك وصاروا إلى الحال التي وصف المعرّي.

وجلسَ جوهر وهو يتخازرُ بعَينَيْه الشّهلَاوين ويُجِدُّ أذنَيه:

- وماذا قال؟

- والخيرُ يُهمَسُ بينهمْ ويُقام للسَّوْآتِ منبرْ!

ضحكَ حتّى ظهر سوسُ أسنانه، وانكتمت الضّحكةُ فجأةً وهو يميل جهةَ الغزاليّ:

- لكنّ أمرَ هذا العالم قائمٌ على التهامس. فكلّ أمرٍ ذي بالٍ مكتوم، وكلُّ بيتٍ يحوي مهمًّا مُوارَبُ الباب، وكلّ عضوٍ جميلٍ مستور.

وأيقظت عبارةُ «الجميل المستور» في ذهن الغزاليّ قصّةَ حسناء الرّصافة وتَظاهُرَ جوهر بالعشق، فأراد استثارته ليخفّف عن نفسه. فلمّا همّ بسؤاله، جاء صوتٌ من جهة الباب:

- السلام عليكم!

والتَفَتَت الوجوهُ إلى الرّجل الداخل عجِلًا من باب المكتبة. فظهر ناظر الرباط يمشي ورأسُه يتأرجح يمنةً ويسرة، وقال بأنفاسٍ لاهثة:

- دانشمند! يمكننا الذهاب الآن إن شئتم!

فوقف الغزاليّ. وانصرف ذهنه إلى الشّيخ الأصلع طيفور. فرفع جوهر يدَيه في الفضاء محتجًّا والفضولُ يخنقه:

- إلى أين أيّها النّاظر؟ إلى أين تأخذ سيّدَنا ومولانا؟

فهم الغزاليّ أن السّؤال نابعٌ من الحرص على معرفة الأخبار لا من التعلّق ببقائه فقال:

- ذاهبان للشفاعة في أحد المسجونين.

عندئذٍ وقف جوهر عجلًا، فسقطت من جَيبه ورقتان مكتوبتان باليونانيّة، فاحمرّ وجهه والتقطهما بسرعةٍ مرتبكًا وقال:

- ماذا؟ إلى أين ستذهبان؟

انتبه الغزاليّ إلى ارتباكه، فألحّت عليه أسئلة: *ما الّذي أربكه؟ هل للأمر علاقةٌ بالورقتين؟ ما فيهما إذَن؟* وخطر له أنّهما تتضمّنان نصوصًا فلسفيّةً أو دينيّةً لا يريد لأهل النّظاميّة معرفةَ أنّها معه. وخرج مُفكّرًا رفقةَ ناظر الرباط، بينما أفسح له جوهر الطّريق. ولم تمض ساعةٌ حتّى كان يدخلان قصرًا كبيرًا يُطلّ على دجلة.

دقّ النّاظر الباب، فجاء غلامٌ يسعى:

- من؟

تلعثم النّاظر:

- قل للقائد إنّ الإمام الغزاليّ وناظرَ رباط أبي سعيد بالباب.

تفحّصهما الغلام من رأسيهما إلى أقدامهما، ثمّ ابتعد. فمالَ النّاظر على طرف الباب متنفّسًا:

- كيف سوّلت لهذا الأبله نفسُه أن يسجنَ طيفورا؟

حرّك الغزاليّ حاجبَه طالبًا من النّاظر خفضَ صوته، وسمعَا خَفْقَ نعلِ الغلام، وصريرَ الباب، فظهر رجلٌ طويلٌ يلبس ملابسَ الكُتّاب، وقال ضاحكًا فاتحًا ذراعَيه:

- أهلًا وسهلًا بالإمام والنّاظر... تفضّلا.

مشى أمامهما عجِلًا مُرحّبًا، مُباعدًا بين خطواته، وقادَهما إلى مجلسٍ مستطيل. وما كادا يستقرّان فيه حتّى دخل القائد طُغْتِكِين. كان ضخمَ

البنية قصيرَ القامة حادَّ النظراتِ. فخُيّل للغزالي أنّه رآه من قبلُ. *أين رأيت هذا الوجه؟ لعلّه كان من القوّاد الّذين رأيتهم في بلاط تركان خاتون يومَ زرتُها لإقناعها بشروط الخليفة لتنصيب ولدها سلطانًا*. ولاحظ طغتكين انشغالَ ذهن الغزاليّ، فالتفتَ إلى مترجمه، وقال:

- قل لهما إنّي سعيدٌ بزيارتهما.

مرّت دقائق في السّلام والكلام، ثمّ تنحنح الغزاليّ وتحدّث عن اعتقال الشّيخ الأصلع. فقال القائد لترجمانه:

- قل له إنّي سعيدٌ بهذا السجين. فقد كان سجنه بركةً أتت بالشّيخ الغزاليّ إليَّ.

فهزّ الغزاليّ رأسَه باسمًا:

- بارك الله في القائد، وأنا لا أشكّ في أنّكم لو عرفتُموه لما سجنتُموه!

تمدّد القائدُ التركيُّ على أريكته، فظهرت قامتُه كأنها أقصر ممّا كانت عليه. وبدت عيناه أضيق. ثمّ رفع ذراعَه المفتولة إلى الحاجب:

- قل للإمام إنّي سأسجن صوفيًّا كلَّ شهرٍ حتّى يأتيني هو والأستاذ النّاظر!

وضحك قبل أن يترجم الحاجب الكلمة. فضحكًا مجاملةً له. وصفّق طغتكين، فجاء جنديٌّ راكضًا، فهمس في أذنه:

- تصحب الشّيخ فورًا إلى المطبق، وتسلّمه السجينَ الّذي أمرتُ بسجنه منذ فترة.

فوجئ الغزاليّ بأنّ كلَّ شيءٍ وقع بسرعة. وبعد برهةٍ كان ثلاثتهم يسيرون في أكبر شارعٍ بالجانب الغربيّ من بغداد في طريقهم إلى السجن. ركبَ الغزاليّ بغلتَه الفارهة الشّهباء بينما مشى الجنديّ عن يمينه والنّاظر

عن يساره. نسيَ إرهاقَه وهمومَه الفكريّة وهو يتأمّل قصّة طيفور. كيف *سوّلت للقائد طغتكين نفسُه أن يسجنه؟ أيسجن مثل طيفور الأصلع؟* وسرح ذهنُه مُتأمّلًا وجه طيفور، وتذكّرَ مواقفَه وورعَه وحياتَه. *أيّ ثأرٍ قد يكون بين الإنسان وذلك الشّيخ الأصلع؟ فهو رجلٌ تَعرفُ تاريخَه من أخاديد وجهه، ومن فلتات لسانه، وانحناءة ظهره ومن وقفته في الصّلاة.*

لا أحد يجهل أنّه وُلد في أصفهان، وتعلّم في نيسابور، وسكن دربَ الورّاقين، وسافر بين مدن خراسان، ولم يقطع صومَ الإثنين والخميس، وكان يبيع النوى بالنهار، ويقرأ ويكتب ويصلي باللّيل. وخطر له أنّ طغتكين لو كان يعلم هذا لما سجنَه.

كانوا قد اقتربوا من سجن بغداد الكبير. وكان الغزاليّ يتحرّق إلى رؤية طيفور ليسمع حكاياته عن سجنه. أسعيدٌ أم حزين؟ كيف تصرّف مع السجّانين؟ وكيف تصرّفوا معه؟ ثمّ تسلّلت إلى شفتَيْه ابتسامةٌ وهو يتصوّر الشّيخ الأصلع يروي تفاصيلَ أيّامه في سجن بغداد.

47

بغداد، 486 هـ.

بدأت العمائمُ الوقورةُ تدخل البابَ المقوَّس المستطيل، والغلامُ الصقلبيّ يقودُ كلَّ داخلٍ إلى المجلس، فيتلقَّاه الغزاليّ هاشًّا باشًّا. كانت خَلُوب تجلس في العِلِّيّة ترقبُ الداخلين بغَنَجٍ ودلال؛ فلا تساعدُ الخادم بل توجّهه وتأمره أمرًا. فمنذ ولادة ابنتها عائشة ازدادت ثقتُها بنفسها حتّى إنّها لم تكترث بشراء الغزاليّ للجارية سندس. تطلّعت من العِلِّيّة، فسمعت أصوات الشّيوخ يضحكون، ولمحت الغلامَ يدخل ويخرج حاملًا الأشربة والأطعمة.

وكان الغزاليّ يتوسّط المجلسَ وهو يرقب أطرافَ مجلسه الغاصّ بأعيان بغداد وعلمائها.

كان ذهنُه خدِرًا بذلك الخبر الّذي هزّ بغداد قبل يومَين. ولذا جمع هؤلاء ليخفّف عن نفسه وينشغل عن التّفكير في الحدث الفظيع. فقد وصلت بغدادَ أمسِ أخبارُ مقتل الوزير تاج الملك على أيدي الجنود النّظاميّة، وجاءتْ إليها أصابعُه وعُرِضت في السوق. وما تزال جيوشُ الدّولة كلّها تتقاتل في أصفهان على ميراث ملكشاه، بين مناصرٍ لولده محمود ابن تركان خاتون، ومُوالٍ لأخيه بركيارق وأمّه زبيدة.

كيف مات كلُّ النافذين في العراق خلال أشهر؟ نِظام المُلْك، وملكشاه، وتاج الملك! أيّ متعةٍ باقية في هذه الدنيا؟

وهزّ رأسَه كأنّه يطرد الأفكارَ مُردّدًا بصرَه في أطراف مجلسه.

كان الصّوت المستولي على المجلس صوتَ ذلك الفقيه الطّويل النّحيل الوسيم: ابن عقيل الحنبليّ. وقد تربّع بين الغزاليّ والطّبيب سعيد بن هبة الله، قُربَ النبهانيّ الذي ملَّ من كلام ابنِ عقيل فقال مستفزًّا له:

- لقد نبّهتني جاريتي إلى أنّ الحنابلة لا يُفلحون. وإلّا لمَ تغصّ بغدادُ بأوقاف الشّافعيّة والحنفيّة ولا وقف للحنابلة فيها إلّا دُوَيرةٌ هنا ومدرسةٌ هناك؟ حتّى إنّي خلتُ المالكيّةَ أكثرَ منكم أوقافًا!

انزعج ابن عقيل من العبارة الساخرة «نبّهتني جاريتي» فقال، وغلالةٌ تظلّل وجنتيْه:

- هذا المذهب المبارك إنّما ظلَمَه أصحابُه. فأصحابُ أبي حنيفة والشّافعيّ إذا برع واحدٌ منهم في العلم تولّى القضاء، وجالسَ الخلفاء، وصادق الأطبّاء، وتولّى الولايات، ووزرَ للخلفاء والسّلاطين وسَفَر بينهم.

وانطلقت ضحكاتٌ من جوانب المجلس، فواصلَ ابن عقيل:

- أمّا أصحاب أحمد فقلَّ من تعلّقَ منهم بطرفٍ من العلم، أو نبغَ في فقهٍ من الدّين إلّا أخرجه ذلك إلى التعبّد والتزهّد لغلبة الخير عليهم. فينقطعون ويشتغلون بالعبادة، فتقلّ أوقافُهم وتبورُ دنياهم، وتعمُر آخرتُهم.

لاحظ الغزاليّ نبرةَ الغضب في صوت ابن عقيل، وانتبه إلى نبزِه إيّاه بالسِّفارة بين السلاطين، فقال محاولًا تهدئة الحديث:

- أمّا إنّه لا أحد من المالكيّة معنا فإنّي شارحٌ علّةَ مذهبهم في العراق. وسبب ذلك رأيُهم في إدارة المالك وورثته للوقف. فهم يرون أنّه لا يجوز للواقف ولا لذريّته تولّي شيءٍ من أوقافهم. والنّاس الآن إنّما يوقفون الوقفَ لحفظ المال للذرّيّة، وتحريزه من مصادرة السّلاطين. وإذا انعدم الوقفُ قلّ طلاّبُ العلم، ولهذا ضعُف مذهبُهم في بغداد.

تحرّك ابن عقيل في مكانه، والتَفَتَ جهة النبهانيّ، وأجفانُه تتراقص:

- إيه! هذا عِلمٌ لا يعرفه أهل بيهق! وإذا كنتَ تعجبُ من بَوار سوقِ الحنابلة فلمَ لا تعجب...

فرفع النبهانيّ يدَه مستبقًا كلامَ ابن عقيل المعروفِ بسطوة لسانه وقوّة منطقه. وفهم أنّه سيقول له لمَ ارتفع الغزاليّ وخَبَا نجمُك. فقال مخاطبًا ابنَ عقيل متضاحكًا:

- ارفقْ بعبدكَ إنَّ فيه يبوسَةً جبليّةً ولك العراقُ وماؤهُ!

وتراجع ابن عقيل في كرسيّه، واضعًا يدَيه على ركبتَيه، وسكن غضبُه وهو ينظر إلى جوهر الكتبيّ يدخل المجلس.

- السّلام عليكم!

وارتفعت الأيدي:

- وعليكم السّلام ورحمة الله.

ردّدَ جوهر عَينَيه في أطراف المجلس متفحّصًا الوجوه، فعرف كلَّ الحاضرين. كان كعادته في ملابسه الّتي لا يكاد يغيّرُها حتّى تبلى: جبّةٍ صفراء وعمامةٍ سوداء. ردّدَ عَينَيه في الوجوه، فلمحَ الغزاليّ يدعوه إلى الجلوس في مكانٍ خالٍ بطرف المجلس. ضمّ أطرافَ جُبّته، ففاحت منها رائحة العرق، ونزع عمامتَه، وجلس.

وانطلق نهيقُ حمارٍ وحمحمةُ فرسٍ في الشّارع القريب. ودخلت رياحٌ من بين السّتائر المرخاة على النّوافذ. وسُمع بكاءُ عائشةَ آتيًا من الغرفة العلويّة، وجاء صوت جوهر:

- ما جديد الناس؟ وما الّذي يتهامس به ناسٌ دون ناس؟

انكتمت ضحكات في حنايا المجلس، واخْتلجتْ حواجب استظرافًا لبحث جوهر الدّائم عن الأخبار. ثمّ ضرب ابن عقيل ركبته بيده:

- الخبر عندك يا أبا الدرّ! فأنت تتربّع على مكتبة النّظاميّة وسطَ بغداد، وقربك السّوقُ حيث ترد القوافل من أكناف الدّنيا، ثمّ إنّك....

وسكتَ ابن عقيل مفكّرًا في الكلمة الّتي كاد يقولها. فرفعَ جوهر يدَيْه، ونظر إلى ابن عقيل، ثمّ ردّدَ بصرَه في السّقف المزركش:

- الجديد أنّي لم أجد بعدُ خبرًا عن حسناء الرصافة.

وتلفّت جوهر في زوايا المجلس سابرًا وقعَ حديثه، فلمحَ الوجوهَ تستزيدُ واقفةً بين استظراف ما قال واستغرابه. فمعظم الحاضرين يعلمونَ قصّةَ حسناء الرصافة. وهي فتاةٌ استأجرَه والدُها ليعلّمها الحساب، ثمّ تركت بغدادَ دون أن يعرف اسمَها أو اسمَ أبيها أو أيَّ خبر عنها. فقد زارَها أربعة أيّامٍ في خانٍ ببغداد كانت نازلةً فيه.

- لم أجد عنها أيّ خبر، ووالله الّذي لا إله إلّا هو إنّ قلبي ليتشقّق إذا ذكرتُها، فما كنتُ أظنّ عقلَ المرأة يبلغُ مقامًا كمقام عقلها.

قال ابن عقيل باسمًا:

- أمّا أنا فأشكّ في أمر الرجل إن لم يجذبه لمعشوقته إلّا العقل...

وانكتم الهواءُ، وفهِم الجميعُ ما يلمّح له ابن عقيل. لكنّ الغزاليّ تدارك الأمر:

- وما الّذي رأيتَ فيها ولم ترَ في فتيات بغداد؟

فرفع جوهر يُسرَاه كأنّه كان ينتظر السّؤال لينقذه من تمليح ابن عقيل، وعدَّل عمامتَه، وتراقص جفناه:

- هذه الفتاة تجمع إلى رَوْنَقِ النعمة جلالَ العلم. لها خدّان لم تخُضْ فيهما أعينُ النّاس، وعينان لم تجرحهما الأبصار النَّهِمَة، ومآقٍ لم تدسْها نظراتُ أهل السّوق، وجمالٌ لم تستبحه خواطرُ القصّابين والبقّالين والحمّالين. جمالها جمالٌ معصومٌ مضنونٌ به على غير أهله!

صفّق ابن عقيل ضاحكًا، ثمّ قال رافعًا يده مغطّيًا فمَه وهو يمضغ حبّة تين:

- إنّك لَغَزِلٌ يا أبا الدرّ!

واستنفرت العبارةُ جوهرًا ليعطي المزيد. فهو يسعد أيّما سعادة إذا برهن للسامعين على حبّه الطافح للمرأة. فقالَ مُتصنّعًا الجدّ:

- وما لي لا أكون كذلك؟ إنّ مطايا القافلة لتَتَوقّف إذا سمعتْ نأمةً من فتاةٍ حسناء، وإنّ القمرَ لَيَرتجف أحيانًا إذا سمع ضحكةَ فتاةٍ سَحَرًا.. والجاحظ كان يقول إنّ الفتاة أجملُ من الشّمس. لأنّ للشمس لونًا واحدًا من الجمال، أمّا الفتاة ففي وجهها وأعضائها تلاوين شتّى من الحسن وآياتُ مختلفةٌ من الجمال.

- وصمت قليلًا، وعيناه تدوران في المجلس، ثم أردف رافعًا سبابتَه:

- أتدرون ماذا يقع إذا رأى الإنسانُ فتاةً فاتنة؟ إذا رأيتَها ثلاثَ مراتٍ في أيام متقاربة فذاك دليلٌ على أن العام عامُ رغدٍ؛ فيه يغاث الناسُ وفيه يُعصِرون. عامُ أمطارٍ وألبانٍ وأجبانٍ وزرع ونخيل وخير. ثمّ إنّ الحسناءَ إذا اغتسلتْ على شاطئ دجلة تنهمر السيول فتغسل الوهادَ والأوديةَ، وتنتعش مواقعُ القطرِ في كلّ العراق، فيفيض الفرات ودجلة فاكهةً وخيرًا ذلك العام.

- ودوّتْ صيحة من طرف المجلس:

- يا الله!

- وشعر ابن عقيل أنّ جوهرًا سيُخرِج المجلسَ عن جدّه بغزليّاته، فقاطعه:

- ما جديد بغداد؟ وما أخبار النّاس يا جوهر؟ دعك من هذا الحديث!

وأراد جوهر ردّ الصفعة لابن عقيل:

- علمتُ أنّ الحنابلة تعاركوا مع الشّيعة، وأنّ فقيهًا حنبليًّا صُفِع صفعًا طيّبًا حتّى قال: كفرت بابن حنبل، وأوّلتُ كلَّ الصفات!

تربّد وجهُ ابن عقيل، وانطلقت في المجلس همسات. وهدأت أيدٍ، ومالتْ عمائم، وتسارعت حركة أجفانٍ انتظارًا لردّ ابن عقيل. فقال جوهر صارخًا:

- ما لكم؟ كأنّي قتلتُ ثانيَ اثنين في الغار أو عقرتُ ناقةَ صالح!

فانفتحت الشّفاه عن ابتسامات، وقال الغزاليّ ضاحكًا:

- كلّا يا أبا الدرّ، لكنّك..

- لكنّي ماذا؟ حززتُ رأسَ الحسين؟ أنا ما زدتُ على أن قلت إنّ فقيهًا حنبليًّا صُفِع صفعًا طيّبًا!

أشار الغزاليّ بطرف حاجبه إلى ابن عقيل ليتجاوز الأمر. فهدأ المجلس، وبقيت الابتسامات مرسومةً على الشّفاه، بينما وقفَ جوهر، واختطف حفنةَ زبيبٍ من الصحن. وغدَا الصّوت المسموعُ صوتَ طحنِ أضراسه، فقال ابن عقيل:

- لقد رأيتك أمس خارجًا من عند الطّبيب النصرانيّ قربَ سوق الغنم، وكنت تتلفّتُ ممتقعَ اللون؛ فما الأمر؟

فوجئ الحاضرون بجوهر وقد علا وجهَه احمرار، ثمّ تدارَك الحرجَ الّذي شعر به متضاحكًا:

- كنت أعالج ضرسي. ماذا كنت أفعل؟ كنت أفحص أمدَ حملي، ومتى سأضعُ مولودي؟!

فمال ابنُ عقيل هامسًا:

- صدق من قال «أبلغُ من مُخنّث!»

انكتم الهواء، وتقلّصت شفاهٌ، وسكنت رؤوسٌ، وتشاغل رجالٌ بحكّ لِحاهم. وتظاهر جوهر بعدم سماعه كلمةَ ابن عقيل، فقال:

- ماذا قال الشّيخ؟

فقال النبهانيّ محاولًا تغييرَ مجرى الحديث:

- لقد تحدّثتُ -يا أبا حامد- مع الطّبيب وأنكرَ مذهبَك في الاقتران الضّروريِّ بين السبب والمُسبِّب!

كان سعيد بن هبة الله قربَ الغزاليّ في ملابس الأطبّاء الّتي لا يخلعها. فهو رئيسُ البيمارستان الكبير ببغداد، ويُدرّس الطبَّ ويعالج الخليفة. مسح لحيتَه، وقال:

- قلت ذلك. لكنّي لا أُقدّمُ القولَ بين يدي دانشمند. فإن كان عندَه كلامٌ في الأمر فإنّي أحبُّ سماعَه.

غشيت الغزاليَّ موجةُ حبورٍ من كلام الطّبيب. فلمس جبهته:

- شوف، أيّدَك الله. ما أراه أنّ الاقترانَ بين ما يُعتقَد في العادة سببًا وما يُعتقد مُسبَّبًا ليس ضروريًّا. إنّ كلّ شيئين مختلفين ليس إثباتُ أحدهما متضمّنًا إثباتَ الآخر، ولا نفيُه متضمّنًا نفيَ الآخر، ليس من ضرورة وجودِ أحدهما وجودُ الآخر، ولا من ضرورة عدمِ أحدِهما عدمُ الآخر. ومثال هذا الريّ والشّرب، والشّبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشّمس، والموت وجزّ الرقبة، والشّفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل، وهلم جرًّا.

مالَ جوهر على النبهانيّ ليوهم الحاضرين بطيبِ مزاجه، وعدم سماعه كلامَ ابن عقيل عنه آنفًا:

- والتدريس في النّظاميّة ليس سببًا في أخذ الجِراية نهاية الشّهر؟

لكزَه النبهانيّ بمرفقه كاتمًا ضحكته:

- الوقتُ وقتُ جدٍّ يا أبا الدرّ!

رمقهما الغزاليّ بطرف عينه -وأنفُه مزكومٌ من رائحة العرق الآتية من جوهر- وواصل:

- وهكذا كلّ المشاهدات من المقترَنات في الطبّ والنجوم والصناعات والحِرَف. فإنّ اقترانها بسببٍ مّا سبق من تقدير الله سبحانه، وليس من السبب الظاهر الذي نرى. حيث يخلُقها على التساوق، لا لكون الاقتران ضروريًّا في نفسه غير قابل للتعذّر. بل في قدرة الله خلقُ الشّبعِ دون الأكل، وخلقُ الموت دون جزّ الرقبة، وإدامةُ الحياة مع جزّ الرقبة وهلمّ جرًّا إلى جميع المقترنات.

وسكت منتظرًا ردَّ فعلِ سعيد بن هبة الله الذي بدا هادئًا يتأمّل الوجوهَ مُفكّرًا، ثمّ قال:

- لكنّ الفلاسفة لا يرَوْن هذا. ودعني أعطِكَ مثالًا وهو القطن والنار. فهل يُعقَل في هذه الدنيا أن تَلقَى النارُ القطنَ ولا تحرقه؟

انطلق الغزاليّ، وقد ظهرَ الصَّحَلُ بيّنًا في حبال صوته:

- نعم، إنّنا نُجوّز وقوعَ الملاقاة بينهما دون الاحتراق، فلا يوجد مانع عقلي من ذلك. وللكلام في المسألة ثلاثة مقامات: المقام الأوّلُ أن يدّعي الفلاسفة أنّ فاعل الاحتراق هو النار وحدها. وهو فاعلٌ بالطبع لا بالاختيار، فلا يمكنه الكفّ عمّا هو طبعه بعد ملاقاته لمحلٍّ قابلٍ له وهو القطن. لكنّا نقول إنّ فاعل الاحتراق ليس هو النار بل الله. ففاعل الاحتراق بخلق السواد في القطن والتفرّق في أجزائه وجَعْلِه رمادًا هو الله إمّا بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة، فأمّا النّار وهي جمادٌ فلا فعلَ لها ولا إرادة.

رفع الطّبيب بصرَه إلى السّقف وحكّ أسفلَ ذقنه، فقال الغزاليّ:

- وبذا، فالاحتراق يكون وقتَ حصول الاتّصال بين النار والقطن

لا به. يقع معَه لا بسببه. وهو تساوقٌ وضعه الله لنا حتّى نستطيع بناءَ أمور العالم على التساوق والاطّراد، وحتّى نتوقّعَ الأمور ونعمر الأرض، ونبني على التجارب.

تلفّت سعيد في أرجاء المجلس، وقال بصوته الهادئ العميق:

- نحن نرى النّار تحرق، فما الدّليل على أنّها لا تحرق من نفسها؟ ما الدّليل على أنّ الاحتراق يقع مع النّار لا بها؟

- لا، ما الدليل على أنّ النارَ فاعلٌ؟ لا دليلَ إلّا مشاهدةُ حصولِ الاحتراق عند ملاقاتها القُطنَ. والمشاهدةُ تدلّ على حصول الاحتراق عند الملاقاة، ولا تدلّ على حصوله بسببها. ولا دليلَ في الاحتراق على أنّه لا علّة له سوى النار. فقد يكون سببُ الاحتراق قيامَ الملائكة بالأمر عند الالتقاء بين القطن والنار دون أن تكون النّار فاعلة. وقد يكون السبب أمرًا غيبيًّا آخرَ لم نُدركه.

وسكتَ الغزاليّ، فعمَّ الهدوءُ المجلسَ. وغدا الصّوتُ المسموعُ صوتَ بكاءِ عائشة، وحركةَ جوهرٍ في مجلسه تحَرُّقًا إلى الحديث، وضيقا من مجرى الكلام. لكنّه كان يعلم أنّ وقت النقاش العلميّ لا تجوز فيه النُّكَت.

رمقت الأعينُ الطّبيبَ وهو غارقٌ في أفكاره. كان حريصًا على مجاملة الغزاليّ لمكانته عند الخليفة والأتراك. ثمّ إنّه يعلم من نفسه أنّ الغزاليّ أعلمُ منه بالفلسفة. فعلمُه هو في الطبّ لا في الفلسفة وعلمِ الكلام. ثمّ قالَ بَعْدَ صَمْت:

- هلّا أعطيتنا مثالًا آخر!

- خذ مثال الأعمى. فإنّه إذا شُفيَ وأبصر الدّنيا فجأةً ورأى الألوان لا يعلم أنّ نور الشّمس هو السبب في انطباعها في بصره. فلو كان في عينه غشاوةٌ ولم يسمع من النّاس الفرقَ بين اللّيل والنهار وانكشفت الغشاوةُ عن عينه نهارًا وفتحَ أجفانه فرأى الألوان لظنَّ أنّ الإدراك

الحاصل في عينه لصور الألوان فاعلُه ومسبّبُه الوحيد فتحُ البصر!
وأنّه مهما كان بصرُه سليمًا ومفتوحًا والحجابُ مرتفعًا والشّخص
المقابلُ متلوّنًا فيلزم لا محالة أن يبصر. حتّى إذا غربت الشّمس
وأظلم الهواء علم أنّ نورَ الشّمس هو السبب في انطباع الألوان
في بصره وليس انفتاح بصره. فمن أين يأمن الفلاسفة أن يكون
في مبادئ الوجود عللٌ وأسبابٌ تفيض منها الحوادث عند حصول
ملاقاةٍ بينها؟ إلّا أنّها ثابتةٌ ليست تنعدم ولا هي أجسامٌ متحرّكةٌ
فتغيب، ولو انعدمت أو غابت لأدركنا التفرقة وفهمنا أنْ ثَمَّ سببًا
وراء ما شاهدناه، وهذا لا مخرج منه على قياس الأصل الفلسفيّ.

تظاهرَ جوهر بالتثاؤب حتّى لا يلاحظ أحدٌ ضيقه بابن عقيل. كان قلبُه يدقّ قفصَ صدره. فابن عقيل معروفٌ بدقّة ملاحظته وحسن فراسته، *فهل رآني أفعل شيئًا مّا؟ أم رآني أخرج من عند الطّبيب الرّوميّ فحسب، وفهم من منظري أنّي مهمومٌ بأمر؟* واستيقظ من همومه مُلاحظًا سكوتَ الغزاليّ وهدوءَ المجلس. *هل سَرَى حديثٌ عنّي في بغداد؟ هل رصد أحد لقاءاتي بذلك السائل عند باب جامع المنصور؟* وقرّر أن يبالغ في الاهتمام بالطّعام حتّى لا ينكشف تأثّره بكلام ابن عقيل. فقال وهو ينظر إلى الغلام الصقلبيّ آتيًا بالصحون ليضعها على الخِوان:

- قوموا إلى سيّدكم!

أشارَ الغزاليّ إلى الجميع بالنزول إلى المائدة، فشمّر جوهر عن ساعده الأيمن:

- هل سمعتم بما فعلت تُركان في أصفهان؟

ولم ينتظر جوابَ أحدٍ فقال:

- لقد وقعتْ معارك، وقتل آلاف الغلمان من النّظاميّة. وكافح بركيارق

بشراسةٍ وجدّ. وما زال الأمر سجالًا.

صمت جوهر قليلًا وقد تحلّب فمُه ريقًا وهو يشمّ رائحة الدّجاج المبهّر. وأتبع عينَه الخادمَ الداخلَ حاملًا صينيّةً مملوءةً دجاجًا. وضع الغلامُ الصينيّة، وقرّب من أسنّ الجالسين صحنًا لغسل الأيدي، وشرع يصبّ لهم الماء وهم يفركون أيديهم. غسل جوهر يدَيه، ونفضهما حتّى وقع رذاذُهما على وجه الجالس قربه، ثمّ مدّ يدَه إلى فخذ دجاجة، وقال:

- لولا سِفارةُ دانشمند إلى تركان وحديثُه معها لكان محمود الآن خليفةً وهدأت الأمور.

وانكتم الهواء. ورمقتْه أعينٌ من أطراف المائدة، وتشاغل بعض الرّجال بالنظر إلى الطّعام متجاهلين التوتّر. فقال الغزاليّ هادئًا:

- يا أبا الدرّ! دَعْكَ من أمورٍ لا تفهمها. لقد حاولت تركان خاتون أن تنصّب ابنَها خليفةً للمسلمين وهو في الخامسة من عمره، وكادَ الخليفة أن يوافق مرغمًا. فذهبتُ، ودخلت عليها، وقلت لها إنّ هذا لا يجوز شرعًا. فلا يمكن للسلطان أن يكون صبيًّا عاجزًا. واقتنعت بالأمر، وفي هذا مصلحة الإسلام.

كان جوهر قد حشى شدقَيْه بصدر دجاجةٍ حتّى لم يبق هواءٌ في فمه للحديث. فحرّك رأسَه وغمغم موافقًا؛ فرمقته الأعينُ، وقال ابن عقيل:

- نسأل الله صلاحَ الحال والمآل. وما علينا إلّا انتظار ما تنقشع عنه هذه الحروب. ولقد سعدتُ بقتل تاج الملك لحسده نظامَ المُلْك رحمه الله.

ثمّ تذكّر ابن عقيل العلاقةَ الخاصّة بين تاج الملك والطّبيب سعيد بن هبة الله فتدارك:

- نسأل الله أن يرحم تاج الملك، فكلّنا خطّاؤون.

وصمتَ المجلس. وهبّت رياحٌ آتيةٌ من النّوافذ، ففاحتْ رائحةُ البهارات واللّبان الموقَدِ في جنب الحجرة. وصمتت الألسنة، وعلَا صوتُ المضغ، وانصرفت الأذهان إلى ما يمكن أن يقع في أصفهان. *هل ستنجح تركان خاتون، أم سينتصر بركيارق ولا سيّما إذا انضمّ إليه عمُّه تُتُش والي دمشق، وما مصير خلافة بغداد بعد ذلك؟*

وقبيل سَحَر تلك الليلة انتبه جوهر على طرقٍ شديدٍ لباب حجرته. فقام فزعًا وفتح الباب، فدخل رجلٌ قصيرٌ وهو يتلفّت، ثمّ جلس في طرف الحجرة، وقال هامسًا في الظّلام:

- يسلّمون عليك ويطلبون منك أن تُسرع إلى أرض الروم.

وخرج الرجل، فجلس جوهر في ظلام الغرفة مفكّرًا متأمّلًا ما ينتظره في آتي أيّامه. *هل انكشف أمرُه في بغداد؟ هل وشى به أحد؟ أم هي مهمّةٌ جديدة في أرض الروم؟*

48

«الصنم المادّيّ ثعبان، أمّا صنم النفس فتنّين»!

جلال الدين الرّومي

بغداد، محرم، 487هـ.

مشى يجرُّ قدمَيه المثقلتَين في الشّارع الضيّق. مرّ وقتٌ طويلٌ وهو لا ينام ليلَه، ولا يستسيغ طعامَه. فقد تعوّد منذ طفولته على إعمال ذهنه في كلّ معضلةٍ حتّى تتبدّى له ظاهرةً عاريةً لا يتوارى منها شيء. لم يرضَ قَطُّ بأنصاف الإجابات من شيوخه، ولا قبِلَ فهمَ نصفِ القضيّة. ذهنٌ حديدٌ متعوّدٌ على قطع المسائل، وإخضاعِ المعضلات للانكشاف. كان ذهنُه متعوّدًا على تجريدات الفقه والمنطق، وكان يحسم كلَّ ذلك حسمًا. أمّا الآن فهو مشغول بأسئلةٍ وجوديّةٍ سابقةٍ على أسس المنطق والأصول، أسئلةٍ تشكّك في وسائل المعرفة ذاتها، والحواسّ وأدائها. ولم يستطع الحسمَ في أيّ شيء من ذلك.

من خلق هذا الكون وكيف خلقه؟ وهل يمكن أن يكون الله قديمًا قِدَمًا أزليًّا لا بدايةَ له؟ وهل العالم قديمٌ أم مُحْدَث؟ وإذا كان الله قديمًا والكونُ محدثًا فما المسافة الفاصلة بين الأزليّ والمُحدَث؟ وما الداعي إلى إحداث الأكوان وكيف؟ وهل النبوّة ممكنةٌ أم غير ممكنة؟ وهل ما ورثه من آبائه دينُ الله الحق؟ أم العادة والإلف زيّناه له حتّى رضيه. ولمَ ينشأ أطفال النّصارى على النصرانيّة ويرضون بها وينشأ أطفال المسلمين على الإسلام

ويرضون به؟ وما أدراه أنّ ما هو فيه مثل ما فيه القسّ النصرانيّ والحبر اليهوديّ؟

مرّ عليه عامٌ كاملٌ وهو في عزلةٍ جزئيّة. يخرج ساعاتٍ للتدريس في النّظاميّة بلسانٍ كليلٍ وقلبٍ عليل، ثمّ يعود إلى بيته ويندسّ بين كتب أفلاطون وأرسطو وابن سينا والفارابي. لا بدّ أن يفهم الحقَّ يقينًا لا تخمينًا، وأن تنجلي الشّموسُ في ذهنه دالّةً على الحقائق الأولى. لكنّ هذه المعضلات الذهنيّة انعكست على جسمه؛ فما رآه أحدٌ ممّن يعرفه إلّا سألَه هل به مرض؟

سلَخَ معظمَ هذا العامِ في دراسة آراء الفلاسفة ليلَ نهار. ولكي يثبت لنفسه فهمَه آراءَ الفلاسفة كتبَ كتابًا يلخّص فيه مذاهبَهم دون إقحام رأيه. بل هو وصفٌ دقيقٌ لآرائهم فحسب. سمَّى كتابه «مقاصد الفلاسفة». كتبَه ولم يُطلع عليه ورّاقَه الّذي ينسخ كتبَه إلّا قبل شهرٍ واحد. واقتنع بأنّ إجاباتهم غير متناسقةٍ منطقيًّا، لكنّه لم يهتدِ إلى إجابةٍ خاصّةٍ به، ولم يعد إلى بَرد اليقين في دينه.

كان يسير في الشّارع المكتظّ بالعابرين. أطفالٌ يركضون في جِبابهم راجعين من الكتاتيب، ونساءٌ خارجاتٌ من بيوتهنّ إلى «دار البطيخ» حيث تباع أنواعُ الخضراوات، وغلمانٌ يهرولون قاصدين السّوق. أخذ يقلّب ناظرَيه في المشهد العبثيّ أمامَه. ثمّة إجابةٌ واحدةٌ من الإجابات على الأسئلة الكبرى لم يدرسها: هي التّصوّف. فقد درس الفلسفة، ومذاهبَ الباطنيّة، وعلمَ الكلام، وبقي التّصوّف.

كان في طريقه إلى الشّيخ الأصلع ليسأله ويستشيرَه في أمر التّصوّف. فبعد خروجه من السجن عاد طيفور إلى رباط أبي سعيد.

تجاوز الشّارعَ المكتظّ بالمُكَارين والأطفالِ والباعةِ مقتربًا من زاوية

أبي سعيد. دخَل من بابها، وما إن تجاوز النّافورة حتّى لمحَ الأصلعَ جالِسًا مُسنِدًا ظهرَه إلى الحائط، ثمّ وقف فاتحًا ذراعيه:

- دانشمند! أيّ ريح خير؟

- السّلام عليكم..

- وعليكم السّلام..

تعانقَا، وضمّ الغزاليّ جبّتَه ليجلس على الأرض، لكنّ الأصلع أمسك عضده:

- لا، تعالَ نجلس في الداخل.

كان آخرُ لقاءٍ بينهما يومَ أخرجه من السجن. يعلم الأصلعُ أناقةَ الغزاليّ وحُبَّه النّظافةَ والملابسَ الزّاهية والمراكب الفارهة. ولذا تفاجأ عندما ردّ عليه:

- لا، فلْنجلس هنا!

قالها الغزاليّ بإصرار، والأصلع يرقبه مُلاحظًا تغيّرَ لونِه ونحافةَ جسمه.

- دانشمند، هل أصابك مرضٌ بعدي؟

- لا، حمدًا لله.. أنا في صحّة وعافية.

ولاحظ الأصلعُ من نظراته أنّه ليس الرّجل الّذي عهد. فقد انطفأ بريقُ عَينَيه العميقتَين، وذبُلَ لونه الوضّاء، حتّى صوته العميق خُيِّلَ إليه أنّه ضعف.

استند الغزاليّ إلى الحائط متأوِّهًا:

- كيف حالك أيّها الشّيخ؟

- في بحارٍ من النعم!

وتلفّت الأصلع فلاحظ غلالةً على وجه جليسه. وأحسّ أنّ لديه أمرًا جللًا يودّ مفاتحتَه فيه:

- ما خطبك؟ ما الخبر؟

فتح الغزاليّ فاهُ، ثمّ سكت متلفّتًا. ورفع يدَه ومسحَ بها وجهه:

- لقد جئتك -أيّها الشّيخ!- لأسألك عن الطّريق. لقد ضاعَ خرِّيت القوم، والتبست المعالمُ على دليل القافلة، ولا حولَ ولا قوّة إلّا بالله.

وامتقعَ لون الغزاليّ، وسكت وشفتُه السفلى ترتعد.

ضمّ الأصلعُ أطرافَ جبّته متفاجئًا. وأنصت وإبهامَاهُ على أصل أنفه، وهو يُلاحظ نفَسًا حزينًا في تضاعيف صوت الغزاليّ:

- منذ عامٍ وأنا أتصفّح المذاهب، وقد بدأتُ أنظر في التّصوّف. وخطر لي أنّ من ذاقَ عرف، وليست القراءة بمُجديةٍ جدوى المعرفة والتجربة فجئتُ إليك. فأنا موقنٌ أنّ ثمّة فرقًا بين تعريف السُّكَّر وذوقه.

أبعد الأصلع يدَيه عن وجهه، وتسارعت حركاتُ جفنَيْه وهو يرقب أهمّ عقلٍ في العراق وخراسان يجلس بين يدَيه مثل إناءٍ مكسور.

حدّق في وجه الإمام مستعيدًا مئات القصص الّتي سمعها في الجوامع والمساجد والطرقات عن هذا العقل الفوّار، وذلك اللّسان الجوّال بين المنطق والفقه واللّغة. كيف انتهى نحيلًا حائرًا داخل دُويرةٍ للصوفيّة.

نقرَ الأصلعُ بإصبعه البلاطَ الصلبَ بين يدَيْه:

- إنّ العلمَ قد يغدو حجابًا، والمطيّةَ قد تصبح غاية، وإنّ المعالمَ الّتي توضعُ على الطّريق لهداية النّاس تصير أحيانًا مَشْغَلَةً للعابرين؛ فينشغلون بلونها وحجمها عن الاهتداء بها إلى الطّريق الّتي نُصبتْ للدلالة عليه.

- كيف أسلُك هذه الطّريق؟ وما الكتب الّتي ترى قراءَتها في هذا الباب؟

وقف الأصلع صارخًا:

- الكتب! الكتب! الكتب؟

ثمّ صمت، وعاد إلى جلسته مقرّبًا وجهَه من وجه الغزاليّ:

- أتنقصك الكتب؟ أتنقصك القراءة؟ ما أرى سببَ ما أنت فيه إلّا الكتب والقراءة.

أنزل الغزاليّ يدَيْه عن وجهه، وردّدَ بصرَه في فناء الرباط، فلمح المريدين يتمشّون مستغفرين في أطرافه. ولمح قطّةً تأكل من يد أحدهم طعامًا، والحمامَ القُمْريّ يشرب من النّافورة:

- نعم، يمكنني قراءة ما كتبَ السالكون. والعمل بأيّ نصائح أخرى تتفضّل بها عليّ.

لمحَ الأصلع تلك الضّراعةَ الّتي يعرفها في أعين المُريدين خلال لحظات تحوّلهم. لمحَها في عيني الغزاليّ لأوّل مرّة. رمق عينَه الكسلى وكأنّها ازدادت كسلًا، ووجهه المتوسّل رغبة، ولسانَه الكليل شكًّا. رمقَ تلك الغلالةَ الّتي تُظلّل وجه المريد الباحث عن الحقّ في لحظاتٍ معيّنة. فقد علّمَتْه السنون الطوالُ كيفَ يقرأ الوجوهَ وهي في لحظات الرغبة الحقّ في السّير إلى الله. شعر بجسده يقشعرّ وهو ينظر إلى عيني الغزاليّ. *أخيرًا.. أخيرًا؟ ضرع هذا القلب الطوسيّ الصلب؟ أخيرًا رمى تلك الأوراق، وسكبَ ذلك الحبر، وكسر سجنَ العقل؟* فقال له هامسًا:

- تعالَ نغادر إلى الخارج!

مشيَا إلى باب الرباط وسلكَا أزقّةً قادتهما إلى فضاءٍ واسع، وفجأةً صرخ الأصلع:

- أحقًّا تريد الطّريق؟

وتردّدَ السؤالُ في الفضاء الممتدّ أمامهما، بينما رفع الغزاليّ سبّابته، وحكّ خدّه بها، فأردف الأصلع كأنّه يهمس:

- أوّلًا تحرّك إلى ربّك! فإنّ الجسد الساكن جسدٌ ميّت. فكلّ العشاق كانوا راقصين متحرّكين قلقين. ألم يُصعَق موسى؟ ألم يتفصّد جبين نبيّنا من ثِقَل الوحي؟ ألم يركب نوح البحر؟ كيف تُدرّس الوحيَيْن وأنت ساكنٌ جامدٌ تفكّر في المنطق البارد؟

- وكيف أتحرّك؟

كانا في فضاءٍ واسعٍ خالٍ إلّا من جذوع النخل، فجلس الأصلع على جذعٍ ورمى عمامته، وجلس الغزاليّ على الجذع المقابل:

- مشكلة الآدمي أنّه يولد لغاية عبادة الله، لكنّه يضع غاياتٍ دونها فتأخذه قدماه إلى الأودية الموحشة، فيشعر بالتعب والإرهاق وتفاهة الأنفاس. أتدري لِمَ؟ لأنّه ضيّعَ الخيطَ الّذي هبط قابضًا عليه من رحمِ أمّه. ذلك الخيط المربوط بعالم «ألستُ بربّكم»[1]، تلك الذّكرى المحفورة في تجاويف روحه كما حُفرت الرسومُ في الكهوف. هل رأيت إيوانَ كسرى؟ هل رأيت قصر الجعفريّ؟ هل رأيت الدُّور بين البصرة وبغداد؟ إنّ التصاوير والأحافير الموجودة في قلوبنا أرسخ من تلك.

لم يتكلّم الغزاليّ. كان غارقًا في التّفكير، وكانت فروةُ رأسه تقشعرّ وهو يُنصت.

- إنّك لو أخذت هذا الإنسان إلى الفراديس الدنيويّة، وملّكته الأرضَ

---

(1) إشارة إلى الآية الّتي تتحدّث عن أنّ الله أخذ ميثاقًا على عباده في عالم الذَّرِّ أن يؤمنوا به: «وإذ أخذ ربُّكَ من بني آدم من ظهورهم ذريّاتِهم وأشهَدَهم على أنفسهم: ألستُ بربّكم؟ قالوا بلى»! (سورة الأعراف/ الآية: 172).

كلَّها فسيشعر بالغربة والضّياع، لأنّه أضاع الخيط الّذي هبط به من رحم أمّه.

وسكت الأصلع، ولم ينبس أبو حامد. سكتَا وهُما يحدّقان في الفضاء الواسع المملوء بجذوع النّخل. وصلهما نباحُ كلبٍ من بعيد، وبدت الشّمسُ في الأفق الكائنَ الوحيدَ الشّاهدَ على كلامهما. وبعد صمتٍ وقف الأصلعُ وتقدّم إلى بقايا نخلةٍ واقتطع منها عُرجونًا ورفعه:

- تصور أنّ هذه العصا عودٌ فيه أوتار. إنّ كلّ إنسانٍ في هذا العالم مثل وترٍ من الأوتار في هذا العود. له مكانٌ محدّدٌ ونغمةٌ مخصوصةٌ يقوم بها مع بقيّة الأوتار. فإذا لم يأخذ مكانَه الّذي وُضع له يظلّ قَلِقًا وتسمُج نغمته في الحياة وتضطرب. أنت لستَ في مكانك يا أبا حامد! أنت تُحرّك نغمةً أخرى غيرَ نغمتك. والإنسان إذا كان في غير موضعه في العالم فلا يسعد أبدًا. كما أنّ النغمة الّتي ليست في مكانها لا تُطرب الأذنَ بل تجرحها. هي نغمةٌ قلقةٌ نَشاز، تؤلم القلب وتُؤذي الرّوح.

وسكت سابرًا وقع كلامه، ثمّ اندفع:

- أتدري لمَ يسعدُ الإنسان إذا أسدى معروفًا لإنسان آخر؟ منطقُ الحياةِ الّذي تعيشون به أنّ من أعطى مالًا لأرملةٍ أو أنقذَ طفلًا قبل وقوعه في النار لا يسعد. فقدْ فقَدَ مالًا، أو تعب واقتربَ من النار. لكنّ القلب البشريّ يسعد بعد قيامه بخدمة العباد؛ أتدري لماذا؟ لأنّه عزفَ نغمَةً في مكانها. لأنّه قام بفعلٍ يرضي الله. لأنّه كان خليفةً لله في تلك اللّحظة الّتي قام فيها بذلك الفعل، وخلافةُ الله هي الهدفُ من وجوده على هذه الأرض: «إنّي جاعل في الأرض خليفة»! أليس الله يُطْعِم العبادَ ويكسوهم؟ فإذا قامَ العبد بهذه الأمور فسيسعَدُ

لأنّه حقّق الغاية من خلقِه وهي عبادةُ الله وخلافته في الأرض.

وتنفّس الغزاليّ ولم ينبس، فواصل الأصلع:

- لمَ يشعرُ الإنسان بالتّعاسة بعد قضاء الشّهوة.. حتّى ولو كانت شهوةً حلالًا؟ لمَ يتضايق بعدَ الشّبع؟ لمَ تنتهي كلّ لذّات الدّنيا بالامتلاء التعس؟ لأنّ الإنسانَ في لحظته تلك يعزف نغمةً حيوانيّة. يعزف نغمة لم يُخلَق لها. فالطّعام إنّما هو لإمساك الرمق، لا للاستمتاع الزائد، وهكذا.

ثمّ غيّر نبرَته:

- هل فهمت يا علّامةَ بغداد؟ هل فهمتَ يا دانشمند! يا جليسَ الخلفاء وحِلْسَ القصور؟

انتابت الغزاليَّ موجةٌ من الرقّة، وغشيَهُ شوقٌ حارقٌ إلى العبادة والتخلّي عن الدّنيا. لكنّه يعلم أنّ الحالة قد لا تستمرّ، فالشّك قد يعتريه لأنّ هذه ليست إجاباتٍ منطقيّةً بل خطابيّة. وخطر له أن يقول ذلك للأصلع لكنّه تراجع:

- وماذا أفعل مع المثبّطات إذا سلكتُ الطّريق؟

رفع الأصلع إصبعه جهة الشّمس:

- إنّ الغيومَ تتبدّد عندما تطلع الشّمس! فإذا طلعت شمسُ قلبك فلنْ تبقى غيمةٌ واحدةٌ من غيوم عقلك. ستتبدّدُ كلُّ تلك الأوهامِ إذا كسرتَ صخرةَ عقلكَ بأنسام قلبك!

قال الغزالي بصوت ضارع:

- أتصحبني إذا خرجتُ من كل ما أنا فيه؟

صاح الأصلع:

- أصحبك؟ إنّك إذ ربطتَ طيرين بخيطٍ واحدٍ عجزا عن الطّيران...
كن وحدك لتطير.. هناك إلى الآجام والآكام لتحطَّ عند سدرة المنتهى... لتصبح طائرًا من طيور الملكوت.

ومشيَا في صمتٍ، والغزاليّ يسرّح بصرَه ناظرًا إلى الأفق البعيد. ثمّ تَنَحْنَحَ الأصلَعُ وأضاف:

- وثمّة أمرٌ آخر لا بدّ أن تتخلّص منه لتجد قلبك.

كان الغزاليّ ينظرُ إلى موضع قدمَيْه منصتًا:

- أعلمُ أنّك كنت دخّالا على الخلفاء، مشّاءً إلى السّلاطين. وأعلم أنّك كنت غارقًا في تتبّع أخبار تركان خاتون وغيرها حتّى أهلكَها الله في أصفهان هي وابنها محمود بالمرض لا بالسّيف. وأعلم أنّك كنتَ سفيرًا بينها وبين الخليفة قبل ذلك.

وتوقّف ناظرًا إلى الغزاليّ بعينَين جاحظتَين:

- ستترك كلَّ ذلك.. وستدفن تلك الأوهام والذكريات!

عجّ خيال الغزاليّ بصورة تركان خاتون، وملكشاه، والمقتدي بأمر الله، وتاج الملك، ونِظام المُلْك. هؤلاء كانوا أقوى أهلِ الأرض.. فأين هم الآن؟

ورفَعَ بصرَه فتراءت له بناياتُ بغدادَ شامخةً شاحبة، ورؤوسُ النّخيل مُطلّةً من أطراف الجدران كأنّها تَذكار بالفناء.. *كلّ هذا إلى فناء، ولن ينجيني إلّا صلاحُ القلب. وصلاحُه مع هذا التخليط مستحيل. وما يدريني أنّ التّصوّف حقّ؟ أليس الهنود وغيرهم من عُبّاد الأصنام متصوّفين على طريقتهم؟ ما يدريني أنّ هذه أوهام؟* وشعرَ ببخارٍ يصّاعدُ من معدته، ودُوارٍ في رأسِه وهو يواصل السّيرَ جنب الأصلع الّذي بدا صامتًا مع ابتسامةٍ عريضةٍ تضيء محيّاه.

49

«كن مثل الساقية باكيًا مبتلَّ العينين

حتّى تنبتَ الخضرةُ في رحاب روحك»!

جلال الدين الرّومي

بغداد، رمضان، 487 هـ.

كان واقفًا يصلّي في ركن مكتبته. وقد انتشرت أضواءُ الشّموع في أطراف الغرفة، وامتلأ أنفُه برائحة اللبان المعقود بالعطور. كان في ركعته الخامسة من صلاة التراويح يقرأ سورةَ الأنعام. وفجأةً تعثّر لسانُه في الآيات. *ما الّذي أفعله؟ لَمَ أواصل هذه الصّلاة وأنا أشكّ في أصل العلم والفهم وإمكان المعرفة؟*

كاد يسقط من وقفته لولا أنّه تشبّثَ بطرف الطّاولة. ثمّ جلسَ القرفصاء يَرْفَضُّ عرقًا في الغرفة المعتمة. وخُيّل إليه أنّه سقط من شاهق.

إلى متى هذه الحيرة وهذا العناء؟ إلى متى ستظلّ يدي ممدودةً إلى السّماء وهي تزداد بعدًا وتمنُّعًا؟ إلى متى أركض وراء عقلٍ نَمَّيْتُه بدراسة أرسطو والفارابي وابن سينا، ومجالسة الجويني وعقلاء العالم فلم يزدد إلّا غَبَشًا؟

تكوَّمَ في ركن الغرفة جالِسًا عند الزاوية. لقد مرّت أشهرٌ طويلةٌ وهو لا يستسيغ طعامًا ولا شرابًا بسبب الشّكوك الّتي تتناوشه. عامان مَرّا وهو يطالع الكتبَ باحثًا عن إجاباتٍ شافية، لكنّه لم يجدها. كلّما اقتربَ من قمّة الجبل وظنّ أنّه وصل، تراءتْ له رؤوس الجبال طامحةً في الأفق متمنّعةً

عنيدةً من بعيد. ولمحَ خيال خَلُوب قادمة، وامتلأت أذناه بصوتِ المقرئ في المسجد المجاور يصلّي التراويح.

- أبا حامد.. لقد طال الأمر. أرى أن تدعو الطّبيب.. فقد طالَ الداء، وتعسَّر الشّفاء، وأنت لم تأكل في ما مضى من رمضان ما يُشبع طفلًا.

كان رأسه ثقيلًا ومعدتُه تؤلمه، فأشار إليها بالجلوس وقال:

- نعم، ابعثي الغلام إلى سعيد بن هبة الله، فمنزله قريب.

وقفت خَلُوب دفعةً واحدةً حتّى لا يُراجِع قرارَه. فقد عرضت عليه استشارةَ الطّبيب مرارًا ورفض.

أتبعَها نظرَه مُفكّرًا في المساحة الشّاسعة بينها وبينه رغم قربها منه. *أنا وهي تحت سقفٍ واحد، ونبيتُ في لحافٍ واحد، وبيننا مفاوزُ ومَهامِه. هي تظنّ الأمر ذا صلةٍ بالأكل والشّرب والطين. لكنّ علّةَ النّفس أكبرُ من سجن الجسد.*

غشِيه إرهاقٌ، فاستلقى على الأرض. كان بين اليقظة والإغماء، يفكّر مُتأمّلًا حالَه، والأسئلةُ تحاصرُه. *تزعم أنّك أكبر عقلٍ في العراق وخراسان وها أنتَ طريح الشّكوك؟ مسكينٌ ذلك الإنسان! يلجأ إلى الطّبيب ليداويه والطّبيبُ يطوي بطنَه على الداء الدفين، ويلجأ إلى العالِم ليخرجه من الشّكوك والعالِمُ لا ينام اللّيل تطوافًا في أودية الشّكّ.*

وتذكّر حلمًا رآه البارحة. رأى فتاةً واقفةً وسط محرابٍ تمدّ إليه يدَها وتقول بشفقة: «تعالَ يا أبا حامد! تعالَ! لقد طال الطريق!». *ليت شعري ما معنى ذلك؟ لعلّها أضغاث أحلام.* واستيقظَ على صوت الطّبيب سعيد صاعدًا مع السلّم يتحدّث. جلس متحاملًا على نفسه، ورتّبَ ملابسَه، وعدّل طيلسانه. دخل سعيد وجلس في طرف الغرفة مُتأمّلًا المكتبةَ العامرَة بالكتب، مستنشقًا رائحة الجلود المخلوطة بالعطور.

- كيف حالك أيّها الإمام؟

- بخيرٍ وعافية.. وحالي ما ترى.

- حدّثَني الغلام أنّك مريض، عساك بخير. ما بك؟

- لم أسْتَسِغْ طعامًا، ولا هضمتْ معدتي هضمًا سلسًا منذ أشهر.

أزاح سعيد طرف ردائه عن يديه، واقترب مقطّبًا جبينه. أمسك ساعدَه، وتحسّس نبضَه من رسغه، وضغَطه مُنصتًا. ثمّ جَسَّهُ مِنْ تَحْتِ ذَقْنِهِ، وطلَبَ مِنْهُ إزالَةَ قميصِهِ. كان جسمُ الإمام هزيلًا باديَ الفقرات. فتأمّله، ثمّ فحصه فحصًا دقيقًا وتمتم:

- تكون بخير إن شاء الله.

وقف سعيد، ودعَا مُساعدَه الجالسَ في الأسفل، فصعدَ السلّمَ راكضًا، ودخل يحمل خُرْجًا في يده. اقترب منه سعيد، وطلب قنّينةً فارغةً مدّها إلى الإمام ليرسل فيها عيّنة من بوله غدًا صباحًا إلى البيمارستان للفحص، ثمّ أشار إلى مساعده بالابتعاد. مالَ سعيد مُستندًا إلى الجدار، وأخذ يتأمّل ظلَّ الإمام المنعكس عليه. *ترى ما الّذي شغل قلبَ هذا الرجل؟ لِمَ كلّ هذا الإرهاق النفسانيّ؟ لكن كيف أجرؤ على أن أقول له إنّ مرضه نفسانيّ لا جسديّ؟*

وتنحنح:

- أبا حامد، ما فهمته أنّ ما بك مرتبط بالهموم والغموم؛ فما الّذي يزعجك؟

انفتحت عينَا أبي حامد في الجو المعتم دهشةً من دقّة التشخيص. *كيف عرف هذا؟* كان الغزاليّ قد سمع المبالغات في علم سعيد بالطبّ ودقّة فراسته. *هل أصارحه؟ وكيف؟ هل أخبره أنّي أشكّ في الحواسّ وطرق المعرفة والعقل وفي الدين وفي الله؟ سيتّهمني بالجنون أو الكفر. هل أكتمه الحقيقةَ وهو الطّبيب المؤتمَن الّذي دعوته ليعينني على نفسي؟*

لم يستطع التفوّهَ بكلمةٍ، بينما كانت عينا الطّبيب تجولان في أطراف الغرفة. ظلّ الطبيب يحملقُ في السّقف، وشعرَ بالمأزق الّذي وضعَ فيه نفسَه ووضع فيه عقلَ بغداد كلّها. ولم يقطع صمتَ المكان إلّا دخول الجارية سندس، جاءت تحملُ أشربةً وفواكه وضعتها قرب الطّبيب، وانصرفت.

كان ذهنُ الإمام لا يزال مشغولًا بالتّفكير في كيفيّة مصارحة الطّبيب. لكنّه ضَغَطَ على شفتَيْه، وقال:

- أيّها الحكيم! أيّ همومٍ وأيّ غموم؟ أنا في نعم الله الّتي ترى لا ينقصني شيءٌ من هذه الدّنيا. لعلّه أمرٌ آخر، أو لعلّنا ننتظر حتّى نرى ما يسفِرُ عنه الفحص غدًا.

كان سعيد مُسْتَنْفَرَ الحواسِّ منتبهًا إلى كلّ حركةٍ تصدر عن الغزاليّ، ففهم أنّه يخفي أمرًا، وأنّه غير صريحٍ في إجابته. *ترى ما الّذي ينوء به كاهل هذا الشّيخ؟*

شعر بشفقةٍ وحزنٍ عليه فتمتم:

- أستودعك الله، وسأعود إليك غدًا إن شاء الله. ولا تتردّد في دعوتي متَى ما أردتني.

نظر الغزاليّ إلى سعيدٍ وهو يغادر: *أيّ يقينٍ جعَلَه لا يمنحني دواءً ولا شرابًا؟ هل بدتْ عليّ علامات الشّكوك؟*

قام من مكانه مستندًا إلى الحائط حتّى جلسَ على الكرسيّ الّذي يكتب عليه عادة. نظر إلى الكتب المرصوفة. *ما الّذي أفادتنيه هذه؟ الأصلع أحسن منّي حالًا في الدّنيا قطعًا، وفي الآخرة قطعًا.. إن كانت ثمّة آخرة.*

وضع مرفقَيه على الطّاولة وعَرَكَ وجهَه. *ماذا بقي لِي؟ لقد نخلتُ كتبَ الفلاسفة والمتكلّمين والباطنيّة. ولا أشكّ في أنّ الحق الكاملَ ليس مع هذه الطوائف الثلاث. لم يبق إلّا التّصوّف، وأنّى لي بدَرْسِه وهو مذهبٌ*

يحتاج إلى الممارسة والتجرّد ومحاربة الهوى. وكيف أدخل الممارسة بقلبٍ شاكٍّ وجسمٍ عليلٍ مريض؟

واقتربت خَلُوب حاملةً صينيّةً وضعتها على الطّاولة فامتلأ أنفُه بريّاها العطر. ثمّ نظرَ إلى الطّعام. خُيّل إليه أنّه سيتقيّأ إذا قرّبه من فمه. تأمّلَ الصينيّة الأنيقة والكتب المصفوفة والجدرانَ العالية والسقوفَ المزركشة وجاريتَه الحسناء وداره العامرَة ومكانتَه السامقة في بغداد. لكنّه وجد نفسه كائنًا تعِسًا ضئيلًا يرتعد على باب فوهةٍ زمهريريّةٍ سحيقة. فكّر في الشّيخ الأصلع. *لا يملك إلا جُبّتيْن يُراوح بينهما وينطلق سعيدًا في هذا العالم. وإذا كان ثمّة عالمٌ آخرُ فسيكون سعيدًا فيه قطعًا. فهو لم ينافس عالِمًا، ولا جالسَ سلطانًا ظالمًا، ولم يشهد في مالِ يتيم، ولا تولّى وَقْفًا، ولا اعتلى منبرًا منتظرًا العيونَ المعجَبة والألسنةَ المادحة. ولا تكلّمَ مُنمّقًا حديثَه ليخدع سامعيه، ولا درسَ المنطق ولا الفلسفة بحثًا عن الحقّ. لكنّه يعيش الحقَّ ويجده. فقلبُه يجد الحقّ ويجزم بوجوده ويحسّه، وهذه إحدى طرق المعرفة.*

ربّما عليَّ البدءُ في دراسة التّصوّف أوّلًا حتّى أقف على ما عند القوم، ثمّ الإكثارُ من مجالسة الأصلع وأضرابه. فالقلوب تُعْدي القلوب، والورعُ يسري من الجليس إلى الجليس، والفسقُ ينسربُ من الصّديق إلى الصّديق. ولا بدّ من التضرّع إلى خالق الأرض والسّماء وخالقي ليدلّني على الطّريق.

ورفعَ يدَيه في العتمة مُتأمّلًا أصابعَه مُفكّرًا:

– هذه الأصابع مخلوقة قطعًا لخالق. سأتضرّع إلى خالقها ليهديني سواءَ السبيل.

وظهرَ خيال خَلُوب آتية. وقفتْ منحنيةً قليلًا، وقالتْ بلهجة شفقة:

– أبا حامد... ألا تأكل؟ الجوعُ ليس علاجَ المرض!

فرَدَّ بلسانٍ فاتر:

- سآكل!

وابتعدتْ في الدّهليز. أمّا هو فتكوَّمَ في كرسيّه ضعيفًا عاجزًا حائرًا. *ماذا عليه أن يفعل؟ كيف يطلبُ السّعادة الأخرويّة وهو غير واثقٍ من الآخرة؟ وكيف يتوانى عن طلبها وقلبُه ينبض بوجودها؟ كيف سيكون مصيرُه إذا كان أمر الآخرة حقًّا؟*

عاوده الدوار والألم. مدّ يدَه إلى الوسادة، وضغطَها بيده وعضَّ على شفتَيه، بينما دارت عيناه في أطراف الغرفة المعتمة.

وأفاقَ بَعْدَ ساعَةٍ وكلُّ ذرّةٍ مِن جِسْمِه المنهَك غارقةٌ في العرَق.

50

«إنّ البلابل لا تُغرّد إذا يبست الحديقة».

جلال الدين الرّومي

بغداد، 488 هـ.

- هذه المزيِّنةُ تكذب!

قالتها خَلُوب بنبرةٍ مترعةٍ دَلَعًا، واستلقت قربَه على السّرير. أدارت حدقَتَيْها في السّقف الواضح تحت أنوار السّراج الزيتيّ المثبّت في ركن الغرفة وأضافتْ:

- لقد استدعيتُها لتمشيط شعري وتزْجيجِ حاجبيَّ، لكنّ الأخبار الّتي كانت تُنفث في أذني غير معقولة.

ابتلعت الحرفَ الأخير والتَفَتَت جهة الغزاليّ لتسبُرَ اهتمامَه بحديثها. فقد كان ممّا تقدّره فيه قبلَ مرضه اهتمامُه بقصصها عن جاراتها وحكاياتهنّ، وصراعاتهن الصّغيرة. فكثيرًا ما يكون منشغلًا بكتابة كتبه الكثيرة، لكنَّ ذلك لا يشغله عن الإنصات لقصصها. حتّى إنّها لا تنسى قولَه مرّةً إنّه صار ينظر إلى الرّجال في المسجد وذهنُه مملوءٌ بحكايات زوجاتهم وجواريهم بسبب قصصها عنهنّ. فلا يدِبُّ خبر، أو تسري شائعة، أو يطير نبأٌ في الحيّ إلّا وصلها بواسطة المزيِّنات أو الجارات، أو جاريتها.

تأمّلتْ عَينَيه الذاويتيْن، وشعرَه الّذي لم يدهنه منذ شهر، وذلك الانطفاء المتكسّر في عَينَيه وشفتَيه وبشرته. *ما الّذي يشغل ذهنه؟* وخطر لهَا أن تتحدّث رغم ذلك، فلعلّ ما تقوله يُسلّيه أو يخرجه من عالمه.

- لقد قالت المزيّنة إنّ جارنا أبا عثمان قتلَ إحدى جواريه.

وخفق قلبُها حين تلفَّت:

- كيف؟

- اتّهمها بغلامه!

ثمّ قرّرت أن تزيد بعضَ التفاصيل لعلَّها تلامس غيرتَه فينتبه أكثر:

- ذلك الغلام الطّويل الأبيض الصقلبيّ. أتذكره؟

- نعم... كان يرافقه إلى المسجد.

- تقول المزيّنة إنّه وجدهما ليلًا في غرفة الطّعام وهما في حال الزوجيْن...

كانت تتحدّث مستلقيةً على ظهرها وعيناها تسافران في السّقف، لكنّها تراقبه من مُؤْقها. مالت على جنبها وقالت بنبرة استنكاريّة:

- أخذ الجارية، وذبحها، ودفنها في طرف المنزل، ثمّ أخذ الغلامَ وخصاه!

شعر الغزاليّ بخفقانٍ في قلبه. *كيف يجرؤ النّاس على هذه الدواهي؟ ألا يؤمنون بيوم الحساب؟ ألا يتوقّعون الانتقام من الجبّار؟* ثمّ عاد إليه ذهنُه فتساءل: *ألا تشكّ أنت في اليوم الآخر وفي الله؟ أتملك يقينًا يجعلك تستغرب جرأةَ النّاس على الله! لعلّ ذلك العاصي مؤمنٌ بالله رغم معاصيه، ولم تدخل الشُّبَهُ الفلسفيّة إلى قلبه كما عشّشتْ في سويداء قلبك!*

واصلت خَلُوب حديثها لكنّ ذهنه سافر بعيدًا. *كيف يجتمع الإيمانُ والكفرُ في قلب إنسان؟*

ثم تذكّر ما تعلّمه في دراسته من أنّ الوساوس الّتي يلقيها الشّيطان في قلب المؤمن -مع تأبِّي القلب وتمنُّعه عنها وانزعاجِه منها- وساوسُ ودليلُ إيمانٍ. لكنّ وجودها واستمرارها يزعجه ويخشى أن يكون دليلَ نقصٍ في الإيمان.

أفاق على خَلُوب مسترسلةً في قصصها الكثيرة. غابَ عنه أكثر كلامها، لكنّه أفاق عليها في نهاية حكاية:

- وغضبت أمّ عثمان، ومنذ ذلك اليوم لم تكلّمه! هكذا الرّجال لا وفاءَ لهم ولا عهد.

وأراد أن يريها أنّه كان مصغيًا:

- إنّ الرّجال لا يفعلون فعلًا خاطئًا إلّا مع امرأة، فكيف تبرّئين النّساء؟ فالرّجل إذا ترك زوجتَه وتزوّج أخرى إنّما يفعل ذلك مع امرأة. فلمَ تلومين جنسَ الرّجال ولا تلومين جنس النّساء كذلك؟

تصنّع الابتسامَ وهو يفكّر في كتابٍ بدأ كتابتَه منذ أسبوع. كانت فكرتُه واضحةً في ذهنه، لكنّه يحتاج إلى عنوان. واندفعتْ خَلُوب تسبُّ أفعالَ أبي عثمان، بينما انطلق ذهنه يفكّر في الفصول الأخيرة من كتابه. وتداعت الأفكار حتّى مالت يد خَلُوب جهتَه، فسمع أنفاسَها غاطّةً في النوم.

وقَف مُتّجهًا إلى النّافذة. وأزالَ الستارة فلامست وجهَه أنسامٌ نديّة. بدتْ له بغداد خاشعةً تحت لحاف اللّيل الحالك. وتذكّر ذلك الحلم الذي ظَلّ يُعاوده منذ فترة، وتلك المرأة الواقفة وسط محرابٍ تناديه: «تعالَ يا أبا حامد! تعال، فقد طال الطريق!»، فطردَ صورتَها من ذهنه وجسمُه يقشعرّ.

أرسلَ بصرَه مع الشّوارع، كانت هادئةً صامتة، ورؤوسُ النخيل تتمايلُ تحت أنسام ليل بغداد. ظلَّ واقفًا يتأمّلُ الأفق الممتدّ، والظّلامَ الكثيف، وبغدادَ الهادئةَ الخاشعة في انتظار إشراقةِ شمسٍ أخرى. وتمتم: «سبحانك ما خلقتَ هذا باطلًا!».

أمسك الستارة، وأعادَها ثمّ ابتعد عن النافذة، وجلس. وظلّ غارقًا في أسئلته وهواجسه حتّى تناهى إلى سمعه أذان الفجر، فاقتربَ من النّافذة

بقلبٍ خافقٍ وعينٍ دامعة، وهو يفكّر في حاله، ثمّ رمى طرفَه من النّافذة وبدأ يدعو:

- إلهي! طال التردّي في أودية العطش... وكلَّتْ رجلُ العقلِ الضّعيفة من السُّرى.. وانطفأت عينُ العقل على أعتاب ملكوتك ولا هاديَ إلّا أنت! إلهي! انظر إليّ بعين الرحمة ووجّهني إلى طريق الحقّ!

ظَلَّ واقفًا وقلبُه يرجف مُتضرّعًا، حتّى مرّت صلاة الصُّبح على أذنَيه وهو في مكانه لا يتحرّك. لكنّه أخذ قرارًا لا عودة فيه، قرارًا بدأ يُراوده منذ عامٍ لكنّه كان يتقاعس عنه خوفَ التراجع.

فكّر في أن ثمّة لحظات حرجة يقف فيها المرء على رأس الميزان بين سعادته وشقاوته، ينظر إلى كفّتَي القدَر تتأرجحان، وقلبُه يخفق مع كلّ هزّةٍ للكفّتين. لكنْ ثمّة لحظةٌ لا بدّ للمرء فيها من الانعتاق حتّى لو كانت الوجهة جهنّم.. لحظةٌ مثل لحظة تحرُّر الشّيطان للشرّ وإغواء النّاس، وأمرِ الملك بقتل وريثه.. وخروج أبي بكرٍ لمناصرة النبيّ. فالإنسان لا يكمل إلّا إذا اختار طريقًا وصمّم عليها... وشخصت في ذهنه صورة الأصلع حين زاره في بيته قبل أسبوع وهو يصرخ به:

- فِرَّ إلى الله! فهذا طريق طويل. قُتل فيه الحسين، وأريق فيه دمُ عمر أثناء الصلاة، وسُفك فيه دمُ عثمان وهو صائم. طريقٌ تصدّعت له المساجد، وبكت المآذن، وارتعدت الفرائض. اصحبْ نفسك وخالِلْ ربَّك! استغنِ عن الخلائق بقطع العلائق! اقفزْ من الحفرة، فُكَّ القيد! اقطع الشَّرَك، واهرب من القفص! ابصُق الريقَ المقيّد للسانك! تقيأْ القيءَ، ارفع رأسك وانظر إلى السماء! فليس في هذا العالم حركةٌ مباركةٌ إلّا كانت بسبب هجرةٍ ومفارقة. فقد ترك الحبيبُ مكّة، وخرج موسى من مصر، ومات الصحابةُ خارج جزيرة العرب، ودرجت أفراخُ

الطيور من أوكار أمّاتها لتعيش! وسار القَمر، وهرِمت الشمس من السُّرى، ودارت الملائكة بين السماوات، وسبحت الأفلاكُ والمجرّاتُ ركضًا إلى الله!

وانعقد قلبُه فجأةً على ذلك القرار. فأحسّ بحُرّيّةٍ ونشاطٍ وطِيب نفسٍ أوّلَ مرّةٍ منذ عام. وقرّر أن يخفي الأمر عن الخليفة، وعن حلفائه السّلاجقة وعن كلّ أحد.. حتّى عن خلوب!

51

بغداد، 4 ذو القعدة، 488 هـ.

رمت خَلُوب المِزْوِدَ على طرف السّرير وجلست ممسكةً ذقنَها بأصابعها. *لم لم يأخذ معه أيّ ثوب من أثوابه الفاخرة؟ ومن أين أتى بهذه المرقَّعة؟ ولم فرّق كلّ ما يملك، وردّ إلى النّاس ودائعَهم؟ ولم طلبَ ألّا أضعَ في هذا المزْوِدِ إلّا الخبزَ اليابسَ والزيت؟*

نفضت رأسَها طاردةً أفكارَها وهي تراه قادمًا من جهة الكنيف. اقتربَ ودخلَ غرفةَ كتبه:

- أسرعي!

خرجَ من مكتبته يلبَس جُبّةً متواضعةً رأتها عليه أوّلَ مرّة. كانت واحدة من تلك الجِباب الّتي لم يرضَ قطّ أن تلامس جلده. لوى عمامتَه، وأمسك مِزْوِدَه، ووقف في الدّهليز ما بين باب المكتبة وحجرة النوم. كانت عيناه طافحتَين بالحديث، ووجهه مرهقًا متعبًا، لكنّه ظَلَّ يُداري كلَّ ذلك مُتظاهرًا بابتساماتٍ تفضحُها سكتاتُه ونظراته. اقتربتْ منه ممسكةً يدَيْ بنتيها: عائشة في عامها الرّابع، وفاطمة في الثاني. حاولَ تجنّبَ النظرِ في عيون الطفلتَين. كانت عائشة قصيرةً واسعةَ العينَين تذكّره بأمّه الّتي سمّاها بها، أمّا فاطمة فبيْضاءُ طويلةٌ مثل أمّها ولها الخال ذاتُه فوقَ الأنف. حاول تجنّب النظر إليهما وهو يسمع ضربات قلبه حبًّا لهما وشوقًا إلى احتضانهما. خطرَ له أنّ هذه قد تكون آخرَ مرّة يرى فيها هاتَين العصفورتَين! *قد تتيتّمان بعدك، ولا تدري ما يحيق ببغدادَ بعد خروجك. هل سيهجم العيّارون على هذا*

البيت فتموت الطفلتان خوفًا في غياب أبيهما؟ وتذكّرَ الآية: «إنّما أموالُكم وأولادُكم فتنة»! *لقد تصدّقتُ بالمال كلّه، أمّا الأولاد فهأنذا أتركهم فِرارًا بديني.*

نظرَ إلى خدودِهما المتورّدة، وعيونهما الصّغيرة الطافحة بالحبّ والتعلّق به. *هما لا تعرفان شيئًا عنّي! لا من أنا، ولا ماذَا أكون، ولا ما أريد. فهل ستعلمان يومًا مَن أبوهما؟*

ورأى الدمعَ في عينَي خَلُوب الواسعتَين. رأى تينك العينين الزرقاوَين النجلاوَين، وذلك الخالَ الجميل، وذينك الخدَّيْن المتورّدَين، والماءُ يسيل من أنفها. مالَ عليها معانقًا، وقبّلها هامسًا:

- لا تبكِي حتّى لا تراكِ البنتان... إنّما هي رحلةٌ للحجّ ثمّ أعود بحول الله!

وابتعد نازلًا مع السلّم مُنصتًا لبكائها المكتوم، بينما كانت هي تنصتُ لخَفق نعليه. خُيّل إليه أنّه يودّع الدّنيا... مخلوقٌ غريبٌ يسير على طرف البسيطة ذاهبًا إلى آفاقٍ مجهولة، وأنّه يرفع رجلَيْه ويضعهما في الظّلام.

مرّرَ بصرَه مع السّتائر الفاخرة والجدران المزركشة والبيتِ الواسع النظيف. وتذكّر الزوجةَ الحسناءَ وبنتيه الجميلتين، ومكتبته العامرة وعملَه الجليل. كانت كلّ خطوةٍ تُبعده عن هذا العالم الّذي عرفَه وألِفَه وأحبَّه وبناه... يبتعد عن بغداد الّتي استقبلته وأحبّته وقدّمته.. يترك الوجوهَ الوقورة المملوءة إعجابًا به، وتبتعد أذناه عن الألسنة الطافحة ثناءً عليه، والجماهيرِ الهاتفة حبًّا له. لكنّ الإنسان يحتاج إلى أن يرمي تاجَه أحيانًا للحفاظ على هامته. *ألم يَنُحْ نوحٌ على هذا الطّريق؟ ألم يُرْمَ إبراهيمُ الخليل في النار؟ ألم يترك زوجَه وولدَه بوادٍ غير ذي زرع؟ ألم يُهجَّر محمّد صلّى الله عليه وسلّم عن بطحاء مكّة؟*

مشى في الممرّ حتّى بلغَ مخرجَ البيت. فتح البابَ بيدٍ مرتعشة، وخرج. نفحتْه الرياحُ وهو ينظر إلى المُكَاريّ الواقف بحماره عند الباب ينتظره. ركبَ صامتًا ومِزْوَدُه في حِجْره. وتقنّع بطرف عمامته وهو ينصت للمكاريّ يزجر حمارَه ويتحدّث عن آماله في السّفر إلى الحجّ.

كانت شوارعُ بغدادَ تتحرّك أمامَه كطيفِ خيالٍ آتٍ من عالمٍ قديمٍ منقرض، عالمٍ كان في الماضي كبيرًا برّاقًا ثمّ تداعى وفَقَدَ رُواءَه وبهاءَه. بدت بغداد في عَينَيه بلاقعَ خرِبةً مشحونةً بكبار الأطفال المتهارشين على الجِيَف واللّحوم الحرام.

لقد ارتوى ذلك الظمأُ الحارق إلى التقدير، وانطفأت تلك الجذوة التوّاقةُ إلى الجاه، وبردتْ تلك الروحُ المتوثّبة إلى الصيت. *فماذا سيفيدُني الصيتُ والتقدير إذا وقفتُ غدًا وحيدًا بين يدي الله سبحانه؟*

وظهرت مئاتُ الجِمال والبغالِ والأفراس في صعيدٍ واحد. نزلَ متقنّعًا وهو يدسُّ درهمًا في يدَي المكاري. وجلس في طرف القافلة ينتظر الانطلاق. وفي ضحوة ذلك اليوم عبرت القافلةُ من باب بغداد قاصدةً مكّة. كان قلبُه يخفقُ وهو يتأمّل الحجّاج القريبين منه في القافلة. وشعر بسعادةٍ غامرةٍ لأنّه كان مجهولًا عندهم. فلا أحد يعرفه ولا هو رأى من يعرفه. بدأ يتلفّت منتظرًا اللّحظة والمكان الّذي حدّدَه. وما كادت القافلة تخرج من باب بغداد حتّى تقاعسَ إلى مؤخّرتها، ثمّ انحرفَ إلى أحد الأزقّة الضيّقة.

شدّ لثامَه ومشى مُسرعًا باحثًا عن مسجدٍ صغير. سار مع دربٍ ضيّقٍ حتّى ظهرَ مسجدٌ متوارٍ في زاوية. تجاوز رحبتَه، وفتح الباب، فلمح شبابًا جلوسًا يتدارسون، فتردّد في الدّخول. *أيكون بينهم من يعرفني؟* تفقّد لثامَه، ونظر إليهم، ثمّ دخل متّجهًا إلى الزاوية الأخرى وجلس. ولم يطل الوقت حتّى خرج الشّباب تباعًا، فخرج من المسجد حذِرًا ودخل الحمّام.

خلع جبّتَه ولبسَ مرقّعةً باليةً أهداه إيّاها الشّيخ الأصلع، وخرج من الحمّام متلفّتًا. وبعد ساعةٍ كان على إثر القوافل السّائرة إلى الشّام في مرقّعته وعلى ظهره مِزْودٌ وعلى كتفه الأخرى رَكْوَةٌ وبيده عُكّاز.

رفع لثامَه ليتّقيَ الرّياحَ الباردة، وشعرَ بخفّةٍ وسعادةٍ لم يعهدهما منذ دهر. أحسَّ ببرودة الرياح، فهذه تباشير الشّتاء بدأت تغزو أطرافَ بغداد. كان ذهنُه مشغولًا يفتّش عن مكانٍ للمَقيل أو المبيت؟ هل سيتيّسر له مكانٌ يجلس فيه وقتَ المقيل ليرتاح استعدادًا للسفر؟ أم سيظلُّ وحدَه؟ وهل سيخرج عليه لصوصٌ أم لا؟ وأفاق على أفكاره، فأنّب نفسه. *أخَرجتَ من مالِكَ وولدك بحثًا عن مكانٍ تقيل فيه أو تبيت؟ وهل ركلتَ الخلفاءَ والسّلاطينَ لتخاف اللّصوص والعيّارين؟*

رمَى الطّريق بطرفه مُتأمّلًا الأشجارَ المتناثرة. صمتٌ لا يعكّره شيء. *أين كنتُ عن كلّ هذا؟* صمتٌ تامٌّ لا يَسمع فيه إلّا ضجيجَ الخواطر في ذهنه، وشجارَ الأسئلة في قلبه. هنا تطيب العبادة ويحلو الحديثُ مع الخالق دون شاغلٍ أو عارض. وانتابَه شعورُ مَن سيطر على نفسه بعد جموح. فخطر له ألّا يتوقّف عن السّير إلّا للصلاة. توقّف مرّتَين لصلاة الظهر وصلاة العصر. وطالَ المسير، فبدأ يشعر بألمٍ تحت أحد أضلعه وخدَرٍ في قدمَيه. *منذ متى لم أسِر هذه المسافةَ على قدميّ؟*

وشخصت في ذهنه حياتُه منذ وُلد.

مرّتْ أمام عَينَيْه ذكرياتُه حيّةً نابضةً عابثة. *أيّ عمرٍ ضاع؟ وأيّ أنفاسٍ بُذّرت سُدًى؟ أين كنتُ عن نفسي؟ أيعقل أن يعيش الإنسان راكضًا غافلًا عن نفسه؟ تُسلمه اللّحظة إلى أختها، والنَّفَسُ إلى صنوه، والأمنيةُ إلى شبيهتها، وهو سادرٌ مخدوعٌ بالكلام وأحاديثِ النّاس والأكل والقراءة دون أن يخلوَ بنفسه؟*

خطَر له أنّ تلك الحياةَ لم تكن حياتَه ولم يتّخذ فيها قرارًا واحدًا. بل كان غائبًا سكرانَ بالأمانيّ ومراقبةِ النّاس. حياةٌ ممتدّةٌ لم يكن فيها حرًّا في يوم من الأيّام. فكلّ دروبها ومسالكها إنّما كانت بفعل النّاس لا بفعله، واسترضاءً للبشر لا لروحه. حتّى العلم والتدريس إنّما كانَا لينال موقعًا في قلوب النّاس أو ليثبت لفلانٍ أنّه أفضل منه وأذكَى وأعلم! واستعرض عشراتِ الكتب التي ألّف ليرى ما إذا كتبَ واحدًا منها مُخلصًا فيه لله. وفاجأه أنّها كلّها كانت رياءً باستثناء «مقاصد الفلاسفة» و«تهافت الفلاسفة». فقد كتبهما صادقًا محاولًا البحث عن الحقّ. فلا هما لله ولا للخلق، بل لنفسه.

جَنَّ اللّيل وزحف الظّلام وهو لا يزال يسير على الطّريق الطّويل، والألم تحت الضّلع والخدر في الرجلين كما هما. سمع نَأْمةً، فالتفتَ، فلمح ناقةً تأكل من غصن شجرة. انحرفَ عن الطّريق، واقتربَ من شجرة، وجلس محتميًا بها، وبدأ يصلّي المغرب. كان ينظر إلى الأفق المظلم، والنجومِ الّتي بدأت تُسفر عن لمعانها في الفضاء، ويسمعُ مضغَ الناقة لأوراق الشّجر وهو يقرأ: «أم خُلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خَلقوا السماواتِ والأرضَ؟ بلْ لا يوقنون! أم عندهم خزائنُ رحمة ربّك؟ أم هم المُسَيْطِرون»؟

مادت الأرض تحتَ رجليه، وضاقَ نفَسُه وهو يرتّل: «والنجمِ إذا هَوَى! ما ضلّ صاحبُكم وما غَوَى! وما يَنطقُ عن الهوى! إنْ هو إلا وحيٌ يُوحَى...»! خُيّل إليه أنّ الناقة أمسكت عن المضغ، وأنّ أبوابَ السّماء فُتحت. جالت روحُه في عوالمَ بعيدةٍ سرمديّة. وأفاق من صلاته يقلّب ناظرَيه في الفضاء المظلم، والأنجمِ الخافقة خفقانَ قلوب العاشقين. وسمع حنينَ الإبل وأصواتَ البدو قريبًا.

أدار ظهرَه إلى الشجرة، والتفَّ في جبّته مسترخيًا مُتأمّلًا السّماء. عبِق

أنفُه بعبير الأشجار، وأنسامِ الفضاء المفتوح. ظلّ يهمس: لا إله إلّا أنت سبحانَك إنّي كنت من الظالمين! سكتَ طويلًا، وذكر الله كثيرًا متذلّلًا. أنصتَ لحركة الريح العابثة بالأوراق والأغصان، ولدبيب الأرض بمخلوقاتها، وهو يحدّق في الظّلام الدامس وحركات الأفلاك البعيدة. *أين كنتُ من كلّ هذا؟* ثمّ تذكّر بغداد، فتخيّلها دارًا للموتى بعيدةً معتمةً منتنةً مرهقةً باردة. تذكّر مجلس الخليفة المستظهر، واستعادَ بخجلٍ مشاعرَه عندما حضر يومَ تنصيبه، وسعادتَه بأنّه أصبح يحضر تنصيب الخلفاء. سخر من تفاهة نفسه وقِصَر مطامحه وهو يتذكّر كيف ألّفَ من أجله كتاب «فضائح الباطنيّة» بدلًا من كتابته لوجه الله، وكيف كان سعيدًا بذلك. *كيف أهجُر مالِكَ تلك النجوم وهذه الأرض وبغدادَ كلّها لأحرص على مرضاة مخلوقٍ سيصبح جيفةً لا محالة؟!*

أبعدَ رأسَه عن جذع الشّجرة، وفتحَ مِزودَه، وأخرج كسرةَ خبزٍ وحبّات زيتون. قطَّرَ من الزيت على الكسرة، ونتَشَ منها. سرى الطَّعامُ في مسامّ جسده كُلِّها، ووجد له طعمًا لم يجده منذ أشهر. شعر برضًا عظيمٍ وهو يرى نفسَه جالِسًا في ظلام اللّيل تحتَ شُجَيْرةٍ مرميّةٍ على طرف الطّريق ينهشُ كسرةَ خبز. كلّ هذا لله وسعيًا لمرضاته. وانقبض، وشعر بهمٍّ وغمٍّ. *كيف أتدلّل على الله؟ وأمنُّ عليه؟ أليس الرضا عن النفس آفةُ الآفات ومثبّط الأعمال؟*

همسَ: لا إله إلّا أنتَ سبحانَك إنّي كنتُ من الظالمين!

وضع الكسرة على المزود وخرّ ساجدًا. فأحسّ برائحة التراب تدخل منخرَيْه وهو يعفّر وجهَه في الأرض. صبرَ على ذلك مُذكّرًا نفسَه بأنّ عليها تعلُّمَ الأدب مع الله في خواطرها! ثمّ رفعَ رأسَه، ومسحَ وجهَه بطرف مرقّعته، واعتدلَ جالِسًا لا يسمع إلّا خفقانَ قلبه وصدى أفكاره وحنينَ

الإبل المتقطع الّذي يبتعد. أحسّ بالنعاس يغزو عَينَيه، فوقَفَ وقطع مسواكًا من الشّجرة، وغسل يديه وفمَه، وتوضّأ، وأدار وجهه إلى القبلة، وبدأ يصلّي.

أنهى ثلاث عشرة ركعةً وجلس مُفكّرًا في الغد. فكّر في الطّريق وما قد يعرض له. وشعر بِغبطةٍ لأنّ غدًا أوّلُ يومٍ يُصبح فيه حُرًّا طليقًا من نفسه ومن كلّ شيء...

52

«وضعُف مُلك العرب، فاستفحل الإفرنجةُ (..) ثمّ سمَوْا إلى الشّام وبيتِ المقدس (..) فسَرَبُوا إليه آخرَ المائة الخامسة. وتواثبوا على الأمصار والحصون».

ابن خلدون

كليرمونت، فرنسا، 26 ذو القعدة، 488هـ/ 27 نوفمبر، 1095م.

لم يتساقط الثلجُ بعدُ، لكنّ البردَ قارسٌ خارجَ أسوار كليرمونت. امتدّ المؤتمر الكنسيّ أيّامًا، فتسلّل المللُ إلى النفوس. لكنّ مئات القُسُس الملتفّين في عباءاتهم يبدون أكثرَ نشاطًا ونظافة، وأنصع وجوهًا من آلاف المزارعين والأقنان والفرسان المتجمّعين وسط المؤتمر الكنسيّ المقام خارجَ أسوار المدينة. بدأ المؤتمر قبل عشرة أيّام، وكثرت الموادّ المناقشة. فحَكم المؤتمر بكفر الملك فيليب بسبب الزنا، وحكم على مطران كومبري بجريمة شراء منصبٍ كنسيّ، وتشعَّبَ الجدلُ حول جواز زواج القسس.

كثر الحضور وتزاحم الناس حول المنصّة الضّخمة المنصوبة عند الباب الشرقيّ، خارج أسوار كليرمونت. كانوا يتأمّلون العرشَ البابويّ الضّخمَ المنصوبَ على المنصّة وأذهانهم تغلي بالأسئلة عن الخطاب المهمّ الّذي سيلقيه البابا. وفجأةً ظهرَ سبعةُ رجالٍ على المسرح المفتوح، فارتفعت الأصواتُ بالترحيب. تقدّم البابا أوربان الثاني الرّجالَ الستّة في ملابسه البيضاء المزيّنة بالأصفر. وقد انشغلَ ذهنُه بأنّه أكملَ عامَه الستّين في يوليو الماضي، ولمّا

يحقّق تلك الأمنيّة الّتي تنمُو بين أضلاعه. وصل إلى كرسيّه الخاصّ محفوفًا بخمسةٍ من كرادلته في ملابسهم السابغة. أمّا الرّجل السادس الماشي عن يساره فقد كان قصيرَ القامةِ طويلَ الوجهِ محروق اللّون، كان نشازًا في كلّ شيء حتّى في لباسه.

وحالما جلس البابا، أشار إلى الرجل القصير ذي الملابس الرثّة القذرة وغطاءِ الرّأس الغريب، بالتقدّم إلى المنصّة. فمشى الرّجل هادئًا كأنّه يعُدّ خطواته. وما إن وصلها ورفعَ يدَيه داعيًا حتّى كادت الجماهير تفقِدُ صوابَها حماسًا. تبادلَ القساوسةُ النظراتِ لإكمال حِوارٍ عن هذا الرّجل، إذ دخَل اسمُه كلَّ بيتٍ أوروبيّ في السنوات الماضية، واشتهر ببرنسه الّذي لا يغيّره إطلاقًا. وقد ساهم مظهرُ الغريب داخلَ الوسط الدينيّ في تسميته «بطرس النّاسك»، دون حاجةٍ إلى ذكر اسمه كاملًا أو حتّى إضافته إلى مدينة أميان التي ينحدر منها. أمسك بطرس النّاسك طرفَي المنبر، وألقى نظرةً على البابا، ثمّ صوّبَ نظرَه إلى الحشود:

- إخوتي، نجتمع اليوم لنتحدّثَ عن ذلك الهمّ المرير الّذي نتجرّعه صباح مساء، همِّ الشّرق الّذي يُدمي القلوب ويبكي الحجارة الصمّاء والحيوانات العجماء. نجتمع اليوم لنتحدّث عن إخوتنا من أتباع يسوع المسيح في مدينة الله.. مدينة القدس. حيث المسيحيّات يتعذَّبْنَ داخل أسوار المدينة المقدّسة. نتحدّث عن أرض يسوع المسيح الّتي يتملّكها الوثنيّون المحمّديّون. إنّ القُسُسَ في تلك البلاد يعذَّبون أشدّ العذاب، ويعيشون في الأغلال.. إنّهم يحملون صُلبانَهم على ظهورهم كلّ يومٍ كما حَمَلَ المسيح صليبَه. فكلّ عذابٍ تجرّعه المسيح تجرّعوه، وكلّ جرح عاناه عانوْه...

تحدّثَ بلغةٍ فصيحةٍ مؤثّرةٍ واضحةٍ مع تموّجاتٍ في نبراته الّتي يرفعها

حينًا ويخفضها حينًا آخر. انعكس كلامُه أنينًا وصراخًا في أطراف المخيّم. تلفّتَ سابرًا آثارَ كلامه في الأقنان والمزارعين والفرسان المجتمعين في السّاحة الواسعة، فرأى عيون نساءٍ دامعات، وقبضاتِ فرسانٍ تتحرّق إلى فعلٍ مّا. ردّدَ بصرَه بحبورٍ مستعيدًا كلامَه مع البابا قبل الوقوف على المنصّة. مسحَ لحيتَه الصهباء الطّويلة وهو يرفع بصرَه إلى السّماء مُلاحظًا سربًا من الطيور البيض؛ فقال مادًّا سبّابتَه جهتَها:

- تلك ملائكة الربّ مسافرةٌ إلى الشّام، مستنشقةً أنسامَ القبر المقدّس، داعيةً للمسيحيّين هناك بالنصر. وسينصرون! وسينصرون!

وانطلقت حناجر المتجمهرين:

- إنّها إرادة الربّ! إنّها إرادة الربّ!

كان كثيرٌ من الحاضرين قد احتكّوا مع بطرس النّاسك من قبل، فأصبح شخصيّةً قدسيّةً في أذهانهم تُمثّل عيسى مجسّدًا في عصرهم. فقد تعوّدوا عليه باعتباره رجلَ الدين الوحيد الّذي يمشي على حمارٍ ولا يغيّر ملابسه ولا يفكّر في مالٍ ولا أهلٍ ولا زوجٍ ولا صِلاتٍ بالإقطاعيّين أو الملوك. رجلٌ ملكت عليه فكرةٌ واحدةٌ روحَه: كيف ينقذ مدينةَ الربّ من أيدي العرب والأتراك.

هدأت الأصوات تدريجيًّا فواصل:

- لقد زرتُ تلك الدّيار حاجًّا، فرأيت بأمِّ عينيّ ما يعجز اللّسان عن وصفه، وتكلُّ العين عن النظر إليه، ويتعثّر الخاطر القويُّ دون التّفكير فيه. كيف يصبح المسيحيّ عاجزًا عن الصّلاة في مدينة يسوع إلّا بإذن المحمّديّين الإسماعيليّين الأنجاس! المحمّديّون يأذنون للمسيحيّ بأن يدخل مدينةَ المسيح! إنّ لكم إخوةً يُصَبُّ عليهم في تلك الدّيار من أنواع العذاب ما لم يتحمّله غير المسيح... إنّ أجساد القُسس الطاهرة تسلخ ثمّ يُصبّ فيها الملح، ويُرمون على الصلبان

ويُترَكُون عند مداخل المدن حتّى تأتي الطيور الكاسرة فتطير بعيونٍ لم تنَم سهرًا لله، وتخطف أيادي كلّت خدمةً لأبناء المسيح، وتخطف أجزاء من أقدامٍ رسخت هناك رغم جلافة الأتراك المحمّديّين!

ارتفعت الأصوات، وسُمع أنينٌ في أطراف السّاحة. وسقطت سيّدةٌ بيضاءُ بدينةٌ ضخمةُ الثديَين على وجهها متأثّرةً بالصور الحيّة الّتي يرويها بطرس. رفع يدَه وأزال طرف بُرْنُسِه عن هامته، فظهر رأسُه المدوّر، وشعرُه الأشقرُ، وصاح:

- الآن سيتكلّم أبونَا المقدّس..

قالَها مُشيرًا بيده وقد خنقته العَبَرات وتهدَّج صوته فابتعدَ عن المنبر، بينما كان البابا أوربان الثاني يُلملم أوراقَه للتقدّم إلى المنصّة.

وقف بقامته الطّويلة ومنظرِه الباهر متجاوزًا القسسَ الواقفينَ قرب المنبر وهو ينظر في رزمة أوراق. تسارع نبضُه مُفكّرًا في أنّه قد يغيّر وجهَ العالم المسيحي إذا نجحت الخطّة الّتي في ذهنه. وصل إلى المنبر، وما إن فتح فمَه وبدأ الحديث حتّى ترامق القسس، وتحرّكت حواجبُ بعضهم استغرابًا. فقد بدأ البابا يلقي خطابَه بالفرنسيّة لا باللّاتينيّة حسب الأصول المتّبعة في الكنيسة.

هدأت الأصوات، وانطلق صوت البابا المعروف بقدراته الخطابيّة:

- إنّني أخاطبكم أنتم أيّها الفرنجة! أيّها العنصر الكريم الّذي تجري في عروقه دماءُ شارلز شامبرلين.. ذلك الرّجل الّذي لولاه لكانت هذه البلاد اليومَ بأيدي المحمّديّين.

ارتفع صوتُه واحتدّت نبرتُه وهو واقفٌ على المنصّة، والقسسُ والكرادلة ملتفّون حوله في ملابسهم الطّويلة الدافئة، بينما كانت عيونُ المزارعين والأقنان والفرسان مشدودةً إليه. وكانوا يفهمون كلامه هذه المرّة، فهو يحدّثهم بلغتهم ويمدحهم. فما الّذي سيقوله؟

أنصتت السّاحةُ الواسعةُ بكافّة حواسّها والبابا يقلّبُ نظرَه بين الجماهير والجوّ الضّبابيّ البارد:

- أنتم العنصر الّذي اختارته السّماء ليحميَ المسيحيّة، ويُقاتلَ عنها قتالَ الأبطال الخالدين. أنتم من حباكم الربّ بهذه الأرض العظيمة، وبأولئك الآباء العظام، وبهذه الديانة الحقّة.

أرسلَ البابا طرفَه في الجالسين على المنصّة عن يمينه، كان يبحث عن سفير إمبراطور القسطنطينيّة، فقد وصلَ قبل شهرٍ ليطلبَ مساعدةَ الكنيسة الغربيّة في الحرب على الأتراك. لمحَ الرّجل منصتًا، منحنيًا إلى الأمام فواصل:

- أناديكم اليومَ كي نهبَّ للدفاع عن القبر المقدّس. فقد ظهر في الشّرق عرقٌ نَجِسٌ متوحّشٌ، واستولى على أرض المسيح، ولا بدّ من انتزاعها من يده وردّها إلى أبناء الربّ! أيّ حياة هذه الّتي تعيشونها هنا؟ الحياة هنا تعيسةٌ فقيرةٌ مليئةٌ بالفقر والذنوب، وهناك تنتظركم حياةُ ازدهارٍ وثراء، وستصبحون أصدقاء الربّ القريبين منه!

وصمتَ، فانطلقت الحناجر الملتهبة:

- إنّها إرادة الربّ! إنّها إرادة الربّ!

- لا تدعوا شيئًا يقعُد بكم هنا... فأرضُكم هذه تحيط بها البحار والجبال، وهي ضيّقةٌ على سكّانها الكثيرين، وتكاد تعجز عن كفايتهم، ولذا يقاتل بعضكم بعضًا على الفُتات بينما تمتلئ أرض أعدائكم بالحليب والعسل... فلْتخرجُوا كلّكم حاملين الصليب.. رجالًا ونساء.. مُذنبين ومُطيعين... فرسانًا ومُزارعين.

- إنّها إرادة الربّ! إنّها إرادة الربّ!

- إنّها حربٌ عادلة! فأيّ حربٍ تنتزع القبرَ المقدّس من أيدي الوثنيّين المحمّديّين حربٌ مباركة. إنّ مَن يموت في الطّريق إلى حربهم، أو أثناءها مغفورُ الذنوب، مضمونةٌ له الحياة الأبديّة الخالدة!

كانت كلمات البابا تسافرُ بين الآذان المتعطّشة، فتفعل فيها السحر. فقد سمع كثيرٌ من الحضور أحاديثَ بطرس النّاسك عن ضرورة الذهاب إلى الأرض المقدّسة، ولكنّ البابا نفسَه يدعوهم إلى ذلك هذه المرّة، ويهَبُ المغفرةَ لمن يذهبُ مهما تكُنْ طبيعتُه أو منصبه في مجتمعٍ طبقيّ.

وما كاد البابا ينهي كلماته حتّى قفز أسقف «لي بيو»، وتقدّم إلى العرش البابويّ، وركع طويلًا. ثمّ طلبَ من البابا الإذنَ في الالتحاق بالحرب. فأشار إليه بالموافقة، وتدافع المئات للركوع أمام العرش مقتدين بالقسّ.

وتقدّم الكاردينال غريغوري، وركعَ بين يدَي البابا، وأنشدَ دعاءَ الاعتراف. فبدأت الجماهير كلّها تردّد الدّعاءَ وراءه. وسرَتْ حُمّى التطلّع والشّوق إلى الشّرق الغريب. امتلأت أذهانُ الجمهور بصورةٍ متخيّلةٍ للقدس، بأسوارها الغريبة المشتهاة، وبقاعها المباركة، وراهباتها الجميلات المعذّبات على أيدي الأتراك. وقطع البابا كلّ ذلك بوقوفه طالبًا من الجميع الانصراف والبدء في الاستعداد للرحيل.

وعكفَ الإداريّون الكنسيّون على إصدار القرارات، ولم تمرّ أربعٌ وعشرون ساعةً حتّى أصبح كلُّ شيءٍ واضحًا وصدرت القرارات:

- يجبُ على كلّ متطوّع أن «يأخذ الصليب».
- عليه أن يخيط صليبًا أحمرَ على كتفه.
- كلّ من يتطوّع فأهله وماله في عُهدة الكنيسة حتّى يعود.
- كلّ من أخذَ الصليب يجب عليه الذهاب إلى القدس، فإن عاد سريعًا أو لم يذهب يُحكم عليه بالكفر.
- لا يسافر أحدٌ دون إِذْن من مستشاره الروحيّ، ولا يسافر قسّيس دون إِذْن كنيسته.
- الخروج في الخامس عشر من أغسطس، والتجمّع في القسطنطينيّة.

وخلال الأيّام التالية حُدّدَ مخيّمٌ لتجمّع الراغبين في التطوّع. واكتظّت ساحاتُه بالنّاس كلٌّ يحمل صليبًا أو يرسمه على ملابسه أو وجهه. فقد تقرّرَ أن يكون الصليبُ شعارَ الحملة. اكتظّت الدورُ والسّاحات العامّة في فرنسَا برجالٍ ونساء ملتحفين بملابس بيضاء ذات شارةٍ صليبيّة حمراء. وشوهدت مناظرُ لم تُؤْلَفْ قَطُّ. كانت المومسات يتقدّمنَ رفقةَ القُسس والفرسان، والأقنان يتقدّمون مع أسيادهم. وكان الرابطُ بين كلّ هؤلاء ذلك الرّجلَ ذا الحمار والبرنس الرثّ.. بطرس النّاسك.

حدّد البابا نهايةَ أغسطس لانطلاق الحملة، لكنّ جهودَ بطرس وحماسةَ النّاس عجّلت الموعد. فلم تتفتّق أزهار الرّبيع حتّى كان بطرس يدخل مدينة كولون الألمانيّة في أوّل إبريل، ووراءه عشرات الآلاف من الفرنجة الّذين باعُوا أنفسَهم للحرب في سبيل المسيح.

فُتحت أبوابُ كولون الألمانيّة يوم عيد الفصح، ودخلَها بطرس النّاسك يتقدّم الآلاف.. كان الألمانُ يرقبون المنظرَ الغريب عجبًا. فهذه أوّل مرّة يشاهدون فيها جَيشًا من هذا النمط. آلاف النّاس يلبسون الأسمال، وآلاف الفرسان يعتمرون الخوذات، وآلاف النّساء والأطفال. لكنّ عيونَ أهل كولون كانت تبحث عن شخصٍ واحدٍ ضمنَ هذه الجموع. وظهرَ بطرس في برنسه الرثّ على حماره، فانطلقت الجموعُ تتمسّحُ به. وكان التدافع حوله شديدًا، حتّى إنّ من لم يستطع التبرّك بملابسه اكتفى بلمس شعراتٍ من ذيل حماره.

وتقدّم بطرس بين شوارع كولون الضيّقة مُفكّرًا: *أين سيجد طعامًا لآلاف الزاحفين وراءه؟ ومتى يمكنه التحرّك إلى القسطنطينيّة؟* كانت تلك الأسئلةُ تثقل كاهلَه وهو يتأمّل عيونَ الألمان المصطفّين على طرفيْ الشّارع لتحيّته.



الهارب

53

«من خوف الإنسان لجأتْ الجنُّ إلى السواحل
والشّطآن واتّخذ كلٌّ منها مكانًا خفيًّا»
جلال الدين الرّومي

بين بغداد ودمشق، ذو القعدة، 488 هـ.

هذه أوّلُ مرّةٍ يسير فيها ليلًا؛ فقَد كان يسيرُ نهارَه ويَكْمُن ليلَه. أحسّ بقدمَيْه لا تستطيعَان حَملَه. فوضع الجرابَ، وأسندَ إليه العصا وجلس. نظر إلى رِجْلَيه تحت ضوء القمر فأنكرهما. قدمان حمراوان متورّمتان تَرْشَحَان دمًا. تلمّسهما، فلاحظَ دماميلَ نبتت عندَ جذور أصابعهما. شعرَ بإرهاقٍ في كلّ ذرّةٍ من ذرّاتِ جسده. قلّبَ ناظرَيْه في القمر الوضّاء، وأنصت للسكون الخاشع. لقد مرّت أيّامٌ من السّير المضني. تأمّل قدَمَيْه، وسمعَ نبضَ جسمه المنهك، فشعر براحةِ بال. قلَّبَ عَينَيْه في الفضاء الواسع، مُفكّرًا في صعوبة الطّريق الّتي ما زالت أمامه. واستعادَ صوتَ الأصلع: *هذا طريقٌ طويل! ناحَ فيه نوح، وأُلقي من أجله إبراهيم في النار، وشُقّ فيه يحيى بالمنشار، وخاض فيه محمّد صلى الله عليه وسلّم الحروب!*

وقف معتمدًا بيدَيه على ركبتَيْه وهو يشعرُ بألمٍ تشوبُه لذّة، وسارَ متأرجحًا على الطّريق الممتدّ تحت ضوء القمر. مشى ساعتَين على غير هدًى. وعرف أنّه يسير جهةَ الغرب، لكنّه غير متأكّدٍ من أنّ الطّريق الّتي يسلك هي الأقصر من بغداد إلى دمشق. سمع فجأةً حنين الإبل. *أتكون*

هذه خِيَم أعرابٍ أبيتُ معهم؟ أم بلغتُ منَ التعب والوحدة عنتًا فغدتْ الأصواتُ تتمثّل لي؟

وأفاقَ على رَجُلٍ تحت ضوء القمر يصوّبُ إليه سهمًا صارخًا:

- من هناك؟

انتفض، ثمّ سكن:

- فقير من فقراء الله!

ولاحظ الشابُّ ملابسَ الغزاليّ، فعرف أنّه أحدُ العبّاد المنتشرين في البراري، فأمسك السهمَ وقال بصوتٍ مرتفع:

- مرحبًا! مرحبًا! بالضّيف!

رأى خمسة رجالٍ جالسين في فناء شجرةٍ يتسامرون. رمى إليه الشابّ لحافًا ووسادةً، فسلّم، وجلس متأوّهًا. تراشقه الأعرابُ بالسّلام والترحاب:

- يا هلا!

- هلا بالضّيف.

أرسلَ بصرَه مع الأجسام النّحيلة تحت ضوء القمر، فلاحظ أنّ كلًّا منهم يلبس شَمْلَةً لا تكاد تواري ما بين سرّته وركبته. ولفحَتْه رائحة العرق المخلوطة برائحة اللبن والإبل. كان الأقرب إليه أكبرهم سنًّا. رجلٌ نحيفٌ كأنّه عصًا منصوبة، وكان أكثرهم ترحابًا. مالَ على وسادةٍ بمرفقه وهو يحدّد نظرتَه إلى الغزالي:

- من أيّ أرضٍ أتيت؟ وأيّ أخبار عندك؟

- أتيت من خراسان!

مرّر الأعرابيّ يدَه على وجهه:

- والمقصد؟

- دمشق!

- يا مرحبًا! يا مرحبًا! ونحن أيضًا ذاهبون إلى دمشق.

ثمّ اعتدل الأعرابيّ العجوز صارخًا:

- كرار! تعال باللّبن!

وعاد غارزًا مرفقه في وسادته مُردّدًا:

- يا مرحبًا وهلا! مرحبًا بالضّيف!

وظهر خيالُ طفلٍ يحمل قعْبًا ضخمًا مترعًا لبنًا. وضعه بين يدي الغزاليّ وجلس القرفصاء قربه. فقال الأعرابيّ العجوز:

- بسم الله!

أمسك الغزاليّ القعبَ، وبَسْمَلَ مُتسائلًا *هل أستطيع شُربَ هذا؟ أخشى أن يصيبني إسهالٌ كما وقعَ لي منه قبلَ سنوات*. وأنّبَ نفسه على تلك الخواطر، ثمّ بدأ يشرب. وما إن حسَا الحسوةَ الأولى حتّى وجدَ لذّةَ اللّبن في حلقه، فقرّر ألّا يملأ بطنَه منه. فما هرب إلّا من اللذائذ ومجاراة الهوى. ورفع فمَه مجاهدًا نفسه، ومدّ القعبَ إلى الأعرابي الّذي صرخ:

- اشرب يا رجل! ما بالك؟

- الحمد لله، يكفيني هذا.

- لا، اشرب!

- شربت ما يكفيني!

- قُلْتُ لَكَ اشْرَب!

قَالها الأعرابيّ والغضبُ بيّنٌ في صَوْتِه. وتذكّر الغزاليّ قصصًا كثيرةً سمعها عن عادة الأعراب مع الضّيفان. فأمسكَ القعب وشرب.

واسترخى على وسادته، وأرخى طيلسانه على وجهه اتّقاءً للبرد، وأخذ ينصتُ لأحاديث الأعراب. كان مرهقَ الجسد متّقدَ الذهن. فقد

انصرف إلى التكفير في لغة الأعراب وجمالِ مخارجها ودقّةِ وصفها، وتفاهةِ أحاديثهم الّتي لا تخرج عن قصص الإبل والسّفر والثأر والحبّ. وتأمّل الطّفل الجالس بقربه. يمكن *لهذا أن يكون الآن في الكُتّاب، يتعلّم الحساب ويحفظ القرآن*. وتلفّت إليه:

- اسمك كرار؟

- أيْ نعم!

- ما شاء الله! ماذا تحفظ من القرآن؟

- علّمني!

اعتدلَ الغزاليّ مُفكّرًا في أنّها فرصةٌ لكسب أَجْر. وسكتَ العجوز عن حديثه منتبهًا لما يدورُ بين الغزاليّ وابنه، فقال الغزاليّ للطفل:

- أتحفظ الفاتحة؟

- قلت لك علّمني!

تربّع، وشدّ عليه طيلسانه:

- قل: بسم الله الرحمن الرحيم

- بسم الله الرحمن الرحيم

- الحمد لله ربّ العالمين

- والحمد لله ربّ العالمين

- لا، كرّار، الحمد لله ربّ العالمين

- لنعد إلى البداية: بسم الله الرحمن الرحيم!

- بسم الله الرحمن الرحيم!

- الحمد لله ربّ العالمين

- والحمد لله ربّ العالمين

- لمَ تضع الواو؟

- لمَ أضع ماذا؟

- لا تقل: «والحمد لله ربّ العالمين»، فإنّي إنّما أقول: «الحمد لله ربّ العالمين»!

حكّ الصبيّ رأسَه المحلوقَ الواضحَ تحت ضوء القمر:

- إذا قلتُ: بسم الله الرحمن الرحيم، لا بدّ أن أقول بعدها: والحمد لله، للاتّصال. وإذا لم أقُل بسم الله، وبدأتُ قلت: الحمد لله ربّ العالمين!

انشعبَ ذهنُ الغزاليّ بين إعجابٍ بلغةِ الطفل وفصاحتِه دون تعلّم، وضياعِ ملكاته في هذه الأرض المقفرة. وخَطَرَ له أن يجرّبَه بسُوَرٍ أخرى:

- طيّب، سأحفّظك سُورَةً أخرى:

وضع الطفل إصبعه في فمه:

- هاتِها:

- بسم الله الرحمن الرحيم

- بسم الله الرحمن الرحيم

- قل هو الله أحد!

- هو الله أحد!

- لا، قل هو الله أحد!

- هو الله أحد!

- لا، ليس هكذا. اقرأ كما تسمعني. قل هو الله أحد!

- ألم تأمرني بأن أقول: هو الله أحد؟

مرّت ساعةٌ حتّى استطاعَ تحفيظَ الطفل الفاتحة. انتابَه حزنٌ لما شاهد، وتذكّرَ معاناةَ أطفال المسلمين في بعض مدن خراسان لتعلّم العربيّة وحفظ

مفرداتها. وهذا ملفوفٌ في العربيّة سليقة، لكنّه لم يسمع قطّ سورةً من القرآن. *أيّ حياةٍ هذه؟* شعر بالإرهاق يأخذُ منه كلَّ مأخذٍ، فاستأذَن من جلسائه واسترخى مُرخيًا عليه طيلسانه. وجاء كرار راكضًا، وأعطاه لحافًا للنوم. رمى رأسَه على الوسادة وهو يشعر بألمٍ حادٍّ في باطن قدمَيه، وانطلق لسانُه يتلو أذكارَ النوم.

54

«كان علماء بغداد يقولون: لقد أصابت الإِسلامَ فيه عينٌ. وإذا ذكروه جعلوه في حيّز العدم، وقرعوا عليه السنَّ من ندم، وقاموا في التأسف عليه على قدم».

أبو بكر بن العربي

طريق دمشق، 488 هـ.

استيقظ قُبيلَ الفجر فوجَد الأعراب نوَّمًا، والقمرَ قد غاب، ولم يسمع غيرَ اجترار الإبل. فتح جرابَه، وأخرجَ طستَ الوضوء والمسواك، وتوضّأ، وقامَ يصلّي. ولم تمض ساعةٌ حتّى استيقظ الأعراب تباعًا. كلٌّ منهم يقفزُ من نومه، ويمسح وجهَه، ثمّ يقف. ركضَ كلّ واحدٍ إلى جهةٍ من جهات الإبل. وظلَّ هو في مكانه ينتظر الإشراق. وخرجَ حاجب الشّمس، فجاءه أعرابيّ:

- تعال ساعدنا في حَلب النوق، فقد تفرّق الرّجال.

- والله لا أعرف كيف أحلب!

ابتعد الأعرابي وقد كشفَ ضوءُ الصباح عن سقوط ثنيةٍ من ثناياه مُكشّرًا. وظلّ الغزاليّ جالسًا مستغفرًا يُقلّبُ ناظرَيه في السّماء. سمعَ رُغاءَ بعيرٍ غير بعيدٍ، فالتفت، فرأى رجالًا يمسكونه ويضجعونه ويقيّدونه. وجاء أحدهم راكضًا، ووضع دبابيس حديديّةً في نارٍ موقَدة، وتركها تحمرّ، واقترب من الغزاليّ:

- تعالَ ساعدنا في وضع الميسم على البعران.

- لا أعرف شيئًا من هذا!

وتجمّع الأعرابُ على أحد البُعران، ورفعَ أحدُهم الحديدةَ الحمراء ووضعَها على رقبة البعير ممّا يلي أذنه ورسمَ ثلاثةَ خطوط. وأتى بحديدةٍ حمراء أخرى، ووضعَ دائرةً على فخذ البعير. وأوتي ببعيرٍ ثالثٍ وُضعت عليه ثلاثةُ مياسم. وبعد قليلٍ هدأ رغاء البعران، وفُكّت قيودها. واقتربَ الأعراب يتقدّمهم العجوزُ وجلسوا في فناء الشّجرة. جاءَ الشابّ بحليبٍ وتمرٍ وضعه بين أيديهم. وأشار العجوز إلى الغزاليّ بالاقتراب، فوقفَ ينفض طرفَ جبّته، وجلس قربه. نظر العجوز إليه، فرأى وجهه الأبيضَ ويدَيْه النّاعمتين ومرقّعتَه وطيلسانه. تأمّل عَينَيه العميقتين والشّجة الّتي في جبهته، ثمّ انتبه إلى قدمَيه:

- ما بال قدميك؟ كم يومًا سِرتَ عليهما؟

تذكّر الغزاليّ أنّه قال لهم إنّه أتى من خراسان:

- أيّاما طويلة!

وضحك العجوز، ومدّ قدمَه للغزالي مُشيرًا إليها بإصبعه:

- انظر! هذه أمشي عليها الأيّام الطوال منذ ولدت، ولا أذكر أنّها رشحت دمًا أو تورّمت قَطُّ!

وأشار العجوز إلى يديْ الغزاليّ:

- يا رجل! أنتَ لا تعرف كيف تحلب، ولا تعرف كيف تمسك حبلًا ولا ميسمًا، ولا تميّز البعير من القعود، ولا الخِلْفة. بالله ماذا تعرف في هذه الدّنيا؟

ابتسم الغزاليّ مزيحًا عمامتَه عن هامته:

- أعرف أمورًا أخرى ممّا يمارسه أهل الحضر.

أمسك العجوز يدَ الغزاليّ ورفعها:

- الحضر؟ لقد زُرتُ الحضر وهذه اليد لم تتقن عملًا قَطُّ، وأنا أعرف أعمالَ أهل الحضر.

ضحك الرّجال المتحلّقون، وقال العجوز مُشيرًا إلى الطعام:

- بسم الله!

وامتدّت الأيدي إلى التمر، ورفعَ الشّيخُ القعب، وناوله الغزاليَّ ليشرب. فتأمّله فوجده وسخًا. *أهذا الّذي شربتُ منه البارحة؟* وداري ما به، وأمسكه، لكنّه ما إن قرّبَه من فيه حتّى كاد يتقيّأ. مدّ القعبَ إلى العجوز، فحدجه بنظرة:

- اشرب يا رجل! والله لن أشرب قبلك!

- لا، ما زلتُ ريّانَ من شرابي البارحة.

وتناول العجوز القعبَ بوجهٍ منزعج:

- حميد! جهّز المراكب!

وبعد دقائق وقف الرّجال. لفُّوا أمتعتَهم، ووضعوها على المطايا. واقترب الغزاليّ من العجوز:

- هل عندكم مطيّةٌ أستطيع ركوبها؟ وعندي دراهم أعطيكم إيّاها.

كان الأعرابي يعقد جرابًا معلّقًا على حمل البعير، فسكنت يده وقال:

- نعم، حميد!

واقتربَ حميد في شملته ونصفُ فخذه بادٍ، فقال له العجوز:

- أَرْكِبْه جمَلَك!

وقرّبَ حميد بعيرًا مزمومًا يرغي عليه رحل. شدّ زمامَه، فبرك، واقتربَ الغزاليّ متهيّبًا ليركب، ثمّ تذكّرَ أنّه ما ركبَ الإبل من قبل إلّا نادرًا؛ فمعظم ركوبه كان على البغال أو الحمير أو الخيل.

اعتدلَ على الرحل، وتحرّكوا. سالت الجمال مع وِهَادٍ ممتدّةٍ تحت شمس الضّحى الهادئة، ونسيم خفيف. أنصت لوقع أخفاف الإبل، وأحاديثِ الأعراب الفصيحة، وحُداءِ حميدٍ خلفهم. تلفّت مُتأمّلًا الأعرابَ على ظهور الجمال، والوديان الصّامتة، والشّجيرات المتناثرة على الطّريق. تذكّر كيف ترك بغداد بمفاتنها وقصورِها ومناظراتها، فشعر براحةٍ واطمئنان. وبعد ساعةٍ من المسير أخذُوا جادّة القوافل، ولاحَ لهم خيالُ مسافرين آتين من جهة الشّام.

كان ينصت لحديث الأعراب ويفكّر في حالهم وجهلهم المطبق وبُعدهم عن الدين؛ فلم يرَ منهم من صلّى صلاة الصبح. تنحنح، وقال للعجوز:

- هل قرأ حميد هذا شيئًا من قبل؟

- كيف؟

- هل قرأ القرآن؟

- لا، حميد ليس مثلَ أبيه. أنا قرأتُ وأحفظ سورًا.

وانقطعت الأحاديثُ بظهور قافلةٍ صغيرةٍ تقترب، فانزاحَ الرّجالُ عن الطّريق وقوفًا في انتظار عبورها. كان في مقدّمتها رجلٌ قصيرٌ يلوي عصابةً حمراء على رأسه. أشارَ إليه الأعرابيّ، فوقف.

- كيف الطّريق؟

رفع الرّجل سبّابته:

- أمَا سمعتم بالفتنة؟ الطّريق مخوفٌ والهرجُ والمرجُ مشتعلان.. ما كدنا نسلم.

- بين مَن ومن؟

- بين العرب وجنود السّلطان.

ونظرَ الأعرابُ بعضُهم إلى بعضٍ حيرة، ثمّ التفت إليهم دليلُ القافلة مغضّنًا جبهته:

- لا أرى إلّا أن ترجعوا.

أحسّ الغزاليّ بقلبه ينتفض. *كيف أعود؟ وإلى أين أعود؟ وما يدريني أنّ الخليفة أو السّلطان يعلمان بعودتي فيثنوني عن مقصدي؟* شعر بخيبةٍ أَنْسَتْه آلامَ قدمَيه. ومالَ الأعرابيُّ العجوز على مُرافِقَيْه وتشاورَا. وقفَا يتكلّمان بأصواتٍ منخفضةٍ على غير العادة. كانَا ينظران إلى الأفق ويتكلّمان ويوظّفان كلَّ الخبرة المتراكمة في أذهانهما عن السّير في أماكن الخطر، وعن الخارطة القبليّة في المنطقة. وسكت الأعرابيّ العجوز والتَفَتَ إلى رفاقه:

- نحن عائدون!

ولم ينبسْ أيٌّ من رفاقه، فقد تعوّدوا على أخذ رأيه في مثل هذه القضايا.

ورفعَ الأعرابيّ عصاه جهة الغزاليّ:

- وماذا أنتَ فاعلٌ أيّها الخراساني؟

لم يكن الغزاليّ جاهزًا للجواب، فما زال يفكّر. *هل أستطيع مواصلة السّير وحيدًا؟ وماذا أفعل إذا وجدتُ الأعرابَ وطلبوا منّي مالًا لا أملكه؟ هل أرجع أم أقيم هنا أم أواصل السّير؟ ولِمَ أخافُ الفتن والطّريق؟ فما أنا بصاحب نَعَمٍ ولا عقارٍ أخاف عليها الغارةَ والنهب. وماذا يضيرني لو واصلتُ السّير رغم الآلام حتّى بلغتُ دمشق؟*

وأفاقَ على الأعرابيّ يحدجه منتظرًا جوابَه، فقال وقد ازداد صوته صَحَلًا:

- سأواصل السّير.

وتذكّر أنّ قدمَيه لن تحملاه إلى دمشق. *فهل الدراهم الّتي معه تكفي لشراء دابّةٍ تُبلغُه مقصده؟* وخطر له أنّه ما خرج من داره ليملك حيوانًا يتنفّس ويكون في ذمّته ويصبح مسؤولًا عن شربه وأكله والإحسان إليه

وعدم تكليفه ما لا يطيق. ورفعَ فيه الأعرابيّ عَينَيْه مغضّنًا إيّاهما اتّقاءً للشّمس وكأنّه أحسّ بما في ذهنه:

- مصرٌّ على السّفر وحدَك أيّها الخراسانيّ؟

- إن شاء الله!

أناخ الجملَ، وسلّم الزمام للأعرابيّ.

ثمّ فتح جرابَه، وأخرج نعلَيه، ووضع الجراب على منكبه، وانطلق مُتعثّرًا على طريق دمشق متمتمًا:

- حسبي الله ونعم الوكيل.

55

القسطنطينيّة، ذو الحجّة، 488 هـ/ ديسمبر، 1095 م.

أزاح الإمبراطور ألكسيوس ستارةً عن إحدى نوافذ قصرِه، وراحَ ينظر جهةَ مياه البوسفور السرمديّة. *كم مَرَّ على هذه الأمواج من تجّارٍ وعبيدٍ ومومساتٍ وفرسانٍ ورهبان!* كان يشعر بنشاطٍ طاغٍ في هذَا الصباح من صباحات الشّتاء. ابتعدَ عن النّافذة متوقّعًا وصولَ مدير أَمْنِه المسؤول عن جَمْعِ الأخبار وتلقّي رسائل الجواسيس من جهتَي الشّرق والغرب.

وسمعَ وقعَ قدمَيه من وراء ظهره، فالتفت:

- لقد تأخّرت عن وقتك المعتاد!

انحنى الرّجل الأبيض القصير الممتلئ باسمًا:

- لكنّ معي أخبارًا تعطيني عذرًا في التأخّر.

وعبرت أفكارٌ مختلفةٌ رأسَ ألكسيوس. *أيّ خبر مهمّ؟ هل اقترب الأتراك من عاصمة إمبراطوريّته؟ هم أكثر تفرّقًا من ذلك.* أشار إلى رامونيوس بالجلوس على الكرسيّ المذهّب عندَ طرف الطّاولة:

- اجلس وهات!

- مولاي، لقد بدأ الرعاع في الاستعداد للتحرّك من وسط فرنسا وألمانيًا إلى عاصمتك! وهم يزحفون بالآلاف كأنّهم الجراد.

مالَ الإمبراطور في كرسيّه، وجمع يدَيه، ووضعَ إبهامَيْه تحت ذقنه، ورؤوس أنامله على أنفه. كان يخشى أمورًا لا يريد كشفَها أمام مدير أمنه. *هؤلاء الآلاف إذا أتوا قد يفسدون عاصمته، وقد يحتلّونها. ففيهم عشراتُ*

آلاف الفرسان وقطّاع الطرق والغوغاء الّذين لا رادعَ لهم. ما الّذي يضمن ألّا يحتلّوا عاصمته؟ لعلّ الأتراك أفضل منهم. فأولئك أمراء منظّمون يحارب بعضهم بعضًا. ويمكنني التحالف مع بعضهم ضدّ بعض. يمكنني مثلًا الاتّفاق مع أقربهم إليّ: قلج أرسلان، ضدّ كلّ إخوته وأبناء عمومته المتطاحنين من خرسان إلى القدس. أمّا هؤلاء الغوغاء فلا طريقةَ للسيطرة عليهم. حتّى ذلك البابا الأحمق الّذي أرسلهم لن يستطيع ضبطَهم. أبعدَ يدَيْه عن وجهه، واعتدل في كرسيّه:

- لكنّ موعدَ تحرّكهم منتصف أغسطس، فأمامنا متّسع للترتيب.

كان رومانيوس يستمع للإمبراطور هازًّا رأسَه الأصلعَ الضّخم. كتب تعليماتِ الإمبراطور، ثمّ حدّثه عن آخر الأخبار الآتية من جنوة، ونشاطِ تجّارها ووصولِ خمس سفنٍ منها قبل أيّام، وانتشارِ دعوة الصليبيّين فيها، وتحرّكَ الآلاف منهم جهةَ فرنسا للمشاركة في الحملة.

وسكتَا فجأةً وهما يسمعان قرعَ نعالٍ تقترب من وراء الباب. وقطّبَ الإمبراطور ألكسيوس: *ترى من يتجرّأ على الدّخول إلى هذه الغرفة الآن؟*

وظهرت طفلةٌ نحيفةٌ شقراء، فانفرجَ وجهُ الإمبراطور وهو ينظر إلى ابنته أنا كومنينا ذات الاثنتيْ عشرة سنة.

- ابنتي! ماذا تريدين هنا؟

قالَها مُشتّتًا بينَ سُرور المفاجأة برؤيتِها، وخَوْفِهِ مِنْ سَماعِها بعضَ حديثه مع مستشاره. ولم تجبه الطفلة، فهي تعرف أنّها مستوليةٌ على قلبه. بل رفعت يدَها، وأشارت بالوداع مبتعدة.

حدّد الإمبراطور عَينَيْه في عينَي مستشاره:

- ما آخر أخبار الصراع في بغداد بين أمراء الأتراك؟

تقاعس العجوزُ في مقعده:

- كلّ يومٍ يكون لبغداد سلطان جديد. يوم ينتصر بركيارق، ويوم ينتصر غيره، وهكذا. فالحرب مستمرّة بين أبناء ملكشاه. ولم تستقر ممالكهم منذ وفاة ملكشاه ووزيره نظام الملك.

أدار الإمبراطور وجهَه جهةَ المدفأة الممتلئة جمرًا في طرف الحجرة. ونظر إلى الجمر المتوهّج واللّهب الصّاعد:

- وما أخبار النّاس، هل أثّرت هذه الفوضى الطّويلة في تماسك النّاس بالمدينة؟

هنا استعاد رامنيوس آخرَ رسالةٍ جاءته من أحد جواسيسه في بغداد:

- لقد وصلتني البارحةَ رسالةٌ من هناك. تحدّث فيها الجاسوس عن زيادةٍ مريعةٍ في أسعار الزيت والدقيق والفواكه. وشرحَ صراعًا مريرًا يتكشّف بين فرقتَين من فرق المسلمين، فرقة الحنابلة وفرقة الشّيعة. فقلّما يمرّ أسبوع دون اشتباكٍ بينهما في أحد الأسواق، فتتعطّل الحياةُ أيّامًا ببعض جوانب بغداد.

- إذَنْ ما زال الأمر كما هو. هؤلاء الأتراك لا يكفّون عن القتال والصراع. وأنا عجزت عن حِفْظ أسماء أمرائهم لكثرتهم وصراعاتهم.

ومسحَ أسفل ذقنه:

- ألم تقل لي مرّة إنّك تحاول زرعَ أحد جواسيسك في قصر الخليفة؟

- نَعَم نَعَم! لكنّي ارتأيتُ أنّ مكانَه أفضل من قصر الخليفة. فهو يعمل في مكانٍ عامٍّ تغشاه وجوهُ الناس، ويسمح له بالحركة وغشيان أيّ مجلس. وإذا انتقل إلى قصر الخليفة فسيظلّ حبيسَ الجدران ولن يأتي بالأخبار الّتي يأتي بها الآن. ولذا رأيتُ أنّ إبقاءه بمكانه أفضل.

- آه، جيّد.

ولاحظَ الإمبراطور أنّ مستشارَه الأمنيَّ انتهى من تقريره، فوقف:

- إذَن، أيقظ العيونَ على الحدود الشّماليّة، وارصدْ كلَّ حركةٍ للغوغاء القادمة من عند البابا ولا سيّما ذلك القسّيس ذي البرنس والحمار. حاولْ أن يكون بقربه أحدُ عيونك. لقد سمعتُ عنه الكثير، حتّى إنّي أتطلّع إلى لقياه.

وقف رامينيوس، ومشى وراء الإمبراطور الّذي اقتربَ من طاولةٍ منصوبةٍ في طرف الغرفة، وأخذَ تفّاحةً من فوقها، وقضمَها وقال:

- نعم، لقد أصبحَ ذلك الرّجلُ القصيرُ ذو البرنس الرثّ عظيمَ السّلطان حتّى إنّه ينافس البابا في طاعة الغوغاء.

- أصحيحٌ أنّه لا يأكل اللّحم؟

وتقدّم المستشارُ، وأخَذَ تفّاحة:

- لا يأكل إلّا السمك، لكنّه يشرب الخمر. وهو قليلُ الأكل عمومًا وقليلُ الاهتمام بكلّ أمور الدّنيا. لا يهمّه إلّا الدّعوة لغزو القدس.

وسكتَ رامينيوس وهما يسمعان وقعَ أقدامٍ تركض في الممرّ المجاور. سكتَا، وتطلّعَا إلى مدخل الحجرة، فظهر رجلٌ ذو قامةٍ فارعةٍ في ملابس فضفاضة. وقف، وانحنى:

- مولاي! لقد وصل رسول من البابا.. هل نُدخله؟

ترامق الإمبراطور ومدير أَمْنه، ثمّ قال الإمبراطور:

- أخّره قليلًا، ثمّ ائتني به في قاعة الدبلوماسيّين.

وبعد دقائق كان رسول البابا يدخل على الإمبراطور الجالس على عرشه تحت تاجه المذهّب.

تسلّم رسالةَ البابا. وبينما غرقَ في القراءة، كان رامينيوس يحاولُ قراءةَ المضمون من تعبيرات وجهه. طوى أليكسيوس الرّسالة، وقال بنبرةٍ محايدة:

- شكرًا لأبينا البابا، وسيأتيكم ردُّنا مساءً. خذوه إلى دار الضّيافة!

وأشارَ إلى الجميع بالخروج، ولم يبقَ معه غير رامينيوس.

وعندما لمحَا كَتِفَيْ آخر شخص يخرج من القاعة المربّعة الواسعة، نزلَ أليكسيوس عن عرشه ورمى الرّسالة إلى رامينيوس:

- إنّه يطمئننا أنْ لا خوف من عبور الغوغاء من أرضنا، ويُطمِعُنا في التعاون. ويقول إنّه تحدّث معهم أن يتعاونوا معنَا، فهم يرونَنَا أقرب إليهم من المحمّديّين.

كانا قد وصلَا إلى باب القاعة الداخليّ، فقال رامينيوس:

- إنّهم يكفّروننا كما يكفّرون المحمّديّين! فلا فرق عندهم بيننا وبينهم.

وضع الإمبراطور يدَيْه وراء ظهره، وأحنى رأسَه ناظرًا إلى البلاط اللّامع:

- لكنّ هذه الرّسالة تصرّفٌ حكيمٌ منه، والخياراتُ أمامَنا محدودة. سنردّ عليه برسالة شكرٍ فحسب.

وصلَا إلى ممرٍّ مفتوحٍ جهةَ البسفور، فلفحتْهُما رياحٌ صقيعيّة باردة. نظرَ الإمبراطور إلى السّماء الغائمة، ولمح أسوارَ مدينته العاليةَ. تلك الأسوار الّتي عجز المحمّديّون خمسةَ قرونٍ عن عبورها. ألا يمكنني استغلالها للتحكّم في عبور الغوغاء حتّى لا يعيثوا فسادًا؟ وخطرت له خطّةٌ لتجنيب مدينته مفاسدَ الفرنجة القادمين. فاستدار مُلتفتًا إلى رامينيوس:

- لا بدّ أن نخبر قائدَ الشّرطة بالاستعداد لتنظيم دخولهم إلى المدينة ومراقبتهم والإشراف على دخولهم فوجًا فوجًا متفرّقين. سنحدّد أماكنَ نزولهم ونبقي كثيرًا منهم خارج أسوار المدينة حتّى يخرج منها الآخرون تباعًا.

وسكت، ثمّ حكّ أرنبةَ أنفه:

- ادعُ لي قائدَ الشّرطة اللّيلة.

56

دمشق، 488 هـ.

فتح الحارسُ دفترًا ضخمًا، ثمّ أعاد السّؤالَ بلكنةٍ دمشقيّةٍ واضحة:

– من أنت؟ ومن أين أتيت؟

– محمّد الخراسانيّ، قادم من بغداد.

ردّدَ الحارس بصرَه في الغزاليّ، وكتب اسمَه، وأضاف بخطٍّ دقيق: «متوسّط القامة، أبيض، في جبهته شجّة». وأطبق الدفترَ مُشيرًا إليه بدخول دمشق.

تجاوز البابَ المُقوّسَ، وانحرفَ إلى طرف الزّقاق وهو يرتعد بردًا. وضعَ جرابَه عن منكبه، وأخرج فروًا اشتراه من أعرابيٍّ قبل أسبوع. تلفّفَ فيه فوقَ مرقّعَته، وحمل جرابَه وسار. كان نعلَاهُ وعصاهُ يقرعان البلاط، وهو يسير في الزّقاقِ الضيّق مُتأمّلًا الوجوه تحت ضوء القمر. تمتم في سرّه مردّدًا دعاءَ دخول المدن: «اللهمّ ربَّ السماواتِ السبع وما أظللْن، وربَّ الأرضين وما أقللْن، وربّ الرّياح وما ذريْن، وربّ الشّياطين وما أضللن، أسألك خيرَ هذه القرية وخيرَ ما فيها، وأعوذُ بك من شرّ هذه القرية وشرّ ما فيها».

واصلَ سيرَه وهو يتأمّل الشّرفات منتشيًا. هأنذا أدلف إلى مدينةٍ لا تعرفني، إلى مدينة فيها الفلاسفة والكتّاب والفقهاء والوُلاة ولا يعرف أيٌّ منهم أنّي هنا. أثبت عَينَيه على رجلٍ يقترب في مرقّعة، فأوقفه:

– السّلام عليكم! هلّا تدلّني على خانقاه السميساطيّة؟

تفرّسَه الصوفيّ تحتَ ضوء القمر كأنّه يرشقه رشقًا بنظراته، وأشارَ بيده مع طول الشّارع:

- تسير مع هذا الشّارع، ثمّ تنحرف شمالًا بعد البيمارستان.

وانطلقَ الصوفيّ دون أن يلتفت. فواصلَ جَرَّ قدمَيْه على طول الطّريق. كانت الدكاكين متراصّةً عن يمينه ويساره. ثمّ وجدَ نفسه أمام خانقاه السميساطيّة يقرعه، فظهرت هامةٌ من الثقب المربع المحفور في الباب، ورفعَ صاحبُها مصباحًا ونادى:

- من؟

- فقيرٌ من فقراء الله!

وسمع صكَّ الفُتحة. كان يشعر بإرهاقٍ شديد وحاجةٍ إلى دفءٍ يكنّه. دقّ البابَ ثانية، فانفتحت الفرجة وجاء الصّوت:

- يا أخي، الفقراء كُثر، فابحث لك عن مكانٍ آخر أو قل لي مَن أنت!

- أنا محمّد الخراسانيّ!

- المكان ممتلئ!

تأمّلَ البابَ الخشبيَّ الموصدَ والجدرانَ الحمراءَ العالية، ورأى ركنًا في الحائط ممّا يلي طرف الشّارع. مشى إليه مُتثاقِلًا، وجَلَس. أسندَ ظهرَه إلى الحائط وعصاه إلى جرابه، واسترخى. كان مرهقًا، لكنّه نَشِط الذهن راضي الفؤاد، يشعر شعورَ من نال مبتغاهُ بعد مطاولةٍ ومصاولةٍ ومغالبة. سمعَ انفتاح الباب، وظهر البوّابُ في جبّةٍ رماديّةٍ وعمامةٍ صفراء:

- نمت؟

- أرتاح من سفر.

- أغريبٌ أنت هنا؟

- نعم.

- تفضّل.. هيّا ادخل!

مشى وجرابُه على ظهره وعصاه تتقدّمه، مُتفقّدًا طرفَ عمامته مُرخيًا إيّاه على طرف وجهه ودخل. وما إن وضعَ قدمه داخل الخانقاه حتّى شعرَ بدفءٍ يداعب كلّ ذرّةٍ من جسده بعد أسابيع من الغدوّ والرواح في الأرض الفلاة دون غطاء أو وطاء. رأى ممرًّا طويلًا تصطفّ الحجرات على جانبَيه، وتتوسّطه باحةٌ فيها نافورة. ولحقه البوّاب وهو يشير إلى أوّل حجرةٍ على اليمين:

- ادخل هنا!

خلعَ نعلَيْه عند الباب، ودخل مسلّمًا. فلم يُجِبْه أحد. لمح رجلًا يغطّ غطيطًا في ركن الحجرة، وملابسَ معلّقةً على المشاجب، وكتبًا متناثرة، وشمّ رائحةَ الملابس الرثّة. كانت الحجرة نظيفةً، لكنّها مبعثرة. ذهب إلى الزاوية الأبعد من الرّجل النائم وجلس. خلعَ العمامة، ورفعَ الطيلسان عن منكبه، ووضعه فوق رأسه.

كان مشغولًا بتصوّر عَيْشه في دمشق. *ماذا أفعل إذا وجدتُ طلّابي في النّظاميّة هنا؟ وماذَا أقول إذا ناداني شخصٌ باسمي؟ وما الطّريقة لتجنّب نظرات النّاس وسؤالاتهم؟ هل خرجت من بغداد لإدمان الكذب؟ وهل يطالبني أحدٌ بدَين حتّى أخفي اسمي ووسمي؟ لكنّي إذا عُرفتُ سأفقد السكينة وما خرجتُ إليه، وسأعود إلى السعي في الجاه ويستيقظ سبعُ النفس داخلي.* وذكّر نفسَه بأهمّ أمرٍ عليه التدرّب عليه هذا الشّهر: كسر الغرور وعزّة النفس، وكسر الشّهوات. ثمّ أمالَ رأسه إلى الجدار مُفكّرًا في قرب صلاة القيام.

قلّبَ ناظرَيْه في سقف الحجرة المرتفع، وفي المرقّعات المدلّاة من المشاجب الحديديّة مُنصتًا لشخير مُساكنه الجديد. *كيف ينام هذا باكرًا؟ هل جاء إلى الخانقاه للنوم في هذه الساعة؟* واعتصر الألمُ قلبَه ندمًا. *هل*

جئت هنا للغيبة والتّفكير في عيوب النّاس؟ جلس مستغفرًا مقلّبًا عَينَيْه في السّماء مُتضرّعًا إلى الله أن يُعينه على نفسه.

وسرحَ فكرُه. *كيف سأعيش هنا؟ وما المال الّذي سآكل منه. فلا حاجبَ دون السّماء أغلظ ولا أكثف من الأكل الحرام. هل أعتمد على ما يقدّم في هذا الخانقاه؟ أم أكسب أجري لأجد اللّقمةَ الحلال؟*

وانتبه إلى خروج الدراويش من حجراتهم. وكثر خفق النعال، وتعالى الذّكر في أركان الخانقاه، وسمعَ صرخات ذكرٍ تشوبُها قهقهات، فاستغرب كيف يُقهقه النّاس في هذه الأماكن المرصودة للعبادة والتجرّد والتأمّل. وتذكّر شيخَه الفارمذي. *آه! لو اختصرتُ الطّريق وسلكت على يديه أيّام شبابي في نيسابور!*

خرج من الحجرة إلى الفناء الواسع وسطَ الخانقاه. كان ذهنُه مشغولًا بأوّل عملٍ يقوم به بعدَ هجرته لعلَّ الله أن يتقبّله. *هل أصلّي نوافل أكثر؟ أم الأفضل خدمة إنسان؟*

وعزم على أوّل عملٍ يقوم به في دمشق. سلكَ البراح الواسع تاركًا النّافورة عن يمينه واتّجه إلى الزاوية الشّماليّة حيث الكُنُف. علّقَ طيلسانه وجبّته، وبقي في إزار. تلفّتَ باحثًا عن المكنسة، فلمحها مُسندةً في الزاوية. أخذَها، واندفع يكنس الكنيف. هبّت رائحة القاذورات، فجاذبَ نفسَه حتّى لا يتأفّف. ثمّ أسند المكنسة، وذهب إلى البئر المتوارية في ركن الخانقاه. متحَ ثلاثَ دلاءٍ وصبّها في جرّةٍ ضخمةٍ، وحملها على رأسه إلى الكنيف. بدا في إزاره عاريَ الرّأس، حاملًا الجرّةَ كأنّه عبدٌ من عبيد السند. دخل الكنيف، وسكبَ الماء على البلاط والجدران والمقاعد. وخطر له أن يجثو على ركبتيه ويفركَ الأرضَ ومقاعدَ الكنيف الملطّخة بالعذرة وهو عاري الصّدر لعلّ الله يغفر له تطاولَه على البشر وإعجابَه بنفسه واحتقارَه لعقول النّاس. ولم

ينتبه إلّا وهو جاثٍ على ركبتيه يفرك الأرض فركًا، وركبتاه على البلاط ويدَاه مقبوضتان. فرك الأرض، ثمّ وقف ونظّف الجدران.

وبعد وقتٍ انتبه وهو يفرك أطرافَ المقعدة. كان يفركها فركًا قويًّا كأنّه غاضب، فيتساقط القذر، يفركها بقوّةٍ عاضًّا على شفتَيه، قابضًا يديه وركبتاه مستقرّتان على أرض البلاط المبتلّ:

- آه. آه.

واعتدل جالِسًا باكيًا. شعر بدبيب السّعادة يسري في زوايا روحِه وهو يتطهّر بالدّموع المنسكبة على خدَّيْه، وبالبلل داخل كنيفٍ من كنف دمشق. وقف مُتثاقِلًا، وأحكم الباب حتّى لا يداهمه أحد. جلسَ، وأسند ظهره إلى جدار الكنيف والدّموع تنهمر. أحسّ بحاجته إلى الجهر لله بالدّعاء، لكنّه تذكّر كراهةَ الذّكر في أماكن القذر. فاعتمد بيده على ركبته، ووقف. خرج من الباب، ونظر إلى مرقّعته المعلّقة، فتذكّر أنّه لا يستطيع لمسها. عليه تنظيف نفسه استعدادًا لصلاة القيام.

قلّبَ بصرَه في جوانب الخانقاه المظلم، ولمحَ البوّابَ جالِسًا على كرسيّه قرب الباب، والصّوفيّة يخرجون ويدخلون، والسرجُ تلمع في أطراف المكان. فكّر في نفسه هنيهة. *ماذا لو علم هؤلاء أنّ عالمًا من علماء نظاميّة بغداد هو من نظّف لهم كنيفَهم اللّيلة؟* وأنّب نفسه مستعيذًا من شرّها ومن دورانها حول ذاتها، وإفسادها لأفعالها بتفكيرها فيها. أسندَ ذراعَيه إلى الكنيف، وألقى رأسَه بين ذراعَيه، وعلا نشيجُه.

وبعد ساعةٍ مشى بقدَمَيْن مثقلتَين إلى البئر وهو يتمتم:

- لا إله إلّا أنتَ سبحانك إنّي كنتُ من الظالمين!

57

دمشق، 488 هـ.

بدأ المسجدُ يخلُو بعد صلاة العشاء، وخفتَت الأصوات في زواياه إلّا من كحّة شاردةٍ أو تمتمات مصلٍّ يخرج مستغفرًا من الباب. لكنّ الغزاليّ واصلَ التنفّل قربَ المحراب. أفاق على شابٍّ أسمرَ نحيلٍ جالسٍ عند السّارية الّتي تليه ينظر إليه نظرًا متتابعًا. فأحسّ بنظراته تخترقه، فتشوّشتْ صلاتُه. *أيعرفني في نظاميّة بغداد؟ أهو أحدُ جواسيس والي دمشق؟* أرخى طيلسانَه على وجهه وسلَّم سريعًا ووقف، فابتدره الشابّ متلعثمًا:

- السّلام عليكم... كأنّي أعرفك؟

صعدَ الدّم إلى وجهه، وتعالى نبضُ صُدغَيْه، فأخذ يتمتم بعباراتٍ مُتظاهرًا بالبله، وانطلق من الباب سالكًا الرحبة الواسعة. خرج دون التفات، وذهنُه يرشح أسئلة. من يكون *هذا؟ كأنّي رأيت وجهَه من قبل. أهو من نَيسابور أم بغداد؟ أو لعلّه دمشقيّ من عمّال الأمير*. وارتطم حذاؤه بعتبة الخانقاه حتّى كاد يسقط. تلفّت وراءه فلم يرَ أحدًا، لكنّ الحارسَ رفع فيه وجهَه الواضح تحت ضوء المصباح المعلّق بطرف الباب:

- ما لك؟ هل يركض أحدٌ وراءك؟

سارعَ إلى حجرته وهو يلمح الصوفيّة في آخر الممرّ يتدافعون على حجرة الطّعام. لم يشغله التّفكير في الرجل عن الانزعاج من منظر العمائم المتدافعة والقلانس المشرئبّة إلى العشاء. *ماذا أفعل إذا دخل ذلك الشابّ وسأل عنّي باسمي؟ هل سينكشف أمري؟ أم يكفي أن أتحدّث وأنفي من أكون.*

جلسَ في زاوية الحجرة مديرًا بصرَه في السقوف والجدران والقلانسِ والعمائم المعلّقة على المشاجب والحشايا المرصوصة في أطراف الحجرة. كانت الجدران واضحةً تحت ضوء المصباح، وشخوصُ المريدين تتراءى في الممرّات قربَ حجرة الطّعام. *لقد مرّت عليَّ أيامٌ بين هذه الجدران ووسطَ هؤلاء القوم. ماذا عليَّ أن أفعل؟ وكيف سأعيش من الكسب الحلالِ دون الاتّكال على الوقف الّذي يعيش عليه هؤلاء النّاس. هذا الطّعام الّذي يأكلونه الآن ما يدريني أنّه حلال؟ أم مالٌ غَصَبَه حاكمٌ من أفواهٍ جائعةٍ ثمّ أوقفه ليطهّر به ذنوبه جهلًا؟*

غيّر جلستَه وانزاح إلى الخلف وهو يسند رأسَه إلى الجدار. *عليَّ إيجاد كسبٍ حلالٍ حتّى لا يدخل جوفي إلّا طعامٌ طيّب، فتلك بداية الطّريق. هل أبيع الورق؟ أو أنسخ للناس كتبًا؟ لكنّ خطّي سيّئٌ لا يقرؤه غيري. أأدخل السّوقَ وأحمل للناس الأثقالَ على رأسي فأكسب مالًا وأكسر تنّينَ النفسِ الّذي خرجتُ لترويضه؟*

وخطر له أنّ جلوسَه هنا وقت الطّعام دون مشاركةٍ قد يكون رياء. فقد يُثني عليه الدراويش بقلّة الأكل وانصرافه إلى إصلاح نفسِه بالامتناع عن الطّعام، فيتّخذ إبليسُ هذا الأمر مطيّةً للدخول إلى قلبه. *أَوَلَيس الأفضلُ أن أذهب وأجلسَ معهم على المائدة وآخذَ لقمةً واحدةً وأمتنع عن الطّعام وأنا أجد لذّتَه ورائحتَه في نفسي، وأوهمهم أنّي آكل. هذا أكثر أجرًا وأقطعُ لسورة الشّهوة.* خرجَ مُتّجهًا إلى غرفة الطّعام، فبدأت الأصوات داخلها تتّضح في أذنيه كلّما اقترب. وجد الحجرةَ مليئةً بالمريدين المنصتين لأبي القاسم الحرّانيّ وهو واقفٌ يتحدّث:

– لقد سمعتم كلّكم هذه الأيّام بوفاة المعتمد ابن عباد على يد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. ولا أعلم عِبْرَةً في هذه الأيّام أعظم

من وفاته. وأحدُ الجوّالين الآتين من المغرب قبل أسبوع أنهى إليَّ الأمرَ بفصّه ونصّه وكان حاضرًا. أفلا تودّون معرفةَ الخبر وما جرى لتطّلعوا على أسرار الله في العباد؟

وسكت الحرّانيّ، فتحرّكت العمائم والقلانس استزادةً، وصرخ شيخٌ مستلقٍ في الزاوية:

- هات الحديث!

جلسَ الغزاليّ وقد تمكّن من الحشيّة، وأسنَد ظهره إلى الجدار، وأخذ ينصتُ بكلّ حواسّه لرفيقه في الحجرة أبي القاسم:

- أخبرني المغربيّ أنّه كان يرى كلّ يوم بنات المعتمد وأبناءه يتعلّمون الصنائع. فهذه تتعلّم الخياطة لتكسب قوتها، وتلك تتعلّم الصباغة، وذاك حجّامٌ وهذا إسكافيّ. إذ كان للمعتمد ثلاثون ابنًا وأربعٌ وثلاثون بنتًا. لقد أقسم لي هذا المغربيّ أنّه رأى إحدى بنات المعتمد تخيط ثوبَ امرأةِ معلّمِ أطفال، وأنّ واحدةً منهنّ خطبَها قصّاب، وأنّه رأى المعتمد، ذلك الأمير الأندلسيّ الّذي كان يملك الدّنيا، وتسكنُ الشّعراء ببابه يلبسُ الثيابَ الخلِقة.

ورفع الحرّانيّ طرفَ ثوبه في الهواء:

- ملابسنَا هذه أفخرُ من تلك الّتي يلبسها المعتمد بن عبّاد وأبناؤه!

وصرخ الشّيخ المستلقي في الزاوية:

- سبحانك! أنت الحيّ القيّوم المستغني! أنا اليوم أكثر مالًا من المعتمد بن عبّاد!

واصل الحرّانيّ:

- ولقد رويتُ أبياتًا عن هذا المغربيّ قال إنّ المعتمد أنشأها عندما جاءته بناتُه يوم العيد مكسوراتٍ يعُدْنَه في سجنه، فقال:

في ما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا فساءك العيدُ في أغماتِ مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعةً يغزلن للنّاس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتّسليم خاشعة أبصارهنّ حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطّين والأقدام حافية كأنّها لم تطأ مسكًا وكافورا

كان الغزاليّ ينصتُ لأبي القاسم وهو يهزّ نفوسَ أصحابه بقصّة المعتمد الّذي توفّي قبل أشهر. وظهر الطبّاخون يحملون الصحون الضّخمة، فتحرّكت الألسنة الجائعة، وسالَ اللّعاب الدافق، وزاغَت العيون النهمة. ذكّر الغزاليّ نفسَه بأنّها ثلاثُ لُقَيماتٍ لإبقاء الحياة فحسب. دخلَ الطبّاخون وفرشوا السُّفَر. وُضع خوانٌ بين يدَي كلّ سبعة. فهدأت الأصوات، وانحسرت المرقّعات المهترئة عن السواعد النّحيلة، وظهرت ظلالُ العمائم على الجدران تحتَ ضوء المصابيح. وبدأت الأصوات تخفت ويعلو صوت المضغ.

رفع أبو القاسم الحرّانيّ يدَه في الهواء:

- لا أظنّ أنّي أكلت القنَّبيطَ منذ سبع سنوات!

لكنّه لم يسمع غيرَ رجع صوته أو أصوات المضغ. لعبت الأصابع بالبصل المخلوط باللّحم المسلوق والكزبرة والبيض، وكان الغزاليّ يغالبُ نفسَه حتّى لا يزيد على ثلاث لُقَيماتٍ دون أن يلاحظ أحدٌ ذلك. كان أوّلَ الواقفين عن الخوان، رغم ما كان يحسّ به من جوعٍ ممضٍّ وبخارٍ ساخنٍ في كلّ خليّةٍ من خلايا بطنه.

ابتعد، وجلس في طرف الممرّ الرابط بين غرفة الطّعام ومدخل الخانقاه. أخرج مسواكًا من جيبه. نظر إلى الأشجار المشرئبّة خلف الخانقاه، والشّرفات العالية وراء الشّارع الواقع غربًا، فلمح منارةَ المسجد جهة الشّمال، فهزّه العجب. *أي أمر ذلك الذي أقدمت عليه؟ أيّ عهدٍ بيني وبين*

دمشق؟ وتذكّر لياليه الطّويلة بمكتبته مفكّرًا في ما عليه فعله. *ليتَ شعري ماذا يقول أهل بغداد؟ وما الّذي قيل للخليفة المستظهر عنّي؟*

ثمّ تذكّر بنتيه وزوجته. تذكّر خلوبًا واقفةً تضحك، وعَينَيها الزرقاوين، وشفتَيها الآخّاذتين. وتذكّر عيون بِنْتَيْه. *ماذا قالت عائشة بعدي؟* وتخيّلَ كلامَها الطفوليّ المكسَّر وضحك في سرّه.

انزعج من تلك الخواطر. *هل جئت هنا للبكاء على الزوجة والأولاد؟*

وقف ومسواكُه في فمِه ماشيًا إلى الحجرة وقد انقدحتْ في ذهنه فكرة. *سأبدأ العملَ لآكلَ من كَسْبِ يدي.* دخل الحجرة، واتّجه إلى زاويته، وخلعَ مرقّعَتَه وطيلسانه، وعلّقهما على المشجب، ولبس إزارًا وقميصًا، وجلس مُستندًا إلى الجدار ووجهه صوب القبلة يذكر الله. *عليَّ البقاء هكذا حتّى يأتي النوم غلبة.. فالاضطجاع قبل غلبة النوم ضياعٌ للأنفاس، وفي الغداة أكسبُ قوتي من عملِ يدي.*

58

«التلذّذ بجاه الإفادة ومنصبِ الإرشاد أعظمُ لذّةً من كلّ تنعّمٍ في الدّنيا. فمَن أجاب شهوتَه فيه فهو من أبناء الدّنيا».

الغزاليّ

دمشق، 488 هـ.

مرَّ عليه أكثر من أسبوعٍ في دمشق. كان سعيدًا لأنّه لم يصادف وجهًا يعرفه ولا أحدًا يُثبته، ولا انتبهَ إليه درويشٌ في خانقاه. دار بين مساجدَ وأربطةٍ وخانقاهاتٍ وأسواقٍ ولم يصادف من يشتبه فيه غير ذلك الشابّ الّذي سأله، ولعلّه شبّهه بآخر. أصبحَ مرتاحًا في خروجه ودخوله. يكشف رأسَه ولا يبالغ في إرخاء اللّثام على طرفِ وجهه.

سارَ عاريَ الرّأس مارًّا أمامَ سوق الغنم وعلى رأسه كومةُ حطب. انشغلَ ذهنُه بذلك الحلم الذي بدأ يلحّ عليه. فلا يكاد أسبوعٌ يمرّ دون أن يرى تلك المرأةَ واقفةً في محرابٍ تناديه: تعال يا أبا حامد! لقد طال الطريق!

ليت شعري ما معنى هذا؟ وفكّر في البحث عن معبّرٍ للرؤيا يسأله عن تأويل ذلك. ثمّ طرد الحلم من ذهنه ونادى:

- من يشتري حطبًا! من يشتري حطبًا!

تفرّسَه رجلٌ حادّ النظرات، فانقبض وصاحَ مغيّرًا نبرته:

- حطب يا عباد الله حطب!

ونطق كلمة «حطب» مُمطّطةً.

تجاوزَ السّوق، ولفّ باحثًا عن حمّام العباس. دلف إليه، فوجد العبّاس جالِسًا فاتحًا رجلَيْه يأكل زبيبًا، ومنخراه يبتلعان الدخان المتصاعدَ من طرف الحمّام. انحنى، ورمى الحطب بين يديه صامتًا. ولم يلتفت إليه العبّاس، بل أدخل يدَه في جيبه وهو يعالج بذورًا بأسنانه، ودسّ ربع درهم في يده:

- هذا ما لم أدفعه قطّ في حطب.

ولم يدقّق في المبلغ، بل أدبر خارجًا متمتمًا، فابتلعه الشّارع الصاخب. شقَّ الطّريقَ وذهنُه مكتظّ بأسئلةٍ تُضنيه. *لقد عرّضتُ نفسي لمواقف وأعمالٍ تُسقط الجاهَ وتكسر سَوْرَةَ النفس. نظّفتُ الكُنُفَ مرّات، وها قد بعتُ الخشب، وكدتُ أنظّف كنيف البيمارستان لولا الخوف من الإثم بالتعرّض للأمراض عمدًا. فهل أواصل على هذه الطّريقة؟*

تقاسمتْه الحيرة. فقد كشف له أسبوعُه بين جدران السميساطيّة عن جوانب أزعجته من حياة المتصوّفة. فبعضهم إنّما اختارَ هذا الطّريق لأنّه سهلٌ لا يكلّفه عملًا. فهو يعيش على أوقاف التّصوّف ويظنّ أنّه قد ترك الدّنيا وزهرتها. وهو إنّما يتفرّغ لأكل المال وطلب الجاه. فأهلُ السّوق لا يأخذون منه مالًا إذا اشترى، والنّاس يفسحون له الطّريق إذا مرّ إجلالًا. *فأين امتهان النفس، وقصّ أظفارها الحادّة، واقتلاع أنيابها السامّة، أين التجرّد إلى الله؟ إنّ سبب تسلّط الشّيطان على المتصوّفة في هذه الأبواب إنّما هو الجهل بالشّريعة. فالشّيطان يخدعهم خُدَعًا دقيقةً وينصب لهم حبائلَ لا ينتبهون إليها فيأتون بالبوائق.*

لعبتْ تلك الخواطر بذهنه وهو ينظر إلى الدّجاج المبهَّر والكباب المحمّر معروضًا في طرف الشارع. لفحَتْه رائحةُ الكباب اللّذيذ. كان بطنُه يتآكل جوعًا وتوقًا إلى ما يوضع فيه، فرفع سبّابتَه وإبهامَه وضمّهما على أنفه، وأغمض عينَه اليمنى حتّى تجاوز المطعم مُسرعًا. *هل جئتَ لتأكل أكلَ*

الثيران؟ لعلّ واجبي أمام الله أن أُفهِمَ هؤلاء المتصوّفة وأقدّمَ لهم دروسًا عمّا نصبَ لهم الشّيطان من حبائلَ داخلَ رباطاتهم، وأعرّفهم بما يرتكبه إبليسُ من خداعٍ منطقيٍّ وهم عنه غافلون. لكنّني إذا عدتُ مُدرّسًا لهم فلن أضمن أن أعجب بذاتي وأسعد بالعيون الطامحة إليَّ فيَسْلَموا وأهلك، ويسلكوا وأتخلّف، ويطيروا وأقع.

كان طرفُ جبّته يضرب عَقِبَيْه وهو يسير في الشّارع المؤدّي إلى الخانقاه، وأخذَ يستعيد وجوهًا تأمّل حالَها هناك طيلةَ أسبوع. تذكّر ذلك الرّجلَ البدينَ ذا المرقّعة، إنّه يرابطُ هناك ولا شغل له إلّا الأكل والنوم، أو همهمات وصيحات وأذكار، والرّجلَ الأبيض الأشيبَ الّذي هربَ عن عياله وتركهم يتكفّفون النّاس بحجّة التفرّغ لعبادة الله تعالى.

وتجمّدَ مُتسائلًا: *هل جئتُ من بغداد لإنقاذ نفسي أم للتفكّر في ذنوب النّاس؟* أنّبَ نفسَه على انشغالها بعيوبِ النّاس واستغفرَ وهو يرفعُ ناظرَه، فلاحَ له الجامع الأمويّ، والطيور محلّقة فوقه. اندفع في الزّقاق ودلفَ إلى الجامع. دخلَ رحبة المسجد مُتّجهًا إلى الميضأة. كانت الرحبة مكتظّةً بالزهّاد والعبّاد والأمّهات الممسكاتِ بأيدي أبنائهنّ طلبًا للتبرّك. جلس على الميضأة، وبدأ يسكب الماء على يدَيه مُتأمّلًا الرّجال المائجين في صحن المسجد. وجوهٌ مختلفة، وملابس متباينةٌ توحي بتباين النّاس وأفكارهم ومكانتهم ومقاصدهم. نفضَ يديه من الماء مستغفرًا، ومشَى في الصحن المستطيل الفسيح، ودخل المصلّى. أسند عصاه إلى السّارية، ودخل في الصّلاة، وبدأ يقرأ سورة الرعد.

قرأ حتّى وصل إلى قوله تعالى: «عالمُ الغيب والشّهادةِ الكبيرُ المُتعالِ* سواءٌ منكم من أسرَّ القولَ ومَن جهرَ به * ومن هو مُسْتخْفٍ باللّيل وساربٌ بالنّهار». مادت الأرضُ تحت قدميه، وأفاق على نفسه ساجدًا يدعو مختنقًا

بدموعه: اللهمّ إنّي أتضرّع إليك بخروجي من جاهي ومالي ركضًا إليك! لاجئًا إليك منك! لائذًا بك من خذلانك، هاربًا من سخطك إلى رضوانك، عائذًا من جبروتك برحمتك، هاربًا من عقلي إلى لطفك، متبرّئًا من حولي إلى قدرتك، أدعوك أن تفرشَ طريقي بالتُّقى! وتكفيني شرَّ نفسي! اللهمّ أنتَ من منحتَ هذا العقل المولعَ بالسبر والتقسيم، وتوليد النتائج من المقدّمات فَقِنِي شرَّه! واحمِني من غائلته وجموحه! اللهمّ وفّقني بالانصراف إلى تأمّل صفاتك عن تتبّع صفات خلقك، واملأْني بتأمّل جلالك عن التّفكير في عورات عبادك!

رفع وجهًا مبلّلًا بالدّموع، وسلَّم من صلاته، وجلس متكوِّمًا ذاكرًا. *ما قيمة هذا الهروب؟ وما هذه العزلة؟ أبيت بين المتصوّفة، أسمعُ شكوى هذا من هذا، وأرى حالَ هذا وأتأمّل ذاك، وإن صفتْ لي ساعةٌ بين ذلك انصرف ذهني إلى بُنَيّتي وأمّهن في بغداد!*

لم لا أترك الخانقاه وأسكن الفيافيَ متنقّلًا من قُلّة جبلٍ إلى قلّة آخر، ومن وادٍ إلى واد، ومن غيضة إلى غيضة، لا أرى إلّا أسدًا في غيضةٍ أو ذئبًا في فلاة؟ فتلك هي العزلة. ولعلّ الله أن يمنّ بالهداية وسكونِ القلب وانشغالِه بجلاله! وخطر له أنّ العزلةَ في الفيافي تحرمه أجرَ حضور الجَمع والجماعات، وكثيرًا من العبادات الّتي لا تتأتّى إلّا في المدن. رفعَ طرفَه مع الرحبة، فتراءت له منارة الجامع الأمويّ، فخطرت في ذهنِه فكرة. *لم لا أسكن هناك في تلك المنارة الغربيّة كطائر قمريّ منتظرًا رحمات الله النازلة على هذه البقعة الطّاهرة؟*

قام عجلًا، والتهمته الدروب الملتفّة حول الجامع. أسلمته قدماه إلى الخانقاه، فدخله عجلًا حتّى لا يسأله أحد. أخذَ جرابه وعصاه، وخرج. عاد إلى باحة المسجد، فلمح فاطمة، تلك المرأة الّتي رأى من قبل، فاطمة

البهلولة. كانت جالسةً وطبلُها في حجرها، مسندةً ظهرَها إلى جدار المسجد، تقرع طبلَها وتغني:

جسمٌ ببغدادَ ليس تصحبهُ   روحٌ، وروحٌ يضمّها نجدُ!

اقشعرّ جلدُه جازمًا بأنّ الله أنطقَها مخاطبةً إيّاه. فقلبه وجسمه لا يلتقيان إلّا نادرًا. تجاوزها عابرًا ساحة الجامع، وصعد السلّم. تجاوزَ جماعاتٍ من المتصوّفة يعيشون في الحجرات المتناثرة على ظهر المسجد قبيل المنارة الغربيّة. فتح باب المنارة، ودخل. كان بابًا ذا مصراعٍ عليه قُفْلٌ مفتوح. شمّ رائحة الغبار المختلط بعبير الأزهار. نظرَ إلى مساحة المنارة، فوجدها تتّسع لنومه وجلوسه وصلاته وطبخه. وضعَ جرابَه وعصاه، وأخذ حذاءه، وبدأ يكنس. امتلأ أنفُه بالغبار وهو يكنس أرضيّة المنارة، فاستلذّ ذلك مُفكّرًا في آفات مخالطة النّاس. فأقلّ ما يجب على المرء في مخالطتهم إظهارُ الشّوق إليهم. ولا يخلو ذلك من كذب؛ إمّا في الأصل وإمّا في الزيادة، وإظهارُ الشّفقة بالسّؤال عن أحوالهم مثل: كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وهي عبارات يردّدها المرءُ وقلبُه فارغٌ من هموم صاحبه المسؤول وهذا نفاقٌ محض.

فتح جرابه وأخرج لحافَه وطسته ومسواكه.

بسط اللّحافَ على البلاط وسبَّله بأصابعه، ووضعَ الجراب عند رأسه ليكون وسادة. ونصبَ طستَ الوضوء بجواره، ودسّ المسواك في جيب مرقّعته. ثمّ رفع نظرَه إلى الفتحات العلويّة في المنارة. *هل يتسرّب البرد القارس من هذه الفرجات ليلًا؟ عليَّ شراءُ غطاءٍ كثيف.* وقف، ووضع وجهه على فتحة المنارة، وأرسل بصره مع فضاء دمشق. فلاحت له أسواقُها الصاخبة وشرفاتُها القديمة المطلّةُ من الجهات الأربع، الناطقة بالفناء. *كم من إنسانٍ لمح هذا المنظر كما ألمحُه حالًا وهو الآنَ تحت أطباق الثرى؟ وكم*

سكنَ تلك القصورَ مَن خدٌّ نضيرٍ ووجهٍ وسيم، هم الآن عظامٌ رميم في قبرٍ مطمورٍ تعبث به الرياح؟

لاحَ جبل قاسيون من بعيدٍ هامدًا ساكنًا جليلًا كأنّه عابدٌ يرقبُ المدينة الغافية الغافلة. *هنا تحلُو العزلةُ وتمكن الصّلاة دون عينٍ تُحصي عليَّ عددَ ركعاتي.* وتذكّر الخانقاه والوجوهَ النّاعسةَ المتطلّعة والعمائمَ المُلتفّة الفضوليّة. *عجيبٌ أمرُ البشر. ألا يستطيعون الاشتراكَ في صناعةٍ إلّا دخلَها الحسد؟ حتّى الصلوات والعبادة يُحسَد عليها؟*

وهاجمَه خاطرٌ غريب. *كيف سآكل؟ لقد كان الخانقاه يوفّر طعامًا مطبوخًا يقيم الأَوَد. فماذا أفعلُ هنا؟ هل أعيش على كسرةِ خبزٍ يابسةٍ كلَّ ليلة؟* ابتسمَ من رعُونة النفس الّتي تشغله بالتفاهات، ورفَع يدَه صارفًا ذهنَه، وبدأ يتلمّس المئذنة. أمرّ يدَه على الجدار مُتأمّلًا البناءَ المحكمَ والهندسةَ الدّقيقة، فشردَ ذهنُه مفكّرًا في تاريخ المكان.

هنا دخلَ خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجرّاح قبل 475 عامًا. كان هذا المكان معبدًا رومانيًّا يَعْبد فيه الدمشقيّون إلهًا من حجر. أرسل عينَيْه مع الفتحة مُتأمّلًا الصحنَ الواسع في الأسفل. *كم دمعةً انسفحتْ هنا؟ وكم دعوةً صعدت إلى السماء؟ وكم من وليٍّ لا يُعبَأ له دخل هذا الصحن؟* ولمح فاطمة البهلولة ما تزال جالسةً تقرع طبلَها وتغنّي. وسمع قرعَ نعالٍ قادمةٍ مع السلّم.

59

دمشق، 488 هـ.

أطلّ من فُرْجة صومعتِه على شوارع دمشق، تأمّلها تحت أشعّة الشّمس المتسلّلة من خلف البنايات. فرأى القصّابين يتسابقون إلى لحومهم، والبزّازين إلى محالّهم، والورّاقين يتبخترون في عمائمهم الطّويلة، وجبابهم الواسعة. *أَيُبْعَث النّاسُ كما يستيقظون من النوم على حالهم بخلاف الآخرة؟ ففي الدّنيا ينام الخيّاطُ خيّاطًا ويستيقظ خيّاطًا، ولم يحدث قَطُّ أن نام الطّبيبُ طبيبًا واستيقظ تمّارًا!* مسح شفتَيه، وانحنى جالِسًا وهو يقرأ: «يوم يخرجون من الأجداث سراعًا كأنّهم إلى نُصُبٍ يوفضون... خاشعةً أبصارُهم ترهقهم ذلّة، ذلك اليوم الّذي كانوا يوعَدون».

قرّر ألّا يصوم اليوم، فقد كاد يسقط البارحة تعبًا. فتح جرابه وأخرجَ خبزًا وتينًا مجفّفًا، وأخذ يأكل. يمكنني *إتعابُ النفس وإكثار الصوم، لكنّ إتلافَ مطيّة الروح حرامٌ شرعًا*. مضغ مضغةً من كسرة الخبز، والتقم تينًا وعبَّ ماءً. كان مُستندًا إلى جدار المنارة وهو يمضغ ولا يسمع إلّا حركةَ فكَّيْه. شعر بأنّ هذه الكسرة وهذا التين أسوغُ وأهنأُ من طعام الخانقاه. انتابه امتنانٌ طاغٍ لله تعالى، فانطلق لسانُه بالحمد.

كان في قميصٍ وإزار، دون طيلسان أو قلنسوة. لمح قرنَ الشّمس وهي تنداح في فضاء دمشق، لكنّها بدتْ له كسيفةً هزيلةً دون شعاع، فتخيّلها صوفيًّا شريدًا أعياه الرهَقُ وطولُ السّفر. فتحَ جرابَه وأخرج مكحلته ومقلاعَه ومرآته.

رفع المرآة، ففاجأه الرّجل الّذي ظهرَ فيها. شعرٌ متناثرٌ طويل، ووجهٌ محفورُ الوجنتَين، وعينان سوداوان غائرتَان، وشفتَان ذاويتَان، وبشرةٌ شهباءُ غاضَ ماؤُها. تأمّل تقاسيمَه، فانتابه شعورٌ غامض، لكنّه أحسّ بأثره في نفسه. تأمّل وجهَه مُفكّرًا في أنّ الإنسان وحدَه يمسك نفسَه عن الطّعام والملاذ انتظارًا لأمرٍ آخر. فليس في الدّنيا حيوانٌ واحدٌ يصوم أو يكبحُ جماحَ شهوته، أو يترك أكلَ علفه أملًا في حصوله على أمرٍ آخر. وهذه هي الملائكيّة الّتي يتميّز بها الإنسان من غيره من الحيوانات العجماء. حمد الله أنّه لم يداوم على الرعي والكلإ مُنحنيَ الرّأس حتّى مات.. شأن الحيوانات البلهاء. غرقَ في تأمّلاته، ونَتَفَ بالمقلاع شعيراتٍ ناتئةً من شاربه، ثمّ أخذ يُكَحِّل عَينَيْه.

تشابهت أيّامُه في منارة جامع دمشق. فشعر باستقرارٍ نفسيٍّ تامٍّ داخلَها. قلّ تشويشُ رفاقِ الخانقاه، وفرغَ قلبُه للتأمّل في معاني الإيمان. وما جعل قلبه يخفّ للمكان ويهشّ للعزلة أنّه أصبح لا يكلّم أحدًا. ففي الصباح ينطلق ليحصل قوت يومه من بيع الحطب، ثمّ يعود ضحوةً إلى المنارة، ويغلقها عليه حتّى الظهر، ثمّ ينزل للصلاة ويظلّ في المسجد حتّى العصر، ثمّ يعود ويغلق عليه المنارة حتّى المغرب. يفطر مغربًا، ثمّ يبدأ في صلاته، وبعد صلاة العشاء يعود إلى المنارة، ويبدأ الصلاة حتّى يأخذ منه الإرهاق مأخذَه فيخلد للنوم، ويستيقظ سحرًا.

بدأ يمارسُ رياضةً محبّبةً إلى نفسه وهي إحصاءُ الكلمات الّتي يتفوّه بها في يومه من غير ذكر الله. فيعمد كلَّ ليلةٍ قبيل نومه إلى إحصائها، فيسعد أيّما سعادةٍ وهو يتقلّب على فراشه.

أعاد مرآته إلى جرابه، ورتّب مكانَه، ووقفَ نازلًا إلى الجامع. هبطَ مع أدراج المنارة مُتأمّلًا الجامعَ الّذي غدَا يعرف كلَّ زاويةٍ من زواياه، وغدتْ تلك الزوايا هي أيضًا تعرفه. فقد تعوّدَ روّادُ المسجد على ذلك الرّجل

الأبيض النحيف الصامت ذي الطيلسان الأسود والشجّة البادية في جبهته جالِسًا في ركنٍ من أركان الجامع يُقلّب ناظرَيه في السّماء ذاكرًا أو صامتًا.

وصلَ إلى صحن المسجد، فداعبت وجهَه رياحٌ باردة. انحرف يسارًا وقدماه تقرعان البلاطَ الرخاميَّ البارد. توجّه إلى السارية القريبة من زاوية الشّيخ نصر حيث يجلس عادةً، وبدأ يصلّي. وما إنْ دخَلَ في الصّلاة حتّى وصلَ إلى سمعه حديثُ المفتي. كان شابًّا أبيضَ ذا عمامةٍ ضخمةٍ يجلس غير بعيدٍ عنه متربّعًا وظهره إلى السارية، تحيط به مجموعةٌ من الطلبة والمستفتين.

تشوّشت صلاتُه وهو يرى كهلًا طويلًا يلبس ملابس التجّار جاثيًا بين يدَي المفتي يسأله رافعًا صوته:

- هل يجوز لي أن أفرّق بين أمٍّ وولدها لحاجةٍ؟ فالأمّ مملوكتي وأودّ إرسالَ ابنها إلى أختي المحتاجة إلى مَن يخدمها في مدينةٍ بعيدة؟

حاولَ الغزاليّ الانشغال بقراءته وصلاته حتّى لا يسمع الفتوى. لكنّ صوتَ المفتي كان واضحًا في أذنَيْه:

- نعم، المملوكةُ وابنُها ملكٌ لك. فيجوز لكَ التصرّف فيها وفي ابنها، ولو أوقفتَ التصرّف على رضا العبد أو الأمَة لنقص المُلكُ وانتقضَ مبدأ التملّك.

سمع كلامَهما كاملًا، فخطر له أن يقوم بأمرٍ، لكنّه انتبه إلى قلبه يخفق. شعر بانزعاجٍ وتعبٍ وحيرةٍ وهو يقلّب نظرَه في زوايا المسجد. *لقد بدأ هذا المكان يطيب لي، وبدأتُ أجد فيه قلبي وألقى روحي. فلو دخلتُ باب الفتيا وعرفني النّاس فسأفقد كلّ تلك النعم. ما شأني وشأن الفتيا؟ لم أهتمّ هذا الاهتمامَ وأنصتُ كلّ هذا الإنصات؟*

دسّ رأسَه بين ركبتَيْه: *لكنّ المفتي حكم حكمًا لا يستقيم مع قواعد الشّرع، وقد سمعتُه، فيجب عليَّ تنبيهُه وشرحُ الحكم وإلّا كنت ممّن يكتُم*

العلم وأصبحت شريكا في الإثم. هل أقترب منهم وأتحدّث؟ قد يفتح عليَّ هذا بابًا فيعرفني النّاس ولا أستطيع التخلّص. لكنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: من كتم علمًا ألجمه الله بلجامٍ من نار!

وقف ضامًّا عليه جبّتَه متقدّمًا إلى الحلقة. وما إن اقترب منها حتّى حدجتْه عيون الجالسين، فشعر برجلَيْه تخذلانه. *ألم أهجر نظاميّة بغدادَ هربًا من هذه العيون والحديثِ والنّاس المنصتين تطلّعًا؟ ألم أهرب لأخلوَ بنفسي وأتداركها قبل الفوات؟*

لكنّ العلماء اتّفقوا على أنّه لا يجوز شرعًا تأخيرُ البيان عن وقت الحاجة! فهذه الفتوى إذا ذهبَ بها ذلك الرّجل وطبّقها فإنّ كلّ ظلمٍ فيها سيأتيني منه نصيب! فكلّ آهةٍ ستتأوّه بها تلك الأمّ المكلومة سيأتيني منها إثم.

مرّت ثوانٍ وهو واقف على الحلقة صامتًا، والعيون ترمقه. وتنحنح وقال بنفسٍ متقّطع:

- السّلام عليكم!
- وعليكم السّلام!
- سمعت الفتوى بشأن التفريق بين المملوكة وابنها وأرى الحكم فيها غيرَ ما بيّنتم.

اتّسعت الأعين النّاظرة، فمال الغزاليّ بوجهه جهةَ التّاجر:

- لا يجوز التفريق بين الأمّ وولدها لقول النبيّ صلّى الله عليه وسلم: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقوله: «لاَ تُوَلَّهُ والدَةٌ عَنْ ولدِهَا!». ثمّ إنّه يخالف مبدأ الرحمة، فمِن أسماء الله الرحمنُ الرحيمُ، والتفريقُ بينهما فعلٌ ينقض حسنَ الملكة المأمور بها شرعًا اتّفاقًا.

وسكت مُفكّرًا، *هل يواصل الحديث شارحًا أطرافَ المسألة أم إنّ ذلك سيقود إلى التعرّف عليه ولفتِ الأنظار إليه أكثر.* وظهر له أنّه قام بالواجب وأنّ هذا يكفي. فسكت مرخيًا طرفَ عمامته، وهمّ بالانصراف، لكنّ التّاجر قال:

- لكنّ الأمّ نصرانيّة يا شيخ!

حسر اللثام عن فيه قليلًا:

- لا فرق بين كونها مسلمة وغير مسلمة، المدارُ على الأمومة فحسب.

وأدبر مُسرعًا، وعيون الحلقة تطارده. كان يسمع خفقَ قلبِه بوضوح، ويحسّ لسعات العيون بين كتفَيْه. توارَى في صحن المسجد مُتظاهرًا بالذهاب جنوبًا، ثمّ مالَ إلى شمال المسجد، وصعد المنارة. استلقَى على فراشه متضايقًا، مفكّرًا في تآليفه الكثيرة التي تجاوزت العشرات. فكّر في التعليقة في فروع المذهب، والبسيط في الفروع، وخلاصة المختصر، ومقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة، وميزان العمل، وفضائح الباطنيّة، والمنخول، وكتبه الكثيرة. وتذكّر الورّاقين الذين ينسخون كُتُبَه ليل نهار، ويبيعونها بالذهب لكثرة طلب الناس لها. *هل سيكون كلّ حرفٍ فيها سيّئةً يوم القيامة؟*

وطالَ تفكيرُه حتّى غلَبَه النوم. فرأى في نومه أنّ الرّوم تغزو بغداد. كان واقفًا على الجسر وفرسانُ الرّوم يعبرون إلى الجانب الغربيّ. كانت خوذاتهم من الذهب، وخيولهم كبيرةً ذات أرجلٍ طويلةٍ مغطّاة بالنحاس. ردّدَ بصرَه في جموع المسلمين الواقفين على الجسر يتأمّلون فاغرينَ أفواههم عجزًا واستغرابًا. صدَمَه أنّ النهرَ صار دمًا هادرًا. رأى خلوبا وبنتيْه في زورقٍ تلعب به الأمواج العاتية. كانت تشير إليه بطرف ردائها أن يأتي لإنقاذهنَّ فصرخ:

- انتظري! أنا قادم!

لكنّ صوتَه كان مخنوقًا، لا يستطيع حتّى أن يُسمِع نفسه. رأى بنتَيْه تتوسّلان، وأيديهما الصّغيرة تلوّح من بعيد. الماء يتعالَى والأيدي الصّغيرة تعلُو وتسفلُ وسطَ الموج. مشى ليلقي نفسَه في البحر ويسبح إليهما أو يموت، لكنّ علجًا روميًّا نَهَرَه موجّهًا إليه خنجرًا:

- إن تقدّمت شبرًا دسستُ هذا في بطنك!

والتَفَتَ إلى المسلمين، فوجَدَ عيونًا دامعةً ووجوهًا مقهورة. وانتظر حتّى غفَلَ عنه الجنديّ فقفزَ في الماء!

واستيقظ فزِعًا يتصبّب عرقًا. *ما معنى هذا الحلم؟ ما فعل الله ببنتيَّ وجاريتي؟ لقد تركتُ لهنّ من المال ما يكفي، وأخي أحمد في بغداد يرعاهنّ. هل تركتهنّ للضياع؟ هل قصّرت في حقوقهنّ شرعًا؟*

وجلس يمسح عينَيه ويدعُو ويستغفر.

60

بغداد، 489 هـ.

- والله ليس في بغداد أجمل منك يا خلوب!

قالتها المرأة البدينة وهي تفتح لهَا ذراعَيها وتعانقُها ضاحكة. فقالت خلوب وهي تفكّر في أنّ الحسد يأكل قلب جارتها:

- جارةُ أمِّ عثمانَ لا يمكن إلّا أن تكون جميلة!

وضحكت النسوةُ الجالسات في أطراف المجلس. ورفعت خلوب يدَها مشيرةً إلى خادمتها سندس:

- ضعي كلَّ ذلك هنا!

وجاء صوت أمّ عثمان وهي تنزع عباءتها حتّى ظهرت ذراعاها البيضاوان:

- هل فيكنّ من حضرَتْ عرس زينب؟

وفهمت خلوب أنّ أمّ عثمان تريد الحديث عن عرس جارتها لتعيّرها، فأرادت مجاملتها:

- كلّا... ماذا حصل؟

ورفعت أمّ عثمان يديها وضربت بهما فخذَيها:

- لم يرسل العريسُ أيَّ إكرام لأصهاره! أيّ شيء!

قالت خلوب بنبرة تصنّع:

- بالله؟ غريب!

كانت تحرص على مجاملة أمّ عثمان. فهي تخشَى لسانَها السليط. إذ لا يكاد ينقضي لقاءٌ دون أن تفتخر بأنّها بدويّةٌ من الجزيرة، وتُعيّر بعضَ جاراتها بأنهنّ إماءٌ مشتريات من السوق كما تُشترى الملابسُ القديمة.

وجاء صوت السيّدة النحيفة البيضاء ذاتِ الأنف الطويل:

- خلوب، هل من أخبارٍ عن زوجك؟

وخطر لأمّ عثمان أن تقول: تعنين سيّدها؟ لكنّها سكتت. فقالت خلوب وقد غشيتْها موجةُ حزن، وهي التي دعتْ جاراتها لمحاولة الانشغال عن التفكير فيه:

- لم أجد عنه خبرًا بعد! وقد سألتُ كلَّ الحجاجِ ممّن أعرف فلم أسمع عنه خبرا!

فقالت أمّ عثمان:

- سأسأل لكِ عنه ابنَ عمّي!

وفهم الجميع لَماذا قالت أمّ عثمان «ابنَ عمّي» ولم تقل «زوجي» فقالت خلوب:

- ليتك تفعلين!

تعرف خلوب أنّ زوج أمّ عثمان قد يجد من الخبر ما لا تجده بسبب صلته بالقوّاد الأتراك، فأضافت بتوسّل:

- بالله اسأليه يا أمّ عثمان! وقولي له إنّي لم أعثر له على أثرٍ منذ خرج للحجّ!

قالتها وهي تتذكّر كيف كان غارقًا في العبادة والتفكير قبل سفره، وكيف تغيّر سلوكُه ونمطُ عيشِه قبل خروجه. فلعلّه قرّرَ الانقطاعَ للعبادة في مكّة أشهرًا أخرى.

وساد صمتٌ مفاجئٌ في أطراف المجلس، وجاء صوت سندس تعنّف الخصيَّ في الدهليز. والتفتت أمّ عثمان إلى المرأة ذات الأنف الطويل:

- قلم، مَنْ يُزجّجُ لكِ حواجبكِ؟

واكتظّت أذهانُ النسوةِ بالأسئلة: هل تريد أن تعرف فعلًا، أم تمهّد للحديث عن أمرٍ آخر؟ وساد صمت متوتّر فقالت قلم:

- تأتيني المزيّنة شهوة. تعرفينها؟

ورفعت أم عثمان يدَيها في الهواء:

- أعرفها؟ أووووف! وكيف تصبرين عليها؟ تظلّ تتكلّم أثناء عملها وتُقرّب وجهَها من وجهي، ومعظم أكلها بَصَلٌ نيّئ!

وانطلقت في أطراف المجلس ضحكاتٌ، فواصلت أمّ عثمان:

- أنا أسمّيها شوهة... ولم أنادِها قَطُّ شهوة!

ودخلت سندس ووراءها الخصيُّ يحملان صينيّةً كبيرة. ففاحت رائحةُ الفواكه الطازجة مختلطةً برائحة اللُّبان المتّقدِ في طرف المجلس. ورفعت أمّ عثمان بصرَها مع الستائر الفاخرة مفكّرةً في ما أخبرها به زوجُها قبل سنوات من أنّ خلوبا كانت جاريةً مملوكةً ثمّ منحها أحدُ الوزراء للغزاليّ. فكّرتْ في إمكانيّة مفاتحتها في الأمر، وسؤالها عن قصّتها لتقُصَّها عليها، وعمّا إذا كانت تجد حرجًا في ذلك. فبعضُ الجواري لا يمانعنَ من قَصِّ حياتهنّ السابقة بحماس، وبعضهنّ يتضَايَقن من ذلك ويحاولن إخفاءَ عبوديّتهنّ السابقة حتّى عن أطفالهن.

وبعد ساعةٍ سُمِع أذانُ المغرب، فانفضّ المجلس، وشيّعت خلوب جاراتِها إلى الباب. وكان آخر ما قالت لأمّ عثمان وهي تمسك بطرف خمارها محاولةً كسب ودّها:

- بالله ألحّي على ابن عمّكِ في الأمر.. فلعلّ الله يكتب الخير على يديك!

وعادت مع الدهليز، وصعدتْ مسرعةً إلى حجرتها، ورمت نفسَها على السرير مهمومة. لم تخفّف عنها مجالسةُ جاراتها، بل أذكت القلق والأسئلةَ في ذهنها. لقد عاد الحجّاج منذ شهر، ولم يبقَ أيّ حاجٍّ من جيرانها ومعارفها إلّا رجع. *كيف لم يَره أيّ منهم؟ وهو المعروف المشهور؟ هل أصابه مكروهٌ في الطريق؟ هل خرج عليه لصوصٌ وأصابوه بسوء؟*

وامتلأ خيالُها بصورٍ مختلفة. خيّل إليها أنّها شمّت عطرَه، وسمعتْ صوتَه، وتذكّرته جالسًا بين الرجال والناسُ واجمون إعجابًا وتقديرًا. *أين هو وما الذي أصابه؟*

وسمعت أصواتَ بنتيْها تضحكان قادمتَين مع السلّم، فخفق قلبها ألمًا. فهما لا تعرفان شيئًا عن تأخّر أبيهما لكنّهما تظنّان الأمر عاديًّا. فرفعت يديها، ومسحت الدموع المنهمرة على خدَّيها. *هل أُرسل إلى أخيه أحمد ليزورني ونرى ما نفعل؟ وماذا عنده؟ كان هنا قبل أسبوع! لكنّه يستطيع أن يطلب من القوّاد الأتراك البحثَ عنه، أو إرسالَ رسولٍ إلى مكّة للبحث عنه.*

ووقفت وأمسكت مصراعَ باب حجرتها ونادت غلامَها الصقلبيّ فجاء يركض:

- نعم، سيّدتي!

- تذهب إلى دار الشيخ أحمد وتقول له إنّي أريد لقياه غدًا!

وعادت إلى سريرها مفكّرةً في أنّ أحمد يستطيع إرسالَ رسول إلى مكّة والمدينة ليأتي بأخباره.

61

دمشق، 489 هـ.

نزلَ الشّارع المنحدر قاصدًا حمّام العبّاس وهو يشعر بإرهاقٍ لم يشعر به من قبل. فكمّيّة الحطب الّتي أخذ اليوم أكبر ممّا يأخذُ عادةً. كان يحسّ بثقلها على رأسه، وبحبيبات عرقٍ تسيل على جبينه رغم الجوّ البارد. *إنّي ذاهبٌ إلى نهاية ذلك الشّارع وحسْب. فمراحل الدّنيا إنّما تقطع بخداع النفس!*

سارَ في شارع ضيّقٍ مليءٍ بالعابرين. فهنا يلتقي طرفُ سوق الفاكهانيّين والعطّارين. تجاوز دكاكين العطّارين لكنّه ما كاد يدخل سوق الفاكهانيّين حتّى لمح فتاةً تلبس مرطًا من الحرير ترمقه بعينَين فاتنتَين. لاحظ نظراتها فأزاح عنها ناظرَيه. لكنّها اقتربت، فلفحَه عطرها الحادّ. رفع كوعَه بثقل، وقرّبه من أنفه وهو ينسلّ مبتعدًا فقالت الفتاة:

- يا مريد، ادعُ لي الله أن يزوّجني!

وابتعدت، متوارية بين الجموع. وابتعدَ هو في الاتّجاه المخالف، لكنّ صورة عَينَيْها انطبعت في خياله، واستقرّ عطرُها الفوّاح في خياشيمه، ونبتتْ في صدره كآبةٌ حارقة. *أما زالت العيون تؤثّر فيك وقد تركت الوطنَ لصقل قلبك؟ أما زال عطرُ فتاةٍ مارّةٍ يشغلك؟*

واصلَ السّير مع الشّارع، لكنّه ما إن تجاوز طرفَ سوق الفاكهانيّين حتّى وطئ قشرةَ موزٍ، فتدحرج، وسقط. تناثر الحطب يمنةً ويسرة. تأوّه من قوّة السقطة، ثمّ سكتَ وهو يُفيق على صراخ امرأةٍ وقعَ عليها عودُ حطب. وقف وبدأ يلتقط حطبَه معتذرًا للمرأة البيضاء الفطْساءِ الّتي لم تكفَّ عن

سبّه وشتمه. ثمّ جمَعَ حطَبَه، ووضعه على رأسه، ومشى مُفكّرًا. *هذَا يعني أنّ السقطة منحةٌ من الله كفّارة عن النّظرة إلى تلك الفتاة. فالمؤمن يعاقب فورًا على أفعاله، بينما الفاسق أو الكافر يُستدرَج ويُملى له، فتجلبُ له المعاصي النعَم.*

غرق مفكّرًا في العلاقة بين المعصية والعقوبة، وخطرَ له ما يؤمن به الهنود من أنّ كلَّ معصيةٍ في الدّنيا لا بدّ لها من عقوبةٍ سواء في الحياة الحاليّة أو في الحيوات الآتيات في دورة الاستنساخ. وأفاقَ على نفسه يدخل حمّام العبّاس.

شعر بالدفء داخل الحمّام، وهو يلفّ قاصدًا مكانَ الحطب وجلوس العبّاس. لمحَه جالِسًا كما هو كلّ يومٍ بهدوء، مباعدًا بين رجليه، وجسمُه الضّخم يحتلّ مقعده وبين يديه بذورٌ يعالجها بأسنانه ويستفّها استفافًا. لم يلتفت إليه العبّاس، بل دسّ ربع درهم في يديه، وقال:

- هذا ما لا أدفعه لغيرك.

وانصرف وهو يشعر بأنّ رأسَه خفّ ورجلَيه نشطتا للمسير رغم الألم الّذي يجد في حرْقَفَتِه بسبب السقطة. مشى في طريقه إلى الجامع الأمويّ مُتأمّلًا: *هل عليّ بيع الحطب كلّ يومٍ أم يمكنني مزاولةُ أمرٍ آخر أكسب منه قوتي؟ لم أُجهِد نفسي بحمل الحطب على جسدٍ لم يتعوّد هذه الأعمال. فالجهد الّذي أبذله فيه يمكن صَرفُه في العبادات وخدمة النّاس. لمَ لا أبيع الكتب والورقَ وأنسخ بالأجرة مع سوء خطّي؟ فلكلّ خطٍّ قارئ.*

ورقصَ قلبُه لمنظر الورق والدّخول على الورّاقين، وتصوّر نفسَه غارقًا بين الكتب، فهشَّ لذلك. وتذكّر أنّ عليه اتّهامَ نفسه كلّما هشّت وبشّت لأمر. *فالورقُ فتنةٌ لا تضاهيها فتنة. أليس مدارُ الأمرِ على مخالفة النفس ومحاربة الهوى؟ فقلبي يرقص للورق كما يرقص قلبُ القينة للمزمار، وقلبُ المخنّث للدفّ سواء بسواء، لكنّ الشيطان يزّين للفقيه أنّ الورق*

عبادةٌ والفتيا عبادةٌ وهو كاذبٌ عليه وخادع له. ولعلّ القينةَ أحسن فعلًا وأكثر قربًا من الله لأنّها لم تدَّعِ العبادة بفعلها كذبًا.

كانت تلك الأفكار تلعب بذهنه وهو يدلف إلى رحبة الجامع الأمويّ. رأى عشرات الطلّاب يتمشّون في الرحبة، فلاحظ وجوههم تتبعه أكثر ممّا يفعلون عادة. تجاهل نظراتهم، وتوجّه إلى زاوية الشّيخ نصر، وجلس.

لاحظ كثرةَ النّاظرين إليه، ثمّ انصرفت الوجوه فجأةً إلى شيخٍ قادمٍ من جهة المنبر كأنّه كان ينتظر قدومَه. تقدّم الشّيخ الأسمر في ملابسِ الفقهاء مقتربًا:

- السّلام على الشّيخ أبي حامد!

ولم يجد الغزاليّ بدًّا، فتنحنح:

- وعلى الشّيخ السّلام ورحمة الله!

تحرّكت العينان العميقتان تحت الحاجبَين الكثّين:

- أتأذن لي بالحديث؟

أشار الغزاليّ إلى الشيخ بالجلوس، فاقترب وحنى رأسَه واضعًا يدَيه وراء ظهره:

- عفا الله عنك أيّها الشّيخ! أنا ناظر خانقاه السميساطيّة. وقد قيل لي إنّك جئتَ لتقيم في الخانقاه فلم يعرفك القومُ فصدّوك أوّلًا قبل الإذن لك. ما ضرّك لو عرّفتهم ليعرفوا مقامكم ومكانكم؟

شعر الغزاليّ بالحبل قد التفّ حولَ رقبته. تشاغلَ بكَشْطِ وسخٍ على طرف جبّته، والتَفَتَ إلى السّارية المجاورة:

- الآيِنُ -أيّها الشّيخ- أن يكون الخانقاه مفتوحًا لكلّ طارقِ ليل، فكيف بفقيرٍ غريب!

ولم يسمع النّاظر ردَّ الغزاليّ لدهشته بعدما تأكّد أنّه فعلًا يجالس الإمامَ

محمّد الغزاليّ. كان يتأمّل وجهَه الأبيضَ وعَينَيه السّوداوَين وجبهتَه الناتئة وشجّته البادية، مُنصتًا لكلامه الموزون ومخارجه الفخمة. فقال كأنّه يفيق من حلم:

- نحن نعتذر منكم أيّها الشّيخ عمّا بدر منّا، وندعوكم لتشريف السميساطيّة مرّةً أخرى والعيش فيها لتعرف قدركم.

سكتَ الغزاليّ قليلًا مُتأمّلًا وجه الشّيخ. تأمّل حاجبَيْه الكثَّين وعَينَيه العميقتَين وأنفَه الضّخم:

- لي بعض الانشغال الآن، ولعلّنا نتحدّث بعد يومٍ أو يومين. لا تكلّف نفسَك زيارتي بل انتظرني حتّى أزورك.

واستأذن واقفًا، فوقف النّاظر مصافحًا معتذرًا.

مشى إلى طرف الزاوية وبدأ يصلّي. كان الوقت ضحوة، والمسجدُ خاليًا إلّا من قلّةٍ من الطلّاب والزوّار. دخل في صلاته، لكنّه لم يجد قلبه. فقد انشغل ذهنُه أثناء الصّلاة بالتّفكير في ناظر السميساطيّة، وفي تخيّل الوجوه الّتي ستأتي للاحتفاء به والسّلام عليه. ومَن يدري؟ يمكن لحاكم دمشق أن يأتيه ويدعوه إلى دخول قصره.

وسلّمَ من صلاته كئيبًا مُوَزَّعَ النفس، مُنْخَسِفَ القلبِ خدِرَ الأطراف.

جرَّ ساقَيْه إلى الرحبة، ثمّ لفّ شمالًا، وصعدَ المنارةَ، وسمعَ صوتَ انغلاق الباب وراءه. ألقى جسمَه المبلّلَ على الأرض مُستندًا إلى الجدار ويدَاه على وجهه: *أخسِرتُ كلّ شيء؟ هل انتهت العزلة التي كنت أجدُ قلبي أثناءها أحيانًا؟ كيف ستكون عزلتي إذا علم النّاس مكاني وتوافدُوا لزيارتي؟ لقد عرف كلّ مَن في الجامع من عالمٍ وطالبٍ ودرويشٍ مكاني. كيف يطيب المقام بعدَ هذا؟ وما الفرقُ بين الإقامة على هذه الحال والإقامة في بغداد؟ أنا أخادع نفسي ويخدعني الشّيطان إنْ أقَمْتُ هنا.*

تلفّت في المنارة المظلمة مُتأمّلًا جرابَه وطستَه وإناءَ أكله. رفع عَينَيه في السقوف سائلًا نفسَه: *هل كنتُ سعيدًا عندما جاء النّاظر يعتذر؟ هل تحرّك قلبي لذلك؟ إذا كان قد تحرّك فأنا طالبُ جاهٍ لم تخلصْ مقاصدي لله بعد. إي والله! لقد كان قلبي ساحةَ نزاعٍ وعراك! فقد سعِدتُ بتبجيله لي ومعرفته بي، وانزعجت لمعرفته مكاني.* مشَى في زوايا الغرفة المعتمة جيئةً وذهابًا ويده تمشط لحيتَه، ثمّ برقت في ذهنه فكرة.

ما دامت نفسي قد سرقتني وسعدتْ بتبجيل النّاس، وانشرحتْ للعيون الملاحظة، والكلام الليّن، والاعتذار الضّارع، فلمَ لا أقوم بما يقوم به الملاميّة لكسر كبرياء النفس. لم لا أذهب غدًا إلى السّوق وأسرق ثيابًا حتّى تُنزع منّي وأعنَّف أو أضربَ فسيسقط جاه نفسي وتنكسر، لعلّ ذلك يكفّر عمّا بدر منها.

وشعر براحةٍ عظيمةٍ على إثر الفكرة، لكنّه يعرف أنّ هذا لا يحلّ شرعًا. إذ لا يجوز للمسلم إذلالُ نفسه عمدًا أو تعريضها لألسنة النّاس. فذلك تشجيع للناس على المعصية بمنحهم فرصةً للغيبة.

رفع يدَيه، ومسحَ بهما وجهَه متأوّهًا، وجلس في الركن. تأمّل الضّوء الخافت الآتيَ من جهة السّقف. أجال بصره وهو يحدّق في أشيائه المحشورة عندَ زاوية المنارة: جرابٍ فيه طعامٌ قليل، ومقْلاعٍ ومكحلةٍ وحبلٍ ودلوٍ ومرقّعتَين وجبّةٍ وعمامةٍ وطيلسانٍ وعكّازٍ وحذاءٍ وطست. *هذا كلّ ما عندي في هذه المدينة، فلمَ المقام؟ لم لا أهربُ بديني من هنا كما هربتُ به من بغداد؟*

يمكنني الهروب. ما عليّ إلّا الانتظار حتّى طلوع الفجر. أذهبُ إلى القفر غدًا حيث لا أنيسَ إلّا الوحوش، حيث لا أحد يعرفني أو أعرفه، ولا أحد يغضبني أو أغضبه. تصوّر نفسه في البراري يأوي إلى كهفٍ أيّامًا حتّى يصقل روحه.

شعر بتوتّر تشوبُه راحة. انتابَه شعورُ جنديٍّ مرابطٍ على ثغور الرّوم ينتظر إشارةَ المعركة. وتملّكته الرعشة وهو يفكّر في أنّ معارك الروح أشرس من معارك السيف. فزوابع الجوانح ورجفان القلب وتمزّق الوجدان تُضارِعُ قراعَ الفرسان وصولات الأبطال. وقف بقلبٍ واجفٍ وجبينٍ متعرّقٍ وركبتَين راجفتَين ونظر إلى صحن الجامع من فتحات المنارة. *لا شيء أصعب من تمزّق المرء بين عالَمين.. التمزّق بكلّ ضروبه متعبٌ في هذه الحياة... فشقّ الجسم عناء، وشقّ الجسد بين ميول العقل ونزوات الوجدان عناء، وشقّ الألفة بين حبيبَين عناء... كأنّ الحياة أسّست على التوحّد والتوحيد. سبحانك!*

لكنّي لو هربتُ فسأربحُ نفسي وأترك المسلمين والمتصوّفةَ على هذه الحال الّتي يظنّون أنّها حالُ خير، وما هي بحال خير. لمِ لا أجرّب المقام هنا حتّى أتحدّث عن أمراض العلم والعلماء، وأشرح التشوّه الّذي نزل بدين محمّد صلّى الله عليه وسلّم؟ لعلّ أجر التنبيه على هذه الدقائق أكثرُ من الانفراد بالعبادة. وحدّق في المنارة حائرًا. وقف، ووضع عينَه على فتحةٍ من فتحات المنارة، فلاحت له الرحبة. رأى حمزةَ السقّاءَ منشغلًا يبيع العصير للعابرين، فغبطه على حاله وخلوّ باله. وفكّر في سعادة ذلك السقاء الّذي لم يدخل الشكُّ قلبَه يومًا، ولا دخلَ على خليفةٍ قَطُّ، ولا أكلَ بالدّين مطلقًا، ولا سمع بأبي الهذيل العلاف، ولا قرأ للنَّظّام، ولا لأرسطو، ولا لابن سينا.

انشغل بتأمّل السقّاء، ثمّ رأى فاطمةَ البهلولةَ تمشي في الرحبة حاملةً دفَّها وهي تنشد وعلى كتفيها يقف عصفورٌ في سكينة تامّة. فرفعَ إصبعه، ومسح دمعةً من طرف عينِه مُفكّرًا في سهولة الوصول إلى الله.

62

دمشق، محرّم، 489 هـ.

نزلَ من درج المنارة مُسرعًا منشرحَ النفس، حتّى كاد يتعثر. فقد حَسمَ أمرَه بعد أربعة أيّامٍ لم يذق فيها غير حيرة السؤال. أنفق ساعاتٍ طويلة، وصلّى صلواتٍ متأنّية، ودعَا متضرّعًا لله أن يهديَه إلى الصواب. *هل عليَّ الاستمرارُ في الصّمت وحالُ المسلمين تسوء؟ أَعَلَيَّ الانشغال بنفسي والفرارُ إلى البراري؟ أم عليَّ البدء في الدّعوة وتبيين الرأي الّذي اهتدَيتُ إليه؟*

تجاوزَ صحنَ الجامع المليء بالدراويش والعابرين والمصلّين والفضوليّين. لمحَ شيخًا ساجدًا كأنّه جذعٌ لا يتحرّك، وبجانبه فتًى يُحاور فتاةً بعَينَيْه وهي واقفةٌ في الجانب الآخر من صحن المسجد. فاستغفر وغضّ بصرَه مُتجاوزًا الفتى حتّى دخل الجامع. قدّمَ رجلَه اليمنى وهو يستعيد الفكرة الّتي قرّرَ أن يواجه بها العالم.

مشى بين السواري قاصدًا ساريته المعتادة، وملأ منخرَيه بذلك العبق الّذي أصبح جزءًا من ذاكرته، خليط من رائحة البخور الممزوجة بعبق المحابر، وريّا الأزهار والورد. تراءت له العمائم الدّائرة على السواري، والصحف المنشورة بين أيدي طلّاب العلم، وملأ أذنَيْه بذلك الدبيب في جنبات المسجد، دبيب طلّاب العلم المتحلّقين حول الشّيوخ. تلفّت فرأى شيخًا محمرَّ الوجه، رافعًا يده، يشرح للطلّاب حوله. انقبض قلبه؛ فقد ذوى احترامُ هذا العالَم بين ضلوعه. لاحظَ أنّه أصبح يرتاح لمنظر بائعٍ في

دكّان أكثر من بشاشته لعالم يدرّس. وصلَ إلى السّارية. صلّى ركعتَين، ثمّ جلس مُسنِدًا رأسه إليها. مرّر يدَيه على وجهه، وفرك بهما عَينَيه: سبحان مغيّر القلوب! كنتُ لا أرى عالمًا أو طالبَ علمٍ إلّا انخلع قلبي هيبةً لهما، وها أنا بينهم اليومَ غريب! امتلأ ذهنه بصورة المدرسة النظاميّة، مستعيدًا صورة شيخه أبي المعالي الجويني جالِسًا في صحن جامع نيسابور والأوراق تتطايرُ في الهواء بالأسئلة في الفقه والأصول والكلام والمنطق والتاريخ. تذكّر المجالسَ الغاصّة في بغداد حيث فطاحلة العلم. ولاحت في ذهنه صورة إلكيا الهراسي، وابن عقيل.

تنحنح، ثمّ أرسلَ بصرَه مُتفقّدًا المؤذّنين ليعرف هل اقترب وقتُ إقامة صلاة العصر. لقد عزم على أنّ واجبَ الوقتِ أن يتكلّم. *فليس الصلاح ولا الإصلاح في السكوت. فمحمّد صلّى الله عليه وسلّم لم يسكت، ولم يكن هدفُه صلاحَ نفسه، ونجاتَه فحسب، بل كان سعيه إلى إصلاح النّاس وتبيين دين الله. لو كان هدفُه صلاحَ ذاته لما خرج من غار حراء، ولَمَا رجع من ليلة المعراج. لقد عاد لأنّ البشر في حاجةٍ إليه، والعلماءُ ورثةُ الأنبياء.* رأى أحدَ المؤذّنين يلفّ عمامتَه، ويعدّل جبّته ذاهبًا إلى المنارة، فكمَن بمكانه حتّى إذا سلَّمَ من صلاة العصر وقف متهيّبًا متقدّمًا جهةَ المنبر.

كان كلّما اقتربَ من المنبر ازدادت الأعناق استطالة، والعيونُ شخوصًا. وهجمت الأسئلةُ على قلوب الحضور: *الغزاليّ سيتكلّم؟ سيترك الجلوسَ في زاوية الشيخ نصر، والاحتجابَ في المنارة الغربية؟ ماذا سيقول؟* تقدّم في مرقّعته الرماديّة وطيلسانِه الأسود، والعيونُ تشيّعه حتّى وصل المحراب:

- السّلام عليكم ورحمة الله!

ضجّت حنايا الجامع:

- وعليكم السّلام ورحمة الله!

جلسَ على الكرسيّ الضّخم عند المنبر، وتلفّتَ وتنحنح. فتفاجأ بالأبصار الطامحة، والرّجال الزاحفين من أطراف المسجد جهتَه. ففرك يدَيه، وحوْقَلَ في سرّه، واستعاذ بالله من شرّ نفسه:

- بسم الله الرحمن الرحيم. أحمد الله -أوّلًا- حمدًا كثيرًا متواليًا، وإنْ كان يتضاءلُ دون حقّ جلاله - حمد الحامدين. وأُصلّي وأسلّم على رسُلِه -ثانيًا- صلاةً تستغرقُ مع سيّد البشر سائرَ المرسلين. وأستخيره -ثالثًا- في ما انبعث عليه عزمي من سعيٍ إلى إحياء علوم الدين.

تقارب المصلّون والعلماء والطلّاب، وهدأت الأصوات، حتّى إنّ صدى الأطفال اللّاعبين في صحن المسجد صارَ مسموعًا. تردّد وهو يلمح الإعجابَ واللّهفةَ في عيون السامعين، مُستعيدًا مشاعرَه أيّامَ النّظاميّة يومَ كان يسكر بالثناء ويرتاح بالتفاف العيون والعمائم حوله. أحسّ بإحباطٍ وفتورٍ، فسكت. لكنّه استعاد عزمَه، وتذكّر استخارتَه وصلاتَه ودعاءَه وحاجةَ المسلمين إلى الدعوة الّتي سيبدأ. وتذكّر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما كان يتكلّم إلّا اجتمعَ النّاس وحَدَجُوه بأبصارهم إعجابًا. وإنّما الشّيطان الّذي بداخله يحاول ثَنْيَه عن الخير، وإسكاتَه ليتحوّل إلى شيطانٍ أخرس. استعادَ جأشَه، وانطلقَ مخاطبًا الشّيطانَ الموجودَ بين جنبَيْه:

- وأنتدِبُ -رابعًا- لقطع تعجّبكَ أيّها العاذلُ المتغالي في العذل من بين زمرَة الجاحدين، المسرفُ في التقريع والإنكار من بين طبقات المنكرين الغافلين. فلقد حلّ عن لساني عقدةَ الصّمت، وطوّقَني عهدةَ الكلام وقلادةَ النطق ما أنتَ مثابرٌ عليه من العَمى عن جليّة الحقّ، مع اللّجاج في نُصرة الباطل وتحسين الجهل! إنّ أطبّاءكم مرضاكم! فما أفسدَ هذا الدينَ إلّا علماء الدّنيا، المتبضّعون بالدين لمزرعة الدّنيا، الموغلون في جَعْل الدين حبالةً لأوساخ النّاس.

دخَل دراويش كانوا يتمشّون في الصحن وجلسُوا مُنصتين، وهبّت رياحٌ آتية من الأبواب، وظلّ صوتُ الغزاليّ واضحًا مسموعًا صحْلًا مليئًا بالعبر والعظات. تحدّث طويلًا عن كون معضلة الإسلام ليست في العُصاة ولا في الحكّام بل في العلماء والطلّاب والكتب والمدارس. فقد غدتْ هذه الأمور أبعدَ ما تكون عمّا وُضِعَت له بدءًا. كان يتحدّث جالبًا الأدلّة العقليّة والمنطقيّة. ثمّ ختم:

- إنّ الأمرَ إدٌّ والخطبَ جدّ، والآخرةَ مقبلة، والدّنيا مدبرة، والأجلَ قريب، والسّفر بعيد، والزادَ طفيف، والخطرَ عظيم، والطّريق سدّ! هذا الدّين الّذي نتعلّم في المدارس ليس دينَ محمّد صلى الله عليه وسلّم. وهؤلاء العلماء الّذين نقتدي بهم ليسوا أتباعَ أُبيّ بن كعب ومُعاذ بن جبل. بل هم أقرب إلى أتباع أبي جهل وأبي لهب! وإلّا لِمَ يتزاحمون على أبواب الحكّام؟

سرى ضجيجٌ عن يسار المنبر حيث يجلس شيخٌ أربعيني، ضخم البطن، برّاقُ الملابس ذو هامةٍ ضخمة. وتنحنح الشّيخ، وقال كأنّه يتحدّث نائمًا:

- إنّ الدّخول على السّلاطين إنّما يكون لِنُصْحِهم والتوسّط لمصالح الضّعفاء! فماذا يقول الشّيخ في ذلك؟

رفعَ الغزاليّ يدَه، وتسارعت حركةُ حدقتيه:

- شوف، أيّدك الله! كان دخول علماءِ الآخرة على السّلاطين معروفًا. كانوا ينصحونهم ويوبّخونهم، ولذا كان العلماء يُقتَلون كما وقعَ بين سعيد بن جبير والحجّاج، أو يُجلَدون كما وقع لأحمد بن حنبل ومالك. أمّا علماء الدّنيا اليومَ فيدخلون ليتقرّبوا إلى قلوب السّلاطين، وليدلُّوهم على الرخص الفقهيّة، ويستنبطوا لهم بدقائقِ الحيلِ طرقَ السعة في ما يوافق أغراضهم. وإنْ تكلّمُوا أو نصحوا في

معرض الوعظ لم يكن قصدهم الإصلاح بل اكتساب الجاه والقبول عندهم، وعرض قدرتهم على رصّ الألفاظ.

وتفقّد قلبَه، فوجده لا يبالي أَرَضِيَ النّاسُ عمّا يقول أم كرهوه، ولا يبالي أَسَمِعَ السّلطانُ أم لم يسمع. فشعر بخفّةٍ وسعادة:

- ولهذا فالدّخولُ على السّلاطين فيه نوعان من الغرور. الأوّل: أن يقول العالِم لنفسه: إنّ قصدي من الدّخول عليهم إصلاحُهم بالوعظ، ويلبّس على نفسه بذلك. وإنّما الباعث الحقّ شهوةٌ خفيّةٌ إلى الشُّهرة، وعلامةُ صدقه أنْ لو قامَ واحدٌ من أقرانه وتولّى عنه الدّخول على السّلطان وانتفع به لَفرح وسعِد لأنّ عالمًا آخر كفاه هذا الأمر. كمَن كان يريد علاجَ مريضٍ احتسابًا فجاء آخر وتولّى عنه هذا الهمَّ فإنّه يفرح به. أمّا إذا لم يسعد قلبَه بصلاح أمر السّلطان على يدِ عالمٍ آخر فهذا دليلٌ على أنّه كان أضحوكةً للشيطان.

وتحرّك العالم في مقعده ورفعَ يدَه، فالتفتت إليه الأبصارُ متأمّلةً وجهَه اللّحِمَ وصلعتَه البرّاقَة تحتَ الضّوء النازل من سقف المسجد، وقال:

- هذا يفعله بعض العلماء، لكن ثمّة علماء آخرون يخدمون النّاسَ بدخولهم على الأمراء. وهذا تتشْ، حاكم دمشق، لا يدخل عليه عالمٌ إلّا أكرمه.

فهم الغزاليّ قصدَ العالم، وعرف أنّه عرضَ اسم الوالي محاولًا استدراجه ليقول كلامًا يغضبه، فرفعَ يدَه وقبض بها لحيته، وقال بصوته الدافئ:

- تتش، ما هو إلّا حاكمٌ كغيره. همّه المال والسّلطان، والعلماء كلّهم كذلك لا يختلفون عن الأمراء إلّا في نوع الحيلة ونوع المنبر. فإذا كان التركيّ يجمع المالَ والجاهَ بسيفه، فإنّ العالِم -إلّا من رحم الله- يجمع المال والجاهَ بمحبرته وعمامته.

ورفع العالم يدَه ليتكلّم، ثمّ تركها تسقط. وسكتَ متلفتًا في أرجاء المسجد باحثًا هل يوجد أحدٌ من مخبري تتش. ولم يفت الغزاليّ أيّ شيء من ذلك، بل شعر بسعادةٍ غامرةٍ لقيامه بواجبه الشّرعيّ وهو يقول:

- لقد اندرس أمرُ الإسلام، ونحن في نهاية القرن الخامس. فقد تحوّلَ الدين إلى رسومٍ كرسوم النّصارى واليهود، وتحوّلت العلوم إلى جدال، ومصالحُ النّاس إلى نهبٍ وغنيمة. وأصبح دين أبي بكر وعمر نهبةً للخلافات الركيكة الّتي لا تقرّب من الله، ولا تسعد قلبًا ولا تبطل باطلًا. أتذكرون كيف لعب العلماء بأحد السّلاطين في مرو؟ كان حنفيَّ المذهب مولعًا بعلم الحديث، يسمعُ من الشّيوخ ويستفسر عن الأحاديث. فوجَدَ أكثرَها موافقًا لمذهب الشّافعي، فوقع في نفسه أن يتحوّل شافعيًّا. فقام وجمع الفقهاء وطلب منهم الكلامَ في ترجيح أحد المذهبَين. فوقع الاتّفاق على أن يُصلُّوا بين يدَيه على مذهب الإمامَين ليختار منهما. فصلّى أبو بكر القفّال المروزيّ بطهارة مُسبِغة، وشرائطَ معتبرةٍ من السترة والقبلة، والإتيان بالأركان والفرائض صلاةً لا يُجوّز الشّافعي غيرها. وصلّى صلاةً أخرى على ما يجوز عند أبي حنيفة جامعًا فيها الشاذَّ والغريبَ من رأي الإمام. فلبس جلدَ كلبٍ مدبوغًا، ملطّخًا ربعَه بالنجاسة، وتوضّأ بنبيذ التمر، وكان في الحرّ، فاجتمع عليه البعوض والذباب، وتوضّأ مُنكّسًا، ثمّ أحرم، وكبّر بالفارسيّة، وقرأ بها: «دو بركك سبز»، ثمّ نقر نقرتَين كنقرات الديك من غير فصلٍ ولا ركوعٍ ولا تشّهد، ثمّ ضرطَ في آخر صلاته من أجل السّلام من غير نيّة، وقال: هذه صلاة أبي حنيفة!

ضجّ المسجد ضحكًا، وتأمّل الغزاليّ العمائمَ واللحى المهتزّة ضحكًا، فلم يضحك. بل كان وجهه مربدًّا أحمر، وقلبه يكاد يَنْزُو من حلقه حزنًا واضطرابًا.

- أتضحكون؟ هل هذا هو الدين الّذي قُتل في سبيله حمزة؟ وتغرّب لأجله بلال وخالد؟ ودفن من أجله النعمان بن مقرن في نهاوند؟ هل هذه هي الصّلاة الّتي هاجرَ بسببها أصحاب محمّد حتّى دفن أكثرهم خارجَ جزيرة العرب؟

ظلّ يحشُو آذانهم بالحديث عن مرض الإسلام النابع من مرض علمائه، ومن تيه الدين والمتديّنين بسبب الفهم المعوجّ له. ثمّ وقف، وشيّعه النّاس إلى الباب. كان بعضهم يبكي سعادةً بحديثه وعودته إلى الكلام، وكان آخرون صامتين متوجّسين. طلب منهم عدم مرافقته إلى المنارة الغربيّة، وتجاوَزَ البابَ، وسلك الصحنَ خافضَ الرّأس. كان الرذاذ يتساقط، فرفع بصرَه ولمح الأفق الملبّد بالغيوم، وبنايات دمشق مُطلّةً تخفق فوقَها البروق المنبئة بمطرٍ وشيك. كان قلبه مملوءًا حبورًا لأنّه انتصر على نفسه وحلّ اللهُ عقدةَ لسانه، وتحدّث أوّل مرّةٍ في حياته على منبرٍ دون مبالاةٍ بحاكم. أغضى ناظرًا جهةَ قدمَيه حتّى لا تقع عينُه على منظرٍ من المناظر الّتي لا يرضاها عادةً في صحن الجامع.

صعد السلّمَ، فحانتْ منه التفاتةٌ، فرأى دمشق هادئةً تستعدّ لاستقبال اللّيل. أحسّ إحساسَ من أزاح عن كتفيه جرابًا سافرَ به عشرات الأميال. ثمّ أخرج أوراقه وكتبَ رسالةً إلى خلوب:

«من محمّد بن محمّد الغزاليّ إلى المصونة حفظها الله وأقرّ عينها،

سلام عليكم ورحمةٌ منه وبركات،

وبعد، فلتعلمي أنّي في أرغد عيشٍ وأنعم حالٍ، ولا ينغّص عليّ إلّا ذكركم والشّوق إلى العيال. وإن مدّ الله في العمر فسنلقاكم..».

رمى القلم مُفكّرًا. هل يكتب الجملة الأخيرة. فالنيّة ألّا يعود حتّى يأتيه الأجل!

واستيقظت في ذهنه عبارات سمعها قديمًا من الشيخ الفارمذي في نيسابور: إنّ ضفائر المرأة تقيّدُ الفارسَ الشجاع، ونظراتِ الأطفال تحلُّ عُقْدةَ العزم البائت. كيف ينتصر الرجلُ أحيانًا على كلّ شيء إلّا على أهل بيته؟ إنّ لكلّ شجاع مختلًا يُختل منه، ولكلّ قويّ بقعةً رخوةً منها يُضرَب، ولكلّ قلبٍ مُغلقٍ مدخلًا منه يولج. وإلّا كيف نرى الشجاعَ يستولي على المدائن ثمّ نراه يحني رأسه -كثَوْرِ الساقية- لامرأةٍ خرقاء؟

وأخذَ القلم ومحَا «ولو مدّ الله في العمر سنلقاكم» وكتب:

«كيف حالكم؟ وكيف حال البنتَين؟ هل غدتَا تتحدّثان بلا أخطاء؟ وكيف أخي أحمد؟ أيزوركم دَائمًا؟ سأكتب إليه ليرسلكم إلى الطابران حيث أهلكم. لقد شاء الله أنّي سافرت إلى الشام لبعض الأمور، وقد أبقى هنا وقتًا طويلًا.

اكتبوا لي بخبركم وأرسلوا ردّكم إلى تاجر العطور أحمد الحلبيّ، فهو مشهور بدمشق ليوصلها إليّ، والسّلام».

ختم الرسالة، ووضعها تحت فراشه ناويًا إرسالَها غدًا باكرًا.

ثمّ عاد ذهنه إلى التأمّل في ما أقدَم عليه من عودةٍ إلى المنابر، فانتابتْه موجةٌ مفاجئةٌ من الأسئلة: *كيف ستكون عيشتي هنا بعد حديثي اليوم؟* وتخيّلَ التجّارَ محدّقين به، ورُسَلَ أمير دمشق تترى تطلبُه للعشاء والفتيا والسمر. *هل سيتركني النّاس بعد اليوم أخلُو بنفسي؟ كيف سأدّبر أمري وأرعى قلبي بعد اليوم؟*

رفع يديه وفرك بهما وجهَه وأسند رأسَه إلى الجدار مُنصتًا لإنشاد فاطمة البهلولة الآتي من صحن الجامع.

63

بغداد، محرّم، 489 هـ.

انسلّ ميرزَا أثناء حلقة الذّكر وصدغُه ينبض وجبينُه يتعرّق. مشَى مُتظاهرًا بالذهاب إلى الحمّام، ثمّ خرجَ من رباط أبي سعيد. أسلَمَ قدمَيه الكبيرتَين للطريق المزدحم وهو يُحكم طرفَيْ جبّته. تأمّل وجوه النّاس في الطّريق مُستغربًا عيشَهم على هامش الكون. حمّالون يماسُون الحميرَ ويصابحونها، وباعة فواكهَ وخضرواتٍ، وأمّهاتٌ يحبلن ويلدن، ورجالٌ لا همّ لهم إلّا الدّرهم والدّينار. شعر بسُموّ روحه وسط هذا الأنام المُسَحَّر المخدوعِ بالطّعام والشّراب عن الأهداف الكبرى الّتي أَرَّقَت العقولَ البشريّة الضّخمة. تلفّت في الشّارع المكتظّ: *ماذا يفعل هؤلاء في حياتهم؟ لمَ يعيشون ولمِ يسعون ولمِ ينصِبون؟ ما سبب وجودهم؟* هزّ رأسَه متمتمًا: ما هؤلاء إلّا قناة بين المطبخ والكنيف!

سرَتْ قشعريرةُ رضًا في زوايا جسمه وهو يتجاوز سوق النخّاسين. كانت مناظر القصور تُثير الشّجنَ في نفسه. *إلى متى أهل الحقّ مقهورون والعامّة ممّن يسمّون أنفسهم السُّنَّة يتنعّمون! إلى متى يسكن ذلك الغبيُّ اليزيديّ قصرَ الخلافةِ وصاحبُ الحقّ مختفٍ ونائبه محاصرٌ في قلعة آلموت؟*

أغذَّ السّيرَ مُستعيدًا مكانَ الخان، وتخيّلَ صورةَ الرّجل الّذي سيقابل، والمهمّةَ الّتي ستوكل إليه. هبط الشّارعَ الضيّق المؤدّي إلى الخان. كان مكتظًّا لوقوع سوق الفواكه والخضروات على جانبَيْه. اندسّ بين الجموع، وحدّد بصرَه باحثًا عن المدخل. لمح بابًا متوسّطًا كُتِبَ على طرفه «خان الفرات»، فدفعه، فانفتح.

وقعت عيناه على القيّم، كان مُستندًا إلى الجدار نائمًا، فتنحنح:

- حححح... أوه.

رفع القيّمُ رأسَه الصّغير عن الحائط، وفتحَ عينين حمراوين، ودحرج قدمَيه عن الكيس الّذي كان مستندًا إليه:

- أهلًا وسهلًا.

- أنا هنا لزيارة ابن عمٍّ لي مقيمٍ معكم.

- ما اسمه؟

- عبد الرحمن.

- اصعد السلّمَ، ودُقّ الباب السابع.

مشى ميرزا مُتهيّبًا. أمسك طرفَ جبّته، وتفقّد عمامتَه، وصعد. شعر بتعرّقٍ وهو يفكّر في مَن ينتظره. فالرّسالة الّتي سلّمها إليه البريدُ السرّيّ الخاصّ لا تقول شيئًا عدا أنّه سيجد رجلًا في الغرفة ينتظره يوم الخميس بين صلاة الظهر والعصر، وأنّ عليه أن يسأل عن عبد الرحمن، مع كلمة سرية يقولها إذا قابله.

دقّ الباب.

- من؟

- عبد الرحمن!

- عبد الرحمن مَن؟

- دجلة/ بغداد.

- دجلة/ بغداد.

فُتح الباب. وبرَزَ رجلٌ قصيرٌ أسمر ثائرُ الرّأس أدرد. ظهرت المفاجأة على وجه ميرزا. *هل أنا متأكّدٌ أنّي لم أخطئ؟ هل أتراجع؟* ثمّ تداركَ نفسَه، ودخل مُتأمّلًا جوَّ الغرفة المعتم.

- أهلًا وسهلًا.

نطقَها القصيرُ بصوتٍ يتّضح من لكنته أنّ صاحبَه جبليّ، وأشار إلى كرسيٍّ في طرف الغرفة. جلسَ ميرزا حذرًا وعيناه تتأمّلان أثاثَ الغرفة. كانت منكتمةَ الهواء مع رائحة فستقٍ وحليبٍ متعفّن.

جلس القصير:

- يمكنك أن تناديني بُلَنْدْ. كيف حالك؟ وكيف بغداد؟

قال ميرزا وهو يتأمّل وجهه اللّحيمَ وعَينَيْه الصّغيرتين وهامتَه الضّخمة وفمَه الأدرد:

- بغداد جميلة! ومَن لك بمدينةٍ في الدّنيا مثل بغداد.. ثمّ هي دارُ الخليفة أيّدَه الله!

وضحك القصير وهو يفرك يدَيْه:

- إي والله، نسيت! نفعَنَا الله ببركاته!

وبدأ ميرزا يستأنس إلى صورة بُلَنْدْ. فقد صار يجدُ دمامتَه ظرافةً ولطفًا. واقترب بُلَنْدْ بكرسيّه حتّى كان فمُه الأدرد يسامتُ أذنَ ميرزا:

- جئت لأبلغك أمورًا.

ثمّ مالَ إلى الخلف، وأحدَّ ميرزا سمعَه حتّى كأنّ نفَسَه انحبس. قرّب بُلَنْدْ فمَه من أذنه:

- يسلّم عليك صاحبُ الحقّ باسمكَ ويدعو لك ويباركك. وقد كلّفك بالتوجّه إلى دمشق لمعرفةِ مَا ذهب إليه الفقيه الغزاليّ صاحبُ النظاميّة. فالرّجل ترك بغدادَ وقصرَ الخلافةِ وهو المكينُ فيه كما تعلم. إنّه -ولا شكّ- خرج من دنياه لأمرٍ جَلَل. و«هو» قد علمَ أنّ الغزاليّ في دمشق ولم يسافر للحجّ، وإنّما عمَّى بقصّة الحجّ عن مآرب أخرى.

رفع ميرزا وجهَه في الحجرة المعتمة، وتراءتْ له عيدان السّقف القويّة المستطيلة، فشعر بنبضاتِ قلبه تتسارع. وكحّ كحّةً خفيفةً، فتوقّف بُلَندْ عن الحديث. تدارك ميرزا نفسَه مُفكّرًا في أنّ بُلَندْ قد يأخذ عنه انطباعًا سلبيًّا ينقله إلى الشيخ، فقال:

- إيه!

ومالَ بُلَندْ إلى الوراء، وأجالَ عَينَيه في الغرفة:

- تكون قريبًا منه... حتّى ترى ما يفعل، وتنتظر حتّى يأتيك الأمر منه[1].

ثمّ وقفَ دفعةً واحدة:

- لم يختر لها غيرك!

وجالَ قليلًا في الغرفة المُعتِمة، ومدّ يدَه، وتشاغل بنَفْضِ رداءٍ كان مرميًّا على حافّة السّرير:

هل ثَمَّ ما تُوصي به أو تودّ أن يوصَل إليه؟

- لا، كلّ ما عندي كتبته أمس للبريد.

- أستودعك الله إذن!

ومدّ يدَه ليصافحَه، فتفاجَأ ميرزا من خُشونتها وكثافة شعرها.

فأيقظه بُلَندْ هامسًا:

- استعن بهذا!

ومدّ إليه صرّةً محشوّةً بالدنانير، فدسّها في جيبه.

تقدّم بُلَندْ إلى الباب وفتَحه. ونزل ميرزا السلّمَ المعتمَ متهيّبًا، ثمّ برز للفناء الواسع. ومشى حتّى بلَغَ حُجرةَ القيّم، فوجده نائمًا مُستندًا إلى

---

(1) الإشارة عند الإسماعيليّة إلى الصبّاح تكون بالضمير فحسب.

الجدار، ففتح الباب وخرج إلى الشّارع الضاجّ بالحياة. فشعر شعورَ من هبط من السّماء فجأةً إلى حمأة الطين، وانتابَه شعورُ من ترك منادمة النجوم ليجالس الزبّالين. وتحرّك بين الأجساد وأذناه محشوّتَان بالصراخ على الفواكه:

- تين تين!

- شمام يذوب في حلقك!

- موز عسليّ!

شعر بنفسه في موكبٍ من مواكب الملكوت، يحاولُ إعادةَ العدالة إلى الأرض، مستعيدًا الصورةَ العظيمة الّتي وصل بها إليه البريدُ قبل أيّام. لقد أصبح الشّيخ حسن الصبّاح يبسط سلطانَه على كلّ المناطق المحاذية لقلعة آلموت. وتوقّفَ السلاجقةُ عن محاولة غَزوه منذ وفاة ملكشاه ونِظام المُلْك. ولن يمرّ وقتٌ طويلٌ حتّى يجهّز جيشًا ويدخل بغداد. وتخيّل نفسَه جالِسًا في بغداد وجيوشُ القائم بالحقّ تدخل هذه المدينة اليزيديّة الفاسقة.

أيّ ثأرٍ سيُدرك؟ وأيّ حريمٍ سيُستباح؟ وأيّ قلبٍ سيُشفى؟ وأيّ نارٍ تتأجّج في الصّدور ستنطفئ!

كانت قدماه تتقاذفان بسرعةٍ ما تموَّجَ في ذهنه من أفكار. ثمّ صرفَ كلَّ ذلك عن ذهنه، وأخذ يفكّر في عذرٍ لِسَفَرِه يقدّمه لأهل رباط أبي سعيد. *وكيف سيسافر إلى دمشق ومتى؟ وكيف سيقابل الغزاليّ؟ وهل الغزاليّ قطعًا هناك؟*

ثمّ تذكّر أنّه ليس وحدَه. فالشّيخ يعرف كلَّ ما يدور في دمشق وفي غيرها، وسيلتقي بالرفاق في أيّ أرضٍ ينزلها ليخدمُوه ويسهّلُوا أمره. وتذكّر تلك العبارة الّتي سمعها من الإسماعليّين في بداية الطّريق: «هذه قبيلةٌ في

كلّ أرجاء الدّنيا تعوّضك عن قبيلتك، وإخوةٌ في كلّ الدّنيا يعوّضونك عن إخوتك، وبيوتٌ في كلّ أنحاء الدّنيا تعوّضك عن بيتك، وأبٌ يحكم الدّنيا أقرب إليك من أبيك».

وصلَ إلى ساحةٍ واسعة، فلمح النّاسَ مجتمعين، فاقترب. لاحَ له قرَّادٌ وسطَ الجمع يلعب بقرده. كان خفيفَ الأطراف لطيفَ الحركة، يداعب قردًا متوسّط الحجم على رأسه لُفافةٌ مزركشةٌ ظريفة. وكانت وجوه النظّارة مشرئبّةً تتأمّل ألاعيبه. نظر ميرزا إلى الجَمْع، فلمحَ شيوخًا وحسناواتٍ وأطفالًا. وتذكّر المهمّة الّتي أُسندت إليه، وعلاقتَه المباشرة بالشّيخ، ومحاولاتِه هدمَ الدول وإقامة الممالك. فقارنَ بين كلّ ذلك وهذا القرّاد، وهؤلاء الغوغاء المتحلّقين حوله.

وتظاهرَ بالدّخول وسط الجمع، وتأمُّلِ القرد، ثمّ خرج من طرف التجمّع، وأسلَم قدمَيه الكبيرين للشارع وقد تجدّد العزم في كلّ ذرّةٍ من ذرّات بَدَنِه على مواصلة الطّريق.

64

دمشق، 489 هـ.

لم يكن يسمع إلّا أنفاسَه اللّاهثة ووقعَ قدميْه على الأرض مُختلطًا بصياح الديَكَة وأذان الفجر الآتي من أطراف المدينة. الشّوارعُ معتمةٌ وخاليةٌ إلّا من قطٍّ شارد أو عابدٍ مُهَينِمٍ بالذّكر في طريقه إلى المسجد. وصلَ إلى باب المدينة، فوجده مغلقًا. ردّدَ بصرَه في الباب الضّخم المغلق والجدرانِ العالية مُفكّرًا في ما عليه فعله. ثمّ رجّع بصره في أطراف الأسوار العالية السمكية الكالحة المتراصّة. *هل أذهبُ إلى مسجدٍ قريبٍ وأمكث فيه حتّى يفتح الباب وقت الإشراق؟* وسمع خشخشة:

- تعالَ يا فقير! ماذا تريد؟

التفت، فرأى الحارسَ ينفضُ فراش نومه.

- أريد الخروج الساعةَ، سلّمَك الله!

- لِمَ العجلة؟

- لي حاجة وعليَّ الذهاب إليها الآن.

تلفّتَ الحارسُ وهو يطوي فراشَه، وقال بصوتٍ خفيضٍ ما زالت فيه بقيّةُ نوم:

- أعطني درهمًا أتركْكَ تخرج الساعة.

أدبر صامتًا مخاطبًا نفسه: *بئس عبدُ السَّوْء أنا إن بدأتُ رحلتي برشوة.*

وجاءه صوت الحارس:

- تعال، تعال أفتحْ لك!

وانفتح البابُ مخلّفًا صريرًا تردّد صداه حُبورًا في قلب الغزاليّ. وجد نفسه خارجَ السور ورياحُ الصباح الرّبيعيّةُ تداعب وجنتَيْه. مشى قليلًا، ووجد مسجدًا صغيرًا، فدخَلَه وصلّى الفجر، ثمّ انطلقَ دون إكمالِ أذكاره وأوراده. ولم تمضِ ساعةٌ حتّى كان في القَفر وحيدًا يسير على طريق القُدس.

كان في مرقّعته، جرابُه على ظهره وعصاه بيده. يتأمّل الأشجارَ المتناثرة على الطّريق، والأوديةَ الساكنة الساجية، والطيورَ المتقلّبة في الهواء فيشعر بالاتّحاد معها والأنس بها والتوقِ إلى احتضانها. هؤلاء هم *الصَّحْبُ الّذين لا يضيّقون نفسَك، ولا يَكْذِبونك ولا يراؤونك ولا يجادلونك ولا يشتمونك ولا يرفعونك عن قدرك. لمَ نرتاح في الفيافي والخلوات والأمكنة الخربة؟ أذلك لكوننا نقترب فيها من فطرتنا ومن أنفسنا؟ كأنّ كلَّ شيءٍ من صنعة الآدميّ يَشْغَبُ على القلب ويكدّر صفاءَه، وكلَّ شاخصٍ من صناعة الله تَذكارٌ وجلاءٌ لصدإ الفؤاد وأدران الأرواح. أَلَمْ يكن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أكثَرَ النّاس حبًّا للخلوات والأشجار والحيوانات*؟ لقد كان يفتح ملابسَه أثناء المطر ويتعرّض للرذاذ حتّى يداعب جسدَه الطاهر، ويقول: *هذا قريبُ عهدٍ من الله! والصّلاةُ الّتي هي أقدسُ أفعال المؤمن لا تصحّ إلّا بعد الاتّصال بالماء. وإن تعذّر لا بدّ من ملامسة التراب.*

مرّت ساعاتٌ دون أن يرى أحدًا وهو يسير منتشيًا ذاكرًا. *ليت شعري ماذا حلَّ بدار الخلافة ودار السّلطنة السلجوقيّة؟ أَمَا زَالَ الخليفة المستظهر بالله في قصره ببغداد أسير شهواته؟ أَمَا زال بركياروق وإخوته يتصارعون على السّلطنة بعد وفاة أبيهم؟*

ولاحظ الفرقَ الهائل بين نظرته الآن إلى هؤلاء القادة ونظرته إليهم من قبل. فهو يراهم الآن بعين الشّفقة والرحمة ولا يساوون عنده إلّا ما

يساويه راعٍ منفردٌ في العراء. *سبحان مقلّب القلوب! كيف كان قلبي يخفق إذا دعوني، وكيف كنت أراقب عيونهم فأتألّم إذا عَبسوا وأفرح إذا ابتسموا!*

ولمحَ سوادًا يقترب من بعيد، فلمّا توضّح وجدهم فرسانًا يحرسون قافلةً كبيرةً، فانزوى عن الطّريق كي لا يروه، وتوغّل داخلَ غيضةٍ معشوشبةٍ، وكمن ينتظر.

رآهم من خِلل الأشجار يعبرون.. أطفالًا ونساءً ورجالًا، وجِمالًا وأفراسًا وبغالًا... *متاع الدّنيا*. خُيّل إليه أنّهم آتون من عالمٍ بعيد... *أَمَا زَالَ في الدّنيا من يسافر لطلب الرزق؟ ومَن يحّمل أطفالَه وامرأتَه مؤونَةَ البُعد لنيل جاهٍ أو مال؟* لعبت تلك الخواطر بذهنه حتّى ابتعدت القافلة، ثمّ سرّحَ نظرَه مع الطّريق المتعرّج بين الأشجار والنباتات، وهبطَ رُويدًا رُويدًا إلى بطن وادٍ تحفّه الأشجار. ولفحتْ وجهه نسماتٌ نديّةٌ آتيةٌ من عمق الوادي، نسماتٌ محمّلةٌ برائحة الماء وعبَقِ الأزهار البرّيّة. فرقص قلبُه سعادةً وغبطةً وهو يستعيد حياتَه في النظاميّة يماسي قصرَ الخلافة ويصابحه. *ألا ما أتعسها من حياة؟ كيفَ صبرتُ عليها؟ وأيّ لذّةٍ كنتُ أجد فيها؟*

ثمّ لاحتْ قافلةٌ صغيرةٌ فيها أربعةُ بغالٍ وفرس. فأفسح لها الطّريق، وأمسك حافّة الجادّة، فتجاوزوه، ثمّ وقفوا ينظرون إليه. لاحظ سكونَ حوافر البغال، فتلفّتَ إليهم، فوجد الأعين تفترسه. ثمّ صرخ أحدهم:

- دانشمند!

تجمّد حيران، ينظر إلى البغال الواقفة والرّجال النّاظرين. وقفز شابٌّ أبيض متلفّتًا إلى الرّجل الراكب على الفرس مُتسائلًا:

- أهو هو؟

وهزّ الرّجلُ رأسَه، وركض الفتى إلى الغزاليّ:

- دانشمند؟ حجّة الإسلام!

ردّدَ نظراته في الشابّ فلم يعرفه، والتَفَتَ إلى الرجال الّذين نزلوا تباعًا عن بغالهم. لاحظ أنّ الراكب على الفرس كان قد درس عنده قبل سنوات في النظاميّة. قال الشابّ الأبيض الصّغير:

- دانشنمد! أنا أبو بكر بن العربيّ... وهذا والدي الوزير! نحن من أهل الأندلس.. و..

وسكت الفتى متلفّتًا. وبقي الصّوت المسموع صوتَ طيورٍ على ضفاف بركة ماءٍ قريبة. تأمّل ابن العربي الغزاليَّ ناظرًا إلى الركوة الّتي على ظهره:

- يا إمام! كيف تعتزل النّاس وتلبس هذه المرقّعة وأنت الّذي لا يستغني النّاس عن علمه؟ أليس تدريسُ العلم ببغداد خيرًا من هذا؟

أدار الغزاليّ عَينَيْه بين الفتى ذي الخدّ المتورّد، ووالده ذي الملابس الفاخرة. ثمّ رفعَ بصره إلى الشّمس المتسلّلة من وراء الأشجار:

- لّما طلع بدرُ السّعادة، في فلك الإرادة، وجنحتْ شمسُ الوصول في مغارب الأصول:

تركتُ هوى ليلى وسُعدى بمَعزِلي	وعدتُ إلى تصحيح أوّل منزلِ
ونادتْ بيَ الأشواق: مهلًا! فهذه	منازلُ مَن تهوى، رويدَك فانزلِ
غزلتُ لهم غَزْلًا دقيقًا فلم أجدْ	لغَزْليَ نسّاجًا.. فكسّرتُ مِغزلي!

وابتعد مقطّبًا ينفض طرفَ ثوبه. فرفع الشابّ صوتَه: يا إمام! يا إمام! فلم يلتفت إليه. وأشار رفيق ابن العربيّ إليه بالصّمت. ووقفوا ينظرون إليه حتّى توارى.

ارتفع النهار، وأخذ منه التعب كلَّ مأخذ. فطفِقَ يبحث عن مكانٍ يأوي إليه. وعند منقطع الوادي لمحَ شجرةً ضخمةً، فمالَ إليها. وجد تحتها آثار النازلين: أثافيّ وبقايا فحم، ومنثورَ طعام. رأى على جذعها خطوطًا كثيرة، فأخذ يقرأ: «أنا أحمد الدرعيّ مررتُ من هنا». وتحته مكتوب:

«أنا زهير بن يحيى أشهد أن لا إله إلّا الله!». أمرَّ أصابعَه عليها برفقٍ كأنّه يواسيها. *أين مَن كتب هذا الآن؟ أهم أحياء أم أموات؟ أفي الجنّة أم في النار؟*

وضع جرابَه عن عاتقه، وكنسَ الأرضَ، ثمّ فرشَ جبّته، وجلسَ مُسنِدًا ظهرَه إلى الجذع، مُولِيًا وجهه إلى الوادي. نظر إلى تربة الوادي البيضاء، والروابي المحيطة، والصخور الجاثية الخاشعة. أنصتَ للصمت ملتذًّا بذكر الله. مرّت ساعةٌ وهو يذكر الله حتّى بدأ لسانه يتعثّر في حلقه تعبًا. سكتَ، وراحَ ينصتُ لحفيف الأشجار وحركة الرّياح بين الفجاج، وتقافُزِ الحمام بين رؤوس الشّجر.

وسمع نأْمةً من بعيد. *أهذا ذئب؟ أم سبعٌ أم إنسيّ؟* وسمعها أكثر وضوحًا، فاطمأنّ إلى أنّه صوتُ حيوانٍ لا صوت إنسان. فتبسم مُتذكّرًا أبياتًا لأحد لصوص العرب:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذْ عوى

وصـــوَّتَ إنـــسانٌ فـكِــدْتُ أطـيرُ!

مطّطَ كلمة «أطير» مُفكّرًا في أنّ ذلك الأعرابيَّ كان يخشى النّاسَ لأنّه سرقَ إبلَهم، فخاف أن يدركوه. أمّا هو فسرق حقوقَهم، وأعمل لسانَه في أعراضهم أكثرَ من عشرين سنةً ويخشى أن يتعلّقوا بتلابيبه يومَ القيامة. قطع السكونَ تغريدُ حمامةٍ أعلى الشّجرة. لمحَ الشّمس تدبّ مقتربةً من كبد السّماء، فتأكّد أنّ وقت صلاة الظهر اقترب.

أخذَ الركوةَ، وصبَّ منها في الطست، وطَفِقَ يتوضّأ. *متى سأصل إلى بيت المقدس؟* وذهب ذهنه مُفكّرًا في كثرة الباطنيّة والشّيعة هناك، وكيف سيتمكّن من إخفاء نفسِه عنهم وهم الّذين يرصدون كلَّ شيء. وقفَ مستغفرًا طاردًا الأفكارَ من رأسه، ودخل في الصّلاة.

65

الطّريق بين دمشق والقدس، 489هـ.

كفَّ عن الذّكر، مُتأمّلًا خيوطَ الشّمس المتلألئة من وراء الأغصان. أحدَّ سمعَه، فامتلأ بدبيب الحشرات وأغاريد الطيور وخشخشة الحشائش وحفحفة الأغصان. كانت الغيضةُ ملتفّةً موحشةً باردةً رغم الصيف. رفع يدَه، ومسح بها دمعه الّذي لا يكفّ عن الانهمار منذ البارحة. *ما هذا الجمال الأخّاذ والجلال البهيّ؟ كيف يمضي المرء سادرًا محاطًا بالجمال وعينُه لا ترى إلّا الكُنُف والقاذورات؟!*

كان يحسّ بأبواب السّماء تتَفَتَّحُ، وبكلِّ ذرّةٍ من جسده ترتعد مسبّحةً باسم الله، مقدِّسَةً له، متأمّلةً حنانه وجبروتَه. يتجوّل قلبه في الملإ الأعلى، وتتقشّر فروةُ رأسه من الصور المتلاحقة وهي تدخل ذهنَه آتيةً حيّةً نابضةً من عوالم الغيوب ودوائر الملكوت.

تعوّد لسانُه منذ حينٍ ألّا يستقرّ بين فكَّيه. فإمّا أن يقرأ قرآنًا وإمّا أن يذكر الله. صلّى الضّحى، ثمّ لمح حمامةً ترفرف فوق الشّجرة الّتي يجلس تحتَها، فأتبعها بصرَه وهي تتنقّل بين الأغصان. كانت رماديّةً ذات طوقٍ كحليٍّ ملتفٍّ حول عنقها. وصلت إلى الغصن، ثمّ توغّلت حتّى بلغت عشَّها. وقفت أمام العشّ، فتحرّك رأسٌ صغيرٌ كان متواريًا هناك. رفعَ الفرخ رأسَه الصّغير الأحمر العاري من الريش، وبانتْ حوصلتُه الرقيقة. ثمّ فغرَ فاهُ، ففتحتْ فاهَا وألقمتْه الطّعام.

أجهش بكاءً:

- لا إله إلّا الله! سبحان من علّم الطير كيف تدبّر أبناءها.. سبحان من رزق الفرخَ الضّعيف الّذي جاء إلى هذا العالم وليس عنده من راعٍ إلّا حمامةٌ واحدة. أرضٌ واسعةٌ لا تتذكّره فيها إلّا حمامةٌ واحدةٌ لكنّها تكفيه. وجدَ نفسه يكرّر الحديث: «لو توكّلتم على الله حقَّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطّير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا».

وقع على ركبتَيْه، فعاودتْه صورٌ مرهقةٌ سكنتْ خيالَه منذ البارحة. عاد يسمع سلامَ الملائكة وكلامَها، ويحسّ دبيبًا مُمتعًا مُرهِقًا بين جوانحه وفي كلّ كيانه.

نظرَ إلى جرابه، فتخيّله ضخمًا كبيرًا. *كيف أحمل معي هذا؟ أهذا جرابُ هاربٍ إلى الله أم جرابُ جوّالٍ يبيع ويشتري في البراري؟* وخطر له أن يترك كلَّ ذلك ويكِل أمرَه إلى الله إن شاء أطعمَه وإن شاء تركه. ففتح الجراب وأخرج الخبز الذي فيه، وفتّه لتأكله الطير، ثمّ دسّه في ركنٍ من أركان الشّجرة، ولم يأخذ إلّا طست الوضوء والسواك والمكحلة. *أليس هذا الفعل مخالفًا للفقه؟ لكنّي أخشى أن يكون التعلّق بالفقه أيضًا حبلًا من حبائل الشّيطان. لا بدّ أن أجرّب وأرى قلبي.*

دسّ قدمَيْه في نَعلَيْه، ومشَى صاعدًا مع الغيضة باحثًا عن الطّريق. تذكّر أنّه لم يكلّم إنسانًا منذ أسبوع. لكنّه كان أسبوعًا مليئًا بتوفيق الله ورحماته. صلّى مئات الركعات وختم القرآن مرّات، وفُتح له من الأبواب السماويّة ما لم يفتح له طيلةَ الأعوام الماضية. *سأمشي مع هذه الطّريق إلى القدس، ولن أسأل أحدًا شيئًا. فإن جاء الطّعام دون طلبٍ أكلته، وإلّا صبرت.*

لاحَ له فضاءٌ مفتوحٌ ثمّ دخل غيضةً بعد ذلك. *أين الطّريق؟* لم يعلم أنّه ابتعد عن الطّريق كلَّ هذا البعد. مشَى في سهلٍ خالٍ من الأشجار تغطّيه الحشائشُ القصيرة والشّجيرات المتناثرة. *هل ضعتُ عن الطّريق؟* وأفاقَ مؤنّبًا

نفسه: كيف يضيع من يسير إلى الله؟ وهل أنا في طريقي إلى مالٍ أو ولدٍ حتّى أضيع؟ أنا عبد الله أبتغي مرضاته، هاربٌ من ذنوبي.. فحيثما حلّت ركائبي فهو لي وطن. ثمّ إنّ المسلمَ لا يضيع، فكُلُّ بقعةٍ وطنٌ من أوطانه، وكلّ قطعةٍ من الأرض تسبّح لله وطنٌ له. إنّ المسلم لا يغترب في أيّ أرضٍ بها ملكُ الله.

واصلَ سيرَه ورياحُ الصباح الباردة تداعبُ وجهَه، ورائحةُ الأزهار البرّيّة تملأ أنفه، وأصواتُ الطيور تملأ أُذُنَيْه. وصلَ إلى الطّريق وهو يتخيّل القدسَ مُفكّرًا في الطوائف الّتي تموج بها والفرق الكثيرة فيها. تذكّر ما كان يحكيه طلّابه عنها. تذكّر ذلك الطالبَ الحلبيّ الّذي كان يروي له قصصًا عن تجمّع اليهود والنّصارى والمسلمين في صحن المسجد للنقاش والجدل كلّ يوم.

كيف أسلَمُ من كلّ ذلك؟ لن أجادلَ أحدًا. وكيف أسكن قريبًا من المسجد للصلاة فيه ونَيْلِ أجرِ الاعتكاف دون أن أُعرَف أو أجادِل؟ وسكنتْ ثائرتُه وهو يفكّر في أنّ كلّ ذلك يقع بتوفيقٍ من الله وتيسير. رفع بصرَه مع الطّريق الطّويل، فلمحَ آثارَ قافلةٍ مرّت من قريب. فآثار البغال والإبل ما زالت بادية. لفّ طيلسانَه، وأسرعَ لاهثًا.

قبيل الغروب بقليلٍ كان يسير بمحاذاة جبل. كانت قدمَاه تكادان تنفلقان ألمًا، وحلقُه يتشقّق عطشًا، وبطنه يحترق خواء. لقد اقترب موعدُ الإفطار ولا إفطار عندَه. وأنّبَ نفسَه على ذلك الخاطر. *إذا كنتَ لا تتّكل على ربّك فلمَ لم تحمل معك عَلَفَك!* وعادت إليه نفسُه وهو يسير ببطءٍ وإرهاق. وبعد وقتٍ خُيّلَ إليه أنّه سمع صوتًا، فوقَفَ وأنصت. لا شكّ في أنّها أصواتٌ آدميّة. حادَ عن الطّريق، فلمح هامةَ رجلٍ واقفٍ في مدخل مغارةٍ عند طرف جبل.

انحرفَ عن الطّريق سائرًا جهةَ المغارة. فلمحَ في فَمِها رهبانًا متحلّقين

جالسين. اقتربَ منهم متردّدًا. كان يمشي خطواتٍ مُسرعًا وأخرى مُتثاقِلًا. وقد أخذَ منه العطشُ كلّ مأخذ. وكانت الشّمس جانحةً إلى الغروب.

رفع الراهبُ العجوز يدَه، ووضعَها على جبهته، وأحدَّ النظر إلى الخيال القادم، فجاءه صوته:

- السلام عليكم:

- وعليكم السّلام أيّها الغريب!

اقترب متهيّبًا. واقترب الراهب مرحّبًا:

- تفضّل، أهلًا بكم.

لاحظ الراهب ملابسَ الغزاليّ، فعرف أنّه صوفيٌّ سائح، وهو أمرٌ تعوّدَ عليه. فكثيرًا ما يستقبل المتصوّفةَ المسافرين، ثمّ إنّ المتصوّفة في جبال الشّام كلّها يضيفون الرهبانَ المسافرين.

اقترب وهو لا يكاد يقدّم رجلَه من الإرهاق، فأشار الراهب إلى مكانٍ في المغارة حيث فراشٌ أنيقٌ منضود. وانحنى في ملابسه البيضاء الواسعة مُتسائلًا:

- أنت صائم؟

فحرّك لسانه الّذي تحوّل إلى قطعة خشب:

- نعم!

قالها مُلاحظًا وجودَ خمسةِ رهبانٍ في أطراف المغارة صامتين. رفع الراهب وجهه ناظرًا إلى الأفق، ويدُه على جبهته، وقال بصوتٍ فيه أنوثة:

- أظنّ الشّمس غربتْ.

مدَّ الغزاليّ يدَه مُشيرًا إليه أن ينتظر قليلًا، بينما كانت عيونُ أربعةٍ من الرهبان الخمسة المتفرّقين في المغارة تتأمّله. أمّا الخامس فكان عجوزًا طاعنًا غارقًا في قراءة مجلّد عتيق. تحرّك الفضول المعرفيّ لدى الغزاليّ ليعرف

الكتاب، لكنّه عاد معاتبًا نفسه. كان ضيّق النفس منخذلَ الروح حيران. *هل تركتُ أمتعتي لأكون ضيفًا على النّصارى وأفطرَ على طعامهم الّذي لا أعرف من أين أتى؟ أهذا التوكّل أم الفقه؟*

وهدّأ نفسَه بأنّ الفقه الآن أن يحميَ نفسَه من التلف، ثمّ يحاسبها بعدُ. واستند إلى طرف المغارة مُتأمّلًا حلولَ الظّلام: *هل أطلب منه أن يأتيني بشربة ماء؟ بل عليَّ الصبر والوفاء بألّا أطلب*. وعضّ شفتَه منتظرًا، وظهر الرّاهبُ قادمًا وبيده لَبَنٌ وماء.

- أيّها الغريب، أتريد ماءً أم لبنًا؟

وخطر له أنّ اللبن هو الّذي سيردّ إليه رمقَه، فهمّ بأن يطلبه، لكنّه تذكّر أنّ عليه عقاب نفسه:

- الماء يكفيني.

أحسّ بالماء الرقراق ينساب في زوايا جسده. ووضعَ الإناء، ومسح فمَه بظهر يده، وتلفّتَ في المغارة. مغارةٌ مظلمة، ورهبانٌ عاكفون، ومنحدرُ جبل، ورؤوسُ أشجارٍ تتحرّك بعيد الغروب. *إنّ تصريفات الله وأقدارَه لا تمكن معرفتها بحال*. وأفاق على صوت الرّاهب الحادّ الأنثويّ:

- إلى أين أيّها الغريب؟

- في طريقي إلى القدس.. فهل هي قريبة؟

- نعم، لقد وصلتَ أيّها الغريب! إذا مشيتَ ساعةً فستدخلُها.

- الحمد لله!

وابتعد قليلًا عن باب المغارة، ووقف ليصلّي المغرب. وما كاد يدخل في الصّلاة حتّى اقترب الراهب حاملًا لحافًا ووضعَه أمامه ليصلّي عليه. كان الغزاليّ قد دخل في الصّلاة، ففكّر أيُصلّي على اللحاف أم إنّه لا يضمن

طهارتَه؟ *فالرهبان لا يعرفون أحكامَ الطهارة وصلاتُهم غير صلاتنا*. فتجنّبه وانحرفَ عنه قليلًا وصلّى على التراب.

أكمل صلاته، وأخذ اللحاف، واقترب، وعاد إلى الجلوس مكانَه. لاحظ أنّ الرّاهب الّذي كان يقرأ الكتاب قد اقتربَ حتّى جلس قربه. تأمّله الغزاليّ، ونظر إلى شيبهِ الأبيض ولحيتِه الطّويلة وملابسه الحمراء. ورفعَ الرّاهب وجهه:

- أيّها السالك، بمَ ستفيدنا هذه اللّيلة؟ أراك سالكًا متبتّلًا.

- أين السالك والسلوك؟ ما أنا إلّا هارب من ذنوبه. أفرّ من مدينةٍ إلى مدينة، ومن قُلّةٍ إلى قلّة، ومن بلدٍ إلى بلد، ومن برٍّ إلى بحر، ومن بحرٍ إلى برّ، حتّى أسلمَ، وأنّى لي السّلامة؟

وسكت مُتأمّلًا الراهبَ الذي وقع عليه الكلام وقعًا قويًّا، فرفعَ يدَه وغطّى بها وجهه.

وسكتا، واقترب راهبٌ يحمل طعامًا: لحمًا مطبوخًا وخبزًا طريًّا، ووضعه بين الغزاليّ والراهب العجوز وقال:

- تفضّلا!

كان فم الغزاليّ يتحلّب ماءً قَرَمًا إلى اللّحم. لكنّه قرّر ألّا يذوقه تربيةً لنفسه على مخالفة الهوى والتقليلِ من الطّعام. فقال العجوز:

- ألا تأكل؟

فالتفت الغزاليّ إلى الوادي الّذي التحفَ الظّلام، محاولًا مكافحة الريق الكثير في شدقَيْه:

- لا أريده! كُلوا أنتم على اسم الله!

ورُفع الطّعام، فتربّعَ العجوز ذو اللّحية الطّويلة والثوبِ الأحمر الواسع. فتحَ فاهُ ليتحدّث، فبدأ يكحّ. ثمّ سكت قليلًا وقال، وبقايا الكحّةِ ما زالت في صوته:

- كم مرّ عليك من الوقت وأنت منعزلٌ أيّها الشّيخ؟

شعر بالحرج من الإجابة على السّؤال. هؤلاء *الرهبان ينعزلون عشرات السنين، فكيف أخبرهم بعزلتي العابرة*. تنحنح وتربّع، فتأمّله العجوز، فلاحظَ العينَين العميقتَين المترعتَين نقاءً وقوّةً وبريقًا رغم الإرهاق:

- ما أنا بمنعزل، فأنا رجلٌ أوْقرتْه ذنوبُه. لم أعتزل بعدُ، إنّما أحاول الأمر.

رفعَ العجوز يدَه ومسح بها لحيته، والتَفَتَ، فوجد بقيّة الرهبان منصتين:

- أنا أعلم أنّ العزلة ليست من أصل دينكم، لكنْ يندر أن يمرّ أسبوعٌ ولا أرى رجالًا منعزلين في هذه الجبال يعبدون الله. فلمَ العزلة؟ وكيف تسوّغونها في دينكم؟

اعتدلَ الغزاليّ، ورجعت له نفسه حين أُبعد الطّعام. فقال بلغةٍ فصيحةٍ ومخارج واضحة، وهمْ يتأمّلونه تحت ضوء المصباح المركوز في طرف المغارة:

- إنّ من لقيَ الخلقَ ولم يخالقْهم بأخلاقهم مَقَتُوه واستثقلُوه واغتابُوه وشمّروا لإيذائه؛ فيذهب دينُهم فيه ويذهب دينُه ودنياه في الانتقام منهم.

وسكت مُبتسِمًا، فرأى وجوهَ الرهبان ترمقه مُستزيدة، وامتلأ أنفُه برائحة بخورٍ عبقٍ آتيةٍ من جهة المصباح.

- ومُسارقَة الطبع مُشاهَدٌ من أخلاق النّاس وأعمالِهم، فهو داءٌ دفينٌ قلّما يتنبّه إليه العقلاء. فالفسادُ يصير هيّنًا على الطَّبع بكثرة المشاهدة. وإنّما الوازع عن الفساد شدّةُ وقعه في القلب فإذا صارَ مسْتصغَرًا بطول المشاهدة أوشك أن تنحلَّ القوةُ الوازعة ويُذعِنَ الطبعُ للميل إليه أو إلى ما دونه.

وسكتَ دون أن ينظر إلى وقع كلامه على جلسائه، وصرفَ بصرَه إلى الوادي، وإلى الظّلام المتكاثف أسفلَ الجبل، فلمح أصغر الرهبان منشغلًا يشبّ النار. وتصاعدتْ ألسنةُ اللّهب أمام المغارة. وظهرَ ظلُّ الرّاهب على طرف الكهف مقبلًا كأنّه كائنٌ غريبٌ هبط الساعةَ من عالمٍ بعيد. فانشغل ذهن الغزاليّ بسؤال العذاب الأخرويّ لهؤلاء. *هل سيدخل هؤلاء الرهبان المجتهدون المنقطعون عن الدّنيا النار؟ أم هم معذُورُون بالطّريق الّذي سلكوه؟ كيف يدخلون النار وهم ما فرّوا إلى هذه الجبال إلا خوفًا منها؟ لا يؤذون أحدًا، متفرّغين للعبادة والتعلّم.*

وقطع عليه صوتُ العجوز ذي اللّحية الطّويلة تأمّلاتِه:

- العزلةُ هي ما عليه الأمر عندنَا. فما هجَرْنا المدنَ الفاتنة والشّوارع الجميلة والأهلَ إلّا فرارًا بِدِيننا. وماذا عن السياحة في الأرض؟ أهي في دينكم؟

- إنّ القرآن كثيرُ الأمرِ بالسّير في الأرض من أجل الاعتبار. «قل سيروا في الأرض»، «أفلم يسيروا في الأرض»، «قل انظروا ماذا في السماوات والأرض»، إلى آخر الآيات. إنّ ديننا يُشبه طبيعةَ الإنسان. وهذا ما يُشكل عليكم. فأنتم تريدون دينًا كدينكُم ليس فيه إلّا التعبّد والتشبّه بالملائكة. أمّا دينُنا فيُشبه الإنسانَ المصوغَ من قلبٍ وعقل. فروحُ الآدميّ من نفخة الله، لكنّه يعيش في الدّنيا وهكذا..

وصمت الراهب العجوز؛ فهبّتْ رياحٌ أسفل الجبل. وتطاير اللّهب، وطار طائرٌ كان قابعًا على طرف المغارة، ووصلت أسماعَهم ضحكاتُ قافلةٍ عابرة. فعادَ سؤال مصيرِ الرهبان في الآخرة يلحّ على الغزالي. وتفاجأ بالراهب العجوز كأنّه يقرأ أفكاره:

- أيّها الدّرويش! أترى أنّنا حطَبُ النّار؟

وتسلّلت يدُ الغزاليّ إلى جبهته، فلمس شجّتَه مُتسائلًا: *هل يفهم هذا ما ينقدح في ذهن مجالسه كما يقع لي ولمشايخي؟* وقال بصوتٍ فيه نبرة المفاجأة:

- أنا أرى أنّ الرحمة تشمل كثيرًا من الأمم السالفة الّتي لم تصلها رسالةُ الرسل، وإن كان أكثرهم يُعرضون على النار إمّا عرضةً خفيفة، حتّى في لحظة، أو في ساعة، وإمّا في مدّة، حتّى يطلق عليهم اسم «بعث النار» مصداقًا لكلام نبّينَا. وأرى أنّ أكثر نصارى الرّوم والترك في هذا الزّمان تشملهم الرحمةُ إن شاء الله تعالى.

ولمحَ عينَي الراهب تتّسع تحت الضّوء الخافت، فتدارك:

- أعني النّصارى الّذين يعيشون في أقاصي أرض الرّوم والترك، ولم تبلغهم دعوةُ الإسلام.

وتراجع العجوز إلى الخلف، ومدّ بقيّة الرهبان رؤوسَهم تطلّعًا إلى الحديث:

- فالنّصارى عندي ثلاثةُ أصناف: صنف لم يبلغهم اسمُ محمّد صلّى الله عليه وسلّم أصلًا، فهم معذورون. وصنف بلغهم اسمُه ونعتُه، وما ظهر عليه من المعجزات، وهم المجاورون لبلاد الإسلام، والمخالطون لنَا، وهم كفّارٌ ملحدون!

ودوّتْ زفرةٌ من أحد الرهبان، فالتفت إليه العجوزُ بعينَي ذئبٍ تبرقان تحت ضوء المصباح، فسكت.

- وصنف ثالث بين الدرجتين، بلغهم اسمُ محمّد صلى الله عليه وسلم، ولم يبلغهم نعتُه وصفتُه كما هُمَا. بل سمعوا منذ الصبا أنّ كذّابًا ملبِّسًا اسمُه محمّد ادّعى النبوّة، كما سمع صبيانُ المسلمين أنّ كذّابًا يقال له فلان، ادّعى أنّ الله بعثه وتحدّى بالنبوّة كاذبًا. فهؤلاء عندي في معنى الصنف الأوّل معذورون يوم القيامة، فإنّهم مع أنّهم سمعُوا اسمَه،

سمعوا ضدّ أوصافه، وهذا لا يحرّك داعيةَ النظر في طلب الحقّ.

وسكت مستطلعًا وقع كلامه على الأوجه المتوتّرة تحت ضوء المصباح. فلاحظ سكوتًا فيه رضًا مشوبٌ بغضبٍ ممّا قال، فواصل:

- لكنّكم أنتم تؤمنون بأنّنا كلّنا حطب النار. فما عندكم هذا التفصيل ولا هذا البحث عن الأعذار للناس.

وقف العجوز، وقال:

- ليس كذلك.. آه، لكن... دعني أجهّز لك طعامًا، ثمّ نتحدّث حديثًا مُطوّلًا. فالأمر يحتاج إلى تفصيل.

وصرفَ الغزاليّ ذهنَه عن المسألة مُفكّرًا في ما ينتظره غدًا إذا دخلَ القدس. *ما الّذي سأجد هناك، وأنّى لي الاختفاء وقضاءُ الوطر من بيت المقدس والصّلاة المضاعفة فيه دون أن تلحظني عينٌ أو تحسّ بي طائفة.*

66

«من فتح بابًا في صدره يَرَ الشّموسَ مشرقةً في كلّ مدينة»

جلال الدين الرّومي

القدس، 489 هـ.

تسلّلَ ضُحًى إلى أحشاء المدينة هادئَ النفس طيّبَ البال. لاحَظَ كثرةَ العباد في القدس مقارنةً ببغداد. كانت أصوات السقّائين تختلط بنداءات الباعة وصرخات المجاذيب. فالشّارع المؤدّي إلى المسجد الأقصى من الشّرق، الموصل إلى باب الرحمة غاصٌّ بالنّاس. نساءٌ ممسكاتٌ بأيدي أطفالهنّ ينظرن إلى البضائع المتناثرة على حافّة الشّارع، وباعة يصَّارَخُون، ورجالُ حسبةٍ يتحقّقون من الأسعار، ومجاذيبُ وسط الطّريق يذكرون وينشدون. انشغلَ ذهنه مُفكّرًا في سبب كثرة المنعزلين والعباد في الأقصى. *ربّما يكون ذلك لمجاورتهم النّصارى. فالرهبانيّة والانعزال من أصول دينهم.*

كان قلبُه يضربُ قفصَ صدره سعادةً باقترابه من المسجد الأقصى، حيث الصّلاة الواحدة فيه تساوي خمسمائة صلاة. وتخيّل نفسَه مقيمًا فيه يصلّي كلَّ يوم ما شاء الله له أن يصلّيَ، مقبلًا على شأنه لا ينطق إلّا خيرًا أو ذكرًا، ولا يماري أحدًا أو يجادل آخر.

دخل جانبًا ضيّقًا مسقوفًا من الشّارع، فأحسّ باقترابه من المسجد. ولاحظَ مكتبةً حسنة الترتيب على يمينه فتذكّر حاجته إلى كتاب «الرّسالة القشيريّة» ليقرأ منها إذَا تعب من الذّكر أو الصّلاة.

تأمّلَ مدخلَ المكتبة، ثمّ دلف إليها. عبقَ أنفُه برائحة الورق المخلوطة بالعطور. تأمّل الرفوفَ المصفوفة بأناقة. وفتّش العناوين باحثًا عن كتاب الرّسالة فقفزَ قلبه. رأى كُتُبَه مصفوفةً، فقرأ عناوينها واحدًا تلو آخر. «فضائح الباطنية» وكتاب «معيار العلم» وكتاب «مقاصد الفلاسفة». وصُدم عندمَا رأى آخر كتبه تأليفًا في بغداد: «ميزان العمل»، فأخذه وبدأ يقلّبه. وأيقظَه صوتُ الكتبي:

- ذاك آخر تآليف الغزاليّ!

وارتبك حتّى سقط الكتاب من يده حياءً ورهبةً من أن يلحظه البائع فيعرفه فيراه مشغولًا بالنظر في كتابٍ من تأليفه. أشاحَ الكتبيّ وجهه، وانحنى وأخذ «ميزان العمل» وأعادَه إلى مكانه متضايقًا.

أخذ الغزاليّ كتابَه «معيار العلم» حتّى لا يلاحظ البائعُ شيئًا، وتأمّل الخطّ، لكنّه لم يعرف صاحبه - *لعلّه ناسخٌ بغداديٌّ ممّن لا أعرف* - ورأى خطأً من النّاسخ في أوّل صفحة. تضايق مُفكّرًا *هل سيكون عليَّ إثمٌ يوم القيامة من أخطاء النّساخين؟ فإذا كانت كتبي الأحدثُ فيها أخطاء، فكيف سيكون حالُها بعد مئات السنين؟*

جلس على الكرسيّ المنصوب قربه معاتبًا نفسه. *لماذا فرحتَ بوجود كتبك هنا؟ أفرحتَ بها لأنّها تعود عليك بثواب الله؟ أم فرحت بها لانتشار اسمِك وكثرة الثناء عليك؟*

ولم يستطع الحسمَ في أعماق روحِه هل يسعد بالثناء أم بالأجر الأخرويّ. واسترخى في مقعدِه مسائلًا نفسه: *لِمَ السّفرُ وقطعُ الفيافي إذَن؟ لِمَ إرهاق البدن؟ والروحُ ما زالت حادّةً شابّةً في فرعونيّتها وطلبها الاستطالةَ والتقدّمَ على النّاس!* واستيقظ على جلبةٍ وصوتٍ منكرٍ عند الباب.

اقتحم أربعة جنودٍ الدّكّان. كانوا في ملابسهم البُنّيّة معتمرين عمائمَ

جُنْدِ القدس، وبأيديهم السّيوفُ والقيود. صاح أحدهم مادًّا إصبعَه جهتَه:

- هذا هو!

اقترب منه آخر:

- تعال!

وضع الكتابَ بهدوءٍ على طرف الكرسيّ:

- ما الأمر؟

- أنتَ أعلم به!

أمسكه جنديٌّ بيده، بينما دفعه آخران من ورائه. وعادُوا به إلى الشّارع الّذي جاء منه. مشى بين الجنود الأربعة مُفكّرًا في ما ينتظره. *هل علم به حاكم دمشق، فأراد مقابلتَه، فوضع حيلةً لذلك؟ هل غضب الخليفةُ من سفره دون إِذْنٍ فقرّر عقابه؟ هل انزعج بركيارق من هروبه من بغداد قبل مقابلته، فقرّر عقابه؟* ورفع وجهه في الشّرطي القصير الأصلع الّذي يمسك عضده بقوّة:

- أنا فقيرٌ من فقراء الله سائح، فلِمَ تأخذونني؟

ضحك ضحكةً ساخرة:

- كلّ اللصوص يدّعُون البراءة... هل تظنّ ملابس الصّوفيّة تُخفي اللّصوص؟!

وذهب خيالُ الغزاليّ بعيدًا. *كأنّ الله أنطق هذا الشّرطي بحقيقتي. ماذا تفيدني هذه الملابس إذا كان قلبي ما زال يرقص لانتشار كتب ألّفتُها رياءً وسمعةً ومنافسةً للأقران وتقرّبًا للسلاطين وأرباب الدّنيا؟ أينفعُ الكنيفَ أن يُغطّى بالحرير؟*

عاد مُتأمّلًا الشُّرَط المحيطين به: *لمَ يأخذني هؤلاء؟ الشّبه وقع بيني وبين*

أحد اللّصوص؟ أرخى طرفَ طيلسانه على وجهه حياءً من المارّة، وخطر له أن يكشفه حتّى يراه النّاس لعلَّ ذلك يكفّر بعض خطاياه. وانحدرُوا مع الطّريق حتّى وصلوا إلى مقرّ الشّرطة. دخلُوا، فوجدُوا حوشًا واسعًا غاصًّا بالنّاس.

اقتيد أبو حامد إلى حجرةٍ في طرف الحائط. وهناك رأى رجلًا ذا لحيةٍ خفيفةٍ يظلّلها شاربٌ ضخمٌ يفتله بِيَسَارِه. وما كاد الشّرطيّ يوقفه حتّى صاح ذو الشارب:

- من هذا؟

- هذا اللّصّ الّذي يلبس ملابسَ المتصوّفة ويسرقُ فواكهَ السّوق وقت الصّلاة!

أبعد الرّجل يدَه عن شاربه هازًّا رأسَه ماسِحًا ذقنَه، فتنحنح الغزاليّ:

- أيّها الشّيخ، ما أنَا بسارقٍ ولا..

رفع الرّجلُ قبضته وضرب بها الطّاولة:

- اسكت! تقول هذا عند القاضي. ما اسمك؟

- محمّد الخراسانيّ.

- كيف أمسكوك؟ وأين؟

- في مكتبةٍ جنبَ المسجد.

- خذوه إلى الدهليز!

ظهرَ شرطيٌّ نحيفٌ يلبس سروالًا فضفاضًا عاريَ الرّأس، يشير إلى الغزاليّ بالتقدّم نحوه. مشيَا في الفناء الواسع الّذي تتوسّطه حديقةٌ صغيرةٌ حتّى وصلَا إلى بيوتٍ في جانبه الشّماليّ. نزلَا سُلّمًا أوصلَهُما إلى بابٍ موصد. ثمّ دقَّ الشّرطيّ البابَ، فجاء صوتٌ قويٌّ عميق:

- شويْ! شويْ

وانفتح البابُ، فظهر شرطيٌّ أسمر ناتئُ المنكبَين:

- تعال!

ودفع الشّرطيُّ الغزاليَّ إلى الداخل، وسمعَ انغلاق الباب وراءه. كان مطمئنَّ النفس منشرحَ الصّدر. إذ خطر له أنّ هذه عقوباتٌ من الله وامتحاناتٌ يسَّرَهَا له كي يمتحِنَه أَيَصْبر على الطّريق أم لا. لو أنّه ما زال مدرّسًا ببغداد لما اشتبَه أحدٌ في أنّه لصٌّ يسرق الفواكه والبقول. كان الدّهليز معتمًا، لكنّ معالَمه بدأت تتّضح له. عادَ النور إلى عَينَيْه شيئًا فشيئًا. فلمحَ شبّانًا جالسين في طرفه يلعبون لعبةً على رملٍ مُكَدَّسٍ بينهم. ورأى شيخًا مستلقيًا يئنّ أنينًا. اقترب من الشّيخ ووضع يدَه على رأسه:

- ما لك أيّها الشّيخ؟ أَبِكَ أَلَمَ؟

وانفتحت عينان واسعتان تحت العتمة:

- من أنتَ رحمك الله؟

- رجلٌ من خراسان.

- أنا أشكُو ضرسي منذ الصباح، وهؤلاء الكلاب لا يأذنون لي بالذهاب إلى الطبيب.

وجاء صوتٌ منكرٌ من جهةِ الشبّان المنهمكين في اللّعب:

- إنّه لا يطيعني يا شيخ! قلتُ له أن يتركني أُزيلها له فأبَى!

ورفع الشّيخ يدَه، وحرّكها في الهواء:

- تنزع خصيتَك قبل نزع ضرسي!

وضحك الشبّان ضحكًا مجلجلًا. وتردّد الغزاليّ، ثمّ قال:

- وما الّذي جاءَ بك هنا أيّها الشّيخ؟

- تعاركتُ مع إخوتي على بستانٍ ورثنَاه عن أبينا، وعليَّ المبيت هنا حتّى يجلس القاضي غدًا لأُعرض عليه.

وسكتَ قليلًا، ثمّ قال متلعثمًا رافعًا يدَه في الهواء:

- و..و.. أنت..؟

- أنا لا أدري. كنت في الشّارع، فهجموا، وأخذوني!

- حمقى ومغفّلون!

وتذكّر الغزاليّ أمرًا، فقامَ مبتعدًا قليلًا جهةَ زاوية الزنزانة. حرّكَ يدَه في الظّلام، ونظّفَ مكانَ وقوفه، إذ تذكّر أنّه لم يصلِّ الضّحى بعد، ودخَل في الصّلاة. كان يقرأ من سورة النحل، فيرتفع. يسافر في ملكوت الله مستصغرًا كلَّ شيء، ثمّ يُفيق على صرخةٍ من صرخات الشبّان المشغولين باللّعب على الرمل، ويعود إلى تلاوته، ويغيب مُتأمّلًا الآيات:

- أَوَ لم يرَوْا إلى الطّير مسخّراتٍ في جوّ السّماء ما يمسكهنّ إلّا الله....

فيُحلّق بعيدًا وجلدةُ رأسه تقشعرّ، وقلبه ينتفض، وعيناه تسحّان دموعًا في العتمة. ثمّ يعود إلى الحضيض عندمَا توقظه صرخةٌ من صرخات الشبّان أو تأوّه الشّيخ:

- آه، ضرسي!

أكملَ اثنتي عشرة ركعةً ثمّ سلّم. ولملمَ أطرافَ جُبّته واقتربَ من الشّيخ وهو يكحّ:

- يا شيخ، متى يُعرَض النّاس على القاضي؟

- قالوا إنّهم يعرضون عليه ضحًى، وإنّه اليوم مشغولٌ لأمرٍ عارض، فما عندنا إلّا الانتظار حتّى الغد.

ودوّى على الباب ضربٌ قويّ، فصَرَخَ الحارس:

- شوي! شوي!

وانفتحَ الباب، فلاحَتْ وجوهٌ مرتبكةٌ عند المدخل. ودخلَ رجلٌ طويلٌ شبهُ عارٍ، وانصكّ الباب وراءه.

صرخ الداخل النّحيل:

- من هناك؟ أنا شيخُ الجبل... أنا مالك حواريّ القدس... أنا اللّصّ الّذي لا يُقهر.

وجاءَ صوت من جهة الشبّان اللّاعبين:

- يا مرحى بالكبير! تعال!

وضحك ضحكةً ساخرةً واثقة:

- أخزاكم الله.. سبقتُمُوني إلى المكان!

واهتزّ المكانُ ضحكًا، والتَفَتَ الشّيخ المستلقي إلى الغزاليّ:

- صبّرني الله وإيّاك! هذا مكانٌ ليس لي ولا لك!

فابتسم الغزاليّ، ولاحت أسنانُه البيضاء تحت العتمة:

- نصبر أيّها الشّيخ، وإنّ غدًا لقريب.

وارتفعت ضحكات الشبّان المنهمكين في لعبهم، ودوّى القرعُ على الباب، فصرخَ الحارس ذو الشارب المفتول:

- شوي شوي!

67

دمشق، صيف 489 هـ.

كان يسيرُ مُسرعًا في الشّارع الضيّق قاصدًا الجامعَ الأمويّ، وطرفُ جبّته السفليّ يتراقص ضاربًا عَقِبَيْه. كان قلبُه مُفعَمًا بمشاعر لحظاتِ ما قبل النصر في ملحمةٍ كونيّة. تأمّل الشّرفاتِ المزيّنةَ بالأزهار، مستنشقًا هواءَ دمشق العليلَ في الأصائل. فوقعت عينُه على أطفالٍ يلعبُون لعبةَ التخفّي، وأمّهاتهنّ يدعونهم للدخول. فكّر في لهجةِ أهل دمشق واختلافاتها مع لهجة بغداد وهو يُنصت لحديث الأمّهات مع أبنائهنّ.

ملأ عَينَيه من كلّ التفاصيل. حمّالٌ يسير حاملًا جرابًا على رأسه كأنّه نائم. نوافذُ مربّعةٌ مفتوحةٌ على الشّارع، وامرأةٌ نجلاءُ تُطلّ وتعبث بضفيرتيها، وطائرٌ أخضر جاثمٌ على الشّرفة الناتئة.

واصلَ السّير شاعِرًا بأنّه يعيش ليلةً من ليالي القدَر الكبرى، واحدةً من تلك اللّيالي التي يتحدّد فيها كلُّ شيء، تُكتَب فيها مصائر، فيولَد مَن يولَد، وتنقَصِف أعمار، وتُكتَب زيجات. رفعَ طرفَ جبّته عن الأرض متّقيًا بركةَ ماء، والتَفَتَ يمنةً ويسرةً وليس في رأسه إلّا الغزاليّ. رأى رجلًا معمّمًا يمسك يدَ ابنه، وامرأةً تسير وخلفها جواريها، وحمّالًا يضربُ حمارًا هزيلًا. كان يبحث عن الغزاليّ في كلّ من يراهم. *ما يدريني؟ فلعلّه تزوّج أرملةً وأصبح يدرّس الأطفال في حواريّ دمشق ليخفيَ قصّتَه*. وتذكّر آخر رجلٍ إسماعيليّ درّبَه على فنون تخفّي الجواسيس، واستحضر قصصًا رواهَا لهم عن بعض جواسيس نظام الملك.

تجدّد شعورُه بأنّه بطلٌ في مغامرةٍ كونيّةٍ وهو يفكّر في ما لهؤلَاء العابرين من انشغالاتٍ تافهة. *إنّه بطل، وبطولته قدسيّةٌ سرّيّةٌ لا يعرفها الحمقى ولا المعرضون عن إقامة الدول وإفنائها، لكنّ الله يعرفها والأئمّة المعصومون يعرفونها. هي بطولةٌ يعرفها الحمام الزاجل الآتي بالرسائل السرّيّة، وتشهدها الصقورُ المجنّحة فوق قلعة آلموت، ويعرفها الإمام المعصوم الغائب، ويعرفها الرّجال السُّمْرُ المرهقون الداخلون إلى المدن و الخارجون منها تحت ستار الظلام.*

وصلَ إلى الدكاكين المتّصلة بالجامع الأمويّ، فتراءت له جموعُ المتنزّهين في رحبته، فتسابقت الأسئلةُ إلى قلبه. *هل سأراه جالِسًا هناكَ في طرف المسجد كأنّه سائل؟ أو جالِسًا على المنبر يعلّم النّاس. هل وقعت عينُه عليّ من قبل؟ هو لم يَرَني قَطُّ فكيف يعرفني؟ وما يدريني أنّه لم يرني؟ قد يكون رآني في رباط أبي سعيد من حيث لم أره.* شعر برعشةٍ بين كتفَيْه وهزّةٍ في معدته وهو يدخل وسطَ الجموع في صحن الجامع. كانت كلُّ خطوةٍ تُشعرُه بالتحدّي. *ماذا سأقول له؟ وكيف سأقنعه بأن أعيش معه كظلّه. لا بدّ أن أكون شاهدًا على كلّ خطوةٍ يخطوها، وكلّ رَجُلٍ يراه.*

توسّط رحبةَ الجامع ففاجأه المنظر. رجالٌ ونساء، وشبابٌ وكهول، يتجوّلون متحدّثين ضاحكين وسط الباحة. فتياتٌ عطراتٌ يضحكنَ غنجات، وشبّانٌ متأنّقون يتحدّثون لجذب انتباه الفتيات الغريرات، ومتصوّفون يتجوّلون بين ذلك خافضي الرّؤوس مستغرقين في الذِّكر، وطيورٌ ترفرف فوق القباب. اخترقَ الجموع، فعبقَ أنفُه برائحة عطرٍ نسائيٍّ آسر. *كيف يَخلطنَ هذه الخلطة؟ كيف يَجِدن هذه العطور؟ أيّ نوعٍ من الرّجال ذلك المحظوظ الّذي يوفَّق إلى حسناء تتقن هذا الفنّ!* ولا يدري لِمَ قفزت إلى ذهنه صورة تلك البَغِيّ البغداديّة وهو يضع رجلَه داخل المسجد.

تجاوز العتبةَ وعقلُه ما يزال في أنفه. جالَ بين السواري ناظرًا بحذرٍ. ودارَ عليها متطفّلًا كأنّه طالبُ علمٍ يبحثُ عن درسٍ مخصوص. لكنّه لم يرَ للغزاليّ أثرًا. فخرج من المسجد وصعد إلى الحجرات دون طائل. لمحَ شيخًا مستلقيًا في طرف حجرةٍ، فاقترب منه. كان الشّيخ ذا جمّةٍ ضخمةٍ بيضاء، مستلقيًا على البلاط دون فراش. فاقترب منه مقاربًا بين خَطوه رافعًا طرف جبّته خافِضًا صوته ليبدو أكثر دروشة:

- السّلام على الشّيخ!

لم يلتفت إليه، ورفعَ يدَيْه وجَمَع إبهامَه وسبّابتَيه بهدوءٍ، وحكّ بهما عينَيه، وقال دون أن يفتحهما أو يلتفت:

- وعليكم السّلام.

- يا شيخ، هل رأيت شيخنَا الغزاليّ؟

انتفض الشّيخ، وجلس دفعةً واحدة، فانقبض قلبُ ميرزا. فتح الشّيخ جفنَيه عن عينين حمراوين:

- تبحث عن الكبريت الأحمر؟ تطاردُ صخرةَ الوادي؟ تسعى وراء الثريّا؟

واستلقى، جاعلًا يدَه وسادةً بينه وبين البلاط وسكت، فسكت ميرزا طويلًا حائرًا وقلبه يدقّ دقًّا عنيفًا، ثمّ قال بهدوء متصنَّع:

- نعم، أين الشّيخ؟

ارتفعت يدُ العجوز في الهواء وهو يغطّي وجهَه بطرف جبّته:

- لقد هرب بقلبه! طار! هرب حتّى لا تفتنوه عن دينه... ومن أنت؟ فما أراك إلّا واحدًا منهم!

وتسارعت دقّاتُ قلب ميرزا، واحمرّت وجنتَاه، فابتعدَ عن الشّيخ شاكرًا. نزلَ السلّمَ وهو ينظر خلفَه، ووجد نفسَه في صحن الجامع. ثمّ

التفّ غربًا، فرأى الشّمسَ حمراء تُلوِّح لدمشق بالوداع. تساءل بحسرة: *ماذا يعني ذلك؟ فالتّقارير السرّيّة الّتي قرأت عنه تثبت أنّه يعيش في هذا المسجد. هل سافر؟*

ألقى بجسمِه مُستندًا إلى درج الجامع ووجهه إلى الصحن مُتأمّلًا النّاس. ذكّرَتْه الجموعُ المائجة في صحن الجامع الأمويّ بمهرجان النيروز في خراسان. *أيعقَل أن يكون أهلُ دمشق في عيد نيروز كلّ ليلة؟ ولِمَ يحتفلون في المسجد لا في غيره؟* وانقطعت تساؤلاته وهو يشاهدُ فاطمة البهلولة تسير مترنّحةً بين الجموع حاملةً طبلها تغنّي:

واذكـرْ أحاديثَ ليالي مِنىً   لا عُـدِمَ المذكورُ والذاكرُ!

أَتْبَعَهَا بصرَه حتّى غابت، مُتسائلًا عمّا إذا كانت بهلولةً حقًّا أم جاسوسةً تتخفّى بمظهرها ذاك. ثمّ نوى أن يكتب عنها تقريرًا لمسؤوله في التنظيم.

أسند رأسَه إلى الجدار مُفكّرًا في ما علَيه فعلُه. *هل يعود إلى الدار السرّيّة ويرسل رسالةً عن ذهاب الغزاليّ وينتظر أمرًا جديدًا؟ أم يبقى هنا في الجامع مُتظاهرًا بالدروشة لعلّه يعرف أين ذهبَ الغزاليّ تحديدًا وكيف يلاحقه؟ أم يعود إلى بغداد؟* خطر له أنّه لو سألَ في الدّار السرّيّة حيث يقيم فلربّما عرف كثيرًا من أخبار الرجل، فهم يجمَعون الأخبار ويعرفون كلَّ ما يدور في دمشق.

شَعُرَ بإرهاق، وتلفّتَ، فلمّا لم يرَ أحدًا ينظر إليه بَصَقَ في جانب الدرج وهو يشعرُ بمرارةِ الخيبة بين فكَّيْه. *هذه أوّلُ مهمّةٍ خطرَةٍ تُسنَد إليَّ، وهأنَذا لم أنجحْ فيها. كيفَ سينظر إليَّ الشّيخ؟ مَاذَا سيقولونَ عنّي في الاجتماعات الّتي ستُعْقَد لمتابعةِ الأمرِ ومناقشته؟ هل سيعذرونني؟ هل خنتُ الأمانةَ أو قصّرتُ في أدائها؟ هل تأخّرتُ في الطّريق؟ ليس أمامي إلّا العودة إلى الدار وإرسال رسالةٍ عن خروج الرّجل من دمشق بعد التأكّد من ذلك.*

وقفَ نافضًا طرفَ جُبَّتِه ماشيًا وسطَ الحشود. عبقَ أنفُه برائحةٍ غريبةٍ أيقظتْ ذاكرتَه، رائحةِ الماء الممزوج بالتبن سَحَرًا. واستيقظت ذاكرتُه حيّةً واضحة. تذكّر طفولتَه في الريّ، ووالدَه ذا الأنف الحادّ والنظرات الزائغة ورائحة الخمر تفوح من ملابسه في الصباحات. تذكّر والدَه السقّاء أيّامَ كان يوصل الماء إلى بيوت النّاس، وكيف كانت قصصه ومعاركُه لا تنتهي مع سيّدات تلك البيوت. كانت الجواري يتّهِمنَه بمراودتهنّ عن أنفسهنّ، وأصحاب الدكاكين يتّهمونه بالسرقة. ولا يصدّقُ براءتَه من تلك التّهم سوى امرأةٍ كان يضربها غدوًّا وعشيًّا.. زوجتِهِ المسكينة. تلك المرأة ذات الوشاح الأبيض والابتسامة الحزينة والضّفائر الحالكة، والشّفتَين المتقلّصتَين المستسلمتين. استيقظت ذكريات طفولته فتذكّر أختَيه اللّتَين زوّجهما أبوهُما ولمّا تبلغَا سنَّ الرشد.

كلّما فكّر في سيرة والدِه شعرَ بالاشمئزاز. حسَر طرفَ عمامتِه عن فيه متمتمًا بحمد الله أنْ هدَاه إلى اتّباعِ آل البيت والأئمّة المعصومين. وأسرعَ في الشّارع كأنّه يهرب من ذكرياته، لكنّ صورةَ أمّه ما زالت حيّةً في ذهنه. *ترى أين هي الآن؟ أمازال والدُه يؤذيها؟* وشعر بانقباضٍ شديد. *كيف انشغلَ عنها بأعباء الدّعوة؟ أليست أمّه ومن حقّها الاهتمام والسّؤال؟* ثمّ راجع نفسَه مُتذكّرًا أنّ الاهتمام بتكاليف الإمامة وصاحب الوقت أكبرُ أجرًا من الاهتمام بأبٍ ضالٍّ وأمٍّ مسكينة.

أسرعَ الخطى هاربًا من أفكارِه ومن ماضيه، ومن الندم الّذي وخَزَه بين جنْبَيْه. ورفع يده حاكًّا أسفل ذقنه، ثمّ وصل أذان الجامع الأمويّ إلى أذنَيْه. فعدّلَ عمامَتَه مُفكّرًا في أنّ الدّار أصبحت قريبة. عليه الانتباه قبل دخولها والتأكّد من أنّ النواميس محفوظة، وأن لا أحدَ يتتبّع خطاه.

مشى صاعدًا من الشّارع، وشعر بفتورٍ في ساقَيْه وهو يستعيد ما قُدّم له

من وصفٍ دقيق، وكذا الخارطة الواضحة الّتي حفظ. *لِمَ يختارون دارًا على ربوة؟* لكنّه تذكّر أنّ ذلك أسلم. فهم يرَون الآتي والذاهب، ويشاهدون الغادي والرائح. وذكّر نفسَه بأنّ القوم لا يختارون منزلًا إلّا بعد أن يراه الرّجالُ العارفون بأمور التخفّي والتواري. ولمح رجلًا يلبس سراويل واسعةً مُتَمنْطِقًا بحزامٍ جلديٍّ أسود. *أليست هذه ملابس أصحاب السّلطان وعيونه؟* دارت حدقَتَاه، وانساحَ في جسده تيّارُ الخوف. فأمسك رجلَه عن المشي قليلًا وهو ينظر إليه من مُؤْقَيْ عَينَيه. *هل يتبعني؟*

لكن الرّجل توارى في الزّقاق الآخر. فواصلَ طريقَه وهو يرْفَضُّ عَرَقًا. لقد صار قريبًا من الدّار. وتراءى له البابُ الموصد في نهاية الزّقاق، والشّجرة الوارفة، والسّائلُ الجالس أمام الباب بشعره الأشيب وجُبّتِهِ القذرة وجرابِهِ الضّخم. عادت إليه نفسُه وهو يفكّر في أنّ هذا السّائل قد يكون أكبرَ عالمٍ في المدينة، لكنّه وهب نفسَه لحماية العاملين لآل البيت، ولن يستطيع عاملٌ السلطان الاقترابَ من الدّار إلّا نبّهَ عليه. رفع قبضتَه، وقرع الباب، فتنحنح السّائل. تبادلَا نظرات، وسمع صوتًا من وراء الباب:

- مين؟

- «وما تدري نفس».

- «وما تدري نفس!»

وانفتح الباب. بدت باحةُ الدّار واسعةً جميلة، تتوسّطها حديقة أنيقة. سمع زقزقة الطيور الجاثمة في الأشجار، ولاحظَ كثرة الموجودين هناك وهو يتذكّرُ أنّها دارٌ مفتوحةٌ للجماعة ولغيرها مبالغةً في التعمية. فالمعلن أنّها دارٌ لغرباء التجّار من خراسان، وهذا يحميها من الشّبهة ويبعدها عن التهمة.

تجاوز الحديقةَ وهو يتذكّر اسمَ مسؤولٍ عليه الاستعانةُ به في إرسال الرسائل إلى بغداد. وفكّر في صيغة الرسالة الّتي سيكتب إلى بُلَنْدْ. ستكون:

«أمّي، سلامًا وتحيّةً، وبعد، لم أر الوالد. فقد وجدتُه ترك المدينة لطِيّته، ولا أدري أين هو. فبمَ تشيرين عليّ، والسّلام».

68

القدس، صيف 489 هـ.

ظهرتْ عمامةٌ ضخمةٌ عند الباب، فخفتَت الأصوات. كان القاضي يلبسُ درّاعَةً سوداء مزركشةَ الأطراف تحتها قميصٌ ناصعُ البياض. مشى مادًّا رأسَه أمامه كأنّه يقفز، وجلس على كرسيّه وظهرُه إلى الحائط، وأدارَ وجهَه العابسَ في الوجوه الواقفة عند زوايا الغرفة الواسعة وتنحنح. ثمّ جلس النّاس وعيونُهم ترمقه.

وقف رجلٌ قصيرٌ فضفاضُ الملابس بيده ورقة، ونادى:

- محمّد الخراسانيّ!

وقف أبو حامد من الصفّ عن يسار القاضي. فأشار إليه الكاتبُ بالتقدّم إلى الكرسيّ المنصوب أمام القاضي. فجلس وعن يساره كرسيٌّ يجلس عليه رجلٌ زائغ النظرات وسخُ الثياب. انحنى الآخرُ على الأوراق الّتي بين يديه يتأمّلها، ثمّ مالَ على كاتبه الجالس عن يساره وناجاه، ثمّ تنحنح ورفعَ حاجبيه الكثّين، ونظر إلى أبي حامد:

- ما اسمك؟

فاجأه السّؤال. *هل أخبره باسمي لأخرج من هذه الورطة الّتي أخذتْ من وقتي وجهدي وصرفتْني عمّا أتيت من أجله؟ أم سيفتح عليّ ذلك بابًا لا أستطيع له سدًّا*. وتسارعت الخواطر متشاكسةً في ذهنه، فأفاق على القاضي مغضبًا:

- قلت ما اسمك؟

- أصلح الله القاضي، محمّد بن محمّد.. آآآ.... الخراسانيّ!

والتَفَتَ القاضي إلى المدّعي:

- ما اسمك؟

- براء بن المجلي.

- براء، ما الّذي تدّعيه على محمّد الخراسانيّ؟

تلفّت براء في جنبات الحجرة الواسعة، وأعادَ نظره إلى القاضي:

- أيّها القاضي! لقد تركتُ دكّاني وقتَ الصّلاة مفتوحًا كعادة سوقنا، وجاء هذا وأخذ منه أوساقًا.

- الخراسانيّ، ما قولك؟

- أنا أيّها الشّيخ لم أدخل هذه المدينة العامرةَ قَطُّ، وإنّما دخلتها أمس فقبض عليَّ الشُّرَط وقتَ دخولي وأنا في مكتبة.

صرخ براء:

- في مكتبة يتستّر بدخولها كما يتستّر بلباس الصوفيّة!

دارت عينَا أبي حامد وهو يفكّر في فتح فمه بالأدلّة الشرعيّة والمنطقيّة ليبهِرَ القاضي فيفرجَ عنه، لكنّه تدارك نفسَه مذكّرًا إيّاها بأنّ هذا امتحانٌ يتحمّله لكسب الأجر. قال القاضي:

- ما بيّنتك يا براء؟

- لقد وصف لي خادمي الرّجلَ الّذي سرق، ووالله لم تتجاوز صفتُه صفةَ هذا.

- محمّد، هل تقسم أنّك بريء؟

- إي والله!

- احلف!

- أقسم بالله العليّ العظيم أنّي ما أخذت فاكهةَ هذا الرّجل ولا رأيتُ دكانّه!

- براء، ألك بيّنةٌ أخرى؟ ألك شهودٌ رأوه؟

- أصلح الله القاضي.. أريد مالي!

- يطلق سراح الخراسانيّ!

أشاح القاضي بوجهه، وتقدّم الكاتب ذو الصّوت الأجشّ وصرخ:

- ميمونة النابلسيّة!

وتقدّم شرطيّان، وأشارَا إلى الغزاليّ وغريمِه بالخروج. وقف الغزاليّ ضامًّا عليه مرقّعتَه مُتفقّدًا طيلسانَه وهو يمشي بهدوءٍ وخفّةٍ حتّى خرج إلى الشّارع. وجدَ الزّقاق المارَّ من أمام دار القضاء ضاجًّا بالحياة، فوقف مُتأمّلًا: *هذه أوّل مرّةٍ أدخل فيها على قاضٍ منذُ وُلِدت!* وسرَت في حنايا روحه طمأنينةٌ وسكينة. مشى مع الشّارع وأخذ يتأمّل الشّرفات المطِلّة والدّكاكينَ المتناثرة. فرأى رجلًا يلبس ملابس الصوفيّة يصرخُ وعيناه مغمضتان:

- ابنوا للخراب! ابنوا للخراب! والله الّذي لا إله إلّا هو ستُسْبَى نساؤكم! ويُقتَل رجالكم! ويُعبَّد أبناؤكم!

كان الرّجلُ يحمل على ظهره جرابًا وخرّوبًا وملابس. فوقف الغزاليّ يتأمّله، حتّى اقترب منه شابٌّ عليه سيما طلبة العلم، فبادره بالسؤال:

- من هذا الصوفيّ؟ وماذا يقول؟

وضحك الشابّ:

- ألا تعرفه؟ هذا زيدون البهلول! منذ عشر سنين يقسم على ما سمعت!

تبسّم الغزاليّ مُفكّرًا في أنّ الرّجل قد يكون محدّثًا من الله. ثمّ بادر الشابّ:

- أين الطّريق إلى بيت المقدس؟

- كأنّك غريب! أنت في بيت المقدس، تقصد أين المسجد؟

- نعم.

- تصعد مع هذا الشّارع ولا تفارقه إلى أن تراه.

واختفَى الرّجل بين الجموع، وواصلَ الغزاليّ سيرَه. وبعد خطواتٍ لاحظ وقوفَ النّاس مفسحين الطّريق. ثمّ ظهر رجلٌ على فرسٍ يحيط به جنودٌ بأيديهم طبول. فخطر له أنّ هذا أمير المنطقة. واستيقظت في ذهنه صور بغداد ونِظام المُلْك والخلفاء والسّلاطين. واسترجع ذلك العالمَ فبدا له غريبًا قديمًا شائهًا. تسمّرَ مكانَه مُتأمّلًا الرّجل المنتصبَ على الفرس بصدرٍ منتفخٍ وأوداجٍ دارَّةٍ وعمامةٍ طويلة. وخُيّل إليه أنّ الجنود الّذين يضربون الطّبول وراءه مجرّدُ أطفالٍ يلعبون، وأنّ الأمير طفلٌ كبيرٌ يتلهّى بألعابٍ مزركشة. تأمّل الركب حتّى عبر، والتَفَتَ إلى الجموع المشدوهة بالمشاهدة. فحمد الله في سرّه وواصل السّير.

لاحت قبّةُ المسجد الأقصى، فقَفَز قلبُه، ودمعتْ عيناه وهو يُسرع الخطى. سارَ من غير أن يرفعَ عَينَيْه عن القبّة البادية. ولاحظ كثرةَ الجموع المتجوّلة في باحة المسجد. وطئ شخصٌ طرفَ نعلِه حتّى انخلع. والتَفَتَ، فرأى رجلًا نحيفًا ذَا لحيةٍ كثّةٍ يعتذر. انحنى، وأخذَ حذاءه، ومشى. وسارَ إلى المسجد مرتجفًا مُفكّرًا: *هنَا صلّى الأنبياء!*

هنَا صلّى محمّد وإبراهيم وعيسى وموسى! لن ألبس حذاءً في هذا المكان تأدُّبًا مع أفواج الأنبياء الذين عبروا من هنا. *ألم يكن الإمام مالك لا يلبس حذاءً في المدينة بحثًا عن مُلامَسة بقعةٍ لامستْها قدمُ رسول الله؟* ورفعَ بصرَه مع السقوف والقبابِ مُفكّرًا في أدعيةٍ صعدت من هنا، وآهاتٍ تردّدت هنا، ودموعٍ سالت على هذه الأرض. شعر بِغبطةِ الوصول إلى

المنهل والظفر بالمحبوب وإلقاء العصَا بعد التسيار الطّويل! *مَن خوّل لكَ الوصول إلى حيث صلّى الأنبياء؟ من أنت يا ابن الطابران لتنال كلّ هذا؟ كيف أؤدّي شكرَ المنعم! مننتَ عليّ بالنعم قبل عقلها، وقبل فهمها.. لففتَني فيها وأنا في بطن أمّي. مننتَ بالعقل والأبوين الصالحين ومكانِ الميلاد! سبحانك! تمنُّ بالنعم ثمّ تجازي من سخَّر بعضَها في سبيلك!*

رأى عشرات الفتيات متجمّعاتٍ في ظلّ الحائط يُحِطنَ بامرأةٍ جالسةٍ على فرشٍ تدرّسهنّ. لاحظ طول المرأة وبياضَها، وسمع طرفًا من حديثها. فخطرَ له أنّها خراسانيّة اللّكنة. ثمّ تجاوز العتبة، ودخل في الصّلاة. فغابَ صوتُه وتمتماته وسط مئات الأصوات.

أنهى تحيّة المسجد، وجلس متربّعًا مُتأمّلًا جنباته.

كانت كلّ ساريةٍ من سواريه تحتضن حلقةً علميّة. يجلس الشّيخ مُستندًا إلى واحدةٍ منها وحولَه الطلّاب متحلّقون وقد تأبّطوا أوراقَهم. كانت أصواتُ النقاشات في أفنيةِ المسجد تشبه دويَّ النحل. ذكّرتْه الصّورة بمدرسة النظاميّة ومسجدِ المنصور ببغداد. سمعَ أصواتًا نسائيّةً وراءه، وظهرت المرأة وطالباتُها يتبعنها يجرُرْن ذُيولهنّ. ثمّ انحرفت يسارًا وهنّ وراءها حتّى وصلت إلى أقصى المسجد، وبدأت تصلّي.

استند الغزالي إلى ساريةٍ مُفكّرًا: *متى أذهب إلى الخانقاه شرق المسجد؟ وما الوسيلة الّتي عليَّ اتّباعُها لتجنب العيون المتطفّلة؟* كان يتأمّل السقوفَ العاليةَ المزركشةَ ممتّعًا بصره بالجمال الآسر في المسجد. تخيّل ليلة الإسراء، فانتفض واعتدلَ في جلسته. *هنا دخل محمّد صلّى الله عليه وسلّم وصلّى الأنبياء خلفه.* تخيّل صفًّا كاملًا من الأنبياء يركعون ويسجدون. وسرحَ خياله بعيدًا.

كم مرَّ بهذه العَرَصاتِ من الأتقياء الأنقياء الساعِين إلى مرضاة الله.

وخُيِّلَ إليه أنّ تربةَ المسجد منسوجةٌ من لحمِ الأقدامِ الراكضة إلى الله، مخلوطةٌ بأنفاسِ المُخْبِتِين الساجدين المتضرّعين. *كم عينًا باكيةً صبّتْ هنا دموعَها، وكم يدًا مرتعشةً ارتفعت بين هذه السقوف؟ وكم عينًا مُخبِتَةً انسكبَ دمعُها؟*

سرَت في أطراف جسده قشعريرة، ودخل نوبةً من الذّكر والتضرّع، لم يُفِقْ منها إلّا على صوتٍ وراءَه. كانت المرأة البيضاء الّتي رأى وسَط طالباتها. بدتْ معتدلةَ الخلق متلفّفةً في ملابسها لا يظهر منها إلّا نصف وجهها الأعلى. التفت إليها مذعورًا، ولمّا التقتْ عيونُهما ابتسمت:

- السّلام على حجّة الإسلام ورحمة الله... لقد طال الطّريق يا أبا حامد! لقد طال الطريق!

سقط كُمُّ مرقَّعتِه من يده وهو يُنصت إليها. اهتزّت شفتُه السّفلى، وارتفعت يدُه مرتجفةً واحمرّت وجنتاه، وفتح شفتَيْه ليتكلّم، لكنّه لم يستطع، فظلّتَا مفتوحتَين في الفراغ وجبهتُه تتعرّق. أحسَّ بكيانه يهتزّ، وبكلّ ذرّةٍ من ذرّات جسمه تنبض. كانت المرأة تتأمّله مبتسمةً ساكنةً هادئة. نظر إلى عينَيها وملابسها وهو يستعيد تلك الرؤيا التي أرّقَتْه طويلًا.

وقَفَا صامتَين.

ثمّ قال بصوتٍ راجف:

- وعليكم السّلام ورحمة الله!

وشخصت في ذهنه تلك الرؤيا. *هذه هي، لا غيرها. هذه هي المرأة التي رأى مرارًا في نومه واقفةً في محرابٍ تناديه: تعالَ يا أبا حامد. تعال! لقد طال الطريق!*

مسحَ بللًا في أنفه وهو يغالب نفسَه حتّى لا ينفجر بكاء. *مَن تكون هذه؟ وكيف عرفتْه؟ وكيف عرفت أنّ طريقه طويل؟ كيف اطّلعت على*

عذاباته وهو في ليل بغداد يتقلّب على فراشه بين كتب أرسطو وابن سينا والجوينيّ والباقلّانيّ؟ من هذه؟ وكيف انفتحت لها نافذةٌ إلى قلبه؟

- أتأذن لي بالجلوس إليك؟

بسطَ يدَه مُشيرًا وأصابعه ترتعد.

جلست دفعةً واحدةً، ففاضت ملابسُها وراءها.

- الشّيخ أبو حامد... يمكن الجمع بين تربية القلب ورعاية حقّ العلم... والمغبون مَن عجز عن الجمع بينهما.. والفروض تختلف باختلاف النّاس، وما كلٌّ معذورًا بالسكوت.

رفع يدَه، ثمّ أعادها إلى ركبته. ولمّا فتح فمَه ارتعد فكُّه الأسفل، فصمت. *كيف تعرف هذه كلّ ما يدور بخلدي؟* ثمّ توكّأ على روحه:

- من أنتِ يرحمك الله؟

- أنا عائشة الشّيرازيّة! لكنّي رأيتك في المنام سبعَ مرّات. رأيتك تأتي وتدخل هذا المسجد وقتَ الضّحى. ورأيت أنّي أكلّمك بهذه الكلمات.

- لكن...

وانعقد لسانُه. تأمّل وجهَها الدّائريّ وأنفَها الكبير وعَينَيها السّوداوَين الطافحتَين ذكاء. فحدّقت في وجهه الأبيض وعَينَيه الواسعتَين المُتّقدتَين. وخطر لها أنّ كلّ شيء فيه ذاوٍ ومرهقٌ إلّا عينَيه، تينك النافذتَين المغروستَين في الروح، ما تزالان متّقدتَين تطفحان بسرٍّ مكتومٍ سيخرج إلى العالم في لحظةٍ آتية.

قال بصوتٍ متهدّج:

- لكنّي أخشى الرياء... فكلُّ كتبي ومناظراتي كانت للفوز على الأقران وطلب المكانة بين النّاس.

- غير أنّك عُدتَ وصحّحتَ الطّريق.. وتفقّدتَ المنزل الأوّل. مَن لأُمّةٍ محمّد إن توارى علماؤها المخلصون؟

- لكنّي أخاف أن أصلحَ النّاس بإفساد نفسي.

- إنّ رسول الله لم يُقم عمرَه كلَّه بحِرَاء... بل تزوّد من الغار فحسب! مرحلة حراء كانت تنقصك لمّا كنت ببغداد، أمّا الآن فقد مررتَ بالغار.

ووقفت قائلة:

- أستأذنك أيّها الشّيخ.. وأرجو ألّا تحدِّث أحدًا بهذا..

ابتعدت، فأتبعها بصرَه وهو ينصتُ لخفقان قلبه وفَوَرَان دمه. كان الدّم يكاد ينبجس من صدغَيْه: *ماذا عليّ الآن؟ هل أعود إلى الكتابة والتأليف؟ هل أعود إلى التدريس في النظاميّة؟ ما قيمة كلّ هذا إذا كنتُ سأعود إلى التدريس؟ أم أبقى متجوّلًا، ثمّ أكتب رسائلَ وأعلّم النّاس كما بدأتُ في دمشق؟*

شعر بعدم القدرة على الصّلاة أو الذّكر، إذ لعبت تلك العباراتُ بذهنه وشوّشت خياله. فأسندَ رأسَه إلى السارية مُرهقًا.

وبعد ساعةٍ قرّر التوجّه إلى الخانقاه للتّفكير. مشَى وسط المسجد لا يبصر أين يضعُ قدمَه حتّى خرج بقدمَين قلقَتين وعينٍ غبشةٍ وفكرٍ غائم. بحث عن الباب الشّرقيّ المؤدّي إلى الخانقاه. رفع يدَه، ومسحَ العرق، وتأوّهَ كأنّه خرج من معركةٍ طويلة.

كان ذهنه مرهقًا وعيناه دامعتَين وأنفُه مبلّلًا. *هذه عرفت عنّي كلَّ شيء! من أخبرها؟* وتذكّر معاناته لمعرفة كيفيّة حصول المعرفة اليقينيّة عند البشر. *هذه أخبرها الله عنّي! علّمها ما يدور في سويداء قلبي ممّا لم يطّلع عليه بشر. هذا هو الطّريق الموصل قطعًا.* واستعادَ تلك المرائي الواضحة

الّتي بدأ يرى منذ انطلقَ في رحلته. فقد رأى وقوفَه أمام القاضي قبل وقوعه، ورأى لقاءه للرهبان، وكذا لقاءه مع الشيخة الشيرازيّة، وأمورًا أخرَى لم يرَها واقعًا بعد.

لاحَ له الخانقاه المنتصبُ شرقَ المسجد جاثمًا ساكنًا. تجاوزَ البابَ، ودخل الباحةَ الواسعة الّتي تتوسّطها حديقةٌ ونافورة. وما إنْ سامَتَ النّافورةَ حتّى رأى صوفيًّا واقفًا ينظر إلى الشّمس ويقول بصوتٍ حزينٍ موقَّعٍ بألحانٍ خراسانيّة:

كـان لي قـلـبٌ أعـيـشُ به ضـــاع مـنّـي في تقلّبه!
ربِّ فــــارْدُدْهُ عــليَّ فقدْ ضــاق صـــدري في تطلّبه
وأغـــثْ مـا دام بي رمـقٌ يـا غـيـاثَ المستغيثِ به!

بدأ الغزالي يوسّع جبّته عن رقبته، ويمسح العرقَ عن جبهته. وأحسّ برعدةٍ تجتاح جسدَه، وأظلمت عيناه، فجلس على الأرض كي لا يسقط.

وأخذ يردّد:

كـان لي قـلـبٌ أعـيـشُ به ضـــاع مـنّـي في تقلّبه!

69

القدس، خريف 489 هـ.

أنهى الدراويش صلواتهم وأذكارَهم وناموا. لكنّه ظَلَّ يُدير عَينَيه في فضاء الحجرة مُفكّرًا. *لقد تركتُ بغداد وما فيها، وودّعتُ طلّابي وهم متشبّثون بملابسي، وخلّفت بنتيَّ ذوَاتَي العيون الدامعة والقلوب الراجفة لأملكَ نفسي، وأُربّيَ روحي، وأغسلَ قلبي من أوضار الجاه والتنافس والتوغّل في الدّنيا. فكيف أعود الآن وآخذُ في الكتابة والتدريس؟ ألم يُظلِم قلبي بعد كلامي في الجامع الأمويّ؟*

كان مستلقيًا على ظهره ورأسُه العاري فوقَ وسادةٍ جلديّة، وهامتُه مكشوفة، ينصتُ لدبيب الأفكار المتشاكسة في جمجمته، ويسمعُ أحيانًا تأوّهَ درويشٍ في طرفٍ من أطراف الخانقاه. اعتمد على يده وجلس على الفراش: *لكنّ ما قالتْه تلك الشّيخة هو ما كنت أحدّثُ به نفسي طوالَ الطّريق بين دمشق والقدس. وما الفرق بين مَن تعلّمَ الفقه والأحكامَ ومَن لم يتعلّمها؟ فأنا ملزمٌ بأن أقيّد التّصوّفَ والسلوكَ بهوادي الشّرع. فلا أضيّع أنفاسي هدرًا.*

وقفَ متلمّسًا نَعْلَيه في الظّلام. حركّهما حتّى ضرب طستَ الوضوء، فطار قلبُه خوفًا من إيقاظ النائمين قرَبه. وضع يده على نعلَيه وأمسكهما وخرج. أخذ يدور بالحديقة مُنصتًا للماء الرقراق المتدفّق من النّافورة. كان يمشي ويداه وراء ظهره مُطرقًا: *لمَ لا أضمّ تلك القراطيسَ الّتي كتبتُها في مسجد دمشق إلى أخرى وأؤلّف كتابًا يتضمّن أوصابَ الأمّة وأمراضَها*

الّتي أُدخلتْ على الدين؟ شعر بانقداح فكرةٍ في ذهنه. *لم لا أؤلّف كتابًا أسمّيه «إحياءَ علومِ الدين»؟ فدينُ هؤلاء العلماء اليوم ليسَ دينَ محمّد صلى الله عليه وسلّم، وفتاواهم ليست فتاوى معاذ بن جبل ولا عمر بن الخطاب. هؤلاء رجالٌ يلبسون الحرير ويتختّمون بالذهب ويمشون كالطواويس ويتكلّمون متكلّفين ويأخذون الأجرةَ على كلّ نفَسٍ من أنفاسهم أثناء الوعظ! لم لا أكتب كتابًا وأبدأ سعيًا لتذكيرهم بالأصول الأولى، والنبع الأوّل، وبداية الطّريق، وأصل القصد؟*

لم لا أحيي النغمةَ الّتي خرجتْ من غار حِراء؟ وأبعثُ التأوّهاتِ الّتي ضجّ بها مسجد رسول الله، وأعيد إلى الأذان روحَ بلال؟ بدت له الفكرةُ واضحةً ومنطقيّةً وشرعيّة. فاستولتْ عليه خفّةٌ وانشراحٌ في صدره ونشاطٌ في أعضائه.

تفاجأ من درجة الانشراح والقناعة بالفكرة. وانثالت الأفكار عليه لتجديد الدين وإحيائه. *لقد كانت التآليف والمواعظ قبل اليوم من العلماء موجّهةً إلى الناس. وما سأكتبه سيكون موجّهًا إلى العلماء فحسب، فهم أمرضُ من الأمّة.* أحسّ بالحاجة إلى القلم في تلك اللّيلة الهادئة، وَسَرَتْ إلى فيه ابتسامة: *كان العلم دَومًا أسهلَ عليكَ من العمل.. فلا تغترّ.* سارَ هادئًا ينصتُ إلى خرير الماء، ويستنشقُ عبيرَ الأزهار من الحديقة الملتفّة في جنبات الخانقاه. وخُيّل إليه أنّ عبيرَ تلك الأزهار أنفعُ للروح من غيرها. *فهذه حديقةٌ تسمع القرآنَ والذّكر، ويُصَلَّى حولها منذ عشرات السنوات.* ملأ رئتَيْه هواءً وهو يرفع بصرَه، فتراءى له المسجدُ الأقصى، فرجَفَ فؤاده. هناك صلّى الأنبياء... وعادت صورةُ نوح وإدريس وموسى وعيسى مصطفّين خلف محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم. ثمّ رفع يُسرَاه، ومسح عينَيْه.

ماذا سيفعل محمّد صلى الله عليه وسلّم لو عاد الآن؟ وتخيّلَ رسول الله نازلًا في الخانقاه. *هل كان سيعرِضُ عن أمّته منشغلًا بصلاته وصيامه مُغلقًا عليه أحدَ هذه الأبواب؟* لمح جدرانَ الخانقاه العالية والأبوابَ المفتوحة والجبابَ المعلّقةَ على الحبال المشدودة بين السواري. وتجدّد عزمه. *يستحيل أن يعتكف محمّد صلّى الله عليه وسلّم ساكتًا مديرًا ظهرَه لأمته بين هذه الجدران. بل كان سيتوجّه إلى هؤلاء العلماء الّذين يتفقّهون لغير الدين ويتعلّمون لغير العمَل، ويطلبون الدّنيا بعمل الآخرة، ويلبسون للناس مُسُوكَ الكباش وقلوبُهم كقلوب الذئاب! ألسنتُهم أحلَى من العسل، وقلوبُهم أَمَرُّ من الصِّبْرِ والحنظل.*

استعادَ صورةَ الحلقات المتناثرة في الأقصى، ساريةَ المالكيّة وساريةَ الشّافعيّة وساريةَ الحنفيّة، والنقاشات بين اليهود والمسلمين والنصارى والباطنيّة. *هل سأعود إلى كلّ ذلك العالم المليء بالنفاق والسباق والسعي إلى المكانة وخداع النفس؟*

وقف واضعًا يدَيْه وراء ظهره رافعًا بصرَه إلى القمر الوضّاء. لم ينتبه إلى امتلاء البدر إلّا الآن. مشى قليلًا، ثمّ جلسَ على طرف النّافورة. *يمكنني العودةُ إلى الكتابة والتعليم بشروط*. ورفعَ سبّابتَه، وأقسمَ في نفسه ألّا يجادلَ ولا يماريَ ولا يناظرَ أحدًا. بل سيبيّن ما يراهُ الحقَّ والخيرَ ولا يناقش أحدًا. عادت إليه السكينة والانشراح. وأحسّ بالحاجة المُلحّة إلى الكتابة، فقد كان ذهنُه يكاد ينفجر بصورٍ وجُمَلٍ وتشبيهاتٍ وأفكارٍ يودُّ وضعَها على الورق، كأنّ سيلًا من الكلام نبتَ بين جوانحه في غفلةٍ منه، ثمّ استيقظ عليه الآن.

أعادَ بصرَه إلى البدر، فقدَّر أنّ وقتَ السَّحَر حان. وسمعَ حركة الدراويش يتململون في جنبات الخانقاه. أُوقِدَت المصابيح، ونُفضت الفرش، وسمعَ الذّكرَ والاستغفارَ وقراءة القرآن، وفاحتْ أنسام الصباح

المقدسيّ محمّلةً بريّا الأزهار. واستيقظ الخدم، وتراكض الرّجال إلى الميضأة استعدادًا للصلاة. تذكّر أنّه لا يزال على وضوء العشاء، فقد قضّى ليلَه كلَّه من غير أن ينطبق له جفن. مشَى جهةَ الأقصى. عبَرَ الشّارع، ووجدَ نفسَه في رحبة المسجد. لفحتْ وجهَه رياحُ نهايات الصيف الباردة. ووجدَ ندَاها في روحه وهو يستغفر ويُحَسْبِل.

كانت العتمة منجليةً تحت المصابيح المصفوفة في زوايا المسجد، مصابيح تتلألأ داخل ثريّاتٍ ضخمةٍ مدلّاةٍ من السقوف. توجّه إلى الزاوية الجنوبيّة، فلاحَ له ذلك الخيالُ المنتصب دومًا كأنّه عمودٌ في طرف المكان. الوقفة الّتي رآه عليها أوّل مرّةٍ هي نفسها. شيخٌ نحيفُ الأطراف قليلُ الشّعر لا يملّ من الصّلاة. وتذكّر التبجيل الّذي يتحدّث به النّاس عن هذا العالم الرحّالة أبي القاسم الرميلي.

تجاوزَه، ووقف قربَ آخر ساريةٍ في زاوية المسجد الجنوبيّة وبدأ يصلّي. وما إن بدأ الترتيل حتّى لمحَ جانب السّقف يتحرّك والمصابيحَ تتراقص، والقبّةَ تنفتح. فارتعدت قدمَاه وضاقَ نفَسُه، فتجوَّز في صلاته، وجلس مستغفرًا. *ما قصّة هذا القرآن؟* يقرؤه أحيانًا فلا يجد له أثرًا في قلبه، ثمّ يقرؤه حينًا آخر فتهتزّ الجبال وينصدع قلبُه ويعرج إلى ملكوت الله. كأنّ عزّة القرآنِ وكبرياءَه تقضيان بإعراضه عن غير المقبل عليه. فإذا قرأه القارئ بقلبٍ معرضٍ انغلقَ دونَه ولم ينفتح، وإذا قرأه بقلب حاضرٍ ونفسٍ راضخةٍ وروحٍ صافيةٍ انفتحت مغاليقُه وخرجت كنوزُه فهزّت الروحَ والأركان هزًّا.

عادَ، وبدأ يصلّي قارئًا من سورة الكهف: «فلعلّك باخعٌ نفسَك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا!». كادت المصابيح تتضارب، وشعر بوَجيبِ قلبِه ورجفانه وهو يفكّر في محمّد صلّى الله عليه وسلم. *ذلك الرّسول الكريم الصادق الّذي عانى الجوعَ والعطَش وحَرَّ السّيوفِ*

ليوصل إلينَا هذَا الدّينَ ويرشدَنا إلى الخير والسّعادة الأبديّة. وتذكّر العلماء الّذين يدّعون وراثتَه؛ *كيف لم يُعَفّر وجهُ أحدٍ منهم يومًا في الله، ولا أوذي في سبيل دينه يومًا، ولا أُهِينَ يومًا دفاعا عن الدين، ثمّ يدّعي وراثة النبيّ! إذا كان الدّين لا يقود إلّا إلى المال والملابس والمراكب الفارهة فلِمَ أباه أبو جهلٍ ورفضَه أبو لهب؟*

أنهى صلاتَه وتكوَّم في ركن المسجد منتظرًا صلاةَ الصبح. كان ذهنه منصرفًا إلى دكاكين الورّاقين. سيخرج إليها ضحًى ليشتري الأوراقَ والأقلامَ ويبدأ مهمّة إحياءِ علومِ الدين... لعلّ الله يقبل منه هذا الجهد فيفوز بالسّعادة الأبديّة. خفَقَ قلبُه بالسّعادة والاطمئنان لِمَا وجدَه بين جوانحه من برد اليقين. ثمّ تمتمَ في سرّه مستعيدًا صورة الشيخة الشيرازيّة: *إنّ الاستدلال على الله يكون بالسّير إليه، لا بالتدليل المنطقيّ على وجوده.*

70

القدس، خريف 489 هـ.

نزل مع المنحدر، وألقَى بصرَه على شارع الورّاقين. كانت العمائمُ تموج أمام الدكاكين المتراصّة على طرفيْ الطّريق. وقد اقتنع عقلُه الشّرعيُّ بوجوب الكلام والتأليف لإرجاع الأمّة إلى دينها، وتبيان بَوَارِ منهجِ علماء الدنيا الذين يتبعهم النّاس؛ ظانّين أنّهم علماءُ الآخرة. لكنَّ انشراح نفسه للأمر وانبساطَها له جعَلَه يشكّ في صوابه. فقد علّمه التأمّلُ ومراقبةُ النفس في الأشهر الماضية أنّ النفسَ لا تميل غالبًا إلّا إلى مكروهٍ شرعًا وضارٍّ دنيويًّا. ولذا قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «حُفَّت الجنةُ بالمكاره، وحُفّت النار بالشّهوات». فعلى المؤمن اتّهامُ نفسه في أيّ أمرٍ ولو كان ظاهرُه خيرًا.

لفحتْه رائحةُ الجلود المدبوغةِ والأوراق المبلّلةِ والحبرِ والأقلام. واستيقظت ذكرى قديمةٌ من طيّات ذاكرته. عادَ ذهنُه إلى نيسابور وأيّامِ شيخه الجوينيّ وصخبِ المدرسة النّظاميّة وشيخِه الصوفيّ إسماعيل الفارمذي. شخصَ في ذهنه محمود الفرّان، ومَكْتَبَةُ البَيْهَقِيّ وعُبَيد الموسوس، ورأس الديك الحجام. فابتسم وهو يتذكّر عبيدًا المسوسَ وأخلاقَه ووساوسه. ثمّ طردَ الذّكريات من ذهنه وهو يدخُل مكتبة. كانت مستطيلةً مليئةً برفوفٍ متناسقة، بينا يجلسُ أربعةُ رجالٍ عن يمين الداخل إليها على مراتب يتحدّثون بأصواتٍ مرتفعة. دخَل هامسًا:

- السّلام عليكم.

التفت الرّجل النّحيل الأقربُ إلى الباب:

- وعليكم السّلام.

ثمّ واصلَ حديثَه لرفيقيْه:

- أنتَ تظنُّ حاكمَ دمشق أو حلب سيحرّكان ساكنًا في حرب الفرنجة إذا أتوا؟ أمُّ محمّدٍ طالقٌ إنْ لم يقفَا مع الفرنجة ويسيرَا في ركابهم إلى القدس.

قاطعه الرّجل الأشيب الأعور:

- ما سمعناه أنّ الفرنجة عشرات الألوف، وأنّ أمراء الأتراك بأرض الرّوم سيصدّونَهم مع ذلك. فليسَ في الأرض جيشٌ يقف للتُّرْك. والفرنجة من أضعف خلق الله وأكثرِهم خلافًا، ولا قدرةَ لهم على منازلة المسلمين.

أنصت لنقاش الرّجال كما ينصتُ سبعينيٌّ لنقاش أطفالٍ، وتساءل في نفسه: *وماذا يفيدكم نقاشُ أخبار الفرنجة والتُّرك وصراعهم على جيفة الدّنيا*. وأحسّ بالنقاش يعيدُه إلى عالمٍ انقضى وذوى، فرفعَ صوتَه:

- أريد كاغدًا خراسانيًّا جيّدًا.

وقف الرّجل النّحيل، ودخل سردابًا في المكتبة، وعاد ورمَى حزمةً من الورق بين يديه، ثمّ قال وقد ازدادَ صوتُه ثقلًا وغلظة:

- هذا ما لا تجدُه إلّا عند أبي محمّد!

جسّهَا بيده، فلاحظَ جودةَ الورق، فدفعَ الأجرة، وخرج. وضعَ الأوراقَ تحت إبطه، وعادَ من الطّريق الصّاعد وهو يفكّر في انتصاره على نفسه لأنّه لم يدخل المكتبات ويفتّش عن آخر الكتب ورودًا إلى السوق. وتذكّر نحو خمسة عشر عالمًا من بغداد يتوقَّع الآن أن تكون كتبُهم الجديدة في السّوق. ثمّ صعدَ مع الرّبوة منحنيًا عائدًا إلى الأقصى.

عبرَ الرحبة، ودخل المسجد، فلحظ الشّيخ الرّميليَّ في مكانه وحيدًا. *يبدو أنّه اليوم في خلوةٍ دون طلّابٍ أو مريدين.* مشَى مُسرعًا إليه:

- السّلام عليك أيّها الشّيخ.

رفع الرميليّ بصرَه، وفتح عينَين غائرتَين، ومسحَ ذقنَه بيده:

- مرحبًا بالشّيخ!

ولم يستلطف الغزاليّ صيغةَ الترحيب مخافةَ أن يكون عرَفَه، لكنّه وارى شعوره:

- أيأذن الشّيخ لي بالجلوس إليه؟

- حيّاك الله!

أخرج الأوراقَ من تحت إبطَيْه، وجلس:

- أيّها الشّيخ، إنّي غريبٌ في هذه الدّيار، وأَشْكَلَتْ عليَّ أمورٌ أنا سائلُكَ عنها.

- نسأل الله أن يعلمنا!

ردّدَ بصرَه في الرميليّ مُتأمّلًا. لاحظَ شدّةَ بياضِ أسنانه ودقّةَ أنفه وتغضُّنَ جبهته. ولمح ذلك البريقَ الطافحَ في عَينَيه. ولاحظ انتباهَ الرميليّ إلى تأمّله إيّاه فبادره:

- أيّها الشّيخ، أيّهما تفضِّل للعالِم: أن ينفرد تاركًا النّاسَ منشغلًا بنفسه أم يختلطَ بطلّاب العلم ويرشدَهم؟

رفعَ الرميليّ بصرَه في السقوف والسواري، ومدَّهُ في أطراف المسجد المليء بِحِلَقِ العلم، وقال بصوتٍ جهوريٍّ لا يتناسب ونحافته:

- طلّاب العلم؟ لقد صدَق أبو سليمان الخطابيّ إذ قال: دع الراغبين في صحبتكَ والتعلّمِ منك! فليس لك منهم مالٌ ولا جمال! إخوانُ العلانية أعداء السرّ. إذا لقوك تملّقوك وإذا غبتَ عنهم سلقوك!

وسكتَ قليلًا، وانحنى مُسبِّلًا طرفَ فراشه بيده المرتعشة، ثمّ واصل دون رفع بصره:

- مَن أتاك منهم كان عليك رقيبًا، وإذا خرج كان عليك خطيبًا. أهلُ نفاقٍ ونميمة، وغلٍّ وخديعة! لا تغترَّ باجتماعهم عليك، فما غرضهم العلم بل الجاه والمال وأن يتّخذوك سلّمًا إلى أغراضهم، وحمارًا في حاجاتهم!

تسارعت حركة أجفان أبي حامد وهو يسمع كلامَ الرميليّ. فقد كان من الرّجال الّذين يزيدون الكلمة قدرًا إذا نطقوا بها. وخُيّل للغزاليّ أن كلَّ كلمةٍ سمعها من هذا الشّيخ تُحيل على رجلٍ يعرفه. وسكتَ الرميليّ منشغلًا بِنَتْف خيطٍ من طرف فراشه، فقال الغزاليّ:

- وماذا عن الكتابة لهم دون التدريس؟

وقبل أن يفتح الرميليّ فهمه للإجابة سمعَا صُراخًا آتيًا من ساريةٍ قريبة:

- اكتبوا ما شئتم أن تكتبوا! ستُحرَق كتبكم! وتُنْكَح نساؤكُم! وتُسبَى بناتكم!

تلفّت الرميليّ، فإذا بزيدون البهلول مستلقيًا على ظهره، رافعًا قدمَه، فابتسمَ، وقال:

- كيف تكتب لهم الكتبَ دون مدّ اليد إليهم ومفاوضتهم الحديث؟ فالكتاب لا بدّ له من ناسخٍ وقارئ، ولن يتركوك وشأنَك إذا كتبت، بل سيسّاقطون عليك كالذباب! فإنْ قصّرتَ في غرضٍ من أغراضهم كانوا أشدَّ أعدائك! ثمّ يعُدّون زيارتهم لك وأخذَهم عنك دالّةً عليك، ويرونه حقًّا واجبًا لديك، ويفرضون عليك أن تبذل عرضَك وجاهَك ودينَك لهم. فتعادي عدوَّهم وتنصرَ قريبهم

وخادمَهم، وتنتهضَ لهم سفيهًا، وقد كنتَ فقيهًا! وتكون لهم تابعًا خسيسًا بعد أن كنت متبوعًا رئيسًا!

وسكتَ مرسلًا طرفَه مع العمائم المتحلّقة حول السواري، ثمّ رفَعَ نبرته:

- اسمع يا أبا حامد!

وانتفض الغزاليّ. فقد كان يظنّ الرميليّ لا يعرفه. وفهم أنّ وجودَه في القدس لم يعد يخفى على أحد. لكنّ بعض النّاس يجاملونه فيوهمونَه بأنّهم لم يعرفوه لما فهموا من حرصه على ذلك. فقال الغزاليّ بوجهٍ محمرّ:

- نعم، أيّها الشّيخ!

- ألم يأْنِ لك أن تقوم وتتركني؟

أمسك الغزاليّ أوراقَه مبتسمًا، ودسّها تحت إبطَيْه:

- ألتمسُ دعاءك أيّها الشّيخ!

حرّك الرميليّ رأسَه، وابتعدَ أبو حامد بقدمَين ثقيلتَين ورأسٍ مليءٍ بالأفكار والخواطر المتناقضة. مشَى بين السواري وأذناه ممتلئتان بِدويّ الحلقات، حلقة المالكيّة وحلقة الشّافعيّة وحلقة الحنفيّة. قلّب بصرَه لعلّه يرى الشّيخة الشّيرازية، فلم يجد لها أثرًا. وتذكّر أن ليس من شأنها دخول المسجد، وإنّما أتت ذلك اليوم لتبلغه تلك الرّسالة.

واصلَ سيرَه والعرقُ يتصبّب من طرف جبينه. وصلَ إلى أقصى ساريةٍ في الركن الشّماليّ وجلس. *ليس لي إلّا التوجّه إلى الله أسبوعًا كاملًا مسترشدًا مستهديًا. كيف أعرفُ الحقّ والأقرب إلى مرضاته. ليس لي إلّا الدّعاء والاجتهاد والاستخارة والتمرّغ بين يدَيْه تعالى. فإظهارُ العبودية مفتاح لكل مغلق.*

انحنى ليضع الأوراقَ عند السّارية، فارتجف. أظلمت عيناه، واجتاحتْه رعدةٌ شديدةٌ، فجلس ممسكًا بالسّارية. بدأت الظلمة تنجلي رُويدًا رُويدًا.

تذكّر أنّه لم يذق طعامًا منذ أمس. فلم يتعشّ ولم يتسحّر للصوم. وتذكّر قصص عبّادٍ يبقون أسبوعًا دون طعام، فوقف حانقًا على نفسه مؤنّبًا. *كأنّك تريد أن تكون ثورَ حظيرةٍ تُعَلُّ بالطّعام وبالشّراب!*

أمسك السّارية، ونهض بعزمٍ، ثمّ وقفَ ليدخلَ في الصّلاة، فوجد قلبَه مشغولًا. *هل ستعود إلى صلاتك القديمة أيّامَ بغداد ونيسابور؟ صلاةٍ تقوم فيها بكلّ شيءٍ من أعمالك غير ذكر الله؟ أتذكر كيف كنت تحلّ أعقَدَ مسائلِ الفلسفة والفقه أثناءَ الصّلاة، ثمّ تُؤوّل ذلك بأنّه في سبيل الله وأنّك مأجورٌ عليه؟!*

رفع الأرواق ونظر إليها؛ *هل أرميها وأعتزلُ في خانقاهٍ أو بين جبلَين كالعبّاد الّذين سمعت عنهم البارحة؟ أم أبدأ الكتابة والنصحَ لعلّ الله يتدارك بي عالم العلماء والمدارس؟* وشخصتْ الشّيرازيّة في ذهنه، واستعادَ رؤاها المتكرّرة له. فعادَ إليه توازنُه، وأحضر قلبه واستغفر. راوح بين قدمَيه وهو يحاول رفع يدَيه ليبدأ الصّلاة. سافر خيالُه متملّيًا السماواتِ والأرضَ والأكوانَ وقدرةَ الله وملكوته ولطفه. بدأ قلبُه يهدأ، ورؤيتُه إلى الكون تحتدّ. وخفَتَ وجِيبُ قلبِه، وجفَّ العرقُ على جبينه... واندمَجَ في المناجاة.

71

القدس، شوّال، 489 هـ.

استيقظَ من غَفوة الضّحى. ولمّا فتحَ عَينَيه رأى السّقفَ الحجريّ المرتفع، وسمعَ صخَبَ النقاش في فناء الخانقاه، بينما امتلأ أنفُه برائحةٍ غريبةٍ ذكّرَتْه ببغداد. جلس متثائبًا واضعًا كفّه اليمنى على فيه. ثمّ لبس مرقّعتَه، ودفع الباب، فرأى دراويش جلوسًا تحت الشّجرة الوارفة قربَ النّافورة. ألحَّ عليه ذهنُه محاولًا تذكُّر طبيعة تلك الرّائحة. *كأنّها رائحةُ الطلْع أيّام تأبير النخل في بغداد*. وانقطعت فكرتُه وهو يسمع أصواتًا مرتفعةً ونقاشًا محتدمًا في الفِناء. خطرَ له أنّ الأمرَ جَلَل، فهو لم يسمع ضوضاء قطّ في الخانقاه. والنقاشات إنّما تكون في المساجد والمدارس. مرَّ بالميضأة، وتوضّأ، ثمّ مشَى قاصدًا الباب. وما إنْ سامتَ الجالسينَ تحت الشّجرة حتّى كان صوت أحدهم واضحًا في أذنيْه:

- ثمّة خلافٌ مشهورٌ: هل المقتول ميّتٌ أم لا. والدليل..

خفّف مشيته مُصغيًا دون أن يلتفت، فسمع المتحدّث يقول:

- فقال قائلون كلّ مقتولٍ ميّت. وقال قائلون المقتول ليس بميّت. واختلفوا في القتل أين يحلّ؟ فقال قائلون يحلّ في القاتل وقال آخرون يحلّ في المقتول!

تململتْ ذكرياتٌ غافيةٌ في مهاوي ذهنِه منذُ دهر. وعادت ذاكرتُه إلى أيّام دراسة علم الكلام في نيسابور. فلوى رأسَه، فلمَحَ درويشًا جالِسًا القرفصاء، وبين يدَيْه شابٌّ متورّدُ الوجه منصت. *لم يُشحَن ذهنُ هذا*

الفتى الطريّ بهذا الجدل الّذي لا طائل تحته؟ أحسّ بانسحاب أشواكٍ بين ضلوعه. *كيف تضيع أعمارُ النّاس؟* كرَّ راجعًا، فانتبَه المتناقشون إلى عودته، فوجموا. اقترب وحسَرَ لثامَه عن فيه، وخرج صوته صقيلًا واضحًا:

- لِمَ تُدرّسُ الفتى هذه الآراء؟

- أعلِّمه العقيدة!

- ما هذه بعقيدة. وما حاجةُ هذا الفتى الّذي لم يُحكِم مبادئَ العلوم إلى هذه القضايا؟ هذه تمحُّكاتٌ وتحَكُّماتٌ لم يظفر منها فحولُ النُّظار بطائل، فكيف لصاحب هذا الإهاب الغضّ والناب الطريّ أن ينالَ منها عقيدةً أو طمأنينةً أو سكونَ قلب؟ إنّ رأسَ المال العمل، فما صلة هذا الكلام به؟ هل فاتَ أبا بكر وخالد بن الوليد خيرٌ إذ لم يسمعَا قطُّ هل المقتول ميّت أم لا؟

وانتبه إلى لهجته الحادّة وصوتِه المرتفع، فسكت. حَدَجَتْه العيونُ الصّامتة، وسكنتْ يدُ الفتَى عن الكتابة في القرطاس. انعقد لسانُ الدّرويش، *فماذا يستطيع أن يقول للإمام الغزاليّ وكيف يجادُله؟* وجاء صدَى قراءةٍ حزينةٍ من داخل إحدى حجر الخانقاه:

- وهو الله في السماوات وفي الأرض! يعلَم سرّكم وجهرَكم ويعلم ما تكسبون!

أحسّ أنّ الآيةَ تخاطبُه. وتسلّلتْ يدُه إلى طرفِ لثامه ومسحَ وجهه. فرفع الدّرويش رأسَه وحدقتاه تدوران:

- ألا يتفضّل الشّيخُ بالجلوس لنتحدّث؟

فتلفّت الغزاليّ متردّدًا، ثمّ جلس. مدّ الدّرويش يدَه، ووضعها على ركبة أبي حامد:

- هؤلاء الشبّان يعيشون في بحرٍ متلاطمٍ من الآراء والمذاهب والفِرَق

والنِّحَل والأديان. فهذه هي القدس، وحالها في الاختلافات أشدّ من بغداد.

ورفع يده مُشيرًا شمالًا:

- ففي تلك الناحية ديارُ اليهود وأحبارهم، وهم مشغولون بالجدل. وليس لدى عقلائهم انشغالٌ غير البحث عن مطاعنَ في دين المسلمين. وقد تتلمذَ أحبارُهم على المعتزلة وتعلّموا أصولَ الكلام منهم، وأحكموا ديانتَهم من أصول المسلمين وطرائقهم.

ثمّ تلفّتَ غربًا:

- وفي هذه الناحية باطنيّةٌ إسماعيليّةٌ لا يدينون إلّا بالجدل، ولا يتركون ذراري المسلمين دون زرع الشّك في قلوبهم الغضّة. فماذا نفعل؟ لا بدّ للمؤمن من تعلّم مقالات النّاس والردّ عليها.

بدأ الدراويش ينثالون من أطراف الخانقاه. فهذه أوّل مرّةٍ يرون فيها الغزاليّ يتحدّث. فقد عرفُوا من هو منذ أسبوعَين لكنّه ما رضي قطُّ أن يتحدّث أو يتكلّم. تقاربُوا منصتِين متطلّعينَ تغلي أدمغتُهم بالأسئلة والتطلّع إلى سماع كلام حجّة الإسلام.

نظر الغزاليّ إلى الأرض، وذكّر نفسَه قبل حديثه بأنّ الحكمَ الشرعيّ يوجب عليه تبيانَ هذا الأمر ولا يجوز له السكوت. فلو سكتَ لكان كاتمًا للعلم. تجدّد نشاطُه، وقال وقد ازدادت البحَّةُ والصَّحَلُ وضوحًا في صوته:

- قد يُظنُّ أنّ فائدة علم الكلام كشفُ الحقائق ومعرفتُها على ما هي عليه، وهيهاتْ! فليس في الكلام وفاءٌ بهذا المطلب الشّريف. ولعلّ التخبيط والتضليل فيه أكثرُ من الكشف والتعريف!

رفع بصرَه، فرأى الوجوهَ المرهقةَ ساكنة، والعيونَ الّتي أضناهَا السهرُ خاشعة، والآذانَ المتطلّعةَ مُصغية.

- وهذا إذا سمعتمُوه من مُحدّثٍ أو حَشَويٍّ ربّما خطرَ ببالِكُم أنّ الناسَ أعداءُ مَا جهلوا. فاسمعُوه ممّن خبرَ الكلامَ ثمّ كرِهه بعد حقيقةِ الخبرة، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلّمين، وجاوزَ ذلك إلى التعمّق في علومٍ أخرى تُناسِب نوعَ الكلام، ثمّ تحقّق بعدَ ذلك أنّ الطّريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدودة!

كان صَحَلُ صوتِه يحتدّ، ومخارجُ حروفِه تزدادُ اتّضاحًا حتّى كأنّها ترنّ رنينًا بين أسنانه. ولاحظَ تكاثُرَ الحاضرين، فرأى صفًّا كاملًا من المرقّعات، واللّحى الثائرة. وتقدّم شابٌّ أصلع:

- ألا يتكرّم الشّيخُ بوضع رسالةٍ في العقيدة تقوم بما تحتاج إليه الأحداثُ دونَ كبيرِ تقحُّمٍ في الكلام؟ فالحاجةُ بيّنةٌ إلى رسالةٍ تكفي في العقيدة تقوم مقامَ علم الكلام وتكفي شرَّه.

- يقدّر الله ما يشاء!

ثمّ وقف، فتباعد الرّجال مفسحِين وهم يتأمّلونه مدبرًا وجبّتُه ترتَفِع وتنخفض فوقَ كعبه بقليلٍ حتّى توارى. كان ذهنه يدبّ دبيبًا، وقلبُه يضرب قفصَ صدره مُفكّرًا في أنّه لا بدّ من إصلاحِ كلِّ ما له صلةٌ بعلوم هذا الدين. لكنّه حائرٌ كيف يقع ذلك مع محافظته على قلبه ودينه؟!

مشَى مع الزّقاق، فتلقّفَتْه رائحة الأزهار والرياحين. ورأى عمّالَ الجامع يبتعدون في ملابسهم الصّفراء وقد فرغُوا من غَسْل باحة المسجد، فداعبتْ أنفَه رائحةُ الماء المخلوط بالرياحين والياسمين والأزهار.

دخلَ فناء المسجد، فأحسّ ببرودة البلاط تحتَ قدمَيه. ماذا عليَّ فعلُه اليوم من تقرّبٍ إلى الله غير الصّلاة والكتابة؟ وتذكّر أنّه لم يتصدّق منذ أيّامٍ ولم يخدم أحدًا بيدَيْه.

لم يدخل المسجد، بل توجّه إلى السوق الكبير منحدرًا مع الشّارع مجاوزًا

صفَّ المكارين الواقفين قرب حُمُرِهم وبِغَالِهِم في طرف السّوق. كانوا نحو أربعين رجلًا ينتظرون مَن يبحث عن كراءٍ ليوصلوه إلى وجهته، منشغلين بالأحاديث وتنظيف دوابّهم. دخل السّوقَ من جهة المطاعم فعبقَ أنفُه بالكباب الطازج واللحوم المقليّة، وتحرّكت معدته. تجاوزَ، وأخذَ عمامتَه وتقنّع بها. ثمّ وصلَ إلى سوق البقول، وبدأ يبحث بعينه.

لمحَ فتياتٍ عند بائع برتقالٍ وهنَّ يضحكنَ والبقّالُ يمازحهنّ. تجاوزَهنّ، فرأى عجوزًا تحمل كيسًا كبيرًا لا تكاد تستقلّ به، فاقترب منها:

- أمّي، هل تتركين الدّرويش يحمل متاعك؟

رمقته بعينَين شرستَين، ووضعت الكيسَ بين رجلَيْها، وضمّت يدَيْها على صدرها:

- وما يدريني أنّه لصٌّ سيهرب ببقولي؟

تبسّم:

- إطلاقًا، بل عبدٌ من عباد الله يودُّ مساعدةَ أمّه!

- الله يرحمك يا بنيّ!

وتناولَ الكيسَ من يدَيْها وبدآ يسيران!

كان يسيرُ بمحاذاتها وهي تمشي متطامنةً على رجلَيها تميلُ يمنةً ويسرة. وضعَ الكيسَ على كتفه اليمنى، ولمعت عيناهُ منصتًا لحديث العجوز:

- لقد اشتريتُ لحفيدتِي أمس ملابسَ، لكنّ أمّها رفضت قبولَها... أيعقل هذا؟ هزّ رأسَه مقاربةً لها، فلم تمهله، وواصلت:

- كلّ ما أحبّه تكرهه، وكلّ ما أكرهه تحبّه. وما ذنبي إلّا أنّي تركتُ ابني يتزوّجها.

وقطعتْ حديثَها فجأةً وهي ترفعُ يدَها مؤشّرةً إلى الرّجل الأصلع الجالس على مصطبةٍ أمام دكانّه:

- بو أحمد، كيف حالك؟ قل لأمّ أحمد إنّ حفيدتي ستتزوّج!

ولوّحَ بيده، ثمّ صاحَ وفُتاتُ الأكل يتطاير من فيه:

- أهلًا أمّ حامد... يصل.

واصلَا سَيْرَهما، وبدأت الدكاكين تقلّ والسّوق تنحسر، لكنّ حديثَ العجوز يزداد. أحيانًا تتكلّم وأحيانًا تشتم وأخرى تضحك. وابتعدت السّوق فسكنت الضّوضاء. وبدآ يسمعان أنفاسَهما بوضوح. والتَفَتَتْ إليه، فلاحظت أنّه يلبس ملابسَ الدراويش، فضربت يدَها على فخذها:

- كانت لي صديقةٌ هربت عن عيالها وأصبحت منكم... تعيش في الجبال مع الشّيخة الشيرازيّة. أليس الأفضل لها أن تبقى ترعَى حَفَدَتَها من التفرّغ في الجبل للنوم والأكل؟

ونظرت إليه منتظرةً ردّ فعله، لكنّها لاحظت ابتسامتَه، فضحكت:

- إنّما أمزح معك أيّها الدوريش. تعال.. هذا باب بيتي.

واقتربَا من الباب وهو يشمّ منها رائحة الزيتون المخلوطة بدهانٍ غريب لم يحدّده، لكنّها ذكّرته بدرب الزعفران في بغداد. ثمّ خرجتْ خادمةٌ قصيرةٌ راكضةً، فتلقّتها العجوز:

- خذي الكيس من الدّرويش... وأعطِه منه شيئًا..

وأخرجت الخادمة قبضةً من العنب، فاختطفتها العجوز، ومدّتها إليه:

- خُذ هذا وادْعُ لأمّك!

نظر إلى القِنْوِ مُفكّرًا *هل الأفضل له أخذه أم ردّه. هذا من أحلّ الطّعام الّذي يمكن أن يبلغ جوفي. لكنّي جئتُ لأخدم لا لكسب الأجر أو أخذِ الأجرة.* ورفع يده:

- جدّتي، لا أريده!

ونزلت يدُها على كتفه بضربة:

- خُذ يا درويش، أترفض هديّةَ أمّ حامد.... ألا تعرفني؟

ومدَّ يدًا مرتبكة، وقبض قنوَ العنب. وانتبه إلى نظرة الخادمة إليه وهي تضعُ إصبعَها في فمها ضاحكة. لفّ القنوَ في كُمّه، وعاد مع الشّارع باحثًا عن سائلٍ يتصدّق به عليه. وقبيل الظهر كان يدخل الخانقاه مرهقًا.

جلسَ في ركنِ حجرته، وأخرج أوراقَه، ثمّ بدأ يكتب فصلًا من إحياء علوم الدين. ولم يكتب صفحتَين حتّى وقف رجلٌ على باب حجرته متلعثمًا:

- الشّيخ الغزاليّ؟

- نعم... ماذا وراءك؟

ودسّ الرّجل يدَه في جيبه، فأخرجَ وُرَيْقَةً ومدّها إليه. تناولها، فإذَا فيها رسالةٌ من الشّيخة الشّيرازية تطلبُ منه زيارتَها غدًا في الجبل. ابتلع ريقَه، ورفع وجهه في الرّسول متمتمًا:

- يكون الخير إن شاء الله!

وأدبر الرّسولُ، فأتبعَه عينيْهِ، وقلبُه ينضح أسئلةً عمّا ينتظره غدًا في خانقاه الشّيخة الشّيرازية.

72

القدس، شعبان، 489 هـ.

داعبتْ وجهَه نسماتٌ باردةٌ، فشعر بالندى المتسلّل بين الجبال يلامسُ وجنتَيْه، ولفحتْ أنفَه رائحةُ الأماكنِ المفتوحة المعشوشبة. ذكّرتْه رائحةُ الأعشاب بصباحات الطابران، وأنفاسِ أمّه. ورأى وجهَ والدِه الّذي لا يكاد يذكرُه، الشّيخ النحيف الأبيض الباسم الذاكر لله دومًا. وظهرت صورةُ أمّه وأنفُها الحادّ وابتسامتُها الرقيقة وصوتُها الخفيض وطريقتُها المتأنّية في الحديث، كأنّها دَومًا تُكلّم مَن لا يفهَم لغتَها، فتنطق الكلمات واحدةً تلو أخرى بأناةٍ وأناقة. قلّب بصرَه في السّماء مستغفرًا طاردًا الأفكارَ حتّى لا يثقل قلبُه أو ينشغلَ عن الذّكر بتذكّر أبويه، أو حتّى لا يختِله الشّيطانُ ليعارضَ مشيئةَ الله على أخذ أمّه منه في صباحات عمره.

سارَ في طريقٍ جبليٍّ ملتوٍ يقودُ إلى عين صالح. مرتفعاتٌ خضراء تتناثر فيها مساكنُ العباد وأوقافهم. وتذكّر وصفَ عين صالح كما أخذَه من أحد رفاق الخانقاه. *إذا كان وصف الشّيخ سعيد دقيقًا فأنا غير بعيدٍ منها.*

لمح أبقارًا ترعى وطيورًا تتقلّب في السّماء وراعيًا جالِسًا على صخرةٍ يغنّي ويرقب الطيورَ في الهواء. عاد ذهنه إلى الشيخ سعيد، ذلك الدّرويش الّذي يقاسمه السكنَ في الخانقاه. *لماذا يصرّ على صلاةِ خمسين ركعةً قبل أن ينام؟ لمَ يُلزم نفسَه بها مهما نعسَ أو كسلَ أو تكدّرت نفسه؟ أليس الأفضل الإقبال على الصّلاة في حال حضور القلب والنشاط ثمّ الانشغال بالذّكر عند تعذّر النشاط أو عند هجوم النعاس؟*

وانتبه إلى أنّه يغتاب رفيقَه بهذه الخواطر. *إلى متى سأظلّ مشغولًا بخلق الله عن الله؟ وما لي ولسعيد؟* وأسرّ في نفسه أن يتصدّق صدقةً للتكفير عن هذا الخاطر، أو يأخذ ملابسَ سعيد ويغسلها بيدَيه كفّارةً عن غيبَتِه. وتذكّر أنّ تعريف الغيبة الحرام هو «ذكرُكَ أخاك بما يكره» وأنّه لم يذكره أمام النّاس بما يكره، بل خطر له خاطرٌ فحسب. مشى صاعدًا مع ربوةٍ منصتًا لتغريد طيرٍ غير بعيد، وعاتب نفسه على أنّ الفقه ودقّةَ النظر وحفظَ التعريفاتِ لا يقودان إلى الورع. وضرب بعصاه جانبَ الطّريق محاولًا طردَ كلّ تلك الأفكار وهو يهمهم بالذّكر.

- يا حيّ يا قيّوم برحمتك أستغيث!

واصلَ سيرَه مُفكّرًا في أَمْرٍ هَجَسَ له منذ أيّام: إنّه خاطر السّفر إلى مكّة مع قافلة الحجيج بعد أسبوعين. تخيّل نفسَه مندسًّا بين الحجيج حاسرَ الرأس مُتضرّعًا إلى الله أن يتقبّل خروجه من الدّنيا، وتركَه النظاميّة، وأن يلهمه الحقّ، ويعصمَه من أمراض القلوب، وتتبّعِ عورات النّاس. فخفقَ قلبُه لصورته بين جموع النّاس، مجهولَ المكان والمكانة، متقلّبًا بين الصفا والمروة. رفع وجهَه، ووقف. نظرَ إلى طرف الطّريق، فرأى علامات عين صالح كما وصفها له سعيد، صخرتَين عظيمتَين، بينهما عينُ ماء، تحيط بها أخصاص، في طرفِها بيتٌ كأنّه معلّقٌ فوق صخرة.

لفَّ بين الصخور الناتئة، فلاحت له أعرشةٌ وبيوتٌ وحديقة. كان كلّما اقتربَ من المكان داعبت أنفَه رائحةُ الأزهار والبقول. رأى الحائطَ المربّعَ أمامَه. كان من الحجارة والآجرّ تتوسّطه بيوتٌ وأعرشةٌ وأشجارٌ كثيرة. ما إن اقترب من الباب حتّى سمعَ أصواتًا نسائيّةً مختلفة، ولمحَ البوّابَ جالِسًا على مصطبةٍ قريبة من الباب الرماديّ. وقف الحارس مُتثاقِلًا وفي يده رمّانةٌ، وقال بصوتٍ لا يكاد يفهم:

- السّلام عليكم.

- وعليكم السّلام.

ذكّرتْه جبهةُ الحارس الواسعةُ وعيناه الصّغيرتان بأحد البقّالين في نيسابور.

- هل دعتك الشّيخة؟

- نعم!

وضعَ الحارسُ الرمّانة على الخَرْج المسندِ إلى طرف المصطبة، وهو يمسحُ فمَه بظهر يدِه، وقطراتٌ حمراء تسيلُ على ذقنه. اقترب من الباب، وقرَعَه ثلاثَ قرعاتٍ قويّة، وانتظرَ وقتًا، ثمّ فتحَه، وأغلقَه وراءه. أدارَ الغزاليّ ظهرَه إلى الباب، وجلسَ على طرف المصطبة ناظرًا إلى المنحدرات والسهول والجبال والسّماء البعيدة المتأبّية. ملأ أذنَيْه من السكون المشوب بالأصوات النسائيّة المتقطّعة، وهو يفكّر في الأمر الّذي دعتْه له الشّيخة الشّيرازية. *تُرى ماذا تريد؟*

وسمع صريرَ الباب، وظهرَ الحارس، وبعد هنيهةٍ لاحتْ وراءه ملاءةُ الشّيخة الشّيرازية. تجاوزت عتبةَ الباب منحنيةً قليلًا، ثمّ رفعت رأسَها مبتسمة:

- أهلًا وسهلًا بحجّة الإسلام!

ولم تمهله ليردّ، بل مدّت يدَها إلى الشّجرة الوارفة قربَ الباب، وحنتْ رأسها ويدَاها خلفَ ظهرها:

- نجلس هناك.

تقدّم أمامها، ثمّ جلست على الأرض وظهرُها إلى جذع الشّجرة. وأشارت إليه، فجلس مُتأمّلًا عَينَيها الواسعتَين العسليّتَين وحاجبيها المقوّسَين وأنفَها الحادّ ولونَها الرقراق رغم شظف العيش. دارت عيناها

دورانًا متسارعًا كأنّها تهمّ بقولٍ لا تقوله، فخطرت له خواطرُ كثيرة. *أيعقل أن تسأل عمّا لا يعنيها؟ ماذا تريد هذه المرأة؟*

حوّلَ وجهَه جهةَ الحارس فرآه يُدخِل آخرَ جزءٍ من الرمّانة في فيه، ولمح فتاةً تخرج حاملةً كُناسة، ثمّ جاءه صوت الشّيرازية:

- شكر الله للشيخ تجشُّمَه عناءَ المجيء. ثمّ إنّه حَزَبَني أمرٌ أردتُ عَوْنَكَ عَلَيه. فكثيرٌ من الطالبات والمريدات يُرِدْن تعلّمَ العقيدة ولا يتيّسر لهنّ إلّا علمُ الكلام المحذور، القائد إلى المخوف. فألقي في روعي أن ألتمس منكم كتابةَ رسالةٍ في العقائد تخلُو من غُول الكلام وتُغني عنه. فما أعلم على ظهرها مَن يحسن ذلك غيركم.

شعر أبو حامد كأنّ جبلًا انزاح عن كاهله، حتّى إنّه مدّ يدَه ليخلع عمامته، ثمّ انتبه، فتظاهر بأنّه يحكّ رأسه:

- هذا من توفيق الله. فأنا مشغولٌ أيّامي هذه بكتابة كتابٍ في «إحياء علوم الدين». وهو كتابٌ يعمد إلى المهمّ ممّا يحتاجُ إليه المسلم في سبيله إلى آخرته فيوفيه حقّه، ويلوي عنانَه دون الحشو والزيادات. فلعلّي أفعلُ إن شاء الله.

هبّت نسماتٌ آتيةٌ من جهة الوادي، فتحرّكت أغصان الشّجرة، وأطراف ملابس الشّيرازية، وظهرت فتاةٌ آتيةٌ من داخل الخانقاه، فسكتَا. واقتربت، ثمّ انحنت وأسرّتْ للشيخة بأمر، فهزّت رأسها:

- قولي لها أن تنتظر!

ولّت الفتاةُ تسحب ذيلها، ورفعت الشّيرازية بصرَها إلى السّماء:

- أيّها الشّيخ المبارك، لم تركتَ بغداد، دارَ الخلافة ومهوى الأفئدة، ومربطَ مصالح المسلمين، ودفنتَ نفسك في الخانقاهات؟

كان ينكتُ الأرضَ بعود، فسكنت يده:

- هربتُ لأنّي علمتُ شدّةَ تعلّق قلبي بالدّنيا. والقلبُ متعلّقٌ فطرةً بالمباهج منجذبٌ إليها انجذابَ الحديد إلى المغناطيس. لكنّه إذا بعُدَ عن مواقع الفتن وشراك الغواية أَمِنَ وسكنَ وفرح. وإذا تُرِك قريبًا من الدّنيا انجذبَ إليها لا محالة كما إذا ظلّ الحديد قرب المغناطيس، وإنّما السّلام في البعد.

وسكتَ فتبادلَا النظرات. وشعر بأنّها رضيت بحجّته، ثمّ جاءه صوتُها:

- أليست تلك حال القلب الفارغ من العلم؟ أمّا القلب العامر به وبربّه فهو المغناطيس. ثمّ إنّ أمّة محمّد لن تجد ناصحًا ولا معينًا إذا توارى خيارُها وتركوا شرارَها يتصدّرون، وتركوا لهم القرب من السلاطين. فساحة الإسلام تستباح، ألم تسمع بجيوش الفرنجة الّتي يتحدّث عنها النّاس وهي قادمةٌ لأخذ مسرَى رسول الله؟ أمّا العلم والعمل...

وخطر لها أن تخبره برؤيا رأتْها قبل شهرين، ثمّ تلعثمتْ، وسكتت ناظرةً إلى الأرض فقال:

- نعم، إنّ العلم والعمل يقوّيان القلبَ فيكون شديدًا شدّةَ الحديد. فيفري كلَّ صخرٍ ويكسر كلّ صلب. لكنّه إذا اقترب من حَوزة المغناطيس ألقى السلاحَ وحرّكَ الذيل! ثمّ إنّ الحديدَ إذا أطال مرافقَة المغناطيس أخذَ خاصيّتَه وبدأ يجذب الحديد. وكذلك القلبُ إذا أطال المكثَ قربَ المنكرات أصبح صاحبُه داعيًا إلى المنكرات مغناطيسًا للمعاصي.

كان منطلقًا بصوته الدافئ الصَّحل ومخارج حروفه المجوّدة دون تكلّف. وفتح فمَه ليردّ على فكرتها الّتي رآها صبيانيّةً عن القرب من

السّلاطين وحماية حوزة الإسلام بهم. ثمّ لَجَمَ لِسانَهُ وسكت. وخطر للشيرازيّة أنّها لن تغلبه جدلًا. فتنفّست لتتحدّث، لكنّ صوته كان أسبق:

- على كلّ حال، لقد لجأت الشياطين إلى السواحل والشّطآن، واتّخذ كلٌّ منهم مكانًا خفيًّا خوفًا من الإنسان! أفلا يحسن بضعيفٍ مثلي أن يبتعد عن شياطين بغداد وسلاطينها ليجدَ قلبه؟!

رمت ببصرها إلى الأرض، وقالت دون النظر إليه:

- جزى الله الشّيخَ وأجزل له المثوبة. ووفّقَه لإنهاء كتابه عن إحياء علوم الدين. وأنا أنتظر رسالةَ العقائد حتّى أدرّسها للطالبات.

وفهم أنّ الحديث انتهى:

- تقبّل الله منّا ومنك. أتأذنين؟

هزّت رأسَها، فوقف. وابتعد مع الطّريق نازلًا وهي تُتبِعه عينَيْها حتّى توارى.

وفي اليوم التالي جاءها سعيد يحمل حزمةَ أوراق أرسله بها. فتحتها وقرأت:

«كتاب قواعد العقائد في لوامع الأدلّة

الحمد لله الّذي ميّزَ عصابةَ السنة بأنوار اليقين، وآثر رهطَ الحقّ بالهداية إلى دعائم الدين، وجنّبهم زيغَ الزائغين وضلالَ الملحدين... ووفّقهم إلى الاقتداء بسيّد المرسلين، وسدّدهم إل التأسّي بصحبة الأكرمين، ويسّر لهم اقتفاءَ آثار السلف الصالحين، حتّى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحَبل المتين، ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين.

فجمعوا بالقول بين نتائج العقول وقضايا الشّرع المنقول، وتحقّقوا أنّ النطق بما تعبّدوا به من قول لا إله إلّا الله محمّد رسول الله ليس له طائلٌ ولا محصول إن لم تتحقّق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشّهادة من الأقطاب

والأصول. وعرفوا أنّ كلمتَي الشّهادة على إيجازها تتضمّن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرّسول وعلموا أنّ بناء الإيمان على هذه الأركان وهي أربعة. ويدور كلّ ركنٍ منها على عشرة أصول.

الركن الأوّل: في معرفة ذات الله تعالَى ومداره على عشرة أصولٍ وهي العلم بوجود الله تعالى وقِدَمِه وبقائه، وأنّه ليس بجوهرٍ ولا جسمٍ ولا عَرَضٍ، وأنّه سبحانه ليس مختصًّا بجهةٍ ولا مستقرّا على مكانٍ، وأنّه يرى، وأنّه واحد.

الركن الثاني: في صفاته ويشتمل على عشرة أصولٍ وهي العلم بكونه حيًّا عالمًا قادرًا مريدًا سميعًا بصيرًا متكلّمًا منزّهًا عن حلول الحوادث وأنّه قديمُ الكلام والعلم والإرادة.

الركن الثّالث: في أفعاله تعالى، ومدارُه على عشرة أصولٍ، وهي أنّ أفعال العباد مخلوقةٌ لله تعالى، وأنّها مكتسبةٌ للعباد، وأنّها مرادة لله تعالى، وأنّه متفضّلٌ بالخلق والاختراع، وأنّ له تعالى تكليفَ ما لا يطاق، وأنّ له إيلامَ البريء ولا يجب عليه رعايةُ الأصلح، وأنّه لا واجب إلّا بالشّرع، وأنّ بعثة الأنبياء جائزةٌ، وأنّ نبوّة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلّم ثابتةٌ مؤيَّدةٌ بالمعجزة.

الركن الرّابع: في السمعيّات ومداره على عشرة أصول.....».

73

«وخلّى صاحبُ القسطنطينيّة سبيلَهم ليحولوا
بينه وبين صاحب الشّام من السلجوقيّة».
ابن خلدون

شوّال، 489 هـ/ أكتوبر، 1096م. ضواحي نيقية، تركيا.

كان الأمير اليافع، قليج أرسلان، يشعر بتوتّرٍ طاغٍ يخفيه عن مساعديه ووزرائه. فمنذ أشهرٍ وهو يسمع عن عشرات آلاف الفرنجة القادمين جهةَ بلاده، لكنّه لم يحرّك ساكنًا. فقد تعلّم من أعمامه وآبائه أنّ الخطر الحقَّ الخطرُ الداخليّ، خطرُ الأمراء الأتراك المتنازعين. لكنّ رأيَ الأمير تغيّرَ منذ أمس. فها هو الآن يرى من نافذة قصرِه أدخنةَ حرائق تشعلها الجيوشُ الصليبيّة في القرى المسيحيّة التابعة له.

كان في ملابسه الجلدية، وبيديْه خريطةٌ وهو ينصت بكلّ حواسّه لكلام مدرّبه ومستشاره. انتبه إلى أنّ مستشارَه ذا الهامة الضّخمة الحليقة قد سكت، فمسحَ ذقنه الّذي لم ينبت بعد:

- نعم، واصل حديثك! واصل!

وضع القائد يدَه على صدره ناظرًا إلى الخارطة الكبيرة المنشورة على الطّاولة:

- عندما وصل قادةُ الفرنجة إلى الإمبراطور ألكسيوس اشترطَ عليهم أن يُقسِموا الأيمانَ بين يدَيه على تسليمه كلَّ مدينةٍ يسيطرون عليها

من بلاد الإسلام. وافق القادةُ على تلكّؤٍ، فقد أغدق عليهم المالَ والهدايا. وتقول عيوننا إنّ القائد العامّ لهؤلاء الغوغاء راهبٌ قصيرٌ أحمق يدعى بطرس النّاسك.

وقف الأمير قليج، ومشى مقتربًا من النّافذة المطلَّةِ على الوديان الخضراء، وظلّ في مكانه يتأمّل الأفق. يكاد يخيّل إليه أنّه يرى أدخنةَ لهبٍ في مزارع بعيدة. ثمّ عادَ جهة الطّاولة:

- نعم، وما آخر الأخبار؟

- عندمَا وصلُوا إلى المناطق القريبة منّا عاثُوا فيها فسادًا، وقتلوا إخوتَهم المسيحيّين، ونهبُوا كلَّ ثرواتهم، بل ونهبوا الذهب من الكنائس، وتمرّدُوا على قائدهم بطرس الناسك. فهو داعيةٌ أحمق، وليس قائدًا محنّكًا. وعند ذلك غضبَ، وعاد إلى القسطنطينيّة. وهو موجود الآن هناك، ضيفًا على الإمبراطور. أمّا هؤلاء الآلاف فتحتَ قادةٍ مختلفين.

وسكتَ القائد وهو يسمع قرعَ نعالٍ مسرعةٍ آتية. وظهر قائد الجيش. ملأت قامتُه البابَ وهو ينحني نصفَ انحناءة:

- سيّدي الأمير، الجيش جاهز، والخطّة محكمة!

مشَى الأميرُ قليج صامتًا. كانت الخيل الخفيفة المدرّبَةُ واقفةً عند الباب المطلّ من فوق تلّةٍ عاليةٍ تتوسّط مدينةَ نيقية. انشغل ذهنُه بالفكرة الدّفاعية الّتي لخّصها له القائد العسكريّ البارحة. فاستعادها وهو ينظر إلى مئات الفرسان الرُّماة. *الفرنجة غير منظّمين، ولا يملكون إلّا قوّةَ الأجسام وقوّةَ الدروع. سنعتمد على الكمائن، ونكمُنُ لهم في أحد الأودية المنخفضة ونحصدهم بالسهام، ثمّ نُعمِل السيفَ في مُشاتهم بعد ذلك.*

ونزلَ الأميرُ ومرافقاه متّجهين إلى الرُّماة. قَفَزَ قليج أرسلان على

فرسه الأبيض، فالتفّ حوله مستشاروه ولفيفٌ من فرسان النخبة. كانت التعليمات واضحة: ينبغي تكثيف التجسّس، ويُحْظَر إيقادُ النيران، والحديثُ المرتفع، أو الضّحكُ الصاخب.

وفي فجر اليوم التالي كان فرسان الأمير في مكامنهم ينتظرون. ومع صباح اليوم الثّالث ظهرَ آلاف الفرسان يزحفون، ووراءهم آلاف المُشاة. اعتلى الأميرُ قليج أرسلان رأسَ شجرةٍ متطلّعًا، فأذهلته الصّورة. كان الفرنجة منكشفين تمامًا في السهل الممتدّ. رأى أجسامَهم القويّة وسيوفَهم الطّويلة وفؤوسَهم المشحوذة وخوذاتهم تلمع تحت أشعّة شمس أكتوبر. لاحظ فوضويّة جيشهم وهو الّذي وُلِدَ وتربّى داخل الجيوش المنظّمة. انتبه إلى أنّهم لا يسيرون سيرًا محكمًا كما يسير الجيش المحترف. ثمّ نزل من الشّجرة سريعًا معطيًا الأوامر بالاستعداد.

وبعد نصف ساعةٍ صار الفرنجةُ في مرمَى السهام عند مدخل الوادي المنخفض. كان المسلمون كامنِين داخلَ الغابات الحافّة بطرفَي الوادي الخفيض الظليل. فملؤوا الأفق بآلاف السهام المسمومة، وتساقطت الخيول الصليبيّة، وتدافعت، بينما تصاعدت صرخاتُ فرسان الفرنجة. امتلأ الوادي صراخًا، وانشغل مئاتُ الفرسان الفرنجة بمحاولة انتزاع الأسهم من أجسادهم، وسقط آخرون يئنّون تحت خيولهم. وتدافع المُشاةُ هاربين في الاتّجاهين. بعضُهم عاد من حيث أتى وآخرون هربُوا إلى الأمام. اطمأنّ قليج إلى أنّ عدوَّه قد تخلخل، فنزل وأمرَ بإعمال السيف في بقيّة الفرسان، بينما هرب المشاة والنّساء والأطفال. ونزلت الفِرق المسؤولة عن جَمع الأسرى والسبايا. بدؤوا يأخذون الأطفال والنّساء، ويقيّدون الأسرى. وامتلأ الوادي بجثث الخيل والرّجال، وصرخات الجرحى. وهرب ثلاثة آلاف من الصليبيّين جهةَ البحر، فتبعهم الفرسان. وجدَ الفرنجة قلعةً مهجورةً على ضفاف البحر فدخولها وبدؤوا يغلقون أبوابها بكلّ ما وجدوا

من أبوابٍ متهالكةٍ وأخشابٍ ودروع. ونجحُوا في الاعتصام داخلَها وصدّ اقتحام المسلمين لها.

وفي مساء ذلك اليوم كان الأمير الشابّ سكرانَ بنصره المدوّي، وهو يدخل البابَ الضّخم لعاصمة إمارته نيقية. طلعَ على جواده الأبيض يحيط به قادتُه وأوصياؤه ومستشاروه. كان منتشيًا بفراغه من الهمّ الصليبي العابر، وسيتفرّغ للصراعات مع أبناء عمومته والأمراء الصغار في المناطق المحيطة به. وهدأت نيقية بعد العشاء هدوءَ النصر. وجلسَ قليج في حجرةٍ واسعةٍ مزيّنَةٍ بالسّتائر الأصفهانيّة رفقةَ مستشاريه. كان جالِسًا على أريكةٍ في ركن الحجرة وبين يديه خارطةٌ ممتدّة، ورسائلُ متناثرةٌ على طرف طاولةٍ مستطيلةٍ بقربه.

كان كاتبُه الحلبيّ جالِسًا عن يمينه وبين يدَيْه الدواة والأقلام. أملَى قليج أوامرَه بشأن الأسرى والأطفال والنّساء. أملى كلّ ذلك بسرعة، فقد انمحى من ذهنه الهمّ الإفرنجيّ، وعليه الذهاب جنوبًا لأمرٍ أهمّ: الحرب مع الأمير التركي المنافس له. طلبَ على عجلٍ كتابةَ رسالةٍ إلى الإمبراطور ألكسيوس يحذّره فيها من مغبّة مساعدة الفرنجة على العبور إلى بلاد المسلمين مرّةً أخرى. كان قليج يملي الرّسالة بالتركيّة بينما يكتبها الكاتب الحلبيّ بالعربيّة. ورفع الأمير وجهَه في مُجالسيه الذين تتلألأ وجوهُم بالنصر تحت ضوء المصباح المزهر، وقال:

- هؤلاء الفرنجة فرسانٌ أم ربّاتُ خُدور؟

وضحك قائد الجيش ملء شدقَيه، وتحرّك الرّجل ذو العمامة الحمراء في الطرف:

- لا تستهينوا بهم.. إنّهم أقوياء وذوو عزم، لكنّهم غير منظّمين.

فقال الأمير، وهو لا يكاد يُفصح من الضّحك:

- وما قيمة قوّةٍ غير منظّمة!

وابتلع الأمير ضحكتَه وهو يشاهد جنديا قادمًا يركض، فابتدره:

- أيّ خبر؟

انحنى الضّابط المسؤول عن مراقبة مداخل المدينة ومخارجها:

- سيّدي لقد قبضنا على رجلٍ شككنا في أمره، وأتمنّى أن تروه.

هزّ الأمير رأسَه ملتفتًا إلى مستشاره الأمنيّ، الرّجلِ الأبيض ذي العمامة الحمراء الجالس على طرف المجلس. وقف المستشار، وقال للضابط:

- من أين أتى؟ وأين أمسكتموه؟

- زعم أنّه آتٍ من بغداد، وأمسكناه في قافلةٍ تجاريّة، لكنّ ما حَمَلَنَا على الاشتباه فيه أنّه يدسّ أوراقًا في سراويله. ولمّا أخذناها جزعَ جزعًا شديدًا.

وصمت الأمير مُفكّرًا في بغداد والصراع بين بركيارق وإخوته. وأيُّ خطرٍ يمكن أن يأتي من بغداد؟ إنّما الخطرُ من الأمراء الأتراك القريبين. فرفع وجهه:

- علينا التحرّك غدًا!

74

دمشق، محرّم، 490 هـ.

ازداد الرذاذ، وأرعدت السّماء، وانتصفَ النهار، والجموعُ ما زالت متجمهرةً شرقَ دمشق انتظارًا للقافلة. انتشرت رائحة البخور واللّبان، وانشغلت النّساء والخدم بتجهيز المشروبات والمأكولات. فلن يبرح المكان أحدٌ حتّى تأتي القافلة. وفي الساعة الرّابعة بعد شروق الشّمس ظهر رجلٌ حاسر الرّأس يركض، والماء يسيلُ على طرف صلعته ينادي:

- ها قد جاءت القافلة! ها قد جاء الحجّاج!

دوّتْ زغاريد الفتياتِ الخَفِرات، ووقف الرّجال والنّساء في صفَّين متقابلَين. ظهرت البغال المرهقة، والجمالُ المتعبة زاحفةً في الأفق، فانذرفتْ دموعٌ على خدود، وابتلّت لحًى وقورة، وارتعدت أفئدةٌ قاسية. لقد أتَى حجّاج بيت الله! أتى القادمون من منازل الوحي ومراقدِ الأحبّة وعرصات محمّد وعليّ وبلال وأبي بكر. ودار بين الصفوف رجلٌ يحمل رايةً بيضاء:

- ها قد جاؤوا كما ولدتهم أمّهاتُهم! ها قد جاء الحاجُّ كأنّه وليدٌ في يومه السابع!

ضجّت الألسنة:

- اللهمّ بلّغنا العام القادم، واكتب لنا حجًّا مبرورًا.

وقف الرّجل ذو الراية البيضاء بين الصفَّين، ورفع يده:

- لا تنسوا الالتزام! سيمرّون كلّهم بين صفوفكم، فلا تدافعوا ولا تهالكوا عليهم!

اقتربت القافلة تسير وئيدًا يتقدّمها الدليلُ القصير الحاسر على جملٍ أحمر. كان الرذاذُ الشّتويّ يسَّاقط على رؤوس السّائرين، وينزلق جملٌ هنا وبغلةٌ هناك على الأرض النديّة. كان الغزاليّ يسيرُ وسط القافلة مرهقًا شاردَ الذهن، ينوء كاهلُه بجرابه وعصاه وركوتِه، ويشعر ببردٍ شديدٍ لا يشكّ أنّه مقدّمةٌ لحمّى ماحقةٍ من حُمّى دمشق. وفي أطراف القافلة يتصارخ النّاس:

- حمدًا لك يا ربّ! ادعُ لنا يا حاجّ!

التفت أبو حامد، فلمح امرأةً تمسح خدّهَا من الدمع، ورجلًا ساجدًا قربها. أمّا هو فكان في عالمٍ آخر. *ماذا جنيتُ من هذا الحجّ؟ هل كان مقبولًا عند الله؟ ما الّذي عليَّ فعلُه الآن في دمشق؟*

احتارَ بين النزول في السميساطيّة أو الرجوع إلى العمارة الغربيّة. وكان قد عزم على بدء تدريس الإحياء في الجامع الأمويّ. *فالأمّة مبتلاةٌ بمرض أطبّائها، وليس فيها عالمٌ إلّا وهو مريض. وكيف يعالجُ النّاسَ طبيبٌ مريض؟*

كان الإحياء وما فيه هو كلّ ما يشغل ذهنَه. *لا بدّ أن يصل إلى كلّ النّاس. كيف تحيا أمّةٌ دون إحياء دينها؟ إنّ الدين هو الفكرة الّتي وُلدت منها هذه الأمّة، والصّخرة الّتي عليها وقفتْ. فكيف لها أن تتعافى وتعود إلى عهد أبي بكر وعُمر وعليّ إلّا بإحياء الدين؟ وكيف يحيا الدين وعلومُه مريضةٌ عليلة؟ ومَن لي برجالٍ مثل أبي عبيدة، وأبي بكر، وسعد بن أبي وقّاص، وخالد وأبي ذرّ؟ إنّما الإحياء بإحياء علوم الدين كي يولَد أولئك الرّجال.* وتذكّر نِظام المُلْك. فسرت قشعريرةٌ في جسده. *كم كان ذلك الرّجل مُحَدَّثًا!* وتذكّر يومَ تحدّث معه في المعسكر عن إحياء الدين والسنّة وطُرُق ذلك. وشرح له سبب إنشائه المدارسَ التسع في الحواضر ما بين نَيسابور وبغداد.

وأفاق على القافلة تلتحم بالمتجمهرين لاستقبال الحجّاج، فقطع

تأمّلاته. انثال النّاس على الحجّاج يمدونهم بكلّ شيء، الفواكه والعصائر والزهور والبخور واللبان. واندفعت فتاةٌ ووضعت يدَها على جبّة رجلٍ رثّ الهيئة وقبّلتْها وطلبت منه اقتطاع جزءٍ منها، فخلع ثوبَه ومدّه إليها، فركضتْ سعيدةَ تخترق الصفوف.

بدأ الحجّاج يوزّعون هدايا على النّاس، فتدافعت الأيدي تُطلبها:

وظهرت فاطمة البهلولة تشقّ الصفوفَ ودفُّها بين يدَيها تنشد:

وإنّي لآتي أرضَكـمْ لا لحاجـةٍ   لعلّي أراكمْ أو أرَى من يراكمُ!

كانت تمسك دُفَّها بيسراها، وتضربه بيمناها وهي تئنّ بذلك الشّعر. ورمقَها الغزاليّ، فتذكّر كيف أدمت قلبَه بالبكاء قبل أشهرٍ لّما سمعها تجهش مستندةً إلى جدار الجامع الأمويّ في الصحن، فوقَف ينظر إليها، فأمسكت عن الغناء قليلًا، ثمّ غيّرت نبرتَها، وانطلقت:

إنْ تشـقَ عيْني فطالما سـعِدتْ   عـينُ رسـولي وفـازَ بِالنّظـرِ!

وكلّـما جـاءني الرّسـول لَهُـمْ   ردَّدْتُ شوقًا في طرفِه نَظَرِي!

تظهـر فِي طرفـه محاسـنُهـمْ   قد أثّرتْ فيهِ أحسـن الأَثر!

تجاوزها سائرًا بين الجموع، فانتبه إلى منظر امرأةٍ مرهقةٍ ساهمة. ثمّ رأى وراءهما رجلًا أبيض ذا عمامةٍ صفراء يلبس ملابسَ الصوفيّة. صرخ الرّجل بالغزاليّ:

- أيّها الحاجّ، الشّيخ يريد أن يكلّمك!

اقترب الغزاليّ، ثمّ انحنى على الشّيخ:

- حفظ الله الشّيخ!

قالَها وهو يتأمّل وجهَ الشّيخ. كان أسمر مرهقَ الوجه قويَّ الملامح أدردَ، لا يستقرّ فكّه الأسفل. حرّك الشّيخ وجهَه، ونظر بعينين برّاقتَين من تحت حاجبَين كثّين:

- أيّها الحاجّ.. هل حقًّا وقفتَ على قبر الحبيب؟ على قبر محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب؟

- صلى الله عليه وسلم! نعم، أيّها الشّيخ. لقد وقفتُ عند قبره وقبور أصحابه.

- هل لامستْ قدماك تربةَ الحبيب؟ هل وقفتَ عند رأس الصدّيق، والفاروق وأمّ المؤمنين عائشة؟

- إي والله!

وسقط الشّيخ على الأرض دفعةً واحدةً. فهمَّ الغزاليُّ وابناه بحمله، فأشَار بحركة سبّابته رافضًا القيام. وانحنى الغزاليّ على الأرض، وجلس قربَ الشّيخ الّذي امتلأت عيناه بالدّموع.

- ماذا تريد؟

- أريد أن أقبّل قدمًا لامست تربةَ الحبيب! ناوِلْنِي قدمَك أيّها الحاجّ!

انتفض الغزاليّ متراجعًا، وأحسّ برعدةٍ في قدمه. تناوشته أسئلةٌ كثيرةٌ متشاكسة. *هل يجوز أن أعطيه قدمي ليقبّلها؟ كيف أسمح لشيخٍ وقورٍ بهذه الهيئة أن يقبّل قدمي؟ ثمّ أين أنا منه؟ فقد حجّ هذا بقلبه، أمّا أنا فحججت برجلي، وشتّان بين المقامَين! هل أستحقّ فضيلة الحجّ أصلًا؟ هل كان عندي من الشّوق والتوجّه ما عند هذا الشّيخ الّذي لم يتيسّر له الحجّ؟*

رفعَ بصرَه، فلاحظ مرورَ معظم القافلة. ثمّ نظرَ إلى الشّيخ الجالس المنحني ويداهُ تتحرّكان في الهواء كأنّهما تتضرّعان، وابناهُ ينظران إليه باستعطاف، وزغاريدُ النّساء المبتعدة تملأ أذنَيْه. جلس ووضع رأس الشّيخ بين يدَيْه، وأكبّ عليه يقبّل هامتَه ودموعُه تنثال. كان الشّيخ هادئًا لا يتحرّك. فلمّا فرغ الغزاليّ، رفعَ فيه عَينَيه متوسّلًا:

- أعطني رجلك أيّها الحاجّ!

- إنّي لأستحي من الله أن أراك تقبّل رجلي!

- وأنا أستحي منه أن أجمع بين عدم زيارة الحبيب والتكبّر عن لثم أقدامٍ وطأت أرضه!

رفع الغزاليّ عَينَيْه، فلمح وَلَدَي الشّيخ ينظران إليه نظراتٍ متوسّلة. فمدّ رجله، ووضعها على الأرض. انحنى الشّيخ وقبّل ساقَيه، ثمّ حاول تقبيلَ قدمه فلم يستطع، وقال بصوتٍ متهدّج:

- واشوقاه!

اجتهد الشابّان في حَمْل أبيهما، وأمسكَاه من عضدَيْه، وحمَلَاه وسطَ الجموع مبتعدين. أسرع الغزاليّ مبتعدًا وعيناهُ ممتقعتَان دموعًا، وأنفاسُه مبتلّة رذاذًا، وصورة الشّيخ تسكن خياله. وبعد جهدٍ مرّت القافلة، وانفتح باب دمشق، ودخل النّاس أفواجًا.

كانت الجِمال والبغال والنّساء تسير في الشّوارع، والأزهارُ والرياحين والماء المعطّر يسّاقط عليها من النّوافذ الّتي تمرّ تحتها. وصل الغزاليّ إلى الجامع الأمويّ، ووقف عند مدخل الرحبة. صدمته صورةُ آلاف النّاس المجتمعين الهادئين الجالسين على سُفَرِ الطّعام. آلاف الأطعمة المعدّة للحجّاج، وآلاف النّاس كبارًا وصغارًا يملؤون المكانَ مبتهجين.

سكنت عينُه على امرأةٍ جالسةٍ قربَ سُفْرَةٍ مليئةٍ بحلويّاتٍ تقطر سمنًا. فأحسّ بفمه يفيض ريقًا. يحقّ لي بعد هذا السّفر الطّويل أن أطعم الحلوى الشاميّة الّتي ما يفتؤون يذكرونها. وقدّم رجلهَ تجاه المرأة، فابتسمت سعادةً لاقترابه، وقالت:

- تعال يا حاجّ، لقد عملتُ عليها يومين... بالله شرّفني بأكلها!

أحسّ بريقه يسيل، وقلبه ينبض. *هل حججتُ لآكل الحلوى؟ ما*

هذا العزمُ المُخنَّث؟ ما هذا الجنون؟ والله لن أطعمها. وأفاق على نظرات المرأة المتوسّلة. *لكن كيف أكسر قلبَ هذه؟* واقترب ومدّ يدَه، وأخذ أربعَ قطع:

- أصلحك الله، وأصلح عيالك، وتقبّل أعمالك.

ابتعد حتّى توارى، وفتحَ خرْجَه ودسّ فيه الحلوى، ثمّ دخل الجامع. وما كاد يدخل حتّى تحلّق الرّجال حوله، ووقف شابٌّ ممتلئٌ مفلّج الأسنان طويل اللحية:

- لقد وصل حجّة الإسلام!

وانثالَ الشّيوخُ والطلّاب من أطراف المسجد يمشون وأيديهم وراءَ ظهورهم خافضين رؤوسهم. كان كلٌّ منهم يقترب، ثمّ يحني رأسه:

- السلام على الإمام ورحمة الله... عبدكُم فلان!

جلسَ مُسنِدًا ظهرَه إلى السارية الوسطى في الجامع مبتمسًا. كان يبادل كلَّ قادمٍ السّلامَ والابتسام، ثمّ اقترب رجلٌ أسمر نحيفُ الأطراف طويلُ الشّعر فوضويُّه:

- السّلام عليكم... أخوكم ميرزا... طالبكم الّذي انتظركم شهورًا.

وخُيّل إلى الغزاليّ أنّه رآه من قبل. *هل رأى تينك العينَين المرهقتَين وتلك الابتسامة المتردّدة الّتي يشغب عليها ذلك التقطيب الدّائم بين العينَين؟*

وتحرّك رجلٌ بدينٌ في طرف الحلقة، ثمّ قال وشفتُه السّفلى ترتعد رهبة:

- شيخَنا، أين كنتم؟ وما هذا التأخّر؟ لقد ذهبت بركاتٌ كثيرةٌ بذهابكم؟

نظر الغزاليّ إلى الأرض وهو يذكّر نفسَه بأنّه عاد إلى لغة أهل الشّام المترعَة بالمجاملات الكثيرة فابتسم:

- سياحةٌ في الأرض، وسفرٌ إلى النفس، وتأمّلاتٌ في ملكوت الله.
وأنتم تعلمون قولَ الأوّل: ثلاثةٌ لا تخبر بها أحدًا: ذهابُك، وذَهَبُك، ومَذْهَبُك!

كان ميرزا يحدّ النظر إلى أبي حامد مُفكّرًا في ما طرأ عليه بعدَ أيام النظامية. لقد نحلَ، جسمُه، ودقّ عظمُه، وسكنت عيناه، وتهذّبت أخلاقُه. *أين ذلك الرّجل المعروف بالتكبّر؟ أكُلّ هذا تعميةٌ من أجل ما يقوم به لصالح الترك والخليفة؟*

وتذكّر رسالةً جاء بها الحمامُ قبل أيّامٍ تخبرُه بأنّ الغزاليّ في القافلة آتٍ من الحجّ. وفيها أُمِرَ بأن يصحبه كظلّه حتّى ينالَ ثقتَه. فاقترب منه:

- أيّها الشّيخ! لقد أتيتم من سفرٍ طويل، ولا شكّ أنّ بكم حاجةً إلى الحمّام. فتفضّلوا على تلميذكم هذا بملابسكم ليغسلها، ووجّهوه إلى حاجاتكم ليقضيَها.

ردّدَ عَينَيه في هذا المريد الجديد. شفتان مرهقتَان كأنّما تعافَى صاحبُهما من مرض، وبشرةٌ سمراء، وأطرافٌ نحيلة. أحسّ ميرزا بالعينين العميقتين تخترقانه. وخُيّل إليه أنّه رأى كلَّ شيء وأنّه تجوّل في سويداء قلبه، واطّلع على نيّاته، فالتفت مُتظاهرًا بالكحّة ليتّقي النظرات الحارقة. وفاجأته ابتسامة الغزاليّ:

- جزاك الله خيرًا أيّها الشّيخ! ما عندي ما يُغسَل، ولا حاجةَ لي في دمشق، أكرمك الله وتقبّل منك.

وصاح الشابّ الأقرن الطّويل اللّحية:

- لا ترهقوا الشّيخَ فقد وصل الساعةَ، ولا تضيّعوا وقتَه الثمين بالأسئلة غير المهمّة. سلُوه عن معضلات الدين وحادثات الدنيا.

والتفّ الجميع على جلبةٍ قويّةٍ عند الباب. ودخل عساكر يركضون

منتظمين في صفَّين ظهر بينهما رجلٌ يسير منتفخَ الصّدر في محفّةٍ مهيبةٍ، فصاحَ ذو اللّحية الطّويلة:

- ها قد جاء الأمير!

انفض الجالسون، وبقيَ الغزاليّ وحيدًا عند السّارية. التفتَ يمنةً ويسرةً ليرى هل بقي معه أحد، فلاحظ أنّه لم يبقَ إلّا ميرزا. فابتسم له:

- ما اسم الفتى؟

- ميرزا، سلّمك الله!

- من أيّ البلاد أنت؟ فما أحسبك دمشقيًّا.

- لا، أنا بغداديّ!

مدّ الغزاليّ رجلَيه مرهقًا متثائبًا وهو يشعر بدوارٍ قويٍّ وحاجةٍ إلى الراحة. فكّر أين يذهب. *هل يبدأ بزيارة الشّيخ نصر أم يذهب إلى السميساطيّة*. تنحنح:

- هل الشّيخ نصر في حجرته؟

- رحمه الله تعالى!

- هل توفّي الشّيخ؟

- ألم تعلم؟ توفّي رحمه الله تعالى قبل يومَين، وخرجت دمشق تشيّعه.

- لا إله إلّا الله! أيّ مصيبة حلت!

وقبض رجلَيه حتّى سامتتْ ركبتَاهُ وجهَه، فأسند ذقنَه عليهما، وبدأ يحرّك شفتَيه داعيًا له.

رفع وجهه، ونظر إلى ميرزا صامتًا. شعر ميرزا بكلّ ذرّةٍ من كيانه مستفزّة. تراقصت عيناه، واضطرب قلبه. *لم ينظر إليّ هذا النظر؟ هل أخبره أحدٌ بشيء؟* ثمّ تذكّر درسًا من دروس التحكّم في النفس الّتي درّسَه إيّاها مدرّبٌ إسماعيليٌّ قبل عقد. فحوّلَ عينَيه عن عين الغزاليّ، ونظر إلى أرنبة

أنفه، وقرّر إشغاله بأمر:

- أيّها الشّيخ، لقد توفي الشّيخ نصر، لكنّ أفعاله بقيت. وقد سمعتُ عن فضله وورعِه فهل عايَشْتَه؟

لم ينبس أبو حامد. فقد هجم عليه شعورٌ غريبٌ عن الشابّ الجالس بين يدَيْه. خيّل إليه أنّه رأى أفعالَه المستترةَ ظاهرةً على صفحة وجهه. رآهُ في ظلام شوارع بغدادَ يقترف الآثام، ولمحه يدخل على امرأةٍ لا تحلّ له. ورآه يغمس يدَه في الدّم مع رجالٍ آخرين في حجرةٍ بخراسان. سرت قشعريرةٌ في جسده، وأحسّ بضيقٍ شديدٍ وهو يحدّث نفسَه أنّ هذا خاطرٌ شيطانيٌّ عليه مخالفتُه. *فالله تعالى ستر أفعالَ العباد ونيّاتهم رحمةً بهم. فكيف يطلع هو على هذه الأمور؟ وحتّى إذا كان هذا الخاطر صحيحًا فإنّ العمل على أساسه حرام.*

أحسّ بانقباضٍ شديد، فوقف، وخرج من باب الجامع، وأذناه مترعتَان بأصداء احتفالات عودة الحجّاج، وبالخطب الممجدّة لأمير دمشق.

مشَى في رحبة الجامع، فلمحَ حمزة السقّاء بين زبائنه يبيع عصائرَ البرتقال والإجّاص والتوت، واستعادَ في ذهنه أحاديثَه معه، ثمّ انتبه إلى قرع نَعل ميرزا يمشِي خلفه.


الناسك

75

«كان أبو حامد تاجًا في هامة الليالي، وعِقداً في لُبِّ المعالي».

أبو بكر بن العربي

دمشق 490 هـ.

نظرَ إلى الشّمس المتثاقلةِ في الأفق، والحيطانِ المصفرَّة وهو ينصتُ لنداء السقّائين المندفعين في شوارعِ دمشق. قدّرَ أنّ الضّحى قد ارتفع، فشعُر بسعادةٍ لإكمَالِه وِرْدَه وكتابَتَه في وقتهما. أسرعَ الخُطى في الشّارع وعبقُ الأزهار المخلوطُ برائحة رجيع البغال يملأ أنفَه. كان في طريقه إلى البيمارستان كعادته في مثل هذه الساعة الّتي يُفتَح فيها لعيادة المرضى. انشغل ذهنُه باستعادة حوارٍ وقع البارحة أثناء درسه في الجامع عن الآية الفلكيّة الّتي وقعت. إذ اجتمعت ستّةُ كواكب في برج الحوت، واندفع أحدُ الشّيوخ فربَطَها بِشَرٍّ مستطيرٍ يقترب. وأفاقَ على صوت امرأةٍ يرتفع عند باب البيمارستان:

- قلت لك إنّي أمّه!

كان الحارسُ يحاول منع سيّدةٍ درداءَ متّشحةٍ بالسواد من الدّخول إلى قسم الأمراض الرئويّة. وما إنْ لمحَ الغزاليَّ حتّى رحّب فاتحًا ذراعَيْه:

- مرحى بالشيخ!

تفقّد الحارس يدَي الغزاليّ، أخذ ينظر هل أتى معه بما يأتي به أحيانًا من طعامٍ للمرضى والحرّاس فلم يرَ شَيْئًا. أزاح أبو حامد طرف لثامه عن فيه:

- اترك السيّدة تدخل.

وارتبكَ الحارس، ثمّ قالَ للمرأة رافعًا سبّابته:

- ادخلي.. ولولا الشيخ مَا تركتك.

واندفعت السيّدةُ تدعو للغزاليّ وتسبُّ الحارس، وأرختْ طرفَ خِمَارِها مختفيةً في ردهات البيمارستان. دخلَ متهيّبًا إلى البهو ليبدأ دورتَه العاديّة. رفع عَينَيه مُتأمّلًا الجدران العالية ذات الألوان الحمراء، والأطبّاء والممرّضين يدخلون بملابسهم وعمائمهم الصّفراء. وتراءى له جبلُ قاسيون في الأفق يطلُّ على المدينة يرقُبها بعينَيْ طبيبٍ مشفق.

تجاوز الممرَّ المستطيلَ تاركًا النّافورة عن يمينه، منحرفًا يسارًا باتّجاه قسم المجانين المحصورين في أربعة بيوتٍ واسعةٍ تتوسّطها حديقة. اقترب، وجلس عند السياج دون أن يدخل. ثمّ رفع يدَيه، وبدأ يدعو:

- أسأل الله العظيم ربّ العرش الكريم أن يرفع عنكم البلاء! أسأل الله العظيم ربّ العرش الكريم أن يشفيكم بشفائه ويداويكم بدوائه.

فرفع المجانين أيديهم إلى السّماء متناغمين مع دعواته غيرَ واحدٍ ذي أُذنَيْن طويلتَين يلبس جبّةً سوداء. ظلّ يضع يدَيْه تحت إبطَيْه ناظرًا إلى الإمام كأنّه ينتظر سُكوتَه.

وما إن انتهى دعاؤه وهمّ بالانصراف حتّى ناداه المجنون:

- اسمع يا أبا حامد! لقد قيل لنا أيّامَ الدرس إنّكَ من أعلم أهل الأرض وأعقَلِهم. وأنا سائلُك فمُشدّدٌ عليك في المسألة، فأجبني ولا تغضبْ.

حاول الغزاليّ الهدوءَ والعودةَ إلى نفسه بعد سفره الروحيّ أثناء الدّعاء. فقد كان لا يخرج من الدّعاء إلّا محمرَّ الوجه مُغرورَقَ العينَيْن مبتلَّ الأنف. مسحَ مآقيه بطرفِ سبّابته وهو يلتفت إلى الفتى ذي الجبّة السّوداء:

- اسأل يا فتى!

اقترب المجنونُ المعروف في البيمارستان بـ«أذن الحمار». مشى قافزًا مراوحًا بين رجلَيْه حتّى سامتَ السياجَ. أخرج عمامةً كان يلفّها في جبّته، ووضعها على جذع الشّجرة المنتصب قرب السياج وجلس مقطّبًا جبينه:

- نحن نعلم أنّ الله تعالى يجيب دعاءَ الداعي. لكنّنا نرى النّاس يدعون فلا يُستَجَابُ لهم. فأنا أراك تأتي كلَّ صباحٍ وتزورنا وتدعو لنا ولا يُستجَابُ دعاؤك.

وسكتَ أُذن الحمار، وابتسمَ الغزاليّ قائلًا بنبرةٍ مشفقة:

- إنّ الله تعالى لا يردّ كفًّا ارتفعت إليه. فإمّا أن يحقّق للداعي مُرادَه، أو يدّخر له مثوبةَ الأجر في الآخرة، أو..

انتزع أذنُ الحمار سبّابتَه من فيه وصرخ:

- حسبُك أيّها الشّيخ، فما أتيتَ بشيء، وأنا لم أُنْهِ كلامي! وهذَا جوابٌ تجده عند كلّ بقّالٍ وحمَّارٍ وبغَّالٍ وتمَّار. لقد رميتُ هذه المسألةَ أيّامَ الطلب على شيخنا خنفور فأجابَ جوابًا أفضل من جوابك، يا مُسكتَ الفلاسفة!

دارى أبو حامد ابتسامتَه، ومسحَ طرفَ لحيته بردائه:

- وبم أجابَك شيخُك يرحمك الله؟

وقفَ أُذن الحمار من فوق الجذع، وأخذَ عمامتَه، ووضعها تحت إبطه، والتفت إلى المجانين المنصتين وهو يبرم شعيراتٍ من لحيته، ثمّ استدار، ونظر إلى أبي حامد، وقال مغيّرًا نبرته:

- قال شيخُنا خنفور إنّ الله تعالى أدرى بمصالح العباد. فلو منحَ كلَّ واحدٍ منهم مسألتَه لتعطلّت الدّنيا واختلط نظام العالم. ففي فوَاتِ مصلحةٍ على عبدٍ حصولُ مصلحةٍ لآخر. وفي ردّ كفٍّ خائبةٍ مَلءٌ

لأخرى. وذلك لأنّ أمورَ العالم قائمةٌ على التناقض. ألا ترون أنّ كلَّ امرأةٍ في الدّنيا تدعو بالضيق، وكلّ رجلٍ يتضرّع إلى الله ليصبح بغلًا؟ فلو أنّ الله استجاب دعاءهما، وأنال كلًّا منهما مسألتَه لاستحال الاجتماعُ وانقطع النسلُ؟ فإذا نالتْ هي ثقبَ الإبرة، ونالَ هو جُرْدانَ البغلِ، تعذّر الأمرُ وفنِيَ العالم.

وأمال أذنُ الحمار رأسَه جهةَ المجانين وسبّابتُه تحت أذنه مصيخًا معتمدًا على رجلٍ واحدة. فتراقص المجانين ضاحكين، وتراجع الغزاليّ ويده على فيه، وأسرعَ متواريًا بين ممرّات البيمارستان.

مشَى في الممرّ الطّويل الممتدّ حتّى وصل إلى الجناح الأخير عن يمينه. كان يتذكّر القصصَ الّتي سمعَ عن هذا المجنون وكيف كان من أنجب طلّاب علم الكلام إلى أن ابتُلِي بالمرض. وصلَ إلى طرف البيمارستان، فدخل الحجرة الأولى من جناح الكحَّالين. وتنقّلت عينُه بين العيون المريضة. فذاك شابّ خرج الساعةَ من جراحة لاستئصال ورمٍ بطرف عينه، وهذا شيخٌ مجبّر العين، وهؤلاء مطبّباتٌ يدخلن ويخرجن حاملاتٍ الأدوية. ثمّ كان آخر قسمٍ مرَّ به قسم الكسور.

خرجَ من المستشفى بقلبٍ واجفٍ معترفٍ بالرحمات المسداة من ربّ العزّة. فعيناه سليمتان دقيقتَا النظر، ورجلاه تحملانه إلى حيثُ شاء، وعقلُه حديدٌ يتأمّل ملكوتَ الله ودقائق لطفه وصنعه. عاد إلى الشارع المنحدر مُفكّرًا في ميرزا.

لاحظ أنّه بدأ يأنس لصحبته بعد مجاهدةِ نفسه فيه، بل أصبح يأذن له أحيانًا ليبيتَ معَه في المنارة الغربيّة. واصلَ السّير وهو ينظر إلى قدمَيْه تقرعان الأرض في نعلَيْه السنديَّيْن الخَلِقيْن. ولمّا مرّ من بين بيتَين يضيق الشّارع بينهما سمع امرأتَين تتحدّثان من سطحَيهما المتقابلين:

- والله ما فيه شيء.. جات وراحت!

وخطر له أن يرفع بصرَه ليرى صاحبةَ الصّوت. فأزاح مقدّمةَ عمامته قليلًا، ورفعَ وجهَه فتراءت له سيّدةٌ تضعُ تاجًا على رأسها الحاسر. وما كادت عينُه تستقرّ عليها حتّى شعرَ بنفضةٍ في قلبه، فأغضى. *كيف غفلت عن نفسي حتّى تتبّعت الحرام؟*

شعرَ بضيقٍ في صدره وهو ينحدرُ مع الشّارع خافِضًا رأسَه، وقد لازمت خيالَه صورةُ المرأة ووجهُها الوضيء وتاجُها فوق شعرها الفاحم الطّويل. *كيف غفلتُ عن نفسي؟* رفع يدَيْه مخالفًا بينهما، ووضعهما تحت إبطَيْه، وواصلَ السّير مُتأمّلًا نفسَه. *هذه النفسُ الشّرسة ما غفلَ عنها الإنسانُ هنيهةً إلّا انطلقتْ من سجنها. أيُّ سبعٍ هي!*

تراءى له الطّريق المؤدّي إلى الجامع الأمويّ، فعادَ ذهنه إلى ميرزا. *كيف أكفّر له عن سوء الظنّ به؟ كيف سوّلَ لي الشّيطانُ أنّي تخيّلتُه في أوضاعِ معصية. كيف خيّل إليَّ الشّيطان أنّي رأيت المعاصي في عَينَيه؟ وماذَا عنّي؟ ألم أقترف إثمًا قبلَ لحظات؟ لكنّ المؤمنين يرون دومًا أمورًا غيبيّة من إلهام الله لهم. ألم يقل عثمان بن عفّان للرجل الذي دخل عليه: لمَ يدخل عليَّ أحدُكم والزنا في عينَيه؟ واعترف الرجل أنّه كان ينظر إلى أجنبيّةٍ قبل دخوله؟*

وتذكّر أنّ ما ارتكبَه في حقّ مريده ليس إثمًا. *فالإثم لا يقع من انقداح الفكرة في القلب، بل بالعمل المرتّب عليها. فلو حسَدَ الإنسانُ شخصًا فالإثم ليس في الشّعور بالحسد، بل في إتيانِ أمرٍ ناتجٍ عن ذلك الحسد. فأمراض القلوب كلّها لا تُكتب معصيةً لملازمتها طبيعةَ الآدميّ إلّا إذَا فعل فعلًا مشتقًّا منها لإضرار محسوده أو مبغوضه. فالإنسان غالبًا لا سلطان له على قلبه. ولذَا كان صلّى الله عليه وسلّم يقول: «اللهم هذا قسمي في أملك، فلا تؤاخذني بما لا أملك».*

أعادتْه هذه الخواطرُ إلى التّفكير في الدرس الّذي سيقدّمه اليومَ بالجامع الأمويّ بعد صلاة العصر عن أمراض القلوب. تجاوزَ الرحبةَ الواسعة أمام الجامع الأمويّ. لكنّه ما إن اقترب من الميضأة حتّى لاح له ميرزا آتيًا يركض:

- دانشمند!

- يا مرحبًا!

أحنى ميرزا رأسَه، ويدَاه وراءَ ظهره. فخطر للغزاليّ سرعةُ اندماجِه في عادات أهلِ دمشق وحركاتهم. *فلو كان ببغداد لما سلَّمَ بصيغة الانحناءة ووضعِ اليدينِ وراء الظهر*. وقطع عليه ميرزا تفكيرَه:

-جاءت امرأةٌ تسأل عنك!

- امرأة؟

توقّف الزمن هنيهات. *كيف تأتي امرأةٌ تسأل عنّي؟ هل جُنّتْ خَلُوب فجاءت تتبعني؟ وكيف عَرَفَتْ مكاني؟ ومَن أَذِنَ لها بتَركِ بيتها بعد أن أرسلتُها إلى الطابران عند أهلي؟*

قالَ ميرزا بنَفَسٍ متقطّع:

- سيّدة من بيوتات دمشق لديها نازلةٌ قالت إنّها لا تعرضها إلّا عليك!

شعر باسترخاءٍ وحبورٍ حتّى إنّه أزاحَ عمامتَه فجأةً عن رأسه، ثمّ انتبه فردّها سريعًا:

- مستفتية إذَن.

واقترب من الميضأة، وجلسَ على طرفها. وما كادَ يسأل ميرزا حتّى ظهرت سيّدةٌ مسرعةٌ في ساحة الجامع. كانت امرأةً نَصَفًا ممتلئةَ الأطراف، تتبعُها جوارٍ. اقتربت بعينين زائغتَيْن تبحث بهما عنه. أشارَ إليها ميرزا بيده، فاقتربت مسرعة.

وقفت المرأةُ وهي تشدّ عليها أطرافَ ملابسها محتشمةً محتشدة، ووقفت قربَ الغزاليّ حتّى ما بينها وبينه إلّا شبر، ثمّ رفعت يدَها متشبّثةً بطرف عباءتها:

- قلت لهم إنّني لا أرضى إلّا بحكم ناسك المنارة الغربيّة!

وما إن ابتلعت كلماتها حتّى سرى بين منخَري الإمام عطرٌ فوّاحٌ عَبِقٌ أعادَه إلى أيّامٍ خلت. وضع طرفَ لثامِه على أنفه، ورفعَ وجهه في المرأة، فلاحت له جبهتها الغمّاء وعيناها الهادئتان وأنفُها الحادّ.

- ماذا تريدين؟

- لقد توفّي زوجِي في بيت ضَرَّتي. ولمّا جاؤوا ليغسّلوه وجدوه مُنقبضَ اليد على ورقةٍ كأنّها وصيّتُه. وقد ترك زوجي ثلاث زوجاتٍ أنا إحداهنّ. فهل يجوز كسر أصابعه لمعرفة الوصيّة؟ أم يُدفَن دون معرفة فحوى الورقة؟

وسكتت، ثمّ تقهقرت بعد أن أفرغت مَا في صدرها. رفع عَينَيه فيها، وفي الفضاء الواسع وراءها، والمنارات المطِلَّةِ مِن جَنبَاتِ الجامع، مُفكّرًا في تشبّث الإنسان بالحياة، وحدوده، وصدوده عن مصيره. *كأنّ أقدام البشريّة تمشي أبدَ الدهر وأمامَها فوهةٌ سوداء قد تتردّى فيها في أيّ لحظة، لكنّ الإنسان يركض، ويقفز غير آبهٍ كأنّه لا يرى الفوهة السّوداء المفتوحة أمام قدمَيْه.*

هذا الميّتُ كان له زوجاتٌ يحدّثنه عن حبّهنّ له، وأبناءٌ يعدّهم للزمن، وأموالٌ يثمرُها للغد. ها هو ذا يترك المالَ لتعيشَ به زوجاتُه في بيوته مع أزواجٍ آخرين. سيتمتّعنَ مع أزواجهنّ الجدد على الأسّرة الّتي اشترينَ من ماله، وسيحدّقن في السقوف الّتي بنى وهنّ مستلقياتٌ على ظهورهنّ يداعبنَ أزواجهنَّ الجدد. أمّا أبناؤه فها هم سيكسرون أصابعَه حتّى لا يبقى مالٌ لأيٍّ منهم.

وانتبه إلى المرأة تحدّد فيه النظر منتظرةً الجواب. واقترب ميرزا:

- ما رأيكم؟ دانشمند!

76

دمشق، 490 هـ.

دخلَ الغزاليّ غرفةَ التغسيل، فلفحتْه رائحةُ العطور والكافور والموت. لا يدري لماذا ذكّرتْه الرّائحةُ بقصر الخليفة في بغداد. ووقعتْ عينُه على الميّت ممدّدًا على مصطبة الغسل، رجلٍ ستّينيّ ممتلئ، تُظلّل زرقةُ الموت جسمَه. عيناه مغمضتان، وفمُه نصف مفتوحٍ وأسنانُه متخالفةٌ كأنّه توفّي وهو عاضّ عليها ألمًا. تلفّتَ في الغرفة الضيّقة الكالحة، ذات المصطبات الأربع. ووقف عند رأسِه، ونادى الغاسل، فجاء رجلٌ بدينٌ ثائرُ الرّأس حادّ النظرات.

- يده اليمنى؟

- آ...آ.. نعم... سيّدي.

- افتَحْها.

رفعَ الغاسلُ وجهَه في وجه الإمام:

- ستنكسر أصابعُه حتمًا.

- أعرف. لكنّ حقَّ الحيّ مقدَّمٌ على حق الميّت، والحياةُ مقدَّمةٌ على الموت.

اقترب الغاسل من الجثّة المستسلمة. وما إنْ أمسك يدَ الرجلِ المُمَدّد حتّى سمع جلبةً جهة الباب. وظهرت إحدى أرامل الميّت قادمةً مسرعة:

- انتظروا!

اقتربت بأنفاسٍ متقطّعةٍ حتّى وقفت، فلامس طرفُ لباسها لباسَ الإمام، فابتعد عنها. نظر إلى العرق المجتمع على جبينها، وسمعَ أنفاسَها

المتقطعة. تأمّل وجهَها مُفكّرًا. *هذا الوجه المحمرُّ حِرصًا على دريهمات، وذاك الجبين المتعرّق كانت صاحبتُه تُفدّي هذه الجثّة الهامدة قبل أيّام. كانت تقول له: «ليتني قُبرتُ قبلك! كانت تنظر في وجهه وتقول: أفديك بنفسي!» هل كلّ ما يقول النّاس للناس محكومٌ بحدودٍ لا يفكّر فيها أحد؟ فالصّديق إذا قال لصديقه أفديك هل حقًّا إذا حقّ الحقّ يفديه؟ وهل حقًّا يحبّ الأبنَاء الآباء؟ أم إنّ حبّهم لهم واقعٌ لكنّه مشروطٌ بعدم تعارض المصالح مع المصالح، وتصادم الإرادات بالإرادات؟ فالابن يحبّ والده ما دام وجودُ الوالد مساعِدًا، لا مُهدّدًا للنفس ولا مانعًا لها من مالٍ أو جاهٍ أو لذّة. وإلّا لِمَ يقتل أبناءُ الملوك آباءَهم؟ ولِمَ يجتمع الورثَة ويتقاتلون على فُتَات الميّتِ المستلقي على خشبة الغسل؟*

أفاقَ على المرأة تمسحُ شفتَيها وجبينَها خجِلةً من نظره المتواصل إليها. مسحتْ أرنبةَ أنفها وأرختْ خمارَها على طرف وجهها مشيحةً عنه وهي تفكّر. *أيعقل أن يكون هذا طامعًا فيّ في هذه اللحظات؟ أليس له قلب؟ كيف ينظر كلّ هذَا النظر وزوجي مسجًّى بين يديه. لا جَرَم أنّه اختيارُ ضرّتي عبيدة! ما اختارته إلّا لأنّه يشبه أخلاقَها وطبائعَها.*

تنفّسَ الغزاليّ تنفّسًا حارقًا حتّى شعر بدوارٍ في رأسه. تداعى، ثمّ استندَ إلى جدار المغسلة وهو يقول للغاسل:

- افتَح يده!

أخذ الغاسلُ يدَ الميت ورفعَها حتّى يراها الإمامُ والشّاهدان. رفعَ اليدَ البيضاء المائلة إلى الزرقة كأنّها خشبة، وأدخلَ أصابِعه تحتَ أصابع الميّت، ثمّ جذبَها فسُمع صوتُ تكسر العظام، وسقطت ورقةٌ على الأرض.

انحنى الإمام، والتقطها، ونظر فيها، ثمّ ضمّ أصابعه عليها والوجوهُ الفضوليّة تفترسُه، ثمّ رفعَها:

- هذه هي الورقة الّتي كانت بكفّ الميّت رحمه الله. هل رأيتم هيئتها؟ لكنّي لن أقرأ مَا فيها إلّا في بيته بحضور الورثة كافّة.

ودسّها في جيبه، وقال:

- بسم الله، اربط الأصابع معَ اليد، وغسِّلُوه، وكفِّنوه، وادفنوه. وبعد الدفن نلتقي في بيته.

ابتعدت المرأة مشمّرةً ملابسَها عن أرضيّة المغسلة المبلّلة. وابتعد الشّاهدان، وخرجَ الإمام متمتمًا بالذّكر والدّعاء.

بُعَيد العصر، كان الإمام يخلع نعلَيْه عند مدخل بيت التّاجر. دخلَ رفقة ميرزا من الباب، فقادَهما أحدُ أبناء الميّت رفقةَ خادمٍ صقلبيّ. مشيَا في دهليزٍ ضيّقٍ مُعتِمٍ مليء بالرسومات والتصاوير حتّى خرجَا إلى باحة البيت. كانت تتوسّطها شجرةٌ وارفةٌ تحيط بها كراسٍ وفي وسطها نافورةٌ صغيرة. وقف أبناء الفقيد للسلام على الإمام واحدًا تلو أخيه. وجلس الغزاليّ وسط الجمع، وهو يرى الأرامل يدخلنَ من بابٍ عن يمينه، ويجلسنَ في طرف المجلس، واحدةً تلو أخرى متلفعاتٍ بالسواد.

ردّدَ عَينَيْه في الأشربة والفواكه المرصوصة. واكتملَ حضور الأبناء والزوجات، وخيّم الصّمت، بينما ازدحمت الأسئلةُ في ذهن كلّ الحضور عن طبيعة الورقة وما فيها. أزاح طيلسانَه عن كتفَيه استعدادًا للحديث. كان كلّ من في البيت يسلّط عَينَيه على الإمام منتظرًا الكشفَ عن طبيعة الوصيّة. ولاحظ الغزاليّ العيونَ الجوعَى إلى الأخبار، فتنحنح:

- بسم الله الرحمن الرحيم. وبعد، فها هو أبوكُم قد رحلَ إلى ما قدم، نسأل الله أن يكون من أهل الفراديس. وهذه تذكرةٌ لنا أنّ هذه الدّارَ دارُ عبور، لا دار قرارٍ وحُبور.

ثمّ سكتَ متلفّتًا، فرأى أحدَ أبناء الفقيد مادًّا صدرَه منصتًا، فواصل:

- وها هي وصيّة الوالد رحمه الله.

أدخل يدَه في جيبه، وأخرج الورقةَ، ورفعها حتّى رآها الحضور، ثمّ أنزلها وقرّبها من وجهه وقرأ:

- محمّد بن عبد الله بن عبد الحميد بن زيدان الدمشقيّ يشهد أن لا إله الله وأنّ محمّدًا رسول الله. اللهمّ إنّي عبدٌ آبق، أبِقْتُ ستّينَ حَوْلًا، ثمّ عدتُ عاجزًا مُرهَقًا من طول الهرب منك. عُدتُ إليك فسامحني وتقبّلني كما يتقبّل السيّدُ الشّريف أوبةَ العبد الآبق العائد إليه في شيخوخته!

سرت غمغماتٌ وهمهمات، ثم لفَّ المكانَ صمتٌ كثيف. وبقي صوتُ احتكاك الأواني في مطبخٍ قريبٍ مختلطًا بصوت الحمام يغرّد. ورفعتْ إحدى الزوجات صوتها:

- رحمه الله، ذلك ظنّنا به.

وجاء صوت ولده الكبير:

- هذا كلّ ما فيها؟

وقف الإمام:

- هذا كلّ ما فيها. أين ابنه الكبير؟

- هأنذا.

- هذه الورقة، خُذها إليك.

وضمّ الإمام أطراف جبّته، فقالت إحدى الزوجات:

- انتظر أيّها الإمام.. انتظر حتّى تتعشّى معنَا.

- أحسن الله إليكم!

سار مُسرعًا في الدّهليز وهو يفكّر في سعة البيت وكثرة حجراته ومداخله وسكّانه. فكّر في طبيعة الإنسان. *لم يبني ما لا يسكن؟ كيف يكون*

طولُ الإنسان عدّة أقدامٍ ثمّ يبني بناءً من مئات الأقدام؟ خرج وميرزا وأبناء الفقيد وراءه. وضع رجلَه خارج البيت، فلاحت له الشّمس في الأفق صفراء ذاويةً مشرفةً على الغروب. خُيّل إليه أنّها عمرٌ من الأعمار.. نهايةٌ وشيكةٌ لإنسانٍ مليءٍ بالرغبات والشّهوات، لكنّ المنيّةَ ستخترمه وهو في مَعْمَعانِ الركض في شعاب الحياة.

ودّعه أهلُ البيت. وانحدرَ مع الشّارع الواسعِ وميرزا يتبعه. لمحَ المارّين يسيرون بحُمُرِهم وبِغَالِهم في الاتّجاهين. وسمعَ أصوات الأطفال بالقرآن في الكتاتيب، فعادت إليه صورةُ الكتاتيب في الطابران. لكنّ صورة الشّمس المغربة الصّفراء الذاوية عادت. *هل هذه نبوءة بقرب أجله؟ هل هذا الإحساس الحادّ يعنيني أم يعني قريبًا مني. أنا؟ خلوب؟ أم إحدى بنتيّ؟*

رفعَ بصرَه في دور دمشق المتراصّة الأنيقَة المطِلَّةِ على الشّارع كأنّها ذكرى من عالمٍ بعيدٍ فَنِيَ واندثر. *كلّ هذا وَهْمٌ وإلى زوال. وتمتم في سره:*

- لا شيء ممّا ترى تبقى بشاشتُه * يبقى الإلهُ ويفنَى المالُ والولدُ!

لم فكّر في بنَتيه؟ لم هذا التعلّق بالدّنيا؟

وسمعَا أصوات مؤذّني الجامع الأمويّ يتراسلون بأذان المغرب. ثمّ رفعَ بصرَه، فلاحت له مناراتُ الجامع الأمويّ ممتدّةً في الفضاء كأنّها تتوّسل مستمطرةً الرحمةَ والمغفرة.

ودخلَ معَ الصحن مُسرعًا لئلّا تفوتَه الصّلاة. وسمعَ نقاشَ الرجال المتحلّقين حول حمزة السقّاء وهم يتحدّثون بأصواتٍ مليئةٍ رعبًا عن قصص الفرنجة الصليبيّن المتجمّعين لغزو بلاد المسلمين. طردَ الصّوتَ من ذهنه وهو يفكّر في خَلُوب وابنتَيْه وتوارى في المسجد. فلمح رجلًا ذا قلنسوة طويلةٍ واقفًا قربَ الباب يصيح:

- الفرنجة قادمون! لقد حشدُوا ألفَ ألفِ فارس، عازمين على غزو

بلاد الإسلام. وأنتم متفرّقون لا يجتمع منكم أميران على رأي!

وسرت في أطراف المسجد غمغماتٌ قطعَها صوت الإمام وهو يبدأ الصّلاة.

77

دمشق، 490 هـ.

ضمّ التّاجر الخوزيّ طرفَيْ جُبّتِه، ونظرَ إلى عتبة المسجد، ثمّ أدخل رِجلَه متمتمًا:

- بسم الله!

رفعَ بصرَه مع سواري المسجد الأمويّ، فهزّه منظرُها حتّى كاد يصطدم بطالبٍ يسير وهو يهذي كأنّه نائم. نظر إليه ثمّ سأله:

- أين أجدُ الإمامَ الغزاليّ؟

فتح الشّاب عَينَيه كأنّما استيقظ من حلم، ولمسَ رقبتَه، وقال بنبرةٍ قويّةٍ يعطي كلَّ حرفٍ من حروفها حقَّه:

- ناسكُ المنارة الغربيّة؟ تجده فيها.

- أين المنارة الغربيّة؟

لم يتكلّم الطالب، بل أشار بحركةٍ من ذقنه كأنّه يدعوه أن يتبعه. خرجَا من الباب إلى الصحن، وبعد لحظاتٍ كان التّاجر أمام المنارة يدقّ بابَها بأنفاسٍ لاهثة. مرّت ثوانٍ طويلة، وسمعَ صرير الباب الثقيل يتحرّك. كان ينتظر على أحرٍّ من الجمر. *أيُعقَل أنّ مَن يقال إنّ بغداد كلَّها كانت تجلّه أمسى مندسًّا هنا في هذه العمارة كأنّه بوّاب؟*

ولاحت له جُبّةٌ داكنة ووجهٌ مرهق:

- أهلًا بك.. تفضّل.

تلعثم التّاجر:

- هل الإمام الغزاليّ هنا؟

قطّبَ ميرزا جبينَه مكافحًا أسئلةً ضجَّ بها ذهنُه. لكنّه دارى كلّ ذلك وقال:

- نعم... ماذا تريد؟

- عندي رسالة إليه من أهله.

جاء صوتُ الغزاليّ مرتفعًا من الداخل:

- أنا هنا.. تفضّل!

لا يدري الغزاليّ كيف صرخَ بتلك العبارة، فعاد إلى نَفْسِه يلومُها. *ما هذا الضّعف والتخاذل والتعلّق بالدّنيا؟* هجمتْ عليه خواطر كثيرةٌ وهو يرى التّاجر يدخل متهيّبًا.

كان التّاجر مشغولَ الذهن بتأمّل الغرفة المتواضعة. كتبٌ متناثرة، دواةٌ وأقلامٌ وأوراق، ومفرشان للنوم، وبلاطٌ عارٍ. أنصت التّاجر لصوت الرّياح تصفّر في أعلى المنارة. *لمَ خرجَ هذا الرّجل من بيوت بغداد ومجالسة الخلفاء ليعيش هكذا؟*

كان الصّمتُ الثقيل الكثيف يملأ الهواء والمسافات بين الرّجال الثلاثة، حتّى خُيّل للتاجر أنّه يستطيع سماعَ وجيبِ قلبَيْهما. فكلّ واحدٍ من الثلاثة افترسَتْه أفكارٌ متشاكسة. انشغل الغزاليّ بلَومِ نفسه على انطلاق لسانه دون استشارةِ قلبه لحظةَ سماع اسم «أهله». كان ينظر إلى العمامة المزركشة على رأس التّاجر مُفكّرًا في الآية: «إنَّ مِنْ أزواجِكُم وأولادكم عدوًّا لَكُم فاحذورهم!». أمّا ميرزا فغارقٌ في التساؤُل عن طبيعة هذا الزائر. *هل هو رسولٌ من الخليفة؟ هل ثَمّ ما يدبّره مع الأتراك؟ إذا كان ثمّة أمرٌ فلا بدّ من سماعه كاملًا حتّى يطير به الحَمام غدًا. لكن، ماذا سأفعل لو طلب منّي الخروج؟* كان يراوح النظر بين الغزاليّ والتّاجر حتّى انقطع الصّمت:

- هذه رسالةٌ من أهلكم في الطابران، سلَّمَتْنِيها زوجكُم الكريمة!

ومدَّ يدًا مُرتعشَةً إلى الغزالي. انفتحت عينَا ميرزا، وراح يتأمّلُ حجمَ الورقة ونوعَها وغلافَها ونمطَ الخطّ عليها، مراقبًا يدَ الإمام تمسكها. لاحظ رعدةً خفيّةً في إبهامه وسبّابته. *هل هي رعدةُ الشّوق إلى أهله؟ هل يواري هذا الدّرويشُ كلَّ هذا الحبِّ والشّوق إلى عياله؟ أم هي رعدةٌ ناتجةٌ عن الأمر الآخر الكامن وراءَ كلِّ هذه الأحاديث؟* وجاء صوت الإمام:

- جزاك الله خيرًا وأحسنَ إليك!

تنحنح التّاجر:

- نلتمسُ منكُم دعوةً صالحة، ونستأذنكُم.

وقفَ الإمامُ ووضعَ في يد التّاجر يدَه اليمنى، كانت نحيفةً دقيقة. والتقت عينَا التّاجر بعيني أبي حامد، عينَين عميقتَين كأنّهما ينسلّ منهما شعاعٌ يخترق السرائرَ المطمورة في القلوب. فخُيِّلَ إليه أنّ الغزاليّ يرى كلَّ نيّاته ومطّلعٌ على كلّ أسراره وموبقاته الّتي يخجل منها. فارتبكَ وهو يقولُ مختنقًا بدَمْعه:

- يا شيخ ادعُ الله لي بالهداية!

واستلَّ يدَه برفقٍ وهو يتذكّر ذنبًا كان يواريه وتخيّلَ أنّ الإمام اطّلعَ عليه، ثمّ قال متلعثمًا:

- أستودعك الله أيّها الإمام... لا تنسَ أن تخصّني بدعوة!

- أسأل الله لنا الهداية كلّنا، وأحسن الله إليك!

خرج التاجر فتبعه ميرزا يشيّعُه نازلًا مع الدرج حتّى أوصلَه إلى صحن المسجد. وما كاد يتوسّطه حتّى قال للتاجر:

- متى وصلت إلى دمشق؟

- منذ يومين!

- وهل سمعتَ في طريقك شيئًا عن أخبار الجيوش الفرنجيّة الآتية؟

- لم أسمع بخبرهم إلّا بعد مجيئي إلى دمشق.

وعادَ ميرزا مُسرعًا، ودفعَ الباب، لكنّه وجد الإمامَ يرتّبُ أوراقَه ليكتب صفحات من كتاب «إحياء علوم الدين». أدار عَينَيه باحثًا عن الرّسالة فلمحَها تحتَ طرفِ فراشِه وخَتْمُها ما زال عليها. *لم لم يفتح رسالةً آتيةً من زوجته؟ كيف يصبر؟ لعلّه لم يفتَحْها لأنّها جاءته من عند أحد أمراء الأتراك!*

رمَى نفسَه في ركن المنارة، وأخذَ يتأمَّل الإمام، فرآه على حاله العاديّة أثناء الكتابة. يجلس متربّعًا وفي حِجْرِه دفترُ أوراقٍ كبيرٌ مكتوبٌ على جلده: «إحياء علوم الدين».

كانت الأوراقُ تلمَعُ فوق ركبته، والدواةُ تلوحُ عن يمينِه، والقلمُ يرقصُ بين أصبعَيْه. يكتب بسرعةٍ حتّى إنّ خطّه لا يكادُ يقرأ. كان يزمُّ شفتَيْه دَومًا، ويحكُّ جبهتَه أحيانًا ورأسَه أحايينَ أخرى. هذه عادته دَومًا. إذا كتب لا يحسّ بما حوله ولا يقطع كتابتَه شيء. يكتب حتّى يتعب.

كان مُندفِعًا في الكتابة، تمامًا كما تتدافع الأسئلة في جمجمة ميرزا. خطرَ له أنّ هذا رجلٌ صادقٌ باعَ حياتَه لله وللنجاة من النار وطلّق الدّنيا ثلاثًا. *لا يُعقَل أبدًا أن يكون هذا الشّيخ الّذي لا ينام من الذّكر والصّلاة والدّعاء، مع ترك بهرج الدّنيا، غيرَ صادقٍ أو خارجًا لهمّ دنيويّ.*

تناوَشَتْه الخواطر، ثمّ تذكّر شيخَه الّذي درّبه على الأساليب الشّيعيّة- الإسماعيليّة. تذكّر عشرات القصص. تذكّر أنّ عشرات الرهبان والعلماء والشحّاذين والمومسات يعملون لصالح الأتراك أو الخلافة العباسيّة. تذكّر كيف أوقعوا بكلّ من يناوئ الخلافةَ ولم يراعوا فيه إلًّا ولا ذمّة.

طردَ الخواطرَ عن ذهنه، وعادَ ينظرُ إلى الرّسالة المدسوسة تحتَ

الفراش. *تُرى ما بداخلها؟* وكحَّ كحّةً خفيفةً ليقطعَ تفكير الإمام أو يلفتَ انتباهه. لكنّه لم يلتفت، وظلّت يدُه تعوم على وجه الصفحات تكتب.

- أتمنّى ألّا يكون بَلَغَكَ عن الأهل شرّ؟

وسكنت يدُ الإمام. والتَفَتَ، ودسَّ رأسَ القلم في الدواة:

- والله يا أخي لم أفتحها بعدُ.

- لِمَ؟ لعلَّ ثمَّ خبرًا مّا..

وسكنت يدُ الغزاليّ والقلمُ مدسوس في الدواة. رفعَ يُسرَاه، ومَسَحَ بها طرفَ لحيتِه، ثمّ لمسَ الشجّةَ بأعلى جبهته:

- أمَا سمعتَ قصّة طالب العلم الخراسانيّ؟

- كلّا.. وما هي؟

- كان يدرس في النظاميّة. وتأتيه رسائلُ أهله فلا يفتحها عشرَ سنين حتّى أكمل تعليمَه. ثمّ جلس يومًا، وفتحَها كلَّها، فوجد الرّسالة الأولى تخبره بوفاة أمّه، والثانية بوفاة أبيه والثّالثة بزواج أخته. وعرف أنّه كان موفّقًا. فلو فتحَ واحدة منها لكان قطعَ دراستَه وعاد إلى أهله دون أن يُحيي ميّتًا أو يردَّ قَدَرًا.

وصمتَ مُحَمْلِقًا في وجه ميرزا، ووصلت سمعَيْها أصواتُ النّاس في صحن المسجد، وأصواتُ الباعة في مهبط الشّارع، ونداءاتُ حمزة السقّاء على عصائره. وتنفّس الغزاليّ الصعداءَ، وعاد إلى الكتابة. رجعت يدُه إلى الفصل الّذي كان يكتب فبدأ:

«اعلم أنّ كلّ الأسباب الدنيويّة مختلطةٌ قدرَ امتزاج خيرها بشرّها. فقلّما يصفو خيرُها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب. ولكنْ تنقسم إلى ما نفعُه أكثر من ضرّه، كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب، وإلى ما ضرُّه أكثر من نفعه في حقّ أكثر الأشخاص،

كالمال الكثير والجاه الواسع، وإلى ما يكافىء ضررُه نفعَه، وهذه أمورٌ تختلفُ بالأشخاص. فرُبّ إنسانٍ صالحٍ ينتفع بالمال الصالح، وإن كثر فينفقه في سبيل الله، ويصرفه إلى الخيرَات، فهو مع هذا التوفيق نعمةٌ في حقّه. وربّ إنسانٍ يستضرّ بالقليل أيضًا، إذ لا يزال مستصغرًا له، شاكيًا من ربّه، طالبًا للزيادة عليه، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقّه..».

مرّت ساعتَان انتبه بعدهما على غطيط ميرزا، وأذان الجامع يرتفع. ولم يفق إلّا ويدُه تقترب مرتجفةً من طرف فراشه. وأمسكَ الرّسالة، ورفعَهَا متّئدًا. تأمّلها: ورقةٌ من ورق البرديّ نظيفةٌ مطويّةٌ على أنباء الأحبّة. تردّد قليلًا، ثمّ فتحَ الختم. *تُرى ما بداخلها؟ هل هو خبرٌ يحتّم عليَّ شرعًا الذهابَ إلى الطابران؟ لمَ أفتح عليَّ أبوابًا من انشغال القلب الّذي بدأت أروضه؟*

لاحظَ اضطرابَ إبهامِه وهو يفتحُ الختم. خُيّلَ إليهِ أنَّه شمَّ ريًّا عطرِ خلوب. وامتلأَ أنفُه بتلك الرّائحةِ العبقة. تجسّدَتْ في ذهنِه صورةُ بِنْتَيْه، وابتسامةُ خلوب، واستيقظتْ شوارعُ الطابران وأهلُه في ذاكرته. فخُيِّلَ إليهِ أنّ رئتَيْه اتّسعتَا وهو يستعيدُ روائحَ الشباب في الطابران.

أَلِهَذَا الحدِّ يرتبطُ الإنسانُ بمكانِ نشأتهِ وبقعةِ خروجِ مشيمَتهِ؟ يشتاقُ إليهَا رغمَ كبره وعقله وتقبّله في أماكن أفضل منها وأجمل؟

وبدأ يقرأ الرسالةَ التي سقطتْ من يدِه وهو يقرأُ آخرَ سطرٍ فيها: «**إنّ قلبي ليتفطّر كمدًا... ولا أستطيع أنا ولا بنتَاكَ تحمُّلَ هذا البعد، ونحن في غيبتك غرباء! ولم أعد أجدُ أجوبةً لسؤال عائشة وفاطمة عنك!**».

رفع يدَيْه ووضعَهُما على وجهه.

78

دمشق، 490 هـ.

تسلَّلَ ميرزا في شوارع دمشق الخلفيّة قاصدًا المكانَ السرّيّ الخاصّ. تجاوزَ طرفَ الشّارع، ورمقَ -على عجل- مداخلَ الشّوارع متأكّدًا أن لا أحدَ يتبعه. ولمحَ السّائلَ ذا اللّحية الكثّة جالِسًا أمامَ البيت فتجاوزَه، ودخل.

كان متوتّرًا لتأخُّره عن الموعد قليلًا. فقد استُدْعِي، وطُلِبَ منه الوصولُ إلى مدخل الدّار بُعَيْدَ صلاة العشاء. تجاوز الباحةَ، فتلقّاه رجلٌ نحيفٌ أصلع واقتادَه إلى وسط الدّار، ثمّ فتحَ له دهليزًا نزل منه إلى غرفةٍ تحت الأرض.

- السّلام عليكم!

وتأمّل الوجوهَ الواجمة في أطراف الغرفة المعتمة الضيّقة. أربعة رجالٍ يتوسّطهم أَسَنُّهُم.

حَسَرَ الرّجلُ المسنّ طرفَ عمامتِه عن فيه، فظهر شعرُه الأشيبُ وأسنانُه القويّة تحت ضوء المصابيح:

- لقد استُدعيتَ لنسألك عن أمر.

خفق قلب ميرزا. فهو يعلم أنّه ثقةٌ عند جماعته، لكنّه يعلم أنّ الأمورَ في الجماعة قد تتّجه في أيّ اتّجاهٍ كذلك. فكّر سريعًا في أسباب استدعائه، فلم يرجّح احتمالًا، ولم يمهله الرّجل الأشيب:

- لقد طلب منك «بُلَنْد» أن تقول لنا رأيك في الغزاليّ. لمَ خرج؟ وما الّذي يشغل بالَه؟ وهل له صلةٌ بحكّام دمشق الأتراك؟

تنفّس ميرزا، ثمّ تداركَ نفسَه حتّى لا تظهر عليه علاماتُ التوتّر:

- تقديري أرسلتُه مكتوبًا، وإنْ شئتم قُلتُه منطوقًا.

وردّدَ بصرَه في الوجوه المحيطة به مُتسائلًا عن أسنانهم وأعمارهم وطبيعة أعمالهم:

- أرى أنّ الرّجل إنّما خرج تألُّهًا وطلبًا للأجر وخوفًا من الدّنيا. فقد رافقتُه وراقبتُه، وما رأيت إلّا ما يدلُّ على شدّة محاسبته لنفسه ونَدَمِه على ما مرَّ من عَيْشِه. أصبحَ يحصي أنفاسَه وعددَ كلماته الّتي ينطقُ خوفًا من الله واحتسابًا للأجر. ولم ألاحظ أنّه اتّصلَ قطُّ بأميرٍ أو رسولٍ من أمير.

جاء صوت الرّجل القصير الجالس عن يمينه:

- سمعنَا أنّه بدأ يلقي الدروسَ ويفتي ويكتب الكتب.

ثمّ سكتَ، وحكّ رقبتَه، وقال مغيّرًا نبرتَه:

- مشكلتنا معه كتابةُ الكتب...

وفهم الحاضرون تلميحَ الرّجل إلى كتاب الغزاليّ «فضائح الباطنيّة».

ثمّ قال ميرزا بعد صمت:

- آه، نعم، لقد توقّف أوّلًا، ثمّ عاوَد الدروسَ والكتابة. لكنّي لا أراه عائدًا إلى صلةِ الأمراء والخلفاء. وذاك الكتاب المشؤوم إنّما حمَلَه الخليفةُ المستظهر على كتابته.. و...

ثمّ انتبه إلى أنّه بدأ يدافع عن الغزاليّ. فخشيَ أن يُؤَوَّل كلامُه، ويُنقلَ عنه انجذابٌ إليه أو فتورٌ في عقيدته، فغيّر نبرتَه:

- ولا ندري ما قد يكتب بعده.

تناوشه الرّجال الأربعةُ بالأسئلة، وتراجع رئيس الجلسة إلى الخلف، واستندَ إلى الجدار، ونزع عمامتَه، فلاح شيبُه واضحًا، وقال كأنّه ينهي الحديث:

- لقد طُلب منكَ السّفر فورًا إلى أصفهان. جهّزْ نفسك لقافلة الغد.

ولم ينتظر الأشيبُ ردَّ ميرزا. فقد علّمَتْه عشراتُ السنوات من العمل السرّيّ ألّا يُنتظَرَ من عضوٍ الاعتراضُ على القرارات. بل الطاعة فحسب.

ودقّ قلبُ ميرزا مُتسائلًا عمّا ينتظره هناك. وانقطعت أفكارُ الجميع بظهورِ قدَمَين آتيتَين من فتحة الغرفة فوقَهم. فإذا هو رجلٌ يحملُ كيسًا مليئًا بالمكسّرات والتمور. نثرَه بين الأيدي، فتقاربَ الرّجال وبدؤوا يأكلون. وجاء صوت الرّجل القصير:

- هل سمعتم بأخبار الفرنجة؟

فقال ميرزا محاولًا إشعارَهم بعدَم تفاجئه من دعوته للذهاب إلى أصفهان:

- منذ يومَين ولا شغلَ لأهل الجامع الأمويّ إلّا خبرهم.

اعتدل الرئيس في جلسته مبعدًا رأسَه عن الجدار:

- حاصلُ الأخبار الّتي وردت من عيوننا أنّهم تفرّقوا بعد هزيمتهم على يد قليج أرسلان، فعادَ أكثرُهم إلى القسطنطينيّة، وبقي بعضُهم على السّاحل في قريات، وكلّ يومٍ يصلهم المددُ من أرض الفرنجة.

قال ميرزا، والتصنّع ما زال بيّنًا في صوته:

- لكنّهم لن يصلوا إلى بيت المقدس إلّا إذا تغلّبُوا على المدن الّتي في طريقهم؟

قال الرئيس وهو يمرّر يدَه على وجهه:

- على كلّ حال، قُدوم الفرجة خيرٌ لنا من سلامة حُكّام أنطاكيّة وطرابلس والقدس ودمشق! فلو انشغلَ بهم هؤلاء الأمراء لوجدَ صاحبُ الوقت وأنصارُ آل البيت الفرصَ للدعوة.

وترامق الرّجال، وأخذ القصيرُ حفنةَ زبيب، وقال قبل أن يضعها في فيه:

- وماذا يريد الفرنجة؟ ما أراهم إلّا مُبادُون بالسيفِ هنا. فالأتراك أعدادٌ لا تحصى، ثمّ إنّهم في أرضهم، والفرنجة نازحون بعيدون عن المدد.

كان الرئيس يُفتّش المكسّرات برؤوس أصابعه؛ فأخذ حفنةَ جوز، ونفخَها، ثمّ رفع رأسه:

- يحيّرني لمَ يجرؤ الفرنجة على الدّخول إلى هذه البلاد؟ فهم عوامٌّ طغام لا حاكمَ لهم ولا رابطَ لأمرهم. لم يشتهروا بصناعةٍ ولا علمٍ ولا شجاعة. فلو أنّ صاحب القسطنطينيّة جاءَ لكانَ الأمرُ مفهومًا. أمّا الفرنجةُ والجلالقة ومَن وراء الأندلس فما عهدنَا منهم تشوّفًا إلى هذه البلاد ولا غيرها.

كان الكهل الأشيبُ يتحدّث، ثمّ تذكّر أنّ الرّجل النّحيلَ الجالسَ بينه وبين ميرزا عليمٌ بالتاريخ والفلسفة فتدارك:

- هذا ما أسمعه... والله أعلم، والأستاذ حسَن أدرى.

وحسرَ الرّجل النّحيلُ لثامَه عن فيه؛ فظهرت أسنانُه البيضاء القويّة، وأنفُه الأفطس، ورأسه الضخم، وقال بصوتٍ واثق:

- صحيح أنّ الفرنجة ليسُوا أهلَ علمٍ ولا فهمٍ ولا تعقّلٍ ولا أدب. فلم يبرز فيهم منذ بدء الخليقة عالمٌ واحد، ولا كان فيهم عقلٌ كبير. فليس في غرب البحر الروميّ أو شماله من أهل العلم والحكمة إلّا اليونانيّون من أهل أثنيا، أصحاب أرسطوطاليس وأفلاطون وغيرهما من عقلاء الخليقة. والأمم النصرانيّة عامّةً ليس فيها علمٌ ولا حكمةٌ ولا أدب.

كان ميرزا ينصت للرجل النّحيل مستغربًا تعميمَه الجهلَ على النّصارى، فقال بنبرةٍ استغراب:

- ولكن أليس في الرّوم علومٌ وآداب؟ وهم نصارى! أليس معظم أطبّاء بلاد المسلمين اليوم نصارى؟

كان الرّجل النّحيل يضعُ يدَيه فوق ركبتَيه فأزالهما، ومدّ يدَه إلى وسادةٍ قريبةٍ فوضعها تحت فخذه، وقال مغيّرًا لهجته رافعًا صوته قليلًا:

- هذا من أخطاء العامّة الشّائعة. ألم تسمع ما قال أحد علماء بغداد من قبل؟ قال إنّ «النّصارى والرّوم ليستْ لهم حكمةٌ ولا بيان، ولا بُعدُ رويّةٍ، إلّا حكمة الكفّ، من الخرط والنجر والتصوير، والحياكة. ولو علم النّاس ذلك لأخرجوهم من حدود الأدباء، ومحوْهم من ديوان الفلاسفة والحكماء. فكتابُ «المنطق» وكتاب «الكون والفساد»، و«كتاب العلوي» وغير ذلك، لأرسطاطاليس، وليس بروميٍّ ولا نصرانيّ. وكتاب المجسيطي لبطليموس، وليس بروميٍّ ولا نصرانيّ. وكتاب إقليدس لإقليدس، وليس بروميٍّ ولا نصرانيّ. وكتاب الطبّ لجالينوس، ولم يكن روميًّا ولا نصرانيًّا. وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وأفلاطون، وفلان وفلان. فهؤلاء ناسٌ من أمّةٍ قد بادتْ وبقيت آثارُ عقولهم، وهم اليونانيّون. ودينُهم غير دينهم، وأدبهم غير أدبهم. أولئك علماء، وهؤلاء صُنّاعٌ أخذوا كتُبَهُم لقرب الجوار، وتداني الدّار، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم، ومنها ما حوّلوه إلى ملّتِهم. إلّا ما كان من مشهور كتبهم، ومعروف حكمهم، فإنّهم حين لم يقدروا على تغيير أسمائها زعموا أنّ اليونانيّين قَبيلٌ من قبائل الرّوم، ففخروا بأديانهم على اليهود». هذا عن النصرانيّة والرّوم عمومًا، أمّا الفرنجة فمُتّفقٌ على أنّهم رعاعٌ جهلاء.

وسكت الرّجل النّحيل. وقلّب عَينَيه البارزتين في المجلس مُتأمّلًا أثرَ كلامه فيهم، فلاحظ الإعجابَ والموافقة. فقال مهدّئًا نبرته:

- لكنّ في الفرنجة فضيلةً واحدةً متّفقًا عليها هي فضيلة الشجاعة، كما أخبرني بذلك أصحابنا في الأندلس. فهم الآن أصحاب قتالٍ وهراش، لكنّهم أشبه بالبهائم. إذ لا يغتسلون من جنابة، ولا يستنجون من بولٍ ولا غائط. ولا يعرف القراءة والكتابة منهم إلّا القُسُس.

وسكت ناظرًا إلى السّقف، فقال ميرزا:

- وفيهم كمال أجسامٍ كذلك. ترى الرّجل منهم كأنّه فرسٌ من شدّة أسره وقوّة أعصابه.

وظهرت قوائم نازلةً من الفتحة، فانصرفت إليها العيون. وظهر شُخيْصٌ ذو عمامةٍ ضخمة، أحدب. فوقف رئيس الجلسة هاشًّا فاتحًا ذراعيه:

- أهلًا وسهلًا! كاظم!

واقترب القصير الأحدب، وجلس في طرف المجلس صامتًا، ففاحت رائحةُ العسل من أردانه. وتنحنح رئيس الجلسة:

- ميرزا، هذا الشّيخ المبارك رفيقك في الرحلة. تتحرّكان غدًا إلى أصفهان. هو تاجر عسل، ولك أن تساعده في تجارته.

وتذكّر ميرزا كيف قال له مدرّبه على السرّيّة والعمل المتواري من كون الإنسان إذا أراد التّخفّي في بلاد المسلمين لا يتستّر إلّا بأحد أمريْن: إمّا أن يكون تاجرًا، أو حاجًّا. فالتّاجر والحاجّ لا يُوقَفان ولا يُؤذَيان في أيّ قطرٍ من أقطار المسلمين، ولا يشتبه فيهما، مهما كانت ديانتهما.

وسرت في ذهنه تلك الأفكارُ وهو يتأمّل الشّيخ الأحدب مستملحًا منظره. وتجدّدت في ذهنه الثّقةُ بهذا التنظيم المحكم الّذي ينتمي إليه. فهو لا يدخل مدينةً إلّا وله فيها أهلٌ وأصحاب، ولا يدخل مشكلةً إلّا حلَّها، ووقفَ معه فيها.

تذكّر ما سمعه أمس في المسجد الجامع من أنّ حاكم حلب واحدٌ منهم يخفي نفسه. تمنّى لو استطاع السّؤال عن صحّة الأمر. ولكنْ من القواعد الّتي لا يخرمها «العامل» ألّا يسأل عن أيّ معلومة.

وفي الصباح كان ميرزا يسيرُ وسط قافلةٍ كبيرةٍ مُتّجهًا إلى أصفهان. كان يسير بتؤدةٍ وراء الشّيخ الأحدب الّذي يقودُ جِمالًا محمّلة بالعسل. كان يسير مُفكّرًا في أمورٍ كثيرة، في الغزاليّ ومصيره، والفرنجة وحروبهم، وما ينتظره في أصفهان، وآخر الأخبار الّتي تقول إنّ بركيارق بدأ القضاء على كلّ إسماعيليّ. *هل سينكّل بكلّ الجماعة؟ أم سينجحون في قلب الدّولة والتمكّن كما نجح إخوتهم العبيديّون من قبل؟*

وضجَّ ذهنُه برُغَاءِ الإبل في أطراف القافلة، وأصوات الأدلاء، وغناء جاريةٍ على ظهر بعيرٍ يسير خلفه. رفع بصرَه، فلمح جبل قاسيون بعيدًا تظلّله الغيوم. تأكّد أنّه غادر دمشق ربّما إلى غير رجعة. وخطرَ له أنّ انتماءه إلى هذه التنظيمات السرّيّة يتيحُ له التعرّف على المدن، وعلى خصائص الأمم والبلدان، فما كان له أن يرى كلَّ هذه الأصقاع، ويعاشرَ كلّ هذه الوجوه لولا هذا التنظيم. وانتابته موجةُ سعادةٍ لكنّ ذهنه ما زال منشغلًا بذلك السّؤال: *ما الّذي ينتظرني من مهمّات في أصفهان؟* وتذكّر وجهَ الغزاليّ البارحة وهو يودّعه مخبرًا إيّاه بأنّه عائدٌ إلى وطنه بسبب مرض أمّه. تفاجأ بأنّ في قلبه ميلًا إلى الغزاليّ. وعاتب نفسه مُتذكّرًا قواعد التنظيم الإسماعيليّ الباطنيّ:

- تذكّر دَومًا أنّ عدوّك عدوٌّ حتّى لو أظهر الودَّ، فإذا لم يكن لك عدوًّا فإنّ ابنَه عدوٌّ لابنك قطعًا، وإن لم يكن ابنُه عدوًّا لابنك فإنّه عدوُّ آل البيت، وعدوُّ صاحب الوقت. تجدّدت العزيمة في نفسه، وانطلق وسط القافلة.

79

ضواحي نيقيّة[1]، شعبان، 490 هـ/ يونيو 1097م.

كان القائد ريموند يمشي مُترنّحًا وذراعُه الأيمنُ مرتخٍ مُخضّبٌ دمًا. لكنّه سعيدٌ بما آلتْ إليه المعركة. أرهقَتْه سهامُ الأتراك وسيوفُهم، وفقدَ مئات الفرسان، وكاد يقع في الأسر. كان مصدومًا من قدرتهم الفائقة على التسديد الدقيق من بعيد. لقد سمع كثيرًا عن قدراتهم القتاليّة في بلاط الإمبراطور ألكسيوس لكنّهم فاجؤوه مع ذلك. مشى وسط مخيّمه تتناوشه الآلام المضنية في ذراعه الأيمن. كان يعزّي نفسَه بأنّ هذا كلَّه في سبيل المسيح. *لقد كنتُ أقوم بكلّ هذا بحثًا عن المجد الشّخصيّ، والمال والنفوذ، أمّا اليوم فهو للمال والنفوذ وللمسيح! فذنوبي مغفورة، وأنا شهيدٌ إن قُتلتُ كما حكم البابا.*

كان يمشي وسط الجثث المترامية، ويسمع أنينًا مكتومًا هنا، وصرخةً شاردة هناك، وتترامى إلى سمعه صرخاتُ جنودٍ سعداء بنهاية المعركة. كانت رياحُ الصيف تلعب بردائه من ورائه، وشارةُ الصليب الحمراء الضّخمة تلوح بين كتفَيه. رفعَ بصرَه، فلمح أسوارَ نيقية تتوارى تحت عباءة اللّيل الزاحف. رأى الأبراجَ المشرئبّة، فاستعادَ في ذهنه أنّ المدينة تحوي 240 برجًا. *كيف نستطيع تحريرها واحدًا تلو آخر من هؤلاء الأوغاد الأنجاس؟*

---

(1) نيقيّة في شمال غرب تركيا. وتسمى اليوم إزنيق (Iznik).

جدّد العزمَ على التبكير على الحرب. سيكون غدًا أكثر فهمًا لطريقة الأتراك في القتال، وإذا نجح هو ورفاقُه في دخول نيقية وتحويلها إلى عاصمة ستكون الطّريق إلى القدس مفتوحة. مشى وهو يسمع صراخَ الجنود وتشاغلهم بدفن القتلى. ولمح القسّيسَ أدهمار قادمًا يترنّح في ردائه الأبيض. هزّه منظرُ قسّيسٍ في ساحة وغى. فهذه أوّل مرّةٍ يرى فيها قسّيسًا شجاعًا يخوض الدماء ويقارعُ الرّجال. تأمّله قادمًا إليه مُتذكّرًا أنّه مبعوثُ البابا الخاصُّ لمباركة هذه الحرب.

كان القسّيس يسير كأنّه في حلم. ينظر إلى نيقية الّتي يبلتعها الظّلام غير مصدّقٍ مَا يَرى. *هل حقًّا أنا هنا أم في حلم؟ فهذه هي المدينة الّتي تجمّع فيها الرهبان عام 325م في «مجمع نيقية» وأخرجوا عقيدة الثالوث الّتي ندين بها اليوم.* شعر بأنّه في ملحمةٍ كونيّة، وخُيّل إليه أنّ أرواحَ القدّيسين تتجوّل داخلَ أسوار المدينة ترقبُه وتدعو له. انتابَه شعورٌ طاغٍ بالسّعادة وأحسّ أنّ أنفاسَ المسيح تقترب منه وتباركه. وما هي إلّا أسابيع ثمّ يكون في أرض المعاد، حيث كان الأنبياء ووُلد الإله!

واقترب من ريموند. وقفا، وتفقّد كلٌّ منهما جراح الآخر، وسمعَا صوتَ القائد تانكارد آتيًا يركض على جواده. وقف أمامهما، وقال بأنفاس متقطّعة:

- آه، أين هم الآن؟ أترياهم عائدِين غدًا؟

اعتدل ريموند في وقفته، وتلفّت مُشيرًا إلى الهضبة الجنوبيّة:

- أظنّهم هناك... ابتعدوا منهزمين!

في تلك اللّحظة كان الرّماةُ الأتراك يتدافعون مع تلال نيقية الجنوبيّة يتقدّمهم السّلطان قلج أرسلان. كان يضرب رقبةَ جواده بالسوط، ويركلُ جنبه برجلَيه بينما ترتفع أنفاسه اللّاهثة حتّى لتكاد تضارعُ لهاثَ فرسه.

وقف في منحدر التلّ متلفتًا وراءه، فلمح أبراجَ نيقية السّاحرة مشرئبّةً بعيدة... ومن دونها سوادُ الجيوش الإفرنجيّة.

لقد نجَا اليوم من القتل مرّتين. فقد تسلّل فارسٌ إفرنجيٌّ حتّى رفع فأسًا ليضربه بها بين كتفَيه، لكنّ أحدَ حرّاسه ضرب يد الفارس قبل أن تلامس الفأسُ ظهرَه. وفي المرّة الثانية قفز به فرسه، فسقط عنه، وكاد يقع على سهمٍ مغروسٍ في الأرض.

وقف السّلطانُ لاهثًا لا يكاد يسمع كلامَ مستشاريه، أحاطوا به لاهثين يلتقطون أنفاسَهم، ثمّ نزلَ عن فرسه مرهقًا، ومشَى إلى صخرةٍ وجلس عليها، وأسندَ سيفَه إلى صدره والأسئلةُ الحارقةُ تتراقص في ذهنه المشوَّش بغبار المعركة الّتي استمرّت ما بين انفلاق الإصباح والغروب. *كيف استطاع الفرنجة محاصرةَ عاصمتي نيقية؟ وكيف بلغ بي الجنونُ أن أترك كلّ عيالي وخزائني داخلَها وأذهب لقتال الأمير دنشمند؟ كيف لم أفكّر في أنّهم سيعودون؟ ماذا سيقع لبناتي إذا دخل الفرنجة نيقية؟*

ها هي العاصمة الّتي خلّفها لي والدي سليمان بن قتلمش تكاد تسقطُ بأيدي هؤلاء الفرنجة! عضّ شفتيَه. *عليّ التّفكير الآن في مسارٍ آخر إذ يبدو النصر صعبًا.* أشار إلى مستشاريه بالاقتراب فكان قائدُ الجيش أوّلَ المتحدّثين:

- إنّ وصولهم قبلنا مكّنهم من إحكام الحصار وتدبير كلّ شيء. لقد وزّعوا جيشهم توزيعًا ممتازًا هذه المرّة. ولذا لا أظنّهم ينسحبون رغم الخسائر الفادحة الّتي أصيبوا بها. إنّ مجموع الفرسان الّذين يحاصرون المدينة خمسة آلاف فارس، معهم ثلاثون ألفًا من المشاة. هذا غير النّساء والأطفال والخدم.

وسكتَ القائد مُتظاهرًا بطرد ذبابةٍ من ذلك الذباب الّذي يسمّيه الأتراك «ذباب الموتى» لاجتماعه على الجثث، ثمّ قال:

- لقد أحكموا الحصار على كافّة أطراف المدينة بدقّة. وقد علمنا من جواسيسنا أنّ قادتَهم هذه المرّة أمراء يعرفون الحروب، وليسوا كالقادة الّذين جاؤونا العام الماضي.

ظلّ قلج أرسلان صامتًا. ثمّ رفعَ بصره إلى السّماء، فرأى نسورًا تتّجه شمالًا وقد اتّشحت بسواد اللّيل الزاحف، فتشاءم منها ومن الذبابة المحلّقة فوق رأس قائد جيشه. تذكّر كيف استطاع الفرنجة أخذَ سلسلة الحديد الطّويلة الّتي جاء بها ليضع فيها أسراهم، وتخيّل النسورَ تنقضّ غدًا لاقتلاع عيون بعض جنوده القتلى.

ما الّذي عليّ فعله؟ هل أنسحب وأرتّب أموري وأعود، أم أحاول القتال وقد يقع ما لا يحمد؟ في هذه اللحظات الحرجة يقفزُ والدُه إلى ذهنه. ذلك الرّجل الصلب الأشيب القصير القويّ افتكّ هذه المناطق من أرض الرّوم بحزمه وشجاعته. تذكّر والده سليمان بن قتلمش، ذلك الفارس المغوار الّذي قُتل في معركة مع تتش والي دمشق. *ماذا لو أطلّ عليّ الآن ورأى حالي، وكيف أضعت نيقية بعد أن انتزعَها بحدّ السّنان؟ كيف يقع هذا وأنا السّلطان قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن آتس بن إسرائيل بن سلجوق؟*

ورفع يدَه ليضرب صدره، فانتبه إلى عيون قوّاده تفترسه. دارى العواصفَ بين جوانحه وهو يقول:

- من هم قادة الفرنجة؟ هل من معلوماتٍ عنهم؟ وما موقف الإمبراطور في القسطنطينيّة من عبورهم إلينا؟

هنا تحرّك صاحب الأخبار، وحسَر طرفًا من عمامته الحمراء عن فيه:

- نعم، سيّدي الأمير. الفرنجة هذه المرّة أَتَوْا تحت عددٍ من القادة ذوي خبرة. فمِن أبرز قادتهم واحدٌ اسمه بيمند، وآخر يُدعى غودفري،

وثالث يُسمّى صنجيل. وهم قادة فرسان، حتّى إنّ بعضهم إخوةٌ لبعض ملوك الفرنجة. هذا ما عندي عنهم.

قال قائد الجيش بنبرةٍ حازمة:

- لا توجد جبهةٌ رخوةٌ يمكننا مهاجمتهم منها إلّا الجهة الجنوبية الّتي أعيتْنا اليوم، وهي تحت إمرَة القائد ريموند، والقسّيس بطرس. أمّا حاميتنا المحاصَرة داخل نيقية فقد أرعبوها برميها برؤوس جنودنا الّذين قتلوا.

رفع السّلطان يده متأفّفًا:

- إنّهم لا يعرفون أخلاق الحرب. كيف يأخذون رؤوس جنودنا ويرمونها داخل أسوار المدينة؟ وماذا عن الإمبراطور ألكسيوس؟ هل يقف معهم؟

وانحنى صاحب الخبر، فظهرت عمامتُه الضّخمة تحت الظّلام أكبر من حجمها:

- عندما وصلت جيوشهم إلى القسطنطينيّة لم يُرحّب بهم أوّلًا. واشترط عليهم أن يُقسموا له الولاء على عادة الفرنجة. ففعلوا ذلك بعد تلكّؤٍ إلّا واحدًا يُدعى تانكارد، ابن أخت بيمند. فقد اشترط الإمبراطور أن يسلّموه كلّ مدينة يستولون عليها من المدن الّتي كانت تابعةً لإمبراطوريّته. ومقابل هذه التعهّدات سمح لهم بالعبور، وزوّدهم بالأقوات والمال والأدلاء والجواسيس. وتعهّد بتزويدهم دَومًا بما يحتاجون إليه عبر البحر. وكان بيمند آخرَ من وصل إلى نيقية لانشغاله بتنسيق هذه الأمور مع ألكسيوس.

أشارَ السلطانُ إلى قُوّاده بالابتعاد عنه، وتركه وحيدًا حتّى يفكّر في اتّخاذ القرار المناسب. وابتعدَ الرّجالُ متفرّقين في أطراف المعسكر، بينما

تكاثف الظّلام، وأطلّ البدر على السهول شابًّا برّاقًا متّقدًا. تأمّل السّلطانُ البدرَ الممتلئَ في الأفق، فتخيّله نذيرًا بأمورٍ عظيمةٍ تموج بها أحشاء الكون.

وقُبيل الفجر بأربع ساعاتٍ كان رسولٌ من الإمبراطور ألكسيوس قد وصل للقاء السّلطان في خيمته وسطَ معسكره. دخل التّاجر القونيّ الموثوق لدى كلّ من السّلطان والإمبراطور إلى قبّة السّلطان وهو يستعيد في ذهنه عرضَ البيزنطيّين. وجلس الرّجل اللاتينيّ وعيناه تلمعان تحت ضوء القمر شارحًا العرض، وابتسامة التجّار لا تفارق محيّاه. لم يمتدَّ اللقاء طويلًا، فقد كان السّلطان جاهزًا لأيّ اتّفاق: فالمهمّ عنده ألّا يدخل الفرنجة المدينة عنوةً، وأن يردّوا إليه أهله سالمين.

وبعد ساعةٍ خرج التّاجر القونيّ محمّلًا بموافقة قليج أرسلان على تسليم المدينة للإمبراطور ألكسيوس مقابل الإحسان إلى أهلها وإلى عائلة السّلطان. وعاد قليج إلى فراشه داخلَ قبّته مُعزّيًا نفسه بأنّه لم يفقد كثيرًا. فمعظم سكّان المدينة مسيحيّون، والحضورُ الإسلاميّ يقتصر على النخبة الإداريّة والعسكريّة فحسب.

وعند تباشير الصباح انتبه الصليبيّون إلى شعار بيزنطة يرفرف فوق أسوار نيقية، فدخلوا يتصارخون. وما إنْ ارتفعت الشّمس حتّى كان الجنود الأتراك يخرجون من المدينة بحماية جنود الإمبراطور، تحت عيون الفرنجة المصدومين من معاملة الإمبراطور لعائلة السّلطان وحاشيته.

ووقف بينمد وبعض قوّاده على طرف السور ينظرون، والجنود المسلمون في صفوفٍ طويلةٍ يمرّون أمام أعينهم خارجين من نيقية.

80

بغداد، شعبان، 490 هـ.

كان الغزاليّ يتربع في ركن الحجرة مرتديًا ملابسَه المتبذلة، بينما يجثو الشابّ الأندلسيّ الأنيق بين يدَيه. كان يسأل عن كلّ شيءٍ، ويكتب أيَّ شيء. يدُه النشطة لا تملّ، ولسانُه الفصيح لا يتعثّر، وتعصّبه المالكيّ يحتدّ، ممّا يجعل الغزاليّ يضحك في سرّه أحيانًا. أربعة أشهرٍ مرّت على أبي حامد في رباط أبي سعيد ببغداد، لم يأذن فيها لأيّ أحدٍ بالدّخول عليه دون استئذانٍ غير هذا الشابّ الأندلسيّ ذي العينَين اللّامعتَين والخدّين الأحمرين والشّعر الكثّ.

رفع أبو بكر بن العربيّ القلمَ الّذي انعكس ظلّه على الجدار تحت ضوء المصباح:

- لم أفهم ما يعنيه الشّيخ بتحرّي العلوم الإلهيّة واكتشاف العلم دون تعلُّم!

فرفع الغزاليّ يديه معًا وضمّهما، وهو يشمّ رائحة خبزٍ آتيةً من بعيد:

- ما عنيتُه أنّه يجب على طالب العلم تحصيلُ العلوم نفسها بطريق البحث والنظر على غاية الإمكان، وذلك بتحصيل ما حصّله الأوّلون أوّلًا. هذا نتّفق عليه. ثمّ لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لمْ ينكشف للعلماء الباحثين من الأمور الإلهية. فما لم ينكشف للخلق من العلم أكثرُ ممّا انكشف. وهذا مَربَط التباين بين الفريقَين: فريق الباحثين عن المعرفة بالقرب من الله، وفريق الباحثين عنها بالدراسة الدنيويّة العقليّة.

وتأمّل الغزاليّ عينَي ابن العربيّ تحت المصباح، فرأى ذلك البريقَ المتطلّع الّذي لا يفارقه فزادَه ذلك حرصًا على الإيضاح. فقال مُندفِعًا:

- لقد خطر لي مثالٌ محسوسٌ يبيّن الأمر، ويشرح الفرقَ بين الفريقين. لقد حُكي أنّ أهلَ الصين والرّوم تباهَوْا بحسن صناعة النقش والتصوير بين يدي بعض الملوك. فاستقرّ رأي الملك على أن يُسلم إليهم صورةً ينقش أهلُ الصين منها جانبًا، وأهلُ الرّوم جانبًا، ويُرخي بينهم حجابًا أثناء عملهم، حتّى لا يطّلع كلّ فريقٍ على صاحبه. فإذَا فرغوا رفع الحجابَ بين العملين، ونظر إلى الجانبين فعرف رجحانَ من رجح من الفريقين، فجمع الرّوم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر، ودخل أهل الصين وراء الحجاب من غير صبغ، وهم ينظّفون جانبَهم ويصقلونه فقط. لا همَّ لهم إلّا صبغُ الجدار وصقلُه وإزالةُ كلّ نتوءٍ أو وسخ عنه. والنّاس أثناء ذلك يتعجّبون من تواني الصينيّين وتضييعهم الوقت دون البدء في صبغ جانبهم. فلمّا فرغ الرّوم ادّعى أهلُ الصين أيضًا أنّهم فرغوا. فقيل لهم: كيف فرغتم ولم يكن معكم صبغ، ولا اشتغلتم بنقش؟ فقالوا: وما عليكم؟ ارفعوا الحجاب، وعلينَا تصحيح دعوانا. فرفعوا الحجاب، وإذا بجانبهم وقد تلألأت فيه جميع الأصباغ الرّومية الغريبة، إذ قد صار كالمرآة لكثرة التصفية والجلاء فانعكست فيه صورة الرّوم الّتي صنعوا، فازداد حسن جانبهم بمزيد الصفاء، وظهر فيه من الألوان والجمال ما تعِب الرّوم في نقشه وصناعته.

وسكتَ مُبتسِمًا سابرًا وقعَ المثال على ابن العربي، ثمّ واصل:

- فقدّرْ كأنّ النفسَ محلّ نقش العلوم الإلهيّة. ولك في تحصيله طريقان: أحدهما تحصيل عين النقش، كطريق أهل الرّوم، والثاني الاستعداد

لقبول النقش من خارج، والخارج ههنا اللوح المحفوظ، ونفوس الملائكة، فإنّها منقوشةٌ بالعلوم الحقيقيّة نقشًا بالفعل على الدوام، كما أنّ دماغك منقوشٌ بالقرآن كلّه، إن كنت حافظًا له، وكذلك جملة علومك، لا نقشًا يُحَسُّ ويُبْصَرُ، ولكنْ نوعًا من الانتقاش العقليّ، ينكره من اقتصرتْ به خساسةُ نفسه على المحسوسات ولم يترقّ عنها.

وسكت بينما كان ابن العربيّ مُندفِعًا يكتب في دفاتره، وتثاءب الإمام، فلاحظ الفتى أنّ تلك إشارة لانتهاء الدرس، فاستأذن وجمع أوراقه استعدادًا للوقوف. لكنّ الغزاليّ بادره:

- على ذكر الرّوم، وأنتم الأندلسيّين تعرفونهم، كيف هم في الحروب؟ فقد سمعتُ اليوم في المسجد أنّ طائفة منهم جاءت، وأبادت جيشَ المسلمين في قونية وهم في طريقهم إلى بيت المقدس.

وضع ابن العربيّ دفاتره إلى جانبه:

- نعم، بعد إفناء الأتراك لهجومهم الأوّل سمعتُ أنّ طائفةً منهم أتت وانتصرت على قليج أرسلان. نعم، نحن أَعْرَفُ بهؤلاء القوم بحكم الجوار وطول القتال. إنّ الرّوم -أيّها الشّيخ- أهل قتالٍ وهِراش. لكنّهم أهل غدرٍ وخيانةٍ ونفاق. لا يستنجون من نجاسة، ولا يغارون على حرمة، ولا يتعفّفون عن قتل طفلٍ أو امرأة. وليس فيهم من يعرف القراءة أو الكتابة غير القُسُس.

هزّ الغزاليّ رأسه:

- وهل لهم الآن ملكٌ يجمعهم؟

- إطلاقًا. لا أميرَ لهم إلّا البابا. فهو الّذي يجمع كلمتهم في أمور الدين، أمّا الدّنيا فهم مقسّمون بين أمراء طوائف متحاربين أبدًا. ولكنّهم

مع ذلك بدؤوا يتجمّعون منذ سنوات، وبدأت الخيرات تكثر في بلادهم، وبدؤوا يتوسّعون في الغارات. فهم أشبه بعرب الجاهليّة الآن. فيهم شجاعةٌ وغزوٌ وعدوانٌ وطمع.

وسكتَ ابن العربيّ مُتفقّدًا دفاترَه، ثمّ رفع بصرَه مستدركًا:

- بلا مروءات الجاهلية قطعًا.

وانشغل ذهنُ الغزاليّ بتفاهة سؤاله عن الحرب بين أمراء المسلمين وأمراء الإفرنج. *فما الفرق بين الأمراء الأتراك المتصارعين والأمراء الفرنجة المتهارشين معهم؟ كلّهم كلابُ دنيا، ولا علاجَ لهذا الأمر إلّا بإصلاح أهل الدين وإحياء معانيه في نفوسهم حتّى تستقيم الأمور.*

وأفاق على ابن العربيّ يستأذن خارجًا من الحجرة.

وقف الغزاليّ مقتربًا من النّافذة مُزيحًا الستارة، فلفحته رياحٌ بغداديّةٌ مليئة بالرطوبة داعبت خيالَه. *أليس غريبًا أنّ رائحة دجلة تذكّره بخَلُوب وحدَها؟* ووجدَ خياله يتملّاها. تلك الفتاة المجدولة ذات الخال الفاتن. أحسّ بشوقٍ إلى ملاقاتها ومعانقة بنتَيْه. *أيّ ضعفٍ وأيّ رخاوة؟* بدأ يعاتب نفسَه مستعيدًا الشّروط الّتي قطع على نفسه قبل تركه دمشق وقدومه إلى بغداد.

انشغل بمحاسبة نفسه مذكّرًا إيّاها بالشّروط الّتي قطعَ عليها شرطًا لعودته إلى المجتمع وأسرتِه.

ها قد مرّت أربعة أشهرٍ على مغادرته دمشق وقدومه إلى هذا الخانقاه في بغداد. وشخصتْ في ذهنه تفاصيلُ يوم قدومه هنا قبل أشهر. تذكّره بكلّ تفاصيله، يوم وقف على أعتاب رباط أبي سعيد، فلفحته رائحةٌ ذكرتْه أيّامًا وعهودًا. سمح له الحارس بالدّخول بعد تلكُّؤٍ، لكنّه كان يفكّر في المفاجأة الّتي سينصدم بها الحارس بعد قليلٍ إذا رأى تدافع النّاس لاستقباله.

ما كاد يجاوز النّافورة وسط الخانقاه حتّى صرخ درويشٌ كان يغسل ملابسه:

- دانشمند! دانشمند!

واشرأبّت أعينٌ من الحجرات المتفرّقة، وركض شابٌّ أبيض متوسّط القامة:

- شيخنا أبو حامد!

وأبدى الغزاليّ اهتمامًا بالشابّ الأبيض الباسم وهو يقول:

- ابن العربيّ؟ أهلًا! كيف حالك؟ وكيف الوالد؟

وسرت قصّةُ وصول الغزاليّ إلى بغداد في يومه الأوّل. فتحدّث بها الورّاقون وأساتذة النظاميّة، بل وحتّى القادة الأتراك المتصارعون على الحكم. فقد سمعوا عن ذلك العلّامة الّذي كان في بلاط أبيهم ملكشاه، ووزيره نِظام المُلْك.

وخصّصت له حجرةٌ تحت إصرار الشابّ الأندلسيّ الأبيض الّذي رآه في طريقه إلى القدس.

امتلأت الحجرة بالمسلّمين والفضوليّين حتّى بعض الطبّاخين أتَوْا للنّظر إلى الرّجل الّذي يلهج كلّ لسانٍ بعودته. لكنّه كان لا يزيد على الصّمت والإطراق، منشغلَ الفكر بالذّكر والدّعاء.

كان جالِسًا في ركن الحجرة المستطيلة الساخنة رغم النّافذة الواسعة المطلَّةِ على حديقة الخانقاه الخلفيّة. تلوح خيوطُ العرق على جبهته، وتتجمّع حبيباتٌ منه على رأس أنفه. تأمّل الوجوه المحيطة به، فلم يعرف منها أحدًا إلّا الشابّ الأندلسيّ. كان ينصت لأحدهم يرحّب به متحدّثًا عن محاسنه وفقدِ بغداد له بينما كان هو منشغلًا بتذكير نفسه بما قطع على نفسه من عهودٍ حتّى لا تفسده بغداد.

ذكّر نفسَه بقصّة الخليل والنار. فإبراهيم وقع في النار لكنّها لم تضرّه، كما ذكّر نفسه بأنّ محمّدًا صلّى الله عليه وسلم عادَ من المعراج لأنّه هادٍ، وليس باحثًا عن خلاصٍ ذاتيّ. عليه الصبر والمحافظة على نفسه وأوراده حتّى لا تتمرّد نفسُه وتتحوّل إلى خنزيرٍ أو كلبٍ أو فرعون. أنهى الرّجل مقدّمته، ثمّ قال:

- نتمنّى أن تكون هذه العودة الميمونة لكم إيذانًا بانطلاق مجلسكم الكريم للعلم!

ونظر إليه أبو حامد صامتًا، ثمّ قال باسمًا:

- يكون ما يشاء الله.

ثمّ رفع يده:

- أنا مُرْهَقٌ وبي حاجةٌ إلى الرّاحة.

وفهم الجميع أنّ عليهم الانصراف، وكان آخرَ الخارجين ذلك الشابُّ الأندلسيُّ ذو العينين الذّكيتَين الطافحتين بالمشاعر. تجاوز العتبة خارجًا، ثمّ رجع. وقال بتوسّل:

- أيّها الشّيخ! أنا طالب علمٍ جئت من قرطبة، ولا همّ لي إلّا العلم. فأدعوك بالله الّذي لا إله إلّا هو أن تأذن لي بصحبتك والقراءة عليك. لكنّي أعدك ألّا أُثقل عليك.

وتبسّم الغزاليّ وهو يزيل عمامته:

- يكون ما يشاء الله!

واستفاق أبو حامد من ذكريات يوم وصوله إلى رباط أبي سعيد مُتسائلًا: *هل وُفّقتُ لحماية نفسي؟*

كان قد اختار رباط أبي سعيد ليمتحن فيه نفسه على الصمود في وجه الدّنيا إذا خرج من عزلته. *هل يستطيع العودة إلى الحياة، ويتحكّم*

في يوميّاته؟ وبدلًا من الذهاب رأسًا إلى الطابران وتأسيس حياته بالصيغة الّتي تخيّل، قرّر المرورَ ببغداد والجلوس فيها ستّة أشهرٍ امتحانًا لنفسه وسط النّاس.

امتلأ أنفُه برائحة الرطوبة وريّا شجيرات الريحان في الحديقة المتوارية خلف حجرته، فتذكّر جوَّ دمشق العليل مقارنًا بينه وبين جوّ بغداد الحارّ. أحسّ بسعادةٍ وهو يلاحظ أنّه لم يُخلَّ بأيّ شرطٍ ممّا اشترطَ على نفسه. فلم يقِف بباب أمير، ولا ذهب إلى الخليفة في قصره ببغداد، ولا ناظَرَ فقيهًا ولا جادلَ أحدًا. حتّى النظاميّة الّتي يستطيع رؤيتها من حجرته لم يدخلها قَطُّ رغم إلحاح الهراسيّ والنبهانيّ.

لقد نفّذ تمامًا ما تخيّل أنّه سيكون برنامجه إذا عاد إلى الطابران واستقرّ فيها. درَّس ناسًا اختارهم بنفسه، وانشغل بالرقائق الأخرويّة، لا بالفقه اليابس، وتحدّث مع الطلّاب عن الآخرة لا عن الدّنيا. وذكّرَ نفسَه بنقاشاته الفقهيّة مع ابن العربيّ فقرّ عنده أنّ ذلك الشابَّ الأندلسيّ مختلف. فهو طالبُ علمٍ مخلص، مغتربٌ من أجل العلم. ثمّ هو يتّقدُ ذكاءً وفهمًا.

هكذا سيكون الأمر في الطابران بإذن الله. سأختار طلّابًا قلائلَ على عيني، وأبني خانقاه وأعتزل شؤون السّلاطين وما يخوض فيه علماء الدّنيا.

وابتعد عن الستارة عائدًا إلى الركن الّذي فيه فراشُ نومه. مدّ يدَه لإطفاء المصباح، فسمع قرعًا على الباب. بقي هنيهات ويدُه عالقةٌ بينه وبين المصباح لا يدري ما يفعل. ثمّ قام، وفتح الباب. وظهر رجلٌ يلبس ملابس الكتّاب، ولاحَ من ورائه حارس الخانقاه يلهث، وظهرَ دراويش يتسكّعون وسطَ الخانقاه يراقبون.

سلّم الرّجل، وقال بلهجةٍ حازمة:

- أجبْ أمير المؤمنين!

قال الغزاليّ وهو لم يفتح البابَ كاملًا:

- في هذه الساعة؟

ضمّ الكاتب أطرافَ درّاعته، وقال رافعًا صوتَه:

- وهل يشترط على أمير المؤمنين في أوقات الدعوات؟

قبض الغزاليّ على طرف الباب مُفكّرًا. كان الكاتب يراوح بين رجلَيه مستغربًا، والدراويش يتجمّعون في الفناء، والحارسُ يشرئبّ بعنقه استباقًا لما يسمع. تشبّث الغزاليّ بطرف الباب، ورفع يدَه، ولمس بها جبهته:

- بلّغْ أميرَ المؤمنين السّلامَ، وقُل له إنّي أعتذر، فقد قطعتُ على نفسي عهودًا تمنعني من التشرّف بالدّخول عليه، وما كلّ صاحبِ عذرٍ يقول عذره.

ولم يتنظر الكاتبُ نهاية كلام أبي حامد، فولّى مُسرعًا، وصكّ الغزاليّ بابَ حجرته، ومشى هادئًا إلى مكان نومه.

اضطجع سعيدًا. فها هو ينام في بغداد وقد رفضَ الذهاب إلى خليفتها في قصره، وذهب خيالُه مستعجلًا الشّهرين الباقيين؛ ليذهب إلى الطابران ويرى بنتَيه وزوجته، ويبدأ حياة الانعزال في مراتع طفولته. ثمّ أرّقَهُ سؤالٌ: *هل سيتركني أولاد نِظام المُلْك وشأني؟*

بقلبٍ سليم

81

الطابران، ذو الحجة، 490 هـ/ نوفمبر، 1097م.

كانت المدينة كلّها تتحدّثُ عن قدومه الوشيك. فقد وصل البريد قبل أيّامٍ يُخبر أنّه آتٍ مع القافلة القادمة. لم يبق بيت في الطابران إلّا تحدّث عن مفخرة الطابران الآتية. حكتْ الأمّهاتُ عنه لأبنائهنّ وهنّ منهمكاتٌ في خَبز الخبز صباحًا، وناقشتْ العمائمُ واللّحى آراءه في زوايا المساجد والمدارس، حتّى لصوص المدينة تحدّثوا عنه وعن شهرته وعلاقته بالسّلاطين.

لكنّه عندما دخلَ ضحًى من الباب الغربيّ لم ترقبه عين. فقد مرّت القافلة شمالَ أسوار الطابران ولم يكن فيها من أهلها غيره. سارَ في الشّوارع الضيّقة مُتّجهًا إلى المسجد. فصلّى فيه ركعتَين دون أن تعرفه عين، لتغيُّر لونِه ولباسِه وسمته. ثمّ خرج مُتّجهًا إلى بيته وهو في جبّته الصّوفيّة الصّفراء وطيلسانه الأسود.

كان يعرف موضعَ بيت خلوب. سيكون في طرف البيوت الثلاثة التي لأبناء عمّه. فقد كلّف به مَنْ بناه أيّام تدريسه في بغداد وأنفقَ عليه مالًا عريضًا. لمح البيتَ الأحمر الجميل في الزاوية الشّرقيّة من البيوت الأربعة المتراصّة فعرفه. أحسّ بنبض قلبه يتسارع. *ها هو سيرى بنتَيه بعد حولين كاملين. كيف عيونهما؟ وهل اشتاقتَا إليه بقدر اشتياقه؟ وكيف خلوب؟ كيف تبدو؟*

وقرع الباب، فسمعَ النداء:

- من؟

- أبوكم!

وسكن الصّوت! وسمع حركة متسارعةً خلف الباب. انتظر قليلًا ثمّ دقّه ثانية.

بعد لحظاتٍ انفتح الباب فلاحَ وجهُ جاريته سندس من ورائه:

- سيّدي! سيّدي!

ألقت نفسها عليه، وقبّلت رأسَه ويديه، وتجاوز الدّهليز باحثًا عن بنتَيه. لكنّ خلوب ظهرت آتيةً في نهاية الدّهليز. كانت في ملابسِ البيت، عليها ملاءةٌ سوداءَ. ما زالت كما هي مع زيادةٍ في الجسم زانَتْها ولم تأخذ منها. هي هي بعَينَيها السّاحرتين المتقعتيْن دمعًا، ووجنتيها المتورّدتين وشعرها المنساب، وذلك السحر الثاوي دومًا بين عَينَيها وشفتَيها. اقتربتْ وهي ترتجف، ولمحَ بنتَيْه وراءها كأنّما تحتميان بها. كانت عائشة واقفةً وإصبعها في فمها متشبّثة بطرف ملاءة أمّها، وفاطمة وراءها تطلّ برأسها قليلًا على خجل.

ارتمت خَلُوب بين ذراعيه، باكية. ووضعت رأسها على صدره مطلقةً العنان لعَينَيها وخيالها. هجمت على قلبها كلّ المخاوف الّتي كانت تُداري بين ضلوعها عامَين ممتدّين كأنّهما قرنان. *ماذا سيكون مصيري لو فقدتُه؟ ليس لي في هذه الدينا إلّا هو! كيف تركني كلّ هذا الوقت؟ من أنا؟ وماذا عندي غيره وغير بنتيَّ الصغيرتين؟ ماذا كان سيحدث لي لو لم يعد؟*

ورفعت عينَيها الدامعتَين وشفتَيها الراجفتَين. أخرج ذراعَيه من تحت ذراعَيها مداريًا مشاعرَه وهو ينحني على البنتَين. ضمّهما، فسقط طيلسانُه. انحنت الصغرى، ونفضته، وناولتْه إيّاه، فانفجرت دموعه.

ثمّ أبعدهما عن صدره، وسألهما:

- كيف حالكما؟

لم تُجيباه، بل تشبّثنَ به في صمت. كانت عيونهما الصّغيرة تتفقّده.

وركضت خَلُوب آمرةً الجارية بتجهيز مكانِ جلوسه. لقد فكّرت طويلًا في هذه اللّحظة وتخيّلتها في ذهنها كيف تكون. كانت قد اشترت جِبابًا وغسلتها وجهّزتها. عادت، وناولته جبّةً نظيفةً، وأخذت ملابس سفره. وما كاد يغيّر ملابسَه حتّى سمعوا طرقًا على الباب. فالطابران كلّها تريد السّلام على دانشمند.

في مساء ذلك اليوم اكتظّ مجلسُه بالمسلِّمين. وامتلأَ بالعمائم الطّويلة واللّحى الوقورة. جلسَ وسط المجلس في جبّته الصّوفيّة وطيلسانه الأسود يتأمّل الوجوه. ذاك مقدّم التجّار، وذلك المسامت له شيخُ الفقه هنا، وهذا الجالس في الزاوية نقيبُ الأطبّاء. ولم يبقَ وجهٌ من وجوه الطابران إلّا حضر.

قال فقيهٌ أعور ذو عمامةٍ أرجوانيّة:

- دانشمند، كيف الفقه والفقهاء في بغداد؟

فهم الغزاليّ ما يرمي إليه الرجل. فهو يريد فتحَ الحديث في موضوع الفقه الّذي يحسنه. فشعر بانزعاجٍ وتوتّرٍ ظهرَ في احمرار وجنتيه:

- الحمد لله، كلّ النّاس بخيرٍ في بغداد وإن كانت الحروب بين الأمراء الأتراك تزعج النّاس.

وانطلق التاجر ذو البطن الضّخم والعمامة المزركشة:

- نعم، لقد نفدت الأقوات مرّاتٍ ببغداد، وبقي تجّارُها أيّامًا لا يأمنون على دكاكينهم! وقد أخبرني لصٌّ نيسابوريٌّ اشتريت منه..

وقطع الغزاليّ كلامَ التاجر متنحنحًا، ثمّ لمس طرفَ جبهته، وقال:

- الغيبةُ ذِكرُك أخاك بما يكره. وألتمس منكم تجنيب مجلسنا الغيبة!

واحمرّ وجه التّاجر مديرًا عَينَيه الواسعتين في الحاضرين، فرأى الوجوهَ واجمةً يظلّلها التوتّر، فقال الغزاليّ:

- كيف حال أهل الطابران؟ وكيف حياة الفقراء؟

اندفع رجلٌ طويلُ الوجه قصيرُ القفا:

- الطابران بخيرٍ ما سلمت من الحروب بين الشّافعية والأحناف. ففي كلّ جمعةٍ يكثر الحديث في المسجد، وترتفع الأصوات، ثمّ يجرّ الأمر ذيلَه على أهل السّوق أحيانًا.

وسكت الرجل، وسرّحَ الغزاليّ لحيته بيده، ثمّ رفع وجهه في الحاضرين:

- إنّ حُمّال الدين مرضى. فهذا الدين الّذي ورثنا عن آبائنا وأجدادنا يحتاج إلى علاج. وإلّا كيف يصبح أهل الدين في حربٍ على تفريعاتٍ في الفقه لا يفهمها العامّة؟ ولا يبقى للعامّة من الدين إلّا التعصّب. فهم لا يفهمون أسبابَ الخلاف ولا يبقى بأيديهم إلّا التعصّب والكلام المذموم.

وما كاد يواصل حديثَه حتّى ترامق معظم مَن في المجلس، وتشاغل الفقيهُ بنتف شعرات من لحيته، ورمقَه فقيه آخر يجلس عند يسار الغزاليّ قرب الستارة البنفسجيّة. وبعد صمتٍ تحرّك كبير التجّار في مكانه:

- يا شيخ أبا حامد! هذا الكلام كبير. وقد سمعناه عنكم من قبل، لكنّنا حملناهُ على أنّه حديث الأعداء عنكم. كيف تقول ما تقول؟ هل كان دين والدك الزاهد محمّد خطأ؟

وسرت في أطراف المجلس غمغمات، وتفقّد رجالٌ عمائمَهم، وسرَّح آخرون لحاهم بأصابعهم، وتسمّرتْ الأعين على الغزاليّ، فبدا هادئًا مطرقًا. حرّكت الرّياح ستائر المجلس، وسُمع طرقٌ على الباب، فوقف أبو حامد، وفتحه، وأتى بصينيّة كبيرة عليها مشمشٌ وخوخٌ وموزٌ وماء.

وضع الصينيّة، وتراجع إلى مكان جلوسه وهو يحدّق في السّقف:

- إنّ الدين مثل البدن. يمرضُ ويصحّ. وقد يمرض عند فلان ويصحّ عند علّان. وما ذكرتُه عنيتُ به الفقهاء والمتكلّمين من أمثالنا. فهذا البلاء الّذي يعْمَهُ فيه الأتراك، وتلك الفتنُ الّتي تموج بها الأسواق والمساجد راجعةٌ كلّها إلى الفقهاء والمتكلّمين. فلو صحّحُوا النيّات واتّقوا الله في علمهم وما يقولون لما كان ما كان. هذا ما عنيتُه.

مدّ الفقيه يدَه، والتقط حبّة خوخ، وقال قبل أن يلتقمها:

- إنّ الجراءة على العلماء وتجريحهم والانشغال بعيوبهم ليس من الدّين. ثمّ إنّ تجريحهم أمام العامّة يُجرّئهم عليهم حتّى يصبحَ كلّ زبالٍ وبقّالٍ يتمضمض بعرض أعظم عالمٍ في بلده.

أغضى الغزاليّ مذكّرًا نفسَه بأنّ الحديث أصبح فيه مراءٌ وجدل، فقرّر ألّا ينبس خوفًا من الإثم. واستمرّ النقاش بين الحاضرين، وكان هو يثبّت نفسَه معتذرًا لها بأنّ اليوم يوم قدومه، وهؤلاء ضيوفٌ أتوا للسّلام عليه، لكنّه سيبدأ برنامجه غدًا.

سيختار طلّابَهُ على عَينَيه، ولن يدخل عليه إلّا صوفيٌّ يبحث عن تطهير قلبه، أو طالب علمٍ صالحٍ يزاوج بين علم القلب وعلم الظاهر. ثمّ يعتكف بين مُصلّاه وبيته والخانقاه الّذي سيبني.

كانت خَلُوب في الغرفة المجاورة للمجلس مُشتّتةَ الذهن. فلم تكن راضيةً عن ملابسها. لبست الملاءة الحمراء المزركشة الأطراف، ورفعت المرآةَ إلى وجهها فلم تعجبها. رمتها وأخذت أخيرًا الملاءة الصّفراء الّتي تُبرز محاسنَ جسمها المجدول، ثمّ نظرت في عطفيها وفخذيها. لم تعجبها الملاءة لكنّ جسمها أعجبها. اقتربت من المرآة، ورشّتْ عطرَها وهي تفكّر في أنّ أبا حامد يستطيع شمَّ رائحة العطر من مسافةٍ بعيدة. يستطيع تمييزَ

عطرها من باب الدّار الخارجيّ. وتذكّرت جسمَه الناحل وذهنَه المشغول بالذّكر حتّى لحظة قدومه إلى عياله من سفرٍ بعيد. *هل ستكون له رغبةٌ فيها؟ هل سيقدّر جمالها وهي الّتي لم تخرج يومًا إلى سوق العطّارين إلّا اكتظّت أذناها بالثناء على جمالها من الرّجال والنّساء؟* ورقص قلبها وهي تتذكّر ذلك الرّجل الوسيم الراكب على فرسٍ وهو يقول لها عند منعطف الطّريق بين العطّارين والصيرفيّين:

- أيّ جمال هذا؟ والله إنّي لأخاف على الملكين اللذين يكتبان عليك منك!

رشّت رشّةً أخرى من العطر، واقتربت من نافذتها وأطلّت على المجلس، فرأت الرّجال يخرجون.

عادت إلى مكان جلوسها. وبعد لحظاتٍ دخل عليها. جلس في طرف الحجرة، ونظر إليها نظرةً أزهرَ قلبُها منها. مالَ على الوسادة المسندة إلى الجدار وهو يسألها عمّا إذا كان لها في الطابران صديقات. وقفت ومشت، فجلست قربه، فلاحظ انشداد الملابس على عجيزتها وفخذيها وهي تجلس. أزاح طيلسانَه وناولها إيّاه وهو يقول:

- ما هذا العطر الفوّاح؟ أظنّه مخلوطًا بعطر العطّارةِ أمِّ زيد، تلك الّتي كنتِ تشترين منها في درب الطاق ببغداد.. أليس كذلك؟

تناولت الطيلسان، ووضعته على المشجب مستغربةً دقّة ملاحظته وهي تقول:

- إنّه، والله!

وما كاد الحديث يطيب حتّى سمعَا دقًّا على الباب. فركضت الجارية، ثمّ عادت تلهث:

- إنّ رسول الأمير بالباب.

واكفهرَّ وجه الغزاليّ. تراجع في جلسته حتّى أسند رأسه إلى الجدار مُفكّرًا في ما عليه فعله. *كيف أفطم هؤلاء عنّي؟ كيف أُفهمهم أنّي لست صاحبهم الّذي يعرفون، وأنّي ما عدت لأجالس فلانًا وعلّانًا من الأمراء؟ لكنْ، ما يضيرني لو جاملت الأمراء حتّى أقضي حاجات المظلومين وأكفّ الأذى عنهم؟ فكيف أستطيع دفع مظلمة عند أميرٍ إذا كنت أرفض زيارته والحديث معه؟*

ثمّ تذكّر أنّ هذا باب من أبواب الشّيطان. فالشّيطان يزيّن للعلماء الصّلةَ بالسّلاطين بحجّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لكنّهم يعجزون عن ذلك بعد توطّد العلاقة وإحسان الأمراء إليهم. فتنعقد ألسنتهم عن قول الحقّ، والعالم لا يأكل من مرقة السّلطان إلّا احترقَ لسانُهُ عن قول الحقّ. ثمّ إنّ مجرّد الدّخول على هؤلاء في مساكنهم المغتصبة وشراب الماء عندهم فيه من الإثم ما فيه. وأيقظته خَلُوب من أفكاره ملحّة:

- رسول الأمير ينتظر...

نظر إليها، ونظر إلى الجارية الواقفة، ثمّ قام مُتثاقِلًا إلى الباب. وأتبعته خَلُوب عَينَيها مفكّرةً في أنّ كلّ شيءٍ تغير فيه إلّا روحه وحاسّة الشّم الدقيق.

82

أسوار أنطاكية، جمادى،491 هـ/ 24 مايو، 1098م.

أخرج فيروزُ الزرادُ رأسَه من فتحةٍ في البرج الواقع جنوبَ شرق المدينة، وتثاءب. شعر بإرهاقٍ في هذا الوقت الباكر بعد ليلةٍ طويلةٍ من السهر والحراسة. تراءى له معسكر الصليبيّين المحيطين بمدينته منذ سبعة أشهر. فأرسل طرفه مع السهل الخالي من الأشجار وبدأ يفكّر للمرّة الثّالثة في ما عرض عليه أحدُ القادة الصليبيّين. *لم لا أُعيِنُهم على الدّخول؟ أليسوا أفضلَ لي من الأمير ياغي سيان؟ ذلك التركيّ الجلف الّذي ضربني بسوطه مرّةً على أمرٍ تافه؟*

تثاءب وهو يمدّ يديه ويتأمّل أصابعَه الغليظة. ثمّ رفع وجهَه، وأرسلَ ناظريه مع الفتحة المطلَّةِ على المدينة، فلاحَ له بيت حُسَّانه. ذلك البيت الّذي تُعلّم فيه تلك العالمة الشابّة كثيرًا من نساء أنطاكية حتّى بنته الصّغيرة. *كيف أخون هؤلاء؟ كيف أخون المسلمين وأنا مسلم؟ كيف أترك هؤلاء الفرنجة الحيوانات يدخلون مدينتي؟ كيف أخون ياغي وقد وثق بي وأوكَل إليّ حراسة أحد الأبراج؟ ولمْ يعاملني كما عامل بعضَ القادة الأرمنّيين الّذين منعهم من دخول المدينة طيلةَ الحصار خوفًا من ميلهم إلى الصليبيّين وها هم يقضون شهرَهم السابع داخل معسكر الإفرنج؟*

قامَ من مكان جلوسه في رأس البرج وهو يسمع صراخَ الصليبيّين خارج السور. *يمكنني ترك الإسلام، فما المانع من ذلك؟ فأنا كنتُ نصرانيًّا ولو لم يجئ هؤلاء المسلمون ويحتلّوا أنطاكية لكنت نصرانيًّا اليوم. ثمّ إنّ*

معظم الأرمنّيين من قومي نصارى فما الضّير أن أتظاهر بالعودة إلى دين أجدادي إذا ضمن لي هؤلاء الفرنجة ضمانات؟ والأهمّ أن يندم ذلك الأمير التركيّ الجلف ويعلم أنّي انتقمت لكبريائي. نزلَ من البرج وتقدّم إلى الباب، وأشارَ لأحد الجنود الموثوقين عنده من الأرمن المسلمين. فجاءه يركض.

- أَرْسِلْ إلى القائد بيمند أن يأتي لأتحدّث معه، أو يرسل رسولًا من عنده.

هزّ الجنديّ الأبيض القصير رأسه المسطّح، وخرجَ من باب الحصن رافعًا يدَيه، مُشيرًا بذلك إلى أنّه رسولٌ لا مقاتل. انحدرَ مع السّهل الّذي لم تُبقِ فيه حرائق الصليبيّين إلّا جذوع أشجار الخرّوب والصنوبر مُتّجهًا إلى معسكر القائد بيمند جنوب شرق المدنية المحاصرة.

لاحت له الخِيَمُ المتناثرة في السفح، والفرسان الطوال الشّقر ذوو الملابس المزيّنة بالصليب. لفحَتْه رائحةُ اللّحم المطبوخ من قدورٍ ضخمةٍ منصوبةٍ في طرف المخيّم. كان يمشي وراء جنديٍّ يقودُه إلى خيمة القائد بيمند، ويفكّر كيف يأكل هؤلاء اللّحم في هذا الصباح الباكر.

وقفَ أمام الخيمة، فظهر بيمند في ملابسه الحربيّة. صعّد معه بصره، ثمّ قال:

- ماذا تريد؟

- يحيّيك فيروز.. ويطلب منك القدومَ أو إرسالَ من تثق به للحديث.

داری بيمند سعادتَه الطافحة، لكنّه أظهر اللّامبالاة:

- سأنظر في الأمر.. أو لعلّي أرسل إليه معك رسولًا.

وانحنى الجنديّ تحيّةً للقائد في إشارةٍ إلى الانصراف. فهزّ بيمند رأسه بالموافقة. وما إن أدبر الجنديّ حتّى صاح به:

- انتظر... دع الرّسول يأتِ معك الآن!

وهمس في أذن أحد مساعديه:

- اذهب وادعُ لي المترجم»جوار».

قالها مُفكّرًا في ذلك المترجم الظريف، فلولاه لما فهم عادات أهل هذه البلاد. وتذكّر –بامتنان– كيف أحاله إليهم الإمبراطور.

وبعد لحظاتٍ كان جوهر الكتبيّ يقتربُ من خيمة بيمند في ملابسه المتنافرة. كان في بزّةٍ إفرنجيّةٍ حمراء معتمرًا عمامةً عربيّةً لكنّه يمشي مشيةَ فرسان الفرنجة.

أخذه بيمند من يده، وابتعد به، وقالَ له باللّاتينيّة:

- حاول أن تفهم من الزراد ماذا يريد وماذا يشترط ولا توافق له على شيءٍ حتّى تعود إليّ.

هزّ جوهر رأسَه، ومشى مع الجنديّ قاصدًا أسوارَ أنطاكية. كان يشعر بسعادةٍ غامرةٍ ما زال يجد بردَها بين ضلوعه. فقد ترك عالم الطلّاب، وإعارة الكتب، وأصبح يجالس الفرسان، والقادة ويكسب المال الوفير، ويمشي في السفارات بين الجيوش المتحاربة. مشى منتفشًا وهو ينظر إلى الأسوار.

دخلَا من باب أنطاكية الجنوبيّ، واقتربَا من برج فيروز. أدخل جوهر رأسه إلى البرج، ففاجأه اتّساعُه وضخامتُه مقارنةً بمنظره الخارجيّ. كانت أربعة مقاعد منصوبة وسط صومعة البرج يتربّع فيروز على واحدٍ منها. أشار إلى الجنديّ بالابتعاد وإلى جوهر بالجلوس:

- ما اسمك؟

- ينادونني جوار.

- أهلًا بك!

وصمتَا. حرّك فيروز جفنَيه المتورّمَين سهرًا وهو يلاحظ لغةَ جوهر

الفصيحة ومخارجَه السليمة. ولاحظ عَينَيه الشّهلاوين القلقتَين كأنّما سمِعتَا خبرًا مستطيرًا.

تنحنح جوهر:

- الأمير بيمند يسألك ماذا تريد وماذا تشترط؟

شبك فيروز أصابعَه الغليظة وأحسّ بنبضات قلبه تتسارع. فقد تردّد بعد إرسال الرّسول وخطر له تغيير رأيه. *فما الّذي يضمن له أن يفي الفرنجةُ بوعودهم، ومن سيحميه من ياغي سيان إذا انكشف أمر الاتّفاق وفشل الفرنجة في دخول أنطاكية؟* تنحنح مرّةً أخرى محاولًا أخذَ الوقت للتّفكير، ثمّ قال وهو متلفتٌ إلى الفتحة الّتي يظهر منها مخيّم الصليبيّين:

- أقترح عليه أن ينهي الحصار. فسقوطُ المدينة أمرٌ متعذّر.

رفعَ جوهر يدَه، ومسحَ بها رقبتَه مستغربًا:

- هذا الّذي طلبت الأمير من أجله؟

حرّكَ فيروز رقبتَه، وتلفّت يمنةً ويسرةً كأنّه يمرّنها، ومال جهةَ جوهر خافِضًا صوته:

- هو يعلم أنّي ناصحٌ أمين. فكثيرٌ من أصدقائي الأرمن في معسكره، وقد تحدّثت معَه من قبل، وهذا ما عندي.

وهزّ جوهر رأسَه مُشيرًا إلى أنّه سيُنهي الأمرَ إلى بيمند.

وقف فيروز، ومدّ يدَه إلى جوهر مودّعًا وهو يقول هامسًا:

- بَلِّغْه سلامي.

خرج جوهر من باب البرج. وتراءت له أنطاكية من الداخل أوّلَ مرّةٍ وهو ينزل مع الدرج. لمحَ صوامع الكنائس ومنارات المساجد. ولفحت أنفَه رائحةُ ماء الورد والعطور. تلك الرّوائح الّتي لم يشمّها منذ خرج من بغداد بطلبٍ من صديقه ليلتحق به في بلاط قليج أرسلان. ووقعت عينُه

على نساءٍ يمشين قربَ جدار السور، فتجمّد دمُه، وتسارعتْ نبضاتُ قلبه، وشعُر بمعدته ترتجف.

انتبه إلى أنّ فيروز قد يلاحظ دهشتَه، فانحنى مُتظاهرًا بانتزاع حصاةٍ من نعله. ونزل سريعًا مع الدرج منطلقًا عائدًا إلى المعسكر. كان ذهنه مشوّشًا وقلبه خافقًا. *كيف سآتي إلى الأمير بيمند بهذه الحالة؟ قد يظهر التوتّر على وجهي. ربّما أتظاهر بقضاء الحاجة في الطّريق حتّى يعود إليّ لون وجهي وأستعيد جأشي.* فكّر في المرأة الّتي رأى. هي، هي، دون شكّ! بوجهها الدّائري وعَينَيها الشّرستَين وشفتَيها الدقيقتَين. وتذكّر آخر مرّةٍ رآها فيها.

انحرفَ عن الطريق، وجلس على الأرض مُتظاهرًا بقضاء حاجته. وبعد دقائق كان يدخل على خيمة الأمير بيمند.

تلقّاه بوجهٍ فضوليّ وفي يده عصًا يلعب بها:

- ماذا عندك؟

- يسلّم عليك ويقول إنّه ينصحك بفكّ الحصار، فدخول المدينة عنوةً أمرٌ مستحيل.

رفع العصَا وضرب بها جانب الطّاولة المربّعة وصرخ:

- اللّعنة! دعاني لهذا؟

جعل يبرم العصا بين كفَّيه مُفكّرًا في أنّ فيروز ربّما غيّر رأيه أو خاف. فمن المستحيل أن يكون دعاه لهذا فحسب. واستأذَن جوهر عائدًا إلى الخيمة المربّعة الّتي يسكنها المترجمون والكتّاب وبعض القُسس، شمال المعسكر.

عادَ إليها برأسٍ مشوّشٍ ويدَين راجفتَين. *ماذا سيحصل لتلك الفتاة لو دخلوا المدينة؟* دخل الخيمةَ، ووضع خوذته، وخرجَ مُتّجهًا إلى الربوة الغافية شمالَ المخيّم. جلس عليها تحت شمس الضّحى الحانية. مرّت طيور متّجهةً جنوبًا، فخُيّل إليه أنّها ذاهبةٌ إلى العراق. *ماذا فعلتَ بنفسك؟ أيقودُك حبّ*

المال إلى هذا؟ هذه الطيور ستُمسي محلّقةً فوق دجلة حيث بغداد والسواقي والغواني والمكتبات والنخيل. آه! وشخصت طفولتُه في مخيّلته. رأى نفسَه يافعًا في بيت أبي إسحاق الشّيرازيّ يجهّز له وضوءه ويغسل له ملابسه ويلازمه. تذكّر كيف كان يعطف عليه ويعامله معاملةَ أبٍ لابنه، وكيف علّمه ودرّسه في الكُتّاب حتّى لقِنَ الأدبَ واللغةَ والحسابَ وشيئًا من القرآن.

مدّ يدَه إلى الحصى المتناثرة، وجعل يرفعها ويضعها وذهنه ضاجٌّ بصور العراق. *لكنّهم كانوا ينظرون إليّ نظرةً دونيّةً ويلمزونني دَومًا بأنّي خصيّ! وأنا لم أخصِ نفسي إنّما خصتني الروم! وهم لم يخصوني لكنّهم اشتروني وهم يعلمون أنّي مخصيٌّ، فهم بذلك يساهمون في ترويج تجارة الخصيان. يجب أن يسمعوا عنّي ويعرفوا أنّي رجلٌ كأيّ رجلٍ طموح. عندما يأتيني شيوخهم ويتوسّلون بين يديّ سيعلمون من الخصيّ، ومن جوهر الكتبيّ!*

بدا المخيّم الصليبيّ الضّخم المتحرّك أمام عَينَيه غريبًا عن نفسه. لمَحَ الخيول العربيّة تأتي وتذهب، والفرسان الشّقر يتدرّبون ويتصارخون، والنّساء الإفرنجيّات مشغولات بالطبخ وجلب الماء. *ما علاقتي بكلّ هذا؟ لمَ قرّر الأمير إرسالي مترجمًا معهم؟ ألم يكن الأفضل أن يدعُوَني إلى بلاطه وأظلّ في حاشيته؟ بل لعلّه يرسلني يومًا رسولًا إلى الخليفة في بغداد فأدخلَ القصر وأرى تلك الوجوه المتكبّرة الّتي ما كانت تراني شيئًا.*

لكنّ الذهاب مع هؤلاء أفضل لي. فغدًا إذا دخلوا مدنًا جديدة سيوزّعون الذهب وآخذ منه ما يكفيني. وأستطيع بعد ذلك الاستئذان والذهاب إلى خراسان وأبدأ تجارةً وأشتري منزلًا كبيرًا مليئًا بالجواري والغلمان. ويأتي الرّجال الوجهاء يتضرّعون بين يديّ طالبين الهدايا وإنجاز الحاجات.

عادَ ذهنه إلى تلك الفتاة الّتي لمح. لا شك أنّها حسانة! تلك الفتاة الّتي حرّكت قلبه وأقنعه النظر إليها أنّه رجلٌ مكتمل الرجولة. تلك الفتاة التي قادَه التعلّق بها إلى سؤال الأطبّاء وأهل التجربة عن المخصيّين. فبفضل التعلّق بها اكتشف أنّه من ذلك النوع من الخصيان الذي تقلّصت إحدى خصيتَيه من الفزع أثناء الخصاء، ثمّ نزلت بعد ذلك، وعليه فهو رجلٌ كأيّ رجلٍ آخر.

لا شكّ أنّها هي! تلك الفتاة الّتي درّس في الفندق واختفت من بغداد، وحدّث عنها كلَّ من يعرف. تلك الفتاة ذات العينين السّاحرتين والمشية الموقَّعة والصّوت البلبليّ. *أهي هي حقًّا؟ هل ستعرفني إذا رأتني؟ وماذا ستقول؟ وكيف أصل إليها وأتحدّث معها والحرب تكاد تبدأ؟*

وظهر فارسٌ قادمٌ من جهة المعسكر. ووقف تحت الرّبوة وصرخ:

- جوار! القائد يريدك!

83

الطابران، 491 هـ.

فتحت خَلُوب عَينَيها الواسعتَين مرّةً أخرى في المرآة. اهتزّ قلبُها لجمالها البادي، ورونقها النقيّ وقدِّها المليح. رشّت رشّةً من عطرها متسائلة: *ألا يستطيع أبو حامد رؤيَةَ محاسني هذه؟ يستطيع ذلك، لكنّه لا يهتّم بها كثيرًا. لا أخرج إلّا تبعتني عيون النّساء والرّجال افتتانًا بي، أمّا هو فلا يتحدّث عن جمالي إلّا نادرًا وتلميحًا. لم أتجمّل وأبالغ في الزينة وهو ليس في قلبه إلّا الصّلاة والحديث عن القلوب وإصلاحها؟*

لكنّها كانت تتجمّل فطرةً وحبًّا للتجمّل فحسب، وهي في هذا اليوم تتجمَّل لسببٍ آخر. فهي تكادُ تطير سعادةً وانطلاقًا. فكلّ أسباب السّعادة متوفّرة. زوجُها مستقرٌّ معها، بعدما ألقى عصا التسيار.

منذ عاد الغزاليّ إلى الطابران وهي تشعر لأوّل مرّةٍ في حياتها بأنّ الدّنيا مكتملة. فها هي سيّدةُ بيتٍ من أهمّ بيوتات الطابران، وزوجة دانشمند! ولا يكاد بيتها يخلو من زوّارٍ مهمّين، تجّارًا وطلّابَ علمٍ بارزين، أو رسلًا من أحد الأمراء السّلاجقة. وقد اكتملت سعادتها منذ أسابيع بذلك الخبر الّذي تأكّد. فها هي تحمل في أحشائها مولودًا جديدًا لا تشكّ أنّه ذكر. أخيرًا سيكون لها رجلٌ من دمها يحميها ويدافع عنها، وتفخر به وسط النّساء.

رشّت رشّةً أخرى من عطرها، واقتربت من النّافذة، وفتحتها. لاحَ لها العمّال المنهمكون في بناء خانقاه زوجها. كلّما رأت لبنةً من لبناته توُضَع

فوق أخرى شعرت بالأمان أكثر. فهذا المبنى علامةٌ على ثبات الأمور واستقرار الحال وقراره البقاء إلى جنبها حتّى نهاية العمر.

كانت تتأمّل الخانقاه وهي تسمع هينمة الطلّاب والمريدين في الحجرة القريبة يدرسون على أبي حامد. أنصتت مفكّرةً في أنّه أخيرًا سيصبح «أبا حامد» حقًّا، وليس أبا فاطمة أو عائشة. *أشهر فقط ويُولد ابني.* ورفعت يدَها ووضعتْها على بطنها لكنّها لم تشعر بأيّ حجمٍ للجنين. ما زال في أطواره الأولى.

وتذكّرت أنّ عليها مناداة الجارية لتأخذ ماءً إلى حلقة زوجها، لكنّها توقّفت ملاحِظةً أنّ اليومَ يوم خميس. لا عليها من ذلك، فكلّ مَن في مجلسه صائمون. كانت الأوامر الّتي أعطاها واضحة. يوم الإثنين والخميس للصوم، وفي الأيّام الأخرى تأتي بماءٍ فحسب. أمّا العصائر والمكسّرات والفواكه كما هي عادة أهل الطابران فمحظورةٌ في مجلسه على المريدين. فهو يربّي القلوبَ ولا يُسْمن الأجسام. وتذكّرت كيف قال لها إنّ الإنسان إذا كان يرعى طوال الوقت مثل الدابّة فإنّه لن يرفع رأسه إلى السّماء. ثمّ رفع إصبعه: هل رأيتِ دابّةً ترعى ورأسها إلى السّماء؟ لكنّه كان يتغاضى عن أكلها هي واهتمامها بجسمها. فهي امرأةٌ يحقّ لها من الأكل ما لا يحقّ لغيرها لحاجةِ جسمها إلى النعومة والغضاضة.

وسمعت خطواته قادمًا. فتح البابَ الحاجز بين حجرة جلوسه مع مريديه وحجرة نومهما. ثمّ دخل، ووقف في طرف الغرفة، وصلّى ركعتين طويلتين. أنهى صلاتَه، ثمّ رجع، ودخل الحجرةَ، فلاحت وجوهُ مريديه ينتظرونه. كانوا نحو سبعة رجال جالسين في حلقة. عاد إلى مكان جلوسه كافتًا ساقَيه وظهره إلى الجدار ووجهه إلى الباب. أشار إلى أحد الطلّاب، فبدأ يقرأ من أوراقٍ بين يديه.

كان المريد يقرأ من «إحياء علوم الدين». فقد عوّدهم أنّ يومي الإثنين والخميس بعد العصر مخصّصان للقراءة في الإحياء. وما إن بدأ المريد يقرأ حتّى توقّف وقال:

- حديثك هنا عن العقل مشكلٌ يا شيخنا. فكأنّك جعلتَ غيرَ المؤمن ليس بعاقل. ونحن نرى الرّجل العاقلَ الكيّس كافرًا. فكيف ذلك؟

وسكتَ الرجل، وأغمض الغزاليّ عَينَيه ورفع إصبعَه وحكّ ذقنه. كان يفكّر في شرعيّة رفضه أمسِ مجموعةً من طلّاب الفلسفة من حضور مجلسه. كان يفكّر هل كان فعله مقبولًا عند الله أم لا؟ فلمْ يمنعهم الحضورَ إلّا لعلمه أن طلّاب الفلسفة مهووسون بالجدل وحبّ التصدّر والمنافسة ممّا قد يفسد سمت جلسته وشروطها. فهو يريد لكلّ كلمةٍ في جلساته أن تكون خالصةً لله ما استطاع. وألّا تكون مكانًا لصناعة الشّبهات والردّ عليها. طردَ الأفكار من ذهنه، وفتح عَينَيه في السّائل:

- قال الله تعالى: وفي الأرض آيَاتٌ لّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرون! ففي كلّ شيءٍ دليلٌ على أنّه واحد. ومن لم يؤمن بالله على الجملة، فليس من العقلاء، وهو أخسّ من أن يخاطَب بمثل هذه الكلمات. وإنّما كلامنا مع من صدّق بالجملة، فندعوه إلى البحث عن صنع الله، ليزداد بسببه يقينه وإيمانه، ويتفاقم به تعظيمه وإجلاله لله.

وصمت قليلًا شاعِرًا بالبرد المتزايد لاقتراب المساء، وردّدَ نظراته في الدراويش المحيطين به، ثمّ لفحَتْه رائحةٌ تشبه رائحة الخوخ الجافّ آتيةً من ملابس أحدهم فواصل:

- فمَن صدّق بالجملة عليه التعمّقُ في عجائب الله ليُقوّي إيمانَه. فمن عرف أنّ الله صانعُ العالم يكُنْ كمَن عرف أنّ زيدًا متميّز من غيره

بكونه ناظمَ ديوان أو مصنّفَ كتاب. وأين هذا ممّن تصفّحَ شعر زيد، فرأى فيه غرائبَه؟ فهذا يعتقد عظمته ورتبته اعتقادًا راسخًا عن تحقيقٍ وبصيرة، والآخر يعتقدُ اعتقادًا مجملًا ضعيفًا، غير مُدرِك بالبصيرة والتحقيق، وهذا فرقٌ بين رتبة العوامّ وذوي البصائر في هذا الأمر الواحد.

وصمت، فتعاقب المريدون معقّبين على كلامه، وطلبَ من أحدهم فتحَ النّافذة وتفقُّدَ موقع الشّمس، فعاد مُشيرًا إلى اقتراب موعد الغروب، فأمسك الجميع عن الحديث، وبدؤوا الذّكر والأوراد وأذكار المساء، ثمّ تفرقوا مستعدّين لصلاة المغرب.

ومشى الغزاليّ إلى الميضأة في جانب المسجد، لكنّ ذهنَه كان مشوّشًا بما عليه قولُه للأمير التركيّ الّذي أرسل إليه رسالةً يطلب فيها حضورَه إلى قصره. *سأكتب له في الصباح رسالةً لن يراسلني بعدها*. وصدح الأذان، وأقبل ليل طوس البارد، ودخل الغزاليّ المسجدَ وهو يرقب الرّجال الملتفّين في ملابسهم القادمين من الأزقّة لتلبية النداء.

84

أنطاكية، جمادى الأولى، 491 هـ/ يونيو، 1098م.

كان القائد الصليبيّ بيمند يشعر بسعادةٍ عارمةٍ وهو يرى في عينَيْ فيروز الزَّراد تحت ضوء المصباح أنّه اقتنع بكلامه. كانَا يتحدّثان بُعيْدَ العشاء في طرف برجٍ من أبراج مدينة أنطاكية الأربع مائة. رفع القائد يده:

- اتّفقنا... ننتظر تدلية الحبال إلينا عند انبزاغ الفجر.

ولم يزد فيروز على إيماءةٍ خائفة، وأحنى بيمند رأسَه تحيةً مُردّدًا عَينَيه في حرّاسه الواقفين بعيدًا وهو يسمع أصوات قراءة الدراويش في الخانقاه القريب من البرج. مدّ يده وصافح فيروز مصافحةَ الاتّفاق. أدار ظهرَه منحدرًا مع الطّريق الموصل إلى مخيّمات جنوده الّذين يحاصرون المدينة منذ ثمانية أشهر. كان قلقًا وعجلًا؛ فالأخبار تؤكّد اقتراب وصول مَدَدٍ من الموصل لإنقاذ أهل أنطاكية، وإذا وصل المدد فربّما يُبادُ آلاف الفرسان الّذين معه.

تجاوز مخيّمات الجنود قربَ السور مُفكّرًا في خطّته للغد حين يُدلي فيروز الحبال. ذلك الأمير ياغي سيان، سأطعمه للكلاب جزاءَ عناده وإبقائه لنا خارج الأسوار كلّ هذه الأشهر. واستعادَ في ذهنه الأشهر الطّويلة الّتي قضّاها أمام هذه الأسوار الطّويلة. فقد وصل هنا يوم 21 من سبتمبر 1097م. لم يُقِمْ أمام مدينةٍ قطّ كلّ هذه الفترة، وتذكّر كيف كانت غزواته وغزوات والده سهلةً في جنوب إيطاليا مقارنةً بهذه العذابات المرهقة في هذه الأرض الغريبة. أعاد نظره إلى المدينة الغافية وأبراجها العالية، وخطر له أنّها تستحقّ كلّ هذا الوقت وتلك المغامرة.

تذكّرَ فرسانًا مميّزين قتلوا هنا وفارسًا إيطاليًّا كان معه ومع والده يغيرون أيّام حروبهم مع ملك الفرنجة. ذلك الفارس الّذي يلعب بالفأس المشحوذة كالكرة، وكيف اصطاده سهمٌ تركيٌّ من داخل هذه المدينة اللعينة؟

لم يغمض له جفنٌ بقيّةَ ليلته، ولم يخبر جنودَه بما ينتظرهم. بل دعَا الأمير ريموند وصنجيل وبطرس النّاسك وقائدين آخرين. باتُوا يفكّرون في ما ينتظرهم صباحًا. ها هم آخر الأمر سيحقّقون الشّرطَ الأوّل لغزو القدس وهو احتلالُ مدينةٍ تكون مقرًّا لهم. سهروا يأكلون البرتقالَ الحلبيّ والرمّان والخوخ ويشربون حتّى لاح ضوء الصباح من جهة أنطاكية. وقف بيمند متثائبًا متوتّرًا. ثمّ خرج من خيمته ووراءه بطرس. وقفَا يتأمّلان أسوارَ أنطاكية الصامدة. وكان ذهن كلّ منهما في اتّجاه.

نظر بيمند جهةَ السور المتاخم للجبل، فتخيّل الذهبَ والذخائر والحسناوات القابعات وراءه. *أخيرًا ستخضعين وتعودين إلى حضننا أيّتها العنيدة.* أمّا بطرس فكان مُستندًا على طنب الخيمة مُفكّرًا في قداسة هذه المدينة. *فهنا سُمّي المسيحيّون «مسيحيّين» أوّل مرّة. وهنا كان القدّيس بطرس، وبين هذه الأسوار ترقد أوّلُ أسقفيّة مسيحيّة في التاريخ. هذه المدينة الّتي كانت إحدى عواصم المسيحيّة كيف اختطفها أصحاب محمّد في غفلةٍ منّا؟*

وتردّد أذانُ الفجر من منارات أنطاكية، بينما كانت حبال فيروز الزراد تتدلّى من البرج الشّرقيّ. ولم يمرّ وقتٌ حتّى انطلقت المآذن معلنةً أنّ الفرنجة قد دخلوا المدينة.

وركض رجلٌ قصيرٌ ما زالت بقيّة نومٍ في صوته يصرخ في الأزقّة:

– لقد دخل الفرنجة! لقد دخل الفرنجة!

استيقظت المدينة على الرعب، وهربَ النّاس كلٌّ في طريق وهم يرون الفرنجةَ ذوي الرّؤوس الحليقة والفؤوس المشحوذة والخوذات الحديديّة الثقيلة يتراكضون. واستيقظ الأنطاكيّون على ما لم يسمعوا عنه أو يروه قطّ. فقد كان الجنود يقتلون كلّ من يقابلون، ويضربون بالسيوف كلّ شيءٍ يتحرّك. لا يتركون إلّا امرأةً مرتضاةً للاغتصاب أو طفلًا صالحًا للاستعباد.

كانت الشّمس قد ارتفعت بينما كان بيمند يتقدّم الصفوفَ في عباءته البيضاء الممهورة بشارة الصليب الحمراء. أخذ يستنشق تلك الرّائحةَ الحبيبة إلى قلبه المثيرة لذاكرته، رائحة الدّم المشوب بشعور الانتصار بعد معالجته أزمنةً طويلة. وكانت تصله أصواتُ صرخات جنوده، وولولاتُ نساء أعدائه، ويرى المدينة تخلع أسوراها لتسلّم يديْها إليه. راح يُقلّبُ عَينَيه في الجدران المستسلمة والوجوهِ الواجمة على الطّريق. يسكن هذه المدينةَ آلاف المسلمين والمسيحيّين من العرب والأرمن والإغريق. كان يتأمّلهم بحنقٍ وغضب، فهؤلاء مخالفون في الدين، حتّى مسيحيّوهم، إذ ينتمون إلى الكنائس الشّرقيّة الباطلة، وجزءٌ منهم جنودُ قائد مسلم.

قطعَ عليه أفكارَه فارسٌ يركضُ جهتَه. فمسحَ وجهَه المتعرّق:

- لقد هربَ ياغي سيان في مجموعةٍ من فرسانه.. ولا أثر لهم!

- فليهرب إلى حيث شاء!

وضحك ضحكةً ساخرةً وهو يتأمّل آلافَ الفرسان الفرنجة يقتلون ويسبُون وينهبون المتاجرَ والدكاكين. كان يتقدّم قاصدًا دارَ الإمارة حيث سكنَ ياغي سيان. وصلها، ودخل بيت ياغي، ووقف يتأمّل كرسيَّه، لكنّه سمعَ صرخات رفيقه ريموند صنجيل من ورائه. التفت، ففاجأه منظرُه، كان وجهه ملطّخًا دمًا، وفي يمينه سيفٌ يقطر، وهو يقترب صارخًا:

- هذه ليست إمارةَ أبيك.. نحن شركاء في الأمر!

وسكت بيمند، مُفكّرًا في طريقة احتواء اللّحظة أمام الجنود النّاظرين السامعين، ورفع رأسه:

- يمكن نقاش هذا بعد ترتيبِ أمور المدينة وسكّانها.

وابتعد ريموند ماسِحًا جبهتَه بذراعه صارخًا:

- الأمر ما قلت لك تمامًا!

كانت الأزقّة الضيّقة مملوءةً بالفرسان الطوال الشّقر الصارخين. لا يكاد فارسٌ واحدٌ يمرّ دون أن يردف امرأةً أو طفلًا، أو ذهبًا أو بضائعَ، وسط ألسنة اللهب المتصاعدة من المكتبات والخانقاهات والمساجد والكنائس.

ما إنْ جلس بيمند في دار الإمارة بأنطاكية حتّى اقتحم عليه بعض جنوده حاملين امرأة. وقف غاضبًا من طريقة دخولهم، لكنّ أحدهم بادرَه وهو يتنفّس بصعوبة:

- هذه كانت من نصيب رفيقي، لكنّها كانت في عصابةٍ من النساء، وقد قتلنَ رفيقي بالعصيّ.. لعلّها ابنةُ أميرهم، فقلت إنّك أحقّ بها!

نظر بيمند إلى الفتاة البيضاء المذعورة. كانت ممشوقةَ القامة سوداء الشّعر نصف عارية، تتشبّث بكلّ شيءٍ لتغطّي جسدها. كانت تستمع للحديث بين القائد وجنوده لكنّ يديها تدوران في كلّ اتّجاهٍ باحثتَين عمّا تغطّي به المكشوفَ من جسدها. وصرخت بالعربيّة وعيناها مملوءتان دموعًا:

- أريد مترجمًا! أريد مترجمًا!

تأمّل بيمند الفتاة، فلم يشكّ أنّها من حاشية الأمير. جسدٌ بضٌّ ناعم، وطريقةٌ أرستقراطيّةٌ في الحديث، وجمالٌ فاتن. *لا بدّ أنّها زوجة ياغي سيان أو ابنته.* أشار إلى أحدِ خدمه بالاعتناء بها حتّى يبتّ في أمرها، فأمسكها الجنديّ وسحبها صارخة:

- أريد مترجمًا!

لكنّ الجنديّ الضخم ذا الملابس الرثّة دفعَها داخل دار الإمارة.

وفي مساء ذلك اليوم كان بيمند في مجلس الأمير مع بقيّة القادة. وبعد نقاشٍ طويلٍ بشأن مَن يتأمّر على المدينة اتّفقُوا على أن يكون بيمند أميرًا لشرقها وشمالها، ويكون ريموند أميرًا على جنوبها وغربها، وفي نهاية الاجتماع وقف القادة وأقسمُوا القسمَ على الالتزام بالاتّفاق. وانفضّ المجلس، بينما كان بيمند يتذكّر أنّ عليه البتَّ في شأن تلك الأميرة المذعورة.

أُدخلت عليه وهي لا تكاد تطأ الأرض خوفًا. كانت تلبس عباءةً أعطتها إيّاها إحدى الخادمات اللّائي كنَّ في دار الإمارة. كان بيمند جالِسًا في كامل أُبّهته. رجلٌ أشقر أربعينيّ قصير الشّعر على خلاف بقيّة الفرسان، ضخم الصّدر واسعُ ما بين المنكبين، نحيل الخصر يتكلّم بهدوء. أشار إلى الخادمة الأرمنيّة:

- اسأليها من تكون؟

تسارعت حركات جفونها، فاتّضحت عيناها العميقتان السوداوان الواسعتان. وما إن رأى تينك العينَين وذلك الشّعر الفاحم حتّى حسم الأمر في ذهنه، لكنّه أنصت.

- أنا عالمة.. أدرّس النّاسَ العلم. يدرس في مدرستي أكثر من ثلاثمائة فتاة. وليس في أنطاكية أحدٌ إلّا يعرف والدي التّاجر أبا زيد الأنطاكي!

كان بيمند يستمع للفتاة مستعيدًا عشرات القصص المشابهة الّتي عاشها. فقد علّمته عشرون سنةً من احتراف الغارات في إيطاليا وإسبانيا كيف تصبح المرأةُ إذا سُبيتْ، وكيف تقاوم، وكيف تخضع. فكم مرّةً سبى فتاةً تريد أن تحكي قصّتها، وكم مرّةً سبى أخرى لا تصدّق أنّها وقعت فيما

وقعت فيه. لكنّ الوقت والواقع كفيلان أن يُنْسِيَا هذه الإسماعيلية[1] كلّ تلك الأوهام.

أخرج منديلًا من جيبه، وبصق فيه وهو يصرخ:

- قولي لها ألّا تخاف، وبشّريها بأنّها ستكون عندي.. لن أتركها لأيّ من الجنود الّذين كانت معهم.

رفعت حُسَّانةُ الأنطاكية وجهَها في الجارية، وبدأ شكلها يبتعد في عَينَيها. فقد بدأ الدوار يأخذ رأسَها من هول وقائع بدَتْ أكبرَ من قدرتها على التحمّل والتخيّل. كانت تنظر إلى هذا العلج متخيّلة ما قد ينزل بها من سوء. بدأ شكل المترجم يتضاءل، ثمّ ابتلعَه الظّلام، وسقطت على الأرض مغشيًّا عليها. ضحك بيمند، مُشيرًا إلى الجارية بالاقتراب:

- خذيها.. ستتعلّم الصبر!

بعد ذلك بساعةٍ أفاقت على نفسها في غرفةٍ واسعةٍ فوق سريرٍ أنيق. وما إن فتحت عينها حتّى قالت لها الجارية الواقفة فوق رأسها بعربيّةٍ مكسّرة:

- لماذا تخافين؟ أنت محظوظة! تعالي يا ابنتي!

ثمّ اقتربت الخادمة العجوز بابتسامةٍ خبيثة، وأمسكت يدَ حسّانة وجذبتْها إلى النّافذة، ثمّ أزالت الستارة، وقالت:

- انظري إلى أنطاكية! كلُّ من تعرفينه إمّا قُتل أو سبَاه جنديٌّ قذر! أمّا أنت فمحظوظةٌ لأنّك في دار الأمير!

كانت حسّانة تفكّر في والدها، ذلك التّاجر الّذي يتوافد العلماء على بيته مساءَ كلّ خميسٍ لنقاش آخر الأفكار والأخبار. *كيف كان والدها لا يرى أيَّ إنسانٍ كفُؤًا لها. أين هو الآن؟ وماذا سيقع له لو علم أنّها سبيّةٌ عند*

---

(1) كان كثير من الصليبيّين يشيرون إلى المسلمين بالإسماعيليّين نسبةً إلى النبيّ إسماعيل، تأثّرًا بالتوراة وصورة إسماعيل السلبيّة فيها.

علج؟ ثمّ تذكّرت تلميذاتها اللّائي فديْنها بأرواحهنّ وقاومن بأظافرهنّ العلوج المسلّحين.

كانت ممزّقةَ الوجدان حالمةً بالموت الزّؤام. انشغل ذهنها بأمرٍ واحد. *هل يجوز لها تحت هذا الظرف أن تقتل نفسها؟ أيّهما أفضل: الانتحار أم أن تكون جاريةً ينكحها أغلف إفرنجيّ؟ قطعًا إنّ الموت هو الأمنيّةُ لكنّ الانتحارَ حرامٌ وسيُعذَّب صاحبُه في الآخرة أضعافَ هذا العذاب المتقطّع. فلا يجوز للمسلم بأيّ حالٍ أن يقتل نفسه. ليس أمامي إلّا التضرّع لله أن يأخذني عنده قبل أن يلمسني هذا العلج. ماذا أفعل لو أرادني لنفسه؟*

ما أقصر الدّنيا وما أحقرها! كيف أصبح أنا ذات الفكر الوقّاد والعلوم الوافرة ألعوبةً بيد هذا الإفرنجيّ الأمّيّ القذر؟ وخطر لها أن لا طريق أمامها إلّا أن تقتله حتّى يعمد حرّاسُه إلى قتلها. *كيف تقتله وهو الإفرنجيّ الفارس المحارب؟ إذا كانت ستقتلته فلا بدّ أن تتركه ينال منها ولا بدّ من مخادعته في السّرير وذلك ما لا يكون!*

أفاقت من أفكارها على صوت الجارية:

- أنت محظوظة، فالأمير اختارك لنفسه! لقد رأيت بعضَ تلميذاتك عند الجنود في المسجد يلعبون بهنّ!

وتصاعدَ الظّلام مغطّيًا الجارية أمامَها حتّى تضاءلت في عَينَيها، ثمّ سقطت على الأرض. أفاقت بعد دقائق، وهي تسمع الصخبَ بلغات الفرنجة. تقدّمت، وفتحت الستارة، فرأت الشّوارعَ مليئةً بالجنود السكارى. لمحت عتبة المسجد الجامع، فرأت الخيلَ مربوطة داخله، ورأت علوجًا يخرجون وقد تغوّطوا في المسجد. استعادت ذاكرتُها يومَ كانت تدخل المسجد فترى العمائم الموزّعة على سواريه تُعلِّم العلم.

بعد ذلك بأربعة أيّامٍ وصلت الأخبار بوصول جيش بورغا القادم

من الموصل إلى أسوار أنطاكية. وعسكر آلافُ الفرسان الأتراك والعرب خارجَ أسوار المدينة وأبراجها الأربعمائة. كان بيمند في مزاجٍ سيّئٍ بعد جولةٍ استطلاعيّةٍ على الأبراج. فها قد أصبح محاصرًا داخل المدينة الّتي حاصرَها ثمانية أشهر. دخل دار الإمارة وهو يفكّر في أنّ حصاره سيختلف عن حصار الأتراك له. فهؤلاء وسط أهليهم وسيمدّونهم بالمال والسلاح والطّعام، وقد يصلهم المددُ من أيّ مكان. هذه تحدّياتٌ جمّةٌ لكنّ التراجع والتنازل ليس في ذهنه. وخطر له أن يرفّه عن نفسه ببعض الأمور فتذكّر أميرتَه الأسيرة. لِمَ لا يمضي معها بعض الوقت، ثمّ يذهب بعد ذلك للتشاور مع بطرس وريموند؟

جلسَ في غرفة نومه، وخلع خوذتَه، وصرخ طالبًا الجارية. وبعد العشاء كانت الجارية العجوزُ تقود حسّانة إلى غرفة نومه. أوصلتْها إلى الباب الواسع، فلمحت بيمند جالِسًا على سريرٍ واسعٍ عليه بُسطٌ وفرشٌ ووسائدُ ملوّنةٌ فاخرة.

كانت حسّانة تستغفر وتهلّل مع كلّ خطوة تخطوها. يتّقد ذهنها رغم كثافة اللّحظة بصورٍ وأفكارٍ متناقضة، لكنّ الخوف كان الغالب عليها. فقد بالغت في وضع العطور، وتعمّدت إظهارَ بعض مكامن الجمال من جسدها. لكنّ يدها الممسكة بطرف الخنجر تحت طرف عباءتها بدأت تتعرّق. *أليس الانتظار أفضل؟ فقد يقتحم المسلمون المدينة وينقذونني؟ وماذا أفعل لو رأى الخنجرَ قبل طعنه؟ ما يكون مصيري؟ هل سيفعل بي ثمّ يقتلني؟ أم ستحلّ السّعادة والشّهادة فيقتلني قبل أن يفعل بي؟* وابتسمَ بيمند فاتحًا ذراعَيه وهو يراها ترفل في ملاءة مزركشةٍ والعطورُ الشّرقيةُ تغزو منخرَيه، فقال بحماس:

- أليس هذا أحسن لك؟

لفّتْ يدَها وراءَ ظهرها وهي تتفقّد الخنجر، وتقدّمتْ إليه بقلبٍ راجف. وقفت عندَ حافّة السرير، فكان أوّل ما رأت منه صدرَه العاري، فرفعتْ يدها بالخنجر:

- طاااخ

ووقعتْ ذراعُها في قبضة يده القويّة، فقد منحته تجاربُه الطويلة مع السبايا تحفّظًا في مثل هذه اللّحظات. وانتزع السكينَ من يدها ورماهَا جهة الباب، وأمسك يدَيها ورماها إلى جانبه صارخًا:

- حمقاء!

ثمّ استلقى وهو يسمع بكاءها مشوبًا بأصوات الجنود الآتية من الشوارع. وبعد دقائق صرخ:

- جونا، ادعُ لي المترجم جوار!

ولم يمض وقتٌ حتّى دخل جوهر مسرعًا مع باب دار الإمارة لتقوده الجارية المسنّة إلى حجرة بيمند.

ارتبك قليلًا وهو يلاحظ جلوسَ الأمير على سريره وبقربه امرأة، فانحنى مرتبكًا:

- سيّدي!

وقف بيمند مشيرًا إلى حسّانة:

- هذه الحمقاء أرادت قتلي!

نظر جوهر إلى المرأة المتلفّفة في عباءتها المزركشة على استحياء، ثمّ أعاد بصرَه إلى الأمير:

- أمرك سيّدي!

- أريدك أن توضّح لها ما سأقول.. حتّى تفهمه كاملًا.

- سيّدي!

- قل لها إنّ ما أقدمت عليه يُقتَل فاعله في عاداتنا فورًا. لكنّي لن أقتلها لأنّها من بيت الأمير، ولا أصدّق أنّها قدّيسةٌ تعلّم النساء... لكنّي أريدها أن تصارحني هل هي بنت الأمير سيان أم زوجته أم جاريته؟

وتنحنح جوهر، وأرسل بصرَه جهةَ حسّانة:

- الأمير يقول إنّ ما أقدمتِ عليه عقوبتُه القتل.. لكنّه سيُبقي على حياتك لأنّك من بيت الأمير، شريطة أن تخبريه من أنت؟ بنت الأمير أم زوجته؟

وتحرّكت حسّانة حائرةً لسماعها صوتًا تعرفه. استدارت جهةَ جوهر، وما كادت ترى وجهه حتّى صرخت.

- جوهر!

فارتبك، وما إن رأى وجهَها حتّى دارت الأرضُ تحت قدمَيه، واقترب من الجدار يلمسه بأطراف أصابعه حتّى لا يسقط. وأرخت حسّانة على وجهها، وسادَ صمتٌ لم يقطعه إلّا صراخ بيمند:

- ما الأمر؟ ما الّذي يحدث؟

وتماسك جوهر وهو ينظر إلى حسّانة وقال:

- أجيبي الأمير!

قالَها وهو يشعر بكلّ ذرّةٍ من جسده تخذله. *هذه حسّانة التي كنت أحدّث بغداد كلّها عن جمالها وعن تعلّقي بها.. تلك الفتاة الذكيّة العالمة... هذه..*

وجاء صوت حسّانة متهدّجًا:

- قل له الحقيقة عنّي وإنّي أسأله بكلّ ما يؤمن به أن يتركني!

وتنحنح جوهر:

- هي تقول..و..

وخنقته العبرة..

وقالت حسّانة بصوتٍ متهدّج:

ثمّة سكّينٌ بينك وبين الباب...

وتلفّتَ جوهر جزعًا، فرأى السكّين ملقاةً قرب الباب عند طرف الكرسيّ، لكنّه لم يتحرّك من مكانه. كان قلبه يرجف، وعيناه زائغتين، وساقاه تكادان تخذلانه.

وهمست حسّانة:

- كن رجلًا!

وصرخ بيمند:

- ماذا قالت؟

قال جوهر وهو يرجف:

- قالت إنّها بنت تاجرٍ من تجّار أنطاكية ولا علاقة لها بالأمير سيان.. وتتوسّل إليك بكلّ ما تؤمن به أن تتركها..

قالها جوهر وذهنُه مختنق بالمشاعر المتناقضة. *هل يقفز ويأخذ السكين ويهاجم الأمير ليُثبتَ لها ولنفسه أنّه رجل؟* لكنّ الأمير فارسٌ مدرّبٌ وسيقلته حالًا! *وإذا لم يفعل فكيف ستنظر إليه حسّانة؟* ووجد جسمه يرتجف، فقال كأنّه يهذي:

- ماذا تقول أيّها الأمير؟

ودوّت ضحكة ساخرة:

- ماذا أقول؟ هل أتركها بعد أن حاولت قتلي؟ أتركها حتّى تُقدِم كلُّ فتاةٍ سُبيتْ من هذه المدينة على قتل سيّدها؟

وقفزت حسّانة من فوق السرير وأمسكت السكّين، وصرخ بيمند:

- مكانك!

ودخل الحرس يركضون، فقال جوهر:

- بالله اتركها أيّها الأمير... هذه عالمة! هذه تعلّم مئات الطالبات...

ونظر بيمند إلى جوهر مستغربًا:

- وأنت ما دخلك؟

واقترب الحرس، فأشار إليهم بيمند بالرجوع، ومدّ يده إلى حسّانة طالبًا منها السكّين فوضعتها في يديه راجفة. وصفّق، فجاءت الخادمة العجوز:

- خذي هذه الحمقاء حتّى أرى رأيي فيها!

والتفتَ إلى جوهر:

- وأنت اخرج الآن!

وفي صبيحة اليوم التالي خرج أربعة أسرى من المسلمين بُعيد شروق الشمس ليدفنوا حسّانة في المقبرة الواقعة شرق أنطاكية. مشوا وسط المقابر يحملون الجثّة، بينما مرّ من فوقهم سربٌ من الطيور السّود يتّجه جنوبًا.

85

الطابران، 492 هـ.

جلس عند نافذته المطلّة على الخانقاه يرقبُ الدّراويشَ الّذين ربّاهُم على عَينَيه. كان الخانقاه يتربّع وسط الطابران، وتتوسّطه حديقةٌ مُعشَوْشِبةٌ بالزهور والرياحين وأشجار المشمش والليمون والعنب والرمّان.

لمح الأشجارَ المتبرّجةَ والأزهارَ المتفتّحةَ مُفكّرًا في حالها قبل أشهر. انتفضَ قليلًا مُتأمّلًا صنعَ جلال الله وجماله. *كيف يرى الإنسانُ الزهرةَ تتفتّح، ويمدّ يدَيْه إلى المطر الهاطل، ويسمع تمتمات الوليد، ويُظلّه اللّيل في الفضاء الواسع، ثمّ لا يؤمن بخالقه؟* بدت شوارع الطابران كتابًا ضاجًّا بالحياة الملفوفة في الاعتبار. تلك جاريةٌ ذاتُ خمارٍ أحمر تركض حاملةً خبزًا، وذاك بغلُ البريد يتهادى، وأولئك طلّابُ المدرسة يتسابقون. آه! لن تغرب شمس هذا اليوم حتّى يختفي كلُّ هذا، ويكمن النّاس في بيوتهم، وتنكمش الحياة تاركةً عنفوانَ النهار، مستسلمةً لخمول اللّيل. ولن يدور الفصلُ حتّى تذوي تلك البراعم، وتموت تلك الأزهار، وتأفل تلك البهجة المتضوّعة من تلك الحديقة.

ابتعد عن النّافذة مُتذكّرًا الكتابَ الّذي يؤلّف هذه الأيّام. دخل مكتبتَه، وجلس بين كتبه فانتابته غبطةٌ وهو يقارن مكتبته هذه بمكتبته الأنيقة في بغداد. شعر بحبورٍ غامر وهو يرى نفسَه الجموحَ تتغلّب على مغريات الدّنيا. *تخفّفتُ من أعباء الدّنيا، ولم أقبل دخول قصر أمير، ولم أتسلّم هديّةً من سلطان. عامان مرّا ولم أناظر في الفلسفة أو أجادل في علم*

الكلام. إنّما هي الصّلاة والتأليف وأحاديث الآخرة مع صفوةٍ انتقيتها على عيني من المريدين. غرق بين كتبه وتأمّلاته حتّى استيقظ على صوتٍ منكر.

سمع ضجّةً وولولة، وقف مُسرعًا باحثًا عن خَلُوب فلم يجدها، فتح الباب فظهرت صارخةً في طرف البيت وبنتاها بين يدَيها لا حراك بهما:

- لقد سقطتا من فوق الدّار! لقد سقطتَا من فوق الدّار!

كانت تنحني، وتقوم، وتصرخ، وتُدبِر، ثمّ تعود. واقترب من عائشة وفاطمة فإذا بالدماء تنزف من أنف عائشة وهي لا تبدي حراكًا.

بعد ساعةٍ كان الطبيب في المنزل، ولم يكن يتحرّك من البنتَين سوى عيونهما. فقد سقطتَا من أعلى المنزل على رأسيهما. جلسَ الطّبيب النّحيل ذو اللّحية البيضاء يجسّ نبضهما ويتفقّد جمجمتيهما بتأنٍّ.

كانت خَلُوب تنظر إليه بعينَين متوسّلتين وقلبٍ خافق. *ماذا عندي في الدّنيا غيرهما؟ كيف أفقدهما بعد أن رُزِقْتُهَا؟ ليس في هذه الدنيا أحدٌ أمتُّ له بدمٍ غيرهما. إلهي! إلهي!*

ونظرتْ إلى عيني الطّبيب فلم تتبيّن ما يدور بخلده، لكنّها أحسّت بدوارٍ وقَيءٍ غالب، فركضت إلى الكنيف. كان الغزاليّ صامتًا يُجيل نظراته بين الطّبيب وبنتيه، ثمّ تنحنح الطّبيب:

- لقد وقعتَا على رأسيهما. أنت تعلم -يا دانشمند- أنّ الرّأس مستقَرُّ كلّ القُوى ومنبعها، ففيه قوّة المخيّلة والغضبيّة والفكريّة وغيرها. وما علينا إلّا انتظار الشّفاء من الله، وسأبعث مع الغلمان دواءً يُسقى لهما قد يساعد في تحريك الدّم المتجمّد في الدماغ.

ووقف الطّبيب ذو القلنوسة الطّويلة، ودفع الباب، وخرج مُسرعًا، فبَغْلتُه تنتظره عند الباب للذهاب إلى أحدِ وجهاء الطابران. جلس الغزاليّ

عند رأسيهما وهو يرى خَلُوب قادمة من الكنيف محمرّةَ الوجه وَجِلَةً خائفة.
جلست عند رأس فاطمة، فأمسك بيدها:

- خلوب! أنت امرأةٌ عاقلةٌ مؤمنة! وهذه الأحوال تُظهر درجةَ الإيمان. فمصائب الدّنيا طرقٌ إلى الآخرة من وجهيْن: أحدهما الوجه الّذي يكون به الدواءُ الكريه نعمةً في حقّ المريض، ويكون منع الصبيّ من اللّعب نعمةً في حقّه إذا كبِر.

وانتبه إلى أنّه يتحدّث بصيغةٍ منطقيّة كأنّه في درس، لكنّه تفاجأ بكونها منصتة؛ حتّى إنّ دمعها بدأ يجفّ. فواصل:

- فإنّ الصبيّ لو خُلِّيَ واللعبَ كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب، فكان يخسر جميع عمره، فكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء. حتّى العين -الّتي هي أعزّ الأشياء- قد تكون سببًا لهلاك الإنسان في بعض الأحوال، بل العقل الّذي هو أعزّ الأمور قد يكون سببًا لهلاكه. فالملاحدة يومَ القيامة سيتمنّون لو كانوا مجانين أو صبيانًا، ولم يتصرّفوا بعقولهم في دين الله تعالى. فالأبناء نعمةٌ لا ندري ما تقودنا إليه يوم القيامة. فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلّا ويُتصوّر أن يكون له فيه خيرٌ دينيّ، فعلَيْه أن يحسن الظنَّ بالله تعالى ويقدّر في أفعاله الخيرة ويشكره عليها، فإنّ حكمة الله واسعةٌ وهو بمصالح العباد أعلم من العباد، وغدًا يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثوابَها، كما يشكر الصبيُّ بعد العقل والبلوغ أستاذَه وأبَاه على ضربه وتأديبه؛ إذ يدرك ثمرةَ ما استفاده من التأديب.

وتحرّكت عائشة قليلًا متنهّدةً، أمّا فاطمةُ فلا حراك بها إلّا أنّها تتنفّس.
مالت خَلُوب على عائشة:

- روحي! روحي!

وأحسّ أنّ خلوب تجد سلوى في حديثه، فواصل:

- كما أنّ ضرب الوالد لابنه للدارسة تأديب، والطفل لا يدرك محامده، فكذلك البلاء من الله تعالى تأديبٌ لنا، وعنايته بعباده أتمّ وأوفر من عناية الآباء بالأولاد. فقد رُوي أنّ رجلًا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم: أوصني! فقال: «لا تتّهمْ اللهَ في شيءٍ قضاه عليك!». ونحن نسأل الله العافيةَ ونسأله أن يشفيهما بشفائه.

وارتفع نحيب خَلُوب مرّة أخرى وهي تعيد التّفكير في كونها جاريةً لا رحِمَ لها في كلّ الدّنيا إلّا هاتَين الطفلتين. وتذكّرت كيف سقط حملها الماضي. *فإذا كان الجنين لا يستقرّ في رحمها وفقدت هاتين الطفلتين فما الّذي بقي لها في الدّنيا؟ كيف ستكون عيشتها؟ وماذا لو فقدتهما ثمّ حدثَ مكروهٌ للغزاليّ؟ ما مستقبلها وبأيّ قلبٍ تعيش؟*

وانسرب خيالُها متخيّلةً نفسَها تمشي في شوارع الطابران حافيةَ القدمين دامية الأعقاب، مهترئة العباءة تتدافعها الأبواب ليس بيدها من بنتَيها إلّا ذكرى مؤرّقة، وذكرى محرقة. وشخصت في ذهنها صورة تلك الأرملة الّتي مرّت يومًا أمام باب سيّدها.

كانت شابّةً طافحةً بجمالٍ أذلّه الفقرُ، فبدتْ شجرةً أصفهانيّةً في الخريف. تذكّرت كيف وقف سيّدها ومدّ يده إلى تلك الأرملة بدراهم. فأرسلت المرأة دموعًا، ومدّت يدها، ثمّ أرجعتها، ثمّ مدّتها، ثمّ أرجعتها. كانت محتاجة إلى الدّراهم لكنّ الدهر لم يفلح في كبح بقيّة العزّة الثاويةِ بين جنبيها. *هل سأصبح مثلها؟*

واستيقظت على أبي حامد يحدجها بمقلتَيه العميقتَين، بينما انطلق صوت الأذان من جهة الخانقاه. فوقف وأخذَ لحافًا، ووضعه على كتفَيْها، وانحنى، وقبّل جبهتها وخرج إلى المسجد.

داعبت خدَّيه أنسامٌ باردةٌ من أنسام الطابران ذكّرته بأمّه. كان قلبه يخفق وهو يحمد لله على البلاء، وكان مشغولًا بامتحان قلبه. هل وصلَ إلى مقام الفرح بالبلاء كما يفرح بالعطاء؟ ولاحظ في قلبه رضًى وتسليمًا بما وقع، لكنّه لم يرَ الفرح الّذي كان يتوقّع أن يجده عند نزول المصيبة.

تجاوز العتبةَ وهو ينظر إلى المصلّين يجتمعون، وذلك الخبّاز الأدرد الّذي لا يملّ من الصّلاة، وبقربه الدّرويشُ الأفحج ذو الظهر القصير يصلّي، ويقلّب ناظرَيه في السّماء. وانصرف قلبه مُتأمّلًا أفعالَ الله في الدّنيا، ومدى قدرة الخلق على فهمها والتسليم بها. وطردَ من ذهنه صورة عينَيْ بنته عائشة وهو يدخل في الصّلاة.

عادَ نهايةَ اليوم إلى بيته وهو يسأل نفسه *هل سيجد بنتَيه على قيد الحياة؟* وما إن تجاوز البابَ حتّى رآهما جالستَين، وخلوب سعيدة نشطة. حمد الله على سلامتهما، لكنّه كان عكِر المزاج مُشتّتَ الخاطر.

فعندما حاسبَ نفسه بعد سقوطهما هل بدأ يفرح بالضرّاء كما يفرح بالسرّاء لاحظ أنّ نفسَه لم تتأدّب حتّى تبلغ تلك المقامات. واقتربَ من البنتيْن، ومسحَ على رأسيهما، ودعا لهما، ثمّ تجاوز إلى غرفة كتبه، وأغلقها عليه حزينًا مفكّرًا:

- متى أفرح بكلّ ما يأتي من ربّي!

86

أسوار القدس، رجب، 492 هـ/ 13 يونيو، 1099م.

جلس جوهر في طرف خيمته غربَ مخيّم الصليبيّين. كان ذهنُه مشوّشًا حائرًا في ما عليه فعله. *لمَ أبقى مع هؤلاء العلوج؟ لمَ لا أهرب من كلّ هذا وأذهب إلى قليج أرسلان؟ وماذا أفعل لو علم أنّي كنت جاسوسًا لإمبراطور القسطنطينيّة وعملتُ مع هؤلاء العلوج؟*

وتخيّلَ نفسَه طفلًا صغيرًا في القسطنطينيّة يساقُ إلى مكان الإخصاء، ثمّ يخرج والدم يسيل من بين فخذَيه ليعالَج ويباعَ بعد ذلك في بغداد للتاجر الّذي أهداه إلى الشيخ أبي إسحاق الشّيرازيّ.

وظهرت صورةُ حسّانة في خياله. *أيّ قسوة؟* وتذكّر القصّة الّتي يعرفها كلّ ساكنة أنطاكية، يومَ خرج الجنود يجرّونها من شعرها من عند القائد بيمند بعدما حَكَمَ بأن تُقتَل وتُرمَى عِقابًا لها على رفض العبوديّة ومحاولتها طعنه.

وانشغل ذهنُه بأنّ الفرنجة على وشك دخول القدس، وأنّهم ما إن يدخلوها حتّى يحصل على مالٍ كثير، ثمّ يذهب إلى حاضرةٍ لا يعرفه فيها أحدٌ ويبدأ حياةً جديدة، حياةَ الثروة والمال والنفوذ. تخيّل نفسَه جالِسًا في صحن دارٍ واسعةٍ والغلمان والجواري يطوفون به، والوجهاءُ يدخلون إلى مجلسه واحدًا تلو آخر.

وقف، وخرج من خيمته، فلاحت له أسوارُ القدس. وتراءت له كنائسها الطويلة ومآذنها المتمنّعة.

في هذه اللّحظة كان زقاقُ التفّاح المؤدّي إلى الأقصى يكتظّ بالعابرين، لكنّ جوًّا نفسيًّا غريبًا يخيّم على المدينة العتيقة منذ بدء الحصار. وفي طرف الشّارع رجلٌ قصيرٌ كثُّ اللّحية يصرخ:

- حلاوة نابلسيّة! حلاوة نابلسيّة!

كانت أصابعه تلعب بقطع الحلوى الذهبيّة اللّامعة بالدهن.

فتتجاوزه الأوجه القلقة الكئيبة وهي تتمشّى تحت سقوف السّوق الظليلة. ويظهر زيدون البهلول لكنّه صامتٌ هذه الأيّام. لم يعد يصرخ محذّرًا من خطرٍ وشيك، فمنذ نزل الصليبيّون بساحة المدينة سكت، وأهمل نفسه إهمالًا لم تعرفه من قبل. لاحظ العارفون به أنّه ترك جرابَه نهبًا للأطفال، ولم يعد يحمل طعامَه معه. بل يكتفي بالمرور ببعض المحسنين ليضعوا له طعامًا في كفَّيه يأكله حالًا ليسدّ به رمقه. كان يسير كأنّه سكران وسط السّوق، ثمّ اختفى في زحمة العابرين قربَ الزاوية الجنوبيّة للسوق القديم.

في طرف السوق كانت الشّيخةُ الشيرازيّة تمشي مُطرقةً وسبعُ تلميذاتٍ يتبعنها وهنّ يحملنَ أوانيَ وملابسَ وكتبًا. كانت تجهّز منزلهنّ الجديد في الجزء الجنوبيّ من المدينة بعد أن تركن الخانقاه الواقعَ في الجبل عند اقتراب الإفرنج. كانت تتقدّم تلميذاتِهَا والهلعُ بادٍ على محيّاها.

لم ينجح كلُّ ما اتّخذه الوالي الفاطميّ -فخر الدّولة- من احتياطاتٍ لطمأنة ساكنة القدس. فقد نقلَ الرعاةَ المحيطين بالمدينة، وأخفى الخشبَ الّذي كان خارج الأسوار حتّى لا يبني به الصليبيّون أبراجًا تساعدُ في التسلّق. وطرد بعض القادة المسيحيّين المعروفين بتحمّسهم للصليبيّين.

لعبت أسئلةٌ كثيرةٌ برؤوس سكّان مدينة القدس منذ أسابيع، وازداد خوفهم من الرّجال الشّقر المخيّمين خارجَ أسوار مدينتهم.. *هل سيفقدون*

مدينتهم ويُقتلون في شوارعها كما فُعل بأهل أنطاكية؟ هل سيشوي فرسان الفرنجة أطفالهم ويأكلونهم كما فعلوا بأطفال معرّة النعمان؟

وفي الشّمال الغربيّ خارج الأسوار كانت النّساء الإفرنجيّات ينهمكنَ في الطبخ، ويتصاعد الدخان من أطراف المخيّم الضّخم، وترتفع قعقعة سيوف الجنود وهم يتدرّبون لتزجية الوقت والاستعداد للهجوم. اثنا عشر ألف جنديٍّ موزّعون بين ميمنةٍ ومَيسرةٍ وقلب. يقود تانكرد الميمنة، ويدير غودفري الوسط، ويشرف روبرت فلاندرس على الميسرة.

كان اجتماع القادة منعقدًا في خيمة تانكدر رغم صغر سنّه، فهو لم يبرح خيمتَه منذ أيّامٍ لمعاناته من إسهالٍ وآلام في بطنه. جلس القادة الثلاثة على كراسٍ خشبيّةٍ بلا مساند، وكان أكثرهم توتّرًا غودفري الّذي صرخ ضاربًا طرفَ الخيمة بيده:

- لقد قضى الوثنيّون على كلّ السفن الّتي نزلت ميناء حيفا قادمةً من جنوة الإيطاليّة.. لم تنجُ إلّا سفينةٌ واحدة!

خلع روبرت خوذتَه، فظهر شعرُه الأشقر وهامتُه الضّخمة القذرة:

- لكنّ الحظّ حالفَنَا... فالرّجال الناجون في السفينة هم المهندسون والبنّاؤون الّذين يعرفون كيف يبنون السفن والدبّابات الخشبيّة.

تراجع غوفري في مقعده وهو ينظر من باب الخيمة إلى جنوده يتدرّبون، وتذكّر أنّه لم يسأل تانكرد عن صحّته:

- كيف أنت اليوم؟

خلعَ تانكرد الرداءَ الأبيض الّذي تكاد شارةُ الصليب الحمراء تغطّيه كلّه وهو يقول مُتنهّدًا:

- ما زال الأمرُ صعبًا. ظننتُ أمس أنّي بدأتُ أتعافى، لكنّي البارحة نمتُ بصعوبة!

وهزّ غودفري رأسَه، ثمّ أمسك لحيتَه مغمومًا. كيف جلسنَا هنَا عاجزين أسبوعَين! هاجمنَا هذه الأسوار مرّةً واحدةً في الأوّل من يونيو، ثمّ عجزنَا بعد ذلك. ضمَّ كفَّيه، وانحنى على الطّاولة:

- كان ينبغي أن نحتاطَ في موضوع الخشب اللعين! فنحن أعرفُ النّاس بأنّ اقتحام المدن دونَه في غاية الصعوبة.

أرسل تانكرد بصرَه مع باب الخيمة ناظرًا إلى الجنود المتدرّبين:

- كلّ أمورنا الآنَ أفضل من أحوالنا أيّامَ حصار أنطاكية. فالطّعام الّذي أخذنا من المدن كثير، ولدينا 1300 فرس. فقط ذلك الخشب!

وتراءى خيالٌ قادمٌ من باب الخيمة. كان بطرس النّاسك يسيرُ متمايلًا وهو يقترب من باب الخيمة التي دخلها، ثمّ جلس مُتنهّدًا. أدارَ عينَيه الحادّتين في القادة الثلاثة:

- الخشب! يجب أن تفكّروا في حيلةٍ مّا!

كان غودفري ينظر إلى بطرس مُتذكّرًا كيف كان هذا النّاسكُ القصيرُ صاحبُ الحمار سببَ انتصارهم في أنطاكية، يومَ قال لهم إنّه رأى المسيحَ في المنام وأخبرَه بأنّ الحربة الّتي طُعن بها موجودةٌ تحت حيطان كنيسة أنطاكية، وأنّهم إذا حفروا ووجدوها فالنّصرُ مضمون. وكيف انطلق الرّجالُ بعزمٍ جديدٍ بعد أن كانوا على حافّة الانهيار وبحثُوا ثلاثة أيّامٍ ثمّ وجدُوا الحربة، وعندها ارتفعت معنويّاتُهم وصمدُوا حتّى انتصروا. مال غودفري جهة بطرس:

- أبانا! عليك أن تغمض عينَيك وترى المسيحَ في نومك وتسأله عن الخشب!

أحسّ بطرس بأنّ كلامَ غودفري على الحدود ما بين الجدّ والهزل. فأراد إبقاءه في دائرة الجدّ:

- سأدعو كثيرًا، وما أذكر أنّ الربّ ردّني خائبًا.

وانتهى الحديثُ فجأة، وسافرتْ عيونُ الرّجال جهةَ الباب ناظرين إلى أسوار القدس المتمنّعة في الأفق. كانت قلوبُهم ترتعد شوقًا إلى دخول تلك الأسوار الّتي عاش فيها الآباء، وعلى ثراها سُفِكَت دماءُ القدّيسين، وأهينت الرّاهبات الطاهرات دفاعًا عن المسيح. وشرد خيال تانكرد. بين تلك الجدران زوجاتُ الأمير وجواريه الفاتنات العطِرات العارفات بفنّ الرّقص وأفانين المخادع، والجواري المضمّخات برائحة العطور الزكيّة. وتخيّل نفسَه يدخل قصرَ فخر الملك ويأخذ بناته وزوجاته وجواريه أسيرات. تخيّلهنّ يرفلنَ بين يدَيه في مروطهنّ الواسعة، تفوح منهنّ رائحة العطور الشّرقيّة المسكرة.

واستيقظَ تانكرد من خياله على ألمٍ في بطنه، فتراجع مُسنِدًا ظهرَه إلى عمود الخيمة. سافر خيالُه فجأةً إلى الجنوب الإيطاليّ مُتذكّرًا آخرَ مرّةٍ رأى فيها محبوبته «إلين»، تلك الفتاة الرقيقة الشّقراء ذات العينين السّاحرتين. *هل سيمتدّ به العمر حتّى يعود ويتزوّجها؟ أم كُتب في الأزل أن يموت هنا بين الوثنّيين خارج أسوار القدس. لكنّي لو متُّ فأنا شهيد، فقد ضمن البابا الجنّة لكلّ من يموت في الطّريق إلى أرض المسلمين سواء مات بسيوفهم أو مات بغيرها.*

واستيقظ على صوت غودفري:

- خطرت لي فكرة!

أحدَّ بطرس نظراتِه مُنحنيًا إلى الأمام:

- ما هي؟

- أتذكرون ذلك المترجم الّذي وهَبَنا إيّاه الإمبراطور، المترجم جوار؟

- نعم..

- أرى أنّه قويّ الحجة وذو شخصيّةٍ طريفةٍ تستطيع فعلَ العجب. أقترح أن تكثروا من إرساله إلى الأبراج لعلّنا نجد فيروز آخر..

صمت الرّجال الثلاثة وهم يتأمّلون هامةَ غودفي، وشفتَيه الدقيقتَين وذقنه الّذي ما زالت آثار جراحه في نيقية باديةً عليه. وقال تانكرد بنَفَسٍ مرهق:

- نعم، فكرة ممتازة. الأمر عندك، ويمكنك..

لكنّ بطرس قاطعه:

- بمناسبة ذكر جوار. أشعر أنّه مشوّشُ الرّأس هو وفيروز الزراد. كأنّ فيروز ندم -حسبما سمعت- على تعاونه معنا... كأنّه غير صادق في إعلانه الإيمانَ بالمسيح ورجوعه عن دين المحمّديّين. وجوار أيضًا... تقول عيوني من حوله إنّه أصبح كثيرَ الشّكوى والكسل منذ أيّام أنطاكية.

دوّت ضحكة غودفري وهو يقف:

- فيروز؟ يؤمن أو لا يؤمن... يُشوّش رأسَه أو لا.. لقد فتح لنا باب أنطاكية!

وخرج غودفري مستأذنًا، ولاحظَ بطرس وروبرت حاجةَ تانكرد إلى البقاء وحيدًا ليرتاح فقامَا.

بعد ذلك بأربعة أيّامٍ كان تانكرد يشعر بمغصٍ قويٍّ، فركضَ إلى طرف الجبل مبتعدًا عن جنوده ليقضي حاجتَه. دخل طرف الكهف المظلم، وخلعَ ملابسه. ثمّ جلسَ ووجهه إلى المدينة وظهره إلى داخل الكهف. والتفتَ يمينًا فرأى شيئًا طارَ إليه فؤاده. أعاد النظر وتأكّد ممّا يرى. غابَ الألم فجأة، ووقف وهو ينظّف نفسَه بحفنة من تراب، ثمّ اتّجه إلى طرف الكهف. أدخل رأسَه مع الفتحة، فلاحت له أكوام الخشب الكثيرة، أكوامٌ هائلةٌ من الأخشاب أخفاهَا فخر الدّولة في الكهوف المحيطة بالقدس.

صفّق متدحرجًا مع الربوة قاصدًا المخيّم. وما كاد يصل خيمته حتّى طلب اجتماعًا مستعجلًا.

87

القدس، ضحوة الجمعة، 23 شعبان، 492 هـ/ 15، يوليو، 1099م.

كان الغبارُ يرتفع، وتنتشر رائحةُ الدماء الممزوجة بالدخان والزيت المحروق. فمنذ أربع ساعاتٍ والفرنجةُ يحاولون اقتحامَ الأبراج الشّماليّة للمدينة. كان تانكرد يشرف على الأبراج الخشبيّة الّتي صنعها البحّارة الجنويّون، بينما يحمي غودفري البرجَ الخشبيّ المتحرّك بالنبال أثناءَ دبيبه إلى السور. كانت فرقةٌ ثالثة -بقيادة روبرت- تقذف السهامَ الناريّة والزيتَ الحارق جهةَ السور. ارتفع النهار، وبدأ الجنودُ يتعبون بعد ساعاتٍ من الكرّ والفرّ والقتل والقتال، لكنّ معنويّاتهم مرتفعةٌ بسبب دقّة الدبّابات الّتي صنعها الجنويّون، ولوجود ثغرةٍ في السور.

وضعَ تانكراد يدَه على جبهته، ورفع بصرَه إلى الشّمس مُلاحظًا أنّها الساعة الخامسة بعد الشّروق. الخامسة ولّما ينجحوا في اختراق البرج الشّماليّ كما خطّطوا وتخيّلوا طيلة الأيّام الماضية. أغمد سيفَه، ومسح العرق عن جبهته بذراعه وبصقَ متضايقًا وهو يتأمّل جنودَه المصرّين على اقتحام البرج دون فائدة. السهام الحارقة تتناوشهم، وخوذات الجنود المقدسيّين الحمراء ما زالت مُطلّةً من فوق كلّ أطراف البرج. *هل أنادي بنهاية معركة اليوم؟ أم أواصل المحاولة؟ كم قتيلًا سيسقط من خيرة فرسان المسيح قبل تهاوي تلك الأسوار اللّعينة؟*

كان على فرس أبلق انتزعَه من أعرابيٍّ في الطّريق بين أنطاكية والقدس. ضربَ عنق الفرس بيده، وصرخ على أحد أعوانه:

- ائتني بماءٍ فإنّي أكاد أموت عطشًا!

وجيء بكوزٍ باردٍ من الفخّار، فبلع منه وهو جالسٌ على فرسه، ثمّ أفرغَ بقيّة الماء على يدَيه، ومسحَ بهما وجهه. رفعَ بصرَه جهة البرج فتجمّدَ الدّم في عروقه.

لمحَ مجموعةً من جنوده تكاد تدخل. رجلٌ قصيرٌ طويلُ الشّعر تتعلّق يدُه بطرف باب البرج ومجموعةٌ تدفعه بينما لا يرى أيّ جنديٍّ من الجنود المقدسيّين. صرخ:

- أقدموا!

ارتفعت أصوات الفرنجة:

- Deus levolte!! Deus le volte

وظهر رمحٌ طويلٌ من داخل البرج، وضربَ الجنديَّ القصير الأشقر. وارتفع الصّراخ. واقتربَ جنديٌّ طويلٌ نحيلٌ، وأنقذ زميله. واندفع الجنديّ النّحيل، وقفز داخل البرج. وأمام عيني تانكرد توارى جنودُه داخل البرج الشّمالي، وتبعتهم كتائب متتالية.

صرخ تانكراد بأعلى صوته، وقفز من فوق حصانه لا يعرف ما يفعل فرحًا، واحتضن أقربَ شخص منه. ودلّى جنود الفرنجة الحبالَ لرفاقهم، فارتفعوا إلى البرج عبر الخشب متتالين.

وما إن دخلوا حتّى انتشرَ الرعب في نفوس حُماة الأبراج المحاذية للبرج الشّماليّ. فرّتْ الحامياتُ الفاطميّة هائمةً على وجوهها في شوارع القدس. وانطلق الصارخ في أنحاء القدس:

- لقد دخل الفرنجة! لقد دخل الفرنجة!

انثالَ الرّجالُ الطوال المسلّحون بالفؤوس الحادّة والسّيوف المشحوذة والرماح الطّويلة. انطلقُوا مع سكّة عثمان يتصارخُون. وما إن توسّطوا

السكّةَ حتّى لمحُوا سوقَ البزّازين على أيمانهم. كان أهل السّوق يبيعون ويشترون، فقد تعلّموا من الصراعات السابقة بين الأمراء المسلمين ألّا تتوقّف الحياة أثناء الصراع العسكريّ، فلا أحدَ يتعرّض لغير المقاتلين.

تقدّم الفرنجة إلى السّوق داخلين من بابه الجنوبيّ. دخل الجنديُّ الأوّل وبيده فأسٌ، وكان أوّل من رآه داخل السّوق امرأةٌ بدينةٌ تحمل كيسًا بيمينها وتجرّ طفلًا بيسراها. رفعَ الجنديّ الفأس، ثمّ ضربَها على مَفرقها، فتطايرَ فتاتُ دماغها على الملابس الحريريّة المعلّقة. ارتفع الصّراخ في جنبات السّوق، واندفع النّاس هاربين في كلّ اتّجاه. لكنّ الجنود كانوا قد دخلوا السّوق. بدؤوا يضربون بالسّيوف والفؤوس يمينًا وشمالًا دون تمييز. فتساقطت الجثث، ومشى فوقَها الرّجال بأرجلهم الخشنة الدامية، وهبّت الرّياح الجنوبيّة حاملةً رائحة الدّم والدخان والزيت والكراهية.

بعد ساعةٍ كانوا قد قتلوا كلَّ من في سوق البزّازين، وكانَ جنود تانكرد يقتربون من المسجد الأقصى. صعدُوا مع الرّبوة المحاذية للمسجد، بينما كان صراخ النّساء والأطفال يملأ جنبات الأقصى الّذي لجأَ إليه النّساء والأطفال والعُبّاد.

في هذه اللّحظة كان جوهر وفيروز في موكب القائد ريموند بمقدّمة المقتربين من المسجد. كان ريموند على فرسٍ أسود أغرّ يحيط به أربعمائة فارس، بينما يمشي عن يمينه فرسٌ عليه جوهر وبقربه آخر يمتطيه فيروز الزراد.

كانت ركبتَا ريموند ترتعدان فرحًا وسعادةً بالنصر ورؤية أسوار القدس من الداخل. وأخذَ يردّدُ ناظريه في الجدران العالية والدكاكين الأنيقة والشّوارع النظيفة. *أحقًا أنا في أرض القدّيسين؟ أخيرًا أمشي على ترابٍ سالتْ عليه دماءُ المسيح وتعطّرت سماؤه بأنّات القدّيسات؟*

وظهرَ الأقصى شامخًا على الرّبوة، وأصوات الداعين ترتفعُ من داخله. وقد اكتظّت جنباته بآلاف العباد والنسّاك المحتمين به.

بدت ممرّاتُه مكتظّةً بالنّساء الوَجِلَات والعُبّاد المرعوبين. عيونٌ زائغةٌ خائفة، ووجوهٌ مرهقةٌ قلقة، وأيدٍ تتشابك في لحظة يأسٍ مفاجئة. اقترب ريموند يتقدّم جنودَه وجوهر عن يمينه. كان جوهر يشعر بروحه تكاد تخرج وهو ينظر إلى العبّاد والأطفال والنّساء المتحلّقين في حِمى المسجد. *هل سيقتلونهم كما قتلوا أهل السّوق؟* التفتَ إلى وجه ريموند ليتبيّن نيّته فلم يفهم أيّ شيء. فالخوذة تغطّي معظم وجهه.

تجاوزوا فناءَ المسجد مقتربين من بابه. كانت الأصواتُ ترتفع من كلّ أطراف المدينة: صرخاتُ استغاثةٍ ممزوجةٌ بصرخات المطعونين، وأصواتُ وقع السّيوف على الرّؤوس مع منحدر الشّارع.

اقتربوا من عتبة المسجد، فظهرَ نحو ألف امرأةٍ من العابدات محتمياتٍ بالأقصى.

كانت الشّيخة الشّيرازية تتقدّمهنّ في عباءتها الداكنة تحيط بها تلميذاتها، وترتدي خمارًا أبيض ملفوفًا على رأسها بينما تلعب رياحُ يوليو بأطراف عباءتها. وتنظر إلى وقع حوافر الخيل القادمة وهي تقرعُ بلاطَ الأقصى بحوافرها. صرخت:

- هذا مكانُ عبادة! هؤلاء عبّادٌ لا دخل لهم في شيء!

التفت جوهر إلى رمينود مترجمًا:

- سيّدي! تقول إنّ المكان للعبّاد ولا ينبغي للجنود أن يدخلوه!

كانت الشّيرازية تنصتُ لترجمة جوهر وذهنُها ضاجٌّ برؤيا رأتها قبلَ سبعة عشر عامًا، لكنّها ما زالت واضحةً في ذهنها كأنّها تراها الآن.

وتلفّت ريموند إلى جوهر:

- ولو كان مكانَ عبادة؟ كلّ من في هذه المدينة يجب ألّا تغرب عليه الشّمس وهو حيّ!

أحسّ جوهر بسكّين تندسّ بين أضلاعه حزنًا. *كيف سيقتل هؤلاء الهمجُ أولئك النسوة؟* واستيقظت في نفسه صورٌ متداخلةٌ من طفولته. تذكّرَ تلك العابدة الّتي كانت تعطيه رغيفًا كلّما مرّ بها وهو طفلٌ في طريقه إلى الكتّاب. وتذكّر حسانة وهي تُقاد إلى وسط ساحة أنطاكية مشوّشةَ العقل لتُقتل بحدّ السيف كما يُقتل الفرسان. *كيف تُسوّل لهم أنفسهم قتلَ النّساء؟* وتذكّر خِزْيَه عند سكوته عن قتل حُسّانة. نكزَ فرسَه، وتقدّم أمام ريموند صارخًا:

- سيّدي! لا تقتلوا النّساء! نساء داخل مكان عبادة!

وضحك ريموند متلفّتًا إلى رفاقه، ثمّ لكزَ جوهرًا في صدره بطرف سيفه:

- ابتعد... وسأعود إليك!

لمحَ جوهرُ الشّرَّ في عينيْ ريموند وهو يبتعد مُتّجهًا إلى النّساء العابدات. *هل سيقتلونهنّ ثمّ يقتلونني بعد ذلك؟*

وأفاقَ على صوت الشّيخة الشّيرازيّة تنادي تلميذاتها:

- ادخلن المسجد! ارمينهم بالحجارة!

بدأت الشّابات يرمين الحجارةَ والأقلام في وجوه الجنود. فتراكض الصليبيّون صارخين شاهرين سيوفَهم. واقترب جنديٌّ أشقر طويل يحمل سيفًا قصيرًا وضرب رقبة الشّيرازية فمالت هامتُها، وسقطت وسطَ تلميذاتها اللّائي تلقَّينَها قبل وصول جسدها إلى الأرض وهنّ يصرُخْن:

- لا إله إلّا الله!

كانت زينب -أشهر تلميذاتها- تمسك رأسَها والدّم يتدفّق مدرارًا من أوداجها، وأخذت تفكّر في أنّ عليها تركَها ورميَ الجنود بالحجارة كيْ

يقتلوها. فالأفضل أن تُقتل الآن شهيدةً بدلًا من أن يأخذها علج أغلف ويفعل بها ما يشاء. أسندت رأس شيختها على ركبة رفيقتها، وأخذت حذاءها ورمت به ريموند. وفي لحظةٍ أطار رأسَها أحدُ الجنود، بينما بدؤوا يقطعون رؤوس النّساء واحدةً تلو أخرى.

وتوغّلت الخيول الصليبيّة داخل المسجد، واختلطت أصواتُ سقوط الرّؤوس بحمحماتِ الخيل واستغاثاتِ المغلوبين. وظهر درويشٌ واقفٌ على طرف المسجد يهلّل. وفي هذه اللّحظة انسلَّ جوهر من الباب الخلفيّ للمسجد، وهو يسرح لابسًا ملابس الصليبيّين حتّى وصلَ إلى الباب الغربيّ.

لمحَ جنودًا من الصليبيّين يمسكون البابَ، فانحرف إلى اليسار، وتسلّق طرفَ حائط مسجدٍ صغير، وقبل أن يقفز تلفّتَ خلفَه، فازداد هلعًا وهو يتأمّل المشهد المتكشّف أمامه: آلاف الجنود الشّقر يتراكضون صارخين بأيديهم الفؤوسُ والسّيوف والحِراب، وآلاف الرؤوس على الأرض، ومئات الجنود يحملون النّساء المتلفّعات بمروطهنّ على ظهور خيولهم سبايا، والسّماء الزرقاء ماثلةٌ في الأفق هادئةٌ جميلةٌ كأنّها غير معنيّةٍ بما يقع..

في المكان خيلٌ ورجالٌ وحسناواتٌ ودموعٌ ودمٌ ودخانٌ وصراخٌ ورياحٌ صيفيّةٌ باردة.

وقبل أن يقفز أصابَه سهم، فسقط من فوق الحائط يتخبّط في دمه.

88

بغداد، 18 رمضان، 492 هـ/ 07 أغسطس، 1099م.

تقدّم الجنديّ التركيّ ذو الذراعين المفتولين وجذب الباب الخشبيّ الأحمر الطّويل، ثمّ صاحَ الحاجب ذو العمامة الخضراء الطّويلة:

- أمير المؤمنين! حفيد العبّاس! وابن عمّ رسول الله! حافظ الملّة!

وظهر الخليفة قادمًا كأنّه أصغر من قامته المعتادة لضخامة الباب. اقتربَ مُسرّحًا لحيتَه الصهباءَ بأطراف أصابعه متلفّتًا. جلسَ على الكرسيّ، وردّدَ عَينَيه في الرجال الواجمين، فصرخ الحاجب:

- خذوا أماكنكم بين يدَيه، واعرضوا ما عندكم.. أمير المؤمنين ينصت!

تقدّم رجلٌ أبيض أفحجُ متوسّطُ القامة يلبسُ ملابس القضاة. خطا خطواتٍ وسطَ الصحن الواسع، بينما كان صوتُ حذائه على البلاط يثير الترقّبَ في نفوس السامعين، ثمّ رفعَ حنجرتَه:

- أنا قاضي القضاة أبو سعيد الهرويّ. جئتكم صَريخًا من مسلمي القدس، حيث تركت الأبكارَ المسلماتِ يتلهّى بهنّ أعلاج الرّوم! لقد دخلوا المقدسَ وأبادُوا أهله، فوالله الّذي لا إله إلّا هو إنّ العلج الرّوميَّ الواحدَ ليقتلُ الرّجلَ وأبناءَه كلَّهم، ثمّ يفجُر ببناته، ثمّ يقتلهنّ كلّهنّ بعد ذلك. ووالله.

وارتفعت أصواتٌ مختلطةٌ في زوايا القصر، بينما كان الخليفة مركّزًا ناظرَيه على القاضي أبي سعيد مستزيدًا. فواصل القاضي وقد ارتفع صوتُه واتّضحت نبراته، وتكاثر العرق على جبهته:

- اسألوا هذا الرّجل المقدسيّ، فهو ممّن نجَوْا بحيلة..

وأشارَ القاضي إلى رجلٍ نحيفٍ أسمر ساجمِ الطرف كأنّه نائمٌ طالبًا منه الحديث. لكنّ عاطفةَ القاضي غلبته، فواصل كلامَه قبل أن يفتح الرّجل فاه:

- لقد رأى بعَينَيه كيف قتلوا كلَّ من رأوا! لقد قتلوا في يومٍ واحدٍ ثلاثين ألف إنسان، وقتلوا في أسبوعٍ سبعين ألفًا. هل بلغَ أميرَ المؤمنين خبرُ الشّيخة الشّيرازية؟ لقد قتلوها وكلّ تلميذاتها بحدّ السيف وهنّ لاجئات بالمسجد. ولم ينته الأمر عند نسائنا، بل قتلوا أهل ذمّتنا من اليهود الّذين أمّننا عليهم ابنُ عمّك صلّى الله عليه وسلّم. كيف يطيب العيش بعد استحلال بناتنا، وحرقِ أهل ذمّتنا! لقد لجأ اليهودُ إلى كنيسهم شمالَ المدينة ظانّين أنّ هؤلاء يرتدعون، فأحرقوها عليهم، وقتلوا كلَّ من خرج منهم بالسيف.

وسكت القاضي، وأمالَ الرّجل الأسمر النّحيل رأسَه، ووضع يدَه على وجهه، وبدأ ينوح. فقد تذكّر قتلَ أسرته كلّها ونهب كلّ دُورِه، وكان أكبرَ تاجرٍ في القدس. وارتفع النّحيب، وأرخَى القاضي طرف عمامته على وجهه مداريًا دموعَه. قلَّب الخليفةُ بصرَه في الحاضرين، فلم يرَ غير الدّموع، حتّى حاجبه وحارسه كانا يبكيان. رفع وجهه ناظرًا إلى السّقف المرتفع المزركش:

- سأرسل مجموعةً من العلماء معكم ليحثّوا النّاس على الجهاد، ويبلغوهم مباركتي لكلّ من يحمل السيفَ ضدّ هؤلاء الفرنجة. واذهب -أيّها القاضي- إلى السّلطان بركيارق وقُصَّ عليه ما قصصت علينَا ليُسيّر معك جيشًا لانتزاع القدس من الأيدي الدنسة. وسأرسل إليه بذلك.

وصمت الخليفة وهو يسمع نشيجَ الرّجال الواقفين في الصحن بين يدَيه. وتحرّكت ستارةٌ من ستائر النّافذة العملاقة عن يمين الخليفة، فدخلت رياحٌ ساخنة. وشعر الخليفة بالتعب والعطش، فقد نامَ فجر اليوم دون أن يتسحّر، وضاعفت قصصُ القدس من شعوره بالضّعف والمهانة، فخرج صامتًا والعيون تشيّعه.

وبعد ثلاث ساعاتٍ كان القاضي الهرويّ يدخل مسجدَ المنصور غرب بغداد. وتقدّم إلى صحن المسجد والنّاس يخرجون من الجامع. فأمسك كوزًا به ماءٌ وشربه، ثمّ ناول رفاقه خبزًا. فصرخَ رجلٌ ضخم العمامة يستعدّ لركوب فرسه:

- اتّقوا الله! لِمَ تفطرون في نهار رمضان أمام النّاس؟

وقف الهرويّ، واستند إلى حائط المسجد، وقال كأنّه يخطب:

- أتنكرون الشّربَ في نهار رمضان ولا تنكرون وقوعَ المسجد الأقصى في أيدي الفرنجة؟ ألم يأتكم نبأ إخوتكم من المسلمين وأهل ذمّتهم ممّن أُبيدوا وحصدوا بالسيف؟ ألم يأتكم حديثُ الأبكار المسلمات وهنّ بأيدي العلوج الغُلُف؟ ألم يأتكم أنّ الأقصى صارَ إصطبلًا للفرنجة؟

كان القاضي يتحدّث والنّاس يقتربون منه ويحيطون به في صحن المسجد. كانت عيونهم تتّسع مع كلّ خبرٍ يرويه، ومع كلّ صورةٍ يشرحها. وأشار الهرويّ إلى الرّجل الأسمر النّحيل:

- تعال يا زيد قل لهم خبرك!

وابتعد الهرويّ عن الحائط، فوقف زيد مكانه:

- لقد كنتُ أعظمَ تاجرٍ في القدس. جاء الفرنجة، وقتلوا كلَّ أهل القدس، ومنهم أولادي وبناتي ولم تبقَ منهم عينٌ تطرف ولا أذنٌ

تسمع! لقد أصبح معراجُ نبيّنا إصطبلًا للخيول، وكنيفًا للفرنجة الأقذار!

ورفعَ وجهه مغالبًا دموعه. وضجَّ المكان بكاءً ودعاء. وأعلن شبابٌ عن جاهزيّتهم للتطوّع والقتال.

وبعد سبعة أيّامٍ كان القاضي ورفاقُه يمشون على حافّة دجلة مرهقين قُبيل الغروب. تقدّم القاضي رفاقَه في أثوابه الرثّة وعمامته الضّخمة البيضاء. وشعر بتعبٍ بدنيٍّ وإرهاقٍ نفسيٍّ وخيبةٍ ماحقة. تلفّت فرأى جذعَ شجرةٍ على حافّة النهر، فجلس عليه متداعيًا.

وتحلّق أصحابُه حوله صامتين. ملأ عَينَيه من الوجوه المرهقة الخائبة المحيطة به. عمائم يظلّلها العجز، وعيونٌ أرهقها البكاء. لقد فشلوا في ملاقاة السّلطان بركيارق لانشغاله بحرب أخيه محمّد في الشّرق. فلا تهدأ الحرب بينهما تنافسًا على عرش أبيهما ملكشاه.

رفع القاضي بصرَه مُفكّرًا في السّلاطين المتصارعين، والخليفة العاجز، والعوامّ العاجزين المليئين صدقًا وتوقًا إلى الجهاد. رفع بصرَه، فتراءت له دورُ بغداد ساجيةً ساكنةً تحت أشعّة الغروب كأنّها أسيرٌ كسير. تنحنح:

- ماذا نفعل؟

ولم ينبس أيٌّ من الرّجال المتحلّقين حوله، أولئك الرّجال الّذين كانوا سادةَ مجتمعٍ وقادتَه قبل أسابيع. وسكت القاضي، ثمّ أعاد سؤالَه، فرفع التّاجر النّحيل رأسه:

- ماذا نفعل؟ لقد خذلونَا! إنّهم قارُّون في ديارهم ظانّين أنّ الأمر لن يصلهم. أمّا أولئك الأتراك فمشغولون بحرب بعضهم بعضًا... مثل أمراء الشّام الّذين ذُبحنا بين أيديهم وهم ينظرون. أمّا جنود المسلمين..

وخنقت الرّجلَ عَبرةٌ فسكت. وامتلأت رؤوس الرّجال المنصتين بالصور الّتي عايشوا طيلة اللّيالي الماضية في بغداد. ففي اللّيل تكتظّ بغداد بالجنود الترك السكارى الّذين لا يفهمون العربيّة يجوسون خلالَ شوارعها كالمجانين.

لمَحَ القاضي طيورًا تنساب في الفضاء جهةَ الشّام. رفع طرفَ لحافه، ومسحَ دمعةً في طرف عينه وهو يتذكّر أبياتًا لأحد الشّعراء أصبحت على كلّ لسانٍ في بغداد.

وشرُّ سلاحِ المرء دمعٌ يُفيضه — إذا الحربُ شبّتْ نارُها بالصوارمِ
فإِيهٍ -بني الإسلام!- إنّ وراءكمْ — وقائع يُلحِقن الذُّرى بالمناسم!
أنائمةٌ في ظلّ أمنٍ وغبطةٍ — وعيشٍ كنَوّار الخميلة ناعمِ
وكيف تنام العين ملء جفونها — على هبواتٍ أيقظت كلّ نائم
وإخوانكم بالشّام يضحى مقيلهم — ظهورَ المذاكي، أو بطون القشاعم
تسومهم الرّوم الهوانَ وأنتمُ — تجرُّون ذيلَ الخفض فعلَ المسالم
فكم من دماءٍ قد أبيحت ومن دُمًى — تُواري حياءً حسنَها بالمعاصم!

وقف القاضي وقد قرّر ما سيفعل. مشوا صامتين على ضفاف دجلة، بينما غابت الشّمس. امتلأت أنفوهم برائحة الماء والشّجر مع خليطٍ من بقايا السمك. وقرّر القاضي أنّ عليه المبيت في أحد خانات بغداد على أن يسافر فجرًا جهةَ دمشق. أيّام طوال وهو يهزّ بغداد ليتحرّك منها جيشٌ لإنقاذ المسلمين من أيدي متعصّبة الفرنجة ولا مجيب. وتجمَّدَ في مكانه وهو يرى جاريةً تعرك ملابسَها على حافّة النهر وتغنّي بصوتٍ شجيٍّ حزينٍ بنغمةٍ بغداديّةٍ حلوة:

أترضى صناديدُ الأعارب بالأذى — وتُغضي على ذلٍّ كماةُ الأعاجمِ
فليتهمُ إذْ لم يذودوا حميّةً — عن الدين ضنّوا غيرةً بالمحارم!

89

الطابران، 499 هـ.

هبّت رياحٌ باردةٌ بعد ليلةٍ خراسانيّةٍ شاتية. حرّكت الرّياحُ ستائرَ المنازل، ولعبتْ برؤوس الأشجار، وهطلت أمطارٌ غسلت أدران المدينة بعد ليلةٍ طويلةٍ من الحديث في المساجد والمدارس، ليلةٍ سهِر فيها طلّاب العلم على ضوء مصابيحهم وهم يتثاءبون مُتحدّثين عن مجموعةٍ من العلماء رفعوا شكوى للحاكم سنجر يتّهمون فيها الغزاليّ بالضّلال والزيغ والتحريف.

استيقظت الطابران باكرًا، ونبضتْ شوارعُها صباحًا بالعابرين، وازدحمت مخابزُها بالغلمان والجواري وكتاتيبُها بالصبيان ومساجدُها بالعمائم، وانفتحت أسوارها للمسافرين المنطلقين إلى أطراف خراسان.

كان الغزاليّ يجلس في مصلّاهُ منتظرًا ارتفاعَ الشّمس ليصلّي. ردّدَ عَينَيه في الرّجال الخمسين المحيطين به، جِبابٌ مرقّعة وعيونٌ دامعة وعمائم خاشعة وأصابع تتحرّك بذكر الله. كان لسانه كالًّا من الأذكار الّتي بدأها منذ صلاة الصبح، فشعر بنعاسٍ خفيف. أشار إلى مريده الأقرب منه فوقَف مُتفقّدًا شروقَ الشّمس، ثمّ عادَ مُشيرًا إلى أنّ وقتَ صلاة النافلة قد دخل.

ردَّ بصرَه في مَن حوله مُفكّرًا في أمرٍ شغله منذ أيّام. ها أنا منذ ثمانية أعوام -بتوفيق الله- على حالي الّتي رسمتُ لنفسي. لم أدخل على سلطان، ولم أناقش عالمًا، ولا ناظرت مناظرًا، ولا تولّيت منصبًا لحاكم. أمّا علماء الطابران فليفعلُوا ما أرادوا، فلن أردَّ عليهم ولن أنتصر لنفسي.

ورفع بصرَه في المسجد والخانقاه، فحمدَ الله على تأسيسه هذا البنيانَ الّذي أُقيمَ على التقوى من أوّل يوم. أنهى صلاةَ الضّحى، ثمّ انطلق عابرًا ساحةَ الخانقاه مُتّجهًا إلى بيته. لم يقرّر بعدُ هل يلبّي دعوة الأمير للحديث بشأن شكوى العلماء منه؟ فقد كان كلّما حسَمَ أمرَ الذهاب إليه غيّر رأيَه متردّدًا.

تجاوز شجرة السرو الباسقة، ولمَحَ القطّةَ البيضاء رابضةً عند جذعها، ثمّ قطّب مُفكّرًا. *لا مَحيدَ لي عن الذهاب إلى السلطان سنجر والوزير فخر الملك. فالواجب على المسلم الدّفاع عن عرضه. فما دمتُ أدعو المسلمين إلى هذه الطّريقة لإحياء علوم دينهم، والنّاس يتّهمونني وطريقتي فلِمَ لا أذهب وأذبّ عنها وعن عرضي أمام السّلطان؟*

دقّ الباب، ثمّ دفعَه عجلًا، ومشى في الدّهليز مُتّجهًا إلى غرفة كتبه، فسمع نشيجًا مكتومًا فتلفّت. لمحَ جاريته جالسةً مسندة رأسَها إلى الجدار تنوح، فوقَف منحنيًا:

- ما بالك؟

كشفت عن وجهها، وألقت خمارَها، ومدّت يدَيها مُشيرةً إلى آثار الضّرب على ذراعَيها وكتفيها، فمدّ يدَيه ولمسَ الجلد الأبيض المحمرّ من الضّرب، ثمّ قال عابسًا:

- من ضربك؟

- ثمّ تسأل من ضربني؟

قالتها، ثمّ أجهشت باكية. وسمع صوت خَلُوب آتيةً من غرفتها:

- كشفت لك عن جسدها؟ هذا ما تريدُه هي وما تريده أنت!

اقتربت خَلُوب متصنّعةً في مشيتها، وجفّ دمعُ سندس، بينما ظلّ هو واقفًا بينهما. مرّت لحظات صمتٍ ملأها صوتُ عائشة وفاطمة تقرآن القرآن في حجرةٍ قريبة. ثمّ تنهّد الغزاليّ:

- ما الخبر يا خلوب؟

- كنت أمس مع صويحباتي، فطلبت منها مناولتي أمرًا، فتظاهرت بعدم السماع. كرّرت عليها الأمرَ ثلاث مرّات، فلم تتحرّك. لقد بدأت تعصي أمري، وتسيء عشرتي، وما ذلك إلّا بسبب إهمالك تربيتَها، وإفسادك طبعَها..

تلفّت إلى الجارية:

- ما الأمر؟

تقلّص الدمع في عَينَيها، وازداد أنفها احمرارًا:

- عندمَا تكون بين جاراتها تتعمّدُ إيذائي، وتُكثر شَتمي، وتتفاخر عليهنّ بذلك. ولم أفعل أمس شيئًا يغضبها. كنت بعيدةً، ولم أسمع نداءها، فقامت إليَّ أمامَ النّساء، وضربتْني على رأسي. وقبل قليلٍ جاءت لتوقظني، فلمّا لم أستيقظ لسهري البارحة في تجهيز الطّعام ضربتني بذلك الحبل حتّى دَمِيَ جسدي!

ومدّت ذراعَيها البيضاوَين البضّتين حتّى ظهر صدرها الفتيّ النافر، فصرخت خلوب:

- اسكتي!

قطّب ولم ينبس، وردّدَ بصرَه فيهما، ومشى هادئًا وهو يزيل طيلسانَه عن منكبه، ودخل مكتبتَه مغلِقًا البابَ وراءه. عجيب *أمرُ هذا الإنسان. خَلُوب هذه كانت جاريةً ذليلةً في بيت. كانت تُهان وتُضرَب، وها هي تفعل الفعل عينَه بهذه المسكينة. لمِ تفعل ذلك؟ لعلّها تفعله لتصدّق أنّها غدتْ سيّدة. هل سبب ذلك خضوع الإنسان لسلطان الصور؟ فالصور الّتي في ذهنها لسيّدتها فيها الصّراخ والتكبّر وإيذاء الخدم. وهي تودّ أن تكون سيّدةً ولذا لا بدّ أن تعيش تلك الصور مهما كان الظلم الكامن فيها.*

أزاحَ جُبّتَه واستندَ إلى الجدار ناظرًا إلى كتبه المصفوفة. لمَ لا أعتق الجاريةَ بعدما أوذيتْ في بيتي وضُربت ظلمًا؟

نادى:

- خلوب!

وسمع حركة قدميها آتيةً مسرعة. فتحت البابَ، وجلست متهيّبة. نظر إليها، ثمّ أسند رأسَه إلى الجدار، وصمت. تسارعت دقّاتُ قلبها مفكّرةً في ما سيفعل، وجاءها صوته هادئًا، بتلك النبرة الحازمة الّتي تعرف:

- ألا تعرفين حرمةَ الظلم؟ لمَ تضربين هذه المسكينة؟ ألم تكوني من قبل ج..

وسكتَ بعدما تذكّر أنّ في الأمر إيذاءً لها، فصمت قليلًا، ثمّ واصل:

- ألم تكوني من قبل تحسنينَ إليها، فلمَ تؤذينها وتضربينها بالحبال؟ ألم تعلمي أنّ الصّلاةَ والعبيدَ هما آخر ما وصّى به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو على فراش الموت؟

- أبا حامد، أنا..

ولم يمهلها تكمل:

- تجلسين بين صويحباتك فينزغ فيك الشّيطان بالتطاول عليها لتثبتي لنفسك أنّك سيّدتها ومالكة أمرها. يقول لك الشّيطان: أنت زوجة الغزاليّ وأمّ أولاده، وسيّدة من سيّدات الطابران، وهذه فتاةٌ ملكك تفعلين بها ما تشائين؟

- لكنّها أصبحت عنيدة، ولا تنصت إليَّ أحيانًا. وكلّ هذا بسبب معاملتك لها. فلو أنّك لا تتكلّم معها ولا تلاطفها لكانت كجواري النّاس مقبلةً على شأنها تقوم عند أوّلِ نداء!

أبعد رأسَه عن الجدار، وفتحَ فيها عَينَيه، فبدتا لها أعمق من قبل. ولاحظت تلك السحابة الّتي تظلّل وجهَه عندما يغضب، ثمّ قال:

- قومي ودعيني!

وسمع انغلاق الباب وراءها بينما انتشرَ ريّا عطرٍ فوّاحٍ في الغرفة. اقتربَ من كتبه، وأخرج ورقةً، وأخذ دواتَه وقلمَه وهو غارق في التّفكير.

كيف يأتي الأميرُ والوزيرُ يومَ القيامة ويُلقى بهما إلى النار لأنّهما عجزا عن العدل في مدنٍ كانوا يحكمونها. ويأتي محمّد الغزاليّ ويُلقى في النار ولم يكن مسؤولًا إلّا عن امرأتين؟

فتحَ الورقة وكتب:

وبعد، فليعلم النّاظر فيه أنّي أعتقت جاريتي سندسًا وتحمّلت لها عشرينَ دينارًا أدفعها لها في الميسرة، وكتب محمد الغزاليّ يوم..».

ورفع القلم عاجزًا عن تذكّر تاريخ اليوم. أيّ يوم هذا وأيّ شهر هو؟ وأنكر نفسَه وهو يُفيق على أنّه لم يفكّر منذ عاد إلى الطابران في انقضاء الأيّام ونهايات الشّهور وانصرام الأعوام!

كيف أصبحتَ لا تتذكّر الشهور وأنت الّذي كنتَ تحسب الساعاتِ والأيّامَ ترقّبًا لجوائز الأمراء وجرايات المدارس؟ كأنّك ما كنتَ تعيش زمانك، بل تعيش زمان الناس! كانت أيّامك مكتظّة بالتواريخ وتواتر الأحداث، فغدَتْ زمانًا أبديًّا بطيئًا واحدًا للنّجاة. لا تشعر بارتفاع النّهار إذا كنتَ غارقًا في صلاتك، ولا أنت تنتبه لطلوع نجمة الصّبح إذا كنتَ غارقًا في ذاتك.. فما الّذي يعنيك من نهاية شهرٍ وانقضاء عام غير الإقبال على الله والتمسّك بحبل نجاتك؟

وأفاق من تأمّلاته على اقتراب موعد الدّرس في الخانقاه وهو يُتمتم:

عجبتُ لسعي الدهر بيني وبينها   فلمّا انقضى ما بيننا سكن الدّهرُ!

ثمّ لفّ الورقة دون أن يكتب فيها تاريخًا ونادى:

-خلوب! سندس!

وبعد لحظاتٍ كانتَا في غرفته. تربّع ولمس جبهته:

- لقد أعتقتك يا سندس!

دوّى صوت خلوب:

- وستتزوّجها؟

تحرّكت حدقتَا أبي حامد بينهما، فلاحظ تورّدَ خَدَّي سندس وسعادتَها الغامرة، ورأى القلقَ في عيني خَلُوب فقال:

- قلت إنّي أعتقتها لوجه الله تعالى تذهب حيث تشاء، أو تبقى معنَا معزّزةً مكرّمةً لا سلطانَ لأحدٍ عليها.

ثمّ التفت إلى سندس:

- هذا بيتك، تقيمين فيه ما تشائين.. ولك عليَّ أموالٌ أسدّدها أوّلَ ما تتيسّر أموري.

وقف، وسارَ مع الدّهليز حتّى خرج من باب المنزل. تجاوز شجرة السرو المتربّعة وسط ساحة الخانقاه، بينما كانت القطّة البيضاء تتبعه. نظر إليه الدراويش ونظروا إلى القطّة، وتذكّروا ما قال أحدهم أمس من أنّ هذه القطّة قد تكون مَلَكا. فهي تعرف متى يخرج من منزله، وتقف على حافّة الحائط تتعرّض له، وتعرف وقتَ الدرس كلّه ولا تنصرف حتّى ينتهي الدرس.

تسابقَ الدراويش إلى المجلس وسط الخانقاه. وأخذُوا أماكنَهم استعدادًا للدرس. فجلسَ في طرف المجلس مُتأمّلًا الوجوهَ المتجمّعة في زواياه. ألقى بصرَه مع النّافذة حارزًا الوقت. ففي تمام الساعة الثانية بعد الشّروق عليه الذهاب إلى مجلس سنجر.

لمحَ تلميذَه العاملَ مع حاكم الطابران، فتفرّس في عَينَيه خبرًا يودّ الإخبار به، ففاتحه:

- إيه يا عبد الرحمن... ماذا عندك؟

تلعثم عبد الرحمن من وقع تنبّؤات الغزاليّ عليه:

- لقد ورد البارحة البريدُ بشغبٍ بين الحنابلة والشّيعة في بغداد. فمنذ وفاة السّلطان بركيارق والفتنة تقع كلّ أسبوع.

مسحَ الغزاليّ طرفَ لحيتِه وهو يشمُّ روائحَ مختلفةً آتيةً من طرف المجلس. بعضُها رائحة الملابس القذرة، وبعضُها لبقايا عطرٍ قديم، وبعضها رائحة الحبر. تناسَى الرّوائحَ مُتذكّرًا ما حكاه له أحدُ وجهاء الطابران من أنّ الأمنَ سادَ في بغداد منذ اتّفاق بركيارق وإخوته على تقاسم السّلطة قبل عام. *فلمَ عاد الشّغب الآن بعد وفاته؟* وسرح مُتسائلًا *لم تشتدّ العداوة بين المتماثلين؟ فإذا كان كلٌّ من الشّيعة والحنابلة ينشد الله والدّار الآخرة فلم التخاصم والتدابر؟* وتذكّر أنّ العداوة تحتدُّ بسبب القرب؛ *فالمحّبان إذا اختلفَا يصلان إلى نهايات العداوة، والجيران والإخوة أشدّ النّاس بعضهم على بعضٍ إذا وقعت بينهما العداوة.*

وسكت مُفكّرًا في شدّة علماء الطابران عليه وشكواهم منه، وتنحنح:

- الحمد لله الّذي خلقَ السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثمّ الّذين كفروا بربّهم يعدلون!

وما إن استرسل في بداية درسه حتّى سمع صوتًا يقترب من الباب. وأطلّ درويشٌ محمرّ الوجنتَين:

- دانشمند! رسول الأمير بالباب!

وانفضَّ المجلس، وخرجَ الغزاليّ في مرقّعته شاقًّا الخانقاه عازمًا على الذهاب للدفاع عن نفسه وكتبه. ووجد ثلاثةَ بغالٍ عندَ الباب الشّرقيّ المحاذي للمسجد تنتظره. تأمّل البغال ذات السروج المطرّزة والجنود الثلاثة الواقفين قربها. ركبَ هو وأحدُ طلاّبه المقرّبين، ومشت البغالُ مع شوارع الطابران،

بينما كانت الأعينُ المتطفّلةُ تنظر إليه من ثقوب الجدران ومن زوايَا الشّوارع.
كان متربّعًا على بغلةٍ قصيرةٍ ينظر بين أذنَيها معاتبًا نفسه. *هل رفضتُ الخضوع لكبار السّلاطين كي أخضع لصغارهم. كيف أهرب من قصور بغداد وأذهب إلى قصور خراسان؟* وخطرَ له أن يطلب من الجنديّ الاستدارةَ والرجوعَ إلى الخانقاه. *كيف أضمن قلبي إذا وقفتُ بين العلماء ووجوه النّاس والأمراء؟ ومن يضمن لي ألّا يستيقظَ تنّينُ النفس بين جنبيَّ فأسعى للانتصار حتّى بالكذب وخداع النفس، والمقدّمات المنطقيّة، أو السفسطات؟*

كان صامتًا مُنصتًا لوقع حوافر البغال، وتلميذُه يلاحظُ إطلالات النّاس من الدور متطلّعين.

وانطلقت الألسنةُ والعيون في الطابران راصدةً الصّورة. ها هو أبو حامد يخرج من الخانقاه أوّلَ مرّةٍ قاصدًا الأمير سنجر، ووزيره فخر الملك بن نِظام المُلْك.

وخطرت للغزاليّ فكرة، فقال بنبرةٍ حازمة:

- لِنعدْ إلى الخانقاه!

وقفَ الجنديّ مكفهرًّا استفسارًا. *كيف يطلب هذا الدّرويش العودةَ والأمير ينتظره؟* ولمْ يستوعب، فقال مرتبكًا:

- ماذا تقول أيّها الشّيخ؟

- أعدني إلى داري، فلستُ ذاهبًا معكم!

استدارَ الجنديُّ ورهبةُ المفاجأة تظلّله. عادت البغال الأميريّة مع الشّارع تتهادَى قاصدةً الخانقاه.

وبعد دقائق كان الغزاليّ ينزل ويدخل منشرحَ الصّدر بَاسِمَ الثغر. تجاوز شجرة السرو مردّدًا وجهَه في عيون مريديه. أحسّ بعودته إلى ذاته، ورجوعه إلى وكره، وانسجامه مع روحه، شاعِرًا بالحاجة إلى احتضان

دراويشه، وخانقاهه. ولمحَ القطّة رابضةً بمكانها تكاد عيناها تطفحان بالكلام والمشاعر. وامتلأ سمعُه بصوت درويشٍ يقرأ القرآن برقّة.

وفي مساء ذلك اليوم جاء درويشٌ يركض لإشعار الإمام بوصول الوزير، وكان الوزير فخر الملك يدخل باب الخانقاه يحفُّه الحرّاس. وبعد ثوانٍ كانَا جالسيْن وحدهما في المجلس المستطيل المفروش بالحُصُر، وهما يتحدّثان بصوتٍ خفيض. تأمّل الوزير الحُصُرَ والكتبَ المصفوفةَ في زاوية المجلس، والتقشّفَ الّذي يُطرِّزُ المكان. سرحَ ذهنُه مستعيدًا آخر مرّةٍ رأى فيها الغزاليّ بداره الفاخرة في بغداد. ثمّ تأمّل ملابسَه، فخطر له أنّ هذه هي المرقّعة ذاتها الّتي رآه فيها قبل سنواتٍ عندما زاره هنا.

أمّا الغزاليّ فاستعاد لقاءَ فخرِ الملك أوّل مرّةٍ في أصفهان، يومَ قابلَه في قصر والده نِظام المُلْك، حين جاء بكتاب الإسماعيليّة ليسلّمه إلى الوزير. وتذكّر بحسرةٍ مشاعرَه يومَها وهو يتودّد إلى نِظام المُلْك كأنّه ربّه. *ماذا كان سيحيق بي لو متُّ على تلك الحالة من العبوديّة للبشر؟*

تفقّدَ الوزيرُ يدَه اليسرى ليتأكّد مرّةً ثانية من خلعه خاتمَ الذهب حتّى لا يراه الغزاليّ. ثمّ تنحنح، وقال:

- لا جديد في حضرة السّلطان محمّد أو أخيه سنجر. والأمر الشّاغل للسلطان الآن هو أمر قلعة شاه دز. فما زالَ الباطنيّ ابن عطاش متمترسًا فيها، يخيف الطرق ويخطف النّاس.

قال الغزاليّ بتطلّع:

- وماذا فعلتم؟

- السّلطان عازمٌ على استئصالهم.. لكنّكم تعرفون صعوبةَ اقتحام القلعة. فهي في السّماء ولا تُدخَل أبدًا إلّا بحيلة. هي مثل قلعة آلموت حيث الملحد حسن الصبّاح.

- صحيح. أذكر أنّ ابن عطاش دخلَها بعد أن غرّر بالتركيّ الّذي كان فيها، وسقَاه هو وجنوده الثلاثين خمرًا، ثمّ دلّى الحبالَ لرجاله وصعدوا، فذبحوا الجنود الثلاثين.

وتحرّك الوزير في مكانه حتّى فاحَ العطر من أردانه، وقال مغيّرًا الموضوع:

- دانشمند! لمَ لمْ تأتِ إلى مجلس الأمير ليسمع منكَ ويسمعَ العلماء؟

تنفّس الغزاليّ:

- هذا باب..

وصمتَ مديرًا بصره في سقف المجلس، وواصل:

- هذا بابٌ كنّا أغلقناه كما تعلم. فها هي السنوات تتقضّى وما دخلتُ على سلطان، ولا أراني ناقضًا ما عزمتُ عليه.

- لكن هذا ليس نقضًا لعزمك، وليس دخولًا على السّلاطين لطلب حاجة، بل لتبيان الحقّ والذبّ عن العرض. فالعلماء ينشرون في أصقاع الدّنيا أنّكَ خرجتَ على الأشعريّ في العقيدة، وعلى الشّافعيّ في الفقه.

أدخل الغزاليّ يديه في كمّيه، وضمّهما عليه، وقال:

- إنّ الداخل على السّلطان لا يعدم مجاملةً له. حتّى السّلام عليه والاطمئنان عليه قد يدخل في باب الحرام.

لم ينبس فخر الملك، وصمت الغزاليّ. ودخلت رياحٌ باردةٌ من حوافّ النّوافذ، ووصلت أصواتُ الدراويش بالذّكر في زوايا الخانقاه. وبعد صمتٍ قال الوزير:

- وماذا ستفعل مع تسلّط علماء خراسان عليك، وسَعْي علماء المغرب والمشرق في تشويه كتبك ودينك. فكتبُكَ تُحرَق في المغرب والأندلس،

وعلماء بغداد ونيسابور ينقدونها ليل نهار. فماذا أنت فاعل؟

مسحَ الغزاليّ مكان الشجّة على جبهته، وقبل أن يفتح فاه دخلَ درويشٌ يحملُ صينيّةً عليها ماءٌ ومكسّراتٌ ولبن. وضعَها بين يديهما وخرج. وما كادت جبّته تتوارى وراء الباب حتّى قال الغزاليّ:

- لا غرابةَ في الأمر. فهذه الكتب تكشف انشغالَهم بالدّنيا، وأكلَهم لها بالدين، وتُبِينُ عُوارَ انشغالهم بالألفاظ دون المعاني، وغرقهم في بحور جزئيّات الفقه دون كلّيّات الشّريعة. فهم يدافعون عن دكاكينهم الّتي منها يأكلون، وعن مزارعهم الّتي عليها يعيشون. وما أنا بمناقشٍ إيّاهم ولا بمنشغلٍ بأمرهم، عفا الله عنّي وعنهم.

عدّل الوزير عمامته على هامته، وقال بعد تردّد:

- دانشمند! لكنّ هؤلاء العلماء إنّما ينشغلون بالفقه الّذي هو عماد معاش النّاس، وقوام دينهم!

قاطعه وقد احمرّت وجنتاه:

- أتظنّ انشغالهم بالفقه حبًّا للناس؟ إنّهم ينشغلون به لأنّه مُدرٌّ للمال، وجالبٌ لتولّي مالِ يتيم ومنصبِ سلطان. كيف تكون المدينة العامرةُ من مدن المسلمين ليس فيها إلّا طبيبٌ واحد، ويكون نصرانيًّا؟ أليس طلب الفقه واجبًا كفائيًّا مثل طلب الطبّ؟ لمَ يتركه النّاس وينشغلون بتفريعات الفقه الّتي ينقضي العمرُ دون الحاجة إليها؟ إنّما يفعلون ذلك للمال والجاه!

ورفع الوزير حاجبه:

- طيب، أيّها الشّيخ. لكنّ هذه الحال لن يصلحها إلّا أمثالكم، ولن تصلحوها بهذه العزلة. وكما قلت لك مرارًا في رسائلي «لا تترك أنفاسَك عقيمة». فلا بدّ من السّفر إلى نظاميّة نَيسابور حتّى تشرف

على الطلّاب، وتكشف لهم هذا الطّريق الّذي انتخبتَ لعلَّ اللهَ يتدارك هذا الدين. أمّا العزلة والاكتفاء بالخانقاه وقلّة الطلّاب فأراه تقصيرًا..

كان الغزاليّ يفكّر في تنفيذ طلب الوزير بالذهاب إلى نَيسابور منذ أشهر. لكنّه يودُّ أخذَ بعض التعهّدات منه. فقد خطر له مرارًا أنّ الذهاب إلى هناك هو الطّريق الوحيد لإصلاح علوم الدين. إذ يمكنه تعليم صغار الطلبة علومَ الآخرة بدلًا من علوم الدّنيا، وزرع ما يمكنه زرعه في نفوسهم من السّير إلى الله بدلًا من الاستدلال عليه وهم في بدايات العمر.

أرخَى طيلسانه، وقال:

- أمّا الذهاب إلى نَيسابور فبقيتْ لي فيه استخاراتٌ واستشارات، ثمّ أشعرك في رسالةٍ بشأنه بحول الله. ولكنّه إن وقع فلن أخرج من المدرسة إلّا إلى الخانقاه، ولن أسلّم على السّلطان إذا جاء ولا على الوزير إن دخل. فهذه أمورٌ يجب الاتّفاق على إعفائي منها.

وانطلقت حنجرةٌ الوزير مفاجأة:

- لا شكّ، لا شكّ! يكون ما يريد الأستاذ!

وصمتَ الوزير مفاجأةً من لين الغزاليّ للسفر إلى نيسابور والعودة إلى نظاميّتها. وانشغل ذهنُه بتخيّل لحظةِ إخبار سنجر بإقناع الغزاليّ.

وبعد ساعةٍ كان الوزير يخرج من باب الخانقاه تشيّعه عيونُ الدراويش، وكان أقربهم إليه ذلك الدّرويش الأفحج ذو الظهر القصير.

وفي فجر اليوم التالي كان ذاك الأفحج يطلق من الجانب الشّماليّ من الطابران حمامةً مطوّقةً تحمل وُريْقةً فيها خبر تحرّك الجيش إلى قلعة شاه دز، وإمكانيّة سفر الغزاليّ إلى نيسابور.

90

ضواحي نيسابور، صيف، 499 هـ.

تتمايل البَغلَةُ وفوقها الجاريةُ رهقًا، ووراءهما ميرزا يخالف بين قدميه تعبًا. شهرٌ كامل قضاه في السّفر بين أصفهان ونيسابور. لكنّه كان سفرًا في أطهار روحه شهورًا وأعوامًا. لقد سمع من القافلة الّتي كان يسير معها في الأيام الماضية قصصًا كثيرة وهائلة عمّا حلَّ بالقدس على أيدي الفرنجة. كانت آخر قصة سمعها قُبيل انفصاله عن القافلة قصة قتل الشّيخ الرميلي. فقد روى له الرّجل الأبيض الأدرد كيف أخذ الفرنجة الشّيخ الرميلي وأتوا به بعدما علموا أنّه من كبار العلماء وعرضوه للبيع حتّى لا يُقتل. وقفوا به عند ساحة البرثون وعرضوا فداءه بخمسين دينارًا، لكنّ الوجوه الواجمة الّتي نُهبت ثرواتها لم تستطع فكاكه. فنصبه الفرنجة هدفًا وقتلوه بالحجارة وهو يتّقيها بيده حتّى سقط يتشخّط في دمائه يكرّر «لا إله إلا الله».

فارق ميرزا القافلةَ وهو يسوق بغلته. كان يبحث عن الخان لكنّ ذهنه كان مشوشًا وثقيلًا. فقد استيقظت في نفسه نوازع إنسانيّة حادّة شابّة. تناوشته العواطف الدينيّة، والنوازع الآدميّة الخيّرة والشّرّيرة لتتصارع بين جوانحه الممزقة. *كلّ هذا البلاء الذي أصاب القدس بسبب حرمان آل محمد من حقوقهم، وبسبب قتل الحسين في كربلاء!*

ساروا في طريقهم إلى خانٍ يبيتون فيه ليلتهم، على أن يبكروا فجرًا ليدخلوا نيسابور. كان يفكر في ما ينتظره في نيسابور، *ماذا سيفعل؟ ولماذا*

أتى به التنظيم إلى هذه المدينة؟ وطرد الأفكار من ذهنه متذكّرًا أنّ المشرفين على التنظيم أدرى، وعليه ألّا يفكر في ذلك.

اقترب من باب الخان فتذكّر شوارع بغداد. كادت نفسه تذهب حسرات وهو يتذكّر أصدقاءه فيها. انتابه شوق إلى المنقضي من عمره؛ *فأين ذهب فائت الأيام في بغداد؟ أين تلك اللّيالي الشّجيات؟ وماذا حصل لتلك الابتسامات وقت الغسق، والعيون النجل الحيِيّاتِ، والمساءات المعتمة في حنايا سواقي دجلة؟* عادت إليه نفسه فعاتبها مرّة ثانية. *لمِ هذا التعلّق الحارق ببغداد؟ أليست مدينة يزيديّة فاسقة يحكمها أعداء آل البيت؟*

ثمّ إنّي لست من أهلها، وعليّ الاشتياق إلى مدن خراسان التي فيها نشأت. فما يشتاق الإنسان إلّا إلى الحواري الّتي فيها نشأ، وعلى حصاها درج، وفي شوارعها ضحك صغيرًا. إنّ الولاء للأزقّة الّتي كانت فيها الضّحكات الأولى، وارتفع فيها البكاء الأوّل، وتعلّم فيها مزالق الصّداقات والعداوات، وعقِل فيها جسمَ المرأة، وعرف فيها رائحة العطر.

إنّما الولاء للشوارع الّتي أظلّتني فيها السحب أوّل مرّة، وداعبني فيها البدر بسّامًا، وأجنني فيها اللّيل معتمًا، وعرفت فيها الأحلام، وتعلّمت فيها كلمات الحبّ والبغض والولاء والكذب والوفاء والغدر والعفو والحقد.. تلك المعاني الرّاسخة الّتي تقف عليها الحياة، وفيها أبواي اللّذان حمياني ورعياني وعلّماني!

وأفاق على البغلة تقف أمام الخان. نزل ميرزا مرهقًا لا يكاد يبصر أين يضع قدمه. دفع الباب فلمح قيّم الخان جالِسًا مُسنِدًا رأسه إلى الحائط يتثاءب.

- السّلام عليكم.

- وعليكم السّلام!

قالها القيّمُ والنَّومُ واضحٌ في صَوْتِهِ الدّافئ وأرْدَفَ:

- وحدك؟

- لا، معي جاريتي!

- الغرفة الخامسة، فوق.

سلّمه المفتاح، وعاد ميرزا إلى الخارج. فربط البَغلَةَ وأمسك بيد ظلوم وحملا متاعيْهما ودخلا. مرّا من أمام قيّم الخان، وصعدا السلّم بينما كان ذهن ميرزا منصرفًا إلى تخيّل حياته في نيسابور.

هل سيُوفّق في المهمّات الّتي ستُوكل إليه؟ وأدخل المفتاح في باب الغرفة ودخلا.

لفحته رائحة العود الهنديّ المشوبة بانكتام المكان. وضع الجرابَ طالبًا من ظلوم فتح النّوافذ قليلًا. وسمعا طرقًا على الباب، وامتدّت يد قيّم الخان من الباب بقنديل. أخذه ميرزا فاتّضحت زوايا الغرفة. حجرة مربعة فيها مساندُ وسريرٌ مُغطّى بفراش أحمر. وأغلقت ظلوم النّافذة حتّى لا ينطفئ القنديل.

استلقيا على السّرير استعدادًا للنوم، لكنّهما سمعا طرقًا مُفزعًا على الباب. جلس ميرزا فزعًا مُفكّرًا في كلّ شيء. *هل عرفني أحد مّا؟ هل هناك جاسوس وشى بي؟ هل آنت لحظة أخذي وتقطيع جسمي بحكم الحرابة؟ هل ستُقطع يداي ورجلاي من خلاف؟* وازداد القرع على الباب فازداد فزعًا. وقف مرتجفًا ومشى أربع خطوات ومدّ يدًا مرتعشة إلى الباب.

ظهرت هامتان من وراء الباب. رجلان بملابس غير ملابس الجند، فقال ميرزا محاولًا إخفاء نبرة الخوف:

- خيرًا؟

تنحنح أطولهما مُميلًا رأسه:

- كلّ الخير.. نحن أهل الحسبة! وقد أُخبِرنا أنّ معك امرأة. فهل المرأة الّتي معك تحلّ لك؟

شعر بانزياح جبل عن هامته، فحاول تغيير نبرته:

- نعم، إنّها جاريتي!

وتقدّم الرّجل الآخر من وراء زميله مقتربًا من الباب:

- وما يدرينا؟ فكلّ شُطَّار القرية يأتون بالجواري الغريبات عنهم إلى الخان كأنّهم أشهدوا على نكاحهنّ أهل بدر!

واستظرف ميرزا لهجة الرّجل وهو ما زال تحت سعادة انزياح الخوف فقال:

- هذه جاريتي وقد أشهدتُ على ملكي لها أهل بدر وأحد وخيبر... أيّ دليل تبغي منّي؟ هيّا دعنا نَنَمْ، ثمّ إنّي غَريبٌ وبَغْلَتي بالباب. ألم تسأل القيّم؟

قال الرّجل مغيّرًا نبرته:

- هل تقسم على ذلك؟

- لا، لن أقسم على شيء. قلت لك إنّ بغلتي على الباب وغريب!

وغمز الرّجل صاحبه وهو يقول:

- العفو منكم... ما كنّا نحسبكم مسافرين. تفضّلوا معنا للعشاء!

دفع الباب قليلًا ليواربه وهو يقول:

- جُزيتم خيرًا...

وابتعدا نازلين ونعالهما تقرع السلّم الحجريّ. صكَّ ميرزا البابَ وهو ما زال يجد آثار الخوف في ركبتيه المرهقتين، واستلقى قرب ظلوم مُفكّرًا في دخوله الباكر غدًا إلى نيسابور. *ماذا ينتظره في هذه المدينة التي لم يَرَ قطّ؟* كلّ ما يعرفه أنّ المسؤول عنه في التنظيم الإسماعيليّ طلب منه التوجّه إليها

فورًا.. ولم يمنعه من اصطحاب جاريته معه.

ثمّ أفاق على جارتيه تسأله:

- ما بالك سيّدي؟

91

نيسابور، صيف، 499 هـ.

دندن الرعد، وبدأ الرذاذ يسّاقط داخل خانقاه النّظاميّة بنيسابور. ركض ميرزا ونزع مرقّعته من فوق حبل الغسيل وعاد إلى الحُجْرَةِ المطلَّةِ على غرفة الطّعام ورفع يديه وقال للدراويش الثلاثة الجالسين:

- قلت لكم إنّي أعرفه كما أعرف أصابعي هذه!

ورفع يده في الهواء مباعدًا بين أصابعه الخشنة.

قال له الدّرويش الكثّ الشّعر:

- جيّد! لعلّك تسأله عن حكم أكْلِكَ طعامي البارحة!

كان كلّ من في الخانقاه في حالة من الترقّب لدخول الغزاليّ عليهم في أيّ لحظة. فقد علمتْ نَيسابور كلّها بوصوله أمس رفقة كوكبة من تلاميذه، وأنّه سيجلس في خانقاه النّظاميّة كلّ يوم بعد العصر.

أخذ ميرزا جبّته ووضعها على المشجب في طرف الحجرة وهو يقول لرفاقه:

- لكنّي عرفته أيّام الجاهليّة. جاهليّتي وجاهليّته!

وتثاءب الدّرويش ذو القلنسوة البيضاء الجالس عن يمين ميرزا مستثقلًا حديثه المعاد وقال:

- على كلّ حال... ما نعرفه أنّك ما زلت في الجاهليّة.

مال ميرزا على الوسادة باسمًا وأمسكها ونفضها وأسندها إلى الجدار:

- أمّا هذه فصدقت فيها أيّها الشّيخ.

وسُمعت أصوات قرب الباب، فاشرأبّت العيون مترقبّة، فدخل زهير السقّاء. لكنّ العيون ما كادت تعود حتّى دخل درويش مسرعًا، وظهر وراءه الغزاليّ يسير هادئًا. وسرت غمغمات في كلّ ركن، وانطلقت تمتمات في كلّ زاوية. وجاء قيّم الخانقاه مُسرعًا:

- أهلًا وسهلًا دانشمند... لقد حلّت بنا البركات... مكانكم هناك.

قالها مُشيرًا إلى غرفة الذّكر الواسعة وسط الخانقاه.

جلس الغزاليّ متلفّتًا سابرًا الوجوه مسلّمًا. وما كاد يجلس ويتعرّف على الوجوه حتّى ظهر ميرزا قادمًا من الباب.

- السّلام على الشّيخ!

وقف الغزاليّ باسمًا:

- وعليكم السّلام... أنت هنا؟

قبّل رأس الغزاليّ، وجلس عن يساره، وتحدّثا حديثًا خاصًّا خافتًا. وانتظر قيّم الخان حتّى سكتا، فتنحنح:

- أحبّاء الله! هذا حجّة الإسلام أعلن في نَيسابور أنّه لن يتحدّث إلّا في مدرسته أو بينكم. وهذا بابٌ من الخير عظيم، وعلينا ألّا نضيّع نفسًا من أنفاسنا ما دام الشّيخ بين ظهرانينا. والآن سيتحدّث الشّيخ ليذكّرنا بالله وبالطّريق..

وسكت قيّم الخان، وتبسّم الغزاليّ وهو يذكر الله في سرّه مستعيذًا من العجب والرياء:

- الحمد لله الّذي يعلم الغيب ويعلم ما في الأرحام، والصّلاة والسّلام على محمّد سيّد الأنام رسول الإسلام...

ما كاد يسترسل في حديثه حتّى تذكّر ما عزم عليه البارحة وحيدًا في مُصلّاه فقال:

- وما أنا بواعظٍ ولا متحدّثٍ عمّا أراه. بل الرأي أن تسألوا عمّا يشغلكم ثمّ نتحدّث فيه. وسكت، فارتفعت يدُ درويش كان مُسنِدًا رأسه إلى الجدار:

- دانشمند! لم أفهمْ أمرًا ولم أستسغه. لمَ يسعى الإنسان للجاه؟ فما هو بمالٍ ينفقه، ولا كساءٍ يلبسه، ولا طعامٍ يأكله، بل إنّه وهْمٌ محض. فلمَ يسعد بمدح النّاس له وتعظيمهم إيّاه وهو لا يعرفهم ولا يعرف أنّهم عظّموه؟ فما الّذي سيصلني هنا في نَيسابور إذا كان أهل الصين يلهجون بذكري ومدحي؟ ومع ذلك فإنّا نجد أنفسنا مولعين ببعد الصيت وانتشار الذّكر. ما السبب الخفيّ؟

كان الغزاليّ يهَشُّ للأسئلة الغائصة في تلافيف النفوس البشريّة والتأمّل في أعماق الأرواح. أزاحَ طيلسانَه عن مقدّمة جبهته الواسعة، وحرّك جفنَيه حتّى بدا الكسلُ في عينه اليسرى واضحًا:

- نعم، يحبّ الإنسان اتّساعَ الجاه وانتشارَ الصيت إلى أقاصي البلاد الّتي يعلم قطعًا أنّه لا يَطَؤُهَا ولن يشاهد أصحابَها ليعظّموه أو ليبرُّوه بمالٍ أو ليُعينوه على غرضٍ من أغراضه. ومع يأسه من ذلك فإنّه يلتذّ بذلك الصيت غاية الالتذاذ، وحبّ هذا الأمر ثابتٌ في الطبع، وهذا من رعونات النفس. فهذا حبٌّ لما لا فائدة فيه لا في الدّنيا ولا في الآخرة.

وتوقّف مُجيلًا بصرَه في الدراويش المنصتين، واستقرّت عينه على ميرزا، فلاحظ تغيّرَ سمته بعده قليلًا، ثمّ أعاد نظره إلى السائل:

- شوف، أيّدك الله! إنّ حبَّ الجاه هذا لا تنفكّ عنه القلوب وله سببان. أحدهما جليٌّ يدركه الجميع، والآخر خفيٌّ وهو أعظم السببين وأدقّهما وأبعدهما عن أفهام الأذكياء. وذلك لاستمداده من

عِرقٍ خفيٍّ في النفس، وطبيعةٍ مستكنّةٍ في الطبع لا يكاد يقف عليها إلّا الغوّاصون.

ولاحظ جثوَّ الدّرويش على ركبتَيه منصتًا بكلّ حواسه، فواصل مُبتسِمًا:

- أمّا السبب الأوّل في تعلّق الآدميّ بالجاه وانتشار الذّكر فهو لدفع ألم الخوف، لأنّ الشّفيق مولعٌ بسوء الظنّ. والإنسان وإنْ كان مستغنيًا في الحال فإنّه طويل الأمل، ويخطر بباله أنّ المالَ الّذي فيه كفايته ربّما يتلف فيحتاج إلى غيره. فإذا خطر ذلك بباله هاجَ الخوف من قلبه، ولا يدفع ألمَ الخوف إلّا الأمنُ الحاصل بوجود مالٍ آخر يفزع إليه إنْ أصابت هذا المال جائحة، وهكذا. ومثل هذه العلّة تَطّرِدُ في حبّه للمنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده. فإنّه لا يخلو عن تقدير سببٍ يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ويحتاج إلى الاستعانة بهم. ومهما كان ذلك ممكنًا ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلًا كان للنفس فرحٌ ولذّةٌ بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الأمن من الخوف والأذى.

وسكتَ قليلًا مُلاحظًا هطولَ المطر، وامتلأ منخراه برائحة الأرض المبتلّة والأزهار النيسابوريّة:

- أمّا السبب الثاني -وهو الأقوى- فهو أنّ في الإنسان قَبَسًا من التألُّه. فقد قال الله تعالى عن الروح: «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي!». ففي الإنسان بعضُ صفات الربوبيّة كالكبر والعزّ والتجبّر وطلب الاستعلاء. وفيه صفاتٌ بهيميّة كالأكل والنكاح، وصفاتٌ سبعيّة كالقتل والضّرب والإيذاء، وصفاتٌ شيطانيّة كالمكر والخديعة والإغواء. وذلك لأنّ الإنسان مركّبٌ من أصولٍ مختلفة

يطول شرحها وتفصيلُها. فالإنسان -لما فيه من الأمر الربانيّ- يحبّ الربوبيّةَ بالطبع. ومعنى الربوبيّة التوحّدُ بالكمال، والتفرّد بالوجود على سبيل الاستقلال. وعندما صارَ الكمالُ من صفات الإلهيّة صارَ محبوبًا بالطبع للإنسان. ويحبّ الإنسان الكمالَ بالتفرّد بالوجود، فإنّ المشاركة في الوجود نقصٌ لا محالة. فكمال الشّمس في أنّها موجودةٌ وحدها، فلو كانت معها شمسٌ أخرى لكان ذلك نقصًا في حقّها إذ لم تكن منفردةً بكمال معنى الشّمسيّة. ولذا يحبّ الإنسان التفرّد في الأمر الّذي يمارسه. فإذا كان أستاذًا تمنّى الانفرادَ بصفة الأستاذيّة، وإذا كان سلطانًا تمنّى الانفراد عن النّاس بمعنى السّلطانيّة وهكذا.

ودخل درويش إلى الحجرة يغنّي فأنصت الغزاليّ، وشعر الدّرويش بالخجل وجلس قرب الباب فواصل الغزاليّ:

- ولذا، فالنفس بطبعها تنفر من العبوديّة وتشتهي الربوبيّة. ولذلك قال بعض العارفين: «ما من نفس إلّا وهي مُضْمِرةٌ ما أظهر فرعون من قوله: «أنا ربّكم الأعلى». ولكنَّ فرعونَ وجدَ له مجالًا وقبولًا فأظهره، وما من أحد إلّا وهو يدّعي الربوبيّة مع عبده وخادمه وأتباعه، وكلّ من هو تحت قهره وطاعته، وإن لم يُصرّح بذلك.

وشخصت في ذهنه صورٌ كثيرةٌ من تجاربه في الحياة، وبرزت خَلُوب وصراعُها مع جاريتها وضربُها إيّاها فقال:

- فإنَّ غيظه وغضبَه عند تقصيرهم في خدمته ليس يصدر إلّا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبيّة في رداء الكبرياء، فهذا هذا.

وسكت قليلًا، فصرخ الدّرويش الّذي دخل قبل قليل:

وقالوا قد جُننتَ فقلتُ كلّا   وربّي! ما جننتُ ولا انتشيتُ!

ولكنّي ظُلمتُ فكدتُ أبكي   من الظلم المبيّت، بل بكيتُ!

ووقف صارخًا:

- إنّما نحن عدم! فلمَ تَعِظُ العدمَ؟ من نحن في جنب كبريائه؟ ومن نحن حتّى يعذّبنا سبحانه؟

وسكت قليلًا، ثمّ صفّق:

- أتخشَوْنَ عذابَ الآخرة؟ أنتم حمقى! إنّ العذاب مشتقٌّ من العذوبة!

وخرج الدّرويش راكضًا يصفّق ويغنّي. وسادَ صمتٌ في أطراف الغرفة، ودخلت رياحٌ باردةٌ من النّوافذ المفتوحة حاملةً عبقَ نَيسابور غِبَّ المطر. صمتت الحجرة الواسعة حتّى رفع درويشٌ قصيرٌ أشْيَبُ رأسَه:

- أيّها الشّيخ، ما قولك في هذا وأمثاله. إنّهم يرمون علينا عباراتٍ هائلةً تدلّ على خلاف الشّريعة لكنّهم يتأوّلونها. ويملؤون أسماعَنا بكلامٍ خلّابٍ عن عشق الله، وغرق النّاس في الرسوم والعبادات. فما الحقيقة في هذا؟

تعرّقت جبهة الغزاليّ رغم الجوّ البارد، وفرك يديه:

- إنّ صرف ألفاظ الشّرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمورٍ باطنةٍ كدأب الباطنيّة في التأويلات أمرٌ حرامٌ وضررُه عظيم. فإنّ الألفاظ إذا صُرفتْ عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصامٍ فيه بنقلٍ عن صاحب الشّرع، ومن غير ضرورةٍ تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلّى الله عليه وسلّم. إنّ باطن الألفاظ لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطرُ ويمكن تنزيلُه على وجوهٍ شتّى، وهذا أيضًا من البدع الشّائعة العظيمة الضّرر، وإنّما قصد أصحابها الإغراب لأنّ النفوس مائلةٌ إلى الغريب ومستلذّةٌ له بالطبع. وبهذا الطّريق توصَّل الباطنيّة إلى هدم جميع الشّريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما

حكيناه من مذاهبهم في كتاب المستظهر المصنّف في الردّ على الباطنيّة.

هنا تحرّك ميرزا، وقال:

- قاتل الله الباطنيّة! وماذا عن الشّطح؟

- وأمّا الشّطح فيعني صنفَين من الكلام أحدثه بعض الصّوفيّة. أحدهما الدعاوي الطّويلة العريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المُغني عن الأعمال الظاهرة حتّى ينتهي قومٌ إلى دعوى الاتّحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب. فيقولون قيل لنا كذا، وقلنا كذا، ويتشبّهون فيه بالحسين بن منصور الحلّاج الّذي صُلبَ لأجل إطلاقه كلماتٍ من هذا الجنس. ويستشهدون بقوله «أنا الحقّ». وهذا فنٌّ من الكلام عظيمُ الضّرر على العوامّ حتّى ترك جماعةٌ من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوي. فإنّ هذا الكلام يستلذّه الطبع، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم.

كان قيّم الخان منصتًا ينكت بعود في الفراش فرفع رأسه:

- إذن، ما الحكم الشّرعي في هؤلاء الّذين يُبطلون دلالة الألفاظ، ويصبح الاحتجاج بظاهر التنزيل معهم مستحيلًا لإحالتهم كلّ شيءٍ على تأويل الألفاظ؟

تنفّس الغزاليّ الصّعداء:

- هذا ممّا قد استطارَ في البلاد شرره، وعَظُمَ في العوامّ ضرره، ولا أرى إلّا أنَّ قتل من ينشره أفضل في دين الله من إحياء عشرة أنفس.

وسرت غمغمات في جنبات المجلس، وتظاهر ميرزا بعدم الاهتمام منشغلًا بلفّ عمامته. فقد طال المجلسُ، وشعر الغزاليّ بخدرٍ في رجله،

واقترب وقتُ صلاة المغرب، فاستأذن، ووقف مُتّجهًا إلى الباب، فتبعه ميرزا مُسرعًا.

تجاوزا باب الخانقاه، وانطلق الغزاليّ يسأل ميرزا عن حاله وعن أسباب تركه لدمشق. فطفق يجيبه بجزءٍ من عقله، بينما كان قلبُه يخفق خفقانًا مفكّرًا في كلامه قبل قليل عن الباطنيّة، وكيف سيرسل به رسالةً أو يوصله إلى مسؤوليه في التنظيم. وأفاق على الغزاليّ يقول:

- الحمد لله..

ودّعه وعاد إلى الخانقاه وهو يفكّر في اجتماعه القادم مع أعضاء التنظيم في نيسابور.

92

نيسابور، عاشوراء، 500 هـ.

خرج الرّجل الأحمر ذو المرقّعة الرماديّة من خان الطاووس متوتّرًا. ملأ عَينَيه العميقتَين من ساحة الطاق، وتفقّد خنجره، ومشى مع الشّوارع حذرًا. تجاوز مخبزَ محمود الفرّان ولفّ يسارًا مع سكّة معقل. مشى نصف ساعة، ثمّ وصل إلى القصر الأحمر الواقع غرب نيسابور. تقدّم متخاذلًا في مشيته، منكّسًا رأسه جهة الباب. كان يتمتم:

- لا إله إلا الله! لديّ مظلمةٌ لا يرفعها إلّا سيّدي الوزير فخر الملك..

تلقّاه الجنديّ القصير معدّلًا خوذته على رأسه:

- ابتعد أيّها الدّرويش، فالوزير غير موجود!

ارتفع صوت الدّرويش، فهو يعرف يقينًا أنّ الوزير موجود، فقد وصلته وريقةٌ قبيل خروجه من الخان تؤكّد وجوده في منزله. رفع الدّرويش صوته:

- إذا احتجب أهل الخير عن أهل المظالم فكيف يرتفع الظلم؟

في هذه اللّحظة دخل الوزيرُ بهوَ مجلسه المجاور لمدخل القصر، كان صائمًا يتفقّد مجلسه الواسع مُفكّرًا في الوجهاء الّذين سيفطرون عنده، فسمع ارتفاع الأصوات عند الباب. أنصت، فسمع حرّاسَه يطردون المتظلّم، وهو يصرخ بحرقة:

- ذهبَ المسلمون! ما بقي من يكشف ظُلامةً، ولا من يأخذ لضعيف حقًّا، ولا من يفرج عن ملهوفٍ كربة!

وقعت الكلماتُ وقعًا قويًّا في قلب الوزير فركضَ مقتربًا من الباب:

- دعوه! أدنوه منّي! فقد عمِل كلامه في قلبي!

وفتح الجنديّ القصير ذو الملابس الحمراء للدرويش الّذي اقترب متماوتًا متلهّفًا من الوزير. تأمّله الوزير:

- أهلًا وسهلًا، ما مظلمتك؟

ومدّ الدّرويش يده برُقعة، فأدخل الوزير يدَه في جيبه، وأخرج زجاجة قراءته، وانطلق يقرأ. وما إن شرع في القراءة حتّى استلّ الدّرويش خنجرًا بحركةٍ واحدةٍ من وراء ظهره وضربه في صدره ممّا يلي القلب.

ارتفع الصّراخ، وسقط الوزير، وتسابقَ الجنود راكضين، وسُمعت ولولةُ النّساء من داخل البيت. سرى خبر مقتل الوزير غيلةً على أيدي الباطنيّة في كلّ زاوية من زوايا نيسابور، والتحفت المدينةُ تلك اللّيلة لحافًا أسودَ حالكًا من القصص والتكهّنات والخوف.

في الصباح التالي هبّت رياحٌ قويّةٌ في حنايا نَيسابور نشرت شعورًا مفعمًا بالخوف والترقّب والتوتّر. كان ميرزا يسير وسطَ ساحة الطاق مُتّجهًا إلى الخانقاه رفقةَ أحد الدراويش. بدتْ له رؤوس البنايات، وزوايَا الشّوارع منذرةً بخطبٍ مستطير. فمنذ أسابيع والعمائم تتهامس في زوايا المدراس هلعًا، والنّساء يتحدّثن في خدورهنّ متلفّتاتٍ خوفًا.

تركا مخبز محمود عن يمينهما وظهر مدخل خان الطاووس مليئًا بالعابرين، وتلفّت ميرزا يسارًا فلمح الشّجرة الباسقة أمام مَكْتَبَةِ البَيْهَقِيّ، فقال لرفيقه هامسًا:

- لقد استفحلَ أمر الباطنيّة! أصبح معظمُ الأئمة الّذين يخطبون عن الباطنيّة لا يخرجون إلّا لابسين دروعًا.

فقال الدّرويش بتوتّر:

- منذ حاصر السّلطان محمّد قلعةَ شاه دز، وقتَل ابنَ عطاش وأصحابَه زادت اغتيالاتُ العلماء والأمراء، وزاد حسن الصبّاح من إرسال رُسُل الموت إلى أطراف خراسان.

وخطر لميرزا أنّ رفيقَه قد يكون جاسوسًا. فقد كُشف عشراتُ الجواسيس، وظهرتْ باطنيّةُ أقوامٍ كان السّلطان يُعدّهم لحرب الباطنيّة، واستيقظَ على صوت رفيقه:

- لقد وصل الوزير المرحوم فخر الملك قبل أسبوع للتّفتيش عن الباطنيّة في نيسابور وهاهم قتلوه!

وتلفّت ميرزا وهما يعبران ساحة الطاق داخلين الزّقاق المؤدّي إلى خانقاه النّظاميّة، وقال:

- إنّما جاء الوزير رحمه الله لإيقاف الفتنةِ بين الحنفيّة والشّافعيّة!

وصمت ميرزا بعد أن شرد ذهنه مُفكّرًا في لقائه اليوم مع رفاقه عند حسن الحدّاد.واقتربا من باب الخانقاه، فضرب ميرزا البابَ، وانفتحت فُتحته، وظهرت عمامة البوّاب وهو يقول:

- أهلًا!

كان الخانقاه غاصًّا بالدراويش العائدين توًّا من جنازة الوزير، والغزاليّ يتوسّط المجلس واعظًا ومدرّسًا. لم يدخل ميرزا مجلس الوعظ، بل جلسَ مرهقًا على عتبة حجرة رفاقه مُتأمّلًا الدراويش المتجمّعين بين يدي الغزاليّ.

تثاءب واضعًا ظهر كفّه اليسرى على فيه مُتسائلًا: *أيستطيع الإنسان اللّحاقَ بمقامات الصّدّيقين من آل البيت بالحبّ والولاء فحسب؟ أم لا بدّ من العبادة كما يزعم هؤلاء؟ لم لا؟ وتذكّر أنّه يخِفُّ للعمل وكلّ ما يكلّف به. ألا يكفيني أنّي تمحّضتُ لخدمة آل البيت ولنصر الدعوة؟*

تناوشته الخواطر وهو جالس على عتبة الحجرة لامحًا أربعة دراويش في طرف الخانقاه يغسلون ملابسهم. ولمح طيورًا نازلةً على أغصان شجرة الليمون وسط الخانقاه. انتابه ضيقٌ وهو يتذكّر درسَ الغزاليّ أمس قبل مقتل الوزير، وذلك الدّرويش الّذي سأل سؤالًا مريبًا. سأل الدّرويش عن إثمِ مَن أعان الباطنيّة على المسلمين، وعن توبة الجاسوس هل تقبل؟ هل علِم من أنا؟ هل وراء سؤاله أمر؟

وتظاهر بالذهاب إلى الكنيف، ثمّ خرج من الباب.

بعد ساعةٍ كان يدخل مختبأً في طرف سوق الأغنام. نزل الدرج الّذي قاده إلى غرف متراصّة، ثمّ طرق الباب:

- من؟

- نجوى..

وانفح الباب، ودخل متوتّرًا. ولاحت له وجوه الرجال الجالسين في الغرفة الضيّقة. فجلسَ وهو يشعر باختناق. فمنذ بدأ التضييق على الباطنيّة أصبحت أماكن الاجتماعات ضيّقةً وغير ملائمة. وانتظر ساعةً حتّى اكتمل حضور الجميع، وجاء صوت الرجل القصير الأكشف:

- ما جديد الناس؟

وتحرّك الرجل الأبيض الجالسُ عن يمين ميرزا:

- كلّ الحديث عن قتل الوزير!

مسح القصيرُ الأكشف هامته بيده:

- غير ذلك.

واصل الرجل الأبيض النحيف:

- قاضي القضاة طرد كاتبَه بعد خصامٍ بينهما، وإمام الجامع المنيعيّ في خصومةٍ مع بعض شيوخ النظاميّة.

ثمّ وصل الدور إلى ميرزا فقال:

- الغزاليّ تحدّث اليوم عن الدعوة وأهلها. والظاهر أنّه..

وتحرّك القصير الأكشف:

- ماذا قال عنها؟

واعتدلَ ميرزا في جلسته، ونقل كلّ حرفٍ نطقه الغزاليّ عن الباطنيّة. وبعد ساعةٍ خُتمت الجلسة، ووقف القصير الأكشف، وسأل شابًّا واقفًا قرب الباب:

- كلّ النواميس مرعيّة؟

صعد الشابّ مع السلّم، ثمّ عاد وحرّك رأسه بالإيجاب. وخرج الرجال فرادى متحفّظين.

وفي صبيحة اليوم التالي كانت حمامةٌ بيضاء تجوبُ الفيافي شرقَ نيسابور وتحت جناحها وُرَيْقَةٌ صغيرةٌ تتحدّث عن تأليب الغزاليّ للناس على الدعوة الإسماعيليّة.

93

نيسابور، 500 هـ.

كانت العمائم البيضاء تلمع تحت شمس الضّحى المتلألئة، والشّارع الممتدّ من النّظاميّة إلى ساحة الطاق يكتظّ بمئات الطلاّب. تلفّت شابٌّ يحمل كتبًا وأوراقًا إلى زميله الواقف قربه:

- لئن رحل فقد ملأتُ هذه الكراريس من علمه!

كانت الجموع تتقدّم مشيّعةً الإمام الغزاليّ وهو يخرج من نيسابور. كان يتقدّمها على بغلةٍ شهباء يحيط به ميرزا وعشرةٌ من طلّابه. عبروا ساحة الطاق وسط الزحام، وانطلقوا نازلين مع سكّة معقل قاصدين باب نَيسابور الجنوبيّ. أخرجت امرأةٌ منتقبةٌ رأسَها من عِليّةِ منزلها ورمتْ الورود على الموكب. ولم تمض دقائق حتّى كان الشّارع ممتلئًا بالأزهار والرياحين المنثورة على موكب الإمام.

تقدّم الغزاليّ الموكبَ، ومرقّعتُه مغطاةٌ بالزهور والرياحين، ولسانه لا يكفّ عن التكرار في سرّه:

- اللهم اغفر لي ما لا يعلمون واجعلني فوق ما يظنّون!

لكنّ الموكب كلّما ابتعدَ قلَّ السّائرون وراءه. ولم تمض ساعةٌ حتّى كان الغزاليّ خارج المدينة يسير في طرف القافلة ليس معَه غير طلّابه العشرة وميرزا وجاريته. في هذه اللحظات كان دليل القافلة يفكّر في المنزل القادم لقافلته. فقد خطّط للنزول في ملتقى القوافل عند جبل الضّبّ، حيث تستريح القوافل الآتية من الجهات الأربع في خراسان وحيث الماء.

تهادت الإبلُ الموقرة، وفاحت رائحةُ الأعشاب البرّيّة. واستيقظت فجأةً في ذهن الغزالّي رحلة حياته، وتشابكت المشاعر والذّكريات في فؤاده. أرخى طيلسانه على جبهته وشعر بتعرّقٍ وهو يفكّر. فها هو يغادر نَيسابور بعد التدريس فيها مرّةً ثانية، وتذكّر شيخَه الجوينيَّ وكيف كان يملأ نَيسابور بل خراسان كلّها، وها هو اليوم نسيٌّ منسيٌّ تمشي الأغنام على قبره في أطراف نيسابور.

شخصت في ذهنه صورة يوم وفاة الجويني. استعاد كيف قام مئات الطلّاب بكسر أقلامهم، وحسْر رؤوسهم حولًا كاملًا حزنًا عليه وتعظيمًا لذكراه. وتذكّر شيخه أبا عليّ الفارمذيّ. ذلك الرّجل الّذي لا يتنفّس إلّا بالذّكر، ولا يملّ من الحديث عن أمراض القلوب ودوائها. قارن حالَه بحاله، ثمّ قارنه بحال الجوينيّ. كان الجوينيّ يتدفّق علمًا، لكنّه لم يكن مشغولًا بأدواء القلوب. وكان الفارمذي مهمومًا بأدواء القلوب غير عابئٍ بتشقيقات الفقه وخلاصات المنطق. *هل وُفّقتُ في الجمع بين حياة الشّيخين؟ هل وفّقني الله لجمع ميراث الجوينيّ مع ميراث الفارمذيّ بعد كلّ هذه الرحلة؟ وهل هداني الله لتحقيق ذلك المسعى الشّريف: عقدِ مصالحةٍ في علوم الدين بين الكلام والفقه، وبين المحمود من المنطق والفلسفة، والمأثور من الحديث؟*

تناوشتْه الأفكار وهو ينظر بين أذنيْ بَغْلَتِه الشّهباء، فتثاءب رهَقًا، وتلفّت فرأى الدّرويش الأفحج أقرب تلاميذه منه فتبسّم له، كما لمح ميرزا يقود بغلته بجاريته. وارتفع صوت الحادي يغنّي شعرًا فارسيًّا شجيًّا. مدَّ بصرَه، فلاح له سرب حمامٍ يتّجه شمالًا، وامتلأ أنفه برائحة الغبار وبَنَّةِ الإبل، وضجَّ سمعُه بوقع أخفاف الإبل وحوافر البغال على الأرض الصلبة، بينما سافر خيالُه مُتمليًا لحظةَ وصوله إلى الطابران ولقائه بخَلُوب وبنتيْه وأخيه أحمد.

وفي مساء ذلك اليوم نزلت القافلة في سهلٍ ممتدٍّ بين جبلٍ وغابةٍ عند جبل الضّبّ. انطلق رُغاء الإبل، ونداءات الرّجال، وهمسات النّساء والجواري، وتفرّق المسافرون يجمعون الحطبَ للطبخ. وتحوّلت القافلة إلى قريةٍ منثورةٍ في الفضاء بلا غطاء. وأشعلت النيران، وانتشرت رائحة الطّعام والعطور وفضلات الأنعام.

ووقف الغزاليّ قربَ شجرةٍ ضخمة يصلّي، وعاهدَ الله ألّا يخرج من بيته هذه المرّة إلّا إلى قبره.

94

الطابران، 501 هـ.

انحسر الظلّ الممدودُ غرب المسجد، لكنّ الغزاليّ ما زال جالِسًا وظهرُه إلى الجدار متحدّثًا مع الشيخ الجالس عن يمينه. يتهامسَان مرّة، ويضحكان أخرى، ويبكيان أَحايِين. تهامس الدراويش في جنبات الخانقاه مستغربين اهتمام الغزاليّ بضيفه الغريب، فهم لم يروه قطّ خارجًا لاستقبال قافلةٍ قبل القافلة الّتي أتت بالضّيف الغريب. ولا رَأَوْهُ يحادث إنسانًا ساعاتٍ قبل هذا الشّيخ الأصلع الهرم. كان كلّ درويش يسائل صاحبه عنه.

اقترب الدّرويش الأفحج من الغزاليّ وضيفه فأشار إليه بالابتعاد، فانكفأ يحكُّ رقبته بسبّابته. استدار الغزاليّ، ورفع عَينَيه في وجه الشّيخ الأصلع الّذي خُيّل إليه أنّه لم يهرم بعده. فأسنانُه ما زالت في أماكنها قويّةً صفراء، وحاجباه الكثّان معقوفان فوق عَينَيه كما هما، وقال:

- عندما عدتُ إلى بغداد عام تسعين لم أجدك، أين كنت؟

لم يلتفت الأصلع. بل ظلّ محدّدًا نظره إلى القطّة البيضاء الآتية من حجرة الطّعام:

- كنت في الريّ. أنت تعلم أنّي لا أكاد أجلس في مكانٍ واحدٍ عامَين متتابعين، فالمكوث في المدينة الواحدة دهرًا طويلًا يُشعر المرء بالاستقرار الكاذب في هذه الدّنيا .

- وكيف الريّ؟

- بلدةٌ طيّبةٌ وربٌّ غفور!

وسكت الشّيخ الأصلع مبعدًا رأسَه عن الجدار، وجثَا على ركبتيه، ومدّ يده إلى القطّة:

- تي تيتي!

واقتربت فمدّ إليها إصبعه، ففتحت فاها. أمرّ يده على رأسها وظهرها فاستلقتْ على ظهرها، وانطلق يداعبها، ثمّ قال بنبرةٍ لا مبالية:

- طيّب، إلى متى رهبنة النّصارى هذه أيّها الشّيخ؟

خفق قلب الغزاليّ شاكًّا في ما سمع:

- ماذا؟

- أتظنّ أنّك مثلي؟ وأنّ المطلوب من أمثالي وأمثال هؤلاء الدراويش مطلوبٌ منك؟

- ماذا تعني؟

أرجع الأصلع يدَه، ودفعَ القطّة بهدوءٍ ملتفتًا للغزالي مقطّبًا جبينه:

- أنت تعلم أنّ لكلّ قومٍ ضربًا من العبادة، وأنّ لكلّ زمانٍ شكلًا من الدين. فالله تعالى لا يحاسب الطّبيبَ كما يحاسب الفلّاح، ولا يريد عبادة العالم أن تكون كعبادة الجارية الغريرة في خدرها!

- طيّب!

- ما هذا الجلوس في الخانقاه؟ وما هذا الانشغال بالنفس عن أمّة محمّد؟ أتظنّ الحديث عن أمراض القلوب كافيًا؟ وتحسب السكوت عن الشّيوخ الّذين يسلقونك بألسنة حداد ورعًا؟

واحمرّت وجنتا الغزاليّ مُفكّرًا في أنّه لا يسمع مثل هذا الكلام إلّا من هذا الرّجل الهرم الجوّال. وقعت كلماته في أعماق قلبه، فرفع يدَه، ولمس طرفَ جبهته منصتًا.

تراجع الأصلع إلى الجدار، وأسند رأسه:

- ألم تعلم أنّ أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم تدْمى من الصين إلى بحر الظلمات؟ وأنّ بيت المقدس بأيدي النّصارى؟ وأنّ أمراء المسلمين يتناحرون؟ أتظنّ عبادتك ستُقبل منكَ وأنت مُعرضٌ عن كلّ هذا ولا تتحدّث في خطبك إلّا عن القلب وأمراضه؟

وصمت الشّيخ الأصلع، وسكتَ الغزاليّ مُتأمّلًا حاجبَيْه الكثّين وعَينَيه الزائغتين، وانطلق صوتُ درويشٍ يذكر الله وسط حجرات الخانقاه، فقال الغزاليّ بلهجةٍ مرهقة:

- لكنّي أرى أنّ واجبَ الوقت إحياءُ علوم الدين أوّلًا، وإيقاظ العلماء على أمراض القلوب، وتنبيههم إلى انحرافهم وهم أطبّاء الأمّة المرضى. ثمّ ألمْ تكن أنت من شجّعني على هذا الطّريق، وأغراني بترك التدريس وتعليم النّاس، ومجالسة السّلاطين؟

وقفَ الشّيخ الأصلع فجأة، ثمّ عاد وجلس، فاشرأبّت عيون الدراويش من الحجرات ناظرةً إليه بتطلّع وفُضُول. ثمّ قال هامسًا:

- لكلّ وقتٍ فرض، ولكلّ مقامٍ حال، ولكلّ زمانٍ ثمار، ولكلّ وترٍ رنّة. كان فرضك يومَها أن تَخرج من الدّنيا لتجد قلبك، وتجدّدَ إيمانك. أمّا اليوم فواجب الوقت أن تفيد الأمّةَ بما وجدتَ، وتعلّمها ما تعلّمتَ! لا أن تدير لها ظهرك راهبًا منشغلًا بنفسك!

- لكن، أليس الواجب انشغال المرء بنفسه؟

سكت الأصلع مُحمْلِقا في الغزاليّ، محرّكًا حاجبيه، ثمّ قال:

- أتظنّ الانشغالَ بالنفس ذِروةُ الدين؟ لو كان الأمر كذلك لما عاد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من الإسراء، ولما خرج من غار حراء، ولما خرج من المدينة بعد بنائه المسجد. لكنّه لم يجلس فيها قطّ عامًا كاملًا منذ دخلها. بل كان في غزوٍ دائم ودعوةٍ لا تنقطع وكَبَدٍ

متواصل. ولو كان الرأي رأيَك لما مات أكثر صحابته خارج جزيرة العرب، وتركوا الاعتكافَ في الحرمين؟

وارتفع صوتُ الأصلع، فازدادت الرّؤوس المُطِلَّة فضولًا مِنْ حُجُرَات الخانقاه. وظهر ميرزا مارًّا وسطَ الباحة مُتظاهرًا بجلب الماء ليسمع طرفًا من الحديث. وظلّ الغزاليّ منصتًا. وظهرت عمامةٌ قادمةٌ من باب الخانقاه. وما إن اقترب حتّى اتّضحَ أنّه أبو القاسم، أشهر ورّاقٍ في الطابران، فقد حان موعدُ نسخه لكتابيْ «المستصفى» و«فيصل التفرقة» بعد تنقيحهما ونفاد نسخهما في أسواق خراسان. وقف الغزاليّ مُسرعًا حتّى سقط طيلسانه وتلقّى الورّاق، وهمس في أذنه:

- هلّا عدتَ وقتًا آخر، فعندي ضيف!

ورجع التّاجر مُتصنّعًا الابتسامة، وعاد الغزاليّ إلى مجلسه وعيون الدراويش ترمقه باستغراب. وما كاد يبلغ مجلسه حتّى واصل الأصلع:

- أين قبور المبشَّرين بالجنة؟ وكيف ماتوا؟ لقد تلطّخ الفاروق بدمه على يد أبي لؤلؤة وجيوشه على أطراف الأرض، وضُرب عليّ فجرًا وهو في العراق، وناجز سعدٌ الفُرسَ وأبادَ ملك يزدجرد، ودُفن أبو عبيدة وبلال في الشام!

وصمت الأصلع، وضمَّ عليه جبّته، ورفع يدَه ومسحَ حُصيّاتٍ كانت عالقةً بجبهته من آخر صلاة صلّاها. وسكت الغزاليّ، وصمت الخانقاه كلّه متسمّعًا لهذا الضّيف الغريب الّذي يتحدّث مع دانشمند بهذه الحدّة. ثمّ رفع الغزاليّ وجهه، وقال مغيّرًا مجرى الكلام:

- قلتَ إنّك لن تُمتّعنا بنفسك؟ لمَ لا تجلس معنا شهرًا؟

- لا، أيّها الشّيخ! سأعود هذه الأيّام إلى وكْري، فلعلّ الأجل قد اقترب.

وبعد ثلاثة أيّامٍ كان الغزاليّ وتلامذته مجتمعين عند الباب الشّرقي للخانقاه. وخرج الشّيخ الأصلع مُتّجهًا من أسوار الطابران للّحاق بقافلة الخميس. وفي صباح اليوم التالي اعتلى الغزاليّ منبر الجمعة. وتفاجأ الدراويش المتحلّقون في مسجده بخطبته، فقد تحدّث عن الجهاد، ووجوب توجّه الشّباب القادرين إلى الشّام لإخراج الفرنجة منها.

وبعد الصّلاة دخل الإمام بيته، ودعا ميرزا للحضور.

دخل ميرزا إلى بيت الإمام، فلفحته رائحة الزعفران المُغلّى. وخلالَ ثوانٍ دخل الإمام حاسرَ الرّأس حاملًا صينيّةً عليها كأسان من الماء المغلّى مع الزعفران، وقال:

- كيف حالك؟ لقد أصبحت طبرانيًّا!

وتبسّم ميرزا:

- نعم، لقد أصبحت!

واحتسى الغزاليّ حسوةً بصوتٍ مسموعٍ من الكأس الّتي في يده، وقال:

- هلّا رويت لي كيفيّة دخول الفرنجة إلى القدس. فقد سمعتُ هذا الأمر من ناسٍ كثر، لكنّي ما تقصّيتُه ولا سمعته من الثقات. فلعلّ أخبارًا وصلتك لم تصلني، وقد قيل لي إنّك رافقتَ قافلةً آتية من القدس.

رفع ميرزا رأسه، ثمّ قال:

- لقد دخلوها وقتلوا كلّ من رَأَوْا حتّى النساء والأطفال والعباد. وقد أخبرني من رأى بأمّ عينيه كيف قتلوا ألفَ امرأةٍ مع شيخةٍ يسمّونها الشّيخة الشّيرازية. فقد...

- ااااااا

صمت ميرزا منتبهًا إلى صوت المفاجأة الّذي خرج من فم الإمام. رفع عينيه في وجهه، فوجدَ يده في الهواء تختلج:

- ماذا؟

- نعم، لقد قتلوا ألف امرأة..

- وماذا عن الشّيخة؟

- نعم، كانت مع تلميذاتها... لقد دخلنَ المسجد معتصماتٍ بحرمته، فدخل الفرنجة وحصدوهنّ بالسّيوف.

رفع الإمام يده ووضعها تحت ذقنه متخيّلًا قتل الشّيرازية وتلميذاتها. تخيّلها في آخر صورةٍ رآها فيها تحت الشّجرة أمام الخانقاه على الجبل. شعر ببخارٍ يصّاعد من معدته، وألمٍ حادٍّ في قلبه.

- ثمّ ماذا؟

وانطلق ميرزا واصفًا الرّؤوس المتناثرة، وصرخات النّساء، ورائحة الدم، واستغاثات الأطفال يوم دخول الفرنجة إلى بيت المقدس. ظلّ الغزاليّ مُنصتًا ممتقع اللّون طويلًا.

ولم تفارق صورة الشيرازيّة ذهنه أيّامًا.

95

الطابران، 13 جمادى الآخرة، 505 هـ.

جلس تاجرُ الكتب ذو العمامة الطّويلة بحياءٍ وأدب. قلّبَ نظره في وجوه الدراويش الّتي تفترسُه منتظرًا دخولَ الغزاليّ. شعر ببردٍ قارسٍ وهو يضمّ عليه جبّتَه في طرف المجلس، ويمسح لحيتَه متلفّتًا. بعد هنيهات دخل الدّرويش الأفحج حاملًا مِدفأةً ووضعها وسط المجلس، وأخرج من جيبه لُبَانًا، وذرَّه على الجمر، ففاح البخور. وبعد هنيهاتٍ دخل الغزاليّ، فصرخ تاجر الكتب مفاجأةً:

- دانشمند! دانشمند!

ضمّ الغزاليّ طرفَ جبّته حتّى لا تلامس المدفأة مُشيرًا إلى التاجر بالجلوس. كان ذهن الغزاليّ مشغولًا برؤيا رآها قبل يومَين. لاحظ الدراويشُ انشغالَ قلبه إلى درجة عدم مصافحته الضّيفَ على خلاف عادته. تربّع وسط المجلس ماسِحًا وجهه بطرف طيلسانه الأسود، محرّكًا حدقتَيه في المجلس. عاد إليه ذهنه وهو يتأمّل التّاجر مُتذكّرًا آخرَ مرّةٍ زارَه فيها. كان معه غلمان وجَمَلٌ يحمل مائة نسخة من كتابه «المستصفى». وما كاد الغزاليّ يهمّ بفتح فيه حتّى قال التّاجر بنبرةِ جَشَع:

- حفظ الله الشّيخ ومتّع به! لقد علمتُ أنّكم ألّفتم كتاب «إلجام العوامّ عن علم الكلام» وها قد جئتُ ملتمسًا منكم نسخه.

وابتسم التّاجر ابتسامةً متلهّفة، وأشار بيده إلى الباب:

- نُسّاخي جالسون في المسجد، وبحمد الله تعالى لا ينقضي شهرٌ إلّا

تأتيني الرسائل من بغداد وبلخ ومرو سائلةً عن كتبكم الجديدة.

تبسّمَ الغزاليّ مداعبًا طرفَ لحيته بأنامله، مُتذكّرًا حديثَ خَلُوب البارحة. طلبتْ مالًا، فلمّا قال لها إنّه لا يملكه اقترحت عليه أخذَ المال مقابل السماح بنسخ كتبه. وتذكّر كيف نهرها مُتأثّمًا من بيع العلم.

أشار الغزاليّ إلى الدرويش الأفحج ذي الصلعة الملساء ليذهب ويأتي بكتابه. ركض الأفحج وبعد دقائق عاد إلى المجلس لاهثًا. أمسكَ الغزاليّ الكتاب ووضعه بين يديه وتنفّس:

- الكتاب ستأخذه بلا معاوضةٍ كما عوَّدناك. لكنّا نُذكّر بشروطنا.

ثمّ رفع أصابعه معدّدًا:

- لا ينسخه إلّا أمين، ولا يُدَسُّ فيه ما ليسَ منه، ولا يُغالى في ثمنه.

حرّكَ التّاجر رأسه وقلبُه يخفق، متخيّلًا الأرباحَ الّتي سيجني من هذه الأوراق. وقبض الكتاب، وصبرَ قليلًا وهو يتحرّك في مكان جلوسه، ثمّ استأذن مُخلّفًا رائحةً عطرة. بَسْمَلَ الغزاليّ وبدأ الدرس، بينما خرج الأفحج إلى دار الخدمة الواقعة وسط الخانقاه.

دخلَ الأفحج مطبخَ الخانقاه، وانهمَكَ في العمل بكلّ حواسه. فهو منذ أسبوع يتحيّن هذا اليوم الّذي يكون فيه الغزاليّ غير صائم. رتّب الشّرابَ ومايزَ بين الأقداح والأكواز، وهو يتلفَّتُ يمينًا وشمالًا. ذهبَ إلى باب المطبخ وتأكّد من إغلاقه. وقف وأخرج صرّةً صغيرةً من بين ملابسه. فتحَها مُسرعًا ويداه تختلجان. أخرجَ منها مادّةً حمراء لزجةً، وصبَّها في كأس الليمون المملوء سكّرًا، ثمّ صرّها ودسَّها بين ملابسه.

غسل يديه بالأشنان، ونظّف أطرافَ الصينيّة، ورتّب عليها الكؤوس وحملَ الصينيّة وجبهته تتعرّق رغم الجوّ الشّاتي. دخل المجلس متهاديًا خائفًا مُنشِدًا شعرًا فارسيًّا، وضع الصينيّة وسط المجلس، ورفع عَينَيه

في عيني الغزاليّ مُفكّرًا في دقّة حدسه وصدق فراسته، فوجدَه مشغولًا بالحديث.

أخذ عصير اللّيمون، ومشَى وسط المجلس، وقعد عن يمين الغزاليّ، ثمّ مدّ إليه الكأس مبتسمًا:

- داشمند! هذا ملأتُه لك سكّرًا حتّى ترضى!

لم يقطع الغزاليّ حديثَه، بل حرّك رأسَه مُبتسِمًا، وبعد هنيهاتٍ رفع الكأسَ إلى فيه، وحسَا منه نغبةً، ثمّ واصل حديثه:

- والفطرةُ الإنسانيّة السليمةُ مُعدّةٌ للأيمان دون تحرير الأدلّة والتعمّق في العقليّات الدالة على الخالق. فلْيُوضعْ كلّ شيءٍ في موضعه كما أمر الله. فقد قال: «ادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهمْ بالّتي هي أحسن». فيُدعى إلى الإيمان بالحكمة قومٌ، ويدعى قومٌ آخرون بالموعظة الحسنة، ويدعى بالمجادلة والحجج العقليّة قوم غير هؤلاء.

ثمّ توقّف قليلًا، وأزاح طيلسانَه عن جبهته، وأمسك الكأس، وشربَ نصفها، ومدّ الباقي إلى ميرزا. حسرَ ميرزا لثامه عن وجهه وشرب، ثمّ وضع الكأس بينما كانت عينا الأفحج تفترسهما.

بعد دقائق شعر الغزاليّ بتعرّقٍ في جسمه، وتنمّلٍ في معدته، فاستأذن مُتّجهًا إلى بيته. تجاوز النّافورة والشّجرة الباسقة وسط الخانقاه وهو يستعيد تلك الرؤيا الّتي رأى قبل أيّام.

دخل منزلَه، وجلس في مكتبه مُفكّرًا في الرؤيا. كلّما مرّت ساعة انقذف في قلبه ذلك الشّعور الغريب بصدقها. تأمّل كتبه المرصوفة. لمح «المستصفى»، و«المنقذ من الضّلال». وعادت الرؤيا حيّةً ملحّةً على ذهنه.

ماذا سيبقى من هذه الكتب بعدي؟ هل سأكون تحت التراب وهذه الكتب معروضة في الأسواق؟ أيّ حسرة إذا كانت لم تؤلّف لله! وأيّ فوزٍ إذا قبلها الله منّي؟ وعادت الرؤيا واضحة صافية. رأى أباه واقفًا في سفح جبلٍ فاتحًا ذراعيه يناديه:

- تعال يا بنيّ! تعال قبل صلاة الجمعة!

وقف مُتّجهًا إلى النّافذة، فلمح الأفق. رأى شمسَ الضّحى تُظلّل الجدران، ولمحَ الحمّالين يجوبون شوارع الطابران. كان حائرًا في تحديد مشاعره. *هل أنا حزين؟* تفقّد قلبه فوجد ما فيه ليس حزنًا، بل رهبة، رهبة طاغية تلامس كلّ خلايا جسده وزوايا روحه.

عادَ إلى مكتبته وأخرج أوراقًا وكتب: «هذه وصيّة محمّد بن محمّد بن محمّد الغزاليّ...». أنهى الوصيّة ووضعها داخل كتاب «ميزان العمل». وتفاجأ عندما وضع القلم أنّ سبّابته ترتعد.

هل تخاف من لقاء ربّك؟ وتمتم مستغفرًا. وسمع انفتاح الباب فجأة، ودخلت عائشة راكضة ضاحكة، ووراءها القطّة البيضاء. حاولت عائشة إغلاق الباب دون القطّة، فنهرها:

- قلتُ لكِ يا بنيّتي إنّها تحزن وتفرح مثلك. أحسِنِي إليها.

وأخذت عائشة طعامًا وألقته للقطّة، ثمّ أخرجتها بهدوء.

دخل غرفتَه، وأخرج ملابس بيضاء كان أعدّها لهذا اليوم. وضعها تحت كمّه، ثمّ قال لعائشة:

- اذهبي إلى عمّك أحمد، وقولي له أن يأتيني. وبعد ذلك الْحقي بأمّك عند صديقتها مريم.

وخرجت عائشة دون أن تُحكم إغلاق الباب.

دخل غرفة كتبه وصلّى ركعتين وهو يشعر بعرقٍ وخفقانٍ متسارعٍ في

قلبه. رفع بصرَه في أطراف البيت الواسع الخالي. ثمّ أخرجَ الملابسَ البيضاء من تحت كمّه واستلقى، ثمّ وضعَها على صدره، وسرح ذهنه. خفقانٌ هائلٌ في القلب، وتنمّلٌ في الأطراف، وفتورٌ في كلّ ذرّةٍ من ذرّات بدنه.

مرّت آلاف الصور أمام عَينَيه في لمح البرق. رأى وجه الخليفة المستظهر لحظة تنصيبه، وسمع ضحكةَ نِظام المُلْك يوم دخوله عليه في أصفهان، ورأى ذلك الدّرويش الّذي لا يملّ من الصّلاة في جامع دمشق. ورأى نفسَه طفلًا يضرب يتيمًا أسمرَ في المدرسة. وظهرت له الشّيخة الشّيرازيّة أمام المسجد الأقصى ملوّحةً بيدها. غرق في الصور، ثمّ انشقّ سقفُ المنزل ونزلَ منه أربعةُ رجالٍ نورانيّين، فانطلق لسانه:

- مرحبًا بهذه الوجوه! وعليكم السّلام!

بدأ جسده يخدّر، وقلبه يخفق، وشعرَ بأنّه نصفُ نائمٍ ونصفُ يقظان. *هل حانت لحظة الآخرة؟ هل سيغفر الله لي تطاولي على النّاس؟ وعُجْبي بما أعطاني؟ وتفاخُري بعقلي؟*

في هذه اللّحظة دخلت القطّة البيضاء راكضةً تموء. جلستْ قُبالته، وبدأت تنظر إليه. تسارعت حركات حدقتَيها، ثمّ بدأت تدور في الحجرة وهي تموء مواءً مرتفعًا. علا صوتُ أنفاسه، وعلا مواؤها.

خرجت القطّة راكضة، ودارت وسط الخانقاه تموء. التفت إليها درويش، وزجرها، فركضت ومواؤُها يرتفع عائدة إلى حجرة الغزاليّ.

دخلت وأقعتْ على رجلَيها تنظر إليه صامتة. ظلّت واقفة مصوّبةً بصرَها إليه وصدرُه النّحيل يرتفع وينخفض. وفجأةً سكنت أنفاسه فقفزت وخرجت إلى ساحة الخانقاه تموء مُواءً منكرًا.

وفي المساء انتشرَ خبر وفاة الإمام، وهبّتْ عاصفةٌ قويّةٌ مظلمةٌ على الطابران، وأدخل النّساءُ أطفالَهنّ عن الشّوارع تشاؤمًا بتلك الرياح. ولم

يخرج غيرُ الدّرويش الأفحج متسلّلًا قاصدًا الدّارَ المهجورة شمال المدينة. وصل إلى الشّارع الضيّق المؤدّي إليها، ثمّ تلفّت، وصعد السُّلم. وصل إلى الغرفة الّتي فيها الحمام. نظر في أطرافها، ففهِم أنّ المسؤول عن الحمام كان هنا قبل ساعات. تخيّر الحمامة المطوّقة ذات النظرات الحذرة، فلمسَ ريشها مداعبًا، ثمّ أخرجها من القفص وذهب إلى طرف الدّار، وعقد وُريْقةً صغيرةً تحت جناحها الأيمن، ثمّ أرسلها في الهواء.

صدر للمؤلف

- حجر الأرض، 2021.
- الشيباني، 2019.
- الحدقي، 2018.
- في ضيافة كتائب القذافي، 2011.